1

سلسلة دراسات محكمة في اللغة والأدب والنقد
تصدر عن مؤسسة السياب للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة - لندن

التداولية
في البحث اللغوي والنقدي

تحرير
أ.د. بشرى البستاني

التداولية في البحث اللغوي والنقدي

سم الكتاب: التداوليـــة في البحث اللغوي والنقـــدي
سم المحرر: أ.د. بشــرى البستانـــي
سم الناشر: مؤسسة السياب (لندن)

ISBN: 978-1-906228-40-8
مؤسسة السياب للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة - لندن

الطبعة الأولى
٢٠١٢

Lower Teddington Road3
Kingston upon Thames
Surrey KT1 4ER
London – UK
www.sayyab.org
contact@sayyab.org

زعون المعتمدون

با:
خطوات للنشر والتوزيع - دمشق حرستا

:
بورصة الكتب
القاهرة ٢٥ ش شريف، وسط البلد
دار أجيال
القاهرة، ٥ ش المصانع: المهندسين
راق:
مؤسسة السياب - شارع المتنبي - بغداد

الهيئة الاستشارية

شروط النشر

- المواد المرسلة إلى السلسلة لا ترسل إلى أية جهة أخرى للنشر وإلا سنوقف – آسفين – التعامل مع أصحابها.
- على الباحث أن يتأكد من أن دراسته كاملة، مدققة لغوياً، خالية من الأخطاء الإملائية والنحوية، وعدم مخالفته لأي نظام للحماية الفكرية.
- يضع الباحث بعد اسم الدراسة (الاسم، المؤهل، الدرجة العلمية، جهة العمل ومقرها، البريد الإلكتروني)
- تكون العناوين الجانبية قصيرة ومحددة بوضوح وغير مرقمة. تكون الأشكال والخرائط والرسوم البيانية على درجة عالية من الجودة باللونين الأبيض والأسود مع تجنب التظليل.
- ترتيب البحوث وفق الآتي: (العنوان، مدخل، متن البحث، المصادر والمراجع).
- يتراوح حجم الدراسة بين (٥٠٠٠ – ١٠٠٠٠) كلمة مطبوعة باستخدام برنامج ميكروسوفت وورد، وبمسافة مفردة بين السطور، مع محاذاة الأسطر من اليمين واليسار وترك هوامش متسعة.
- توحد الهوامش والإحالات أسفل كل صفحة اعتماد الأصول العلمية المتعارف عليها في البحوث الأكاديمية، بما في ذلك المنهجية السليمة في التوثيق والإشارات فضلاً عن وضوح العبارة وسلامة اللغة.
- تعرض البحوث المقدمة للنشر على محكمين من ذوي الاختصاص وعلى مقومين لغويين، ولهيئة تحرير السلسلة حق إعادة المواد إلى أصحابها لغرض إجراء أي تعديل أو إعادة صياغة تقررها اللجنة المحكمة.
- تعبر الموضوعات المنشورة عن وجهة نظر كتابها، وليس بالضرورة أن تعبر عن وجهة نظر السلسلة.
- لهيئة السلسلة الاستشارية الحق في قبول أو رفض المواد المرسلة لغرض النشر، ولا تعاد المواد المرسلة سواء نشرت أم لم تنشر.

...ـل الأول

... مرجعيات .. ورؤى

الفصل الثاني

التداولية، مفاهيم، وآفاق

الفصل الثالث

مسارات الرؤى في التطبيق

تصدير

- ونحن نُدون آخر السُطور في مُنجزنا المعرفي هذا يسرني باسم مؤسسة الشباب للطباعة والنشر أنْ أكتب تصديراً لباكورة عمل سلسلة ((الآن))، وهي سلسلة لدراساتٍ مُختصة في اللغة والأدب والنقد، وتحديداً للكتاب الأول فيها ((التداولية في البحث اللغوي والنقدي)).

لقد جاءت فكرة سلسلة ((الآنْ)) لتكون مكملة لعمل مؤسسة الشباب للطباعة والنشر التي أخذت على عاتقها تبني الأعمال الثقافية والمعرفية الرّصينة، الأكاديمية منها وغير الاكاديمية، مُنطلقة من الإيمان بضرورة الإفادة من خبرة الثقافات المُتقدمة في العالم وهي تعتمد أسلوب السّلسلة لطرح اختلاف وجهات النّظر وتعدد زوايا الرؤيا داخل أطر الموضوع الواحد، مؤمنة بأنّ الجهد المعرفي الجماعي يُضفي على الموضوع المطروح غنى وثراء، ويفتح للبحث العلمي أبواباً جديدة لم تكن لتتوفر في البحث المُنفرد.

تأسست مؤسسة الشباب في العاصمة البريطانية لندن عام ٢٠٠٧ بدافع ثقافي معرفي وهي تنشر باللغتين العربية والإنكليزية. وفيما يخص الأعمال العربية فإن

المجال مفتوح لجميع المخطوطات من لغة وأدب وشعر ورواية ونقد ومسرح وتاريخ وغيرها من حقول الدِراسات الإنسانية. أمّا فيما يتعلق باللغة الانكليزية فقد تعمدنا ان نكون مختصين كي ننافس دور نشر بريطانية وأمريكية لما تتمتع به تلك الدُور من باع طويل في مجال النُشر. فتخصصنا بدراسات التُرجمة من العربية للإنكليزية وبالعكس فكانت لنا مجلة الشباب لدراسات الترجمة *STJ* وهي مجلة محكمة تضم في هيئتها الاستشارية أساتذة من خيرة المتخصصين في العالم وكذلك سلسلة دراسات في الترجمة *STSS* التي يرأسها أ. د. سعيد فايق ومعه فريق من الاساتذة المتخصصين. كما نشرنا حتى هذا العام أربعة كتب لاقت رواجاً في جامعات عالمية.

لقد أخذت المؤسسة على عاتقها ترجمة الأدب العربي بجميع أجناسه. القصة، والرواية، والشّعر وغيرها من الأجناس الأدبية التي كان يكتنفها الغموض في ذهن القارئ الأوربي فنشرنا خمسة كتب حتى هذا العام وهي أولاً: قصص عراقية معاصرة ترجمة علي المنّاع وعليا الربيعي، ثانياً: ليالي الشّيد سلمان للقاص كريم عبد، ترجمها ايرك وينكل، ثالثاً: عشر قصص عراقية ترجمها فرد براغنل ورمضان سدخان، رابعاً: رائحة الشّتاء لمحمود عبد الوهاب، ترجمها رمضان سدخان وفرد براغنل، خامساً: قصص قصيرة مغربية، ترجمها مايك هول وعلي المناع وفي طريقنا لترجمة قصص عربية وقصص سورية يعمل على ترجمتها كل من المترجمين مايكل هول، فرد براغنل، علي المناع، إلن كلارك. ولم ننس الطِّفل في زحمة العمل إذ كان للمؤسسة سلسلة في أدب الطفل ثنائي اللغة.

ولإيماننا بضرورة نشر ثقافة حرفية صناعة الكتاب في الوطن العربي فإن قرارات المؤسسة في قبول هذه المخطوطة أو رفض تلك لم تكن قرارات شخصية قائمة على العلاقات الخاصة أو الرّأي المنفرد، بل كانت مبنية على أسس معرفية من الاستشارة والتروي، إذ أسسنا مُنذ البداية هيئاتٍ استشارية في جميع الحقول، ولاسيما في ما يخصّ الأعمال الإبداعية.

شكري وتقديري لكل المشاركين في إنجاز كتاب التّداولية في هيئتيه العلمية والفنية. وأخص منهم الباحثين الذين كان لجهدهم الفضل في إنجاز عملنا البكر. والدّعوة مفتوحة لكل الباحثين العرب أينَما كانوا للمشاركة في تحرير كتابنا الثّاني الموسوم ((رواية ما بعد الحداثة. ما وراء السّرد)) والكتاب الثّالث الموسوم ((الترجمة وصراع الحضارات)) من اجل تشكيل جو علمي معرفي يفتح باباً للإبداع النّقدي والثّقافي الذي ما تزال الخيارات متاحة أمامه بالرُّغم من كل العقبات التي تعترض الابداع والمبدعين في الثُّقافة العربية وظروفها الرّاهنة. ومن الله التوفيق.

علـــي المنّـــاع

رئيــس مجلــس إدارة المؤسســة

مقدمة

التداولية من كينونة اللغة الصورية إلى آفاق التواصل

أ. د. بشرى البستاني

▪ الحمد لله الذي أشرقت بنوره الأرضُ وعلى الفقر ظلام، والصلاةُ والسلام على من فتح فضاء العلم للإنسانية من المهد إلى اللحد، مُشرعاً بابَ الأمل بدوام القدرة على استقبال المعرفة مادام في الإنسان نبضٌ يتوق، مبشراً بالتجدد الدائم والقدرة على الفتوحات السنية بمعارفها ولطائفها وكشوف لذتها الأبدية. كي يبقى هذا المخلوق المكرَّمُ بالاستخلاف على الأرض حاملاً أميناً للرسالة، جديراً بالأمانة من خلال تطويره الدائم لأدواته في الصيرورة والتحقق.

كانت اللغة وما تزال موضع اهتمام الباحثين مذ وعى الإنسان أهميتها في تشكيل مفردات حياته الخاصة والعامة، كونها الطريقة المثلى والأكثر إفصاحاً والأرقى درجة في سُلَّم العمليات الذهنية وفي تشكيل أي حدث تخاطبي قادر على إنجاز فعل يتّسم بكفاءة التواصل المطلوب. فقد شغلت اللغة الإنسان في أصلها وطبيعتها، أهي نظام ترميزي يشتغل على بنية صورية حسب؟ أم هي بنيةٌ ذاتُ طبيعة وظيفية لها علاقاتٌ وثيقة بجوانب الحياة المعرفية كافة. ذلك إن طبيعة اشتغال اللغة يُعَدُّ أمراً معقداً، كونه يعمل على تحويل المرجع أو الشيء المادي الى رمز لغوي، وتحويل المجرد من الفكر والمشاعر إلى ماديّ محسوس عبر الجمل أو الأصوات التي تحتوي ذلك الفكر وتلك المشاعر ملفوظة أو منطوقة، بالرغم من كونها غير قابلة للاختزال في منظومةٍ إشارية مهما كانت تلك المنظومة معبرة، ويجعل من التواصل بها يحتاج لمؤازرة غير اللغوي، مما يقع في حقل العمليات الاستدلالية التي يتطلبها الفهم. فالبحث عن المعنى لا يقتصر على الإنتاج والتأويل في البنية اللغوية المجردة كما فعلت البنيويات وما حولها من لسانيات حسب؛ لأن ذلك لن يتيحَ لعملية الفهم أن تستكملَ مداها إلا من خلال سياق تتضافر فيه عواملُ غيرُ لسانية وتلعب فيه استراتيجية المؤول ومن يخاطبهم دوراً في تحقيق هدف الحدث اللغوي الكامل، معتمدةً في ذلك على تفاعلٍ حيوي للمعارف المشتركة والظُّروف التي تكتنف المرسل والمخاطبين معاً من خلال دراسة مجمل الأحوال التي تتعلق بعملية الإنجاز اللغوية- السياقية والمقامية بكل ما تتضمنه مفردتا السياق والمقام من اشتباكاتٍ زمانية ومكانية ونفسية وأيديولوجية – إنتاجاً وتلقياً - ومن ظروف خاصة وعامة يمكن لها أن تحيطَ بعملية التواصل. على أنَّ ما تقوم به اللغة في عملية تحويل المرجعيات إلى شبكة علاقات لغوية هو من أعقد العمليات الذهنية التي تجري في خلايا العقل الانساني، وهي عمليةٌ لم يتمكن المختبرُ التشريحي ولا النفسي ولا النقدي التحليلي من فك كنهِ أسرارها، ولذلك كان هذا السر وسيبقى لمدىً بعيدٍ مدارَ بحث ومحاولات تفسير وتأويل.

إنَّ تعريف ابن جني للغة أنها أصوات يُعبر بها كل قوم عن أغراضهم و حاجاتهم، يُدخل اللغة باعتقادنا في صميم العملية التواصلية، فالتعبير لا ينبع من فراغ، ومفردة القوم تؤشر الدائرةَ الواسعة التي يجري بها الحدثُ اللغوي، والمشاركة الفاعلة التي تتم من خلالها، ومفردةُ أغراضهم توحي بأهمية ما يجري وتشعُّبه وسعةِ حقوله ومضامينه، كونه يشملُ الحياةَ بكل فعالياتها ووقائعها وأحداثها، ومهما تحدَّثنا عن

ذكاء ابن جني في طروحاته اللغوية والصوتية ودقتها إلا أن ما طرحه من قضايا وإن كانت موضعَ اهتمام القدماء لكنها لم تنَلْ من البحث اللغوي العربي الحديث ما يضعها في إطارها المهمّ من التأسيس الموضوعي لما جرى من تطورٍ في الدرس اللغوي الغربي المعاصر وما كان يجب أن يُصارَ إلى التأسيس عليه واستكمال ما جاء به اللغويون العربُ والنقادُ الذين درسوا مقاصدَ الأدب وجمالياته في تراثنا القديم تحليلاً واستقصاءً، شأننا في ذلك شأن حقولنا المعرفية والحياتية الأخرى التي لم نؤسسْ فيها على بؤر تراثنا أكثر الأحيان، بل انصرفْنا للأخذ من الغرب مباشرةً منقطعين عن معارفنا وما فيها، وعبوراً لمراحل زمنية قد لا يجوز القفزُ عليها إلا لضرورات إجرائية. يأتي هيدجر ليمنحَ اللغة الإنسانيةَ مرةً أخرى ما تستحق من اهتمام إذ يؤكد أن اللغة بيتُ الوجود، حاويتُه ومستوعبة أحاسيس ناسه ومشاعرهم، وانشغالات حياتهم وإيمانهم وزمنهم القاهر المتجبر الذي يلفُّ كلَّ شيء بمعطفه الخرافي ماضياً نحو الأمام، منسرباً ومغيّباً كل شيء، إنها اللغة مرة أخرى تتربع على عرش البحث متمكنةً من الخلود والتخليد، فهي وحدها التي تمكنت من احتواء الزمن والحياة إذاً، بأنوثتها المقتدرة التي كثرت في دراستها النظريات واختلفت الفلسفات. لكنها ظلت وستظلُّ فاتحةً أبوابها المشرعة على كلِّ قولٍ جديد، وكلُّ جديد فيها سيؤول إلى قديم حين يقتحمه الرأيُ الآخر. إن الاهتمام الذي أولتْهُ النظرياتُ اللغوية المجردة والمناهج النصية للغة حين سجنت النصوص داخل حدودِ البنية الصورية ونظرياتها المعرفية، ألحق باللغة نفسها العزلةَ وحرمها من الخصوبة التي لا يمكن لها أن تنهضَ في الأعماق إلا من خلال تفاعلها الحيوي مع الحياة ومرجعياتها وأحداثها وتوجهاتها، ولذلك ما لبثتْ تلك النظريات أن انحسر مدُّها وما انبثق عنها من توجهات الشكلانية ثم النقد الجديد في أمريكا فالبنيوية التي هيمنتْ على النقد فترةً من الزمن منتصفَ القرن الماضي، إذ انتبهت النظرياتُ الجديدة التي تلتْها إلى خطورة عزل اللغة عن مجريات الحياة، وخطر مكننةِ الثقافة باستلابِ إنسانيتها واقتصارها على الماديِّ المحسوس من خلال هيمنة التكنولوجيا وما اكتنفها من جفاء، وأهمية العودة إلى فتح أفق النص على المعنى ومرجعياته فكانت بدايات النظريات الجديدة في جذور البحث التداوليّ وفي نظريات القراءة التي أولتْ اهتمامها بالنص والقراءة أولاً، ثم أعطت السلطةَ الكلية للقارئ في بناء المعنى، ولعلَّ قولهم السائدة، (لا يوجد قراءتان متطابقتان للقارئ الواحد لنصٍّ واحد) ما هي باعتقادي إلا مقولة تداولية ناتجة عن فهمهم لأهمية تباين اللحظةِ القرائية وما يحيطُ بها من ظروف نفسية وخارج نصية تختلفُ من لحظة

لأخرى، ليختلفَ معها الفهمُ تفسيراً وتأويلاً، ثم جاء التفكيكُ ليمنحَ بناةَ المعنى للقارئ كلياً وليفعلَ فعلَه التّقويضيةَ للنصّ في الاختلاف والإرجاء واللا أصل وغياب الحقيقة التي يكمنُ فيها سرُّ المعنى وضياع الاستقرار والثبوت وإساءة القراءة واللا أثر جرّاء التشتيت والتّشذير والتشظّي. وكان عبر هذا وذاك ينمو وينطور تيارٌ جديد يولي الاهتمامَ لأطراف عدة لا مناصَ من تفاعلها لإنتاج دلالاتٍ تتلاءمُ مع ظروف تشكلها وتلقيها معاً، فليس النصُّ وحده حاوي المعنى، ولا المبدعُ أو المرسلُ/ المتكلمُ وحده منتج الدلالة، وليس السامعُ او القارئ أو المخاطب، وليس هو تفاعلُ هؤلاء معاً؛ لأن هناك ظروفاً تتدخل في تشكيل الحدث التّخاطبي تدخلاً لا بدَّ منه شئنا أم أبينا، من هنا دخل السياقُ عاملاً حاسماً في ترسيم الأبعاد التي لا بدَّ من تفاعلها في تحقيق عملية الفهم وتفعيلها، وتبلور هذا الاتجاه المهمّ فيما استقرَّ عليه البحثُ اللغوي الحديث بمصطلح التداوليةِ التي كان منشؤها نتاج التفاعل بين كلِّ الفلسفات والحقول المعرفية ذات العلاقة بإنتاج المعنى كالفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس والمنطق وعلم السياسة والظروف الاقتصادية والإيديولوجيات المهيمنة وغيرها.

تتعددُ ترجماتُ مصطلحِ البراغماتية إلى العربيةِ لتتضمنَ مصطلحاتٍ عدةً منها التداوليةُ والتخاطبيةُ، وتتعدد في الترجمة للعربية المصطلحاتُ المقابلةُ للتداولية إلى التبادلية والتواصلية والقصدية والمقامية، ومنهم من أطلق عليها الفعليات، وذلك بسبب سعةِ الأفق الذي اشتغلتْ به وكثرة الفضاءات التي تداخلتْ فيها على وفق مناهجَ أخرى لسلوك اللغة في الفلسفةِ التحليلية وعلم الاجتماع وعلم النفس المعرفيّ واللسانيات. وهذا الفرعُ الذي يعنى بالتخاطب يهتمُّ بدراسة كيفية انتقال المعنى ليس فقط على أساس المعرفة اللغوية (كالنحو والمعجم والدلالة.. الخ.) بين متكلمٍ ومستمعٍ، بل وعلى أساس سياق الكلام المنطوق وسياق الاستقبال، والمعرفة بوضع المتشاركين في التخاطب، وكذلك بقصد المتكلم وظروف الكلام. ولذلك عمد بعضُهم إلى تخصيص مصطلح السياق سمة للعلاقة بين مكونات النص وظروفه، بينما جعل المقام سمةً لما يحيط بالمتخاطبين، وفي هذا الصدد تشرح التداولية مصطلحاً ومفهوماً وإجراء كيف يتمكن مستخدمو اللغة من التغلب على الغموض الواضح وعلى المشاكل التي تعترض عملية فهم قصد المتكلم، طالما أن المعنى يعتمد على طريقةِ الكلام ومكانه وزمانه وما إلى ذلك من محددات وظروف محيطة.

ويطلق على القدرة على فهم المعنى المقصود من متكلم لآخرَ مصطلحُ كفاءةِ

التخاطب التي يقابلها بالإنكليزية *Communicative Competence*. من هنا فإن أيَّ كلامٍ منطوقٍ يصف وظيفة تخاطبيَّة *Communicative Function* سيطلق عليه مصطلحُ ما وراء التخاطب الذي هو بالإنكليزية *Metapragmatics*

لقد تعددت الآراءُ التي تناولت بالبحث الأسسَ والجذورَ التي كانت المرتكزات الأولية للتداولية المعاصرة، فمنهم من يؤرخ لها منذ القدم، إذ كانت تُستعمل كلمة *Pragmaticus* اللاتينية، وكلمة *Pragmaticas* الإغريقية بمعنى (عملي). ومنهم من يُرجع تأسيسَها إلى الفلسفة التحليلية للفيلسوف غوتلوب فريجة ثم فنكنشتاين والفلسفة التحليلية مطلعَ القرن العشرين، هذه الفلسفةُ التي أكدت أهمية وضع اللغة موضعَ الدراسة والتحليل ضمن أي منهج فلسفي، إذ أكد الألماني فنجنشتاين أن المعنى لا يتسم بالثبوت ولا التحديد ما دامت ظروفُ التخاطب في تغيرٍ دائم، وتبعه في ذلك الفلاسفة الذين تأثروا به وأهمهم أوستن وسيرل واضعا نظرية أفعال الكلام، وغيرهما من فلاسفة أكسفورد الذين كان لهم أثرٌ مهم في تطوير البحث التداولي من أمثال غرايس والذين عملوا على وضع مفردات الجهاز المصطلحي لهذه النظرية/ المنهج وتطويره، بما جعلها تتغلغلُ في جوانبَ عدةٍ من جوانب الدرس اللغوي والمعرفي والبلاغي والنقدي، بل وفي جوانبَ متباينة من الحياة في ميادينها المهمة قانونية كانت أم معرفية أخرى، كما يشار إلى إسهامات موريس عام ١٩٣٨ في إشارته المهمة للتداولية وهو يقسّم علمَ العلامات على حقول ثلاثة هي النحو في دراسته لأهمية العلاقة بين العلامات، والدلالة التي تدرس علاقتها بالأشياء، والتداولية التي تدرس علاقة العلامات بمستعمليها ومفسريها، متأثراً في تقسيمه ببيرس الذي لم يتّسم تقسيمه بهذا الوضوح. وهكذا نجد الدارسين مختلفين في تحديد بداية انطلاق التداولية، من القدم إلى الفلسفة التحليلية، ثم لموريس، ولمناقشات جون أوستن في جامعة هارفارد الذي كان همُّه تأسيسَ اختصاص في فلسفة اللغة وليس في اللسانيات، وهناك رأيٌ ينفرد بالتأريخ لها بمطلع سبعينات القرن الماضي حين آل البحث التداولي إلى تطوير شروطه ومحاوره على يد بول غرايس ١٩٧٥.

أما مَن يعيد جذورَ التداولية -مصطلحاً حديثاً- من الباحثين العرب إلى أصول تراثية عربية فإنهم ينظرون إلى وجود الاتساقية القائمة في كتاب سيبويه والتي أرجعها الباحثون لبعدٍ تداولي كما ينظرون إلى محاججات الجاحظ للشعوبية وإلى اهتمامه بفن الإقناع، وما اهتم به ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء من مراعاة الشاعر

العربي لنوع المخاطبين في توجيه شعره وفي اهتمام عبد القاهر الجرجاني وابن رشد والقرطاجني وغيرهم من النقاد والمفكرين العرب بالمتلقي، وفي تعريفهم البلاغة أنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال واهتمامها بالمقام، وفي نظرية الخبر والإنشاء وأسسها الأيستمولوجية التي عدّ الدكتور مسعود صحراوي ظاهرةَ الأفعال الكلامية مندرجةً ضمنها وغيرها مما تناوله التراث العربي في مباحثه النقدية واللغوية والبلاغية. لكن هل يعني ذلك وجود التداولية – الحديثة - في التراث العربيّ القديم، أم يعني وجود فكر تداولي اقتضته حاجة متقدمة في الإبداع والتلقي معاً. وتفسير ذلك يعود باعتقادي إلى نضج الفكر الثقافي والمعرفي الناجم عن الثراء الحضاري المخصب الذي اتسمت به تلك العصور العربية مما جعل تفكير المبدعين في ذلك الزمن القديم يتّسم بالشمولية وبالمقدرة على تحليل الظواهر وتأويل الأحوال وتعليل ما هو مبدعٌ أصيل من الفن والعلوم وما له صدى في نفس المخاطب عما دونه بما يعلل ويفسر ويرجع للأسباب والآثار معاً. لأن العلوم المعاصرة التي أنضجها تراكمُ الجهد الإنساني عبر التاريخ لا ترجع إلى الوراء، بل تمتصُّ الخبرةَ الماضية التي اكتسبتْها لتؤسسَ عليها، ومن خلال التّناصِّ الثقافي والحضاري الشمولي تُنتج ما هو متطورٌ معاصرٌ ومطوّر وأكثر نضجاً وتقدماً. وإذا كان الغربيون قد أفادوا من تراثنا وطوّروه وبنوا عليه عبر قنواتٍ عديدةٍ فإن علينا ألاّ نحمّل الآخر نتائج سكونيّتِنا التي يمكنُ إرجاعها هي الأخرى لأسباب وأسباب.

إن تفاوت تعريفاتِ التداوليةِ وتباينها كان الناتج الطبيعي لتفاوتِ مقاصدِ معرّفيها فهناك مَنْ حصر مجالها في الخطاب على العكس من اللسانيات التي اهتمت برصد الجملة، ومنهم مَنْ حصرها في دراسة العلاقة بين العلامات ومفسّريها، ومنهم من فتح حقلَ دراستها بحيث جعلها تدرس كلَّ ما يحيطُ بالمتكلمين وبعمليةِ التواصل نفسياً وظرفياً واجتماعياً. ومنهم من اهتمَّ بدراستها للأدب ورمزيته ومجازاته وحجاجه في ضوء توجهاتها الجديدة، وعلى أية حال فإن التداوليةَ لم تعد اليوم سلةَ مهملات اللسانيات؛ لأنها صارت حقلاً مهماً كُتِبتْ فيه المئاتُ من الكتب في أوربا وأمريكا لكنْ لم يُتَرجمْ منها للعربية إلا القليل، ولعلَّ هذا الإقبالَ الذي لقيه الدرس التداوليُّ في الغرب واهتمامه بدراسة العلاقة بين اللغة ببنيها اللغوية والسياق كان كما ذكرنا ناتجَ ردِّ الفعلِ على المناهجِ النصيةِ التي عزلتِ البنيةَ الصوريةَ للغة عن محيطها وما صحب ذلك من عزل اللغة عن الإنسان وقضاياه وعن المرجعيات الخارجية ذات

الحضور والفاعلية في النص وذات العلاقة المباشرة بالانسان، بينما أكدت التداولية على الشروط القبلية والأوضاع المشتركة بين المتخاطبين التي أطلق عليها (علم الاستعمال اللغوي) مؤكدين أهمية العوامل غير اللغوية المحيطةِ في تأويل القول وفهم المقاصد والظروف التي لا بدّ لها من التدخل للتأثير في بناء المعنى الناتج عن القول، وهذا ما يعطيها الأهمية التي تتمتعُ بها الآن في الدرسين التنظيريّ والتطبيقي.

وحول مهمات التداولية دار جدلٌ كثير كذلك، ولعلّ المتُّفق عليه أن مهمتها تأكيدُ فعل السياق في العمليةِ التواصليةِ وأهميته في الكشف عن المغيبات المتضمنة داخل الخطاب والتي كان لها الأثر الكبير في تحديدِ معاني النصوص؛ لذا كان هدفُها السعيَ لفهم العوامل خارج لغوية لتوظيفها من أجل فهم أعمق للخطاب، انطلاقاً من حاجة الحدث اللغوي لما يحيط به ويؤثر فيه خارج النص، وما ورد فيها من ردّ على ما جاءت به اللسانيات البنيوية وما جاء في طروحات جومسكي من أن اللغة أداةٌ تجريدية قابلة للانفصال عن مستعمليها وعن استعمالاتها معاً، فضلاً عن أهمية عملها في ردم الفجوة التي كانت قائمةً بين البنى اللغوية المجردة ونظريات التواصل وما يتبع ذلك ليس من إعادة اللغة لمسرح الحياة حسب، بل ومن إعادة نبض الحياة للغة التي هي واحدة من أهم تمظهرات الوجود الإنساني والكشف عن دواخل هذا الوجود والإيحاء بمضمراته والإعلان عن أهدافه وحفظ جوهر تراثه وحضارته.

إن تأكيدَ التداولية على أهمية الظَفَر بالمعنى كان الحافزَ الأهمَّ – وسيظلُّ – لتنشيط الدرس في هذا الميدان، فوصولُ المعنى للمخاطَب هو الهدفُ من تفعيل اللغة عبرَ التخاطب، والمعنى هو هدفُ كلِّ الجدليات التي تنمو بها الحياةُ وتسعى لتطوير ذاتها من خلاله، المعنى هو هدفُ الخطابات الرصينةِ بأنواعها سياسية واجتماعية واقتصادية وفلسفية، والتأسيسُ للمعنى هو هدفُ الآداب والفنون بكل توجهاتها، ومن ثم فهو هدف الإنسان الطامح إلى بناء منظوماتِ قيم وتشكيل جمالياتها بوعي يدرك أنّ تحققه لن يكون إلا من خلال دمج المعرفة بالجمال، فقضية بناء المعنى كانت المرتكزَ الرئيسَ الذي حفّز نظرياتٍ وفلسفاتٍ متعددةً على اقتراح طرائقَ مختلفةٍ لملء الفجواتِ والفراغات في النصّ سبيلاً للوصول إلى استخلاص الدلالات حينما تغيب أو تُحاط بالغموض والظلالات والإبهام، ولذلك وضع فلاسفةُ التداولية شروطاً في غاية الأهمية لاستنتاجه واستخلاص مراميه، منها مبدأ التعاون بين المتخاطبين من أجل تحصيله حتى وصلت بعضُ الشروط إلى المطالبة بالتحضُّر والتهذيب في الحوارِ من

أجل إنجاح عملية التواصل واستمرارها وصولاً بها للغاية المطلوبة. لكنَّ تلك الشروط التي تناولت الاقتصاد والوضوح وتجنُّب الإسهاب واللجوء للمترادفات تعرضتْ للانتقاد من قبل مبدعي الأدب؛ لأنها قد لا تلائم كلَّ المقامات التي يتمُّ فيها التواصل، فالوضوح مثلاً قد لا ينسجمُ وفنونَ الأدب التي تحكمُها طرائقُ معينةٌ في التعبير والترميز والتشكيل، كما أن حرية الإبداع ترفض إملاء أي شرط من الشروط في تعبيرها عن التجربة الفنية؛ لأن هذه التجربة محكومة بذاتها وبما تُمليه عليها شروط اللحظة الإبداعية وحدها.

ومما يوجه للتداولية من نقد، نشوؤها عبر مجموعة من النظريات المنسجمة من حيث النظر إلى أهمية السياق الذي يتمُّ فيه وعبره الحدث التواصلي، وتفاوتها تبايناً من حيث التوجهات وإرباك جهازها المصطلحي وغموضه بل وإبهامه أحياناً باعتراف فلاسفتها الغربيين، كلُّ ذلك جعل طروحاتها النظريةَ لا تتسم بالتماسك المطلوب ولا التلاؤم والانسجام كونها تشتغلُ في حقول متباينة تمتد من السياسة والقوانين إلى الأدب والنقد عبر حقول نفسية وحياتية ومعرفية عدة، وإنها متَّهمة بإشاعة الفوضى بالدرس اللغوي والنقدي مما يؤكد حاجتها لاستكمال درسها وتفاصيل مفرداتها، فضلاً عن افتقارها للمعيارية التي توفرت في المناهج الأخرى معللين الهشاشة والتشويش الذي لحقها بكونها تتعاملُ مع نصوص متعددةِ الفضاءاتِ وهذه النصوصُ تحرِّكها محنةُ الإنسان في حياةٍ تتسمُ بالقلق والأزمات مما يوجب عليها معالجةَ أزماتها في الانتقادات الموجهة لها، ولهذه الانتقادات سمتان: إيجابية وسلبية، الأولى داعية لمواصلة البحث والتطور والإضافات المستمرة مما يعمل على توسيع أفق مجالاتها وتركيز مصطلحاتها وفتح آفاقها ما دامت التطوراتُ المعرفيةُ قائمةً وسريعة التحولات، والثانية تعمل على إرباك الدارس والمهتمين بهذا الحقل من خلال اللَّبْس وعدم الوضوح وحاجة هذا الدرس لكثير من الانسجامات، فضلاً عن اختلاف الدارسين في مدى صلاحيتها لدراسة وتحليل الأجناس الأدبية لافتقاد مفردات جهازها المصطلحي إلى الانتظام مستثنين من ذلك فنَّ المسرحية كونه قائماً على الحوار أو التخاطب حيث يدخل الحجاج محوراً مهماً فيها، وفي هذا باعتقادنا نوعٌ من القصور في فهم الأدب والفنون كون الحوار كامناً في صميم كلِّ نصٍّ منذ اشتغال الحضارة المعاصرة وانتقال الفنون بأزماتها من الغنائية إلى الدرامية، وما دامت النصوصُ لا تتحقق إلا حين تنفتح على التلقي وتصير مشروعاً للحوار مع القارئ.

ولعل من المهم القول إن تفرعات التداولية وتشعب محاورها وحقول اشتغالها دعا بعضهم إلى مقترح إطلاق مصطلح (تداوليات) عليها وليس تداولية واحدة، لكن يمكن القول إنها بالرغم من كلّ الإرباك والغموض والتشعبات واختلاف الرؤى في طرائق التعامل البحثي معها إلا أنها نجحت في بناء جهاز مصطلحي يتسم بالغنى والثراء، وأن هذا الجهاز أسهم وسيسهم في اجتراح طرائق تحليلية لبُنى الخطابات المختلفة وفي حقول عدة منها، إذ تدخل فيها مباحث متعددة من العلوم التي أشرنا إليها، وفي اللغة ترامى فضاء عملها في النحوي والبلاغي والصوتي والنقدي وغيرها، وقد تطور الكثير من مصطلحاتها حتى تشكل من بعضها نظريات صار لها مجالات اشتغال واسعة، وقد طرح كتاب التداوليات الذي أعدّه وقدّم له الدكتور حافظ إسماعيلي علوي في ميدان جهازها المصطلحي مئة وثمانية وخمسين مصطلحاً وإن كان الكثير مما ورد منها مشتركاً فيما بينها وبين المناهج الأخرى ولا سيما البنيويات والسيمياء والتأويل. ولعل أهمّ هذه المصطلحات التي تحولت إلى نظريات هي أفعال الكلام (*Speech Acts*) والاستلزام التخاطبي (*Conversational Implicature*)، ونظرية السياق (*Theory Contextual*)، و الحجاج (*Argumentation*) على سبيل المثال، مما ستتضح قضاياها في بحوث هذا الكتاب.

قام كتابُنا على مقدمةٍ وثلاثة فصول، كان الفصلُ الأول منها بعنوان (التداولية مرجعيات ورؤى) وتضمّن خمسة بحوث، أولها بعنوان (التداولية، قراءةٌ في النشأة والمفهوم) للدكتور مؤيد آل صوينت، تناول فيه تحديدات التداولية، التي انصبّت غالباً على معالجة العلاقة بين المتكلمين والسياق الذي يردُ فيه الملفوظ، وقد تُخصصت التداولية في دراسة الآثار اللغوية التي تظهر من الخطاب، وينظر إلى التداولية على أنها مبحث لساني جديد، لكنّ البحث فيها يمكنُ أن يؤرخَ له منذ عصر أقدم. كما عني البحثُ بنشأة التداولية ويتلمس خطوطها في الاتجاه التحليلي في (الفلسفة التحليلية)، وهو الاتجاه الرئيسُ في فلسفة اللغة، أو التيارُ الغالب في الفلسفة المعاصرة الذي ركّز على موضوع اللغة، وحاول تغيير مهمة الفلسفة وموضوعها وممارستها. ومن المحاور الأخرى التي عولجت في هذا البحث: (مهام التداولية، والتداولية والعلوم الأخرى، ونظرية أفعال الكلام، والأقوال الوصفية والأقوال الإنجازية، وتصنيف الأفعال الكلامية من حيث الأفعال الصريحة والأفعال الضمنية).

وكان البحثُ الثاني بعنوان (التداولية وصلتها باللسانيات البنيوية والسيميائية)،

للدكتور سامي شهاب أحمد، الذي أكد أن الألسنية واحدة من الدراسات التي سجلت حضوراً فاعلاً في ساحة المدونة النقدية؛ لما لها من تأثير مباشر في النص الإبداعي، فهي تتعامل مع النص بوصفه كينونةً قابلةً للمناورة نتيجة ما يقبع في جسدها من أصوات وتراكيب ودلالات، ولكنها مناورة لا تتخطى حدودَ النص مما يجعل إمكانية سقوطها في هوّة المساءلة أمراً واقعاً، وعليه أخذ الحقل النقدي دوره في السؤال عن مكامن الخلل والاضطراب الذي اعترى الدراساتِ الألسنيةَ التي اهتمت بالنص على حساب المبدع والمتلقي، مما ولّد في النهاية تياراً آخر للألسنيةِ مهمتُه تخطي حاجز النص وإيجادُ فرصة التواصل المعرفي، عن طريق الخروج إلى الواقع وقد مثّل هذا التيار التداولية. تضمّن البحث تمهيدا وثلاثة محاور، تناول التمهيدُ الإشكالية المصطلحية التي نتجت عن الترجمات غير الدقيقة لمصطلح التداولية، وتناول المحور الأول : التداولية وصلتها باللسانيات البنيوية، وفي المحور الثاني عالج البحث التداولية وصلتها بالسيميائية، وخُصّص المحورُ الثالث للحديث عن الجهاز المصطلحي المفاهيمي للتداولية.

أما البحث الثالث فكان موسوماً بـ(النص والتواصل ملامح من تداولية الخطاب) للدكتور جبار سويس الذهبي، وقد حاول إلقاء الضوء على جملةٍ من المفاهيم المتداولة في الدرس اللساني المعاصر الذي اتخذ من النص والخطاب أداةً لآليات التواصل اللغوي. متناولاً الآليات التي اعتُمدت في ميدان الاتصالات الهاتفية من خلال عرض خطاطة شانون، ومن ثم عرض البحث آليات علماء اللغة في وصفهم لعملية التواصل، ومفهوم الخاصية النصية التي لابدَّ لأي قطعة من الكلام أن تتضمنها كي تكونَ نصاً، والتي تعتمد في جانب كبير منها على علاقات تداولية تتمثل في العلاقات الخارجية التي تحكم النصَّ والتي يطلق عليها دي بوجراند (سياق الموقف) الذي يشمل المحيط الثقافي والاجتماعي والمعرفي والتاريخي، وأيضاً المعايير النصية. ومن ثم تناول مفهوم التداولية معتمداً مقاربةً معرفية لأسس النظرية وآلياتها، رابطاً بينها وبين مجموع المفهومات التي قدّمها البحث بوصفها سياقاً تواصلياً، تقوم أساساً على تفسير النص بوصفه فعلاً كلامياً، أو بوصفه سلسلة من أفعال كلامية، فضلاً عن التطورات التي طرأت على التداولية والإضافات عليها من خلال بيان أهمية العلاقة القائمة بين اللغة بوصفها رموزاً ودلالات، والعلاقات الخارجية (التداولية) التي تحكم النصَّ اللغوي وتؤثر في الباثِّ والمتلقي والرسالة على حدٍّ سواء.

بينما عالج البحث الرابع وعنوانه (الدلاليات والتداوليّات.. علاقة وإشكاليات)

للدكتور خالد خليل العلاقات والإشكاليات التي تعتري مسيرة الدلاليات والتداوليات والعلاقة بينهما، من حيث إن المشتغل بإبستمولوجيا الفكر اللساني والتأريخ لاتجاهاته تمكن من أن يميّز بين تيارين لسانيين رئيسين هما: تيارٌ بنيويٌّ صوريٌّ، يقف في مقاربته اللغوية عند حدود بنية اللغات الطبيعية، ولا يكاد يتعداها. وهو ما نجده في اللسانيات البنيوية، بشقيها الأوروبي (دي سوسير) والأمريكي (بلومفيلد)، وتيارٌ وظيفيٌّ تواصليٌّ، يحاول وصف بنية اللغات الطبيعية، من خلال ربطها بما تؤدّيه اللغات من وظائف داخل المجتمعات البشرية، وتعدُّ المقاربة البنيوية اللغة بنية مجرّدة.

تخلّت اللسانيات البنيوية عن البحث فيما وراء الكينونة اللغوية بمفهومها الشكليّ الذي يركّز على الشكل دون المادة، وراحت تُقصي الإنجاز اللغويّ المتجسّد في الكلام، من خلال تركيزها على دراسة اللغة بذاتها ومن أجل ذاتها، فتحوّل الدرسُ اللسانيُّ مع البنيويين إلى علم صوريّ مغلق ذي إجراءات داخلية خالصة، لا يأخذ بالحسبان عناصرَ التواصل اللغوي، مثل أحوال التخاطب والطبقات المقامية المختلفة التي يُنجزُ فيها الخطاب وربطها بما تؤدّيه اللغات من وظائف داخل المجتمعات البشرية.

وجاء البحث الخامس (النقد التداولي من الحدث اللغوي إلى التواصل التقني) للدكتور محمد سالم سعد الله مؤكداً أنّ الممارسات المعرفية المطروحة في معالجة المصطلحات النقدية ومناهجها تتسم أحياناً بغياب تحديد النسق النقدي على المستوى المعرفي، من حيث كونه متواليات معرفية متعايشة مع النسيج العلمي والبيئي المحدد ضمن رقعة إقليمية معينة، وعلى المستوى اللغوي بوصفه إمكانياتٍ دلالية تمنح التركيب معانيَ عدة، ولهذه الأخيرة ارتباطات منها : ثقافية واجتماعية وسياسية ونفسية.

ويحيط الدرس النقدي المتعلق بالتداولية تنظيراً وتطبيقاً - إشكاليات عدة تبدأ مع مرحلة ولادتها الفلسفية والأبعاد الدلالية الذرائعية، مروراً بعلاقتها مع مرحلة تطورها العلمية مع نظريات التواصل وتحليل الخطاب، وليس انتهاءً بالآليات المنهجية التي وظّفتها للاشتغال، ونظراً للصعوبة المعرفية التي تعتري مسيرة التداولية فقد تحولت عند البعض إلى أيقون تصطبغ به بحوثهم دون تحديد منهجي أو إجرائي لأبعادها العلمية والمنهجية؛ لذلك يسعى هذا البحث لبيان الكيفية التي تتم بوساطتها دراسة التداولية، وبيان إمكانية تحديد مسارها : من الفلسفة إلى الفلسفة، ومن الفلسفة إلى النقد، ثم من النقد إلى التقنية، وذلك من خلال ثلاثة محاور : (المسار الفلسفي،

المسار النقدي، المسار التقني).

تقدم هذه المسارات رؤية نقدية للتعامل مع التداولية وبيان مسيرتها الفلسفية والمنهجية، وتحديد أهم الآليات النقدية التي تمارسها في اشتغالاتها النصية، فضلاً عن التعريف بالتداولية التقنية التي تُعنى بدراسة الحوارات التفاعلية ومتابعة طرائق التواصل بين المتحاورين في الواقع التقني الافتراضي، كما تُعنى بتنسيق أنظمة المحادثة بين المستخدمين والحفاظ على سياق تطور الخطاب وتنميته وتفاعله. بينما كان البحث السادسُ موسوماً بـ(التداولية الأدبية، دراسة نقدية) للدكتور أحمد عدنان، الذي حاول إلقاء الضوء على مفهوم مصطلح التداولية الأدبية (*Literary Pragmatics*) الذي ينطلق من التصور القائل بأنّ البنية اللغوية للنصّ الأدبي لا تتقيدُ دائماً بقيود النحاة، بل إنّ لها علاقة بالآثار المترتبة على النص وبما يؤديه، أو لها علاقة بكيفية إنتاج المتلقين له واستهلاكه، فهي تعتني بالتواصل الأدبي والتعاون الفعّال بين المؤلف والمتلقي، الذي هو نتيجة لوجود رسالةٍ شخصية من المؤلف إليهم، ومن أجل أن يكونَ ذلك التواصلُ ناجحاً ينبغي أن يتبعَ مبادئ معينة أهمها: مبدأ التعاون ومبدأ الاستلزام ومبدأ العدول، كما أنّ لهذا التفاعل أساليبَ موجودة في النص الأدبي أهمها نطقُ الصوت أو النطقية، وتداخل النصوص، ويحاول هذا البحث في نهاية المطاف أن يقدم نقداً لعدد من أفكار هذا المفهوم، تشجيعاً لثقافة النقد وحصراً لثقافة الانبهار، كون المؤلف له السلطة الكاملة على نصّه فهو الذي يصوغ نصه الأدبي وينظمه بطريقة مخصوصة، وهو الذي أبدع تلك الصورة وأوجد ذلك الرمز ووظف ذلك التراث وأوجد تلك الشخصية في الرواية أو المسرح وصاغ ذلك الحوار وصور ذلك المكان ووصفه... إلخ، وهو الذي يأخذ هذا المعنى ويقتبس معنًى آخر ويتناص مع نصوص أخر، وهو الذي يصرح بمعنى الجملة هنا ويوضحه ليمنعَ أيّ تأويل متوقع للقارئ، ويغمضه في جملة أخرى ليمنح القارئ جزءاً من سلطته ليستمتعَ بمتعة التأويل والبحث عن الدلالة وليفعّل آليته الذهنية التأويلية، وكلاهما مقيد كذلك بسلطة النص وقواعد اللغة التي يكتب بها أو التي يحلل بها النص الأدبي.

أما الفصل الثاني فكان عنوانه (التداولية، مفاهيمُ وآفاق) وتضمّن خمسةَ بحوث الأول منها بعنوان (ثلاثية القارئ والنص والسياق، مقاربة للشواذ النحوية تداولياً) للدكتور جودة مبروك محمد، إذ عمل على مقاربة الشواذ النحوية مقاربة تداولية منطلقاً من أن اللغة ظاهرة إنسانية، يتحقق وجودها بالفعل الكلامي، وهو العنصرُ

الملموس في عملية التواصل بين أفراد الجماعة اللغوية الواحدة. ومن الظواهر اللغوية ما هو شائعٌ وما هو نادر الوجود، ويبدو أن الأخير في حالة صراع من أجل البقاء مع سابقه، وكان من حظِّ العربية أن وُجِدَتْ بها شواذ نحوية حفظها التاريخ، ولا يتوقفُ أمرُها على النظام التركيبيّ، فهناك شواذ صرفيةٌ ودلاليةٌ وصوتية. ويتطرق البحث إلى دراسة ظاهرة الشذوذ النحوية على وفق معطيات حددتها التداولية اللسانية، ويكشف عن خصائصها التركيبية في ضوء ما اشتهرت به من صفة الشذوذ والإهمال، وهدف إلى دراسة الظاهرة في ضوء مَلَكات المتلقي والنص والسياق بقسميه الداخلي والخارجي، وقد انقسم البحث على ثلاثة أقسام: الأول عن خصائص القارئ، والثاني عن النص والثالث عن السياق.

وجاء البحث الثاني موسوماً بـ(الاستدلال على المغزى المقصود من الفعل الكلامي غير المباشر) للدكتور هشام إبراهيم عبد الله الخليفة محاولاً تأصيل (نظرية الفعل الكلامي) *Speech-Act Theory* التي ظهرت في العصر الحديث على يد اللغويين والفلاسفة الغرب وبيان سبق اللغويين العرب والمسلمين في تأسيسها، وقد ركز بشكل خاص على ظاهرة أفعال الكلام غير المباشرة *Indirect Speech Acts* التي اقترن اسمها بالفيلسوف سيرل *Searle*، الذي بدأ البحث بعرض مركز لنظريته في الفعل الكلامي غير المباشر: تعريفاً ومصدراً ووجوداً وعلاقة بفرضية المغزى الحرفي والخطوات الاستدلالية التي يمكن للمستمع أن يتوصل اليها، ثم تناول إسهام اللغويين العرب ولاسيما البلاغيين في الكشف عن هذه الظاهرة ابتداء من استعمال الجرجاني والسكّاكي للاستدلال في الكشف عن المغازي والمقاصد الفعلية للكلام بصورة عامة ومروراً بتحليل ظاهرة المجاز المركب التي استعملها البلاغيون في تحليل الفعل الكلامي غير المباشر بالمصطلح المعاصر، وفي الختام تمّ التركيزُ على توسيع البلاغيين من شُرّاح التلخيص لتحليل أفعال الكلام غير المباشرة ولاسيما كشفهم للخطوات الاستدلالية التي يستعملها المستمع للوصول إلى المغزى المقصود من الكلام والتي تكاد تكون مطابقةً للخطوات التي وردت في طروحات (سيرل) بشأن الموضوع نفسه، كل ذلك من خلال أمثلة اقتُبست من شُرّاح التلخيص وبخاصة (ابن يعقوب المغربي) في كتابه (مواهب الفتّاح في شرح تلخيص المفتاح).

أما البحث الثالث فكان بعنوان (الحجاج ونظريات التواصل) للدكتورة فاطمة بداوي و تناول قضية الحجاج في الدرس البلاغي المعاصر الذي تبدّى في حقلين مهمين:

الحقل اللساني، والحقل النقدي، وانفلت الحجاج ليصبح فرعاً من فروع نظرية التواصل، ومن هنا تناولت الباحثة العلاقة بين الحجاج ونظريات التواصل، وتوضيح الارتباط الوثيق بين البلاغة وهذه النظريات والسيميائيات في مجال وصف الخصائص الإقناعية للنصوص وتقويمها إذ شكلت البلاغة والديالكتيك والمنطق مصادر الحجاج وأطره، فكان (فن الجدل- وتقنيات الاستدلال- وفن الخطاب) روافد للدراسات المعاصرة، حيث برز الحجاج وتأصل كمبحث أساسي في البلاغة الحديثة اعتمادا على الأبعاد الاجتماعية لهذه البلاغة. إن الإشكال المطروح في البحث هو: ما العلاقة بين نظريات التواصل والحجاج؟ وكيف استلهم الحجاج بعض رؤاه من التنظير السيميائي والنظريات التواصلية؟ ما العلاقة بين البلاغة والحجاج، والتواصل؟. وقد حاولت المحاور هنا الكشف عن نظريات التواصل التي تعددت توجهاتها، ملقين الضوء على أهمية الحجاج في هذه النظريات، من خلال دراسة التأثير والتأثر عن طريق الفعل الكلامي أو الإنتاج الكلامي، فكل عبارة منطوقة تخدم غرضاً معيناً مما يجعل الكلام سلسلةً من النشاطات التي يتم بها تصميم العبارة وتنفيذ ها.

وحاول البحث الرابع الموسوم (بين نظرية السياق ونظرية الاستلزام الحواري، مقاربة تداولية) للدكتور هيثم محمد مصطفى الاشتغال على نظريتين من نظريات اللغة والعمل على كشف المقاربة بينهما تداولياً بالنظر إلى بنية المعنى فيهما من حيث المستوى الأدائي والوظيفي في النص وما ينتج عن ذلك من تلاؤم مع الجوّ الخطابي ومقاصد أطرافه، هما (النظرية السياقية *Contextual Theory*) و (نظرية الاستلزام الحواري (*Conversational Implicature*)، والنظرية الأولى تعنى بـ(السياق التواصلي *Communicative Context*) للألفاظ والعبارات بدراسة كل ما يحيط بالحدث اللغوي من ظواهر غير لغوية كـ(المقام، والمتكلمين، ومقاصدهم، وحيثيات الاستعمال) وغيرها وأثر ذلك في استخلاص المعنى من النص أو الخطاب. في حين تعنى النظرية الثانية بالبحث عن معايير وضوابط (القدرة التواصلية *Communicative Competence*) وسيلة لاستقصاد المعنى في شكله التداولي المطلوب، ذلك أن أصل الخطاب حسبما تفترضه هذه النظريةُ وجود قوانين حوار ومحادثة خاصة يلتزم بها المخاطبُ بالكيفية التي يتطلّبها الغرضُ متسماً في ذلك بالوضوح والإبانة قدر المستطاع لتحقيق المقصد التخاطبي. غير أن المتكلم عادة ما يتجاوز إحدى محاور هذه المحادثة فيلجأ إلى خرقها ويتوسل لإدراك المعنى بغرض سياقي وأداء لغوي غير مباشر، أو مستلزم من مق

خطابي آخر يتقصّده المتكلم قصداً، سعياً إلى خلق الدلالة المتضمنة من القول.

وتوجه البحث الخامس الموسوم بـ(مشكلة اللغة والمنطق في تعلم اللغة والترجمة، رؤية دلالية تداولية) للدكتورة سوسن صالح سرية إلى دراسة بعض المشاكل التي يواجهها دارسُ ومدرس اللغة الأجنبية إضافة إلى المترجم والتي تتعلق بابتعاد اللغات في بعض الأمور عن المنطق مما يصعّب عمليةَ الفهم والتواصل بين المعلم والمتعلم، وبعض هذه المشاكل دلاليةٌ وبعضها تداولية وبعضها نحوية وبعضها صرفية بل وبعضها حسية. ولكنّ البحث لا يسعى لتصنيفها، كما لا يحاول البحث تفسير أو محاولة فهم هذه الظاهرة بل يكتفي بالإشارة إليها والتنبيه لوجودها لأن تفسيرها لا يخضع للمنطق. ويركز البحث على الاختلافات بين أربع لغات تسنّى للباحثة دراستُها أو تدريسها وهي العربية والإنكليزية والألمانية والصينية.

وقد طرح البحث أسئلة مثل: هل تخضع اللغة للمنطق؟ وهل تشترك الأمم المختلفة في منطق واحد؟ وعندما يتحدث الناس من أمم مختلفة عن الأشياء نفسها هل تتطابقُ الصور المنطقية التي تخلقها عقولهم وبالتالي يتحدثون عن الفكرة ذاتها بنفس الأسلوب والمنطق؟ وهل يرى الناس من أمم مختلفة الأشياء بالمنظار نفسه؟ وهل تستمع آذانُهم للأصوات والموسيقى بالطريقة نفسها؟ وهل يمكن تطبيق بعض المفاهيم التداولية على كل اللغات بطريقة متكافئة؟.

وارتأى البحث السادس الموسوم (قصيدة النثر، مقولة تداولية في مشروع الجماعة المفسرة) للدكتور محمود خليف الحيّاني أن تكونَ قراءته لمصطلح قصيدة النثر قراءةً تداولية من خلال مشروع ستانلي فش والجماعات المفسرة، ولاسيما إن هذا المصطلح أحدث إشكالية في الخطاب النقدي العربي بين الرفض والقبول، إذ إنّ كلا الفريقين، المرحّبين منهم والمشككين ـ قد انطلقوا من معايير تاريخية ونصية وأسلوبية في تحكيمهم النقدي على قصيدة النثر. فكانت قراءتنا التداولية قائمة على أساس تفكيك مركزية خطاب المرحّبين والمشكّكين بقصيدة النثر التي قادتنا إلى أن نتخذ اتجاهاً ثالثاً لقراءتنا لهذه القصيدة على أنها مقولة تداولية من إنتاج إلى الجماعة المفسرة التي تعيد كتابتها حسب الظروف والسياقات المتغيرة، و والطريقة التداولية في تحديد الجنس الأدبي (قصيدة النثر) بعيدة عن الثبات والتقلب باختلاف الثقافات والأزمان و طبيعة المؤسسة الأدبية والسياقات وعلاقاتها بالمؤسسات الأخرى التي تشكلت بالطريقة نفسها، والتي سوف تكون

عرضةً للتغير المستمر، وإن انفتاح الأدب أو قصيدة النثر بوصفها مقولة تداولية تستوعب في المستقبل أي تجديد و انتهاك يتبلور على ضوئه جنس جديد مرتبط بصيرورة المجتمع و تداولية الجماعة المفسرة.

وجاء الفصل الثالث الموسوم (مسارات الرؤى في التطبيق) متضمناً خمسة بحوث أولها بعنوان (الفعل الكلامي النصي، قصيدة وتعطّلت لغة الكلام لمُفدّى زكريا أنموذجاً) للأستاذ الدكتور عبد الحليم بن عيسى مفيداً من نظرية أفعال الكلام في التحليل النصي إذ جرت في الدراسات المعاصرة تحوّلات كبيرة، انتقلت من الاهتمام بالجملة إلى ما هو أشمل وأعم: أي النص، وكان من نتائج ذلك أن استدعى الاهتمام به ضرورة الانفتاح على مكوّناته وعدم البقاء في الإطار النسقي الذي انبنت عليه المناهج البنيوية التي أقصت عمداً المعطيات الخارجية في الممارسة النصية، وقد تم ذلك في رحاب الدراسات التي دعا فيها روادها إلى الأخذ بعين الاعتبار ما تُمليه معطيات العملية التواصلية في الكشف عن مكامن السياق وفعاليته ؛ وقد بيّن (أوستين *Austin*) وتلامذته أنّه لا يمكن ضبطُ الفعل الإنجازي الذي يقوم عليه الفعل الكلامي من غير الأخذ بعين الاعتبار معطيات مسرح القول الذي يُنتج فيه، وهذا البحث يندرج ضمن هذه الرؤية التي تضبط طبيعة هذه النقلة، والأسباب التي أدّت إليها. ولتوضيح كل ذلك عمد الى مدونة أدبية لتطبيق إجراءات هذا المنهج في النص الشعري. وانطلق فيها من إشكالية البحث عن طبيعة الفعل الكلامي النصي، والكشف عن التصور الذي يضبط ويحدّد كيفيات تحديد قوته الإنجازية الكلية. ويحاول البحث الثاني الموسوم (الأبعاد التداولية عند الخطيب القزويني، التقديم والتأخير في كتاب الإيضاح نموذجاً) للدكتورة هناء محمود شهاب إضاءة جانب من جوانب تراثنا البلاغي في ضوء مستجدات النظريات اللسانية المعاصرة، فتراثنا البلاغي – كما يرى الكثيرون – ما يزال في حاجة إلى أن يتم التعامل معه تعاملاً استكشافياً لا تعامل تركيبات بلاغية أو معانٍ ثانية. إن فهمَ ما تركه القدماء وما فكّروا فيه وكيف فكّروا فيه ولماذا، بهدف استخلاص نظرية لغوية تعنى بالتراكيب والدلالة منظوراً إليها من وجهة تداولية هو خدمة لتراثنا البلاغي وإظهار للقيم الإيجابية التي يمتلكها والتي ما تزال تغرينا بالبحث فيه دائماً، لذا وقف البحث عند مدونة بلاغية هي كتاب الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني (٧٣٩هـ) متخذاً من علم المعاني وتحديد أسلوب التقديم والتأخير فيه موضوعاً للدراسة، فضلاً عن نظره في التراكيب التحويلية التي عرضها القزويني

بآليات تداولية مبيناً أن مراعاة المقام والحال في تلك المدونة لا يختلفُ عن السياق في مفهومه التداولي الحديث فضلاً عن الاهتمام بالمتلقي كونه الأساس في فهم المعنى وقصد الدلالة وهذا ما ألح عليه القزويني في مبحث التقديم والتأخير، وتلك هي سمة اللسانيات التداولية الحديثة.

وهدف البحث الثالث (الحجاج في الخطاب الشعري العربي الحديث قصيدة لا تصالح لأمل دنقل نموذجاً) للدكتورة ورقاء يحيى المعاضيدي إلى مقاربة مصطلح الحِجَاج، وبيان علاقته بالتداولية، وكيف أفاد الحِجَاج من نظرية أفعال الكلام، عبر دراسة الأفعال الإنجازية، التي تؤسس لعملية التواصل عن طريق اللغة منطلقين من فكرة (أن كل شيء عند الإنسان تواصل) على رأي فيليب بلا نشيه . والخطاب الشعري المدروس هنا هو قصيدة (لا تصالح) للشاعر أمل دنقل وحجاجه فيها يهدف إلى رفض الصلح مع العدو الصهيوني الذي اغتصب فلسطين وامتد اغتصابه لأراضٍ عربية أخرى، وهذه القصيدة تمثل هدف المؤلف في توصيل فكرة وقعت ضمن الأفق التداولي الذي يبني نفسه من خلال تواصل المتكلم مع المخاطب، بدواعٍ مقصودة عبر السياق العام للخطاب المدروس، الذي تميز بالتتابع المنطقي في المقدمة الأساسية الكبرى (لا تصالح) مروراً بعرض الموضوع بكل ملابساته، من خلال الأسباب والمبررات منتهياً بالنتائج التي كُثِفَت بنبذ التصالح السلبي، لأن المصالحة لا تتمتع بشرف القلب كون العدو ماكراً وغادراً.

وتناول بحث (إنجازية الشعر، مقاربة تداولية لنماذج من الشعر العباسي) للدكتور عبد الله بيرم الراشدي الحديث عن مفهوم الفعل الكلامي (*SpeechActs*) بوصفه نواةً مركزية في كثير من الأعمال التداولية، مشيرا إلى أهمية التمييز بين أمرين:

١- المنطوقات التقريرية التي تصف وقائع العالم الخارجي، وتكون صادقةً أو كاذبة.

٢- المنطوقات الأدائية التي تُنجزبها الأفعال؛ إذ أنكر أوستن أن تقتصر وظيفة اللغة على وصف وقائع العالم وصفاً يكون إما صادقاً وإما كاذباً، ورأى أن هنالك نوعاً آخر من العبارات يشبه العبارات الوظيفية [الخبرية] في تركيبها لكنه لا يصف وقائع العالم، ولا يوصف بصدق ولا كذب، ويؤكد البحث أن جوهر نظرية أوستن يكمن في أن الأقوال قد تكون أحياناً أفعالاً، أو بعبارة أدق: (مؤدية إلى أفعال)، وأهميتها ترجع إلى إثبات أنّ تلك المنطوقات ليست خالية من المعنى، وإلى تحديد السمات المميزة لها.

كما تناول البحث التمييز بين جوانب الفعل الكلامي الثلاثي، من حيث التمييز بين المنطوقات الأدائية والمنطوقات التقريرية، فضلاً عن الحديث عن إنجازية الشعر وما يتعلق بالعلاقات والأقسام المندرجة فيه، وأن التداولية بإنجازيتها تصلح لدراسة مرامي الشعر وتأكيد القيم التي تضمنها.

وتناول البحث الخامس موضوع (الاقتضاء التُّخاطبي، دراسة في آيات من سورة الأنعام (للباحثة نور وليد التداولية بتعاريفها وأبعادها الأخرى وكيفية تطبيق هذا المنهج في القرآن الكريم، واختار آيات من سورة الأنعام لدرسها من خلال الاقتضاء التّخاطبي، وهو المفيب من الكلام الذي يمكن استنتاجه من خلال الخطاب والذي يلقي ضوءا ليعين المخاطب على عملية الفهم، إذ إن قدرة اللغة العالية على الإيجاز والتكثيف هي التي منحت الألفاظ القدرة على تكثيف معانيها عندما تُضم إلى بعضها في سياق تواصلي، فعولج ذلك في مبحثين الأول ((الاقتضاء الخاص)) الذي يعتمد السياق في فهم النصوص وإدراك مكنوناتها بوعي، وذلك لأهميته من جهة، ولأن المتكلمَ لا يمكنه قولُ كل شئ من جهة أخرى، وكيف اقتضى السياق ألفاظاً غير مذكورة استنتجها المتلقي، وتمت دراسته في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام إذ يقود أسلوب الآيات إلى توحيد الله تعالى من خلال التفكير والتدبر في مخلوقاته. وأمّا المبحث الثاني فدرس ((الاقتضاء العام)) الذي يحصل من دون أن يوجد سياق حالي معين ويمكن استنتاجه من خلال ألفاظه المتمثلة في (كل وبعض) وما شابهما، ودُرس التنوين على أنه عنصرٌ صوتي يقتضي معاني مهمة وكيف يمكن للكلمة النكرة المنونة أن تدل على التعريف.

وإذا كانت الإشارة لبعض عقبات العمل مهمة للفت نظر المسؤولين والمختصين نحو المعالجة، فإن من هذه العقبات إرباك الأجهزة المصطلحية في منشئها أولاً وبعد ترجمتها للعربية ثانياً، وافتقار ثقافتنا في الوطن العربي لمؤسسة نقدية معرفية عربية موحدةِ الهدف تخطط وتستشرف وتنظم وتوحد، وقبل كل ذلك تؤسسُ لمشروع ثقافي نقدي ومؤسسة ترجمية عربية لا تنهر ولا تنبع، بل تتأنى وتتأمل وتبدع وتعمل على خلق جوّ علمي معرفي حر التفكير والتوجهات، وتحرص على فن اختيار كل ما هو ضروري من المترجمات لتلبية حاجة الباحث العربي وتعزيز مصادره وترصين درسه، ولكننا جميعاً ندرك أن الثقافة جزءٌ فاعل ومنفعل في صميم الحضارة التي تشتغل داخل فضائها، ومادامت حضارتنا العربية ما تزال في ظروفها الحالية تابعةً ومستهلِكة – بكسر اللام

- فإن حضور ثقافة مستقلة برؤاها وبأجهزتها المصطلحية لن يكونَ قريباً، لأن المنطق العلمي يؤكد أن المصطلح ناتج حضاري، يشتغل طردياً مع تقدم الحضارات لأنها تحتاجه في بناء كياناتها المعرفية وبلورة مفاهيمها ووجودها وتفعيل رؤاها في المجالات كافة. لكن ذلك لا يعد مبعث تطير إذ من الممكن على الأمة الحية الجذور، الواعية بأسباب تأخرها عن الركب الحضاري، والمؤمنة بأدوار النهوض الحضاري أن تحوّل عوامل الإفقار في هذا الواقع إلى عوامل حراك وتحفيز على المثابرة، وشارة صبر على البحث من اجل الإمساك بما تحتاجه معارفها من جديد متطور للأخذ به والعمل على تنميته والإضافة إليه من أجل الرفعة بالإنسان هدفا ساميا لكل المعارف والفنون. وليس آخرُ العقبات المعيقة قصورَ الدعم المادي والمعنوي الذي تحتاجه مثل هذه المشروعات المهمة والمؤسسات الطموحة الناهضة بها على كل المستويات سواء في مستلزمات الطباعة الحديثة وما تحتاجه من تطوير ومتابعات، أم في مجال تحفيز الباحثين والعاملين على الإنجاز كافة.

وتجدر الإشارة أخيراً إلى أن تسلسل البحوث في هذا الكتاب كان قائماً على مراعاة المرتبة العلمية للباحثين توجها علمياً، وأسوة بالدوريات الأكاديمية والكتب المحكمة.

وفي الختام لابدَّ لي من وقفةٍ عند واجب الشكر لكل من عمل علي، أو ساعد في إنجاز هذا الكتاب، وأبدأ برئيس مجلس إدارة مؤسسة السياب للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة في لندن الدكتور علي المناع الذي كان لتوجيهاته المعرفية في أكثر من جانب أثرٌ مهم في إثراء هذه العملية العلمية بدءاً من المقترح وعبوراً بالمتابعات وانتهاء بالإشراف على جوانب العمل كلها، أعانه على ذلك خبرةٌ في إصدار أكثر من سلسلة بالإنكليزية قبل هذه السلسلة العربية. وبهاء الشكر لمدير عام المؤسسة الفنان جواد المظفر، للمقدرة الفنية التي نسقت وصممت فحوّلت دغل الحروف لأفق من ضياء يزهو بجمالية الفن وألق الاتساق مصحوباً بخبرة منهجية وفحص دقيق، تجلّى كل ذلك في حواراتي الدائمة مع الطرفين من أجل الوصول بالعمل إلى أفضل المستويات، وللشباب أعضاء السكرتارية فضل المتابعة والإعلام والتصويب اللغوي، الدكتور عرفات فيصل والأستاذ مراد حميد، ولطالبي وزميلي المثابر، الدكتور محمد سالم سعد الله جمال الحوار العلمي الدائم تحليلا لوجهات نظر الباحثين كلما داهمني التعب من اصطدام الآراء وتقلبات الرؤى، والشكر لابنتنا المنجزة الآنسة سناء الكعبي على جهدها ومؤازرتها لمشاريع المؤسسة المعرفية بصبر ومواظبة.

وإذا كان شكر الباحثين الذين تجاوبوا معنا حقاً لهم وواجباً علينا، فقد أخرنا مَنْ حقهم التقديم احتفاءً بختام المسك، فتحية تقدير لكل الأقلام التي أسهمت في الكتاب الأول من هذه السلسلة والتي اتسمت بالجرأة وهي تخوض في ميدان ما يزال مُلبساً ومُلتبساً في معظم جوانبه، لأسباب ذكرت في المعوقات. فشكراً لهم، وتحية لجهدهم الذي أسهم في إنجاز هذا العمل البكر، على أمل أن نلتقي بهم في موضوعات جديدة على صفحات كتب أخرى من صفحات سلسلة (الآن) دراسات في اللغة والأدب والنقد، ومن الله سبحانه التوفيق كله، هو الأول والآخر، له الحمد والشكر أولاً وأخيراً.

بشرى البستاني
محررة الكتاب - ورئيسة التحرير

الفصل الأول

التداولية... مرجعيات ورؤى

التداوليـــة

قــراءة في النشــأة والمفهــوم

د. مؤيــد آل صوينـــت*

١

❖ مدخـــل

التداول لغةً: مصدر تداول، يقال: دال يدول دولاً: انتقل من حال إلى حال، وأدال الشيء: جعله متداولاً، وتداولت الأيدي الشيء: أخذته هذه مرة وتلك مرة[١].

التداولية اصطلاحاً: يسود الإبهام كثيراً من المصطلحات والمفاهيم المتاخمة للحقل التداولي، فالتداولية نفسها عبارة عن مجموعة من النظريات نشأت متفاوتة من حيث المنطلقات، ومتساوقة في النظر إلى اللغة بوصفها نشاطاً يمارس ضمن سياق متعدد الأبعاد. وعلى الرغم من عدم الوضوح الذي اكتنف التداولية، فإن مجمل الأفكار والملاحظات والتساؤلات- التي لم تتمكن المدارس اللسانية (ومنها البنيوية) من الإجابة عنها – قد وجدت سبيلها في هذا الاتجاه.

تعني لفظة *Pragma* في الإغريقية فعالية أو عملا أو مسألة[٢]، وتعني التداولية عند رائدها الأول (تشارلز موريس ١٩٣٨م): ((دراسة العلاقة بين العلامات ومفسريها))[٣]، فهي تهتم بمنتجي اللغة لا باللغة فقط، ويعدّ هذا التعريف المؤسس الوعاء الذي انصبت فيه التحديدات اللاحقة التي ترى أن اللغة بوصفها نشاطاً كلامياً، تتحكم فيها مجموعة من الشروط الذاتية والموضوعية فأي ((تحليل تداولي يستلزم بالضرورة التحديد الضمني للسياق الذي تؤول فيه الجملة))[٤].

---

* كلية الآداب - الجامعة المستنصرية

(١) يُنظر: لسان العرب مادة: دول

(٢) يُنظر: شظايا لسانية: ٥٦.

(٣) وصف اللغة العربية دلالياً: ١١٧، ويُنظر: تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية: ٨، وشظايا لسانية: ٢٩.

(٤) تحليل الخطاب المسرحي: ٨.

ويتجاذب التداولية أكثر من تعريف، فقد حدّت على أنها: اتجاه في الدراسات اللسانية، يعنى بأثر التفاعل التخاطبي في موقف الخطاب، ويستتبع هذا التفاعل دراسة كل المعطيات اللغوية والخطابية المتعلقة بالتلفظ، ولاسيما المضامين والمدلولات التي يولدها الاستعمال في السياق[1]، وتشمل هذه المعطيات:

- معتقدات المتكلم ومقاصده، وشخصيته وتكوينه الثقافي ومن يشارك في الحدث اللغوي.
- الوقائع الخارجية، ومن بينها الظروف المكانية والزمانية والظواهر الاجتماعية المرتبطة باللغة.
- المعرفة المشتركة بين المتخاطبين، وأثر النص الكلامي فيها[2].

وقد تعددت تحديدات التداولية، وإن انصبّت كلها –كما أسلفنا- في معالجة العلاقة بين المتكلمين والسياق الذي يرد فيه الملفوظ، إلا أن اختلاف تصور السياق وإدراكه جعل تلك التحديدات تختلف، فمن الباحثين من يحدّها بأنها ((أقوال تتحول إلى أفعال ذات صبغة اجتماعية بمجرد التلفظ بها))[3]، وهذا التحديد أقرب إلى الفعل الكلامي منه إلى التداولية كما سيأتي في مبحث (الأفعال الكلامية).

ومنهم من يلخص التداولية في دراسة الآثار اللغوية التي تظهر من الخطاب، وتنظر في عنصر الذاتية للخطاب، ويشمل هذا التداول ضمائر الشخص ومبهمات الزمان والمكان، وينظر في الجانب الضمني والتلميحي والحجاجي للكلام، والسياق يفرض على الباحث احترام مجموعة من قوانين الخطاب في أثناء مخاطبته الآخر[4].

وحدّها بعض الباحثين بوصفها ((الدراسة التي تعنى باستعمال اللغة، وتهتم بقضية التلاؤم بين التعابير الرمزية والسياقات المرجعية))[5]، ونلمح في هذا التحديد إعطاء المجاز أهمية خاصة، وهو ما تحفل به التداولية كثيراً لكنه ليس المجال الوحيد الذي تتناوله بالدرس والمعالجة، ورُصد للتداولية تعريف آخر ((أنها تمثل دراسة تهتم باللغة في الخطاب، وتنظر في الوسميات الخاصة به))[6]، ويلزع هذا التعريف إلى حصر مجال التداولية في الخطاب والابتعاد عن الدراسة التقليدية للجملة.

في حين يعرض (فيرشورن) تعريفاً عريضاً بقوله ((تدرس التداولية كل شيء إنساني

---

(١) يُنظر: البراغماتية وعلم التركيب: ١٢٥.

(٢) يُنظر: البحث اللساني والسيميائي (بحث): ٣٠١-٣٠٢.

(٣) تحليل الخطاب المسرحي: ٨.

(٤) يُنظر: شظايا لسانية: ٥٩.

(٥) النص والسياق: ٢٧٣.

(٦) التداولية واللسانيات *www.drooh.com*.

في العملية التواصلية، سواء كان نفسياً أو بايولوجياً أو اجتماعياً))[١]، يضع (النفسن) تعريفاً أضيق فيقول ((التداولية دراسة العلاقات بين اللغة والسياق كما هي مقعدة أو كما تعكسها بنية اللغة))[٢].

ويعرف (فان دايك) الخطاب التداولي بأنه ((الخطاب الذي يهتم بالعلاقات المطردة الموجودة بين بنيات النص والسياق))[٣].

وترى (فرانسواز أرامنكو) أن الشروط القبلية هي جوهر التداولية فتحددها بالقول: ((هي دراسة الشروط القبلية التواصلية كما هي، فلا يوجد لها طابع يرتبط بالظروف التجريبية، بل بشروط تواصلية عامة))[٤].

ولا يبتعد مفهوم (هلل) عن التعريف السابق فهو يرى أن التداولية هي ((دراسة الارتباط الضروري لعملية التواصل في اللغة الطبيعية بالمتكلم والسامع بالمقام اللغوي وبالمقام غير اللغوي وارتباطها بوجود معرفة أساسية وبسرعة استحضار تلك المعرفة))[٥].

ومن الباحثين من يعطي التداولية مفهوماً أكثر عمومية بالقول ((إن التداولية أحدث فروع العلوم اللغوية، وتعنى بتحليل عملية الكلام والكتابة ووصف وظائف الأقوال اللغوية وخصائصها خلال إجراءات التواصل بشكل عام))[٦].

ويقدّم (مسعود صحراوي) تعريفاً إجرائياً للتداولية إذ يربطها بالتواصل على نحو يجعلهما شديدي الالتصاق فهو يحدّها ((هي إيجاد القوانين الكلية للاستعمال اللغوي، والتعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي، وتصير (التداولية) من ثم جديرة بأن تسمى علم (الاستعمال اللغوي)))[٧].

وتعنى التداولية بالشروط والقواعد اللازمة للملاءمة بين أفعال القول ومقتضيات المواقف الخاصة به، أي العلاقة بين النص والسياق، ويلاحظ باستمرار تلك العلاقة الوثيقة بين التداولية والدلالة والنحو، إذ يجمع بينهما مستوى السياق المباشر، بما يجعل التداولية قاسماً مشتركاً بين أبنية الاتصال النحوية والدلالية والبلاغية[٨]. ويأتي

---

(١) شظايا لسانية: ٥٩.
(٢) المرجع نفسه: ٥٩.
(٣) النص والسياق: ٢٧٥.
(٤) المقاربة التداولية: ٨٤.
(٥) السيمياء وفلسفة اللغة: ٤٥٥.
(٦) الخطاب القرآني: ٢٨، ويُنظر: بلاغة الخطاب وعلم النص: ٢٦.
(٧) التداولية عند العلماء العرب: ١٦-١٧.
(٨) يُنظر: علم لغة النص: ٢٣٨، وبلاغة الخطاب وعلم النص: ٢٦، واللسان والميزان: ٤١.

مفهوم التداولية هذا ليغطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة بعبارة (مقتضى الحال) التي خرجت من رحمها المقولة الشهيرة (لكل مقام مقال).

ولعل انصرافها إلى المقام جعل بعض الباحثين يرى فيها ((دراسة لهيمنة المقام على معنى العبارة))[١]، أو هي ((العلم الذي يدرس تأثير المقام في معنى الأقوال))[٢]. ويرى الباحث أن التداولية هي: دراسة الاستعمالات الفعلية لحظة الكلام وما يتولد عنها من دلالات في المقامات الخطابية، في إطار التواصل ومقاصد الخطاب اللغوي.

فالتداولية تتجاوز الوصف التركيبي للجملة ودرجة نحويتها، (وهذا مدار علم التركيب) أو علاقة المعجم المكوّن للقضية بالخارج، (وهذا مدار علم الدلالة) وتتخذ موضوعاً للبحث: القول منزلاً في المقام المعين، وتؤكد أثر المعارف غير اللغوية في تأويل الأقوال وفهم المقاصد، فثمة قضية جوهرية بالنسبة إلى التداولية تكمن في تحديد العلاقات بين هذين المقامين: الداخلي والخارجي للعبارة، وفي رؤية كيف أن المقام الثاني يتدخل في بناء المقام الأول والتفاعل بين الاثنين في تأويل الملفوظ وتفسيره.

❖ نشأة التداولية

ينظر إلى التداولية على أنها مبحث لساني جديد، لكن البحث فيها يمكن أن يؤرخ له منذ القدم، إذ كانت تستعمل كلمة *Pragmaticus* اللاتينية، وكلمة *Pragmaticas* الإغريقية بمعنى (عملي) ويعود الاستعمال الحديث والمتداول على تأثير (البراغماتية)[٣].

وإذا حاولنا البحث عن الجذور الأولى (للتداولية) فيمكن تلمسها في الاتجاه التحليلي في الفلسفة (الفلسفة التحليلية)، وهو الاتجاه الرئيس في فلسفة اللغة، أو التيار الغالب في الفلسفة المعاصرة الذي ركّز على موضوع اللغة، وحاول تغيير مهمة الفلسفة وموضوعها وممارستها.

وقد تأثر بالتجديد الفلسفي الذي جاء به (فريجه) عدد من الفلاسفة منهم (هوسرل) و (كارناب) و (فيتغنشتاين) و (اوستن) و (سيرل)، وتجمع بين هؤلاء الفلاسفة مسلمة عامة مشتركة، مفادها: أن فهم الإنسان لنفسه وعالمه يرتكز في المقام الأول على اللغة، فهي التي تعبّر له عن هذا الفهم، وتلك رؤية مشتركة بين جميع تيارات الفلسفة التحليلية واتجاهاتها، ويمكن إجمال سمات الاتجاه التحليلي بما يأتي:

---

(١) القاموس الموسوعي: ٦٧٧.

(٢) التداولية اليوم: ٢٦٤، ويُنظر: التراكيب الإعلامية: ٥٧.

(٣) يُنظر: التداولية واللسانيات.

١. ضرورة التّخلي عن أسلوب البحث الفلسفي القديم ولاسيّما جانبه الميتافيزيقي.
٢. تغيير بؤرة الاهتمام الفلسفي من موضوع (نظرية المعرفة) إلى (التحليل اللغوي).
٣. تجديد بعض المباحث اللغوية وتعميقها، لاسيما مبحث الدلالة، والظواهر اللغوية المتفرعة عنه[١].

ويتكون الاتجاه التحليلي من تيارات فرعية أهمها تيار اللغة الاعتيادية عند (مور ورسل وفتغنشتاين)، وتيار اللغة الاصطناعية الذي يدرس اللغة الشكلية أو الصورية، وهو الاتجاه الذي تمثله الوضعية المنطقية بزعامة (كارناب وآير)، وتقوم على التحليل المنطقي للجمل والقضايا اللغوية، وتيار أفعال اللغة بزعامة (سيرل واوستن) ضمن مدرسة اكسفورد[٢].

ولم يكن المنهج الوظيفي التداولي محط اشتغال هذه التيارات كلها، فقد اهتم منهج الوضعية المنطقية باللغات الصورية المصطنعة، ونهض منهج (دافيوس) بشروط الصدق، وبذلك خرجت من الاهتمام التداولي، فلم يبق ضمن الاهتمامات التداولية إلا تياران هما: التيار الفلسفي الاعتيادي، وتيار أفعال اللغة.

ويرى بعض الباحثين أن بدايات التداولية –لاسيما نظرية أفعال اللغة- زامنت نشأة العلوم المعرفية، فقد جرى التفكير في معالمها في سياق عقلية جديدة هي العقلية التي مكنت من ظهور العلوم المعرفية[٣].

ويمكن القول إن البداية الفعلية للتداولية تبلورت من أعمال فلاسفة اللغة، لاسيما مناقشات (جون اوستن *J. Austin* ١٩٥٠م) في جامعة هارفارد، ويجب أن نذكر هنا أنه لم يفكر في تأسيس اختصاص فرعي للسانيات، وإنما توخى تأسيس اختصاص فلسفي جديد هو فلسفة اللغة، ووضع (أوستن) وتلميذه (سيرل) نواة التداولية، وطورا من وجهة نظر تحليلية مفهوم (الفعل اللغوي)[٤].

وفي العام ١٩٥٧م نشر فيلسوف آخر هو (بول غرايس) مقالاً في الدلالة كانت له أهمية تاريخية، وبعد مرور عشر سنوات ألقى (غرايس) (محاضرات وليام جيمس) هذه

---

(١) يُنظر: التداولية عند العلماء العرب: ٢٢، والفلسفة واللغة: ٢٠٢.
(٢) يُنظر: الفلسفة واللغة: ٢٠٢، واللسانيات الوظيفية: ٣٦.
(٣) يُنظر: التداولية اليوم: ٤٣.
(٤) يُنظر: الفلسفة واللغة: ١٠٤.

المحاضرات التي لم تسمح فقط بإحداث تقدم في مستوى معرفتنا باللغات الطبيعية، وإنما أحدثت تغييراً طال حتى هندسة اللسانيات، فاكتشاف الأبعاد التداولية للغة فتح آفاقاً أرحب وأنتج أسئلة جديدة ستكون مسوغاً للاعتراف بالتداولية بوصفها أحدث بحث أفرزته اللسانيات الحديثة، البحث الذي يولي الشروط الخارج –لغوية أهمية قصوى والمتعلقة بالمقام والمتكلمين ومقاصدهم، وحيثيات الاستعمال والأفعال اللغوية، أو بعبارة التوليديين أصبحت جزءاً من دراسة الإنجاز[1].

ويرى (صلاح فضل) أن تيار تحليل الخطاب التداولي أخذ يفيد في الآونة الأخيرة من جملة المبادئ السيميولوجية، غير أن بدايته كانت تدين في الازدهار إلى اتجاهين كبيرين في تحليل الخطاب منذ عقد الستينيات أحدهما لغوي يبحث في علاقات النص على مستوى (ما فوق الجملة) الواحدة[2]، إذ بدأت تطفو فوق سطح الدرس اللساني مقولات تداولية جديدة مثل (البؤرة) و (الاقتضاء) و (الاستلزام الخطابي)[3].

وفي أواخر الستينيات تُبنّي مفهوم (كارناب) الذي ساوى بين التداولية والسيمياء الوصفية، وأدخل (كارناب) مفهوم السياق المتضمن هويات المشاركين في الحدث الكلامي والمحددات الزمانية والمكانية والمعتقدات ومقاصد المشاركين[4].

ويذهب بعض الباحثين إلى تاريخ أقرب للتداولية، إذ يؤرخ لها ببداية السبعينيات[5]، ولم أجد فيما اطلعت من يشاطره هذا الرأي.

وخلاصة القول إن الدرس التداولي نشأ في أجواء معرفية انكبت على اللغة دراسة وفهماً وتوضيحاً، وأسهمت اسهاماً واضحاً في فتح فضاءات لدراسة ظواهر دلالية وتداولية كانت توسم بأنها مهملة أو مهمشة، إذ تم الانتقال من الإرث السوسيري وتأثيرات المدرسة البنيوية للغة في تهيئة الأجواء لبروز اللسانيات التداولية وما صاحبها وانبثق عنها من اتجاهات لسانية وظيفية أعطت الدرس اللغوي روحاً جديدة لم يألفها من قبل بطريقة ممنهجة وعلمية.

(١) يُنظر: البعد التداولي عند سيبويه (بحث). ٢٤٥-٢٤٦.
(٢) يُنظر: بلاغة الخطاب وعلم النص ١٠٥-١٠٦.
(٣) يُنظر: مناهج التحليل النحوي في القرن العشرين: ٢٧٠.
(٤) يُنظر: بلاغة الخطاب وعلم النص: ١٠٦.
(٥) يُنظر: شظايا لسانية: ٦١.

❖ مهام التداولية

لا يزال الجدل يسوّر مهام التداولية وإسهامها في اللسانيات المعاصرة، فالقواعد التداولية تحاول أن تبحث عن المشتركات الدالة لفحوى الخطاب والتيمات التي ترد فيه، وهذا يعني اجتراح دراسة منظمة تسعى للكشف عن العلاقات بين متواليات الجمل والقضايا التي تحملها، وتتطلع للتعرف على الروافد الخارج – لغوية، وتسخيرها لفهم أكمل للخطاب المروم تلقيه ودرسه.

وتقف مجموعة من الأسباب للانشغال بالتداولية مؤخراً، بعضها تاريخي وبعضها غير ذلك، فقد بدأ الاهتمام بها بصفتها منهجاً يمثل ردة فعل على معالجات (جومسكي) للغة بوصفها أداة تجريدية أو قدرة ذهنية قابلة للانفصال عن استعمالاتها ومستعمليها، فضلاً عن التوصل إلى اقتناع مفاده أن المعرفة المتقدمة بالنحو والصوت والدلالة لم تستطع التعامل مع ظواهر معينة ذات أهمية بالغة، ويمكن عدّ الإدراك المتزايد بوجود فجوة بين النظريات اللسانية من جهة ودراسة الاتصال اللغوي من جهة أخرى سبباً آخر للاهتمام بالتداولية.

ومن الأسباب الأخرى، توجه معظم التفسيرات اللسانية إلى سمة لغوية أخرى أو إلى جوانب معينة من داخل النظرية، وبظهور الحاجة إلى تفسير ذي مرجعية خارجية، ظهرت الوظيفية اتجاهاً ممهداً للتداولية.

وتسعى التداولية من طريق الأهداف المحدّدة لها إلى الإجابة عن تساؤلات من النمط الآتي: من يتكلم؟ من يقع عليه الكلام؟ ماذا تفعل حينما تتكلم؟ ما قيود الحديث؟ أين يكمن الغموض في الكلام؟ لماذا يكون التلميح أبلغ من التصريح...؟.

وتكمن وظيفة التداولية في استخلاص العمليات التي تمكن الكلام من التجذر في إطاره الذي شكل الثلاثية الآتية: المرسل، والمتلقي، والوضعية التبليغية، فالتحليل التداولي يستلزم بالضرورة التحديد الضمني للسياق الذي تؤول فيه الجملة[1].

وتتلخص مهام التداولية في:

- دراسة (استعمال اللغة) التي لا تدرس (البنية اللغوية) نفسها، وإنما تروم دراسة اللغة في الطبقات المقامية المختلفة، أي بوصفها (كلاماً محدداً) صادراً عن (متكلم محدد) وموجهاً إلى (مخاطب محدد) بـ(لفظ محدد) في

---

(١) يُنظر: النص والسياق (دايك): ٢٩، والعلاماتية وعلم النص: ١٧٣، وتحليل الخطاب المسرحي: ٨.

(مقام تواصلي محدد) لتحقيق (غرض تواصلي محدد).

- شرح كيفية جريان العمليات الاستدلالية في معالجة الملفوظات.
- بيان أسباب أفضلية التواصل غير المباشر، وغير الحرفي على التواصل الحرفي المباشر.
- توضيح أسباب فشل المعالجة اللسانية البنيوية في دراسة الملفوظات.
- تجسير العلاقة بين الأنشطة الإنسانية الآتية: اللغة والتواصل والإدراك؟ - بيان القواسم المشتركة بين الفروع المشتغلة بهذه الأنشطة (أي علم اللغة وعلم التواصل وعلم التنفس المعرفي)، ودراسة الوجوه الاستدلالية للتواصل الشفوي، فتقيم من ثم روابط وشيجة بين علمي اللغة والتواصل.
- العناية بالشروط اللازمة كي تكون الأقوال اللغوية مقبولة وناجحة وملائمة في الموقف التواصلي[1].
- دراسة كيفية ربط اشتراطات نجاح الملفوظ وأسس التفاعل الإبلاغي ببنية الخطاب وتفسيره.
- دراسة مكونات التخاطب (المخاطِب، والمخاطَب، والخطاب والمساق)، وتأثيرها في المقولات اللغوية من ناحية التفسير والتأويل[2].

ويشير بعض الباحثين إلى أثر التداولية في تعيين المجال التجريبي القائم على القواعد المتواطأ عليها في اللغة، والبرهنة على نجاح العبارة بوصفها فعلاً إنجازياً، ومبادئ فعل مشترك لإنجاز التواصل مع بنية الخطاب[3].

ويمكن القول بشكل عام إن الجانب التداولي يضم أثر المتلقي، والموقف، وهدف النص، والمقام، ونوع المعلومة المطروحة، وأنواع التفاعل، وأشكال السياقات، وكيفية التواصل، وغير ذلك مما يختص بالعلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات.

❖ التداولية والعلوم الأخرى

تعد بنية النص بنية معرفية معقدة ذات أبعاد أفقية وتدرّج هرمي بها حاجة إلى النسق المتكامل من علم النحو، وعلم الدلالة، والتداولية، وينبغي أن نذكر هنا، أن

(١) يُنظر: التداولية عند العلماء العرب: ٢٦-٢٧، و الخطاب القرآني: ٢٨.

(٢) يُنظر: وصف اللغة العربية دلالياً: ١١٨.

(٣) يُنظر: النص والسياق: ٢٥٠، والصورة الشعرية: ٢٩.

تأويل الملفوظات يوافق نوعين من التصنيفات: الأول ترميزي ولغوي، والثاني استدلالي وتداولي، وفي ضوء هذا المنظور تعد التداولية بمنزلة شعبة لسانية مناظرة للشعب التقليدية؛ كعلم الأصوات الوظيفي، وعلم التركيب وعلم الدلالة.

ويتبوأ المستوى التداولي في النظريات الوظيفية موقعاً مركزياً، إذ يحدد والمستوى الدلالي الخصائص الممثل لها في المستوى التركيبي والصرفي، في حين أنه في النظريات غير الوظيفية – إذا وجد- لا يقوم إلى جانب المستوى الدلالي إلا بدور تأويلي[(1)].

وتوليد الدلالة ووضع العلامات (أي التواصل في الواقع) يكمن في ثلاث علاقات بنية: العلاقة الدلالية: وهي علاقة العلامات بالأشياء، والعلاقة الإعرابية وهي العلاقة القائمة بين العلامات نفسها، والعلاقة التداولية وهي علاقة العلامات بالمتخاطبين، لذا يصف موريس التداولية بأنها ((قسم من الدلائلية يعنى بالصلة القائمة بين العلامات ومستعمليها))[(2)].

ويقول بعض الباحثين لبيان الفرق بين التداولية والعلوم اللسانية الأخرى إن الأقوال في مقام التركيب ينبني بعضها على مقتضى صورها، لكن الأقوال في مقام الدلالة ينبني بعضها على بعض على مقتضى مضمونها، فتكون القيمتان اللتان تتحدد بهما الأقوال في هذه الطبقة الثانية هما: (صادق) و (كاذب)، أما الأقوال في مقام (التداول) فينبني بعضها على بعض أساساً على مقتضى استعمالها، فتكون القيمتان اللتان تتحدد بهما الأقوال في هذه الطبقة الثالثة هما (متفق عليه) و (مختلف فيه)، إذا صح هذا، صح معه أن الانبناء التركيبي غير الانبناء الدلالي وغير الانبناء التداولي[(3)].

ونشير هنا إلى أن مفسر الخطاب ينتقل بين هذه المستويات الثلاثة مستنداً إلى تصورات ومفاهيم وقيود اصطلاحية ومعرفية، وتتآزر هذه المستويات لتقديم تفسير يتسم بالتكامل والشمولية، فالنحو يقوم بتحليل العلاقات بين العلامات في المستوى الأفقي، وتحلل الدلالة صلة العلامات بالمدلولات والواقع، وتعنى التداولية بتوصيل دلالات العلامات، فهي تعتمد المنجز المقدم من المستويات السابقة لتنظر إلى علاقة الكل المنجز بالمتكلم وما يحيط به من أحوال، فمعاني المدونة اللفظية قد تتغير في أثناء تغير الوضعية الاجتماعية والنفسية للباث (المتكلم).

ويشترك المحوران الدلالي والتداولي في أنهما مختصان بما يتجاوز الرمز اللغوي نفسه إلى أبعاد أخرى، غير أنهما يفترقان في أن الدلالة تدرس المعنى المجرد خارج إطار

---

(1) ينظر: اللسانيات الوظيفية: ١٤.

(2) وصف اللغة العربية دلالياً: ٧٥، وعلم لغة النص: ١٢٨.

(3) ينظر: اللسان والميزان: ٤٣.

المقام، أما التداولية، فتهتم بما يرمي إليه المتكلم من معان تتجاوز المعنى الدلالي للكلمات، بما يستدعي الإحاطة بالمقام والمرجعية الثقافية للمتكلم والمخاطَب معاً[1].

وينبغي ألاّ يغيب عن ذهننا أن التداولية والدلالة كلاهما معني بقضية المعنى، ويوضح (ليتش *Leech*) الفرق بينهما بالجملتين الآتيتين:

١. ماذا تعني (أ)؟

٢. ماذا تعني أنت بـ(أ)؟

إن الفرق بينهما هو أن الدلالة تهتم بالمعنى *Meaning* في نفسه (الجملة رقم ١) في حين تستحضر التداولية لفهم المعنى عنصر المتكلم (*Speaker*) أو مستعمل اللغة (الجملة رقم ٢) مع ما يقصده من قصود[2].

ويفرق (طه عبد الرحمن) بين الدلالة والتداول، فيصف الدلالة بأنها مؤشر إلى معنى معين، في حين أن التداول يشتمل على ثلاثة عناصر، هي: عنصر ذاتي يتمثل في التعبير عن معتقدات المتكلم ومقاصده واهتماماته ورغباته، وعنصر موضوعي يتمثل في الوقائع الخارجية ومن ضمنها الظروف الزمانية والمكانية، وعنصر ذواتي ويدل على المعرفة المشتركة بين المتخاطبين[3].

وعلى الرغم من الكلام السابق لبيان الفرق بين الدلالة والتداولية، يمكن أن يوسم علم الدلالة بكونه أقرب الحقول إلى التداولية، يقول (كرستال) في معرض حديثه عنهما: ((يدرس كلاهما تصميم المتكلم وتأثير التفوه في السامع والتضمينات الناجمة عن التعبير عن شيء ما بطريقة والمعرفة والعقائد والافتراضات المسبقة... عن العالم الذي يتحدث عنه المتكلم والسامع))[4].

ويقول (اومستمان) ((وحدة التحليل في علم الدلالة المعنى، أي معنى الكلمة والعبارة والتركيب الأوسع... ويمكن القول أن وحدة التحليل في التداولية وظيفة اللغة))[5].

ويقدم مجيد الماشطة فرقاً بين الحقلين بقوله: دعنا ننظر في هذا المثال: (هنالك حصان في الحديقة). فيقول: تهتم الدلالة بحقيقة أن الحصان (وهو الحيوان) موجود في الحديقة وليس في خارجها. أما التداولية فتهتم بالمعنى الإضافي الذي يضفيه المتكلم حينما يقول هذه الجملة ضمن سياق معين: ما الغرض الكامن في ذهن هذا المتكلم؟

---

(١) يُنظر: علم الدلالة السيمانتيكية والبراغماتية: ١٥٧-١٦٣.

(٢) يُنظر: البعد التداولي عند سيبويه: ٣٦٨.

(٣) يُنظر: البحث اللساني والسيميائي (بحث): ٢٩٩.

(٤) شظايا لسانية: ٦٣.

(٥) المرجع نفسه: ٦٣.

ربما يقصد المتكلم تحذير الأطفال من الخروج إلى الحديقة، ويقصد آخر أن نستعمل الحصان للذهاب إلى مكان ما، ويقترح ثالث أن نسرقه. تدرس الدلالة -إذن- المعنى الثابت المشترك لكل السياقات المحتملة، وتدرس التداولية الهالة التي تحيط بالمعنى الثابت والتي تتغير من سياق لآخر وهي بالتأكيد ليست أقل أهمية من الناحية العملية[1].

وهناك من الباحثين من يرى عدم جدوى إقامة تلك الحدود بين العلمين، فكلا العلمين يتناول المعنى وهذا الأخير ذو صلة بالمقام، وإذا احتج بأن الدلالة محصورة في المعنى المجرد خارج إطار المقام والتداولية تختص بالمعنى المتصل بالمقام، فإن هذا التقسيم يختل عند تطبيقه، فكثير من التراكيب تتجرد من مضامينها الدلالية إن أغفل المقام، فالعرب تفهم معنى المثل (يداك أوكتا وفوك نفخ)[2]، بالإشارة إلى المقام الذي انبثق منه المثل، وهي قصة الرجل الذي نفخ زقاً وأراد بوساطته أن يعوم في البحر وهو لا يعرف السباحة فغرق، فكان أن قال رجل كان يرقبه هذا المثل، الذي صار يضرب في مواقف مشابهة... فليس من الممكن إذن أن يكون للجملة معنى دلالي بمعزل عن المقام. ويقال الأمر نفسه في هذا الضرب من القصص التي ذهبت مثلاً في الآداب واللغات كلها[3].

ويرى الباحث صعوبة الوصول إلى نظرية منسجمة ذات حدود واضحة بشكل قاطع لبيان التداخل بين التداولية والعلوم الأخرى، فالدرس التداولي درس ممتد على مساحات معرفية واسعة ومختلفة بما يجعله حقلاً يركز على مناطق متداخلة: علم الدلالة وعلم اللغة الاجتماعي والسياقات خارج – اللغوي، بيد أن الحدود غير قابلة للتحديد الدقيق حتى الآن، فالارتباط وثيق بين المحورين الدلالي والتداولي، وكلاهما يحتاج إلى المقام والسياق عند النظر فيه، غير أن المحور التداولي ((يولي اهتمامه للعلاقة بين التراكيب اللغوية والمقام مباشرة، أما المحور الدلالي فيدرس أولاً الصلات بين الرموز اللغوية ومسمياتها، وهو بالإضافة إلى ذلك يلتفت إلى المقام، ولكنه لا يعنى بتفصيل القول فيه، تاركاً عبء ذلك على التداولية))[4].

وينبغي أن نذكر هنا أن التداولية حملت ندوب تطورها المتصل باللسانيات الخالصة، فأفردت مجالاً لدراسة الاعتماد المتبادل بين اللغة والسياق الاجتماعي لم

---

(١) يُنظر: المرجع نفسه: ٦٣-٦٤.

(٢) يُنظر: مجمع الأمثال: ٢١٩/٣.

(٣) يُنظر: علم الدلالة السيمانتيكية والبراغماتية: ١٥٧.

(٤) التراكيب الإعلامية: ٥٧.

يكن متوفراً قبل ظهور التداولية منهجاً للتحليل والفحص، لذا التداولية أقرب لأن تكون مستوى إضافياً في الدرس اللساني يملأ الفجوات التي تركتها المستويات الأخرى.

٢

❖ نظرية أفعال الكلام

. تقع نظرية الأفعال الكلامية في موقع متميز من المنهج التداولي في تصورات اللسانيين المعاصرين وتشكل جزءاً أساسياً من بنية النظرية بحسب العلماء المؤسسين للتداولية[١].

وتعد هذه النظرية من بين أهم النظريات التي حاولت بحث العلاقة بين اللغة والاتصال، فقد مثلت مقولة (مالينوفسكي) ((إن اللغة أسلوب عمل وليست توثيق فكر))[٢] الحجر الأساس للنظرية، فدلالة الملفوظات تتداخل بين التقرير والأداء، وترتبط مباشرة بالموقف الذي تقال فيه أو تنجز فيه، لذا نجد أن لاينز يقول: يجب علينا في تحليل الأفعال الكلامية أن نضع في بالنا أن الجمل تنطق ضمن سياقات معينة، وأن جزءاً من معنى المنطوق يستمد من السياق الذي ينتج فيه[٣]، ويذكر مالينوفسكي أن اللغة ((وسيلة من وسائل الفعل وليست أداة للتأمل))[٤].

يعود مصطلح (الأفعال الكلامية) إلى (بوهلر ١٩٣٤م)، وقصد به الاقتضاء الموافق للكلام، ومع ازدهار تحليل الملفوظ (كبنية للبحث) تبناه رواد التداولية وعلى رأسهم (أوستن ١٩٦٢) فأكسبه المدلول الحالي[٥].

والفكرة الأساسية عند (أوستن) هي أن دراسة المعنى يجب أن تبتعد من التراكيب الجوف مثل (الجليد الأبيض) بمعزل عن سياقاتها، لأن اللغة -عادة – تستعمل داخل سياق الكلام لتأدية الكثير من الوظائف، فحينما نتكلم فإننا نقدم اقتراحات، ونبذل وعوداً، ونوجه الدعوات، ونبدي مطالب، ونذكر محظورات، وما إلى ذلك، فاللغة مؤسسة تتكفل بتحويل الأقوال التي تصدر بضمن معطيات سياقية إلى أفعال ذات صيغة اجتماعية، حينما يقول القاضي (فُتحتْ الجلسةُ) يكون قد أنجز فعلاً اجتماعياً

---

(١) يُنظرْ: النص والسياق: ٢٥٥، والتداولية عند العلماء العرب: ٥.

(٢) علم الدلالة: ٢١٢.

(٣) يُنظرْ: اللغة والمعنى والسياق: ٢٠٠.

(٤) علم اللغة الاجتماعي: ١٧٢، والمدارس اللغوية التطور والصراع: ٢٣٤، ودلالة السياق: ٢٢٣.

(٥) يُنظرْ: اللغة والدلالة: ٦٤.

هو فتح الجلسة. تقول (أوركيوني): ((إن الكلام بدون شك هو تبادل للمعلومات ولكنه أيضاً تحقيق لأفعال مُسيَّرة وفق مجموعة من القواعد... من شأنها تغيير وضعية المتلقي وتغيير منظومة معتقداته و/أو وضعه السلوكي، وينجرّ عن ذلك أن فهم قول معين يعني التعريف بمحتواه الإخباري وتوجهه التداولي))[1].

إذا تتبعنا تقسيم (أوستن) للجمل والقضايا والعبارات، لا نجده يقول بالتقسيم التقليدي أي تقسيمها إلى خبرية وإنشائية، ومن ثم الاحتكام إلى معيار الصدق والكذب، وإنما ينطلق من موقف جديد هو أن كل الجمل والعبارات مهما كانت طبيعتها –قابلة- ومعدة للتواصل ومن ثم فإن الوحدة الأساسية للغة هي الأفعال الكلامية التي ((تم انتاجها في الموقف الكلي الذي يجد المتخاطبون أنفسهم فيه))[2]، وإذا اعتددنا الأقوال أفعالاً، فإنها تعمل وتسعى لتحقيق شيء ما أو غرض ما، وعلى وفق هذا المنظور فإن القضية لا تتعلق بالصدق والكذب فقط، بل بالسياق والمناسبة أيضاً، يقول: ((إن صدق أو كذب حكم ما، لا يتعلق بدلالة الكلمات وحسب، بل بالمناسبات الدقيقة التي تم فيها))[3].

وقد ميّز (أوستن) نوعين من الأقوال:

- النوع الأول: هي تلك الأقوال التي تصف حالاً معيناً لشيء أو شخص ويسميها (الأقوال التقريرية).
- النوع الثاني: فهي لا تصف ولا تخبر وغير خاضعة لمعيار التصويب، بل مزيتها الأساسية أن التلفظ بها يساوي تحقيق فعل في الواقع ويسميها (الأقوال الإنشائية) وسنعرض لها بشيء من التفصيل فيما يأتي من البحث.

وفي سيرورة بحثه عن الفروقات الدقيقة بين هذه الجمل والملفوظات، اكتسب (أوستن) شهرته بوصفه احد الأعمدة الأساسية للتداولية، لكن، ولمجاوزة نقاط الضعف عند أستاذه قام (سيرل) ((بدفع نظرية أفعال الكلام إلى أقصى حدودها الدلالية الممكنة من حيث أنه قسّم الأفعال نفسها إلى أفعال مباشرة وأفعال غير مباشرة. وقام بتطوير بعدين أساسيين من أبعاد اللغة أهملهما أوستن في نظريته وهما: المقاصد والمواصفات، فمقاصد الأفعال اللغوية، ولكي تفهم، لابد لها من توفر

---

(1) تحليل الخطاب المسرحي: ١٧٥-١٧٦، ويُنظر: الفلسفة واللغة: ١٠٤، واللسانيات الوظيفية: ٦٨.
(2) حينما يكون الكلام هو الفعل: ٤١.
(3) المرجع نفسه: ٤١.

مواصفات يتفق حولها المتخاطبون))[1].

❖ الأقوال الوصفية والأقوال الإنجازية:

ميز (اوستن) نوعين من الأقوال:

- **الأقوال الوصفية (المنطوق التقريري):** هي تلك الأقوال التي تصف حالاً معيناً لشيء أو شخص، وقد أسماها النحاة العرب بالأساليب الخبرية، وهي ((أن الكلام إن احتمل الصدق والكذب لنفسه، بحيث يصح أن يقال لقائله إنه صادق أو كاذب. إنه سمي كلاماً خبرياً، والمراد بالصادق ما طابقت نسبة الكلام فيه الواقع وبالكاذب ما لم تطابق نسبة الكلام فيه الواقع))[2]، ومن خصائصها أنها تصف حالة الأشياء في الكون التي تسبق التلفظ، بحيث لا يرتهن وجود هذه الحالة بالتلفظ[3].
- **الأقوال الإنجازية (المنطوق الأدائي)** وتقابل ما يسمى في العربية الإنشاء الإيقاعي، وهي لا تصف، ولا تخبر، ولا تمثل، وغير خاضعة لمعيار التصويب، ولكن مزيتها الأساسية أن التلفظ بها يساوي تحقيق فعل في الواقع، وهي أقوال توجد بوجود شروط وملابسات معينة يقترب التلفظ بها بتغيير حالة الأشياء في الكون، مثال ذلك:

١. أعلن الجلسة مفتوحة.   ٢. أتحداك على صعود الجبل.   ٣. آمرك بفتح الباب.

وينبغي أن تتوافر هذه الأقوال على مجموعة من الشروط، فقول القاضي: (أعلن الجلسة مفتوحة) ينتج منه فعل الافتتاح؛ وهو الوحيد الذي له الحق في ذلك، والمثال الثاني يمثل فعل التحدي، وللتحدي شروط، أهمها القدرة على القيام به.

أما المثال الثالث فيمثل الأمر، ولتحقيق الأمر لابدّ أن يكون هناك آمر ومأمور، ونسق تحليلي يسمح بتحقيق الأمر، هذه الشروط يسميها أصحاب الفلسفة التحليلية بـ(القواعد التأسيسية) التي سيأتي الحديث عنها لاحقاً.

إن أفعال الكلام حين إصدارها تنجز وضعيات جديدة، فقد أنجز التلفظ بالمثال الأول افتتاح الجلسة بعدما كانت مرفوعة، ومن ثمّ، فإن الحقيقة الوحيدة التي

---

(١) فلسفة التواصل: ١٢، ويُنظر: نظرية الأفعال الكلامية، والموسوعة الفلسفية: ١٣٣.

(٢) الأساليب الإنشائية: ١٣.

(٣) يُنظر: التداولية اليوم: ٢٧٢.

تستند إليها الأفعال الكلامية هي الإنجاز[1]. ومن أمثلة الأفعال الكلامية في العربية بعض صيغ العقود مثل (بعتك) و (أنت حر).

هيمنت فكرة الأدائية على ذهن (اوستن) حتى أصبح لا ينظر بحدّة إلى هذين القسمين بوصفهما متمايزين، بل حاول النظر إلى الجمل أو المنطوقات بمعيار الأدائية التي تحققها هذه المنطوقات بالفعل، ولذا إن جملة مثل (في الحقل ثور)، قد تكون تحذيراً وقد لا تكون، فإذا كانت تحذيراً تصبح جملة (أدائية)، وقد تكون خبرية فقط تبعاً للظروف المحيطة بالملفوظ[2].

والفعل الإنشائي يتميز بكون مرجعيته ودلالته تظهران في الفعل الذي يشكل تأديته، حينما يأتي على صيغة المتكلم المفرد في الزمن الحاضر، فقولنا (أعدك) لا يعني أني قمت بالوعد فقط، ولكنني حققت فعلاً هو فعل الوعد، إن قولنا لأحدهم (نهنئك) يجعلنا نقوم بفعل التهنئة، ولكن حينما نقول (اشتمك) فإن الكلام هنا ليس إنشائياً. إن هذا الكلام تعود مرجعيته إلى فعل الشتم، ولكنه لا يساعد على تحقيق هذا الفعل.

الغرض من الكلام المزبور بيان تميز الفعل الكلامي من الإنشائي من جهة البنية اللغوية، وبما أن الفعل الإنشائي يتحقق بصيغة المفرد والمتكلم في الزمن الحاضر، فإن الفعل الكلامي لا يشترط ذلك، إذ بإمكانه أن يتحقق بكلمة مثل (شكراً) للدلالة على الشكر.

ويرى بعض الباحثين أن علامة الفعل الكلامي، غالباً، هي صيغة الأمر، والأمر قد يتحقق بوسائل أخرى غير لغوية مثل الإشارة والحركة[3]. ويبدو لي أن هذا الكلام غير دقيق، فماهية الفعل الكلامي هي الإنجاز الذي يتحقق من طريق الملفوظ، لذا أسمى اوستن كتابه (كيف ننجز الأشياء بالكلام) فهو مرتبط بالكلام والنطق، أما الأفعال التي تتحقق من طريق الإشارة فهي غير داخلة في حقل الأفعال الكلامية وإنما تدخل في مجال السيمياء.

❖ أنواع الأفعال الكلامية

ميّز الباحثون في المنهج التداولي ثلاثة أنواع من الأعمال اللغوية:

---

(١) يُنظر: تحليل الخطاب المسرحي: ١٥٧، والمقاربة التداولية: ٦١، وعلم الدلالة (بالمر): ٢٤٥.

(٢) يُنظر: دلالة السياق: ٢٢٥.

(٣) يُنظر: تحليل الخطاب المسرحي: ١٦٣.

أ- العمل القولي (الفعل التعبيري) ويقصد به الأصوات التي يخرجها المتكلم، أي جملة الأفعال الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية.

ب- العمل المتضمن في القول (الفعل الغرضي) ويراد به أن المتكلم حين يلفظ بقول ما فهو ينجز معنى قصدياً أو تأثيراً مقصوداً، وهو ما أسماه (اوستن) قول الفعل وقد اشترط لتحقيق هذا المعنى الإنجازي ضرورة توفر السياق المعرفي الاجتماعي كالوعد على سبيل المثال.

ج- عمل التأثير بالقول (الفعل التأثيري): ويعني أن الكلمات التي ينتجها المتكلم في بنية نحوية منتظمة محملة بمقاصد معينة في سياق محدد تعمل على تبليغ رسالة وتحدث أثراً عند المتلقي أو المستمع. ويتمثل بما يحققه القائل بقوله من نتائج وما ينجز عنه من تبعات، كإزعاج المخاطَب وتخويفه وإقناعه أو حمله على سلوك معين أو صرفه عنه[1].

وبالقراءة الفاحصة للتقسيم السابق نجد أن (اوستن) يرجع أفعال الكلام إلى (فعل الكلام) و (قوة فعل الكلام) و(لازم فعل الكلام)[2]، ويمكن بيان هذا بتحليل الملفوظ الآتي: (إن لم تتعلم فسأهجرك) ففعل الكلام إنما هو التلفظ بهذه الجملة في حدّ نفسه، أما الفعل الإنشائي فيتمثل في التهديد أو التحذير، في حين أن الفعل التأثيري يتعلق في هذه الحال، باستثارة الخوف أو العدوانية أو التصميم على التعلم.

ويشترط علماء التداولية في تحقيق (الفعل الغرضي) عامل القصد، والمقصود بذلك، أن الفعل الإنشائي الذي يصدر عن شخص يرفض في قرارة نفسه دلالته، يعدّ فعلاً غير متحقق، فإذا قال شخص معزياً شخصاً آخر: إنا لله وإنا إليه راجعون، وهو لا يشعر بأي أسف نحو ذلك الشخص، فلا نقول إن فعل التعزية قد تحقق لأن المتكلم قد يقصد أشياء أخرى وراء تلفظه بصيغة التعزية[3].

وقدم (سيرل) تلميذ (اوستن) محاولة لتطوير هذا التقسيم الثلاثي، ودمج الفعلين (التعبيري والغرضي) في نوع واحد أطلق عليه (الفعل التلفظي)، وقصد به النطق بكلمات على نحو معين، وسمى القسم الثالث (الفعل التأثيري) تسمية أخرى هي الفعل

(١) يُنظر: الفلسفة واللغة: ١٠٧-١٠٨، والتداولية اليوم: ٢٦٧، ومدخل إلى علم النص: ٢٣، ونحو نظرية أسلوبية لسانية: ص٢١٥.

(٢) يُنظر: نظرية أفعال الكلام العامة: ٧.

(٣) يُنظر: تحليل الخطاب المسرحي: ١٥٨.

القضوي[1].

وعرض الباحث المغربي(طه عبد الرحمن) أنواع الأفعال الكلامية على النحو الآتي:

- **الفعل الكلامي**: وهو فعل التلفظ بصيغة ذات صوت محدد وتركيب محدد وتركيب مخصوص ودلالة معينة.
- **الفعل التكلمي**: وهو الفعل التواصلي الذي تؤديه هذه الصيغة التعبيرية في سياق معين.
- **الفعل التكليمي**: وهو أثر الفعل التكلمي في المستمع[2].

وقدّم الباحث العراقي هشام عبد الله الخليفة مصطلحات أخرى للمفاهيم السابقة وهي:

- فعل القول. - الفعل الكلامي. - الأثر البواسطة- كلامي.

وهذا التقسيم –كما هو واضح- تقسيم مصنوع لغرض التحليل، فهذه الأفعال غالباً ما تحصل جميعها في آن واحد عند النطق بالمقولة ولا يختار المتكلم فعلاً دون آخر[3].

❖ تصنيف الأفعال الكلامية:

قدّم باحثو الحقل التداولي تصنيفاً للأفعال الكلامية، وهذا التصنيف يعتمد على الاختلافات المقترنة بأفعال الكلام:

أ- فهي قد تختلف بحسب علاقتها بالعالم الخارجي (أو ما يسميه اللغويون العرب: الخارج)، يقول (سيرل) إن جزءاً من أهداف بعض الأفعال الكلامية ينصب على محاولة مطابقة الكلمات أو محتواها الخبري للعالم الخارجي، أما البعض الآخر فيحاول مطابقة العالم الخارجي للكلمات. تقع المقولات الإخبارية التقريرية ضمن النوع الأول، في حين نعدّ المقولات الطلبية ضمن النوع الثاني (وهذا الكلام يكاد يطابق كلام اللغويين والبلاغيين العرب نصاً).

ب- وهي تختلف بحسب الوضع النفسي الذي تعبّر عنه، وهنا يستعمل

---

(1) يُنظر: دلالة السياق: ٢٣٠، ومدخل إلى علم النص: ٢٦.

(2) يُنظر: اللسان والميزان: ٢٦٠.

(3) يُنظر: نظرية الفعل الكلامي: ٨٠.

التداوليون ثلاثة أفعال تبنى عليها الأفعال الأخرى، والأساسيات هي (يعتقد) و (يريد) و (ينوي) على افتراض أن الإخبار أو التفسير يتضمن الاعتقاد بالقضية، في حين يتضمن فعل الأمر الرغبة في القضية.

ج- وهي قد تختلف بحسب الغرض أو القصد من الفعل الكلامي، وهذا أهم المعايير الثلاثة[1].

وفي ضوء هذه المعايير صنفت الأفعال الكلامية على النحو الآتي:

١. **التقريرات (التوضيحات)**، يتعهد المتكلم فيها أن محتوى التفوه حقيقي، وأنّ كلماته تطابق العالم الخارجي، مثل التفوه الذي يبدأ بـ أنا أؤكد، اعتقد، استنتج، افترض.

٢. **التوجيهات**: يحاول الباث دفع السامع إلى فعل شيء ما لفظي أو غير لفظي، مثل: يسأل، يتحدّى، يصرّ، يسمح...الخ، وخلافاً للتمثيلات تحاول التوجيهات أن تجعل العالم يطابق الكلمات: يقوم السمع بعمل ذي نتيجة إيجابية للمتكلم، فتأتي النصيحة بعمل لصالح السامع، أما السماح فيعني أن المتكلم لن يعترض على ما سيقوم به السامع من عمل لمصلحته وقد يكون على حساب المتكلم، وهذه المجموعة تحوي أفعالاً صريحة (يأمر، يطلب) وتشمل أفعالاً خفية مثل (يتحدى).

٣. التعهدات (الالتزاميات) يلزم المتكلم نفسه بعمل ما، مثل أضمن، اتعهد، أعد، أقسم، ويكون الاتجاه بمطابقة العالم للكلمات، كما هي الحال في التوجيهات، لكن في هذا الصنف، المتكلم نفسه هو الذي يتعهد بالقيام والعمل، ومن ثم يكون للقصد أو النية شأو في هذا الصنف.

٤. **التعبيرات (المعبرات)** وهي أقل وضوحاً من الأصناف الأخرى، إذ لا توجد هنا علاقة متحركة بين الكلمات والعالم الخارجي، ومغزى هذا الصنف من المقولات هو التعبير عن حالة نفسية يحددها شرط صدق النية المتعلق بموقف يحدده المحتوى الخبري، مثال ذلك الأمثال (يشكر)، (يعتذر)، (يرثي).

٥. **الحكميات (الاعلانيات)** وهي أفعال يتغير العالم بعد النطق بها، وتتضمن أغلب الأفعال الشعائرية، ومن أمثلتها: استقيل، أنت مفصول، وهي تتطلب مؤسسات غير لغوية تحدّد قواعد استعمالها، مثل المحكمة أو

---

(١) يُنظر: نظرية الفعل الكلامي: ١٢٤، والتحليل اللغوي للنص: ١٣٣، واللسانيات الوظيفية: ٢٦.

لجنة، ويعد الصنف الأخير مفتاح التداوليين أو مدخلهم لاكتشاف نظرية أفعال الكلام[١].

ويشير الباحثون إلى تداخل هذه التصنيفات، إذ يتدخل السياق أحياناً ليجعل من فعل الحكم فعل ممارسة أو بالعكس. وهكذا في جميع المجموعات، كما أن هذا التقسيم لم يحظ بإجماع الباحثين في الحقل التداولي، فالأفعال الكلامية أفعال كثيرة يستحيل حصرها في مجموعات تصنيفية محددة.

❖ الأفعال الصريحة والأفعال الضمنية:

لاحظ التداوليون أن التأويل الكافي لجمل اللغات الطبيعية يصبح متعذراً إذا اكتفينا بما تحتويه الصيغة من معلومات، وأبرز مثال على ذلك المثال المشهور (هل بمكنك أن تناولني الملح؟.. وظاهر العبارة الاستفهام، ولكن دلالتها لا تشير البتة إلى الاستفهام، وإنما تشير إلى الطلب[٢].

انطلاقاً من هذه الإشكالية، نطرح على أنفسنا السؤال الآتي: كيف للمتكلم أن يقول شيئاً يصوغه في عبارة خاصة وهو يقصد شيئاً آخر؟ ولكي نكون أكثر دقة، نقول انطلاقاً من المثال السابق: هل بإمكانك أن تناولني الملح؟ لِمَ الانتقال من الاستفهام إلى الالتماس بالضبط دون غيره من الأفعال الكلامية الأخرى؟ رصد التداوليون أن مثل هذه الأساليب أضحت أعرافاً في لغات متعددة، وحاولوا تفسير ذلك انطلاقاً من دراسة أفعال الكلام والمعلومات المشتركة بين المتكلم والمستمع وقدرة المتلقي على القيام باستنتاجات.

ميز التداوليون ثلاثة أنواع من الملفوظات، المعنى الحقيقي، والاستعارة، وفعل الكلام غير المباشر، وخلصوا إلى نتيجة مفادها أن المعنى الحقيقي ينتصب وجوده بين الملفوظ والمعنى الذي يقصده المتكلم ويفهمه السامع، وهو ما يتحقق ضمن سمات سياقية محددة. أما الاستعارة فعلى العكس من ذلك، فهي تجبر المتلقي على الانتقال من المعنى الحقيقي إلى المعنى الذي يسنده المتكلم إلى قوله، مثال ذلك قولنا (لباس الجوع)، أما الفعل الكلامي غير المباشر فهو فعل إنشائي ثانوي، فقولنا (إنك تدوس قدمي) هو فعل ثانوي للطلب من شخص الكف عن دوس القدم، أو فعل أولي لتأكيد دوس القدم[٣].

---

(١) يُنظر: التحليل اللغوي للنص: ١٣٣، ودلالة السياق: ٢١٣، ونظرية الأفعال الكلامية (بحث): ١٢٣٥-١٢٣٦، ونظرية الفعل الكلامي: ١٢٤-١٢٦، وتحليل الخطاب المسرحي: ١٦٠.

(٢) يُنظر: تحليل الخطاب المسرحي: ١٦٤، وعلم الدلالة (بالمر):٢٤٥.

(٣) يُنظر: تحليل الخطاب المسرحي: ١٠٦.

ونقول هنا: إن القائل ((متى أراد بالضبط وبصفة حرفية ما قاله كان العمل اللغوي المتحقق مباشراً))[١]. و((إذا أراد خلاف ما يفهم من ظاهر اللفظ وبلغ أكثر مما قال وسمع كان العمل اللغوي المتحقق غير مباشر))[٢].

وفي مثال (الملح) أراد القائل الالتماس وتوسل بالاستفهام لتحقيق مقصده، وعند (سيرل):

- **الالتماس**: عمل أولي (مقصود/ دلالة غير حرفية).
- **الاستفهام**: عمل ثانوي (غير مقصود/ دلالة حرفية).

وتبعاً لذلك، فإن العمل اللغوي غير المباشر يتمثل في أن القائل يحقق عملاً أولياً متضمناً في القول بوساطة عمل ثانوي متضمن في القول، وهو يقصد ذلك والمخاطب يعلم ذلك.

ولاحظ التداوليون أن للمقام أثراً في التفرقة بين المعنى الحرفي والمعنى القضوي، لنتأمل المثال الآتي: يكتب الأستاذ (أ) للأستاذ (ب) متسائلاً عن استعداد الطالب (ج) لمتابعة دراسته الجامعية في قسم الفلسفة، فيجيب الأستاذ (ب) أن الطالب (ج) لاعب كرة ممتاز.

إذا تفحصنا الحمولة الدلالية للجملة وجدنا أنها تدل على معنيين في الوقت نفسه: معناها الحرفي بأن (الطالب (ج) من لاعبي الكرة الممتازين)، ومعنى مدرك مقامياً (أنّ الطالب (ج) ليس له أي استعداد لمتابعة دراسته الجامعية في قسم الفلسفة)[٣].

إن الفكرة الأساسية التي تطرحها الأفعال الكلامية غير المباشرة هي معرفة كيف يمكن للباث أن يقول شيئاً ويعني ذلك، وهو في الوقت نفسه يريد أن يقول شيئاً آخر، ومن ثم، معرفة إمكانية المخاطَب في فهم الفعل الكلامي غير المباشر، لذا يأخذ (سيرل) بالفرضية الآتية في الأفعال الكلامية غير المباشرة: ((يستطيع المتكلم أن يبلّغ المخاطَب أكثر مما يقوله بالفعل استناداً إلى مقدرات المخاطب والاستدلالية))[٤] وبوجه أدق، فالأنموذج التفسيري لما هو غير مباشر من الأفعال الكلامية يتضمن نظرية الأفعال الكلامية، وبعض المبادئ للمشاركة في الحديث، على غرار تلك المبادئ التي وضعها (غرايس) وخلفية مسبقة من المعلومات المشتركة بين المتكلم والمتلقي، كما أنه يفترض قدرة المخاطب على إقامة الاستدلالات.

---

(١) التداولية اليوم: ٢٦٨.

(٢) المرجع نفسه: ٢٦٨.

(٣) يُنظر: اللسانيات الوظيفية: ٢٢.

(٤) نظرية الأفعال الكلامية (بحث): ١٣٤٠، ويُنظر: المقاربة التداولية: ٧١-٧٢.

❖ المصادر والمراجع

- الأساليب الإنشائية في النحو العربي، عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٨١.
- بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل، عالم المعرفة، الكويت، ط١ ١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م.
- تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، عمر بلخير، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط ١، ٢٠٠٣ م.
- التداولية اليوم -علم جديد في التواصل، آن روبول، وجاك موشلار، ترجمة: د. سيف الدين دغفوس، د. محمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣م.
- التداولية عند العلماء العرب – دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، د. مسعود صحراوي – دار الطليعة – بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.
- التراكيب الإعلامية في اللغة العربية، د. حنان إسماعيل عمايره، دار وائل للنشر، عمان، ط ١، ٢٠٠٦م.
- الخطاب القرآني – دراسة في العلاقة بين النص والسياق، د. خلود العموش – عالم الكتب الحديث، الأردن، ط ١، ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥م.
- دلالة السياق، د. ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط ١، ١٤٢٤هـ.
- شظايا لسانية، د. مجيد الماشطة، مطبعة السلام، البصرة، ط١، ٢٠٠٧.
- الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، محمد الولي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٠م.
- العلاماتية وعلم النص، إعداد وترجمة: منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤م.
- علم الدلالة السيمانتيكية والبراغماتية في اللغة العربية، شاهر الحسن، دار الفكر، عمان، ٢٠٠١م.
- علم اللغة الاجتماعي، هدسون، ترجمة د. محمود عياد، عالم الكتب، القاهرة، ط ١٩٩٠،٢م.
- فلسفة التواصل، عمر مهيبل، منشورات الاختلاف، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥م.
- الفلسفة واللغة – نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة، د. الزواوي بغوره، دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.
- القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، أوزوالد ديكرو، جان ماري سيشايفر، ترجمة د. منذر عياشي – المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ٢

٢٠٠٧م.

- لسان العرب، للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت ٧١١ هـ)، دار صادر، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م.
- اللسان والميزان، أو التكوثر العقلي، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٨م
- اللسانيات الوظيفية، مدخل نظري، د. احمد المتوكل، منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٨٩م.
- اللسانيات والدلالة، د. منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، سوريا، ط٢، ٢٠٠٧م.
- اللغة والتأويل – مقاربات في الهرمينوطيقا الغربية والتأويل العربي الإسلامي، عمارة ناصر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت ط ١، ٢٠٠٧م.
- اللغة والدلالة آراء ونظريات، عدنان بن ذريل، منشورات اتحاد الأدباء والكتاب العرب، دمشق، ط١، ١٩٨١.
- اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز، ترجمة عباس صادق الوهاب، مراجعة د. يوئيل عزيز، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١ ١٩٨٧م.
- المدارس اللغوية التطور والصراع، جيفري سامبسون، ترجمة: د. أحمد نعيم الكراعين، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ.
- الموسوعة الفلسفية العربية، معن زيادة، معهد الإنماء العربي، ط١، ١٩٨٨.
- مدخل إلى علم الدلالة، فرانك بالمر، ترجمة: د. خالد محمود جمعة، دار العروبة، الكويت، ط١، ١٩٩٧م.
- مدخل إلى علم النص، مشكلات بناء النص، زتسيلاف واورزيناك، ترجمه وعلّق عليه: أ. د سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، مصر، ط ١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو – ترجمة د. سعيد علوش – مركز الانماء القومي – الرباط، ط ١، ١٩٨٦.
- مناهج الدرس النحوي في العالم العربي في القرن العشرين، د. عطا محمد موسى – دار الإسراء – عمان – الأردن ط ١، ٢٠٠٢م.
- نحو نظرية أسلوبية لسانية، فيلي ساندبرس، ترجمة: د. خالد محمود جمعة، دار الفكر، سوريا، ط ١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.
- النص والسياق – استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، فان دايك، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، بيروت ط ١، ٢٠٠٠م.
- نظرية أفعال الكلام العامة، نظرية الفعل الكلامي – بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي والإسلامي، أ. هشام عبد الله الخليفة، مكتبة

لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م.

- نظرية أفعال الكلام العامة، ج. أوستن، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، ١٩٩١م.
- وصف اللغة العربية دلالياً، محمد محمد يونس علي، منشورات جامعة الفاتح، ليبيا، ١٩٩٣.

❖ الدوريات

- البحث اللساني والسيميائي، طه عبد الرحمن، ندوة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، جامعة محمد الخامس، ١٤٠١هـ
- البراغماتية وعلم التركيب، عثمان بن طالب، الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات، الجامعة التونسية، تونس، ١٩٨٥.
- البعد التداولي عند سيبويه، مقبول إدريس، عالم الفكر، وزارة الثقافة والفنون والآداب، الكويت، م٣٣، ع١، يوليو، ديسمبر ٢٠٠٤.
- التداولية واللسانيات، عادل السامري، *www. Doroob.com*

التداوليـــة

وصلتهـا باللسانيـات البنيــويـــة والسيميائيـــة

د. سامـي شهـاب أحمـد *

❖ مدخــل

تُعدُّ الألسنية واحدة من الدّراسات التي سجلت حضوراً فاعلاً في ساحة المدونة النّقدية؛ لما لها من تأثير مُباشر في النّص الابداعي، فهي تتعامل مع النّص بوصفه كينونة قابلة للمناورة نتيجة ما يقبع في جسدها من أصوات وتراكيب ودلالات. ولكنها مناورة لا تتخطى حدود النّص مما يجعل امكانية سقوطها في هوّة المساءلة أمراً واقعاً، وعليه أخذ الحقل النّقدي دوره في السُؤال عن مكامن الخلل والاضطراب الذي اعترى الدّراسات الألسنية التي اهتمت بالنّص على حساب المُبدع والمُتلقي، مما وَلّد في النّهاية تياراً آخر للألسنية مُهمتهُ تخطي حاجز النّص وايجاد فرصة التّواصل المعرفي، عن طريق الخروج إلى الواقع وقد مَثّل هذا التّيار التّداوليّة، فبعد ان كان علم الأصوات وعلم التراكيب وعلم الدلالة يتعامل مع النّص بانغلاق تام حيث الحصول على الدّلالات في ضوء ما تفرزه الأصوات والتراكيب؛ جاءت التّداوليّة لتعلن تمردها على هذا النهج وراحت تؤسس لنفسها نهجا مغايرا مفاده الاهتمام بالتّواصل المعرفي؛ وذلك من خلال الاهتمام بالأداء الكلامي الذي ظل هامشيا في الدّراسات الالسنية السّابقة بسبب اهتمامها بالكفاية اللغوية، أي أنّ التّداوليّة اهتمت بأقطاب المُثلث التّواصلي وهي (المُبدع، والنّص، والمُتلقي) بعد أنْ كانت الدّراسات الألسُنية السّابقة تهتم بالنّص كسيرورة متكاملة، ولا قيمة للمبدع (المُرسِل) والمُتلقي (المُرسَل إليه) معاً. وعليه فالتّداوليّة هي الدّراسة الالسنية التي تهتم بعلاقات العلامات بمُفسّريها. ولأهميتها ارتأينا في هذا البحث تسليط الضّوء عليها ولاسيما في منحى ارتباطها باللسانيات البُنيويّة من جهة، والسيميائيّة من جهة أُخرى، فضلاً عن جهازها المصطلحي المفاهيمي، وقد تضمنت خُطة البحث ثلاثة محاور وتمهيد.

التمهيـــد: تناولنا فيه الاشكالية المصطلحية التي نتجت عن الترجمات غير الدّقيقة لمصـــطلح التّداوليّـــة، فمصـــطلحات مثـــل الذّرائعيّـــة، والبراجماتيّـــة،

---

* كلية التربية - جامعة كركوك

والاتصاليّة، والنفعيّة، والمقاميّة، وما نحو ذلك ناظرت مُصطلح التّداوليّة مما أربك القارئ العربي وجعله يحتار في الاختيار.

المحور الأول: التّداوليّة وصلتها باللسانيات البُنيويّة، وفيه تطرقنا إلى نقاط الالتقاء والافتراق بين الاثنين، وبيان أهمية التّداوليّة في تجاوز عثرات البُنيويّة.

المحور الثاني: التّداوليّة وصلتها بالسيميائيّة، وفيه تحدّثنا عن الدّور الريادي الّذي لعبتهُ السيميائيّة في ايجاد كيان التّداوليّة، فالتّداوليّة عُدّت الوريث الشّرعي للسيميائيّة لتشابه الآليات وأغلب النتائج معها.

المحور الثالث: الجهاز المُصطلحي المفاهيمي للتداولية: وقد عرضنا في هذا المحور أهم مُسلّمات النّظام في التّداوليّة، وهي أربعة أركان: الأفعال الكلامية، الاستلزام الحواري، الافتراض المُسبق، الاشارة (العناصر الاشارية).

وأخيراً نتمنى منه تعالى التّوفيق والسّداد، ونتمنى من قارئنا الكريم ان يغفر لنا هفواتنا، لأنّ الخطأ مِنّا والصّوابُ من الجليل.

التمهيد

❖ الاشكاليـة المصطلحيـة

إنّ تحديد المفاهيم والمُصطلحات في اطار ثابتٍ أمرٌ غاية في الصّعوبة؛ كونها تنتمي إلى حزمة من التّشابك المعرفي والفلسفي الّتي تتغاير فيها تلك المُحددات بحسب التّنوع البيني من جهة والتّلون الفكري للنُّقاد من جهة أخرى. فَمن الصّعوبة بمكان تحديد الهوية المُصطلحية لأي علمٍ أو فلسفةٍ أو نظريةٍ إلاّ في اطار ترسيم الملامح الجوهرية التي ينطلق منها؛ ومن خلالها يتم تميزها عن الملامح الجوهرية لمعارف أخرى. هذا الاختلاف والاختلال لا يُعدُّ عيباً بل انه يُنمي القدرات الفكرية لاصطياد المفاهيم المُتباعدة واكتساب معارف مُتنوعة تؤهل النُّقاد لوضع حجر الأساس لأي علمٍ أو فلسفةٍ أو نظريةٍ كانت؛ وبعد ذلك تأتي مرحلة وضع القوانين والشّروط وهلم جرا.

إنّ المنظومات الفكرية مُتشعبة الرؤى نتيجة لتشعب النّظام الابستيمي للنُّقاد؛ إذ إنّ النُّقاد ينتمون إلى تياراتٍ ومذاهب ومدارس واتجاهاتٍ متنافرةٍ فيما بينها. هذه التّعددية في الانتماء تعمل على جعل السّاحة المعرفية عرضة للمُساجلات والجدال ومن ثَمّة بعد مخاضاتٍ عسيرة تُولد مسارات المعارف وتتقولب في أنظمةٍ خاصة يُمكن من خلالها الانطلاق إلى رحاب التّوصيف الأمثل لتلك المعارف. وعلى وفق التّنوع المعلوماتي في المنظومات الفكرية المُختلفة فإنّ المُدونة الفكريّة تعمل على رأب الصّدع وتبديد الموقف من خلال فرزنة هويات مُصطلحية مهمتها عنونة فلسفتها أو نظريتها أو علمها بقدر ما يُميز انتماء هذا المُصطلح إلى هذه أو تلك من المعارف؛ مع انسحاب هذا المفهوم أو المصطلح إلى ساحة معارفٍ أُخرى في المنظومة الفكرية في بعض الأحيان، ولكنّ هذا لا يمنعُ مِنْ مُمارسة ترسيم الملامح في أقل تقدير.

وفي ضوء ما نقدم فإنّ التّداوليّة -التي تنتمي إلى اللسانيات - كمصطلح شابه كغيره من المُصطلحات كثيرا من اللغط والاضطراب جرّاء تشعب النّظام الابستيمي - كما أسلفنا- للنُّقاد. وهو ما يجعل القارئ في حيرة ولا يعرف إلى أي منها يهتدي. ويبدو أنّ التّداوليّة كمصطلح هي أكثر المُصطلحات تواتراً في الكُتب؛ لأنّها بحسب نظامها تعمل على تشخيص علاقة العلامات بمُفسريها. أي معرفة مقاصد المُتكلم ومدى أهلية تلك المقاصد في تحقيق التّواصل مع الآخرين. وهذا يعني أنّ التّداول سمة في المُصطلح مما يدفعُ بمُصطلح التّداوليّة –من وجهة نظرنا– نحو الاشتهار.

لقد ناظر مُصطلح التّداوليّة في المدونة النّقدية مُصطلحات كثيرة وهي الذرائعية،

والنّفعيــة، والاتصــالية، والتّبادليــة، والسّــياقية، والوظيفيــة، والبراجماتيــة، والبراجماتيك، والبراغماتية، والبراغماتيك، والمقامية وغيرها. وهذا راجع إلى تداخل الحقول المعرفية والفلسفية فيما بينها؛ مما حدا بالمترجمين التشتت في الامساك بتلابيب المُصطلح المُحدد الّذي يُناسبهم. وقد أشار إلى ذلك ميجان الرويلي وسعد البازعي بقولهما: ((ونتيجة لتداخل حقولها بحقول مجاورة فان لها كثيرا من الترجمات في اللغة العربية، منها التبادلية والاتصالية والنفعية إلى جانب الذرائعية))[١]، وفي الصّدد نفسه ذكر محمود احمد نحلة تعدد تعريفات التّداوليّة ((وكان لهذا التّعدد أثر في ترجمة المُصطلح إلى اللغة العربية: فقد تُرجم إلى الذرائعيّة، والمقصديّة، والمقاميّة، والتّداوليّة. والتّداوليّة أكثرها شيوعاً وأقربها إلى طبيعة البحث فيها))[٢]. وبحسب التعدد المُصطلحي ينبغي علينا ايضاح الشّائع من تلك المُصطلحات في ضوء ما مُتوفر بين ايدينا من مصادر تنوعت فيها الرؤية بشأن التّداوليّة كمصطلح، ولطغيان مصطلح التّداوليّة على المُصطلحات الأخرى فليس أمامنا من بُد من الابتداء به.

لقد اصطلح آن روبول وجاك موشلار في كتابهما (التّداوليّة اليوم علم جديد في التّواصل) التّداوليّة على هذا العلم الالسني إذ قالا: ((لقد تحدثنا عن التّداوليّة، وينبغي عدم خلطها بالنفعية ذلك التّيار الفلسفي الأميركي الذي يمثله أساساً الأميركي وليام جايمس *William James* وجون ديوي *John Dewey* أو ريتشارد رورتي *Richard Rorty* قبل أن تظهر بمدة طويلة دراسات في هذا المجال))[٣]، فهما لم يستعملا أيّ مُصطلح سوى التّداوليّة؛ حتى أن عنوان كتابهما (التّداوليّة). وقد انطلق فيليب بلانشيه ليعزز قيمة مصطلح التّداوليّة في السّاحة النّقدية عبر كتابه (التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان)؛ وتعامل مع التّداوليّة على قدر كبير من الأهميةِ بوصفها المرجعية الفكرية للتّواصل المعرفي الفكري، ولهذا ناسب التّداول معنى الاتصال والتّواصل. وبرز المُصطلح عنده من العنوان وانتهاء بصفحات الكتاب. وقال مُفتتحاً حديثه عن هذا العلم: ((يبدو مصطلح التّداوليّة *Pragmatique* على درجة من الغموض إذ يقترن به في اللغة الفرنسية المعنيان التاليان (محسوس؛ ومُلائم للحقيقة)؛ أمّا في الإنكليزية وهي اللغة التي كُتبت بها أغلب النُّصوص المؤسسة للتداولية فإنّ كلمة *Pragmatics* تدل في الغالب على ماله علاقة بالأعمال والوقائع الحقيقية. وهكذا يبدو لأول وهلةٍ أنّ الحقل الذي فتحه هذا الاختصاص العلمي

---

(١) دليل الناقد الأدبي: ١٠٠.

(٢) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر:٥٦.

(٣) التّداوليّة اليوم علم جديد في التواصل: ٢٨-٢٩.

المُسمّى تداولية ضخم وتُلقّي عموماً بوصفهِ كياناً غامضاً، أو قل جراباً جديداً تُوضع فيهِ الأعمال الهامشية التي لا تنتمي إلى الاختصاصات المؤسسية. وهي اللسانيات، وعلم الاجتماع، والانثربولوجيا، وعلم النّفس الاجتماعي، والدلالية إلخ، نحو المشاكل التي أثارتها هذه الاختصاصات ولم تتوصل إلى معالجتها بشكل مرض))[١].

كما أنّ مسعود الصحراوي في كتابه (التّداوليّة عند العُلماء العرب) إلتزم بمُصطلح التّداوليّة عنواناً ومضموناً؛ بل انه تصدى لمن اضطرب في الترجمة وعلل الفرق بين التّداوليّة والفلسفة النّفعية الذّرائعية. فالتّداوليّة عند الصَّحراوي علمٌ جديدٌ للتواصل إذ قال: ((فالتّداوليّة ليست علماً لُغوياً محضاً بالمعنى التقليدي علما يكتفي بوصف وتفسير البُنى اللغوية ويوقف عند حدودها وأشكالها الظّاهرة، ولكنها علم جديد للتّواصل يدرس الظّواهر اللغوية في مجال الاستعمال ويدمج من ثمّ مشاريع معرفية مُتعددة في دراسة ظاهرة التّواصل اللغوي وتفسيره))[٢].

ويُعدُّ صابر الحباشة من أكثر المُشتغلين بميدان علم التّداوليّة وله بصمةٌ واضحةٌ في المُدونة النّقدية عبر آثاره الّتي تركها؛ فهو قد ترجم كتاب (التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان) وله كتاب عن التّداوليّة عنوانه (التّداوليّة والحجاج- مداخل ونصوص) ركز فيه على (الحِجاج) بوصفه أحد أركان التّداوليّة إذ قال: ((يتناول هذا البحث منزلة الحجاج في التّداوليّة بوصفه احد أهم أركان التّداوليّة إلى جانب نظرية الأعمال اللغوية))[٣]. هذه الحصيلة المعرفية هي التي دفعت الحباشة إلى تأليف هذا الكتاب وهذا واضح في قوله: ((لقد اشتغلنا على التّداوليّة اشتغالاً حثيثاً، سواء في البحث الجامعي أم في التّعريب أم في التّدريس والمُحاضرة، وقد تكوّن لدينا رصيدٌ جعلنا لا نتردد في محاولة تيسير هذا المبحث على طلابه من خلال عرض بعض الأفكار وتبسيط بعض الفرضيات؛ وتعريب بعض النُّصوص الواردة في هذا الباب))[٤].

ويُمثل كتاب الجيلالي دلاش (مدخل إلى اللسانيات التّداوليّة – لطلبة معاهد اللغة العربية وآدابها) الذي ترجمه محمد يحياتن أحد الكتب التي تناولت مُصطلح التّداوليّة والاصرار على ربطه بحاضنته الأصيلة علم اللسانيات. وبذلك تُصبح المعرفة في ذهن القارئ بأنّ التّداوليّة امتدادٌ شرعيٌ للدّراسات الالسنية، وهي حلقة مُتميزة فيها؛ كونها تهتم بالقصديّة ومحاور الاتصال وكل ما كان خارج اهتمام

(١) التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان: ١٧.

(٢) التّداوليّة عند العُلماء العرب:١٦.

(٣) التّداوليّة والحجاج – مداخل ونصوص: ١٥.

(٤) المرجع نفسه: ٧.

اللسانيات السّابقة، وقد صرح المُترجم يحياتن بذلك بقوله: ((أما عن سبب اختيارنا لهذا الكتاب فمرده إلى أنه يُعالج تخصصاً لسانياً حديثاً هو اللسانيات التّداوليّة، ويُمكننا أن نُعرّفه بإيجاز شديد بقولنا: إنّه تخصصٌ لسانيٌ يدرس كيفية استخدام النّاس للأدلة اللغوية في صُلب أحاديثهم وخطاباتهم، كما يُعنى من جهة أخرى بكيفية تأويلهم لتلك الخطابات والاحاديث))[1].

وقد أفرد محمود احمد نحلة في كتابه (آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر) فصلاً كاملاً عن التّداوليّة واهميتها في الدّراسات اللسانية، ولقيمتها احتلت التّداوليّة الفصل الأول من الكتاب. وجاء اهتمامه بالتّداوليّة كونها تستند في مضمونها إلى جملة من المرتكزات اللغوية التي تخدم مسيرة عمله، فمصطلح التّداوليّة كان حاضرا وبقوة في خطاب نحلة ويمكن ان نختصر مفاهيم التّداوليّة التي تواترت وهي ((التّداوليّة: هي دراسة الأسس التي نستطيع بها أن نعرف لِمَ تكون مجموعة من الجمل شاذة تداولياً، أو تُعد في الكلام المحال *anomalous*. التّداوليّة: هي دراسة اللغة من وجهة نظر وظيفية. التّداوليّة: هي دراسة كل جوانب المعنى التي تُهملها النّظريات الدلالية. التّداوليّة: هي دراسة جوانب السياق. التّداوليّة: فرعٌ من علم اللغة يبحث في كيفية اكتشاف السّامع مقاصد المتكلم))[2].

وقد نال مُصطلح البراجماتية حصة تُذكر في المدونة النّقدية، ولاح في الأفق اقترانه بالتّداوليّة، على الرغم من أنّه يختلف عنها، وستوضح هذا الاختلاف في النهاية. ومن الذين كتبوا عن البراجماتية على أنها التّداوليّة كارل-ديتر بونتنغ في كتابه (المدخل إلى علم اللغة)، وترجمه وعلّق عليه سعيد حسن بحيري، وفيه قدّم كارل ديتر نبذة عن البراجماتية ولم يَستخدم مُصطلحاً آخر، من ذلك نذكر ((تعنى الطرائق اللغوية البراجماتية الحديثة أكثر من كونها ليست إلا استكمالاً للدّرس اللغوي الحالي، فهي نعني وقفة بالنسبة لعلم اللغة: لأنّها غيرت علم اللغة ذاته))[3]. ومن الذين تحدثوا عن البراجماتية احمد شفيق الخطيب في كتابه (قراءات في علم اللغة)، فقد أعطى نُبذة عن نشأة المُصطلح ومعناه العام ومجالاته والتّعريفات المُتعددة المُتعلقة به، فضلاً عن علاقته بالمجالات الأخرى، وذكر أنّ الاهتمام بالبراجماتية ازداد كثيراً لأسباب كثيرة وهذا واضح في قوله: ((شهدت الدّراسات اللغوية في السّنوات الأخيرة تزايداً في الاهتمام بالبراجماتية *Pragmatics*، ومن بين أسباب تزايد هذا الاهتمام هو أنّه جم

(١) مدخل إلى اللسانيات التّداوليّة: ١.

(٢) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ١١-١٢.

(٣) المدخل إلى علم اللغة: ٢٢٣.

كرد فعلٍ لتناول عالم اللغة الأمريكي نعوم تشومسكي للغة باعتبارها أداةً مُجردة، أو قدرة عقلية مُنفصلة عن استخدامات اللغة ومستخدميها والوظائف التي تقوم بها))[١].
وقدّم الخطيب تعريفات للبراجماتية لتكون مفاتيح معرفية تفيد القارئ لفهم ماهيتها. ويمكن ذكر مقتطفات من تلك التعريفات ((من بين التعريفات المحتملة للبراجماتية هي أنّها دراسة جميع جوانب المعنى التي لا تحتويها أو لا تنتظمها النظرية الدلالية... ومن بين تعريفات البراجماتية ما يقوم على التفرقة بين معنى الجملة *sentence* ومعنى المنطوق *utterance*... ومن تعريفات البراجماتية أيضاً ذلك التعريف الذي يتخذ من الرّبط بين المعنى والسّياق أساساً له... ومن بين التعريفات الأخرى للبراجماتية هي أنّها دراسة مَقدرة مُستخدمي لغة ما على ربط الجُمل بالسّياقات التي تعتبر هذه الجمل مقبولة أو ملائمة فيها))[٢].

ومن المُصطلحات التي سجلت حضوراً في المُدونة النّقدية لتصبح قرينة للتداولية مُصطلح الذّرائعية، وهو مصطلح تعامل معه المُترجمون على أنه التّداوليّة نفسها، فقد استخدم ميجان الرويلي وسعد البازعي في كتابهما (دليل النّاقد الأدبي) الذرائعية على أنّها تُمثل أحد الاتجاهات التي ظهرت في مرحلة ما بعد البنيويّة؛ كون اللسانيات البُنيويّة لا تعير المستخدم ووسائل الاتصال اهتماماً لذا جاءت الذرائعية لتسد هذا النّقص، فالذرائعية ((ركزت على ما أهملته اللسانيات، فإذا ركزت اللسانيات على علم التركيب وعلم المعاني فإنّ الذرائعية وهذا أساس سمتها العملية وأساس ارتباطها بالتّبادل والمنفعة ركزت على الجانب الاتصالي. أي علاقة الاشارة بمن يستخدمها))[٣].

وعلى هامش ما عُرض؛ وما وجدناه من تنوع مُصطلحي أربك القارئ يُمكن القول: إنّ التّعدد في المفاهيم والمُصطلحات واشتباك المعارف والتعالق بين الفلسفات ليس سيئاً على الدوام؛ إلاّ في حال تضليل القارئ كلياً عبر ملء خازنته الفكرية بمفاهيم تنافي الحقيقة، في حين أنّ هذا التّنوع من جهة أخرى يُثري الحركة المعرفية ويُعطيها دفعات تقدمية لكونها تجعل القارئ يُفكر مراتٍ ومراتٍ للوصول إلى الحقيقة بنفسه؛ فيجدها تتوسع المعارف وتصل إلى مراتب من الرُّقي. وعليه فإنّ ما حصل لمُصطلح التّداوليّة من اضطراب لا يمكن عدّه اختلالاً كبيراً؛ لأن المُصطلحات المُتواترة وإنْ كانت مختلفة التّسمية إلا أنّ جوهرها الابستيمي واحد، فتعريفات البراجماتيّة والذّرائعيّة هي مُشابهة للتّداوليّة حتى من حيث آليات عملها، لهذا نرى على سبيل المثال أنّ فيليب

(١) قراءات في علم اللغة: ١٢٥.
(٢) المرجع نفسه: ١٢٩-١٣٠.
(٣) دليل النّاقد الأدبي: ١٠٢.

بلانشيه لا يرى بعداً مفاهيمياً بين ما أطلق عليه *Pragmatisch* والتّداوليّة *Pragmatics* إذ قال: ((وان لفظ براغماطيش *Pragmatisch* الذي استعمله كانط ليس بعيداً عن استعمالات لفظ التّداوليّة الّذي نجده عند التّداوليين وعند ملهميهم المباشرين مثل بيرس، حيث نجد عندهم مفهوم القصد ومشروع العمل))[1]. ولكن الترجمة أدت دورها في ايجاد هذا الوضع، فمما يُسجل على الترجمة انحرافها عن الاستدلال الحرفي للكلمة القابعة في المؤلّف الغربي، فهي قد ترجمت شيئاً واصطلحت عليه شيئاً آخر، حتى أنّ محمود احمد نحلة قال ان اصحاب مدرسة اكسفورد على سبيل المثال اوستن وسيرل وغرايس فضلاً عن كارناب لم يستخدموا مُصطلح التّداوليّة؛ على الرغم من أنهم المؤسسون لهذا العلم اللساني ((ومن الغريب أنّ أحداً منهم لم يستعمل مُصطلح التّداوليّة فيما كتب من أبحاث))[2]، وعليه فإذا ما كان المؤسسون لم يستخدموا مُصطلح التّداوليّة فمن أين تسلل إلى منظومة الفكر العربي، والاجابة على ذلك تُجيبه الترجمة. لذلك نجد فرقاً بين هذه المُصطلحات من حيث العمل لا من حيث الجوهر، فهناك فرق بين النّفعية والتّداوليّة على سبيل المثال من حيث اللفظة الإنكليزية والمضمون كذلك، وهذا واضح في قول بلانشيه: ((وعلينا أن ننظر في الرّوابط الموجودة بين النّفعية *Pragmatisme* والتّداوليّة *Pragmatique*. إنّ النفعية نظرية فلسفية عامة للعقلانية الملاحظة بوصفها مُتصلة بالمصالح الأساسية للإنسان، ولقد تطورت في الولايات المتحدة الأمريكية في مُنعطف القرن العشرين))[3]، وقد عرف آن روبول وجاك موشلار النّفعية بقولهما: ((النفعية *Pragmatisme* هي مذهب يتخذ القيمة العملية التطبيقية قياساً للحقيقة، معتبراً أنّ الحقيقة المُطلقة غير موجودة وأنّه لا شيء حقيقيا إلاّ كل ما ينجح. صاغ هذا المذهب بيرس عام ١٨٧٩ وطّوره كل من جايمس وديوي. وكان ولا يزال مذهباً ذائع الصيت في الولايات المُتحدة الأمريكية))[4]. فالاختلاف اللفظي واضحُ المعالم بين النّفعية والتّدواليّة بحسب اللغة الإنكليزية، فضلاً عن كون التّداوليّة علما ألسنيا، في حين أنّ النّفعية نظرية فلسفية للعقلانية، على الرغم من اقترابهما من حيث الجوهر العملي في التّعامل مع النُّصوص؛ عبر الاهتمام باللغة. هذا الفرق بين النّفعيّة والتّداوليّة ينسحب كذلك على الفرق بين الذرائعيّة والتّداوليّة من حيث اللفظ المترجم والمضمون، وهذا ما أوضحه مسعود

(١) التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان: ٢٧-٢٨.

(٢) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ١٠.

(٣) التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان: ٢٨.

(٤) التّداوليّة اليوم علم جديد في التواصل: ٢٨-٢٩.

الصحراوي بقوله: ((التّداوليّة: ترجمة للمصطلحين: المُصطلح الإنكليزي *Pragmatics* بمعنى هذا المذهب اللغوي التّواصلي الجديد الذي نُعرّف به في هذه المقالة، والمُصطلح الفرنسي *Pragmatique* بنفس المعنى، وليس ترجمة لمصطلح *Pragmatisme* الفرنسي؛ لأنّ هذا الأخير يعني الفلسفة النّفعية الذّرائعيّة، أمّا الأول فيُراد به هذا العلم التّواصلي الجديد الذي يُفسر كثيراً من الظواهر اللغوية كما أشرنا، ولذلك لا نتّفق مع الباحثين العرب الذين ترجموا مُصطلح *Pragmatics / la pragmatique* بالذّريعيّة أو الذّرائعيّة أو غيرها من المُصطلحات المتحاقلة معهما))[1]. وعليه فإن الاختلاف جاء بسبب قصور فهم المُترجمين للمصطلح الحقيقي، ومع ذلك تبقى التّداوليّة الرّائدة في الشّهرة والتّوصيف على حساب المُصطلحات الأخرى.

وتتلخص مهام التّداوليّة في ((دراسة استعمال اللغة التي لا تدرس البُنية اللغوية ذاتها، ولكن تدرس اللغة عند استعمالها في الطّبقات المقامية المُختلفة. أي باعتبارها كلاماً محدداً صادراً من مُتكلم محدد وموجهاً إلى مُخاطب محددٍ بلفظٍ مُحددٍ في مقامٍ تواصلي محدد لتحقيق غرضٍ تواصلي محدد))[2].

وأهم ما تتميز به التّداوليّة كما يرى ذلك بعض الباحثين:

١- أنّها تقوم على دراسة الاستعمال اللغوي، أو هي لسانيات الاستعمال اللغوي، وموضوع البحث فيها هو توظيف المعنى اللغوي في الاستعمال الفعلي من حيث هو صيغة مركبة من السلوك الذي يُنتج المعنى.

٢- ليس للتداولية وحدات تحليل ولا موضوعات مُترابطة.

٣- تدرس اللغة من وجهة وظيفية عامة، معرفية واجتماعية وثقافية.

٤- تُعدُّ التّداوليّة نقطة التقاء مجالات العلوم ذات الصلة باللغة.[3].

وأخيراً ينبغي القول: إنّ مصطلح التّداوليّة قد تواتر في المُعجم الفكري للنُّقاد والباحثين العرب على نحو كبير، ولم يصطلح عليه الغربيون كما اسلفنا، ولذلك فإن فهمنا له كان مستقىً على نحو أكبر من المؤلفات العربية لوضوحها وطريقة عرضها؛ بخلاف الكتب الغربيّة التي حملت غموضاً في طرائق الايضاح إلى جانب الغموض والارباك في ترجمتها.

---

(١) التّداوليّة عند العلماء العرب: ١٥.

(٢) المرجع نفسه: ٢٦.

(٣) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ١٤-١٥.

المحـــور الأول

التداوليـة وصلتهـا باللسانيـات البنيـويـة

يُعدُّ الجهاز المفاهيمي في أيّة منظومةٍ فكريةٍ معرفيةٍ دلالة استبشارية على تقييد العُلوم باطر مفصلية ثابتة تميزها عن غيرها؛ مع بقاء رهان التغيير والتّحول مفتوحاً لدعم الثّابت المُتأسس وتسيير الرّؤى المُستقبلية نحو تحقيق مكاسب جديدة وهكذا لتحقيق الافضلية والأهلية قدر الامكان. فالمنظومة الفكرية تنضوي تحت لوائها مجاميع معرفية تحمل الواحدة منها بأسلوبٍ مغاير عن الأخرى على وفق الأليات والشُروط التي تحكم هذه المجموعة أو تلك، وبتواشج أواصر المجموعة الواحدة يَتَشكّلُ الجهاز المفاهيمي الذي تنطلق منه الارهاصات وحينئذ تتهيء السّاحة المعرفية لاستقبال الآراء المُتضادة بغية الوصول إلى مرامي مقبولة أو شبه مُقيدة يمكن عدّها المفتاح الاصولي لهذا العلم أو تلك الفلسفة وهلم جرا. فعلى هامش الدّراسات الأدبية والنّقدية التي حظيت بها السّاحة المعرفية تبلورت ثلاث منظوماتٍ فكرية حددت مسار تلك الدّراسات، وهي منظومة ما قبل الحداثة، والحداثة، وما بعد الحداثة. وقد تعاملت كل منظومة مع النُصوص الابداعية بأسلوب مغاير عن الأخرى، فمنظومة ما قبل الحداثة على سبيل المثال اشترطت الاهتمام بأحد أقطاب المُثلث التّواصلي ألا وهو مُبدع النّص واخرجت النّص ومُتلقيه وابعدتهما عن دائرة اهتمامها. وهذا ماثل في (المنهج التاريخي، والنفسي، والاجتماعي، الخ). في حين أن منظومة الحداثة اهتمت بقطب النُّص واهملت المُبدع والمُتلقي وهذا ماثلٌ في الالسنية ولا سيّما بنسختها البُنيويّة. أمّا منظومة ما بعد الحداثة فكانت مُزدوجة الاهتمامات فمنها ما اهتم بقطب المُتلقي فقط كما فعلت ذلك التفكيكية عندما فسحت المجال كثيراً للمُتلقي لتأويل النُصوص حسبما تشتهيه نفسه لإيمانها بموت المرجعيات وتجدد المعاني إلى ما لا نهاية. ومنها ما اهتم بأقطاب المُثلث التّواصلي كما هي الحال لدى نظريات القراءة و التّلقي وأكثر منها التّداوليّة.

ولكي نكون على مقربة من هذه المنظومات فان توجهنا دفعنا لأن تكون التّداوليّة مرآة عاكسة لما تمخض وتبلور في تلك المنظومات من ملامح قوانين تحمل بأسس جديدة؛ حتى سُميت نتيجة لتلك القرابة باللسانيات التّداوليّة، وهي على الرغم من انطلاقها من النّص فإنها لم تهمل المُبدع والمُتلقي، وأهم من ذلك تفاعلية التّواصل بينهما، وعليه سنبين صلتها باللسانيات البُنيويّة (الحداثة) وباللسانيات السيميائيّة (ما بعد الحداثة) لتكتمل الرؤى وتتضح.

لم تكن التّداوليّة وليدة الصُّدفة الآنية بل هي مُنسلخة من حواضن معرفية مُتعددة جعلتها تكون أكثر شمولية في ركائزها واليه عملها؛ لأن اعترافها المُتشعب فولب نظامها بالتفرع والوقوف على أدق تفاصيل العمل وصولا إلى غاية مُحددة، وأقرب هذه الحواضن هي اللسانيات، وهذا ما أشار إليه مسعود الصحراوي بقوله: ((إنّ أقرب حقل معرفي إلى التّداوليّة *Pragmatique* في منظورنا هو اللسانيات، واذا كان الأمر كذلك فانه من المشروع البحث في صلة هذا العلم التّواصلي الجديد باللسانيات وبغير اللسانيات من الحقول المعرفية الأخرى التي يشترك معها في بعض الأسس المعرفية نظرية كانت أم اجرائية))[1]، وفي ضوء تشعب مفاهيمها كونها نهلت من مجالات معرفية كثيرة تبقى اللسانيات واحدة من العلوم التي لها السّبق الكبير في تبلور المفاهيم التّداوليّة، ولهذا فهي صنوٌ لا يتجزأ من اللسانيات، لذلك ((فهي تداوليّة تسعى إلى أن تكون مُندمجة في اللسانيات لا تكملة لها، بل جزء لا يتجزأ منها))[2]، ولكن هذا الاندماج له حساباته، فالتّداوليّة ليست صورة تطابقيّة بكافة أدواتها الاجرائية مع اللسانيات السّابقة عليها، وإنما هي جهة داعمة لفكر التّطوير الوظيفي والادائي معاً. فاللسانيات اللغوية التراكيبية انكفأت على دراسة مُعطيات التّواشج العلائقي بين ملفوظات الجُمل والعمل على ايجادِ المُنجز الوظيفي لهذا التّواشج، وهي لا تمتلك إرادة الخروج إلى محك المحيط الخارجي أو حتى البحث عن المعنى بهيئته الشمولية. أي أنّ عملها ينحصر بمعرفة العلاقات بين الملفوظات ليس إلا. في حين أن التّداوليّة تخطت حدود التّوصيف التراكيبي وحدود الدّلالة المُنجزة من ذلك التّوصيف مُتجهة صوب معرفة علاقات العلامات بمفسريها، وهي بذلك تقتربُ من الجمهور لما قدمته من تحفيز مباشر للاهتمام بأقطاب المُثلث التّواصلي. وانطلاقاً من نظريّة (فودور) الذي ميّز بين النّظام المركزي والمنظومات الطرفية فإنّ آن روبول وجاك موشلار قالا بأهمية التّقسيم الذي جاء به سبربر وولسن بحسب استنادهما إلى نظرية فودور لتميز التّداوليّة الفعلية عن اللسانيات السّابقة عليها، وهذا واضحٌ في قولهما: ((ينزّل سبربر وولسن بوضوح تداوليتهما ضمن مقاربة فودور، وبحسب ما يذهبان إليه فإنّ اللسانيّات -بالمعنى المذكور أعلاه- علم الأصوات الوظيفي وعلم التّركيب وعلم الدّلالة تُوافق منظومة طرفية هي تلك المنظومة المُختصة بمعالجةِ المُعطيات اللغوية. ومقابل ذلك فإنّ التّداوليّة تندرج بوضوح ضمن النّظام المركزي، وبالفعل ليست العمليات

---

(١) التّداوليّة عند العُلماء العرب: ١٥.

(٢) التّداوليّة اليوم علم جديد في التواصل: ٤٧.

التّداوليّة سوى العمليات العادية للنظام المركزي، أو على الأقل البعض منها. ومن هذا المنطلق يُمكن دراسة التأويل التداولي للأقوال-في رأي سبيربر وولسن- من ايضاح طريقة اشتغال عمليات النّظام المركزي))[1]، واستنادا إلى الفيصل السّاطع الّذي فصل بين المنظومتين وجعل الرؤى تتمحور في محددات خاصة: دأب المعنيون بهذا المجال إلى إيجاد المُشتركات والاختلافات على حد سواء لترسيم الحدود النّهائية بين اللسانيات اللغوية والدلالية وبين اللسانيات التّداوليّة. وأحسن التقسيمات -من وجهة نظرنا- التي ميزت بين الدّراسات الألسنية هو تقسيم احمد المتوكل: فهو يرى أن النّظريات اللغوية التي ذاع صيتها في القرن العشرين قد انحسرت في اتجاهين هما اللسانيات الصورية واللسانيات الوظيفية، فاللسانيات الصُّورية تناولت اللغة عن طريق انساقها بمعزل عن وظيفتها. أي الاكتفاء على دراسة النّسق في ضوء المستويين التركيبي والدلالي ولا تجاوز لتلك المسلّمات. في حين ركزت اللسانيات الوظيفية على التّواصل المعرفي عن طريق الاهتمام بظروف الاستعمال اللغوي[2]. وهذا ما تبنته التّداوليّة وسلكته طريقاً في مناهجها.

ولكي تكون الصّورة أقرب إلى ذهنية المُتلقي -عن طريق بعدها عن التشظي المعلوماتي وما يتوالد عنه من فضاءات مفتوحة- نحاول الابتعاد عن توصيف اللسانيات لكثرتها ولاختلاف آليات عملها ونكرس جلّ همنا لبيان البُنيويّة التي تُعدُّ الانموذج المتسامي الذي تمخض عن الدّراسات الالسنية الصّوتية والتركيبيّة والدلاليّة. ووقوفنا على البُنيويّة جاء نتيجة للآليات التي استندت إليها والقضايا التي عالجتها؛ على وفق انغلاقها على نفسها وعدّها العمل الإبداعي وحدة كاملة. وهذا يُعدُّ رهاناً خاسراً من وجهة نظر التّداوليّة. ويكمن وجه التّقارب بين البُنيويّة والتّداوليّة في أن كلتيهما تتعامل مع النّص كوجود له هيبته؛ إلا أنهما يختلفان من حيث الوظيفة. إذ إنّ التّداوليّة تتجاوز النّص - الذي تبجله البُنيويّة وتجعله محورها الاوحد - إلى ما هو خارجه. فهي ترى أنّ لُغة النّص جهاز اداتي تواصلي مع الغير وليس قوالب جامدة لها مدلولات ثابتة في أطر ضيقة. وهذا ناتج عن تشاكل عناصر اللغة النّصية مع المُحيط الخارجي لإقرار عملية الاتصال المنفعي بين طرفي الاتصال وهما المُرسِل والمُرسَل إليه. ولكي نكون في مأمن من اللبس ينبغي علينا ايضاح بعض جوانب المنهج البنيوي بعد اكتمال مراحل نضجه.

---

(1) التّداوليّة اليوم علم جديد في التواصل: 74-75.

(2) ينظر: الوظائف التّداوليّة في اللغة العربية: 52.

إنّ البُنيويّة كمنهج خاص لدراسة الأنظمة اللغوية في النّص ابتدأت بدراسات دي سوسير، وحركة الشكلانيين الرّوس، وحلقة براغ التشيكية، وحركة النّقد الجديد في أمريكا، فضلاً عن الدّراسات اللغوية الأخرى الّتي انتشرت وشاعت في القارتين الأوربية والأمريكية.

كما كان لدراسات وآراء كلود ليفي شتراوس، ورولان بارت، وتزفيتان تودوروف، ولاكان، والتوسير، وميشال فوكو، ورومان جاكوبسون، وجيرار جينيت، وادوارد سابير، وليونارد بلومفيلد وآخرين الأثر البارز في ابصار المنهج البُنيوي النُّور بشكله النّهائي وحجزه مقعداً مرموقاً ضمن المناهج النّقدية الأخرى التي كانت سائدة والتي تهتم بدراسة الآثار الأدبية للتوصل إلى مكنوناتها الدّاخلية عبر مجموعة من الوقفات التّحليلية المُختلفة تبعا للقوانين الخاصّة بها.

وإذا ما عُدنا هذه المرّة إلى تسمية البُنيويّة بهذا الاسم فإنّ ذلك يدفعنا إلى الخوض مجدداً في مسألة مُصطلح (البُنية) وهذا بالطبع سيجعل بحثنا بعيداً عن مراميه وعن جوهر القضية. لذا سنتجاوز ذلك بالبَوح مُباشرة عن تسمية البُنيويّة بهذا الاسم. فتينياتوف وهو أحد أعلام الشّكلانية الرُّوسية يُعدُّ ((أول من استخدم لفظة بُلية في السّنوات المُبكرة من العشرينيات وتبعه رومان ياكبسون الّذي استخدم كلمة البُنيويّة لأول مرة عام ١٩٢٩))[١]، وإذا ما تجاوزنا التّسمية والإبحار في مضامين البُنيويّة فإننا سنخضع لجُملة من القضايا الّتي عالجتها والّتي بيّنت ما كان خافياً. فهي تنظر إلى العمل الأدبي على أساس وحدة متكاملة في ذاتها غير خاضعةٍ لسلطان التّأثيرات الخارجي، وهذا يعني أنها ترفض ما كان مُتواتراً عند المناهج الأخرى من حيث كون الأثر الأدبي صورة مُحاكية للواقع، وتُؤمن ايماناً مُطلقاً بأهميّة القيمة الثّابتة الآنية للنّص، وهي بذلك تلتزم بمفهوم التزامنيّة الّذي أطلقه دي سوسير الرّامي بالانطلاق من النّص وليس من غيره ((ففي الدّراسة التزامنيّة الآنية يقوم المرء بدراسة الحالة اللغوية بكاملها في لحظة زمانية مُحددة بينما في المُقاربة التّاريخية يقوم المرء بدراسة جزء مُعين ومخصوص عبر مدى زماني ما))[٢]، كما أنها تنطلق في تعاملها مع النّص على أساس تقسيمه على وحدات؛ والنّظر إلى هذه الوحدات كتكوين متكامل يتّصلُ بعضه مع بعض. أي أنّ هدف التّحليل البُنيوي هو التّركيز على الوحدات (الأنساق) الصّغرى فالكبرى وصولاً إلى النّظام الكلي، والنّظر إلى هذه الوحدات قائم على أساس

---

(١) المرايا المحدبة - عبد العزيز حمودة: ١٦٣.

(٢) دليل الناقد الأدبي:٣٥. وينظر: البنيوية وما بعدها - جون ستروك: ١٤.

التّكامل النّاتج من اندماجها فيما بينها، وهذه هي الفرضية الجوهرية التي يتمسك بها منهج البُنيويّة من حيث كونه بدرس ((العلاقات القائمة بين عناصر في نظام يشترط كل منها وجود الآخر، وليس بين جواهر كل منها مستقل بذاته))(١).

ويمكن أن نُعرّف النّسق بحسب هذه الخلفية أنّه نظام ذاتي مُتغير يتكيف مع الظّروف الجديدة الآنية وليس نظاماً ثابتاً وجامداً، وهو في اطاره عبارة عن مجموعة القوانين والأنظمة التي تحكم الانتاج الأدبي والفردي وتمكنه من الوصول إلى الدّلالة من دون الرّغبة والسّعي بالاهتمام بها. هذا الاقحام والتهافت على دراسة النّص دراسة مُغلقة يُمثل علامةً بارزةً على موت المُؤلف واقصائه من العملية الإبداعية، وهذا هو جوهر البُنيويّة القاضي بعدم اعطاء ((الكاتب الفرد أو الذّات أية مُبادرة أو غاية تعبيرية أو تصميم في إنتاج العمل الأدبي، بل بدلاً من هذه يقال عن النفس الواعية انها شيء مصنوع))(٢).

وليس المُؤلف وحده بحسب الوجهة البُنيويّة مغيباً عن العمل الابداعي، بل حتى القارئ الّذي لا يستطيع تقديم انطباعاتٍ تصويريةٍ جديدة إلا في ضوء ما تفصح عنه الانساق أو النّظام الكلي القائم على جُملةٍ من الثنائيات الضّدية، على العكس من القارئ التّفكيكي الّذي يُسمح له بقراءة النّص مرّات عدّة والخروج بدلالات عدّة في الوقت نفسه، كما أنّ عمل البُنيويّة ينحصر في إطارٍ تحليلي بحت من دون الوقوف على بيان المُعطيات التّقييمية، فهي تغور في أعماق النّص وتقف على بُنيات لُغويةٍ دقيقةٍ وما بها من تنظيمات تعرض التحولات البنائية عبر شبكة الثنائيات الضّدية من دون الاهتمام بعملية التقييم وما تم التوصل إليه، وهذا الأمر يحيلنا على قضية ثانية ركّزتْ عليها ألا وهي قضية الشّكل والمضمون فهي تؤكد على ضرورة دراسة الشّكل والمضمون معاً كونهما يستحقان العناية نفسها، على العكس من دعوات الشّكلانيين القاضية بضرورة الاهتمام بالشكل الفني.

هذه القضايا الّتي عالجتها ووقفت عليها البُنيويّة تلقي بنا نحو شاطئ التّقسيم وذلك من حيث وجود بنيويتين إحداهما لغوية وأخرى أدبية، وهما يختلفان في الكثير من الأمور مع الاحتفاظ بجوهر الثّبات الّذي تدعو إليه البُنيويّة أي قواعدها العامة التي لا يمكن الحياد عنها.

وإذا ما أردنا التّعرف على الفترة الزّمنية التي عملت فيها كل منهما فإننا نجد ((أنّ

(١) البنيوية وما بعدها: ١٥. وينظر: المرايا المحدبة: ١٧٧.

(٢) البنيوية والنّقد الأدبي - جيرارد جنيت - ترجمة وتعليق - د. نزيه كسيبي - مجلة البيان - العدد - ٢٦٢-٢٦٤ - ١٩٨٦: ٤٤.

النّموذج البُنيوي للغة قد استمر مُنذ أيام سوسير حتى مُنتصف الخمسينات حيث تخطاه النّموذج التّوليدي، أمّا البُنيويّة الأدبية فقد بَدأت في براغ عام ١٩٢٨ ليظهر في الثلاثينيات كثير من الدّراسات البُنيويّة الهامة في الأدب وبخاصة لدى مدرسة براغ))[١].

فالبُنيويّة اللغوية في جوهرها تقف على دراسة الأنظمة اللغوية وما يطرأ عليها من تغيرات في ضوء الانتماء للنص، أي الوقوف على دراسة الأصوات والنّبر والهيئات الصّرفية والتّركيبة وغير ذلك. وهذا الشيء نفسه نجده في البُنيويّة الأدبية؛ مع فارق دراسة النّظام اللغوي ضمن علم اللغة عند البُنيويّة اللغوية ودراسة النّظام اللغوي في الأدب عند البُنيويّة الأدبية. فالبُنيويّة ترى أنّ الأدب ((صيغة مُتفرعة عن صيغة أو هو بنية ضمن بنية اشمل هي اللغة (أي الكتابة كمؤسسة اجتماعية) أي تحكمه قوانين وشفرات واعراف مُحددة تماماً كما هي اللغة كنظام، ويصبح الأدب من هذا المنظور نوعاً من المُمارسة الفعلية مقارنة مع الكتابة عموما))[٢].

هذه الصحوة المتعاكسة وتحوّل المسار اللغوي إلى الأدبي شهدت ذروتها عندما قدّم كل من جاكبسون وتينيانوف نظرية تدعو إلى وجود أنظمة أدبية إلى جانب اللغوية تزامنية في جوهرها يمكن قياسها على اللغة قياسا دقيقا يعمل على وفق القواعد والقوانين[٣]. إلاّ انّ هذه الذروة بلغت قمتها واصبحت البُنيويّة الأدبية شيئاً قائماً بذاته له شروطه وأصوله في العمل على يد بروب وكلود ليفي شتراوس، فبروب تُحسَب له عملية السّبق في طرق باب هذه النّقلة المُهمة عندما درس القصة الشّعبية الرُّوسية وحدّد فيها العناصر الثّابتة والمُتغيرة في الوقت نفسه، وتوصل إلى اكتشاف أربعة قوانين عامة تحكم التّعامل مع القصة الخُرافية إلى جانب نظرته الفاحصة بالوظائف التي قال أنها تصل إلى احدى وثلاثين وظيفة يقسمها على وحدات تحدد مراحل تطور القصة، كما انه انتقل من دراسة القصة الواحدة الخيالية كوحدة بنائية مُتكاملة مفردة إلى تصور عام لكلية البُنية يسميها بالانموذج أو القصة العمدة التي تتوافر فيها كل الاحتمالات البنائية للوظائف الاحدى والثلاثين التي ذكرها.

وقد جاءت دراسة كلود ليفي شتراوس للأساطير، وهي دراسة في الانثروبولوجيا البُنيويّة مُكملة لدراسة بروب، ومنهية فصلاً من التخبط ما بين البُنيويّة اللغوية والأدبية، وقد انطلق في دراسته للأسطورة ومسرحية أوديب ملكاً من جوهر البُنيويّة

(١) بؤس البنيوية: ليونارد جاكسون: ٩٥.

(٢) دليل الناقد الأدبي: ٣٧. و البنيوية والنقد الأدبي - جيرارد جنيت - ترجمة وتعليق - د. نزيه كسبي - مجلة البيان - العدد - ٢٦٢-٢٦٤ - ١٩٨٦: ٤١.

(٣) ينظر: بؤس البنيوية: ٨٠، والمرايا المحدبة: ١٩٧.

اللغوية المُعتمدة في تحليلاتها على الانساق الصُغرى فالكبرى وصولاً إلى النّظام العام أو الكلي، وذلك بغية الوصول إلى اقامة انموذج لنسق أدبي عام باستخدام أدوات المنهج التّجريبي الذي استندت اليه البُنيويّة مُنذ البدء، وذلك من أجل تأسيس قاعدة علمية مُكتملة تُضاهي وتماثل القاعدة العلمية الّتي تستند إليها البُنيويّة اللغوية[1].

واستناداً إلى هذا التّأسيس للبُنيوية الأدبية يمكن عرض ما يخص البنيويتين باختصار وهي كالآتي:

١. وصلت البُنيويّة اللغوية إلى أوج قمتها في الخمسينيات والستينيات وبعدها جاءت البُنيويّة الأدبية لتعلن بزوغها بعد نهاية السّتينيات. لهذا فان البُنيويّة وصلت إلى ذروتها ولاسيما في فرنسا كما يقول محمد عناني ((ابان الستينات كما هو معروف في كتابات رولان بارت وجيرار جينيت و أ.ج. جريماس ورومان جاكوبسون وتزفيتان تودوروف))[2].
٢. تُركز البنيويتان على أدبية الأدب وليس على وظيفة الأدب، أو معنى النّص وهذا يعني أنّه يستوجب على النّقد البُنيوي دراسة النّص عبر قراءته للبُنى الصُغرى والعلاقات التي تربطها وصولاً إلى النّظام الكُلي والعلاقة التي تربطها بهذا النّظام.
٣. تُؤكد البُنيويّة الأدبية على جانبين مهمين الأول: إنّ بُنية النّص الأدبي شأنها بذلك شأن بُنية اللغة تُمثلُ نَسَقاً مُتكاملاً. الثاني: إنّ البُنيويّة هروب من الذّات بل نقيض لها.
٤. ترى كل من البنيويتين ان الكل أكبر من مجموع اجزائه، على النّقيض من مفهوم البناء العضوي للنّص الأدبي عند النُقاد الجُدد.
٥. تؤكد البنيويتان ان المعنى يستمد ويستخرج من النسق باختلافه.
٦. الأصوات في البُنيويّة اللغوية تقابلها المايتمات في البُنيويّة الأدبية، والكلمات تقابلها وظائف بروب أو وحدات شتراوس التي قد تكون أحداثاً صُغرى أو شخصيات، ولكن نُقطة الفصل والاختلاف تأتي بعد نسق الجُملة.
٧. هناك محوران يُنظمان العلاقات بين البُنى الصُغرى وصولاً للنظام الكلي هما الأفقي الّذي يعني توالي أو تتابع مُفردات الجُملة أو وحداتها الصُغرى، والراسي أو ما يُسمى العمودي وهو الخطّ الوهمي الّذي يضم مُفردات تحمله تمثل

(١) ينظر: المرايا المحدبة: ١٩٨ - ٢٠١.

(٢) المُصطلحات الأدبية الحديثة - محمد عناني: ١٠١.

حصيلة لغوية يكتسبها الكاتب[١].

٨. تهتم البُنيويّة الأدبية بشيء آخر فهي تُحاول القيام بإيجاد قياس بين البُنية النّظامية للغات وبين المعايير الثّقافية الّتي تَستَنِدُ إليها الأشكال الفنيّة المُختلفة[٢].

وعلى الرغم من حساسية القضايا التي تناولتها البُنيويّة وما تبعها من رفض لأغلبها من التّداوليّة فان القضيّة التي شغلت بال النُقاد وحمَلت مدى أرحب من الاشكاليات وأسست شرخاً في المفاهيم ما بين البُنيويّة والتّداوليّة هي قضية اللغة والكلام، أو ما أسماها نعوم تشومسكي الكفاية اللغوية والاداء الكلامي. فالبُنيويّة قد اهتمت باللغة بوصفها نظاماً لـه قدسيته والتّداوليّة اهتمت بالكلام بوصفه نظاماً يُضاهي النّظام اللغوي، فدي سوسير الذي يُعدُّ الرّائد الأول للبُنيوية فَرّقَ بين اللغة والكلام: فاللغة كما يرى سوسير((في ماهيتها نظام اجتماعي مستقل عن الفرد، في حين أن الكلام هو منها بمثابة التحقيق العيني الفردي))[٣]، وعلى هذا فان اللغة من وجهة نظر سوسير نظامٌ شاملٌ من الأنظمة والقواعد وهي ثابتة في مغزاها، في حين يُمثل الكلام الهيكل أو الجسد الحي المُنظم لتلك القواعد؛ لأنّ الكلام تقع عليه مسؤولية استخراج المُناسب من ركام اللغة وتوظيفه بالشكل الذي يتناسب والتّواصل[٤]. ولهذا ركز سوسير على اللغة واهمل الكلام. وهذا ما تبنته البُنيويّة في عملها ورفضته التّداوليّة لأهمية الكلام بالنسبة إليها. أمّا النّاقد الأمريكي نعوم تشومسكي الذي أسس النّظرية التوليديّة والتحويليّة، فكان هو الآخر مُدركاً لأهمية الفصل بين اللغة والكلام مع اهتمامه باللغة. وهذا واضحٌ في قوله: ((الكفاية اللغوية بانها معرفة المُتكلم الضمنية بقواعد اللغة، كما يُحدد الأداء الكلامي بأنّه تمظهر هذه المعرفة في عملية التكلم الآني. ويُشير إلى أنّ الأداء الكلامي يخضع إلى عوامل نفسانية مُتعددة ولا يعكس بالتالي مباشرة الكفاية اللغوية))[٥]. وقد تبلورت مفاهيم تشومسكي بهذا الخصوص بعد سلسلة مخاضات عسيرة في تفهم لغويات نص ما وما يتبعه من اختلاف إذا ما جاء الاهتمام بالأداء الكلامي، ونبعت مخاوفه من الأداء الكلامي لما رآه من تجدد الجُمل وهذا يعني عملياً مدداً غير متناهٍ من المعنى، وأشار إلى ذلك صراحة بقوله: ((إنّ جُمل اللغة مُتجددة

---

(١) ينظر: المرايا المحدبة: ١٧٤-٢١.

(٢) ينظر: بؤس البنيوية: ٨٠.

(٣) مشكلة البنية - زكريا ابراهيم: ٤٨.

(٤) ينظر: المرايا المحدبة: ١٦٢.

(٥) الالسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (النظرية الالسنية) - د. ميشال زكريا: ١٨.

بصورةٍ دائمة وعددها لا متناهٍ، مما يستتبع عدم امكانية دراسة الأداء الكلامي من خلال دراسة لائحة جُمل اللغة المحتمل ورودها والّتي اختبرها مُتكلم اللغة))[1]. وهذا يعني أنَّ التّعدديّة الجملية تُنبئ من وجهة نظر البنيويين والتوليديين بخطر التّشابك الدّلالي، لأنها ستخرج من جمود القواعد -التي تدين به البُنيويّة على نحو كبير- إلى حيثيات الانفتاح الدّلالي الّذي سيُغيّر المفاهيم ويُزيد احتمالية تأثيره في المقابل الّذي لا تبغيه البُنيويّة في الأساس. وهذا جوهر فاعل التزمت به التّداوليّة؛ لأن الجُمل بحسب رؤى التّداوليين لا تخضعُ إلا لسطوةِ الجمود واعطاء الدّلالة الواحدة أو المُتعدّدة نسبيًا ضمن اطارٍ مُقيدٍ قوامه الرّصفُ التّركيبي، في حين أن الاداء الكلامي مُنفتح على معالم تنويرية لإمكانية النطق من تخطي الحواجز الثّابتة والاغلال العسرة التي كبلت بها البُنيويّة اللغة. وقد أشار إلى هذا الأمر بوضوح تودوروف بقوله: ((إنّ بنية الجملة مُتصلبة لأنّها من مُعطيات اللغة، ولا يدخل عليها المُستخدم الفردي سوى تعديلات طفيفة، وتكون بُنية المنطوق بالمقابل أكثر ليونة وتسمح بعدة تنويعات، فنرى ان المنطوق -وهو تتابع منطقي لعدة جمل- أقل شفافية من الجملة، فالجملة بالنسبة إلى شعور المتكلمين بديهية، ان صفة طبيعية تجعلها غير مدركة وبالمقابل نرى ان المنطوق يفترض دوما قرارا من جانب المتكلم، وخاصة فيما يتعلق بتنظيمه الشامل))[2].

ومهما يكن من أمر التقاطب والتنافر بين اللسانيات البُنيويّة واللسانيات التّداوليّة؛ فان المشروع الالسني بحسب ركونه الى واحدة من المنظومتين الفكريتين (الحداثة وما بعد الحداثة) له الأثر الفاعل في إحداث النُقلة النّوعية في الاجهزة المفاهيمية المُتعددة تبعاً لتعدد اللسانيات. وتبقى اللسانيات التّداوليّة الاكثر بُروزا وتأثيراً في الأخرين من بين تلك اللسانيات لإمكانية تحقيقها الأثر الاتصالي التّواصلي: لأنَّ اللسانيات برمتها ولاسيّما الصّوتيّة والتّركيبيّة والدّلاليّة قد اهملت الواقع الاجتماعي ولم تُسايره مثلما سايرته التّداوليّة، ولهذا قال فيليب بلانشيه ان اللسانيات الاجتماعية قد عابت على اللسانيات السّابقة لشروعها بقتل عملية التّواصل المعرفي إذ قال: ((إنّ احدى المؤاخذات الأساسية التي وجهها عُلماء اللسانيات الاجتماعية والتداوليون -على حد سواء- إلى اللسانيّات: هي كونها غير قادرة على أخذ الواقع الاجتماعي للاستعمالات بعين الاعتبار. إذ لا يُمكن لايّ قاعدة اعرابية أو لسانية تقتصر على دراسة السَنن *code* داخلياً من ذلك الكفاية التشومسكية واللسان السوسيري))[3].

---

(١)الالسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (النظرية الالسنية) - د. ميشال زكريا: ٦٧.

(٢) الأدب والدلالة: ١٣.

(٣) التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان: ٣٥.

المحــور الثانـــي

التداوليـــة وصلتهـا بالسيميائيــة

لم يكن تيار الحداثة الذي تزعمته اللسانيات باختلافها وتسيدها البُنيويّة بمنأى عن الانزلاق في هوة التيه جراء ارتكازه على آفاقٍ ضيِّقة، فهو تيار لم يتجاوز حدود النَّص ولَم يُعر أهميَّة إلا للغة على حساب المُعطيات الجمالية الأخرى ولاسيَّما التَّواصلية النَّفعية، ولهذا أصبح هذا التَّيار عُرضة للمُساءلة والانتقاص من هويته العلمية من تيار مناوئ له وهو تيار ما بعد الحداثة الذي تخطى حواجز الحداثة وأسس قواعده الجديدة، وتمثل التخطي بتشكيل نواةٍ معلوماتيَّةٍ مُغايرة عما كانت عليه سابقاً، وهذا واضحٌ في اغداق الأهمية للتَّواصل المعرفي عن طريق الخروج من شرنقة النَّص وانغلاقه على نفسه بما تُقدمهُ لُغته من تراكيب وأنساقٍ إلى فضاءاتٍ تواصليةٍ مُتعددةٍ مُمثلة بالعلامة التي يَدفعُ بها النَّص من داخله نحو المحيط الخارجي لتمثيل الواقع الاجتماعي، مع اختلافٍ في المناهج والمدارس التي انضوت تحت سقف تيار أو منظومة ما بعد الحداثة. وما يُهمنا هنا المنهج السيميائي الذي يُعدُّ الراعي الحقيقي لولادة التَّداوليَّة؛ لما تضمنته من رؤى مفصلية مهمة حددت بموجبها المفاهيم وازداد بذلك سقف المطالبة بالإمكانات اللازمة التي تدفع نحو زيادة الاهتمام بالواقع واحترامه عن طريق معرفة ما تؤديه الوظائف اللغوية من تأثيرات في المُتلقي، أي الانطلاق من البؤرة اللغوية القابعة في نَصٍ ما إلى مديات الواقع الاجتماعي وذلك بفضل العلامات المُتولدة من اللغة. وعليه اتكأت التَّداوليَّة على السيميائيَّة اتكاء كبيراً حتى قيل عنها انها الوريث الشَّرعي للسيميائية.

لكي نبين كيف حصلت الوراثة ينبغي علينا معرفة المؤسسين الأوائل الَّذين يَرجِعُ لهم السَّبق في تشكيل هذا النتاج، فميجان الرويلي وسعد البازعي قالا بأنَّ أصل هذه التَّسمية -أي التَّداوليَّة على الرغم من أنَّهما أطلقا تسمية الذَّرائعيَّة الجديدة – تعود إلى ((مُنظري السّيمياء مثل تشارلس موريس وتشارلس ساندرز بيرس؛ وجون ديوي على وجه الخصوص، وتختلف دلالتها حسب الحقل الذي نبعت منه))[1]، أي ان السيميائيَّة كانت النواة الأكثر تقدماً في تشكيل التَّداوليَّة بهيئتها النهائية، على الرغم من استناد التَّداوليَّة لسنوات طويلة إلى اللسانيات الحداثية التي أصبحت جزءاً منها ومُكملة لها في الوقت نفسه بعدما نهلت من افكار تيار ما بعد الحداثة المُمثل

---

(١) دليل الناقد الأدبي: ١٠٠.

بالسيميائيّة؛ لأن التّداوليّة قد أفادت من اللسانيات من جانب العلاقات اللغوية فيما بينها وما تعنيه داخل النُّصوص، وتحولت للإفادة من السيميائيّة التي تجاوزت حدود النّص وما تعنيه التّوظيفات اللغوية خارجه. وقد أشار الجيلالي دلاش إلى وجود سيميائيات كان لها الفضل في تكوين اللسانيات التّداوليّة وهذا واضح في قوله: ((يذكر أ.ماس *U.MASS* ود.فندريش *D.Venderich* في كتابهما الموسوم بـ(*"Sp Rachichers"* *Pragmatikund*) أربعة منابع أساسية أدت إلى تكون هذا التخصص. أي اللسانيات التّداوليّة وهي على التوالي:

- السيميائيات المنطقية المرتبطة بـ (نادي فينا *Vienne*).
- سيميائيات ش.موريس التي تفرع عنها تيار طاغٍ أعهد التفكير فيه من خلال (مكون العمل) *Composante Tra* ويمثله ج.كلوس *G.KLAUS*- من ألمانيا الديمقراطية.
- الذرائعية الأمريكية *Pragmatisme* لـ ش.س.بيرس *C.S.Peirce*))[1].

وعلى الرغم من تأثر التّداوليّة بالسيميائيّات المذكورة بدرجات متفاوتة إلا أنّ سيميائيّة بيرس تُعدُّ من أكثر السيميائيّات تأثيراً في بناء النُّظام التداولي بهيئته الحالية. وقد أشار الجيلالي دلاش إلى ان تأثير العالم السيميائي الأمريكي بيرس في التّداوليّة كان كبيراً جداً، إذ كانت له اليدُ الطُّولى في المُنعطف الّذي حصل صوب اللسانيات التّداوليّة، ونمثل موقف بيرس -كما وصفه (هابرماس)- العلمي بإسقاط تجربة التطور العلمي صوب السيرورة الجماعية[2]. وقد ذكر فيليب بلانشيه ان سيميائية بيرس تمثل سلفاً للتداولية لما قدمته من آراء بشأن العلامات والدلالية وما نحو ذلك مما اهتمت به التّداوليّة على نحو كبير ((وقد تعرضنا سابقاً إلى إسهام بيرس في التّداوليّة، وهو الذي يعتبر مؤسس الدلائلية من خلال فلسفته النفعية (*Pragmatiste*) ولكن لكونه سيميائياً بالأساس يُعدُّ سلفاً للتداوليين الذين جاؤوا من بعده، ويعدُّ بيرس الدلائلية علماً يفضل سائر العلوم لاستخدامه العلامات))[3]. وعلى الرغم من الجهود الحثيثة التي بذلها بيرس في بناء منهجه السيميائي واعتباره المؤسس للتداولية؛ فإنّ ما جاء به الفيلسوف الأمريكي موريس يُعدُّ مهماً في وصول التّداوليّة بمفاهيمها نحو مرحلة التأسيس الفعلي: فقد استخدم مُصطلح التّداوليّة لأول مرة عام ١٩٣٨ بوصفه فرعاً من ثلاثة فروع رئيسة في علم العلامات السيميائي، وهذه الفروع هي:

---

(١) مدخل إلى اللسانيات التّداوليّة: ٤-٥.

(٢) ينظر: المرجع نفسه: ٨.

(٣) التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان: ٣٩.

١. علم التراكيب: وهو يعنى بدراسة العلاقات الشكلية بين العلامات بعضها مع بعض.

٢. علم الدلالة: وهو يعنى بدراسة العلاقات بالأشياء فضلا عن التي تدل عليها.

٣. التّداوليّة: وتعنى بدراسة علاقة العلامات بمفسريها.

أمّا مرحلة النُّضج الفعلية والاكتمال البنائي للتداولية فكان في العقد السّابع من القرن العشرين على يد ثلاثة فلاسفة هم أوستين وسيرل وغرايس، فضلاً عن دراسات كارناب[1].

وبعد عملية البناء التأسيسي لمُصطلح التّداوليّة الذي رفع لواءه بيرس واعطاه موريس روحاً واكمل مرحلته النُّضجيّة أصحاب مدرسة اكسفورد (أوستين وسيرل وغرايس) وما قدمه كارناب، يجدر بنا الوقوف على الجهاز المفاهيمي للسيميائية الذي تناول قضايا كثيرة افادت منها التّداوليّة فيما بعد. واهم القضايا التي استندت إليها السيميائيّة وجعلتها محور اهتمامها (العلامة)، وكل القضايا الأخرى عولجت داخلها، والعلامة وما تؤديه من تأثير في المقابل هو ما راحت تلهث خلفها التّداوليّة.

تُعدُّ العلامة رهينة العمل السيميائي وأحد أقطابه المُهمة، وتُعَرف بأنّها ((شيء ما يحتل موقع شيء آخر، وهي ذات بعد تواصلي، إذ تُثير في فكر المستقبل علامة مرتبطة. وهذه العلامة المُرتبطة بها هي على درجة من المُطابقة تزيد وتنقص مع ما يُسميه بيرس المؤوّل))[2]. وهذا يعني أنّ العلاقة الاعتباطية بين الدّال والمدلول التي أقترحها دي سوسير قد أخذت بعداً آخر في العلامة السيميائيّة؛ لأنّ المؤول دخل عنصراً ثالثاً في عملية الإنتاج، وما يتحقق من مطابقة أو زيادة أو نقصان بين ما هو مخزون في ذهنه من علامات وبين العلامة المؤولة يُعدُّ انتصاراً للبعد التّواصلي الذي تبغيه السيميائيّة، وهو ما اتكأت عليه التّداوليّة على نحو كبير، لذلك يرى محمد عناني أن بيرس وجد ((أن العلاقة بين العلامة والعامل المفسّر تعتمد على العلاقة بين العلامة وما ترمز له، فالعامل المفسّر يرتبط بالشيء المُشار إليه ارتباطا يعادل -حسبما يقول بيرس- ارتباطه بالعلامة، ومن ثم يمكن اعتباره علامة أخرى أوجدتها العلامة الأصلية في ذهن الشّخص الذي رآها أو سمعها وحاول فهمها))[3]. وعليه فإنّ العلامة الدلائلية عند بيرس ثلاثية الأبعاد ((فتوليد الدلالة ثلاثي (مرجع/مدلول/دال)، ولكن أقطاب الثالوث

---

(١) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٩. وتحليل الخطاب الشعري – استراتيجية التناص – محمد مفتاح: ١٢٨-٣٩.

(٢) التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان: ٤١.

(٣) المُصطلحات الأدبية الحديثة: ١٥٦.

عند بيرس هي: المادة الدّالة المُكوّنة من حامل ومحمول والمدلول الذي يُمثلهُ الدّال، والمؤول))[١]. والمؤول هو القطب الأساس في المعادلة التّداوليّة مع الاحتفاظ بقيمة الدّال والمدلول؛ لأنّ العلامة من منظور التّداوليّة تكمن قيمتها في تحريك ذهنية المُتقبل لمعرفة مقاصد المُتكلم في ضوء سياقٍ مقامي مُحدد قائم على المحاورة بين اثنين مع مراعاة الافتراضات المسبقة بين الطرفين والعناصر الاشارية التي بثتها تلك العلامة. فالعلامة السيميائيّة تعمل في محورين داخل النّص أولاً، أي معانٍ ثابتة لما تدل عليه الدّوال، وخارجه ثانياً، أي معانٍ مُتحركة تبعاً لما يُفصح عنه المؤول، في حين أنّ التّداوليّة تُعوّل كثيراً على المحور الثّاني الخارجي لما يُحققه من بعد تواصلي عن طريق ترجمة الواقع المُحيط؛ مع عدم اهمال الاشارات الأولية المبنية داخل اللغة النّصية. ولذلك فان بيرس ((أرسى ثنائية طرفاها متمايزان وهما النمط *Type* والورود *Token*، أمّا النّمط فهو العلامة بما هي كيان مجرّد مثالي وتقع في اللسان بالمعنى السوسيري للفظ، أمّا الورود فهو الاستعمال الملموس للنّمط في السّياق، فالمعنى الحرفي هو من النّمط؛ أمّا الدلالة في السّياق فهي من الورود. ويمكن أن يكون الملفوظ حقيقة بما هو نمط، في حين انه عندما يكون وروداً فانه يمكن أن يكون كاذباً بالنسبة إلى المرجع))[٢].

وعلى وفق أهمية تقسيم بيرس الثُّنائي المُمثل بالنّمط والورود وما آل إليه من تعيين الادوار وبلوغ الأهلية وأحقية العلامة في بلوغ غايتها التّواصلية ولا سيّما في المتن السّياقي ذهب بيرس هذه المرة إلى تصنيف العلامات إلى ثلاث مجموعات هي:

- ((النّوع الأول هو العلامة التي تشبه ما ترمز له أو ما تُمثله، مثل النموذج المعماري أو الخريطة وما إلى ذلك، وهو يطلق على هذا اللون الأيقونة *Icon*
- والنّوع الثّاني هو العلامة التي ترتبط فعلياً بما ترمز له مثل دوارة الرّيح أو عقرب الساعة وهو يطلق على هذا النوع اسم المؤشر *Index*.
- وأمّا الثّالث فهو العلامة التي جرى العُرف على ربطها بما ترمز له مثل الألفاظ، وعلامات المرور، وهو يطلق على هذا الضرب اسم الرّمز *Symbol*))[٣]، وعليه فان العلامة من هذا المنظور أكثر شفافية لاشتغالها على أرضية مُتحركة تميل بها باتجاهات مُتغايرة غرضها تقديم صورة الشّيء ببعدها التّواصلي، لذا فالعلامات الثلاثة هي ذات أبعادٍ تواصليّة

---

(١) التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان: ٤١.

(٢) المرجع نفسه: ٤٢.

(٣) المُصطلحات الأدبية الحديثة: ١٥٥. وينظر: التّداوليّة من اوستن إلى غوفمان:٤٢.

مفتوحة تخرج الثابت وتتحرك به نحو التّحول الذي يكون متغايراً على الدّوام لتُغاير الهوية الذّهنية للمُتلقين. وهذا يعني ان لا علامة ثابتة على الدّوام إلا في أطر محدودة وضيقة؛ بل ان العلامة تنفتح إلى مديات أرحب في أفق الفضاء الذّهني للمُتلقي. وهذا هو البُعد التّواصلي الذي تبغيه التّداوليّة ولكن شرط ان تكون العلامة في سياق مقامي مُحدد يتعارف عليه طرفا العملية الارسالية وهما المُتكلم (المُرسِل) وقصديته والمُتلقي(المُرسَل إليه) وانتاجيته. وبناء على ذلك فان العلامة السيميائيّة مُوجهة نحو الفعل ما دفع ذلك التّداوليّة لأن تأخذها بعين الاعتبار. لذا طورت الأمر أكثر بتركيزها على الأفعال الكلامية ولا سيّما الفعل المنجز الذي ركز عليه أوستن وطوره سيرل -وهو ما سنتناولها في المحور القادم. وهذا يعني ان تأثر التّداوليّة بالسيميائيّة واضحٌ جداً في هذا المقام الذي لعبته العلامة المُوجهة نحو الفعل، وقد أشار فيليب بلانشيه إلى ان بيرس أكد اللحمة الصميمية بين السيميائيّة والتّداوليّة قائلاً: ((وفي النهاية يُؤكد بيرس واصلاً بين عمله كسيميائي وبين تأملاته الفلسفيّة أن وضع العلامة موجه نحو الفعل، ما دامت فكرة صنع الإنسان أشياء لنفسه تُعادل الآثار الملموسة والممكنة بواسطة تلك الأشياء التي يخلفها، واعتباراً لما تقدّم فإن بيرس قد ألزم بوضوح الدّراسة اللغوية بالمنظور التّواصلي والدلالي الذي يسمُ المقاربة التّداوليّة التي تعنى بورود العلامة))[1].

لم يكن موريس بمنأى عن التغيرات الحاصلة في ميدان السيميائيّة والتّداوليّة، بل انضم إلى سيل التطورات الجارفة بغية خلق معالم جديدة تخدم المدونة النّقدية المعرفية، وتمثل برنامجه التطويري بتتبع خطى بيرس ولا سيما فيما يتعلق بالثالوث الدلالي، فقد أجرى عليه تعديلاً وحصره في ثنائية وابدل أحد مُصطلحاته، إذ ((أخذ موريس عن بيرس الثالوث الدّلالي مُعدّلا فيه لفظ المؤوّل، وقد أعاد مفهمته واضعاً له تسمية جديدة وهي المُسمى (*Designatum*) والمسمّى يظل مختلفاً عن المؤول (*Interpretant*)، أو الشيء المحيل عليه أو الشيء المرجعيّ (*Denotatum*)، ولكنه يُحيل على صنف من الأشياء أكثر من كونه يحيل على شيء محدد))[2]. وهذا يعني ان وظيفة الدّليل الثلاثيّة عند بيرس قد تقلصت عند موريس لا لأجل العبث أو تحويل المُؤشر

(١) التّداوليّة من اوستن إلى غوفمان: ٤٣.
(٢) التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان: ٤٤.

الاتجاهي نحو مضمان الضبابية؛ بل من أجل زيادة الفائدة وترميم مكامن الخلل في المسمّى عند بيرس. وتمثل ذلك باهتمام موريس بالبُعد السّلوكي الّذي يطغى على العملية التّواصلية عن طريق إحداث الأثر في المُتقبل. ورأى الجيلالي دلاش انه حتى الجسم عند موريس يعمل على إحداث التأثير والتأثر في المحيط في آن واحد، وهذه دلالة على طغيان البُعد السلوكي على فكره وتسيده بقوة في نظريته بشأن الدّليل ((فالنّظرية السيميائيّة – بالنسبة إلى هذا اللساني التداولي الأمريكي – يجب تصورها كسيرورات سلوك، فالجسم من حيث هو جسم يفعل في المحيط وينفعل به. علماً بان وظيفة المُحيط وأهميته عاملان حاسمان في ارضاء حاجاته، ومن ثم فان هناك تفاعلاً بين هذين العاملين، ان موريس لا يبتعد كثيراً عن تصور بيرس اللهم الا من حيث البعد السلوكي))[1]. وعلى هذا يبدو ان التّحول نحو مضمان الاتصالية أتى أُكله عن طريق تبليغ الادلة عن جريان حال التّواصل نتيجة التأثير والتأثر بعملية معكوسة.

هذه الادلة لها وظائف متعددة إلا أنّ دلاش ركز على اثنين منها، وهي جوهر النّظرية الموريسية في هذا المجال، فالأدلة عند موريس بحسب دلاش تكون مسؤولة عن نقل وظائف كثيرة أهمهما وهي الأولى ان بُنية اللغة برمتها بحسب وجهة نظر اللسانيات التّداوليّة عبارة عن نظام من السُّلوك، والثّانية ان وظيفة الدّلالة المُسمّى تريْ المُرسل إليه إلى رد فعل ما[2]. كما أن موريس ضيّق الخناق على كل دليل، إذ وجد ان كل دليل يحتوي على أربعة عناصر رئيسة لها خصائصها الخاصة في الاداء الوظيفي، وهذه العناصر هي:

- العنصر الّذي يقوم مقام الدّليل أو الناقل.
- العنصر الذي تتم احالة الدّليل عليه أو المدلول عليه.
- عنصر الاثر الذي يحصل لدى المُرسل إليه والّذي يبدو له وكأنه الدّليل المؤول.
- المؤول.[3]

إلى جانب ما تقدم فإن موريس وضع يده على الهدف الاسمى من التّأثيرات السُّلوكية، وكيفية تحقيق المغزى المرجو منها، فقد وجد ان تأثير العلامة على المُتقبل المُتلقي يجب ان تدفعه نحو ادراك وتصور كلية الشيء. وهذا يعني اجمالاً ارتقاء الدّلالة نحو سقف التّوليد القوي، لهذا راح يُؤسس لمفهوم (درجة توليد الدّلالة)، وميز

(١) مدخل إلى اللسانيات التّداوليّة: ١٠.

(٢) ينظر: المرجع نفسه: ١١.

(٣) ينظر: مدخل إلى اللسانيات التّداوليّة: ١٠-١١.

بين ثلاث درجات بحسب قوتها ((وهذه الدَّرجة تبدو ضعيفة عندما لا تقوم العلامة سوى بإثارة انتباه المُتقبل إلى الشَّيء المرجع، غير انها تكون درجة قوية عندما تمكن العلامة المتقبل من تمثل مجموع خصائص الشَّيء وهو غائب مادياً. أمَّا الدَّرجة الوُسطى فتكون عندما تثير العلامة تمثل الشَّيء عند المُتقبل بذكر بعض خصائصه فحسب))[1].

ولا يمكن في النهاية نسيان الدَّور الَّذي لعبه كارناب المُنتمي إلى مدرسة اللغة الشكلية أو الصورية ضمن (حلقة فينا) في تفعيل الانتقال من الدلالية إلى التَّداوليَّة اللسانية، وقد أكد على ان أي لسانيات هي بالضرورة تداولية ما دامت في أصلها تحيل على المتكلم. كما أثبت الطَّابع التَّجريبي الثَّابت للتداولية[2]. وهذا يعني ان السيميائيَّة بوصفها لسانية الاداء والوظيفة هي أكثر قرباً من التَّداوليَّة ان لم تكن هي نفسها بوجه آخر.

(١) التَّداوليَّة من أوستن إلى غوفمان: ٤٤.

(٢) ينظر: المرجع نفسه: ٤٥.

المحور الثالث

الجهاز المصطلحي المفاهيمي للتداولية

تتضمن النّظريات والفلسفات والتّيارات وما نحو ذلك في محتواها العملي أجهزة مفاهيمية مُصطلحية تختلف فيما بينها تبعاً لاختلاف المنظومة الفكرية العُليا، فمن خلال تلك المُصطلحات المفاهيمية يعرف النّاقد أو القارئ انه في ميدان هذا العلم أو تلك الفلسفة وهلم جرا، فالتّداوليّة بوصفها علماً يبحث في علاقات العلامات بمؤوليها له جهازه المُصطلحي الخاص به والذي من خلاله نتمكن من معرفة أدق تفاصيل هذا العلم؛ واي المُصطلحات جديرة بالأهلية كونها تُمثل عصب العلم وحيويته. لهذا فان التّداوليّة ارتكزت على أربعة أقطاب مفاهيميّة يُمكن تناولها بحسب سلّم التداول والافضلية، وهي: نظريّة الأفعال الكلاميّة، الاستلزام الحواري (نظرية المحادثة)، الافتراض المسبق، العناصر الاشارية.

❖ أولا: نظرية الأفعال الكلامية

تُعدُّ الأفعال الكلامية أكثر المحاور التّداوليّة اهتماماً من النُّقاد والباحثين، كونها تُمثل الشّريان الرئيس فيها، ومن خلالها ابتعدت التّداوليّة عن حقل اللسانيات التقليدي الممثل بعلم الأصوات وعلم التراكيب وعلم الدّلالة وباشرت بتأسيس لسانية قائمة على الاهتمام باللغة الطبيعية وفرزنة قناة التّواصل المعرفي بين النّاس. فالفعل الكلامي من وجهة نظر التّداوليّة هو قوة الفعل الانجازي في احداث الاثر في المقابل، ولقيمته فقد أهتمت به العلوم المعرفية ولكن على نحو مغاير لما جاءت به التّداوليّة ((فعلماء النّفس يرون اكتسابها شرطاً أساسياً لاكتساب اللغة كلها، ونقاد الأدب يرون فيها إضاءة لما تحمله النّصوص من فروق دقيقة في استعمال اللغة وما تحدثه من تأثير في المُتلقي، والانثروبولوجيون يأملون أن يجدوا فيها تفسيراً للطقوس والرُّقى السّحرية، والفلاسفة يرون فيها مجالاً خصباً لدراسة علاقة اللغة بالعالم، واللغويون يجدون فيها حلولا لكثير من مشكلات الدّلالة والتركيب، وتعليم اللغة الثّانية، أما في الدّرس التداولي فان الأفعال الكلامية تظل واحدةً من أهم المجالات فيه، ان لم تكن أهمها جميعاً، بل ان التّداوليّة في نشأتها الأولى كانت مُرادفة للأفعال الكلامية))[1]، اذن فالأفعال الكلاميّة مُهمة في جميع الحُقول ولا سيّما الحقل الدّلالي التّداولي لما

(١) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٤٠ – ٤١.

يقدمه من توصيف عام للفعل في قوته الانجازية وقدرته التأثيرية، وبذلك يتشكل الغرف التواصلي الذي على أساسه تأسست التداوليّة. ولأهمية الأفعال الكلاميّة في المنجز الوظيفي اصبحت في ميدان التداوليّة نظرية كاملة لها أبعادها وجذورها. وهي جذور بلورة النواة الأولى المكونة للتداوليّة: لأن نظريّة الأفعال الكلاميّة تأثرت بفلسفات مُتعددة ساهمت في إيجاد التداوليّة أخيراً. لذا لا ضير من عدّ الأفعال الكلامية نظرية مُهمة في اللسانيات التداوليّة. ولكي نكون على مقربة من تشكيلها البنائي ينبغي علينا عرض المراحل التكوينية التي ساهمت في بنائها ولا سيّما ما جادت به الفلسفة التحليلية عليها ابتداء من فريجه وفتغنشتاين وانتهاء باوستن وسيرل. وبعرض تلك المراحل ستتضح النّظرية الكلامية.

مثلت الفلسفة التحليليّة النّواة الأولى لتشكيل التّداوليّة لاهتمامها البالغ باللغات الطبيعيّة بعد أن كانت مُهملة في السّابق في الفلسفات الأخرى، لذلك ((يُعتبر هذا المذهب الفلسفي ردة فعل قوية على الفكر الفلسفي القديم برمته، ومن أهم ما أنكرته الفلسفة التّحليلية على ذلك الفكر انه لم يلتفت إلى اللغات الطّبيعية ولم يولها ما تستحق من الدّراسة والبحث، فسعت إلى ردم هذه الهوة والتّكفير عن هذا الذّنب باتخاذ اللغة موضوعاً للدراسة باعتبارها أولى الأولويات في أي مشروع فلسفي يتوخى فهم الكون ومُشكلاته فهماً صحيحاً))[1].

❊ ويُعدُّ الفيلسوف الالماني غوتلوب فريجه المؤسس الأول للفلسفة التحليلية في العقد الثّاني من القرن العشرين، وقد خطى في مجال التحليلات اللغوية أشواطاً مُهمة ولا سيّما وقوفه على الدّور الذي تلعبه العبارات اللغوية، فقد ميز بين مقولتين لغويتين هما اسم العلم، والاسم المحمول، وهما بالنّسبة له عماد القضية الحملية، ويكمن الفرق بين اسم العلم والاسم المحمول من حيث ان الأول يشير إلى شيء فردي معين لا يتخطاه، أي يتمم المعنى على نحو مُستقل من دون الحاجة إلى لفظ آخر ليتم معناه، في حين ان الاسم المحمول تقع عليه مسؤولية وظيفة التصور، اي يسند مجموعة من الخصائص الوصفية الوظيفية إلى اسم العلم، أي انه يحتاج اسم العلم ليعطيه معنى. وعليه فان الجديد الذي جاء به فريجه في ابحاثه اللغوية هو رؤيته الدّلالية من خلال تمييزه بين اسم العلم والاسم المحمول، وبين المعنى المرجع، وربطه

---

(١). التّداوليّة عند العلماء العرب: ٢٠. يمكن اجمال مفهوم الفلسفة التحليلية في جملة من المطالب هي:١- ضرورة التخلي عن أسلوب البحث الفلسفي القديم وخصوصا جانبه الميتافيزيقي.٢ – تغيير بؤرة الاهتمام الفلسفي من موضوع نظرية المعرفة إلى موضوع التحليل اللغوي. ٣- تجديد وتعميق بعض المباحث اللغوية، ولاسيما مبحث الدلالة والظواهر اللغوية المتفرعة عنه.٢١-٢٢.

بين مفهومي الاحالة والاقتضاء[1].

ومهما يكن من أمر القضايا اللغوية التي تناولها فريجه فان الكلمة الفصل في كل ما ورد هي فصله بين اللغة العلمية واللغة العادية، فالأولى تكون أحادية المعنى وعلى نحو صريح لان مهمتها الأساس تكمن في وضع الحقيقة، وهي بذلك لغة مغلقة لا تحوّل فيها، ولهذا قال عنها فريجه انها ضرورية للبرهنة الحسابية، أما اللغة العادية فهي مُنفتحة على مديات أرحب من المعاني، وهذا دلالة على امكانية ثرائها التّواصلي. وبذلك يُعدُّ فريجه المواضع الأولى لأساس علم الدلالة ومن ورائها التّداوليّة[2].

وضمن السلسلة التّواصلية لتطوير برنامج اللغة العادية جاء الفيلسوف الانكليزي ذو الاصل النمساوي (لودفينغ فتغنشتاين) ليضع لمساته على اللغة العادية ويبث فيها روحاً، وتمكن من ذلك على حساب الوضعانية المنطقية بزعامة رودولف كارناب، والظاهراتية اللغوية بزعامة ادموند هوسرل، إذْ تُعد الوضعانية والظاهراتية فرعين مهمين من الفلسفة التحليلية إلى جانب فلسفة اللغة العادية التي تزعمها فتغنشتاين، ولكل منهما عملهما الخاص، ولكنهما اتفقا في جوهر عام مفاده الاهتمام باللغات الصورية المصطنعة على حساب اللغات الطّبيعية التي تسعى التّداوليّة لإخراجها إلى دائرة النُّور، فالوضعانية عملت على اقصاء اللغات الطبيعية من ميدانها وتحجيم دور القدرات التّواصلية فيها، واهتمت ببناء لغات بديلة ذات بعد تواصلي محدود وضيق، وهذا ما نفرت منه التّداوليّة. أما الظاهراتية فإنها ابتعدت عن الاهتمام بكينونة اللغة واتجهت نحو دراسة الاطر الفكرية وذلك ما جعل التّداوليّة غير مُهتمة بما جاءت به سوى مبدأ القصديّة الذي يُعدُّ أساسا في السّياق المقامي التّواصلي ما بين المخاطِب والمخاطَب. وهو ما عوّل عليه أوستن كثيراً في دراسة ظاهرة الأفعال الكلامية. والحال نفسها عند سيرل. وعليه لم يبق سوى فلسفة اللغة العادية التي جاء بها فتغنشتاين لتكون محط انظار التداوليين. وذلك لبناء جهاز مفاهيمي تداولي خاص باللغة الطبيعية ولا سيما في زيادة محورها التّواصلي عبر التركيز على الاستعمال[3].

وعلى الرغم من البدايات القوية والمثيرة للجدل لتأسيس نظرية الأفعال الكلامية - وهو ما وجدناه عند فريجه وفتغنشتاين- فان مرحلة النضوج والاكتمال قد ابصرت النُّور على يد فلاسفة مدرسة اكسفورد، وكان أكثرهم حظوة في تطوير اداء الأفعال الكلامية هو أوستن وتلميذه سيرل، وقد أشار محمد مفتاح إلى ذلك بقوله: ((على ان

(١) ينظر: التّداوليّة عند العلماء العرب: ٢٠-١٨. و المدخل إلى علم اللغة: ٣٤٢ -٣٤٣.

(٢) ينظر: التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان: ٣٠.

(٣) ينظر: التّداوليّة عند العلماء العرب: ٢٠-٢٢. و التّداوليّة من أوستن إلى غوفمن: ٣٠-٣١.

هناك تياراً آخر وهو متداخل مع السابق اهتم بأحد الجوانب الاساسيّة في التّداوليّة وهو دراسة الأفعال الكلامية، ويقوم هذا الاتجاه على فرضية أساسيّة مؤادها ان الكلام يقصد به تبادل المعلومات مع القيام بفعل محكوم بقواعد مضبوطة في الوقت نفسه، وهذا الفعل يهدف إلى تحويل وضع المُتلقي وتغيير نظام معتقداته ومواقفه السلوكيّة، وزعماء هذا الاتجاه هم فلاسفة اكسفورد وعلى رأسهم أوستين وسورل))[1].

قدّم أوستن للتداوليّة خدمات جليلة جعلت منها صرحاً فريداً في ميدان اللسانيات والمدونة النّقديّة كلاً. وترجع أهمية آرائه إلى كونه وقف على أهم عصب في التّداوليّة وهو الأفعال الكلامية وتناولها من زاوية مُتعددة بغية تفحص أهليتها لتحقق في النّهاية الأهلية والإستقلالية للتداولية.

جاءت آراء أوستن في الأفعال الكلامية كردة فعل على المفهوم السّائد الخاص بوظيفة اللغة. وهو مفهوم يرى ان وظيفة اللغة قائمة على وصف العالم وصفاً يحتمل الصدق والكذب واطلق على ذلك المُغالطة الوصفيّة. واتجه مفهومه المعاكس للأول نحو وجود عبارات تشبه العبارات الوصفيّة الوظيفيّة في تركيبها، ولكنها لا تقوم على وصف العالم ولا تلتزم باحتمالية الصّدق والكذب وهي في أساسها تؤدي فعلاً وهذه هي أفعال الكلام: مثل قول أحدهم لامرأته (أنت طالق) فهذه الجملة لا تصف الوقائع الخارجية ولا تحتمل الصدق والكذب وإنّما أدت فعلاً. وانطلاقاً من هذه الاشكالية ومحاولة حلّها ميز أوستن بين نوعين من الأفعال هما:

١. أفعال اخبارية: وهي أفعال تصف وقائع العالم الخارجي وتكون صادقة أو كاذبة.
٢. أفعال أدائية: وهي أفعال تؤدي فعلاً معيناً ولا توصف بالصدق والكذب، وتُوصف بان تكون موفقة أو غير موفقة. والأفعال الادائية لا تتحقق إلا بشروط الملاءمة وشروط قياسية[2]. إلا أن هذه الشروط لا تكون نافذة الصلاحية على الدوام لوجود أقوال ادائية انشائية (كما اسماها أوستن) لا تخضع لهذه الشروط، إذ ((إن بعض الاقوال المُتشكلة حول جمل من الأفعال

---

(١) تحليل الخطاب الشعري: ١٣٩.
(٢) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٤٣-٤٥. و التّداوليّة اليوم علم جديد في التواصل: ٣٠-٣٦.

المُستعملة لا تنسحب عليها هذه المقاييس))[١]. ونتيجة للتشابك المعرفي بين الأفعال الاخبارية والادائية الانشائية من حيث عدم قدرة الشُروط الموضوعة على احداث الفصل النّاجز بين الفعلين، سعى أوستن هذه المرة إلى تقييد الفعل الكلامي بأعمال خاصة، وقد قسم بناء على ذلك الفعل الكلامي الواحد على ثلاثة أفعال لكل منه خصيصته المنفردة وهي:

١. **الفعل اللفظي**: وهو يتألف من أصوات لغوية تنتظم في تركيب نحوي ينتج عنه معنى محدد وهو المعنى الأصلي وله مرجع يحيل عليه.
٢. **الفعل الانجازي**: وهو ما يؤديه الفعل اللفظي من معنى اضافي، ويكمن خلف المعنى الأصلي.
٣. **الفعل التأثيري**: ويُقصد به الأثر الذي يحدثه الفعل الانجازي في السّامع.

وعلى وفق ما جاء به تنبه أوستن إلى قيمة الفعل الانجازي في إحداث النّقلة النوعيّة في المعنى حتى عدّ لبّ نظرية الأفعال الكلامية وأخذ يُطلق عليها بالنّظريّة الانجازيّة في بعض الاحيان. أمّا الفعل اللفظي فيرى أوستن انه ضروري بالوجود إذْ لا ينعقد الكلام إلا به، أمّا الفعل التّأثيري فحظوته أقل من الفعلين الآخرين لكون أفعاله ليست كلها ذات تأثير في السّامع، وعليه لا يدخل ضمن دائرة الأهمية قياساً على الفعلين الأخرين ولا سيّما الانجازي منه[٢]. وقد ذكر مسعود الصحراوي ان للفعل الكلامي الكامل ثلاثة خصائص هي:

- ((انه فعل دالّ.
- انه فعل انجازي (أي ينجز الأشياء والأفعال الاجتماعية بالكلمات).
- انه فعل تأثيري، أي يترك آثاراً مُعينة في الواقع، خصوصاً إذا كان فعلاً ناجحاً.

ويقوم كل فعل كلامي على مفهوم (القصديّة)* وتقوم مسلمة القصديّة على أسس تداوليّة))[٣]. واستناداً إلى القوة الانجازية في الفعل اقترح أوستن خمسة أقسام

---

(١) التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان: ٥٤.

(٢) ينظر: أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٤٥-٤٦. والتّداوليّة من أوستن إلى غوفمان: ٥٩-٦١.

* القصديّة: ان العملية التواصلية القصدية تفترض طرفين انسانيين: مرسل ومتلق، بيد ان المقاصد انواع: أولي يتجلى في المعتقدات والرغبات التي تكون لدى المتكلم، وثانوي يكون فهما يعرفه المتلقي من مقاصد المتكلم، وثلاثي ينعكس في هدف المتكلم الذي يريد ان يجعل المتلقي يعترف بانه يريد منه جوابا ملائما. تحليل الخطاب الشعري: ١٦٤.

(٣) التّداوليّة عند العلماء العرب: ٤٤.

للأفعال الانجازية وهي:

- الحكميات: تتمثل في الحكم، نحو التبرئة، الادانة، اصدار الأمر.. الخ.
- التنفيذيات: وتقضي بمتابعة أعمال مثل، الطَّرد، العزل، الاتهام، الاستقالة، الخ.
- الوعديات: وهي تُلزم المُتكلم بالقيام بتصرف ما مثل، الوعد، الموافقة، العزم والنية، والقسم.. الخ.
- السلوكيات: وهي أفعال تتفاعل مع أفعال الآخرين مثل الاعتذار، الشُّكر، التهنئة.. الخ.
- العرضيات: وهي تختص بالعرض مثل، التأكيد، النفي، الاصلاح، والقول والتأويل.. الخ.

هذه المقترحات تظل ناقصة الاهلية كونها لم تضع معايير خارج العلامة اللغويّة بل اكتفأت على العلامة اللغوية داخلياً، وهو اقتراح لنقصانيته لم يرض به أوستن وصرح بذلك علناً، مما دفع تلميذه سيرل لمداركة الأمر عن طريق وضعه معايير صريحة وخارجة عن العلامة اللغوية(١).

لقد كان سيرل ملماً بما يجري في المدونة التّداوليّة ولاسيّما في مجال القوة الانجازية للفعل الكلامي وما يؤديه من عمل، فالفعل الانجازي عنده هو الوحدة الصُّغرى للاتصال اللغوي وان للقوة الانجازية دليلاً يُسمى دليل القوة الانجازية، مثل قوة النّبر والتنغيم في اللغة الانكليزية مثلاً، أو علامات الترقيم في اللغة المكتوبة، كما ان الفعل الكلامي عنده لا يقتصر على ما يبغيه المُتكلم أي ما يقصده بل هو مرتبط بالعرف اللغوي الاجتماعي، كما انه طور شروط الملاءمة عند أوستن فجعلها أربعة هي:

١. شروط المحتوى القضوي.   ٢. الشّرط التمهيدي.

٣. شرط الاخلاص.   ٤. الشّرط الاساسي.

وعلى غرار ما قدمه أوستن من تصنيف للأفعال الكلاميّة صنف سيرل هذه الأفعال إلى ثلاثة أسس رئيسة هي:*

١. الغرض الانجازي.   ٢. اتجاه المطابقة.   ٣. شرط الاخلاص.

وعلى وفق المعايير الثلاثة هذه صنف سيرل الأفعال الكلامية خمسة أصناف مثلما

---

(١) ينظر: التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان: ٦٢-٦٣. و آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٤٦.

* هناك في كتاب أوستن اثنا عشرة نقطة ضمن تصنيف الافعال الكلامية، والثلاثة الأولى تعد مهمة بالنسبة له واستنادا إليها صنف الاعمال اللاقولية الانجازية إلى خمسة أصناف:

فعل استاذه أوستن وهي كالآتي:

١. الاخباريات: والغرض الانجازي فيها هو وصف المتكلم واقعة معينة من خلال قضية وأفعال هذا الصنف كلها تحتمل الصدق والكذب.
٢. التوجيهات: وغرضها الانجازي محاولة المتكلم توجيه المخاطب إلى فعل شيء معين.
٣. الالتزاميات: وغرضها الانجازي التزام المُتكلم بفعل شيء في المستقبل.
٤. التعبيريات: وغرضها الانجازي هو التعبير عن الموقف النفسي تعبيراً يتوافر فيه شرط الاخلاص.
٥. الاعلانيات: ان نجاحها يتوقف على مُطابقة مُحتواها القضوي للعالم الخارجي.

واخيراً ميز سيرل بين الأفعال الانجازية المُباشرة وهي التي تُطابق قوتها الانجازية مراد المُتكلم. أي يكون ما يقوله مطابقاً لما يعنيه، وبين الأفعال الانجازية غير المباشرة، أي التي تخالف قوتها الانجازية مراد المتكلم[١].

❖ ثانيا : الاستلزام الحواري

نظرية المحادثة الغرايسية + نظرية الملاءمة

يُمثل الاستلزام الحواري واحدًا من أهم عناصر الجهاز المصطلحي المفاهيمي للتداوليَّة؛ لأنَّه يولي قصديَّة المُتكلم أو ما يُسمى بالدَّلالة غير الطَّبيعية اهتماماً كبيراً. ويُعدُّ هـ.ب.غرايس المُنتمي إلى جامعة اكسفورد رائداً في مجال ايضاح جوانب هذا الاستلزام عندما اقترح مفهوم (حُكم المحادثة) في مقاله الذي أشتهر كثيراً وهو (المنطق والمحادثة). وفيه بين الفكرة الرئيسة من ذلك، وهو ان المتخاطبين عندما يتحاورون يتبعون عدداً مُعيناً من القواعد الضمنيَّة اللازمة للتَّواصل، وإذا ما حدث خلل في تلك القواعد فلا تواصل يذكر[٢]. وبحسب التَّفاعل الاندماجي بين المتخاطبين تحصل عملية التُّواصل، وهذا يتم من خلال التركيز على قصديَّة المُتكلم في بث ما يريده وقدرة المخاطب في معرفة نوايا المتكلم اي قصديته، ومتى ما حدث خرق في هذه العملية تتوقف عملية التُّواصل، ولهذا ((يُشدد غرايس في التُّواصل اللغوي على نوايا القائل

---

(١) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٤٧: ٥١، والتَّداوليَّة من أوستن إلى غوفمان: ٦٣ – ٦٤، والتَّداوليَّة اليوم علم جديد في التواصل: ٣٣ -٣٤.
(٢) ينظر: التَّداوليَّة من أوستن إلى غوفمان: ٨٤.

وعلى فهم المخاطب لهذه النّوايا))[١]. ولهذا حاول غرايس ايضاح الاختلاف بين ما يُقال وما يُقصد: لأن ما يُقال هو ما تسجله الجمل من معاني ثابتة قد تعارف عليها المتحاورون، في حين ان ما يقصد هو ما تسجله الجمل من معاني غير مباشرة تتغير فيها المقاصد تبعاً لتغيير المقامات والملابسات في السّياق المُحدد. وعلى وفق المعنى الصّريح في ما يُقال والمعنى المُتضمن المخفي في ما يقصد راح غرايس يُؤسس لفكرة الاستلزام. وقد وجد ان الاستلزام نوعان أحدهما عرفي مفاده ان المتخاطبين قد تعارفوا على جل المعنى في هذه الجملة أو تلك. ومعاني هذه الألفاظ والجمل لا تتبدل مهما اختلفت بها السياقات، اما الاستلزام الحواري فإنه يتغير بتغيير المقامات والسّياقات التي يرد فيها[٢]. وفي اطار اشتغاله على التفريق بين المعاني الصريحة (ما يُقال) والمعاني الضّمنية (ما يُقصد) قسم غرايس الحمولة الدّلالية على أساس هذين المعنيين وأوضح ذلك على النحو الآتي:

١. ((فالمعاني الصريحة: هي المدلول عليها بصيغة الجملة ذاتها وتشمل ما يلي:

أ- **المحتوى القضوي**: وهو مجموع معاني مفردات الجملة مضموم بعضها إلى بعض في علاقة اسناد.

ب- **القوة الانجازية الحرفية**، وهو القوة الدلاليّة المؤشر لها بأدوات تصبغ الجملة بصبغة أسلوبية ما: كالاستفهام، والامر، والنهي، والتوكيد، والنداء، والاثبات، والنفي.

٢. **والمعاني الضمنية**: هي المعاني التي لا تدل عليها صيغة الجملة بالضرورة، ولكنّ للسياق دخلاً في تحديدها والتّوجيه إليها وتشمل ما يأتي :

أ- **معاني عرفية**: وهي الدّلالات التي ترتبط بالجملة ارتباطاً اصيلاً وتلازم الجملة ملازمة في مقام معين مثل معنى الاقتضاء.

ب- **معاني محورية**: وهي التي تتولد طبقاً للمقامات التي تنجز فيها الجملة مثل الدلالة الاستلزامية))[٣].

وفي ضوء هذا الاختلاف بين ما يُقال وما يُقصد سعى غرايس إلى تقليص الهوة بين المتخاطبين، أي بين ما يريده المُتكلم وما يفهمه المُخاطَب (السّامع)، ولهذا وضع أربعة

---

(١) التّداوليّة اليوم علم جديد في التواصل: ٥٣.
(٢) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٣٣.
(٣) التّداوليّة عند العلماء العرب: ٣٤-٣٥.

شـروط – وهي مبادئ عامـة يجب ان يحترمهـا الطّرفـان – ضـمن مبـدأ أسـماه (مبـدأ التّعاون)، وهذا المبدأ يشمل:

١. مبدأ الكم: اجعل إسهامك في الحوار بالقدر المطلوب من الاخبار أولاً، وان لا تزيد على اسهامك أو تنقص منه ثانياً.
٢. مبدأ الكيف: لا تقل ما تعتقد انه غير صحيح، ولا تقل ما ليس عندك دليل عليه.
٣. مبدأ المناسبة: أجعل كلامك ذا علاقة مُناسبة للموضوع.
٤. مبدأ الطريقة: كن واضحا ومحددا، فتجنب الغموض واللبس وأوجز ورتّب كلامك[١].

ومهمـا يكـن مـن أمـر القـوانين والمعـايير التي وضـعها غـرايس لتقييـد الحـوار بـين المتخاطبين: فإنها تبقى قوانين ومعايير – على الرغم من قبوليتها – غير منضبطة تمام الانضباط: لأن هناك انواعاً من الحوارات تخالف هذه المبادئ برمتها، وهذا الاختلاف هـو جـدير بـالاحترام: بل ان نظريـة الاسـتلزام الحـواري قائمـة عليـه: لان احترام المتكلم والسـامع القـوانين في مبـدأ التعـاون والعمـل بموجبهـا يعني ان مـا يقولـه المتكلم مفهوم لدى السامع، ولا قيمة للحوارية اذن لأنها تدخل في ما أسماه غرايس بالاستلزام العرفي الذي يكون معلوماً للطرفين المتحاورين. وعليه فان انتهاك قواعد اللعبة في هذا المبدأ هـو الـذي يولـد الاسـتلزام، ولقـد أشـار آن روبـول وجـاك موشـلار إلى أن هـذه القواعد والمعايير هي مبادئ – ولهذا فهي تختلف – أكثر من كونها قواعد ومعايير، وهذا واضح في قولهما: ((ولا تمثل قواعـد المُحادثة مجرد معـايير ينبغي للمخاطبين اتباعها فحسب بل تمثل ما ينتظرونه من مخاطبيهم، فهي مبادئ تأويل أكثر من كونها قواعد معيار أو قواعـد سـلوك. وعلى هـذا تنخـرط قواعـد المُحادثـة بوضـوح في التّيار المعرفي خلافاً للقواعـد المعياريـة والتّواضـعية الخاصـة بنظريـة الأعمـال اللغويـة التي رأينـا صلتها بأطروحـات السـلوكيين، فقواعـد المُحادثـة لا تسـتند إلى مجـرد القـدرة على اكتساب حالات ذهنية بل إلى القدرة كذلك على اسناد مثل هذه الحالات وخصوصاً قدرتها على نسبة مقاصد))[٢].

ولـم تقـف نظريّة غـرايس في المحادثة إلى هذا الحدّ، بل انها تطوّرت كثيراً على يد نظريّة المُلاءمة التي تبناها علم النّفس المعرفي الادراكي، وقد أشار محمود الصحراوي إلى انهـا نظريـة تداوليـة معرفيـة تأسسـت على يـد اللسـاني البريطـاني ديـردر ولسن

(١) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٣٤.
(٢) التّداولية اليوم علم جديد في التواصل:٥٧.

والفرنسي دان سبربر، وتمثلت فائدتها بمزجها بين تيارين في اساسهما مُتناقضين الأول مجال علم النّفس المعرفي ولا سيّما النّظرية القالبية لفودور، والثّاني نظريّة غرايس في المُحادثة. ولهذا تكمن أهميتها التّداوليّة في أمرين:

- انها تنتمي إلى العلوم المعرفية الادراكية.
- انها ولأول مرة مُنذ ظهور المفاهيم التّداوليّة حجزت موقعها في اللسانيات ولا سيّما موقعها من علم التراكيب.

ولا يهمنا هنا بيان أثر النظرية القالبية فيها بقدر ما يهمنا بيان أثر النظرية الغرايسية، وما هي حدود التطوير الذي احدثته فيها، لقد افادت نظرية الملاءمة من مبدأ المناسبة القايع ضمن مبدأ التعاون الرباعي عند غرايس وعدّته الأهم من بين تلك المبادئ؛ لكونه مناسبا واستدلاليا في الوقت نفسه.

- مناسب لان المتكلم يستعمل المثير الاكثر ملاءمة لإبلاغ افتراضاته.
- وهو استدلالي لان المُتلقي يستدل على القصد الاخباري انطلاقا من المؤشرات المسوقة من المتكلم.

كما تُعدُّ السياق من الميزات المهمة التي تبنتها نظرية الملاءمة؛ لأن الأشياء لا تكون محددة قبل عملية الفهم، وانما تبنى تبعاً لتوالي الأقوال[1]. وهذه أهم ميزة تناولتها التّداوليّة وعملت على تطوير السياق من خلالها ؛ لأن السّياق لا يتحدد بالثّوابت من معينة نظر التّداوليّة بل الذي يعطيه قيمته تلك المتغيرات التي تولد نتيجة توالد السياقات المقامية في كل موقف وحدث.

❖ ثالثا: الافتراض المسبق

يعوّل التّداوليّون كثيراً على الافتراضات المسبقة كونها تمثل المفتاح الرئيس لعملية التواصل المعرفي بين النّاس، فالتّداوليّة تؤمن بأن توجيه المُتكلم لأفكاره ورميها صوب الهدف قائم على ايمان المُتكلم بامتلاك السّامع معلومات تؤهله لفهم قصديّة المُتكلم، وينجح الحوار إذا ما كانت قنوات المعرفة موصدة بوجه السّامع؛ لان عملية التأثير والتأثر وما ينتج عنها من تبادل للمعلومات والخبرات مهمة في احداث التّواصل. ولتوضيح المسألة نعرض هذا المثال: انه في مقام تواصلي معين يتحاور (أ) مع (ب) فينتج عن الحوار السؤال الآتي:

كيف حال زوجتك واولادك

فالافتراض المسبق هنا هو ان الشريك (ب) متزوج وله أولاد، وان الشريكين (أ)

---

(1) التداولية عند العلماء العرب:٣٦-٣٨. والتّداوليّة اليوم علم جديد في التواصل: ٧٢-٧٤.

و(ب) تربطهما علاقة تسمح بطرح هذا السُّؤال. وبناء على ذلك تكون الافتراضات المسبقة ضرورية جداً ومهمة في عملية التَّواصل الكلامي والإبلاغ من وجهة نظر التداوليين[١].

ولأهمية هذا الموضوع نبه محمود احمد نحلة إلى ضرورة الحذر من الخوض في غماره لسببين: أولهما كثرة الأبحاث التي تناولت هذا الموضوع في اطار نظريات مختلفة ووجهات نظر متباينة، فليس بمستغرب أن يجد الباحث في هذا الموضوع الرأي ونقيضه، فضلاً عما يكتنف بعض هذه الآراء من غموض والتباس.

والثاني: التمييز الواجب بين الاستعمال العام للفظ، الافتراض السَّابق في لغة الحياة اليوميَّة، والاستعمال الاصطلاحي في الدَّرس التَّداولي الذي هو أضيق مدى من الاستعمال العام[٢].

❖ رابعاً: الإشارة أو (العناصر الاشارية)

تُعدُّ العناصر الاشارية مهمة في الحاضنة التَّداوليَّة لما تقدمه من خدمة التَّواصل الكلامي ويتمثل ذلك في كون الكلمات والجمل والعبارات اللغوية تعتمد اعتماداً كبيراً على السّياق القابعة فيه، إذ لا معنى لها إلاَّ في ضوء هذا الانتماء وعند ذلك يحدث التَّغير ويُكسر طوق الثَّبات. ونتيجة لاهتمام الباحثين بهذا الجانب ظهر علم الدَّلالة المقامي الَّذي تتلخص مهمته بتفحص السّياقات واستخراج المقامات التَّواصلية جراء الاشارات، وعليه اصبحت العناصر الاشارية مجالاً مُشتركاً بين علم الدَّلالة والتَّداوليَّة وقد أجمع أغلب الباحثين كما أشار إلى ذلك محمود احمد نحلة على ان الاشاريات خمسة أنواع هي:

١. الاشاريات الخاصة: واوضحها بالاستدلال هي الضمائر الحاضرة المُتعلقة بالمتكلم، مثل (أنا، نحن، وغيرهما من الضَّمائر).
٢. الاشاريات الزمانية: وهي كلمات تدل على زمان يُحدده السّياق بالقياس إلى زمان التَّكلم، فزمان التَّكلم هو مركز الاشارة الزّمانية في الكلام.
٣. الاشاريات المكانية: وهي مثل الزّمانية ولكنها تدل على المكان.
٤. اشاريات الخطاب: وهي اشاريات لا تحيل على مرجع بل هي التي تخلق المرجع وقد تلتبس اشاريات الخطاب بالإحالة إلى سابق أو لا حق، ولهذا اسقطها بعض الباحثين من الاشاريات.
٥. الاشاريات الاجتماعية: وهي ألفاظ وتراكيب تشير إلى العلاقة الاجتماعية بين

---

(١) ينظر: التَّداوليَّة عند العُلماء العرب: ٣٠-٣١. وآفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٢٦-٢٧.
(٢) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٢٧-٢٨.

المُتكلمين والمخاطبين من حيث هي علاقة رسمية، أو علاقة ألفة ومودة من ذلك صيغ التبجيل في العلاقة الرّسمية، مثل جنابك، سعادتك، معالي الباشا، وغيرها. وتُعد الاشاريات الاجتماعية من المجالات المُشتركة بين التّداوليّة وعلم اللغة الاجتماعية))[1].

وفي الختام لا بد من الاشارة إلى أن النّتائج المُستحصلة من قراءة أي بحث تمثل واحدة من المفاتيح التي تساعد القارئ على بلورة ما توصلت إليه طروحات المتن، ليكون ذلك القارئ على مقربة من صورته المتكاملة من العمل؛ لأن النّتائج النّهائية تبلور كيان البحث وتعمل على فهم المراد منه، لذا فإن عملنا يُلزمنا أن نقدم جملة من النّتائج وهي كالآتي:

١. تمثلت الاشكالية المصطلحية بكثرة الترجمات التي أبعدت مصطلح التّداوليّة عن ميدانه الأصيل، فمُصطلحات مثل النفعية والذرائعية والبراجماتية والمقامية والاتصالية وغيرها ناظرت مصطلح التّداوليّة مما أربك القارئ العربي وشتت فكره بالاهتداء إلى الامثل منها. فتلك المُصطلحات اتفقت مع التّداوليّة في الجوهر واختلفت معها في العمل.

٢. على الرّغم من تناظر المُصطلحات الكثيرة مع التّداوليّة فان مُصطلح التّداوليّة كان الأكثر تواتراً في الدّراسات والابحاث.

٣. فُهمت التّداوليّة من القارئ العربي عن طريق الكتب التي ألفها العرب، واستغلقت عليه في الكتب الغربية ولا سيّما ما أدته الترجمة من خلل في ترجمتها.

٤. عدّت التّداوليّة جزءًا مكملاً للسانيات؛ لأنّها تدرس علاقات العلامات بمفسريها، وهي بذلك تمثل الحلقة الرابعة ضمن الحاضنة الالسنية بعد علم الأصوات، وعلم التراكيب، وعلم الدلالة.

٥. اتفقت التّداوليّة مع البُنيويّة في الجوهر العام وهو الاهتمام بالنص بوصفه كينونة فاعلة، ولكنها اختلفت معها من حيث العمل، واكثر الاختلافات ظهورا وبروزا هو اهتمامها بالأداء الكلامي على حساب الكفاية اللغوية التي أهتمت بها البُنيويّة.

٦. عدّت التّداوليّة الوريث الشرعي للسيميائية؛ لان أصلها يعود إلى منظري السيميائيّة وهم تشارلس بيرس، وتشارلس موريس، وجون ديوي.

٧. مثلت آراء بيرس سندا في بناء النّظام الخاص للتداولية، وعملت آليات موريس في ايجاد الكيان الكامل للتداولية، حتى انه عدّ أول من اطلق مصطلح

---

[1] آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ١٥-٢٦. و ينظر: مدخل إلى اللسانيات التّداوليّة: ١٨-٤٢.

التَّداوليّة على هذا العلم عام ١٩٣٨.

٨. جاءت العلامة السيميائيّة لتشكل المُنعطف المُهم والمُؤثر في نظام التَّداوليّة: كونها عملت على زيادة اللحمة التَّواصلية مع الواقع. وهو ما سعت وتسعى اليه التَّداوليّة: ولاسيَّما ان مهمتها هي تحقيق التَّواصل المعرفي. نتيجة اهتمامها بأقطاب المثلث التَّواصلي (المبدع، النص، المُتلقي).

٩. استندت التَّداوليّة إلى جهاز مفاهيمي مُصطلحي عمل على تنميطها وجعلها مُستقلة الرُّؤى والمفاهيم.

١٠. أكثر هذه الأجهزة حضوراً وتأثيراً كانت الأفعال الكلامية: ولأهميتها أصبحت نظريَّة. والحال كذلك مع الاستلزام الحواري الذي أصبح نظرية عند غرايس، واهتمت بها نظريَّة المُلاءمة التي تبناها علم النَّفس الادراكي، فضلاً عن الافتراض المُسبق والعناصر الاشارية.

❖ المصـــادر والمراجـــع

- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، د. محمود أحمد نحلة - دار المعارف الجامعية - ٢٠٠٦.
- الأدب والدلالة - ت. تودوروف – ترجمة د. محمد نديم خشفة - مركز الانماء الحضاري - حلب - ط١ / ١٩٩٦.
- الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية(النظرية الالسنية) - د. ميشال زكريا - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، ١٩٨٢.
- البُنيويّة وما بعدها-من ليفي شتراوس إلى دريدا-تحرير-جون ستروك-ترجمة-د. محمد عصفور-سلسلة عالم المعرفة. د.ت.
- بؤس البُنيويّة-الأدب والنظرية البُنيويّة-دراسة فكرية-ليونارد جاكسون-ترجمة-ثائر ديب-منشورات وزارة الثقافة- دمشق ٢٠١٠.
- تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التّناص) - د. محمد مفتاح - المركز الثقافي العربي - المغرب - ط١/١٩٨٥.
- التّداوليّة عند العلماء العرب (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي - د. مسعود الصحراوي - دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت - ط١/٢٠٠٥.
- التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان - فيليب بلانشيه - ترجمة صابر الحباشة - دار الحوار للنشر والتوزيع - سوريا - ط١/٢٠٠٧.
- التّداوليّة والحجاج (مداخل ونصوص) - صابر الحباشة - صفحات للدراسات والنشر - دمشق - ٢٠٠٨.
- التّداوليّة اليوم علم جديد في التّواصل - آن روبول وجاك موشلار - ترجمة - د. سيف الدين دغفوس، د. محمد الشيباني - مراجعة د. لطيف زيتوني – دار الطليعة للطباعة والنشر - بيروت - ط٢٠٠٣/١.
- دليل الناقد الأدبي-اضاءة لأكثر من خمسين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا-د. ميجان الرويلي ود. سعد البازعي-المركز الثقافي العربي-الدار البيضاء-ط٢٠٠٠/٢.
- قراءات في علم اللغة- د. أحمد شفيق الخطيب - دار النشر للجامعات - مصر - ط١/ ٢٠٠٦.
- المدخل إلى علم اللغة - كارل - ديتر بونتنج - ترجمة وتعليق د. سعيد حسن بحيري - مؤسسة المختار للنشر والتوزيع - القاهرة - ط٢٠١٠/٢.
- مدخل إلى اللسانيات التّداوليّة (لطلبة معاهد اللغة العربية وآدابها) - الجيلالي دلاش - ترجمة محمد يحياتن - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر. د.ت.
- المرايا المحدبة من البُنيويّة إلى التفكيك- د. عبد العزيز حمودة- سلسلة عالم المعرفة. د.ت.

- مشكلة البنية-أو اضواء على البُنيويّة-د. زكريا ابراهيم- دار مصر للطباعة. د.ت.
- المُصطلحات الأدبية الحديثة-دراسة ومعجم انكليزي-عربي-د. محمد عناني-الشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان-ط/٣-٣-٢٠٠٣.
- الوظائف التّداوليّة في اللغة العربية - أحمد المتوكل - دار الثقافة - الدار البيضاء - ط١ / ١٩٨٥.

❖ الدوريـــات

- البُنيويّة والنّقد الأدبي-جيرارد جنيت- ترجمة وتحليق- د. نزيه كسيبي- مجلة البيان- العدد- ٢٦٢- ٢٦٤- ١٩٨٦.

النص و التواصل

ملامح من تداولية الخطاب

د. جبار سويس الذهبي*

❖ مدخل

التداولية بوصفها منهجا فلسفيا اشتغل في مجالات اللغة وعلاقاتها. شأنها في ذلك شأن المناهج اللغوية التي أفرزها البحث اللغوي الحديث منذ الدراسات التاريخية المقارنة مرورا بالمناهج البنيوية الوصفية والمنهج التوليدي التحويلي وانتهاء بالمناهج النصية التي أفرزت مسارب أخر في البحث اللغوي من بينها التداولية التي اعتمدت الفلسفة بدأت ملامحها تتشكل منذ بداية القرن المنصرم مع الفيلسوف الأمريكي جون شالرس بيرس، وتبلورت مع أبحاث أوستين وسيرل منتصف القرن الماضي.

اعتنت التداولية بالبحث في العلاقات القائمة بين اللغة ومتداوليها من الناطقين بها، وتقوم على تحليل عمليات الكلام، ووصف وظائف الأقوال اللغوية وخصائصها لدى التواصل اللغوي. وسعت إلى تطوير نظرية أوستين لأفعال الكلام، أي الأنماط المجردة أو الأصناف التي تمثل الأفعال المحسوسة والشخصية التي ننجزها أثناء الكلام. واضعة بذلك موضع السؤال التقابل (السوسري) بين اللغة والكلام، رافضة هذا التقابل موضوعاً غير قابل للدراسة المنهجية.

يحاول البحث قبل الدخول في التعريف بالتداولية، الاطلاع على جملة من المفاهيم المتداولة في الدرس اللساني المعاصر الذي اتخذ من النص والخطاب أداة لآليات التواصل اللغوي، بدأها بمفهوم التواصل الذي يعرف بأنه حوار متبادل بين متكلم ينتج ملفوظا موجها إلى متكلم آخر، ومُخاطب يُتوخى منه الاستماع أو الإجابة الصريحة أو الضمنية. متناولا الآليات التي اعتمدت في ميدان الاتصالات الهاتفية من خلال عرض خطاطة شانون التي بين فيها أطراف العملية الاتصالية المتمثلة بطرفي الرسالة الرئيسين الباث والمتلقي فضلا عن الآليات المتعلقة بكل منهما وهما مصدر التعبير المتعلق بالباث، والهدف الذي تحققه عملية التواصل والمتعلق بالمتلقي، وبينهما الرسالة التي يعبر عنها بالإشارة النهائية المبثوثة.

---

* معهد تطوير تدريس اللغة العربية، وزارة التربية، بغداد، العراق

من ثم عرض البحث أليات علماء اللغة في وصفهم لعملية التواصل، الذين اعتمدوا في وصف عملية التواصل على الوظيفة الأساسية للغة التي هي وظيفة الاتصال.

من ثم عرض البحث مفهوم الخاصية النصية التي لابد لأي قطعة من الكلام أن تتضمنها كي تكون نصا، والتي تعتمد في جانب كبير منها على علاقات تداولية تتمثل في العلاقات الخارجية التي تحكم النص والتي يطلق عليها دي بوجراند (سياق الموقف) الذي يشمل المحيط الثقافي والاجتماعي والمعرفي والتاريخي، وأيضا في معايير النصية.

ومن ثم تناول البحث مفهوم التداولية معتمدا مقاربة معرفية لأسس النظرية وآلياتها، رابطا بينها ومجموع المفهومات التي قدمها البحث بوصفها (التداولية) سياقا تواصليا، تقوم أساسا على تفسير النص بوصفه فعلا كلاميا، أو بوصفه سلسلة من أفعال كلامية، فضلا عن التطورات التي طرأت على التداولية والإضافات عليها.

نرجو أن نكون قد وفقنا في بحثنا الذي أردنا من خلاله بيان أهمية العلاقة القائمة بين اللغة بوصفها مفردات ودلالات ورموز، والعلاقات الخارجية (التداولية) التي تحكم النص اللغوي وتؤثر في الباث والمتلقي والرسالة على حد سواء، وهو الأمر الذي عنت به عناية فائقة المناهج اللغوية النصية.

منذ نهاية ستينيات القرن الماضي ظهرت مرحلة جديدة من الدراسات اللغوية، وهي ما أطلق عليه بالجيل الثاني من اللسانيات، تفريقا له عن الجيل الأول الذي بدأ منذ ظهور الدراسات التاريخية المقارنة بعد اكتشاف السير وليم جونز في العام ١٧٨٦م النصوص السنسكريتية، موثقاً ذلك في تقريره الذي قدّمه إلى اللجنة الأسيوية بشأن اكتشافه هذه اللغة وعلاقتها باللغات اللاتينيّة والإغريقيّة والقوطيّة، مروراً باللسانيات الوصفية حتى التوليدية التحويلية التشومسكية.

اعتمدت لسانيات الجيل الثاني النص بوصفه وحدة لسانية، متجاوزة حدود الجملة التي لم تتخل عنها حتى النظريات الحديثة منها التوزيعية والتوليدية، إلى ما هو أبعد، والغاية من ذلك معرفة العلاقات الرابطة بين أجزاء الكلام، المكونة لعملية التواصل اللغوي، ظهرت دراسات مهمة في هذا الجانب على أيدي لسانيين كبار منهم هاليداي، و بيتوفي، ودرسلر، وفان دايك، وغيرهم أخرون أثروا البحث اللساني بالعديد من النظريات التي كان غايتها تحقيق التواصل بين مستعملي اللغة، ومعرفة الأدوات اللغوية التي تقوم بعملية ربط أجزاء الكلام لتجعله نصا ذا وحدة دلالية

متماسكة يفهمها متلقيه.

سنحاول فيما يأتي الاطلاع على بعض المفاهيم المتداولة في الدرس اللساني المعاصر الذي اتخذ من النص والخطاب أداة لآليات التواصل اللغوي، نبدأها بمفهوم التواصل الذي يعرّف بأنه حوار متبادل بين متكلم ينتج ملفوظا موجها إلى متكلم آخر، ومُخاطب يُتوخّى منه الاستماع أو الإجابة الصريحة أو الضمنية (بحسب طبيعة الملفوظ). فالتواصل إذن يقوم بين طرفين.

وحدد العلماء في العصر الحديث عملية التواصل عن طريق تحديد عناصرها وبوسائل أكثر علمية، فقد ذكر سعيد بنكراد أن مهندسا أمريكيا كان يعمل في ميدان الاتصالات الهاتفية يدعى كلود شانون قد قدم خطاطة وضع فيها آليات العملية التواصلية:

مصدر الخبر ←—— الباث ←—— الإشارة النهائية ←—— المتلقي ←—— الهدف

الإرسالية الإشارة المبثوثة الإرسالية [١]

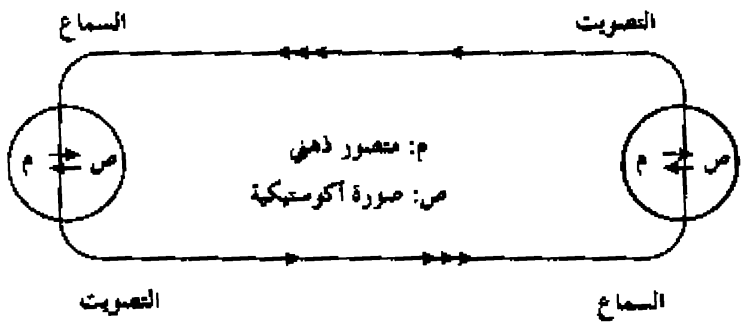
يتضح من الخطاطة أعلاه أطراف العملية الاتصالية المتمثلة بطرفي الإرسالية الرئيسين الباث والمتلقي فضلا عن الآليات المتعلقة بكل منهما وهما مصدر الخبر المتعلق بالباث، والهدف الذي تحققه عملية التواصل والمتعلق بالمتلقي، وبينها الرسالة التي يعبر عنها بالإشارة النهائية المبثوثة.

أما علماء اللغة، فقد اعتمدوا في وصف عملية التواصل على الوظيفة الأساسية للغة التي تضمنتها تعريفاتهم للغة، فمنذ دي سوسير الذي تحدث عن دورة الخطاب التي يفترض فيها وجود شخصين في الأقل وهو أدنى ما يطلب كي تكون الدورة تامة، الشخصان ضمن دورة الخطاب أشار إليهما دي سوسير بـ(أ و ب)، ووصف دورة الخطاب هذه بالقول: ((إن منطلق الدورة موجود في دماغ أحدهما وهو (أ) على سبيل المثال، إذ تقترن ظواهر الإدراك –وهي التي نسميها المتصورات الذهنية- بما يمثل الدلائل اللغوية، أي الصور الأكوستيكية المستخدمة للتعبير عن تلك الظواهر، ولنفترض أن متصورا ما يثير في الدماغ صورة أكوستيكية مناسبة له فإن هذه العملية تمثل ظاهرة نفسية صرفة تليها عملية فيزيولوجية. وصورة ذلك أن الدماغ يبلغ أعضاء التصويت دفعة مناسبة للصورة الأكوستيكية. ثم إن الموجات الصوتية تنتشر

---

(١) ينظر: (بنكراد) سعيد، استراتيجيات التواصل من اللفظ إلى الإيماءة، مجلة علامات، العدد ٢١ – ٢٠٠٤: ٨.

من فم (أ) إلى أذن (ب) وتلك عملية فيزيائية . ثم أن الدورة تتواصل عند (ب) ولكن بترتيب معاكس، أولا من الأذن إلى الدماغ –حيث تتم عملية تبليغ فيزيولوجية للصورة الأكوستيكية، ثم ثانيا في الدماغ نفسه حيث يتم ربط ذهني بين تلك الصورة والمتصور الذهني الذي يناسبها، فإذا تكلم (ب) بدوره فإن العملية الجديدة أي كلام (ب) ستسلك في تنقلها من دماغه إلى دماغ (أ) نفس المسلك الذي سلكته العملية الأولى بالذات أي كلام (أ) وتمر بنفس المراحل المتعددة بين (أ) و(ب) وهما يتبادلان حديثهما فيما بينهما على النحو الآتي:[1].



دورة الخطاب هذه التي أشار إليها دي سوسير وأوضحها بالمخطط أعلاه، قسمها أيضا على:

١. قسم خارجي يشمل الأصوات في انطلاقها من الفم حتى وصولها إلى الأذن وقسم داخلي يشمل الصور اللفظية والنظام النحوي المختزنين لدى المجموعات اللغوية.
٢. قسم نفسي، وقسم لا نفسي، ويحتوي القسم اللا نفسي مجموع الظواهر الفيزيولوجية التي مقرها الأعضاء، والظواهر الفيزيائية الخارجة عن نطاق الشخص.
٣. قسم إيجابي وقسم سلبي، الإيجابي هو كل ما ذهب من مركز عملية الاقتران لدى أحد الأشخاص إلى أذن الشخص الآخر. والسلبي هو كل ماذهب من أذن

---

(١) ينظر: دي سوسير(فردينان)، دروس في الألسنية العامة، ترجمة: صالح القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد عجينة، الدار العربية للكتاب،١٩٨٥: ٣٢.

الأخير إلى مركز الاقتران عنده (الدماغ).

أمّا القسم النفسي الذي مكانه الدماغ فقد أطلق تسمية (المنفذ) على كل ماهو إيجابي (متصور ⟵———— صورة)، و(متقبل) على كل ماهو سلبي (صورة ⟵— متصور).

وأضاف دي سوسير إلى ماتقدم ما أسماه الملكة الخاصة بعمليتي الاقتران والتنسيق التي يظهر مفعولها حينما لا يعد الأمر متعلقا بدلائل منعزلة. وهذه الملكة –بحسب دي سوسير- هي التي تقوم بالدور الأكبر في تنظيم اللغة من حيث هي نظام. ويقصد هنا العلاقات السياقية وعلاقات الترابط التي تحكم اللغة بوصفها نظاما داخليا مجتمعيا، والعلاقات الميتالغوية التي تسهم في عملية التواصل بين جماعة المتكلمين فيما بينهم. ويوضح دي سوسير هذا الأمر من خلال عملية الربط بين العملية الفردية (الكلام)، والظاهرة الاجتماعية (اللغة)، فالكلام هو القاسم المشترك بين أعضاء الاتصال في البيئة اللغوية الواحدة، فهم يستعملون الدلائل نفسها مقرونة بالمتصورات نفسها[1].

من هنا تتضح أهمية عملية التواصل التي أشار إليها دي سوسير والتي أطلق عليها (دورة الخطاب)، ذلك بربط اللغة بالسياق والعلاقات التداولية الأخرى التي يتحقق بمجموعها الاتصال اللغوي بين المتكلمين.

٨- والتواصل من منظور علم النفس اللغوي، هو إجراء يربط من خلاله المتكلم الدلالة بالأصوات، وهي الدلالة نفسها التي يربطها المستمع بهذه الأصوات.

فالمشاركون في التواصل (أو الأطراف الأساسية للتواصل) هم (الأشخاص): الأنا، أو الذات المتكلمة المنتجة للملفوظ، والمخاطَب أو المستمع، وأخيرا المتحدّث عنه، الكائنات أو موضوعات العالم.

ويتحدد مقام التواصل من طرف:

أ- المشاركين في التواصل المُتعيّن دوره من خلال الأنا، محور التلفظ،

ب- الأبعاد الزمنية – المكانية للملفوظ أو للسياق المقامي: وهي علاقات زمنية بين عملية التلفظ ولحظة الملفوظ (الجهة والزمن)، وعلاقات مكانية بين المتكلم وموضوعات الملفوظ، الحاضرة أو الغائبة، القريبة أو البعيدة، وعلاقات اجتماعية بين المشاركين في التواصل، وبينهم وموضوع الملفوظ (أنماط الخطاب، والعوامل التاريخية والاجتماعية... وغير ذلك). ويُرمزُ لمتحولات التواصل هذه بصيغة: (أنا، هنا، والآن).

---

(1) ينظر: دي سوسير (فرديناند)، دروس في الألسنية العامة: ٣٣-٢٤.

ويتحدد وضع التواصل بالبُعد الاجتماعي، أو بطرفيْ التواصُل والمقام بين الأنا ومخاطبيه (وكذلك بالفرق بين (أنت) و(أنتم) التي تعبِّر عن حميمية، أو عن علاقة اجتماعية مختلفة)، وبالطريقة التي يُتصوّر بها (الأنا) الملفوظ، وهكذا يأخذ الملفوظ بعين الاعتبار بشكل أو بآخر، المُنجز من طرف المتكلم، ويُعبّر عن ذلك بصيغ وجهات الفعل، وبظروف من مثل: (من الممكن)- (من دون شك)، أي بما يُطلق عليه بـ(الموَجّهات).

وبحسب ما تقدم فإن التواصل من منظور منظري الاتصالات واللسانيين، هو نقل أخبار من نقطة إلى أخرى (مكاناً أو شخصاً)، ويتمّ نقل هذا الأخبار عن طريق رسالة تأخذ صيغة مُسنّنة*.

والواقع أن الشرط الأول لإقامة التواصل هو تسنين الإخبار بمعنى تحويل الرسالة المادية والمجردة إلى نسق من العلامات، أو إلى سنن *(code)* خاصيته الأساسية أن يكون عبر تعاقد مسبق نسقي ومقولي.

وعندما يحدث التواصل، فإننا نعدّ الأجزاء التي تكونه نسقا تواصليا، وتفترض خطاطة التواصل نقل رسالة ما بين مرسل ومتلق يشتركان في امتلاك النسق الضروري لصياغة الرسالة، ويتضمن النسق العناصر الآتية:

أ- سنن تتضمن علامات معيّنة، ومجموعة من قواعد التأليفات الخاصة بهذا النسق العلامي في اللغات الطبيعية، وتتشكل السنن من الفونيمات،

---

* يشير سعيد بنكراد الى أن كلود شابرول (*Claude Chabrol*) رصد ثلاثة تعريفات للسنن وكل تعريف من هذه التعريفات يغطي نشاطا انسانيا معينا: وهي:

١. التعريف الأول: إن مفهوم السنن يستعمل مرادفاً (لحقل)، ويتعلق الأمر في هذه الحالة بتجميع (العلامات) على وفق مبادئ جوهرية وليس شكلية، مثال ذلك كل مايدل على المسكن والتغذية، والاقتصاد، والقرابة (الاسنن الثقافية كما يستعملها بارت).

٢. التعريف الثاني: إن السنن، في هذه الحالة يعين نسقا من التقابلات الشكلية للحدود، أو القواعد الشكلية بدون مضمون لكسيمي محدد. وهذه الاسنن تمكن من الكشف عن الجمل أو النصوص (عندما تتم عملية استبدال المتغيرات بالثوابت). ويدخل ضمن هذا التحديد الاسنن الفعلية، الاسنن البلاغية أو الميتالغوية كما يتصورها بارت. كما يدخل ضمنها تصور كريماس للدلالة الاصولية والنحو الاصولي.

٣. التعريف الثالث: يتحدد السنن هنا كتأليف لصور أو سمات دلالية (معالم) تمكن من إعطاء وصف بنيوي للبعد الدلالي (السردي) داخل النص. ويتم هذا الوصف بعد انجاز الاستثمار اللكسيمي.

يُنظر: بنكراد (سعيد): عن التسنين السردي والتسنين الايديولوجي، مجلة علامات، العدد الثاني، ١٩٩٤، ١٨.

والمورفيمات وقواعد تأليف هذه العناصر فيما بينها (في تقابل مع الكلام المؤلف من الملفوظات المُحققة، أو الرسائل).

ب- القناة، وهي المرتكز الفيزيائي لنقل الرسالة، والوسيط الذي يتمّ عبره نقل السنن أو الإشارات، وهو الهواء في حال التواصل اللفظي، لكن يمكن للقناة أن تأخذ أشكالا متنوعة: موجات ذبذبات الراديو، وأضواء، وأنساق ميكانيكية أو الكترونية مختلفة... وغير ذلك.

ج- المرسِل الذي هو في الوقت نفسه مصدر الرسالة، فالمرسل - بتعبير أدق- يمتلك آليات تسنين الرسالة والجهاز المرسل نفسه، ويُقال إن المرسل هو مكوّن السنن بمعنى أنه يختار داخل السنن عددا معينا من الإشارات التي تسمح بنقل الرسالة.

د- المتلقي- مُفكِّك السنن، وهو في الوقت نفسه جهاز يتلقى الرسالة (أذن، أو جهاز استقبال) ومتلقي الرسالة (الدماغ الإنساني بالنسبة للغة المنطوقة، والمستمع بالنسبة لجهاز الاستقبال... وغير ذلك). وتحدث عملية تفكيك السنن في مستوى المتلقي- المخاطب عن طريق البحث في الذاكرة عن العناصر المنتقاة من المرسل، والتي تكوّن الرسالة.

هـ- إعادة تسنين الرسالة، وهي عملية تأخذ فيها الرسالة المشفرة والمفككة التشفير صيغة جديدة. فعلى سبيل المثال حين نملي تلغرافا (صيغة صوتية)، ونكتبه باعتماد المورس (صيغة ميكانيكية)، ينتقل في النهاية عن طريق ذبذبات كهربائية[1].

وأما النّصّ فهو تدوين مجموعة من الامتدادات اللغوية، أو كما يقول بول ريكور ((نسمّ نصّا كلّ خطاب تثبته الكتابة، وعلى هذا التعريف، يكون التثبيت بالكتابة مؤسسا للنصّ...))[2]. لكن هل يقتصر النصّ على كونه مدونة كلاميّة تتألف من جمل متوالية؟ نجد أنّ هاليداي وحسن يوسعان المفهوم ليشمل المنطوق والمكتوب فلا يقتصر تعريف النصّ عندهما على المكتوب من دون المنطوق، يقولان: ((تستعمل كلمة

(1) ينظر: مادة (تواصل) (Communication) في (معجم اللسانيات) لـ(جان ديبوا) (Jean Dubois) وآخرين، لاروس، ١٩٧٣، ٩٦-٩٩.

(2) ريكور (بول): من النص إلى الفعل: ترجمة محمد برادة وحسان بورقية، مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، القاهرة، ٢٠٠١: ١٠٥.

النصّ (*Text*) في علوم اللغة للإشارة إلى أيّ مقطع، منطوق أو مكتوب، ومهما كان طوله، ليشكّل كلاً موحداً))[1]. كما نجد أنّ كريستال وهاينه من وفهفيجر لم يقصروا تعريف النصّ على كونه منطوقا أو مكتوبا، وإنما ادخلوا أصنافا أخرى تشمل علامات الطريق والمحادثات، والتقارير الإخبارية والصور الرمزية، والقصائد والإعلانات... وغيرها[2]. ويسوغان إدخال هذه الأصناف تحت مفهوم النصّ اعتمادا على وظيفة النصّ الرئيسة، وهي الوظيفة التواصليّة (*Communicative Function*) التي((تُعرف بسمات مثل الاتساق (*Cohesion*)، والانسجام (*Coherence*)، والإخبارية (*Informativeness*)، وهذه السمات هي التي توفر تحديد الكيفيّة التي تنشئ وحدة النصيّة أو النسيج))[3].

والتواصليّة ليست الوظيفة الوحيدة للنصّ، وإنما على النصّ أن يتّسم بسمات أخرى، وهذا ما جعل (جون لاينز) يعترض على التعريف التقليدي للنصّ بكونه سلسلة من الجمل المتتابعة وظيفتها التواصل، ويرى أنّ هذا التعريف غير وافٍ، وعاجز عن توضيح الوحدات التي يتكوّن منها النصّ، سواء أجملا كانت أم غير جمل، ((وليست مجرد وحدات متصلة مع بعضها في سلسلة، إنما ينبغي ربطها بطريقة مناسبة من حيث السياق، وعلى النصّ في مجمله أن يتّسم بسمات التماسك والترابط))[4].

فالنصّ - وبحسب مفهوم لاينز- لا يكون نصّا إلاّ بوجود علاقات داخليّة تنتظم فيها متواليات الجمل، وهذه العلاقات هي التماسك والترابط، وعلاقات خارجية يحكمها السياق. ويخلص إلى أنّ كلاً من النصّ والسياق يتمم كلّ منهما الآخر، ويفترض مسبقا كلّ منهما الآخر، وتعدّ النصوص ((مكونات للسياقات التي تظهر فيها، أما السياقات فيتم تكوينها وتحويلها وتعديلها بشكل دائم بواسطة النصوص التي يستخدمها المتحدثون والكتاب في مواقف معينة))[5].

ويؤكد (دي بوجراند) أهمية السياق للنصّ، ((إذ ينبغي للنصّ أن يتصل بموقف

---

1. Halliday and R. Hasan (1976: 1).

2. See Crystal (1991: 350).

وينظر أيضا: هاينه من (فولفجانج)، وديتر فيهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة د. فالح بن شبيب العجمي، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ ١٩٩٩م: ٤.

3. See Crystal (Ibid).

(٤) لاينز (جون): اللغة والمعنى والسياق: ترجمة د. عباس صادق الوهاب، مراجعة د. يوئيل عزيز، د الشؤون الثقافية، ط١، بغداد، ١٩٨٧: ص٢١٨-٢١٩.

(٥) المرجع نفسه: ص٢١٥.

يكون فيه (موقف حدوث *Situation of Occurrence*) تتفاعل فيه مجموعة من المرتكزات (..) والتوقعات (..) والمعارف (..) وهذه البيئة الشاسعة تسمّى سياق الموقف* *(context of situation)*"[١].

والسياق في نظر (دي بوجراند) يشمل المحيط الثقافي والاجتماعي والمعرفي والتاريخي. وقد حدّد (دي بوجراند) معايير سبعة تجعل من النصيّة* أساساً لإيجاد النصوص واستعمالها وهي[٢]:

١. الاتساق (*Cohesion*):

هو ما يترتب على إجراءات تبدو بها العناصر السطحية على هيئة وقائع يؤدي السابق منها إلى اللاحق، بحيث يتحقق لها الترابط الرصفيّ، إذ يمكن استعادة هذا الترابط على هيئة نحوية للمركبات والتراكيب والجمل، وعلى أمور مثل التكرار، والألفاظ الكنائية، والأدوات، والإحالة المشتركة (*Co-reference*)، والحذف والروابط.

٢. الانسجام (*Coherence*):

يتطلّب هذا المعيار إجراءات تنشط بها عناصر المعرفة لإيجاد الترابط المفهوميّ (*Conceptual Connectivity*) واسترجاعه، وتشمل وسائل الانسجام على:

أ. العناصر المنطقية، نحو: السببيّة والعموم والخصوص.

ب. معلومات عن تنظيم الأحداث والأعمال والموضوعات والمواقف.

ت. السعي إلى التماسك فيما يتصل بالتجربة الإنسانية. إذ إنّ ما يدعم الانسجام

---

* يفرق (كوزريو) بين الموقف والسياق: فالسياق (*Context*) هو المحيط اللغوي الخالص للعلامة في النص، أي ما قبل وما سيقال أما الموقف (*Situation*) فهو المحيط غير اللغوي للعلامة، أو لسلسلة من العلامات بما فيه من ظروف وملابسات تصاحب الحدث اللغوي، فضلا عن معلومات يتجاوزها المتكلم والسامع، إذا كانت معلومات تقع بينهما. يُنظر: بحيري (سعيد حسن): اتجاهات معاصرة في تحليل النص، مجلة علامات في النقد: إصدار النادي الثقافي – جدة، ج ٨ / م ١٠٣، ديسمبر ٢٠٠٠: ١٦٠.

(١) دي بوجراند (روبرت)، النص والخطاب والإجراء، ترجمة د. تمام حسان، عالم الكتب، ط١، القاهرة، ١٩٩٨: ٩١.

* النصية (*Textuality*) هي الخاصية الأساسية لكل كلام، ففي مجموعة أفعال تواصلية لا يتحدث المتكلمون بكلمات أو جمل، وإنما بنصوص. والنص – الموضوع المنفصل- يجب أن يفهم أو يحلل بوصفه يكوّن مجموعة أفعال تواصلية، و ينبغي في حالات التلقي أن توسع إلى لعبة تواصلية انتشارية بفعالية تساوي الدور الذي يكون معنى التلقي. يُنظر: شميدث (س.ج): دراسة علمية للسردية الأدبية. نظرية وتطبيق، ترجمة قسم الترجمة في مركز الإنماء القومي: مجلة العرب والفكر العالمي. مركز الإنماء القومي، بيروت، العدد التاسع، شتاء ١٩٩٠: ٧٢.

(٢) ينظر: دي بوجراند: ١٠٣-١٠٧.

متتاليات أفعال بوساطة قواعد كبيرة.

وفي هذا إشارة إلى مفهوم البنية الكبرى الشاملة للنصّ، الذي قدّمه (فان دايك) ليقابل البنى الصغرى (الجمل) التي تكون النصّ. فالنصّ بوصفه بنية دلاليّة كبرى ليس مخصوصا بالعناصر التي تكونه، إذ إنّ البنية الدلاليّة الكبرى هي((بنيات دلاليّة معهودة كصيغة القضيّة المعتادة مثلا، إلا أنّها لم يعبّر عنها في قول واحد أو جملة، وإنّما في تسلسل مفرد من الجمل، وبعبارة أخرى فإنّ البنيات العامة الكبرى هي من المستوى الشامل في الوصف السيمانطيقيّ لكونها تعيّن أجزاء الخطاب وكلّيته على أساس من المعاني الجزئيّة للجمل))[1].

وبناءً على ما تقدم –وبحسب فان دايك- يمكن وصف حدث ما بوساطة مجموعة من الجمل، مثل: ذهبت إلى المحطة، اشتريت تذكرة، توجهت إلى ساحة المحطة، ركبت القطار. فهذا الحدث يمكن أن يوصف على مستوى أعمّ بوساطة الجملة الآتية: (ركبت القطار)، فهذه الجملة تمثل موضوع السرد الذي عرضت فيه التفاصيل المتعلقة بالرحلة، وهذا يعني أن التفاصيل في البنية الكبرى قد ألغيت ولم يحتفظ منها إلا بمعلومة هي الأهمّ والأوثق صلة بالموضوع.

ويشير (فان دايك) إلى أنّ البنى الكبرى قد تختلف جزئياً من شخص إلى آخر، فالقرّاء سيختارون من نصّ معيّن عناصر مهمة مختلفة باختلاف معارفهم واهتماماتهم، وأعمالهم، وآرائهم وعليه فإنّ البنية الكبرى قد تتغير من شخص إلى آخر، إلاّ أنّ هذا التغيّر سيجد توافقا نسبيّا في مستوى التفسير الإجمالي لأحد النصوص بين مستعملي اللغة[2].

نخلص إلى أنّ مفهوم البنية الدلاليّة الكبرى، هو المعنى المستخلص من نصّ ما، أو ما يمكن أن نطلق عليه موضوع النصّ، أو الفكرة التي يقوم عليها النصّ. إذ يمكننا – وبحسب تفسير فان دايك- أن نلخّص الصفحة الأولى من رواية ما في قضيّة واحدة (جملة تامة المعنى)، وبوساطة القواعد الكبرى يمكن تحويل قضايا كبيرة متكوّنة من أكثر من صفحة، أو أكثر من فصل إلى قضايا كبيرة أعلى مرتبة، أما البنية الكبرى لرواية بكاملها فيطلق عليها (عبرة الرواية). ويجعل (فان دايك) للبنى الكبرى قواعد كبرى من أهمها: الحذف أو الانتقاء، والتعميم، والتركيب.

---

(١) فان دايك: النص والسياق: ٢٤.

(٢) يُنظر: فان دايك: النص بناؤه ووظائفه : ٦٤.

فالحذف يعني حذف متتالية القضايا (الجمل) التي ليست شرطا في تفسير القضايا اللاحقة في النصّ، أو اختيار القضايا التي هي شروط تفسيرية.

أما التعميم فيعني استبدال قضايا بالقضيّة التي تنطوي عليها كلّ واحدة من قضايا المتتالية، مثلا: (مريم تلعب بالدمية، يوسف يلعب بالكرة، سعيد يلعب بالدراجة)... الأولاد يلعبون بألعابهم.

أما التركيب فيعني استبدال متتالية قضايا بقضيّة تحيل إجمالا على الحدث نفسه الذي تحيل عليه قضايا المتتالية برمتها، مثال ذلك رحلة القطار المشار إليها آنفا.

ويشير إلى أنّ هذه القواعد لا يمكن أن تعمل إلا على أساس معرفتنا العالم، فإننا إن لم نكن نعرف أنّ الرحلة بالقطار مثلا، تستدعي الذهاب إلى المحطة وشراء التذكرة...غير ذلك، لما تمكنّا من استبدال التفاصيل كلها بفكرة (رحلة القطار)[1].

ويخلص (فان دايك) إلى أن موضوع النصّ غالبا ما يذكر في النصّ، وفي هذه الحالة يعبّر عن قضيّة كبرى مباشرة في النصّ بوساطة جملة موضوعيّة (*Thematic Phrase*)، وإنّ هناك وسائل أخرى تدلّ على البنى الكبرى التي يتضمّنها أحد النصوص، مثل: عناوين، كلمات رئيسة، حروف مائلة، خلاصات...وغيرها[2].

من الملاحظ أنّ تقديم (فان دايك) هذه المفاهيم (التداوليّة والبنية الكبرى الشاملة) يعكس تأثرا واضحا بنظرية (أوستن) لأفعال الكلام، التي بدورها تعكس تأثر (أوستن) نفسه بنظرية المعنى عند (فتجنشتاين)، الذي يرى أنّ معنى الكلمة هو إستعمالها، وأن معنى أيّ كلمة أو عبارة يتمثل في طريقة استعمالها في سياسة معينة، ومن ثم فإن هذا الاستعمال هو الذي يحدّد معنى الكلمة أو العبارة[3].

والتداولية بوصفها مفهوما منطقيا يربط اللغة بالسياق العام الذي يحكم الكلام ويؤثر في المعنى لدى الباث والمتلقي في آن معا، نجده واضحا جليا في المفهوم الذي قدمه فتجنشتاين في مباحثه في منطق اللغة ونظرية المعنى، فإنّ ما أسماه (فتجنشتاين) بـ (ألعاب اللغة *Language games*) يستدعي استعمال اللغة في سياق اجتماعيّ / تداوليّ معين، ويستدعي أيضا استعداد المخاطَب للاستجابة وتقبّل ما يعنيه المخاطِب لتحقيق غاية التواصل اللغوي -وهو الأمر الذي أشار إليه (فان دايك) في

---

(١) يُنظر: المرجع نفسه: ٦٤-٦٥.

(٢) يُنظر: المرجع نفسه، ٦٥.

(٣) يُنظر: هاينه من وفهفيجر: ٤٤-٤٥.

مثال السيّارة وحديثه عن الطلب كما قدّمنا آنفا-. كما أنّ (فتجنشتاين) يفرّق بين القضيّة وعلاقة القضيّة، فعلاقة القضيّة هي القالب الحسّي –المتمثل بالكلمات والألفاظ المكتوبة والمنطوقة- الذي نعبّر بموجبه عن القضيّة.

أما القضيّة فهي المعنى القائم في الذهن الذي نرسم به الواقع الخارجي[١]. من هنا نجد أنّ استعمال (فان دايك) البنية الكبرى يمثل انعكاسا لمفهوم القضية عند (فتجنشتاين).إنّ عودة الأثر المنطقيّ على الدرس اللغويّ الحديث، قد جعل البحث اللغويّ يقترب كثيرا من المنطق الحديث إن لم يكن منطقا خالصا، ونرى هذا الأثر جليّاً في كتابات فان دايك وما قدّمه في مجال علم لغة النصّ، فهذه الكتابات مغرقة بمصطلحات المنطق ورموزه –ولاسيّما كتابه النصّ والسياق-.

والعوامل التداوليّة (*Pragmatics*) هي التي تحدّد المعنى الحقيقي للكلمات والوحدات اللغويّة الأخرى، فالتلفظ يعرّف على أنّه فعل أو ممارسة أو تصرّف وعليه يتوقف بشكل أساسي بناء ما يمكن تحقيقه بوساطة العمل اللغوي. وهذا ما بنى عليه (أوستن) خطة كتابه المسمى (كيف تنجز الأشياء بالكلمات (*How To Do Things with Words*)[٢].

تعدّ محاضرات وليم جيمس التي ألقاها الفيلسوف جون أوستن في العام ١٩٥٥، المرحلة التأسيسية لهذا النوع من الدرس اللغوي، إذ سعى أوستن من ورائها هذه المحاضرات إلى إثبات فكرته التي تقول: إنّ اللغة تهدف إلى وصف الواقع، إذ إنّ الجمل الخبرية كلّها يمكن أن يحكم عليها بالصدق والكذب، فهي صادقة إذا كان الوضع الذي تصفه قد تحقق فعلاً في الكون، وهي كاذبة إن كانت بخلاف ذلك[٣].

---

(١) صالح (رشيد الحاج):التحليل اللغوي ونظرية المعنى عند فتجنشتاين: عالم الفكر: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب: الكويت: العدد/٤:م/٢٩ :ابريل- يونيو ٢٠٠١م: ٢٣٦.

(٢) بحيري (سعيد): ١٤١.

(٣) هذه الحقيقة من مسلمات علم البلاغة العربي، فقد عرف البلاغيون العرب الخبر بأنه ما لايحتمل الصدق والكذب في ذاته، والإنشاء الكلام الذي يحتمل الصدق والكذب في ذاته: يقول الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ): "الكلام إما خبر أو إنشاء: لأنه إن كان لنسبته خارجٌ تطابقه أو لا تطابقه فخبر، وإلا فإنشاء.. صدق الخبر مطابقته للواقع، وكذبه عدمها..." وقوله: "اختلف الناس في انحصار الخبر في الصادق والكاذب: فذهب جمهور إلى أنه منحصر فيهما. ثم اختلفوا فقال الأكثر منهم: صدقه مطابقة حكمه للواقع، وكذبه عدم مطابقة حكمه له، وهذا هو المشهور وعليه التعويل".

القزويني (الخطيب محمد بن عبد الرحمن)، التلخيص في علوم البلاغة، تحقيق: الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، القاهرة: ٣٨.

فقد انطلق أوستن من ملاحظة بسيطة مفادها، أنّ التفريق بين الجمل الخبرية التي تصف الكون، ويمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، والتي أطلق عليها (الجمل الوصفية). والجمل الإنشائية التي لا تستعمل لوصف الواقع، بل لتغييره، فهي لا تقول شيئاً عن حالة الكون الراهنة أو السابقة، بل تغيّرها، أو تسعى إلى تغييرها، ولا يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، وهذه الجمل سماها بـ(الجمل الإنشائية)، وهذا لا يمنع من وجود كثير من الجمل الخبرية، التي لاتصف أي شيء، ولا يحكم عليها بمعيار الصدق والكذب، ويمثّل لذلك بجمل من نحو، (أمرتك بالصمت)، أو (أعدك بأن آتي غداً)، ففي هذه الجمل لا تقول شيئاً عن حالة الكون، بل نسعى إلى تغييره، فقائل (أمرتك بالصمت)، يسعى إلى فرض الصمت على مخاطبه، ويحتمل أنّه يسعى إلى الانتقال من حالة الضجيج في الكون، إلى حالة السكون، وكذا الحال مع الجملة الأخرى، إذ يسعى قائلها إلى خلق التزام، ونوع من العقد الأخلاقي بينه وبين مخاطبه، وهذا العقد لم يكن موجوداً من قبل. وأنّ الجمل الإنشائية لها خصائص ليست في الجمل الخبرية، منها أنّها تسند إلى ضمير المتكلّم في زمن الحال، وتتضمّن فعلاً من مثل: أمر، و وعد، وأقسم، ويفيد معناها على وجه الدقة إنجاز عمل، وتسمّى هذه الأفعال أفعالاً إنشائية، ولا يحكم عليها بمعيار الصدق أو الكذب، بل يكون الحكم بمعيار الإنجاز أو الإخفاق. فالأب الذي يأمر ولده بأن ينظف أسنانه، ويرد عليه الابن: (لا أشعر بالنعاس)، لم يقل شيئاً صادقاً أو كاذباً، بل أمَرَ، وأمره أخفق بما أنّه لم يُمتثل له، في حين لو نظف الابن أسنانه لكان أمر الأب منجزاً[1].

وفي مرحلة لاحقة تخلّى أوستن عن التفريق بين الجمل الإنشائية والجمل الخبرية، ليكشف عن مفهومه الجديد الذي تجلّى في أعمال أتباعه، فقد (أقرّ أوستين بأنّ كلّ جملة بمجرد التلفظ بها على نحو جاد، توافق في الأقل إنجاز عمل قولي، وعمل متضمّن في القول، وتوافق أحياناً كذلك القيام بعمل التأثير في القول)[2].

ونجد أنّ أحد أتباعه المقربين، وهو الفيلسوف الأميركي (جون سيرل)، قد طوّر بعدين من أبعاد هذا المفهوم وهما، المقاصد والمواضعات، إذ عدّت الأفعال الكلامية

القزويني (الخطيب محمد بن عبد الرحمن)، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: لجنة من أساتذة كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر، طبعة السنة المحمدية، القاهرة: ١٣/١.

(١) يُنظر: روبول (آن)، وجاك وشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: د.سيف الدين دغفوس، ود.محمد الشيباني، المنظمة العربية للعلوم والترجمة، بيروت-لبنان، ط١، ٢٠٠٢: ٢٨-٣١.

ويُنظر أيضاً: صلاح الدين الشريف (محمد)، تقديم عام للاتجاه البرغماتي، ضمن كتاب أهم المدارس اللسانية، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، تونس،١٩٨٦: ١١٢-١١٣.

(٢) روبول (آن)، وجاك وشلار: ٣٢.

والجمل المنجزة، وسيلة تواضعية للتعبير عن مقاصد معينة، ومن ثمّ تحقيقها. ويرى (سيرل) أنّ العنصر الأساسي في التواصل الإنساني ليس مقطعاً داخلياً في اللغة، بل هو فعل القول أو إنشاء القول[1].

تناول اللسانيون في أوروبا ولاسيّما الفرنسيون أعمال أوستن وسيرل التداولية، وطوّروها لتكون جزءاً لا يتجزأ من اللسانيات، وتتضح الفكرة التي انطلقوا منها لتطوير التداولية من ملاحظة أنّ الدلالات اللغوية تتأثر في شروط استعمال اللغة، وهي شروط مقننة، ومتحققة في اللغة، فبعض العبارات، ((من مثل (صراحةً) و(فيما بيننا) لاتفهم دلالتها إلا إذا نظرنا إلى العمل اللغوي الذي تصفه وتعدله، وليس إلى محتوى الجمل التي تظهر فيها. ولقد قادت تحاليل العبارات اللغوية التي تناولت الأفعال الإنشائية(فضلاً عن ذلك، وأخيراً، وفعلاً) إلى الفرضية التي [تعدُّ] أنّ دلالة هذه الكلمات (المعجمية أو النحوية) تتضمّن تعليمات حول كيفية استعمال الجمل في الخطاب))[2].

التداولية لم تقف عند حدود هذا التطوّر، بل شهدت إضافات كثيرة، لم تبتعد عن الفلسفة والمنطق[3]، فنجد منها مفهوم الاقتضاء الذي يمثّل عند (فريجه) و(راسل) شرطاً للمحتوى، أو شرطاً للاستعمال. فالاقتضاءات هي المحتويات التي أ يحدّدها كون الجملة صادقة أو كاذبة، بل بالإمكان بيان أنّ الجملة المقتضاة صادقة بالعودة إلى التماسك المنطقي، أي انّ جملة مثل: ملك فرنسا حكيم. (تقتضي أنّ يوجد (ملك لفرنسا) وسواء أصادقة كانت هذه الجملة أم كاذبة، فإنّه بإمكاننا أن نتبين بسهولة أنّ اقتضاءها صادق دائماً)، في حين ((يرى المدافعون عن اعتبار الاقتضاء شرطاً للاستعمال أن كل جملة نتلفظ بها ويكون اقتضاؤها كاذباً هي جملة لامعنى لها أي لايمكن وصفها بأنها صادقة أو كاذبة))[4].

هذا ما حاول مؤلفا الكتاب تطبيقه على التداولية، فقد وصفا الاقتضاء بأنّه ((المضمون الذي تبلّغه الجملة بكيفية غير صريحة. وهكذا فإن القائل إذا قال (كفّ

---

(١) يُنظر: بلانشيه (فيليب)، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية-سوريا، ط١، ٢٠٠٧: ٥٥.

(٢) المرجع نفسه: ٤٧.

(٣) ليس أدل على ذلك من المصطلحات التي يستعملها اللغويون الذين تبنوا النظرية وكتبوا فيها. وخير دليل على قولنا كتاب فان دايك (النص والسياق) الذي أغرقه بالمصطلحات المنطقية: في سبيل المثال القضية، والمفهوم، والمحمول، والما صدق... وغيرها الكثير، حتى يخيل إلى قارئه أنه يقرأ في كتاب منطق لا كتاب لغة.

(٤) روبول (آن)، وجاك وشلار: ٤٨.

زيد عن ضرب زوجته)، فإنّه قال صراحة إن زيدا لا يضرب زوجته الآن، (وهذا هو المحتوى المقرر أو الإخبار)، كما أنه أبلغ بكيفية غير صريحة أن زيدا ضرب زوجته فيما مضى، (وهذا هو المحتوى المقتضى أو الاقتضاء))[1].

وعلى الرغم من أن الموقف التداولي من الاقتضاء لم يقدّم حلاً أكثر إقناعا من الموقف المنطقي، ((إلاّ أنّه سجل نجاحاً كبيراً، لأنه جعل من الاقتضاء- الذي كان في أول الأمر مشكلاً منطقياً يستتبع مفاهيم مثل (الصدق) و (الاستلزام)، وغير ذلك- مسألة تداولية، فالاقتضاء هو ما ينبغي قبوله في التواصل حتى يتسنى للمتخاطبين أن يتفاهموا))[2].

ويرى م. هاينمان و ف. هاينمان أنّ اتجاه لسانيات النصّ نحو التداولية، الذي يشغل حيّزاً كبيراً في الدرس اللساني في نهاية ثمانينيات القرن العشرين، لايقود إلى التوسع في مادّة البحث فحسب، بل يقود أيضا إلى إنجاح المحاولات الرامية إلى تحقيق التكامل في طرائق بحث العلوم المختلفة، إذ إنّ إدخال الاتجاه التداولي في بحوث لسانيات النصّ يعطيها أبعاداً جديدة، وعلى الرغم من ذلك ظهرت كثير من المحاولات التي ابتعدت عن الجانب التداولي، ولاسيّما في العام ١٩٩٠، إذ انطلقت هذه المحاولات من النصّ المجرد، بعيدا عن الجوانب غير اللغوية التي تحيط بالنصّ، تلك الجوانب التي اعتمدتها التداولية في دراستها للنصوص اللغوية، إذ إنّ النصّ ما هو إلا ارتباطات وعلاقات بين النصّ ونصوص أخرى تحكمها سلسلة من القواعد النحوية والدلالية، في إطار من العلاقات التبادلية العليا بين الأفراد.

لذا -وبحسب الباحثين- يتوجب على لسانيات النصّ الحديثة أن تتجاوز آليات البحث القديمة، وأن تحاول بيان الجوانب الحديثة في لسانيات النصّ، وعلم الاتصال، المستندة إلى الوظيفة التداولية، وإدخالها في علاقات النصوص الكبرى العامة. إنّ النصوص تبيّن في ارتباطها بالشبكة التبادلية، أو الخطاب، الوحدات الأساسية للوصول إلى الأهداف الاجتماعية المحدّدة، وإنّ فهم العلاقات التبادلية، ورد الفعل على المتطلبات التبادلية، هما الوحدتان الأساسيتان للسانيات النصّ[3].

---

(1) المرجع نفسه: ٤٧. ويُنظر أيضاً: جورج لايكوف، اللسانيات ومنطق اللغة الطبيعي، ترجمة: عبد القادر ... أفريقيا الشرق، ١٩٩٦: ٤٧ وما بعدها.

(2) ... (آن)، وجاك وشلار: ٤٨.

(3) ينظر: هاينمان (مارغوت)، وفولفغنغ هاينمان، أسس لسانيات النص، ترجمة: أ.د. موفق محمد جواد ... دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، ط١، ٢٠٠٦: ١٤-١٥.

❖ المصادر والمراجع

- بحيري (سعيد حسن)، اتجاهات معاصرة في تحليل النص، مجلة علامات في النقد، إصدار النادي الثقافي – جدة، ج ٨ / م ١٠٣، ديسمبر ٢٠٠٠.
- بلانشيه (فيليب)، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية-سوريا، ط١، ٢٠٠٧.
- (بنكراد) سعيد، استراتيجيات التواصل من اللفظ إلى الإيماءة، مجلة علامات، العدد ٢١ – ٢٠٠٤.
- بنكراد (سعيد)، عن التسنين السردي والتسنين الايديولوجي، مجلة علامات، العدد الثاني، ١٩٩٤.
- تزفتيان تودوروف، المبدأ الحواري، دراسة في فكر ميخائيل باختين، ترجمة: فخري صالح، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ١٩٩٢.
- جورج لايكوف، اللسانيات ومنطق اللغة الطبيعي، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، ١٩٩١.
- دي بوجراند (روبرت)، النص والخطاب والإجراء، ترجمة د. تمام حسان، عالم الكتب، ط١، القاهرة، ١٩٩٨.
- دي سوسير (فرديناند)، دروس في الألسنية العامة، ترجمة: صالح القرمادي ومحمد الشاوش، ومحمد عجينة، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٥.
- روبول (آن)، وجاك وشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة د. سيف الدين دغفوس، ود. محمد الشيباني، المنظمة العربية للعلوم والترجمة، بيروت-لبنان، ط١، ٢٠٠٣.
- ريكور (بول): من النص إلى الفعل، ترجمة محمد برادة وحسان بورقية، مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، القاهرة، ٢٠٠١.
- صالح (رشيد الحاج)، التحليل اللغوي ونظرية المعنى عند فتجنشتاين، عالم الفكر، المجلس الوطني الثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد/٤، م/٢٩، ابريل- يونيو ٢٠٠١م.
- صلاح الدين الشريف (محمد)، تقديم عام للاتجاه البرغماتي، ضمن كتاب أهم المدارس اللسانية، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، ١٩٨٦.
- فان دايك (تون أ)، النص والسياق، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، ط، الدار البيضاء، ٢٠٠٠.
- فان دايك (تون أ)، النص: بناؤه ووظائفه مقدمة أولية لعلم النص، ترجمة جورج أبي صالح، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، العدد الخامس، شتاء ١٩٨٩.
- الفقي (د. صبحي إبراهيم)، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء

للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، القاهرة، ٢٠٠٠.

- القزويني (الخطيب محمد بن عبد الرحمن)، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: لجنة من أساتذة كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر، طبعة السنة المحمدية، القاهرة.
- القزويني (الخطيب محمد بن عبد الرحمن)، التلخيص في علوم البلاغة، تحقيق: الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، القاهرة.
- لاينز (جون)، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة د. عباس صادق الوهاب، مراجعة د. يوئيل عزيز، دار الشؤون الثقافية، ط١، بغداد، ١٩٨٧.
- هاينمان (مارغوت)، وفولفغنغ هايتمان، أسس لسانيات النص، ترجمة: أ.د. موفق محمد جواد المصالح، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، ط١، ٢٠٠٦.
- هاينه من (فولفجانج)، وديتر فيهفجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة د. فالح بن شبيب العجمي، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

- *Crystal, D. (1991). A Dictionary of Linguistics and Phonetics (3rd edition). London: Blackwell.*
- *Halliday, M.A.K. and R. Hasan (1976). Cohesion in English. New York: Longman.*

الدّلاليات والتداوليّات... علاقة وإشكاليات

د. خالـد خليـل*

❖ مدخـل

يمكن للمشتغل بإبستمولوجيا الفكر اللساني والتأريخ لاتجاهاته أن يميّز بين تيارين لسانيين رئيسين هما: تيارٌ بنيويٌّ صوريٌّ، يقف في مقاربته اللغوية عند حدود بنية اللغات الطبيعية، ولايكاد يتعداها، وهو مانجده في اللسانيات البنيوية، بشقيها الأوروبيّ (ديسوسير) والأمريكي (بلومفيلد)، وتيارٌ وظيفيٌّ تواصليٌّ، يحاول وصف بنية اللغات الطبيعية، من خلال ربطها بما تؤدّيه اللغات من وظائف داخل المجتمعات البشرية. وتعدُّ المقاربة البنيوية اللغة بنية مجرّدة، يمكن أن تُدرَس خصائصها بغضّ النظر عما يمكن أن تُستعمَل من أجله[1]، في حين تجعل المقاربة الوظيفية التواصلية من اللغة أداة ((تُسخّر لتحقيق التواصل داخل المجتمعات البشرية. من هذا المنظور تُعدُّ العبارات اللغوية مفرداتٍ كانت أم جملا وسائل تُستخدَم لتأدية أغراضٍ تواصليةٍ معينةٍ، وتُقارب خصائصها البنيوية على هذا الأساس))[2].

ولقد تخلّت اللسانيات البنيوية عن البحث فيما وراء الكينونة اللغوية بمفهومها الشكليّ الذي يركّز على الشكل دون المادة، وراحت تقصي الانجاز اللغويّ المتجسّد في الكلام، من خلال تركيزها على دراسة اللغة بذاتها ومن أجل ذاتها، فتحوّل الدرس اللساني مع البنيويين الى علم صوريّ مغلق ذي اجراءات داخلية خالصة، لايأخذ بالحسبان عناصر التواصل اللغوي، مثل أحوال التخاطب والطبقات المقامية المختلفة التي يُنجزُ فيها الخطاب. غير أنّ هذه الثغرة سُدّت وإن على نحو جزئي بظهور الدراسات السوسيولسانية، التي تجلّت في أعمال مدرسة فيرث الانجليزية، لكنّها سُدّت بشكل كامل بظهور التوجهات اللسانية الوظيفية التداولية، التي يهيمن فيها المقام وملابساته على المقال، من خلال اهتمامها بكل أشكال التفاعل الاجتماعي والتفاعل الخطابي، والوقوف على المعطيات اللغوية والخطابية المتعلّقة بالتلفّظ ودراسة العلاقة بين اللغة والسياق. ذلك يعني أنّ الدرس اللساني المعاصر قد تخلّى عن دراسة اللغة بوصفها بنية مجردة تحكمها قوانين داخلية، على نحو ما نجده في اللسانيات البنيوية، أو

---

* جامعة بغداد/كلية التربية –ابن رشد

(1) ينظر: المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي – الأصول والامتداد ١٩.

(2) المرجع نفسه ٢٠.

دراستها بوصفها بنية دماغية مجردة، تُؤدّي عن طريق الانجاز الكلامي، كما هي الحال في اللسانيات التوليديّة، وتجاوزها الى دراسة اللغة بوصفها علما تخاطبيا تواصليا يُعنى بالأبعاد الخطابية الاستعمالية للغة[1].

ولمّا كانت التداوليات علما جديدا في التواصل، يُعنى بالوقوف على الجانب الدلالي من اللغة، فقد شاب العلاقة بينه وبين الدلاليات خلطٌ بين الدارسين، فكانت هذه المسألة-مسألة الخلط- من الإشكاليات المستأثرة باهتمامات الباحثين، من الذين يُعنون بقضايا اللغات الطبيعية وإشكالياتها وصفها على اختلاف توجهاتهم المعرفية، وهو إشكال تعود جذوره التأريخية الى طرح مسألة وظائف اللغة، التي برزت مع مخطط ياكوبسن[2]. وسيحاول هذا البحث الوقوف على هذه الإشكالية، و متابعة آراء الدارسين فيها، مع التركيز على الأُسس التي انطلقوا منها وبيان الاتجاهات التي سلكوها.

ابتداء، قد يكون من الصعوبة بمكان الوقوف على تحديد جامع للتداوليات، يوحّد التعريفات المتداولة ويراعي التطورات الحاصلة في هذا المجال، غير أنّ جلّ هذه التعريفات تتفق فيما بينها على أنّ التداوليات علمٌ يدرس((العلاقة بين العلامات ومفسّريها، وبما أنّ كلّ مفسّري العلامات كائناتٌ حيةٌ، فمن الصواب القول إنّها تهتمّ بعملية انتاج اللغة، وبمنتجيها، وليس فقط بالنتاج نفسه، أي اللغة))[3].

والتداوليات اتجاهٌ في دراسة اللغة شارك في بلورته وتنمية البحث فيه دارسون ينتمون الى ميادين معرفية مختلفة، أهمها اللسانيات والبلاغة والمنطق وفلسفة اللغة وغيرها من العلوم المعنيّة بالجزء الدلالي من اللغة، وقد جاء ظهورها ردّ فعل على اللسانيات التوليدية، التي اقتصرت على دراسة الجمل دراسة تجريدية، بمعزل عن السياق الذي تُستعمل فيه، رافضة فكرة تشومسكي عن المتكلم/السامع السليقي المثالي، يقول ليفنسن: ((إنّ الأساس الأول في نشوء المنهج التداولي كان بمثابة رد فعل على معالجة تشومسكي للغة بوصفها شيئا تجريديا، أوقصرها على كونها قدرة ذهنية بحتة، غفلا عن اعتبارات استعمالها ومستعملها ووظائفها..))[4]. لقد أسهمت الأبحاث الفلسفية في تطوير بعض مظاهر الدرس التداولي، ويتعلّق الأمر تحديدا بما عُرِفَ بتيار (فلسفة اللغة العادية) أو (الفلسفة التحليلية)، ومن رواده (أوستين) و(غرايس)

(١) ينظر: في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي، ضمن كتاب التداوليات علم استعمال اللغة٢٦-٢٧.

(٢) ينظر: البحث اللساني والسيميائي ٢٩١.

(٣) شظايا لسانية ٥٩.

(٤) استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية ٢٦، وينظر: نظرية الفعل الكلامي٢٠-٢١، والتداولية والحجاج مداخل ونصوص ٢٠-٢١.

و(سيرل)، ومن قبلهم فتغنشتاين في مباحثه المنطقية التي كانت المهاد النظري للدراسة التداولية. فقد لاحظ أصحاب الفلسفة التحليلية أنّ المشكل الأساس في الفلسفة الحديثة لايتعلّق بغموض المفاهيم والتباس الدلالة. وإنّما يتعلّق بالاستعمال غير السليم للغة، إذ لاحظ فتغنشتاين أنّ اللغة تفتقر الى الدقّة، فالكلمة الواحدة يمكن أن تدلّ على أكثر من معنى، وللتخلُّص من هذا المشكل رأوا أنّ التحليل الفلسفي الصحيح يقتضي وصف الاستعمالات العادية للعبارات اللغوية، بدل الاقتصار على مناقشتها مجردة من تداولها في ظروف ومقامات محددة؛ لذلك اتخذ فلاسفة اللغة العادية مقولة (المعنى هو الاستعمال) شعارا لهم[1].

لقد صاغ أوستين نظرية (أفعال الكلام)* في محاضراته التي ألقاها في جامعة هارفرد عام ١٩٥٥م، والتي جُمِعت في كتاب سُمّيَ (كيف نفعل الأشياء بالكلمات *How to Do things with Words*)، ثم نُشرت في عام ١٩٦٢م، وعمد سيرل فيما بعد الى تطوير هذه النظرية في أثناء السبعينيات والثمانينيات؛ بغية سدّ الثغرات التي تركها أوستين، أمّا غرايس فقد صاغ في العام ١٩٧٥م دراساته العلميّة في تحليل المحادثة، فيما يُعرف في الدراسات اللسانيّة بأصول المحادثة[2].

وتختلف اللسانيات التداوليّة عن لسانيات دي سوسير وتشومسكي في أنّها تهتمُّ بدراسة الكلام/الانجاز، في حين اهتمّ كلٌّ من دي سوسير وتشومسكي بدراسة اللغة/ القدرة، لذلك عُنيت التداوليّة بالمقام اللغويّ، وأعطته زخمًا في عملية التحليل اللساني، على العكس من دي سوسير وتشومسكي اللذين ركّزا في النظام اللغويّ نفسه[3]، لقد تطوّر بفعل التداولية ((المفهوم الجامد للكلام-كما شرحه دي سوسير- إلى عمل ديناميكي يأخذ طابع الاستعمال، وهو أمرٌ يتيح إقحام مصطلحات ديناميكية أخرى تحلّ محلّ نظائرها الجامدة في تراث دي سوسير، ربما كان من أهمها استخدام القصد بدلاً من المعنى، وأصبح موضوع تحليل المحادثة بدلاً من الجملة، وأضحى اللسانيون يبحثون في مبادئ أو أصول التخاطب لبلوغ كنه مراد المتكلّم بدلا من

(١) ينظر: فلسفة اللغة عند لودفيغ فتغنشتاين ٢٥٣، واللسانيات العربية الحديثة، دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية ٢٤٦ – ٢٤٧، والتحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد ٤٠-٤١.

(*) للوقوف على مفهوم نظرية (أفعال الكلام) تمكن مراجعة المؤلفات الاتية: نظرية الفعل الكلامي ٣٩-١٩٥، واللسانيات الوظيفية – مدخل نظري ١٨ - ٢٥، ومقدمة في علمي الدلالة والتخاطب ٢٤ وغيرها.

(٢) ينظر: تقديم عام للاتجاه البرغماتي ٩٧، ونظرية الفعل الكلامي ١٦١، ومقدمة في علمي الدلالة والتخاطب ١٥.

(٣) ينظر: تقديم عام للاتجاه البرغماتي ٩٥، ضمن كتاب أهم المدارس اللسانية.

الاقتصار على البنى اللغوية المجردة))[١].

وتكاد تكون التداوليّات أقرب الحقول المعرفيّة الى الدّلاليات؛ لجهة اهتمامهما بالمعنى وتركيزهما عليه، حتى انّ (تشارلز موريس) ١٩٣٨ قدّم مخططا جعل فيه التداوليات والدلاليات جزءا من علم العلامات، الذي قسّمه على ثلاثة حقول هي على النحو الآتي:

١. التركيب *Syntax*: وهو دراسة العلاقة بين العلامات بعضها ببعض في تركيب مُعيّن.
٢. الدّلاليات*Semantics*: وهو دراسة علاقة العلامات بما تدلّ عليه.
٣. التـداوليّات• *Pragmatics*: وهـو علـم يبحـث في العلاقـة بـين العلامات ومستعمليها[٢].

ونلحظ من خلال تصنيف موريس أنّ الدّلاليات صارت فرعًا من فروع علم العلامات، وأنّ العلاقة بين العلمين علاقة الخاصّ والعامّ، والخاصُّ هو الدلاليات[٣] غير أن الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن يخالف موريس، ويجعل الدلاليات جزءا من اللسانيات، التي رأى أنّها تنقسم على ثلاثة أقسام هي:

١. الدالّيات، ويقصد بها الدراسات التي تختص بوصف -وإن أمكن بتفسير- الدالّ الطبيعي في نطقه وصوره وعلاقاته، وبهذا تكون الدالّيات شاملة لمستويات الدرس اللغوي، الصوتية والصرفية والتركيبية.
٢. الدلاليات، وهي الدراسات التي تختص بوصف -وإن أمكن بتفسير- العلاقة التي تجمع بين الدوال الطبيعية ومدلولاتها، سواء عُدّت تصورات في الذهن أو أعيانا في الخارج.
٣. التـداوليات، وهـي الدراسـات التي تخـتص بوصـف -وإن أمكـن بتفسير- العلاقات التي تجمع بين الدوال الطبيعية ومدلولاتها وبين الدالين بها[٤]، فـ...

(١) مدخل الى اللسانيات ٥٧.

•اختلف الدارسون في ترجمة مصطلح Pragmatics، فمنهم من ترجمه بعلم الاستعمال،كما هو الحال عند صلاح اسماعيل في كتابه (نظرية المعنى في فلسفة بول جرايس)، ومنهم من ترجمه بالتداوليّة، الـ... الدّلالية ٦٢، وهناك من ترجمه بعلم التخاطب، فضلاعن ترجمات أخرى نحو (الذرائعية، والنـ... مقدمة في علمي الدّلالة والتخاطب ٥.

(٢) ينظر: مقدمة في علمي الدّلالة والتخاطب ١٣-١٤،وشظايا لسانيّة ٦٠، تقديم عام للاتجاه البرغماتي...

(٣) ينظر: دلالة السياق ٣٨.

(٤) ينظر: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ٢٨.

يجدر ذكره هنا أن الباحث طه عبد الرحمن هو الذي صك مصطلح (التداوليات) مقابلا عربيا للمصطلح الغربي (براغماتيقا) منذ العام ١٩٧٠م؛ لأنه بحسب رأيه يوفّي المطلوب حقه، فهو يدلّ على معنيي (الاستعمال) و(التفاعل) معا.

وعلى الرغم من العلاقة الوثيقة بين العلمين الا ان الدارسين يحاولون التفريق بين آليات علم الدّلالة التي تصبُّ في صميم دراسة المعنى، وآليات التداوليّة التي تحاول أنْ تفسّر الاستعمالات الفعليّة للكلام))[1]. لكن التمييز بينهما أصبح من الإشكاليات التي استأثرت باهتمام المفكرين (فلاسفة ومناطقة ولغويين) من الذين يعنون بقضايا اللغات الطبيعية ومشاكل وصفها[2]. ويشير الباحث أحمد المتوكل الى انه قُدّمت لمعالجة هذه الاشكالية اقتراحات مختلفة، يمكن ارجاعها الى اقتراحين اثنين، هما:

أ- الاقتراح الأول، وينطلق أصحابه من تصور (كلاسيكي) لبنية وصف اللغات الطبيعية، وهو تصور موريس، الذي تقدم الكلام عليه، والذي يرتكز الوصف بمقتضاه على مكونات ثلاثة: تركيبي، ودلالي، وتداولي.

ب- الاقتراح الثاني يميز بين اتجاهين:

أ- الأول يرى أنّه من الأفضل منهجيا أن تدمج التداوليات في الدلاليات، أي أن يصبح ماكان في حيّز المكون التداولي- بحسب تصنيف موريس – في مجال الدلالة، شريطة أن يغنى جهاز الدلاليات بكيفية تمكّنه من تمثُّل المفاهيم المرتبطة بالظواهر المعتاد إسنادها الى التداوليات.

ب- الثاني يناقض الاتجاه الأول ويرى أنّه لاتوجد ظواهر معنوية لاترتبط بسياق التواصل، وعليه يجب أن((يقلّص مجال الدلاليات والتداوليات الى مجال واحد، يشمل كلّ ظواهر المعنى، (بالمفهوم الواسع) وتضطلع التداوليات بوصفه، باعتبار هذه الظواهر جميعها مرتبطة بكيفية أو أخرى بسياق التواصل))[3].

ويمكن القول إنّ الفرق الجوهري بين العلمين يكمن في أنّ علم الدّلالة يدرس المعنى مستقلاً عن السياق الذي يرد التعبير فيه، في حين تهتمُّ التداوليّة بدراسة معنى التعبير من طريق العلاقة مع سياق التعبير، ذلك أنّ دراسة المعاني يمكن أن تكون

---

(١) ... الدلالية ٦٣.

(٢) الدلاليات والتداوليات أشكال الحدود ٢٨٧ (بحث).

(٣) نفسه ٢٨٩.

((على مستويين مُختلفين نسبيًّا: مستوى ما قبل التحقُّق السياقي في مقام التخاطب..ومستوى ما بعد التحقُّق السياقي، فبينما يتناول علم الدّلالة المستوى الأول، وهو مستوى المعنى قبل تحققه سياقيًّا في مقام التخاطب، يدرس علم التخاطب))[1] المستوى الثاني، وهو المعنى بعد أنْ يصيرَ قصدًا فعليًّا تبعًا للقرائن التي ينصبها المتكلّم))[2]. فالدلاليات- إذن – تدرس الكلام مُستقلاً عن السياق، في حين تدرس التداوليّات المنجز اللغوي في سياقه التواصلي، وليس بمعزل عنه؛ لأنّ اللغة لا تؤدّي وظائفها إلا فيه، وفي هذا المعنى يقول بالمر: إنّ بنا حاجة إلى التمييز بين ((المعنى الاعتيادي للكلمة أو الجملة، ومعناها في ظروف مُحدَّدة خاصّة. وقد يكون هذا تمييزًا بين علم الدّلالة والذرائعيّة *Pragmatics*. وقد يكون أنفع تمييز جون لاينز..بين معنى الجملة المرتبط مباشرة بالسمات القواعدية، والمعجميّة للجملة. ومعنى التفوّه *utterance* الذي يشمل كلّ الجوانب الثانويّة للمعنى، خاصّة تلك المرتبطة بالنصّ ويسمح لنا هذا التمييز بأنْ نقول شيئًا ونعني آخر))[3]، ويمكن التصريح أخيرا أنّ المقام ومراعاته هو المعيار الأساس للتفريق بين ماهو دلالي وماهو تداولي.

وثمّة صلة بين التمييز بين الدّلاليات والتداوليّات من جهة، والمعنى الفحوى والمعنى القصد من جهة أخرى، وهي صلةٌ ترسَّخت في الدراسات التداوليّة، وقد أشار إليها الباحث محمد محمد يونس علي، وقدّم في هذا الشأن سياقًا لغويًّا، يمكن توضيحه كالآتي:

((يجلس مجموعة من الطلاب في فصل دراسيّ مُكيَّف، ويقف المدرس قريبًا من جهاز التكييف، وتشتدُّ البرودة داخل الفصل، فيبادر أحد الطلاب بالقول: الجوُّ بارد يا أستاذ، فيتوجّه الأستاذ إلى زر المكيّف، ويضغط عليه لإغلاقه، ولعلّ جميع الطلاب وكذلك مدرسهم يُدركون أنّ المعنى اللغويّ لجملة (الجوّ بارد) هو الإخبار بشعور الطلاب ببرودة الجو، غير أنّ المدرس فهم منها أنّ الطالب يطلب منه بأسلوب مؤدب أنْ يُغلق جهاز المكيّف، وما يهمّنا هنا في هذا المثال هو بيان أنّ معنى (الجوُ بارد) في المستوى اللغويّ يختلف عمّا يقصد بها، بوصفها قولة مستخدمة في هذا السياق والجانب اللغويّ في ما قاله الطالب هو تقيده..ومراعاته لمقتضيات القواعد الصرفية والنحويّة واستخدامه للمفردات اللغويّة في معانيها المصطلّح عليها في العربيّة. أمّا الجانب الكلامي فهو أنّه اختار هذا المنوال بالذات من بين مناويل أخرى ممكنة

---

(١) يعني التداوليّة.

(٢) المعنى وظلال المعنى ٨.

(٣) علم الدّلالة (بالمر) ١١، وينظر: استراتيجيات الخطاب ٢٣.

باستثماره للسياق الخارجي، لإخراج المعنى اللغويّ للجملة من الإخبار إلى الطلب))[1].

ويمكن القول في ضوء ما تقدّم إنّ التداوليات هي معنى زائد قصد، في حين أنّ الدلاليات هي المعنى الفحوى فقط، ذلك أنّ المعنى الفحوى يُفهَم من مفردات اللغة وتراكيبها، بصورة مُستقلّة عن السياق، ويقع هذا ضمن اهتمامات الدّلاليات، أمّا المعنى القصد فلا يمكن التوصُّل إليه إلا بعد معرفة السياقات التي قِيْلَ فيها الكلام، فضلاً عن معرفة المخاطِب والمخاطَب، وإعمال القدرات الاستنتاجية، وهذا من صميم عمل اللسانيّات التداوليّة[2]. ويربط الباحث منذر عياشي القصد بدلالة النصّ، ويرى أنّ مدلول القصد جزءٌ من دلالة النصّ، وليس جزءًا من دلالة الكلمة، ولذا فإنّ أيّ نصّ يخلو من القصد لا يرقى الى مرتبة الخطاب، وبالتالي لا يقوى أنْ يحافظ على انسجامه الدّاخلي، أو على منطقه الذاتي، وسيفقد في النهاية توجّهه الاتصالي))[3].

ومن الجدير بالتنويه أنّ السياق *Context*، وهو المحيط الذي تُوجد فيه الوحدة اللغويّة، سواءٌ أكانت كلمة أم جملة، والذي يتحدَّد من خلاله المعنى المقصود، يُقسّمه الدارسون على قسمين رئيسين هما:

- السياق اللغويّ، وهو ما يسبق الكلمة وما يليها من كلمات أخرى، أي إنّه البيئة اللغويّة المحيطة بالعنصر اللغويّ، بما تشتمل عليه من عناصر لغويّة مختلفة، تفيد في الكشف عن معنى الكلمة أو الجملة.
- السياق غير اللغويّ، ويُسمّيه الدارسون (سياق الحال أو الماجريات)، ويُقصد به الظروف الخارجة عن اللغة، المتعلّقة بالمقام الذي ترد فيه الكلمة، ويشمل جميع الظروف المحيطة بالحدث اللغويّ ((سياق الموقف، العصر، نوع القول وجنسه...المتكلّم أو المخاطب، المستمع أو القارئ، العلاقة بين المرسل والمتلقي من حيث الثقافة، الجنس، العمر، الألفة، والطبقة الاجتماعية، ظروف الجوّ، ايماءات أو أية إشارات عضويّة))[4].

ونلاحظ هنا أنّ ثمة تشابها بين التداوليات من جهة والسياق غير اللغوي من جهة أخرى، وهو تشابهٌ لا يعني التطابق، ذلك أنّ التداوليات((أعطت زخمًا للسياق بمعاملته على مستعمل اللغة، وليس سياقًا بحدّ ذاته، السياق ليس مجرّد عرض للمنظور ...لي، كما هو الحال عند مالينوفسكي وفيرث وهاليداي، إنّه الموقف الاجتماعي

---

(1) مدخل إلى اللسانيّات ٥٥.

(2) ينظر: نظرية الفعل الكلامي ١٠٢، ومقدمة في علمي الدّلالة والتخاطب ١٥، وشظايا لسانيّة ٦٣.

(3) اللسانيّات والدّلالة ٨٠.

(4) الدلالة السياقية عند اللغويين ٨٢-٨٣ (رسالة ماجستير).

الذي يتمُّ الكلام فيه))[١]، وعليه يمكن القول إنَّ التداولية هي السياق زائد قصد المتكلّم، فهذان هما الأساس الذي قامت عليه التداولية[٢].

وإذا ما عدنا إلى الثنائيّة السوسيرية (اللغة /الكلام)، وعمدنا إلى محاولة استثمارها في تحديد العلاقة بين الدّلاليات والتداوليّات، فيمكننا القول إنَّ الدّلاليات _في ضوء ما تقدّم – تنتمي الى اللغة، بوصفها مجموعة من القواعد والمعايير القارّة في ذهن المتكلّم، أمّا التداوليّات فإنّها تنتمي الى الكلام، الذي يُراد به استعمال الفرد اللغة وتحقيقه إيّاها من طريق الأصوات الملفوظة، أو العلامات المكتوبة[٣]. فالمعنى الحرفي والرئيس والمركزيّ للمفردة أو الجملة ينتمي إلى جانب اللغة، وهذا من صميم مباحث الدّلاليات، وكلّ المعاني الهامشيّة وظلال المعاني تنتمي إلى الكلام، وهي من أولويات التداوليّات، وانطلاقا من ثنائية دي سوسير يفرّق الباحث هشام عبد الله الخليفة بين (المقولة) أو (القولة) من جهة و (الجملة) من جهة أخرى، بحيث استعمل الأولى للدلالة على مايسمّيه جون لاينز الجملة النص، وهي الجملة القابلة للاستعمال كناتج للسلوك اللغوي واستعمل الثانية للدلالة على مايسمّيه جملة النظام اللغوي، وهي الجملة بوصفها كيانا مجرّدا ونظريا وكجزء من النظام اللغوي[٤].

ونتيجةً للعلاقة المتميّزة التي تصل الدّلاليات بالتداوليّات، ظهر ميلٌ لدى عدد من اللسانيين الى معاملتهما وجمعهما في إطار علم دلالة أوسع هو (علم دلالة المقام)[٥]، بل إنَّ الدلاليات عند جون لاينز تضمُّ قسطًا كبيرًا من مباحث التداوليّات[٦]. ويلفت هيربرت بركلي النظر الى أهمية العلاقة بين التداوليات والدلاليات من خلال جعل عنوان الفصل السادس من كتابه (مقدمة الى علم الدلالة الألسني) (البراغماتية امتدادٌ ضروري لعلم الدلالة)، وفيه يقول: ((سنحاول في هذا الفصل القصير تقديم عرض لعناصر البراغماتية، التي يبدو أنّها تشكّل تتمة الى علم الدلالة الألسني))[٧].

كانت هذه محاولة مقتضبة أردنا لها أن تكون إضاءة -ولو خافتة- في معالم الإجابة الضرورية عن قضايا المعنى...أتمنى أن تكون كذلك.

---

(١) شظايا لسانيّة ٦٠.

(٢) ينظر: نظرية الفعل الكلامي ٢٣٨.

(٣)ينظر: علم الدّلالة (بالمر) ١٠-١١ ،وعلم اللغة (السعران) ٣٠١-٣٠٢.

(٤)ينظر: نظرية الفعل الكلامي ٢٥.

(٥)ينظر: مقدمة في علمي الدّلالة والتخاطب ١٦.

(٦)ينظر: اللغة والمعنى والسياق ٨.

(٧)استراتيجيات الخطاب ٥٧٥.

❖ المصادر والمراجع

- استراتيجيات الخطاب- مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤م.
- أهم المدارس اللسانية، مجموعة مؤلفين، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، ١٩٨٦م.
- التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، صلاح اسماعيل عبد الحق، ط١، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٣م.
- التداولية والحجاج- مداخل ونصوص، صابر الحباشة، ط١، دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ٢٠٠٨م.
- دلالة السياق، ردة الله بن ردة بن ضيف الطلحي، ط١، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٣هـ.
- شظايا لسانية، د. مجيد الماشطة، ط١، مطبعة السلام، البصرة، ٢٠٠٧م.
- الظاهرة الدلالية عند علماء العربية القدامى حتى نهاية القرن الرابع الهجري، د.صلاح الدين زرال، ط١، منشورات الاختلاف ولبنان ناشرون، بيروت ٢٠٠٨م.
- علم الدلالة، أف. آر. بالمر، ترجمة د.مجيد عبد الحليم الماشطة، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، الجامعة المستنصرية، بغداد، ١٩٨٥م.
- علم اللغة- مقدمة للقارئ العربي، د.محمود السعران، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت.
- فلسفة اللغة عند لودفيغ فتغنشتاين، جمال حمود، ط١، منشورات الاختلاف، ومؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، وناشرون، بيروت، ٢٠٠٩م.
- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، د.طه عبد الرحمن، ط٣، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٧م.
- اللسانيات العربية الحديثة، دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، د.مصطفى غلفان، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، كلية الآداب والعلوم الانسانية، سلسلة رسائل وأطروحات رقم ٤، ١٩٩٨م.
- اللسانيات والدلالة، د.منذر عياشي، ط٢، مركز الانماء الحضاري، ٢٠٠٧م.
- اللسانيات الوظيفية- مدخل نظري، د.أحمد المتوكل، منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٨٩م.
- اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز، ترجمة د.عباس صادق الوهاب، مراجعة د- يوئيل يوسف عزيز، ط١، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٧م.
- مدخل إلى اللسانيات، د.محمد محمد يونس علي، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤م.
- المعنى وظلال المعنى، أنظمة الدلالة في العربية، د.محمد محمد يونس علي، ط٢،

دار المدار الاسلامي، بيروت، ٢٠٠٧.

- مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، د.محمد محمد يونس علي، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤م.
- المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي- الأصول والامتداد، د.أحمد المتوكل، ط١، دار الأمان، الرباط، ٢٠٠٦م.
- نظرية الفعل الكلامي بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي والاسلامي، أ. هشام عبد الله الخليفة، ط١، لبنان ناشرون والشركة المصرية العالمية للنشر، بيروت، ٢٠٠٧م.

النقد التداوليّ

من الحدث اللغويّ إلى التواصل التقنيّ

د. محمد سالم سعد الله *

❖ مدخل

يتجه الوعي النقدي المعاصر إلى تبني صيغ جريئة في مناقشة مستجدات المشهد المعرفي، وقد اتجهت البحوث المنتمية لهذا الوعي إلى إمكانيات حضور العقل المفكر من جهة، وغياب مهيمنات التفكير من جهة أخرى، وبذلك اكتسب البحث النقدي طرائق فاعلة، وآليات محددة للمناقشة والتمييز والفحص، والانتقال من مراقبة الظاهرة إلى بيان أسس اشتغالها، وتحديد سلوكيات ناجعة لاختبارها.

ومن الجدير بالذكر أنّ الوعي النقدي أصيب في الغالب بمدركات منطلقة من جهل النص بفعل الترجمة أو التعريب وقد لا يكون اللفظ المنقول دقيقا أو محددا بشكل علمي، فضلاً عن حشد من المصطلحات المتتالية المتتابعة، حتى يقف القارئ مندهشا متسائلاً: أين القصد وأين الدلالة؟، وبذلك اصطبغت بعض البحوث النقدية المعاصرة بمتوالية اصطلاحية في العنوان الواحد، وحشد من المفردات التي تحمل توجهات ودلالات عدة من مثل: (النظرية، اللسانيات، التداولية، الإجرائية، الخطاب، التواصلية) ولكل مصطلح من هذه المصطلحات ميدان معرفي ذو خصوصية منهجية وعلمية، وله صلة بأبجديات محددة من الفكر الفلسفي، وقد غاب عن بعض مستخدمي ذاك الحشد من الخطابات التحديد النقدي المنضبط بالآليات والعناصر التي ترسم أفق الاشتغال المنهجي.

إنّ الممارسات المعرفية المطروحة في معالجة المصطلحات النقدية ومناهجها، تتسم أحياناً بغياب تحديد النسق النقدي على المستوى المعرفي، من حيث كونه متواليات معرفية متعايشة مع النسيج العلمي والبيئي المحدد ضمن رقعة إقليمية معينة، وعلى المستوى اللغوي بوصفه إمكانيات دلالية تمنح التركيب معاني عدة، ولهذه الأخيرة ارتباطات منها: ثقافية واجتماعية وسياسية ونفسية.

وانطلاقا من هذا يمكننا معالجة النقد التداولي من حيث إنّ التداولية إمكانيات

---

* كلية الآداب - جامعة الموصل

فلسفية تقترب من التواصلية وتحاورها، وتباين مصطلح (الاختلاف) القائم على معطيات النقد التفكيكي، ومصطلح (الإشارة) القائم على منطلقات النقد السيميائي، ومبحث (الجمالية) المنطلق أساسا من إفرازات (الفن للفن)، لكنها أي التداولية لا تبتعد عن ممكنات الطرح النقدي للمناهج النصية التي قدّمت للنص معالجات مهمة في كشف الجماليات وبيان الدلالات.

ويحيط الدرس النقدي المتعلق بالتداولية تنظيراً وتطبيقاً إشكاليات عدة تبدأ مع مرحلة ولادتها الفلسفية والأبعاد الدلالية الذرائعية، مروراً بعلاقتها مع مرحلة تطورها العلمية مع نظريات التواصل وتحليل الخطاب، وليس انتهاء بالآليات المنهجية التي وظفتها للاشتغال، ونظراً للصعوبات المعرفية التي تعتري مسيرة التداولية فقد تحولت عند بعضهم إلى أيقونة تصطبغ به بحوثهم دون تحديد منهجي أو إجرائي لأبعادها العلمية والمنهجية، لذلك يسعى هذا البحث لبيان الكيفية التي تتم بوساطتها دراسة التداولية، وبيان إمكانية تحديد مسارها: من الفلسفة إلى الفلسفة، ومن الفلسفة إلى النقد، ثم من النقد إلى التقنية، وذلك من خلال ثلاثة محاور:

الأول: المسار الفلسفي. الثاني: المسار النقدي. الثالث: المسار التقني.

وتقدم هذه المسارات رؤية نقدية للتعامل مع التداولية وبيان مسيرتها الفلسفية والمنهجية، وتحديد أهم الآليات النقدية التي تمارسها في اشتغالاتها النصية، كما تتناول الحديث عن التداولية تعريفاً ومصطلحاً وتطوراً، فضلا عن التعريف بالتداولية التقنية التي تُعنى بدراسة الحوارات التفاعلية ومتابعة طرائق التواصل بين المتحاورين في الواقع التقني الافتراضي، كما تعنى بتنسيق أنظمة المحادثة بين المستخدمين والحفاظ على سياق تطور الخطاب وتنميته وتفاعله.

❖ المحور الأول : المسار الفلسفي

تشير الدراسات التي عُنيت بنشأة التداولية إلى أنها وليدة الفلسفة الذرائعية أو البراجماتية في الحقل الفلسفي[1]، فهناك أبعاد تجمع بينهما في الغاية والمقاصد الفعلية، ولا يمكن بأي حال من الأحوال تصور انفصال التداولية معرفيا وفكريا عن الذرائعية، فقد اعتمد الاستعمال الحديث لمباحث التداولية تأثير المذهب الفلسفي

---

(١) التداولية من أوستين إلى غوفمان، فليب بلانشيه، ت: صابر الحباشة: ١٨. وهناك من الباحثين من أنكر وجود أية صلة بين التداولية ومذهب الذرائعية أو النفعية لاختلاف التوجهين وطرائق اشتغالهما العلمي والمعرفي. ينظر: التداولية اليوم، آن روبول وجاك موشلار، ت: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني: ٢٧ – ٢٨

الأمريكي الذرائعي فيها، وقد قاد هذا الأخير إلى دراسات معرفية وفكرية مهمة للبعد اللساني والتواصلي لاستعمال اللغة. وفي الوقت نفسه لا تعني الصلة بين التداولية والذرائعية التطابق العلمي التام بينهما، ولا يمكن معرفيا تناولهما في سياق مفاهيمي واحد كما سيأتي لاحقاً.

وتشير الذرائعية إلى أن معيار صدق الفكرة أو الرأي هو النتيجة العملية التي تترتب عليها من حيث كونها مفيدة أو مضرة، فهي-أي الذرائعية- توجه فلسفي لتفسير معنى الفكرة، والفكرة مشروع للعمل وليست حقيقة في ذاتها، إنما هي حقيقة في استعمالها ومقصدها، فضلا عن النتائج التي تُبنى على صحتها، كما تشير إلى أن ليس هناك معرفة أولية في العقل تُستنتج منها نتائج صحيحة، بل الأمر كله مرهون بنتائج التجربة الفعلية العملية التي تحل للإنسان مشكلاته، وأنّ الأفكار والنظريات والمعارف والنتائج تشكل بمجموعها وسائل وذرائع دائمة لبلوغ غايات جديدة[1].

وتتحدد نقطة الالتقاء في الواقع العملي الذي يجمع بينهما، فالذرائعية تنطلق من أن الفكرة ليست في الصور والأشكال التي تثيرها في الذهن، وليست في انطباقها على حقائق الموجودات، وإنما في الأعمال التي تؤديها هذه الفكرة، والتداولية تتجاوز تفسير اللغة ذاتها إلى تفسيرها حال استعمالها في الواقع العملي، ثم أخذت خصوصيتها بوصفها حقلا لسانيا من خلال عنايتها بالممارسة العملية للغة المتعلقة بالمقاصد التي تحققها الظواهر اللغوية في التواصل[2].

ويتحدد المسار الفلسفي للتداولية بمجموعة من الطروحات التي عالجت العلاقة بين الفكر واللغة من جهة، وبين الدلالة والتواصل من جهة أخرى، وقد تضافرت جهود عدة في صياغة المعطيات العلمية والنقدية للتداولية، ومن تلك الجهود الفلسفية[3]:

١. جوتلوب فريجه (-١٩٢٥) مفهوم الدلالة وفلسفة تحليلها
٢. جون أوستن (-١٩٦٠) مفهوم العمل اللغوي ووظائف اللغة
٣. بول غرايس (-١٩٨٨) مفهوم التعاون في سياق المقاصد
٤. جون سيرل (+١٩٣٢) تحليل الأعمال اللاقولية
٥. لودفيش فيتغنشتاين (-١٩٥١) طوّر رؤية منطقية لتحليل القول

ينظر: البراجماتزم أو مذهب الذرائع، يعقوب فام: ١٥٠ – ١٥١.
ينظر: البراجماتزم أو مذهب الذرائع: ١٥٠ – ١٥١.
ينظر: التداولية من أوستن إلى غوفمان: ٢٩ – ٣٠.

والتعرف على القدرات الإنسانية في عملية التواصل اللغوي. وهناك من رأى أنها العلم الذي يدرس تأثير المقام في معنى الأقوال[1].

وتشير هذه التعريفات إلى توجه معرفي ينظر إلى التداولية على أنها تخصص لساني يحدد موضوعه في المجال الاستعمالي، أو الإنجازي ويدرس كيفية استعمال المتكلمين للأدلة اللغوية أثناء الخطاب أو الحوار في علاقة وثيقة مع المقام الذي يلتج فيه الكلام، وتبحث في العلاقات القائمة بين اللغة ومتداوليها من الناطقين بها، في إطار دراسة استعمال اللغة في الخطاب. وقد أُطلق على التداولية توصيفات عدة منها[2]:

لسانيات الحوار: لأنها تدرس استخدام الناس للأدلة اللغوية في صلب أحاديثهم.

نظرية استعمالية (علم استعمال اللغة): لأنها تدرس اللغة في استعمال الناطقين بها.

نظرية تخاطبية: لأنها تعالج شروط التبليغ والتواصل الذي يقصده الناطقون.

النظرية التواصلية: لأنها تدرس الرسالة اللغوية في إطار عملية وصول دلالاتها إلى المتلقي.

نظرية الأعمال اللغوية: لأنها تدرس الفعل اللغوي من حيث البعد العملي له أي استخدامه.

نظرية مقامات الكلام (*Speech Situations*): لأنها تدرس المرسل والمستقبل والسياق والأهداف والمقاصد وقوة فعل الكلام والملفوظ.

نظرية التكيف اللغوي: توجه الجمعية التداولية الدولية (*International Pragmatics Association*) المعروفة اختصاراً (*IPRA*)[3] القاضي بدراسة استعمال اللغة من كل الأبعاد.

سلة مهملات: أُطلق على التداولية سلة مهملات (*Recycle Bin*) بوصفها حاوية تودع فيها البيانات اللغوية المستعصية على التصنيف العلمي[4].

ويتحدد المسار النقدي للتداولية بوصفها جزءاً مهما وحيويا من المنهج السيميائي لما تعالج العلاقات بين العلامات ومستعمليها، وتحديدا مع سيميائية (شارل موريس) لما

---

(1) See: *Dictionary of Literary Terms by Harry Shaw, p. 115. and Dictionary of world Literary Terms by Joseph T. Shipley, p. 303*

(٢) ينظر: التداولية، جورج يول، ت: قصي العتابي: ١٩ – ٢٣.

(٣) ينظر: موقع الجمعية على الإنترنيت www.ipra.ua.ac.be ولها مجلة دورية تحمل اسم (*Pragmatics*)

(٤) التداولية، جورج يول: ٢٣.

١٩٧٨) التي تتكون من المحاور الآتية[1]:

١. التركيبية (*Syntax*): دراسة علاقة العلامات، وتعنى بدراسة العلاقات الداخلية.

٢. الدلالية (*Semantics*): علاقة العلامة بالمرجع، تعنى بدراسة علاقة العلامات بمدلولاتها.

٣. التداولية (*Pragmatics*): دراسة العلاقات بين المرسل والمستقبل وعلاقتهما بسياق الاتصال، وتعنى بدراسة علاقة العلامة بمؤولها.

ومن المفاهيم النقدية للتداولية في الميدان السيميائي هو: الصيرورة (*Semiosis*) التي يعمل بموجبها شيء ما بوصفه دليلاً[2]، وتحوي هذه الصيرورة على مفاصل ثلاثة: الممثل، والموضوع، والمؤول) وهي أقسام العلامة كما صنفها بيرس، والمهمة الأساسية تكمن في تحليل اشتغال الدليل في الاستعمال الفردي للصيرورة بوصفه وظيفة دلائلية تواصلية، وتكمن أهمية تقسيم العلامة في علاقتها مع الموجودات والأشياء على عوالم ثلاثة: (عالم الممكنات المقولة الأولانية، وعالم الموجودات المقولة الثانيانية، وعالم الواجبات المقولة الثالثانية)[3].

وقد استمد (بيرس) هذه المقولات من مقولات الظاهراتية التي من أهمها: (فلسفة الكائن، ومقولة الوجود، ومحاولة الفكر لتفسير الظواهر)، لقد شكلت (الصيرورة) البرنامج الحيوي لتمثل الدوال التي يحيل بعضها على بعض، والسعي إلى إنتاج المعنى وتحويله من دلالته في الصورة العيانية، إلى دلالات أخرى تخضع لآلية التأويل[4].

كما يمثل المربع السيميائي الذي قدّمه غريماس (*The Semiotic Square*)[5] مساراً نقدياً للتداولية، إذ يشير إلى أنّ طبيعة العلامات يمكن أن تُدرك من خلال علاقات التضاد والتناقض، كما تمثل عملية السمطقة (*Semiotization*) مساراً نقدياً آخر للتداولية التي توضح حسب مايكل ريفاتير شعرية النص أو أدبيته[6].

وتنعش هذه العملية طاقة العلامات من خلال إخفاء السمة الإيحائية على المعطى السياقي، وتحويله إلى نسق متمذج للعالم في إطار تواصلي ضمن ما يعرف بـ(فرضية

---

(١) ينظر: نظرية اللغة الأدبية، خوسيه ماريا بوثويلو إيفانكوس، ت: حامد أبو أحمد: ٢٣٢.

(٢) معجم السيميائيات، فيصل الاحمر: ١٩٣. وينظر: معجم المصطلحات الاساسية في علم العلامات، دانيال تشاندلر، ت: شاكر عبد الحميد: ١٩٢.

(٣) ينظر: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، مارسيلو داسكال، ت: حميد لحمداني وآخرون: ١٩ . ٢٠.

(٤) ينظر: ماهي السيميولوجيا، برنار توسان، ت: محمد نظيف: ٣٨ – ٤١. وعلم الإشارة: السيميولوجيا، بيير جيرو، ت: منذر عياشي: ٢٣ – ٢٧.

(٥) ينظر: معجم السيميائيات: ٢٢٩. معجم المصطلحات الأساسية في علم العلامات: ١٩٤.

(6) *See Text Production by Michael Riffaterre, Tra: Terese Lyons, p. 114*

العمل: (Praxis)[١]. لمعالجة دلالة العلامة بين العلامات ومستخدميها، ومعالجة علاقة العلامات بمؤولاتها، ومعالجة المظاهر الحياتية للصيرورة بطريقة شاملة، ودراسة الأفعال اللسانية والسياقات التي تتم فيها[٢].

ويتحدد التوجه النقدي للتداولية بوصفها المسار الذي يدرس المعنى في ضوء علاقته بموقف الكلام حال استخدامه وتلقيه، وتبحث عن الفعل المنجز من الكلام وعلاقته بالمستخدم في إطار تواصلي، ويتمثل الاشتغال النصي للتداولية بقضية البحث عن المعنى، ومعرفة قصدية المتكلم، وأفعال الكلام في إطار خطابي تواصلي، ويمكن تحديد أهم المفاهيم النقدية التي تشتغل عليها التداولية بالآتي[٣]:

١. الحدث الكلامي.
٢. القصدية.
٣. الاستلزام الحواري.
٤. متضمنات القول.
٥. نظرية الملاءمة.

فالحدث الكلامي: أو نظرية الفعل الكلامي (*Speech Act Theory*) تتعلق بكل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري، أو هي نشاط مادي نحوي يتعامل مع الأفعال القولية لتحقيق أغراض إنجازية، وهي ثلاثة أفعال: (فعل القول، والمتضمن في القول، والناتج عن القول)، وللفعل الكلامي ثلاث خصائص: (دلالته، وإنجازه، وتأثيره). والقصدية: متعلقة بتفسير الظاهرة اللغوية من خلال مرجعية خارجية متعلقة بالقصد (*Intention*). أما متضمنات القول فهي مفهوم إجرائي يتعلق برصد جملة من الظواهر المتعلقة بجوانب ضمنية وخفية من قوانين الخطاب، تحكمها ظروف الخطاب العامة كسياق الحال وغيره ومن أهمها (الافتراض المسبق) الذي له أهمية في عملية التوصيل والإبلاغ، ثم (الأقوال المضمرة) المرتبطة بوضعية الخطاب ومقامه. والاستلزام الحواري: أو نظرية المحادثية القائمة على مبدأ التعاون الذي وضعه (غرايس) المعتمد على عناصر أربعة هي: (الكم، والكيف، والمناسبة، والجهة). ونظرية الملاءمة: التي تعدّ توجهاً تداولياً إدراكياً يفسر الملفوظات في سياقها المناسب البنيوي والمقامي الاستدلالي[٤].

---

(1) *See Theories of the Symbols by Tzvetan Todorov, p. 268*

(٢) الأسس الفلسفية لنقد ما بعد البنيوية، محمد سالم سعد الله: ١٣٠.

(٣) التداولية عند العلماء العرب: ٣٠.

(٤) ينظر: التداولية عند العلماء العرب: ٣٠ – ٤٢.

وفي المسار النقدي للتداولية حددت (أرمينكو) ثلاث مقاربات نقدية للتعامل مع التداولية بمعنى آخر جعل التداولية في ثلاث درجات هي[1]:

١. تداولية الدرجة الأولى: دراسة الرموز الإشارية.
٢. تداولية الدرجة الثانية: دراسة المعنى الحرفي والتواصلي.
٣. تداولية الدرجة الثالثة: دراسة نظرية أفعال اللغة.

والتداولية بوصفها مساراً نقدياً تحليلياً عند أرمينكو هي جزء من السيميائية تعالج العلاقة بين العلامات ومستخدميها، ولم تظهر التداولية نقدياً إلا لضرورة دراسة علاقة العلامات بمستخدميها، إذ اتسمت دراسة علامات اللغة في القرن العشرين بحسب أرمينكو بالآتي[2]:

١. المقاربة الدلالية: التي تعالج دراسة علاقة العلامات بالأشياء.
٢. المقاربة النحوية: تعالج علاقات العلامات فيما بينها في الجمل.
٣. المقاربة التداولية: دراسة علاقة العلامات بمستخدميها.

ومن هنا كان للتداولية أثر نقدي بالغ الأهمية في دراسة مكونات القول وصيغ الكلام وعلاقته بمستخدميه، ومن ثم كان لها دور بارز في ضبط كثير من المفاهيم النقدية والدلالية واللغوية ومن أهمها: (مفهوم الفعل، ومفهوم السياق، ومفهوم الإنجاز)[3].

❖ المحور الثالث: المسار التقني

تتخذ الأساليب التداولية المعاصرة أشكالاً عدة من صور الخطاب، وتمنح نفسها سمة التحول الشكلي الدلالي في اللغة الواحدة، تبعاً لمقتضيات المرحلة اللغوية ومستخدمي المفردات على صعيد التداول الداخلي أو التلقي الخارجي.

ويكتسب هذا التحول مراعاة التطور الآلي للتعامل مع اللغة أو مع فنونها، بمعنى آخر مراعاة التطور التقني في الميدان اللغوي، وقد شغل هذا المسعى مساحة معرفية معتبرة أطلق عليها: (حوسبة اللغة)[4] أي التعامل مع اللغة ومفرداتها ودلالاتها إلكترونياً.

إن التوقف عند الأساليب التواصلية التقليدية في الميدان اللغوي اللساني قد يُوقع

---

(١) ينظر: المقاربة التداولية: ٤١ – ٦٠.
(٢) المقاربة التداولية: ٨.
(٣) المصدر نفسه: ٩.
(٤) للاستزادة ينظر: الهندسة الحاسوبية للسانيات، عبد الرحمن بو درع: www.lissaniat.net الحرف العربي والحوسبة، محمد زكي محمد خضر: www.al-mishkat.com

في عجز التفسير، والبعد عن وصف المتغيرات في أنساق الدلالة وصيرورتها، لذا كانت الحاجة ملحة في التعامل مع تحديث بنية القول حسب نوعية النص الباني لها، أي حسب نوعية منظومة التدوين سواء أكانت فضاء كتابياً، أم كانت فضاء إلكترونياً.

يتخذ المسار التقني للتداولية مجموعة من البيانات والمعلومات والمعارف؛ فالبيانات هي سلاسل من رموز أو أرقام أو حروف، والمعلومات هي البيانات التي تم تجهيزها في إطار علاقات منتظمة في سياق، وتشكل المعرفة المعلومات التي يحصل عليها الإنسان تراكمياً. وتمارس المعرفة التكنولوجية دورا مهماً وحيوياً في تعزيز التنمية الذهنية والتطبيق الحيوي بوساطة اللغة لكشف مجموعة من الأسرار الكونية والحياتية. لذا فقد تعددت التطبيقات التقنية وتنوعت، وقد منحت المعطيات التقنية إمكانات علمية هائلة لمتابعة المعلومات وخزنها واسترجاعها، وقد أسهمت هذه الاستخدامات في تحقيق طفرة علمية متجانسة مع التقدم العلمي الذي تشهده الحضارة الإنسانية وأصبح اعتماد هذا المسار مهماً جداً لما يحققه من مزايا رخيصة ومتاحة وصديقة للبيئة، وقدرة كبيرة على تخزين المعلومات، وتعامل منضبط ودقيق مع الذاكرة، وقدرة على إنشاء مجموعة منسقة من الحلول، وتنفيذ عمليات علمية عدة في وقت واحد.

ويمكننا الحديث عن المسار التقني للتداولية من خلال محورين:

الأول: المسار التقني للتداولية الحاسوبية.

الثاني: المسار التقني لتداولية الرسائل النصية[١].

تعد التداولية الحاسوبية توجهاً علمياً معاصراً منبثقا من علم اللغة الحاسوبي أو اللسانيات الحاسوبية *(Computational Linguistics)*[٢] وهو علم يربط بين اللسانيات وعلوم الحاسوب، ومجال معرفي ينتمي إلى مجالات الذكاء الاصطناعي *(Artificial Intelligence)*[٣] يسعى إلى محاكاة اللغة الطبيعية البشرية، إذ تستخدم الحواسيب لمعالجة اللغة الطبيعية آلياً، وإدراك الكلام البشري وإنتاجه بصورة آلية، والذكاء الاصطناعي نظرية متعلقة بكيفية محاكاة الذكاء البشري، وهو فضاء إلكتروني متعلق بمجموعة من العمليات المعرفية والرياضية التي تجري في مساحة الذاكرة الإلكترونية، ويسهم هذا الفضاء الإلكتروني بممارسة عمليات معقدة متعددة في زمن

---

(١) الرسائل النصية: هي التقنية المتعلقة بالرسائل المدونة في الهواتف المحمولة (الموبايل).

(٢) *For more information, see: Computational Linguistics: An Introduction by Ralph Grishman.*

(٣) للاستزادة حول هذا المصطلح ينظر: الذكاء الاصطناعي واقعه ومستقبله، آلان بونيه، ت: علي صبري

أساسي وبجهد قليل[1].

- ومن تطبيقات اللسانيات الحاسوبية: (الترجمة الإلكترونية، واسترجاع المعلومات، والأنظمة التفاعلية)[2].

وتصنف التداولية الحاسوبية بوصفها فرعا معرفيا ينتمي إلى ميدان اللسانيات الحاسوبية يعنى بشكل أساسي بدراسة الحوارات التفاعلية ومتابعة طرائق التواصل بين المتحاورين في الواقع التقني الافتراضي[3].

كما تعنى بتنسيق أنظمة المحادثة بين المستخدمين والحفاظ على سياق تطور الحوار وتنميته وتفاعله وانسيابيته وهذا يؤدي إلى[4]:

- تمثل إجراءات متفاعلة تجسد التواصل وتغذيه.
- تطور أدوات البرمجيات المتاحة للجمهور وبناء أنظمة جديدة.
- تحديث الكلام، وتطوير أدوات الكتابة.
- تحقيق أهداف حيوية لتبادل المعلومات واستثمارها.

فإذا كانت التداولية تُعنى بدراسة اللغة حال استخدامها أو دراسة اللغة عند مستخدميها ولذلك سميت علم استعمال اللغة، فإن التداولية الحاسوبية تُعنى بدراسة اللغة وتطورها في إطار الحوار الإلكتروني أي دراسة لغة التفاهم بين مستخدمي النص الإلكتروني.

وللنص الإلكتروني مزايا عدة تختلف عن النص التدويني من حيث كون هذا الأخير يشغل الفضاء الكرافي، وله سمة التركيب، ويستخدم تقنية التناص، ويتصف بالأفقية. ولغته مكونة من مفردات وجمل وسطور، ويفتقر إلى وسائل التأثير.

أما النص الإلكتروني فيشغل الفضاء الافتراضي، وله سمة الترابط، ويستخدم تقنية النوافذ، ويتصف بالتفاعلية، ولغته مكونة من مجموعة أشكال وألوان وحركات وأصوات وفيديو، ويُعنى كثيرا بوسائل التأثير.

تسعى التداولية الحاسوبية إلى تناول وتقديم ما عجزت عنه الترجمة الإلكترونية للآن وهو بيان العلاقة بين اللغة والسياق، إذن مهمة التداولية الحاسوبية تكمن بدراسة العلاقات بين الظواهر اللغوية وسياقاتها من حيث تفسير قدرة المتكلمين على

مقدمة الذكاء الاصطناعي للكمبيوتر، عبد الحميد بسيوني: ١٩.

علم اللغة الحاسوبي، صلاح الناجم: www.alnajem.com.

(3) *See: Computational Pragmatics Referring in Dialogue by R. Fernand* www.ling.uni-potsdam.de

(4) *See: Computational Pragmatics and Dialogue Systems by R. Agerri,* www.ling.gu.se.

توليد الكلام وبيانه في المحادثة بمعنى آخر دراسة أنظمة التعبير اللغوي وتحولاته في الفضاء الإلكتروني[١].

وقد أسهمت التداولية الحاسوبية بشكل فاعل في معطيات معرفية معاصرة عدة، وقدّمت منجزات علمية متنوعة، ومن ذلك[٢]:

١. تصميم أنظمة قادرة على التفاعل مع الإنسان (المستخدم / المتداول).
٢. تحليل لغته وتنميتها بما يتلاءم مع طبيعة الواقع الافتراضي التواصلي.
٣. بيان كيفية التعامل بطريقة إلكترونية مع الظواهر اللغوية جميعها.
٤. بيان دلالة التعبيرات الفردية عن كيانهم ورؤيتهم للعالم والموجودات.

ويهدف تحقيق الانسجام بين الاستخدام اللغوي من جهة وبين التواصل التقني من جهة أخرى، من هنا فقد تعاملت التداولية الحاسوبية في مسارها مع مجموعة من المصطلحات النقدية منها:

١. وجهة النظر: مصطلح ينتمي إلى ميدان السردية.
٢. مبدأ التعاون: مصطلح ينتمي إلى ميدان التداولية.
٣. المرجع: مصطلح ينتمي إلى ميدان الألسنية.
٤. السياق: مصطلح ينتمي إلى ميدان الدلالة.
٥. العلامة: مصطلح ينتمي إلى ميدان السيميائية.

وتسعى التداولية الحاسوبية بوصفها ميداناً معرفياً معاصراً إلى تطوير الإدرا الحسي لدى مستخدمي النص الإلكتروني من خلال: (الرؤية العيانية، والسـ المباشر، والكلام المفهوم، والكتابة المختصرة، واللمس)، ودراسة أنظمة التواصل والتخاطب والتحاور بين مستخدمي الشبكة العنكبوتية ويقود ذلك كله إلى تحقيـ الآتي:

١. إدارة المعرفة المعلوماتية للغة الطبيعية وتنميتها.
٢. استحداث أفضل السبل والطرائق التقنية للحصول على حوار معرفي.
٣. تنمية رغبة المستخدمين في تبادل خبراتهم ومهاراتهم بخصوص إدارة المعر المعلوماتية.
٤. إدارة الموارد المعرفية واللغوية في المنتديات.
٥. تنظيم بنية تحتية لتقنية المعلومات، وحوسبة اللغة.

أما فيما يتعلق بمسار تداولية الرسائل النصية، فمن المهم بيان أن موظ

See: *Computational Pragmatics Referring in Dialogue*: www.ling.uni-potsdam.de
See: *Computational Pragmatics and Dialogue Systems*: www.ling.gu.se.

التعامل مع بنية القول التداولي في المدونة النصية لرسائل المحمول يكتسب حيوية معرفية انطلاقا من الأشكال الجديدة المتولدة من ذلك، ويدخل هذا التناول في موضوع كسر حواجز الأجناس، وولادة أجناس جديدة قد تكون مناسبة لعصر التلقي، ولادة نص ما بوصفه فناً حديثاً في عصر تلقيه يعطينا تصوراً معرفياً حول حاجة المدونة النصية إلى إيجاد أشكال جديدة للتعبير، وتقديم الدلالة بما يناسب المتلقي تبعا لتطور مستوى التفكير والاستقبال.

ذا اكتسب التشكيل التداولي الذي ازدانت به الرسائل النصية سمة الاستجابة ناجة نقدية أكدتها التداولية بشكل رئيس وهي (مقام القول) الذي استدعى طلبيا) الإيجاز في العبارة، والدقة في الإشارة، واختيار المفردات بمهارة، والاقتصاد التركيب والتعبير، والاعتقاد في الجدوى والتأثير.

واستدعت الصيغ التداولية لرسائل المحمول أن تتعامل مع المستجدات المتداولة ها أشكالاً أدبية وفنية متحولة، وقابلة للتحليل والتفسير وبيان الخصائص، من تحديد المعطى اللساني ومقوماته أولاً، وتأطير طرائق التداول وأساليبه ثانياً، ص صيغ النص ومساراته ثالثاً، ثم دراسة المدونة بوصفها حاجة فكرية وثقافية رية أملتها سُنّة الإبداع الفني في التطور الشكلي، والتنوع الدلالي، ورفض الجمود وي، وتلبية متغيرات المستخدم في إطار تواصلي خطابي.

دير بالذكر أن الراصد لتحولات البنية الفنية عبر مسيرتها المعرفية يجد أسساً ة لولادة نص معين وتراجع نص آخر انطلاقاً من معادلة تنامي التواصل المعرفي جة إلى التمثيل عنها تداولياً، وتتعلق هذه الأسس بمسألتين اثنتين هما: (تطور ل الكتابي، تطور حاجة المستخدم).

ير المسألة الأولى وبشكل مباشر إلى الفتوحات التقنية، وتنامي آليات التعبير ني، المرتبطة ارتباطا لزوميا بالتطور الحاسوبي وما يتعلق به، حتى غدا النص وني مدونةً لها خصائص معينة، وطرائق محددة للتعبير، وأساليب مؤطرة التداول.

لاً عن أن مسألة تطور الشكل الكتابي خاضعة كما نرى لقضية صراع الفنون اس انطلاقاً من مبدأ (البقاء للأفضل)، بمعنى توجه المبدع للتعبير بوساطة أكثر تلبية لحاجة المتلقي وتكوينه الحضاري، وهذا ما نلاحظه في تطور بنية رسائل الإلكتروني (*Email*) ورسائل الهاتف المحمول وشكلها الكتابي الذي جاء نتيجة للإيقاع المتسارع للتعامل مع الحياة المعاصرة.

المسألة الثانية فتتعلق بتطور المستوى المعرفي والثقافي للمستخدم الذي أصبح

تواقاً للتحديث المرتبط بالتعامل الآلي، مما استدعى تطور النص وتنوع طرائق تداوله، ولا شك أن التميز في لغة الشبكة الدولية للمعلومات (الانترنيت)، ولغة أجهزة الهاتف المحمول المتنوعة قد أثرّ بشكل كبير في صياغة النص الحديث، وتحديد ملامحه وخصائصه، ويمكننا الحديث عن ذلك من خلال محورين:

الأول: النص الإلكتروني.

الثاني: الرسائل القصيرة.

يرتبط النصان بمنظومة واحدة هي منظومة (التطور التقني)، ويتعلقان بمستوى واحد من التلقي المتجه للجدّة والتغيير، والساعي لاختصار المسافات والجهد واختزال الوقت في تحصيل قدر كبير من الفائدة والمتعة في الآن نفسه، ويهدفان إلى استثمار نظرية الاقتصاد اللغوي في التحصيل المعرفي.

اتسم الحديث عن بنية القول في الفضاء الكتابي ضمن المدونة النصية بتحليل أجزائها ومكوناتها دلالياً على صعيد الإشارات والعلامات والرموز، ونحوياً على صعيد الدال والمدلول والمسند والمسند إليه، وصوتياً على صعيد الوحدة الصوتية (الفونيم) فضلا عن الوحدة النطقية (الألفون)، وصرفياً على صعيد الوحدة الصرفية (المورفيم)، فضلاً عن الرؤية التقليدية للنص على أنه نظام لغوي منسجم تحكمه مجموعة من القواعد المتوالية في إطار بنيوي وصفي، أو توليدي تحويلي، أو تداولي وظيفي ضمن معادلة هرمية ترتكز على أساس معرفيّ هو أن: (الأصوات تشكّل الكلمات، والكلمات تركّب الجمل، والجمل تنشئ الكلام، والكلام يبني النص، والنص يعطي الدلالات).

أما الحديث اليوم تداولياً عن بنية القول في الفضاء المعرفي للنص الإلكتروني فيتضمن مسارات تحليلية عدة، انطلاقاً من تنوع مكونات النص الإلكتروني وتعددها بدءاً من التدوين الكتابي اللغوي مروراً بالتأثيرات اللونية والحركية، وصولاً إلى التضمين الإشهاري والعياني الصوري، وليس انتهاء بخيارات لا نهائية لطرائق التلقي وتلبية رغبات الاكتساب المعرفي ذي الإحساس المتعدد البصري والسمعي واللّمسي وتقسيم النُظُم البرمجية للنص الإلكتروني على وحدات وإيعازات تسهم في التوزيع الكمي لمساحة المعرفة المكتسبة.

وانطلاقاً من ذلك اكتسب النص الإلكتروني سماتٍ عصريةً أهّلته لريادة عملية التلقي، وأوكلت إليه مسؤوليات معرفية تتعلق بتوصيف اللغة إلكترونياً، وبيان العلاقة بين النص المكتوب والنص المرئي، وبين المعرفة التدوينية والمعرفة الآلية، وبين الفضاء الكرافي الخطي والفضاء الإلكتروني، فضلا عن تحديد العلاقة الدلالية

المرجعية بين الروابط اللغوية النصية والروابط الشبكية الرقمية،... إلخ.

وإذا كان النص الكتابي يتمتع بسمة مميزة نظامية تفاعلية بين مكوناته تعرف بـ(خاصية الترابط النصي) المتعلقة بالنظام اللغوي وأنساقه البانية له، فإن النص الإلكتروني يقوم أساساً على سلسلة متنوعة من الروابط الرقمية التي تصل بين مكوناته وأجزائه تعرف بـ(خاصية النص المترابط)[1] المتعلقة بالقصد المفاهيمي، والتنظيم الإعلامي، والمنجز الإنتاجي.

وانطلاقاً من كون توالد الأجناس وانبثاقها يشكل حاجة معرفية، وإمكانيات حياتية لا غنى عنها في التعبير عن الواقع، تواجه نصوص الرسائل القصيرة للهاتف المحمول مهمة تقديم المعنى بطريقة تقنية وضعت لها بصمتها الفنية والمعيارية، وقد تشكلت لهذه المدونة مجموعة من الخصائص التداولية منها:

- الانطلاق من قاعدة الاقتصاد اللغوي، واستخدام لغة موجزة جداً.
- القدرة الفنية على توصيل المعنى.
- سلامة اللغة من التقعر والجمود والغرابة والغموض.
- استخدام الكلمات ذات الوقع السهل المناسب لدى المتلقي.
- البعد عن الخيال والتحليل والتعليل والتفسير.
- البعد عن الأسلوب الحواري ببعديه: (الداخلي مع الذات، والخارجي مع الآخرين)
- البعد عن الأسلوب التقريري والسردي.
- استخدام الوصف بشكل كبير، مع غياب واضح لعنصري الزمان والمكان.
- تمزج في مفرداتها بين الإمتاع والإقناع.
- البعد عن العنونة.
- استخدام فنون التناسب بين المفردات، والتوازي بين الجمل القصيرة.
- استخدام فن التناغم من خلال انتهاء الجمل القصيرة عادة بحرف واحد.
- استخدام فنون البلاغة العربية الجميلة والأنيقة في التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز المرسل والفصل والوصل والتقديم والتأخير والجناس و... إلخ.

إنّ آلية التخاطب التي اتسمت بها بنية القول في رسائل المحمول تتشكل من صيغ مبهمة على شكل نبضات إيقاعية، وفواصل دلالية ذات ترابط إشاري، تأخذ المتلقي لمواجهة مشهد نصي ذي جزئيات تواصلية عدة، مما يتيح له إمكانية فهم المعنى، وإدراك التنبيه المتسارع، والاستعداد لتقديم الرد المناسب لها.

---

(١) من النص إلى النص المترابط: مفاهيم، أشكال، تجليات، سعيد يقطين، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد ٢ المجلد ٣٢ لسنة ٢٠٠٣: ٧١.

وانطلاقاً من أهمية التركيز على المعنى وإيجازه وتكثيفه وتواصله، فقد حافظت بلي
القـول للرسـائل القصـيرة علـى مسـاراتها اللغويـة والدلاليـة وضـبطتها، وحـددت
ب(سـبعين) حرفـاً للرسـالة القصـيرة الواحـدة في اللغـة العربيـة حصـراً ، وفي ذلـك
مدلولات عدة نبينها كالآتي:

١. الحفاظ على مسار بنية القول في الإيجاز والتكثيف.
٢. اختيار الأنسب والأصلح من مفردات اللغة لحمل المعنى.
٣. ممارسة سياسة (التدبير) في الحفاظ على الكلفة المحددة لكل رسالة.
٤. تنشيط مسار التلقي باستقبال الدلالات المتعددة من خلال المفردات الموجزة.
٥. بيان جماليات الحروف العربية وتآلفها من خلال فنون التناسب والتوازي والتز السجعات أحيانا والقافية لو تطلب الامر.
٦. إبعاد المستخدم عن تناول أسلوب (السبب والنتيجة) الذي يأخذ عادة مساحا كتابية واسعة قد تكون غير محددة.

يتضح مما تقدم في بيان المسار التقني لتداولية الرسائل النصية أن أقسام الفع الكلامي التي تحدث عنها (أوستين) وهي: (فعل القول، والفعل المتضمن في القول والفعل الناتج من القول) منحت الإجراء المعرفي لتشكل بنية هذه الرسائل، وأن معا (غرايس) المتمثلة ب(مبدأ الكم، ومبدأ الكيف، ومبدأ الأسلوب، ومبدأ المناسبا والمنطلقة من مفهوم التعاون في سياق المقاصد التخاطبية، قد تمثلت تداولياً في إط التحليل النقدي للأداء اللغوي لبنية الرسائل النصية.

❖ المصادر والمراجع

أولاً: الكتب العربية والمترجمة:

- الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، مارسيلو داسكال، ت: حميد لحمداني ومحمد العمري وعبد الرحيم جبنكول ومحمد الولي ومبارك حنون، سلسلة البحث السيميائي (١)، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ١٩٨٧م.
- الأسس الفلسفية لنقد ما بعد البنيوية، محمد سالم سعد الله، دار الحوار، اللاذقية سوريا، ط١، ٢٠٠٧م.
- البراجماتزم أو مذهب الذرائع، يعقوب فام، السلسة الفلسفية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة مصر، ١٩٦٣م.
- التداولية *Pragmatics*، جورج يول، ترجمة: قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت لبنان، ودار الأمان، الرباط المغرب، ط١، ٢٠١٠م.
- التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة (الأفعال الكلامية) في التراث اللساني العربي، مسعود صحراوي، دار الطليعة، بيروت لبنان، ط١، ٢٠٠٥م.
- التداولية من أوستن إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار، اللاذقية سوريا، ط١، ٢٠٠٧م.
- التداولية اليوم: علم جديد للتواصل، أن روبول وجاك موشلار، ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، مراجعة: لطيف زيتوني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت لبنان، ط١، ٢٠٠٣م.
- الذكاء الاصطناعي واقعه ومستقبله، ألآن بونيه، ترجمة: علي صبري فرغلي، سلسلة عالم المعرفة، (١٧٢)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٣م.
- علم الإشارة: السيمولوجيا، بيير جيرو، ترجمة: منذر عياشي، تقديم: مازن الوعر، دار طلاس، ١٩٩٢م.
- ما هي السيميولوجيا، برنار توسان، ترجمة: محمد نظيف، دار أفريقيا الشرق، ط٢، بيروت لبنان، ٢٠٠٠م.
- معجم السيميائيات، فيصل الأحمر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت لبنان، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠١٠م.
- معجم المصطلحات الأساسية في علم العلامات (السيميوطيقا)، دانيال تشاندلر، ترجمة: شاكر عبد الحميد، مراجعة: نهاد صليحة، تصدير: فوزي فهمي، سلسلة دراسات نقدية (٣)، أكاديمية الفنون، وحدة الإصدارات، القاهرة مصر، ٢٠٠٢م.
- المقاربة التداولية، فرانسوز أرمينكو، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، ط١، بيروت لبنان، ١٩٨٦م.
- مقدمة الذكاء الاصطناعي للكومبيوتر ومقدمة برولوج، عبد الحميد بسيوني، دار

النشر للجامعات المصرية، القاهرة مصر، ط١، ١٩٩٤م.

- نظرية اللغة الأدبية، خوسيه ماريا بوثويلو إيفانكوس، ترجمة: حامد أبو أحمد، سلسلة الدراسات النقدية (٢)، دار غريب، القاهرة مصر، ١٩٩٢م.

❖ ثانياً: البحوث المنشورة في الدوريات:

- من النص إلى النص المترابط: مفاهيم، أشكال، تجليات، سعيد يقطين، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد ٢ المجلد ٣٢ لسنة ٢٠٠٣م.

❖ ثالثاً: الكتب الأجنبية

- Ralph, G. (1994). *Computational Linguistics: An Introduction*. Cambridge University Press.
- Harry, S. (1972). *Dictionary of Literary Terms*. McGraw–Hill, USA.
- Joseph T. S. (1970). *Dictionary of World Literary Terms: Forms, Technique, Criticism*. USA: Boston Publishers.
- Michael R. (1983). *Text Production*, Tran: Terese Lyons. New York, USA: Columbia University Press.
- Tzvetan, T. (1982) *Theories of the Symbol*, Tran: Catherine Porter. New York, USA: Cornell University Press.

❖ رابعاً: البحوث المنشورة على الشبكة الدولية للمعلومات (*Internet*)

- الجمعية التداولية الدولية (*IPRA*)*www.ipra.ua.ac.be* :
- الحرف العربي والحوسبة، محمد زكي محمد خضر: www.al-mishkat.com
- علم اللغة الحاسوبي، صلاح الناجم: www.alnajem.com
- الهندسة الحاسوبية للسانيات، عبد الرحمن بو درع: www.lissaniat.net

Computational Pragmatics and Dialogue Systems R. Agerri: www.ling.gu.se.

Computational Pragmatics Referring in Dialogue, R. Fernandez: www.ling.uni-potsdam.de

التَّداوليَّـة الأدبيـة

دراسـة نقديـة

أ.م.د. أحمد عدنان حمدي*

وما من كاتب إلا سيفنى ... ويُبقي الدهر ما كتبت يداه
فلا تكتب بخطك غير شيء ... يسرك في القيامة أن تراه

❖ مدخل

إنّ مُصطلح التّداوليّة هو أحد الترجمات التي ترجم بها المصطلح الانجليزي (*Pragmatics*) إلى اللغة العربية، فقد ترجم أيضاً إلى (البراغماتية والبراجماتية وعلم استعمال اللغة والبرغماطيقية والبرجماطيقية وعلم البراغماطيقا والفائداتية والتداوليات...الخ)، وقد آثرنا استخدام الترجمة الأولى لشهرتها وتعبيرها عن المراد، وإن كان هناك من يعترض بأنّ هذا المصطلح لا يعبر عن كل المفاهيم التي تدخل ضمن هذا الحقل، وأرى أنّ ذلك لا يضر شيئاً فبإمكاننا في لغتنا العربية أن نطلق الجزء لنعبر به عن الكل فنقول: قامَ الرجلُ رمضانَ إيماناً واحتساباً، ونريد صلّى فالقيام جزء من الصلاة، كذلك في المصطلحات العلمية فعندما نذكر مصطلح (النحو) على سبيل المثال فإنه يشمل جميع المسائل المتعلقة بتركيب الجملة العربية، مع أنّ كلمة النحو لغة تدل على القصد والطريق فتقول: نحوت نحواً أي قصدت قصداً.

أما الدلالة اللغوية لهذا المصطلح (*Pragmatics*) في اللغة الانجليزية فمأخوذة من كلمة (*Pragmatic*) التي من معانيها الواقعي والعملي وكل ما له علاقة بالأعمال والوقائع الحقيقية[1].

أما التّداوليّة الأدبية فهي ترجمة لمصطلح (*Literary Pragmatics*) ومفهوم هذا المصطلح ينطلق من التصور القائل بأنّ اللغة –حسب وجهة نظر الغربيين- لا تتقيد دائماً بقيود النحاة، بل إنّ البنية اللغوية للنص، في حالات كثيرة، لها علاقة بالآثار المترتبة على النّص وبما يؤديه أو لها علاقة بكيفية إنتاج المتلقين للنص واستهلاكه[2]، فالتّداوليّة الأدبية (تعتني بدور المستخدم في الإنتاج الاجتماعي للنصوص

---

* جامعة الموصل - كلية الآداب

(1) التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية- اللاذقية، ط1، 2007: 17. المورد قاموس انكليزي - عربي، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط37، بيروت-لبنان، 2003: 714.

(2) *Concise Encyclopedia of Pragmatics, Literary Pragmatics, Jacob. L. Mey, Elsevier Ltd., Oxford, UK, 2009, p. 549.*

موسوعة التّداوليّة المختصرة، التّداوليّة الأدبية، جاكوب. ل. مي، ترجمة: د. أحمد عدنان حمدي.

واستهلاكها)[1].

أي أنّ التّداوليّة الأدبية هي التواصل الأدبي والتعاون الفعّال بين المؤلف والمتلقي ودورهما في إنتاج النّصوص الأدبية واستهلاكها عبر الآثار المترتبة عليها والوظائف التي تؤديها.

إنّ ما نلحظه في هذا التعريف وجود الأركان الثلاثة المتفق عليها في إي دراسة نقدية أدبية وفي أي ثقافة مهما كان انتماؤها الفلسفي، وهي المؤلف والنّص والمتلقي، إلا أنّ التركيز على أحد هذه الأركان بحذف الرّكنين الآخرين، أو بالاختلاف في تصور طبيعة العلاقات القائمة بين هذه الأركان هو ما يميز دراسة أدبية عن أخرى.

وهذا يجعلنا نتساءل هل مفهوم التّداوليّة الأدبية نشأ من فراغ معرفي؟ ألم يكن هناك خلفية معرفية كأن تكون فلسفية أو اجتماعية وتفاعلية أو لغوية أو نفسية انطلق منها قبل أن يطبق على النّصوص الأدبية؟ وهذا ما نلحظه من مفردات التعريف إذ إنّ التّداوليّة الأدبية متعلقة (بالتواصل) (والإنتاج والاستهلاك) وهذا يرجعنا إلى مصطلحات علم الاجتماع، و(بالتعاون الفعّال) وهذا يحيلنا على نظرية التفاعل، و(بالآثار المترتبة على النّص والوظائف التي يؤديها) وهذا يحيلنا على علم اللغة والفلسفة أيضاً. وهذا ما سأناقشه في الفقرات الآتية.

❖ الخلفية المعرفية لمفهوم التّداوليّة الأدبية:

إنّ التّداوليّة لم تتطور من داخل الدّراسات الأدبية أو علم اللغة، بل نشأت في الحقول ذات الصلة بها، مثل الفلسفة وعلم الاجتماع ونظرية التفاعل، إلاّ أنّ اللغويين الغربيين أشاروا إليها عبر مُصطلح اللّبْس (*aporias*) الذي نشأ ضمن حقلهم اللغوي المحدود، وكذلك فإنّ الدّراسات الأدبية نفسها لم تكتشف التّداوليّة، بل إنّ الفلاسفة ومنظري الأدب والتداوليين طوروا، في آنٍ واحد، مقاربات لدراسة النّصوص ذات صلة بالمتلقين[2].

إنّ هذا الكلام يشير بصراحة إلى أنّ التّداوليّة الأدبية لم تنشأ من فراغ بل هناك خلفية معرفية انطلقت منها قبل أن تتجسد بصيغتها الأدبية وفي مقدمة تلك الخلفية الدّراسات الفلسفية واللغوية، أي أنّ مفهوم التّداوليّة ظهر بداية عند الفلاسفة وعلماء الاجتماع وأصحاب نظرية التفاعل ثم انتقل إلى علماء اللغة وبعد ذلك انتقل إلى دراسة النّصوص الأدبية، وهذا ما سنركز عليه في هذه الدراسة، إذ سنبحث عن الخلفية المعرفية لهذا المفهوم، ثم نستقصي المبادئ التي استند إليها والأساليب الأدبية

---

(١) المصدر نفسه: ٥٤٩.

(٢) الموسوعة التّداوليّة المختصرة، التّداوليّة الأدبية: ٥٤٩.

التي تجسد بها على مستوى النّص وخارجه.

❖ الخلفية الفلسفية (الذرائعية)

إنّ التّداوليّة الأدبية ترجع –كما أرى- إلى الفلسفة الذرائعية (أو النفعية) رجوعاً رئيساً، وإن كان هناك من أرجعها إلى أبعد من ذلك إذ أرجعها إلى أرسطو وأفلاطون[1]، وذلك لأنّ هناك تشابهاً واضحاً بين شكلي المصطلحين، التّداوليّة (*Pragmatics*) والذرائعية (*Pragmatism*) فكلا المصطلحين يرجعان إلى كلمة (*Pragmatic*) التي من معانيها كما قلنا الواقعي والعملي، وهناك من أرجع كلمة الذرائعية (*Pragmatism*) إلى اللفظ اليوناني (*Pragma*) ومعناه العمل[2]، وهذا مع ذلك ارتباط واضح وجلي بين شكل المصطلحين. أما على مستوى المعنى اللغوي فإنّ أصل الكلمتين يدل على العمل والأمر العملي والواقعي وذي الفائدة، ولهذا فإنّ الفائداتية هي إحدى ترجمات مصطلح (*Pragmatics*) والبحث عن الفائدة والنفع والنجاح والعمل هو أساس الفلسفة الذرائعية.

فالذّرائعيّة هي نظرية فلسفية عامة للعقلانية المادية مُتصلة بمصالح الفرد، وتعزل الحقيقة بالمنفعة، وكل نظرية -كما ترى- هي أداة للعمل ولا قيمة لها إلا إذا كان لها مردودٌ عملي، فالفكر ليس سوى وسيلة للنجاح في الحياة، أي أنها تتخذ من النتائج العملية الناجحة مقياساً لتحديد قيمة الأفكار والقضايا وصحتها وصدقها[3]، وليس مطابقتها للواقع كما في الفلسفات المادية التجريبية. ووضوح الأفكار عن موضوع –ما- يتعلق بالآثار والنتائج ذات الطابع العملي الذي يمكن أن يتضمنها سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة. فإذا كان لقضية ما أثر في السلوك العملي للفرد فهي قضية صادقة وصحيحة، أما إذا لم يوجد له أي أثر فهي قضية لا معنى لها بل لا وجود لها، إذ إنّ قيمة الفكرة فيما ينتج عنها من آثار.

والتّداوليّة كذلك كما ذكرنا في تعريفها تهتم فيما تهتم به بالآثار المترتبة على النصوص والوظائف التي تؤديها، وهي تبحث عن ما تسميه بأفعال الكلام (*Speech Act*) وعن شروط نجاح الخطاب أو الكلام وفشله، ولاسيما المحادثة، وتهتم بالتفاعلية (*Interaction*) وغيرها من المصطلحات.

وأخيراً يمكن القول بأنّ الذرائعية هي فلسفة أمريكية بدأها الفيلسوف الأمريكي تشارلز ساندر بيرس (١٨٣٩-١٩١٤) وذاع صيتها على يد الفيلسوف الأمريكي وليم جيمس (١٨٤٣ - ١٩١٠م)، أما التّداوليّة فقد انطلقت من أفكار الفيلسوف الإنجليزي

---

(1) التداولية من أوستن إلى غوفمان: ٢٠-٢٥.
(2) المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت-لبنان، ١٩٨٢، الجزء ١: ٢٠٣.
(3) المعجم الفلسفي: ٢٨، ٢٠٣، ٥٨٧. المورد: ٧١٤.

جـون أوسـتن (١٩١١-١٩٦٠) وتلميـذه الأمريكي جـون روجـرز سـيرل (١٩٣٢-) أي أنّ هناك تقارباً لغوياً وجغرافياً بينهما وكلاهما ولدا في كنف الفلاسفة.

❖ الخلفية الاجتماعية ونظرية التفاعل:

إنّ تركيز التّداوليّة وكذلك التّداوليّة الأدبية على التّواصل إنّما يرجع بذلك إلى نوع من أنواع التّواصل الاجتماعي لكنه ليس مجرد تواصل اعتيادي بين شخصين أو أكثر إنّما هو تفاعلٌ نشيط بين شركاء نشيطين جادين متفاعلين، أي في حالة النّص الأدبي يحدث التّفاعل بين المؤلف والمتلقي اللذين تحيط بهما ظروف اجتماعية لا يمكنهما الانفصال عنها، بل إنّ العلاقة بينهما هي علاقة جدلية، مما يعني أن أياً من المؤلف أو القارئ لا يستطيعان أن يدعيا امتلاكهما النّص امتلاكاً كلياً أو أنّ لهما سلطة مطلقة عليه، بل إنّ أحدهما يؤثر في الآخر[1]، ويتأثر به، فالمؤلف يتأثر بالمتلقي عندما يريد أن يكتب نصه الأدبي إذ يفترض في ذهنه متلقياً يرغب بمخاطبته والتفاعل معه والتأثير فيه، والمتلقي بدوره يتأثر بالمؤلف من خلال ما يكتبه ويتفاعل معه عبر قراءة نصه الأدبي ومحاولة فهمه وإعادة إبداعه من جديد بقراءة تحليلية أدبية جميلة ورصينة.

وهـذه العلاقـة هي إحـدى علاقـات مـا سـماه جـاكوب. جي. مي بالإبـداع المشترك (*Cocreation*) (فـالنّص لـم يعـد عمـلاً خاصـاً بمؤلـف فـردي بـل إنـه يسـتلزم دائماً التعاون النشط والفاعل من الجمهور والقراء)[2].

❖ الخلفيـة اللغويـة: علـم الدلالـة (السيميائية) والتّـداوليّـة:

تعد التّداوليّة تياراً لسانياً من التيارات اللسانية الجديدة التي ظهرت بعد التيارين البنيـوي والتوليـدي، بعـد أن كانـت مباحـث التّداوليّـة مندمجـة ضـمن مباحـث علم الدلالة إلا أن معظم اللغويين فيما بعد ميزوا بينهما، ومن أهم المسائل التي تميز بينهما أنّ علـم الدلالـة يتنـاول دراسـة جوانـب المعنى التقليـدي القـائم على اشـتراط الحقيقة والمستقل عـن السـياق الشـامل، إذ إنّ العلاقـة وثيقـة بـين الـدال والمدلول. في حين تركز التّداوليّة على ذلك بل تتناول جوانب المعنى التي تفهم وفقاً لمناسبات الاستعمال الخاصـة، ويجـب أن يؤخـذ السـياق في الحسـبان وبمفهومـه الواسـع الـذي يتضمن السياق الذي نطق فيه الكلام أي سياق الخطاب (*Discourse Context*) والمشاركين في الحدث الكلامي والعلاقات المتبادلة بينهم، وأهدافهم، والمكان الطبيعي والاجتماعي لـذلك الحـدث. أي أنّ علـم الدلالـة يهتم بوصـف المعـاني، في حـين تتنـاول التّداوليّة استعمالات تلك المعاني، ويعبر عن هذا أحياناً بأنّ علم الدلالة يتبع النهج الشكلي في

---

(١) الموسوعة التّداوليّة المختصرة، التّداوليّة الأدبية: ٥٥٠. تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص)، د. محمد مفتاح، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ط١، ١٩٨٥: ١٣٧-١٣٨.

(٢) الموسوعة التّداوليّة المختصرة، التّداوليّة الأدبية: ٥٥٠.

ين تتبع التَّداوليَّة النهج الوظيفي[١].

أما أهم المسائل التي تعتني التَّداوليَّة بها وتحظى بتوافق مناسب بين اللغويين فهي الآتي :

- مظاهر التأدب (*Politeness*).
- المرجعية (*Reference*).
- المعينات (*Deixis*).
- الاستلزام (*Implicatures*).
- الأفعال الكلامية (*Speech Acts*)

أي ما يخص الخبر والإنشاء ومطابقة الكلام لمقتضى الحال، فهي تدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه، وطرائق استخدام العلامات اللغوية بنجاح وكيفياته، والسياقات والطبقات المقامية المختلفة التي يُنجز ضمنها الخطاب، والبحث عن العوامل التي تجعل من الخطاب رسالة تواصلية واضحة وناجحة، والبحث في أسباب الفشل في التواصل باللغات الطبيعية...الخ[٢].

❖ مبادئ التَّـداوليَّـة الأدبية وأساليبها

مبادئ التَّداوليَّة الأدبيـة

إنّ التَّواصل غير العادي أو التَّفاعل النَّشيط والفعّال في حالة النَّص الأدبي بين المؤلف ومجموعة من القُرّاء المُحتملين هو نتيجة لوجود رسالة شخصية من المؤلف إليهم، ومن أجل أن يكون ذلك التَّواصل ناجحاً ينبغي أن يتبع قواعد أو مبادئ معينة أهمها: مبدأ التعاون ومبدأ الاستلزام ومبدأ العدول.

إنّ هذه المبادئ هي التي أكدها في دراسته للمحادثة الفيلسوف البريطاني إتش. بول غرايس، إذ افترض في دراسته مبدأ التعاون (*Co-operation*) الذي يشترط بأن يكون إسهام كل شخص في محادثة ما متناسباً مع غرضها فضلاً عن تناسبه مع أهداف

---

(1) *A Glossary of Semantics and Pragmatics, Alan Cruse, published with the support of the Edinburgh University Scholarly Publishing Initiatives Fund, 2006, p. 136.*

قاموس علم الدلالة والتَّداوليَّة، آلان كروز، جامعة أدنبرة، صندوق مبادرات النشر العلمي، ٢٠٠٦، ترجمة: د. أحمد عدنان حمدي.

(2) *Text and Context Explorations in the Semantics and Pragmatics of Discourse, Teun A. van Dijk, Longman, London and New York, 1977, p.p. 189-191.*

النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، فان دايك، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٠: ٢٥٥-٢٥٧. التَّداوليَّة عند العلماء العرب، د. مسعود صحراوي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ط١، ٢٠٠٥: ٥.

المشاركين ودوافعهم وذلك من أجل أن يوضح مدى انتظام المحادثات الإنسانية ونتائجها الناجحة غالباً. واقترح أربعة مبادئ تحادثية أخر لتنظيم طريقتنا التعاونية في التعامل مع المعلومات التحادثية وهي: جَعْلها كافيةً (مبدأ الكمية)، صادقةً (النوعية)، ذات صلة (العلاقة)، ومنظّمةً (الأسلوب). وينبغي تفسير أي عدول عن هذه المبادئ على أنه ينطوي على معنى إضافي، إذ إنّ خرق أحد المبادئ إنما يتم لنقل رسالة ما على الرغم من عدم ذكرها بوضوح إلا أنها مفهومة[1] وهذا هو مبدأ العدول على مستوى النّص الأدبي.

أما مفهوم الاستلزام (*implicature*) فيتعلق بتوضيح كيفية قيام المؤلفين والقراء بالمشاركة معاً في إبداع (*Co-creating*) العمل الأدبي. وقد لوحظ كثيرا أنّ جوهر الفن، البصري منه أو الأدبي، يكمن في طريقة حذف الأشياء، بدلا من قولها أو تمثيلها بوضوح[2].

ويشير مثال جرايس الشهير إلى تزكية لطالب كتبها مدرس جامعي إلى مدرس آخر تتضمن بياناً لمدى حضور الطالب في الصف وتهجئته الانجليزية الصحيحة، وهي مسائل لا صلة لها بالتزكية، أي أنها تشير ضمناً إلى لزوم وجود سبب لإحجام المدرس عن التعاون، وهو أنّ الطالب لا يستحق تزكية حقيقية، ويفهم هذا المعنى من خلال السياق بمعناه الشامل لسياق الجمل والمكان والزمان اللذين قيلت فيهما وأهداف المؤلف والقارئ ومقاصدهما، أي أنه لا يفهم من خلال الدلالة الصريحة للجمل فقط[3].

ويشير جاكوب إلى مثال آخر متعلق بقصة هابيل وقابيل، فعندما يسأل الله عزوجل قابيل: أين أخوك هابيل؟ يدرك قابيل - لأنّ الله سبحانه وتعالى علاّم للغيوب يعلم أين هابيل ومَنْ الذي قتله- أنّ هذا السؤال ينطوي على سؤالٍ آخر مفاده: (لماذا فعلت هذا بأخيك يا قابيل؟) ومع ذلك يرفض قابيل التعاون في هذه المحادثة ويحاول أن ينكر الاستلزام (*Implicature*) المصاحب لهذا السؤال بأنه كان ينبغي عليه أن يكون (حامياً لأخيه). إلا أنّ جملته اللاحقة، بعد أن أجاب على سؤال الله عزوجل بكلام تعلق زائف (لا أعرف) تدل بالفعل على أنه قد فهم الرسالة الضمنية، إذ يقول متسائلا (وهل أنا قيّمٌ على أخي؟)[4].

إنّ تطبيق هذه المبادئ على النّص الأدبي يمكن أن يكشف عمّا هو مكنون م

---

(١) المقاربة التّداوليّة، فرانسواز أرمينكو، ترجمة: د. سعيد علوش، مركز الانماء القومي، ١٩٨٦: التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان: ١٦٥.

(٢) الموسوعة التّداوليّة المختصرة، التّداوليّة الأدبية: ٥٥٠.

(٣) المقاربة التّداوليّة: ٥٣.

(٤) الموسوعة التّداوليّة المختصرة، التّداوليّة الأدبية: ٥٥٠.

معانٍ في داخله، كما في مبدأ التعاون والعدول عنه، والمعاني المكتشفة عن طريق الاستلزام، إلا أنّ المبادئ الأخرى كمبدأ الكمية، ومبدأ النوعية أو الصدق، ومبدأ العلاقة أو الترابط، تبقى غامضة وخاصة باللغة العادية وربما لا تنطبق على النّص الأدبي ولاسيما الشعري، بل إنّ طبيعة الشعر مناقضة لها، فمبدأ الكمية (يخرقه الشعر الذي هو عبارة عن تراكم صوتي وتركيبي ومعنوي مع احتياجه إلى حساب تأويلي لاستخلاص ما يوحي به. ومبدأ الصدق كذلك فالشاعر قد يتساءل ولا يريد جواباً، ويأمر ولا يريد الاستجابة في الوقت نفسه، ولا يتبقى من هذا المبدأ إذا أحسنا الظن، إلا صدق إحساس الشاعر ، بل إنه لا ينطبق على كثير من استعمالات اللغة المضللة للآخر والناقلة للأخبار الخاطئة. ومبدأ الترابط يخرقه الشعر بواسطة التشبيه والاستعارة المؤديين إلى تعدد التشاكلات، وإن كان هذا الخرق ظاهرياً فقط)[١].

❖ أساليب التّداوليّة الأدبية:

إنّ لهذا التفاعل بين المؤلف والقارئ والتعاون بينهما واشتراكهما في إبداع النّص الأدبي أساليب موجودة في النّص تنظم هذه العلاقة بينهما، أهمها ما يأتي:

نطق الصوت (*Voice*) أو النطقية (*Vocalization*):

وهو أسلوب فعّال لإبداع فضاء سردي واستمراره بمشاركة واعية ومساندة لا غنى من مجموعة من القراء، ولتحقيق جدلية الإبداع المشترك بين المؤلف والقارئ. ويعني في سياق التّداوليّة الأدبية إعطاء صوت للشخصية القصصية في القصة يحمل وجهة نظرها بحيث يجعلها تَتكلّمُ وترى عبرها الشخصيات الأخرى بل حتى العالم القصصي المحيط بها. فهو يركز على وضع الشخصيات في العالم الأدبي وعلى العلاقة بين العناصر المقدمة والرؤية التي من خلالها صورت تلك العناصر. وهو كما وصف ... النّص الأدبي إلى الحياة، ولا يعتمد على الأدوات اللغوية الإرشادية التعيينية ... في النّص مثل الضمائر وأسماء الإشارة وأدوات التعريف، بل يعتمد أيضا على ... التعاون والاستلزام بما في ذلك العدول. فعندما لا تستوفي الظروف المناسبة ... استخدام هذه المبادئ، فربما نواجه ظاهرة الاشتباك الصوتي أي أن تنطق ... الكلام خارج النظام والترتيب، إما بإجراء من المؤلف أو بإهماله[٢].

الصوتُ في النّص الأدبي القصصي مثلاً الذي لا يتفق مع ما نعرفه، بوصفنا ... عن الشخصية المتكلمة سيبدو متنافراً، وغير مناسبٍ لها؛ لأننا لن نَشعر بأنّه ...، إذ ربما يكون هو صوت الراوي ويُحاولُ أن يخفيه بهذه الطريقة أو هو الراوي ... بوصفه شخصية في الرواية، أو حتى أنه المؤلف ذاته. ويشار غالباً إلى الأصوات

... الخطاب الشعري: ١٤٣.

... موسوعة التّداوليّة المختصرة، التّداوليّة الأدبية: ٥٥٠، ٥٥٣، ٥٥٤.

الأخرى المتعارضة على أنها رخص أو ضرورات شعرية (*Poetic License*)، كأن ينسب المؤلف للحيوانات تعبيرات (*Vocalizations*) لا تتوافق مع حالتهم الحيوانية. كما في رواية آنا كارنينا لتولستوي إذ نجد فيها أفكاراً تقال على لسان كلبة صيد الطير لاسكا، التي كانت غاضبةً من ليفين وشقيقه لأنهما يستمرانّ بالمحادثة في حين أنّ الطيور تطير من قِبَلِهم، واحدا بعد الآخر، من دون أن يكلفَ هذان الصيادان نفسهما عناء التصويب نحوهم ببندقيتهما، إذ تقول: (أنظروا كَمْ عِنْدَهُما من الوقت لإجراء محادثةٍ بينهما في حين أنّ الطيور تجيءُ وتذهب... وفي الحقيقة، هما يعملان بغير إتقان). أو عندما يسمح المؤلف بقصدية للشخصيات باستخدام وسائل تعبير تتناسب مع الخطاب المناسب للأحداث أو الشخصيات، وذلك من أجل الحصول على تأثير كوميدي هزلي، كأن يُدخل المؤلف بشكل هادف اللهجة العامية المعاصرة لغة المسرحيّة الشكسبيرية القديمة، ففي هذه الحالة سيُحدث المؤلف ارتباكاً لدى القارئ وعدولاً عن النظام المتعارف عليه[٧]، فهي أصوات تتعارض مع خلفية تلك الشخصيات وتاريخها، وقد يحدث هذا العدول في النص الشعري كذلك في التداخل بين الأجناس الأدبية أو في ظل المفارقات الحادة التي تنجم عن مرارة الاشتباك بين صورتين متناقضتين ما بين الماضي والحاضر يجمع بينهما مشهد شعري واحد بقصد جر القارئ الى أقصى درجات التأثر بالحدث من خلال المفارنة التي يطرحها في مطولة (الحب ٢٠٠٣) للشاعرة العراقية بشرى البستاني إذ تحكي عن تواصلها مع الملكة العراقية (انخدوانا) في لحظة ما بعد احتلال وطنها عام ٢٠٠٣[٨] :

في الصباح استلمت رسالة عن طريق الانترنيت من جلالة الملكة (انخدوانا) ابنة الملك العراقي (سرجون الاكدي) تقول:

إنّها تعبة من الحرب
وأنّ الزرازير لم تعد تغني في عرشها من زمن
وأنّ الجنة ضاقت بورود قادمة من العراق..
(وحمورابي) يقف باذخاً فوق أسوار وقصور بابل
مؤشراً بالخط الأحمر، بقلمه العراقي
تحت الحقوق الإنسانية التي دبجتها شرائعه،
والتي انتهكتها شرائع نيويورك بعصيّ رعاة البقر
تلك التي تحولت إلى حمم بركانية تقذفها بارجات الحضارة
على ورود نيسان العراق.

فهذا الحدث الذي يشكل توليفة مفارقية بين الحاضر والماضي من خلال تلك

(٧) الموسوعة التّداوليّة المختصرة، التّداوليّة الأدبية: ٥٥٤.

ريت المعاصر جدا مع أحداث ما قبل الميلاد إنما هو تعبير عن غرابة ما يحدث من اك وعدول عن الحقيقة كلها. فالرسالة التي وصلت إلى الشاعرة عن طريق ريت ولسيتها بقصدية إلى الملكة (انخدوانا) لا تنسجم مع الخطاب المناسب لهذه خصية. فهي تُحدث ارتباكاً مقصوداً لدى القارئ ولبساً وعدولاً عن النظام ارف عليه لأنه صوت أو حدث يتعارض مع خلفية تلك الشخصية وتاريخها، وذلك ل المتلقي يشعر بالسخرية المرة والأليمة، فهي رسالة احتجاج وتهكم من شرائع ورك ورعاة البقر ودعاة الحضارة، الذي اسكتوا أغاني طيور الزرازير بأصوات اريخهم غير الحضارية وغير الذكية، وأزهقوا أرواح وورود العراق حتى ضاقت تة بأعدادهم إشارة إلى كثرتهم، ساقتها الشاعرة على لسان تلك الملكة، وهناك ة أخرى في التقابل بين رسالة ملكة متحضرة وصاحبة شريعة حضارية حقيقية ة من آلاف السنين على مسلة حمورابي شاهدة على ذلك، وبين رعاة البقر باتهم العدوانية. للدلالة على أنّ أصل الحضارة الراقية والحقيقية في العراق وأصل الفوضى والاعتداء على الانسان في نيويورك وشرائعها التي تكفل لين وظلم واستلابات.

أصوات النّص تُعتمد في تعدد الخطاب، وفي نمط اللهجات المتنوعة، وتمثل ات المتعددة هذه (*Multi-vocality*) العلاقات الجدلية بين القوى الاجتماعية ية المختلفة. فإذا كان صحيحا أن النّصوص تأتي فقط إلى حيز الوجود على أنها ن إنسانية من خلال المشاركة الفعلية للمستخدم كما سبق أن بين هذه الفكرة إنغاردن في عام ١٩٣١، فإن الرؤية التّداوليّة للنص، ولاسيما النّص الأدبي، على مشاركة المستخدم في هذه العملية بصورة رئيسة. وعلى العكس من ذلك، ستخدم لا يعدّ مشاركاً إلا بقدر ما كان قادراً على فهم النّص الذي قدمه المؤلف إعادة إنشائه. ويخضع هذا للظروف الاجتماعية نفسها التي تحيط ، ونتيجة لذلك فإنّ الحوار النّصي يفترض سياقاً اجتماعياً أوسع من ذلك ره النّص الأدبي الفعلي[1].

تداخل النّصوص

الأفكار السابقة تذكرنا بأفكار ميخائيل باختين في حديثه عن إعطاء نسكي لشخصياته الروائية كياناتها الخاصة ورؤاها الفكرية ولهجاتها المتنوعة، ل العلاقات الجدلية بين القوى الاجتماعية الثقافية المختلفة والتي تتناص مع تعابير سابقة عليها[2].

عة التّداوليّة المختصرة، التّداوليّة الأدبية: ٥٥٤.

الفن الإبداعي عند دوستويفسكي، م. ب. باختين، ترجمة د. جميل نصيف التكريتي، مراجعة د.

كما أنّ أغلب ظواهر تداخل النّصوص تلتقي مع المعاني التي تكلمنا عنها والمتعلق بالاستلزام والاستدلالات على المعاني الضمنية[1] في النّص الأدبي، وهذا يقودنا للحديث عن الأسلوب الثاني من أساليب التّداوليّة ألا وهو تداخل النّصوص.

وهذا المفهوم يمكن عدُّه من الأساليب التي تجعل المؤلف والقارئ يتشاركان في إبداع النُصوص الأدبية. فالتّناص هو نوع من العلاقة بين نص أدبي لاحق ينتمي لمؤلفه، ونصوص سابقة أو معاصرة له، سواء أكانت هذه العلاقة ظاهرة أم خفية خارجية أم داخلية، جزئية أم كلية، معتمدة على مبدأ النّفي أو التّضافر أو التي يقوم القارئ باكتشافها. فهو كما تعرفه جوليا كرستيفا (ترحال للنصوص وتداخل نصي، ففي فضاء نص معين تتقاطع وتتنافى ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى)[2]. فإذا كانت الكلمات في النّص كما يذهب مايكل ريفاتير تشير إلى أشياء مختلفة (تصورات ذهنية) على مستوى المحاكاة، فإن هذه الأشياء تشير إلى نصوص أخرى على مستوى السيميائية[3].

وبذلك فإننا إذا طبقنا تعريف التّداوليّة بوصفها دراسة لاستعمال اللغة في التّواصل الإنساني حسب ما تحدده ظروف المجتمع على حالة التّواصل الأدبي، فإن ذلك يجعلنا نقول إنّ التّداوليّة الأدبية تعتني بدور المستخدم في الإنتاج الاجتماعي للنصوص واستهلاكها[4]، ومن وسائل المساعدة لهذا الإنتاج هو تداخل النّصوص الذي يعطي فرصة للقارئ الجاد أو الكفء لاستحضار نصوص سابقة، سواء بطريقة مشابهة للاستلزام أو للاستدلال على المعاني الضمنية، تؤثر في إعادته لإنتاج أو إعادة النّص الأدبي حسب فهمه وقدرته على الاكتشاف والتأويل والخلفية المعرفية التي يمتلكها.

❖ نقد التّداوليّة الأدبية

ومن أجل تشجيع ثقافة النّقد وحصر ثقافة الانبهار بكل ما يقوله النّقد الغربي ولكي لا ننمي هويتنا الثقافية، لابد لنا من الوقوف أمام هذه الأفكار وقفة تأمل

حياة شرارة، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، العراق-بغداد، ط١، ١٩٨٦؛ المبدأ الحواري دراسة في فكر ميخائيل باختين، تزفيتان تودوروف، ترجمة: فخري صالح، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق-بغداد، ط١، ١٩٩٢: ٨٠-٨١، ٨٢-٨٤، ٩٤.

(١) التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان: ١٩٤-١٩٥.

(٢) علم النص، جوليا كرستيفا، ترجمة: فريد الزاهي، مراجعة: عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٩١م: ٢١.

(٣) مشكلة التناص في النقد الأدبي المعاصر، محمد أديوان، مجلة الأقلام، بغداد-العراق، العدد ... ١٩٩٥: ٤٦.

(٤) الموسوعة التّداوليّة المختصرة، التّداوليّة الأدبية: ٥٤٩.

ل تلك الأفكار المعتمد عليها في التّداوليّة الأدبية هي أن النص الأدبي أصبح منتجاً أو
جاً ثقافياً، وهذه الفكرة تجعلنا نتصور أنّ النّص الأدبي أصبح يشبه السلع المادية
نتجة التي تمر بمراحل صناعية قبل إنتاجها، كأن تخضع للسيطرة النوعية والتعبئة
تغليف والدعاية لها والماركات أو العلامات المسجلة...إلخ. وإن كان هذا الكلام في
ب من جوانبه صحيحاً، إلا أنّ النّص الأدبي تبقى له رسالة معينة يريد المؤلف أن
صلها إلى متلقين بعينهم، فلا يمكن أن يتحول إلى سلعة بشكل كامل، ويشير جاكوب
يه إلى هذه المسلمة عندما يقول: إنّ القارئ لا يجلب كتاباً من المكتبة لكي يعيده
فحسب بل لابد من أن يكون متأثراً بأفكار المؤلف الذي يقرأ له، نافذاً إلى
إله، وهو يغريه أو يدعوه للدخول إلى خصوصية جانب من جوانب شخصيته.
لف من جانبه، لا يؤلف لمجرد كسب عيشه، منتجاً كماً هائلاً من
ل المطبوع وإن كان هناك من يفعل ذلك، بل لديه رسالة للقارئ بوصفه إنساناً
أن يوصلها إليه. وهذا ما يفسر لماذا تشترى الكتب وتباع، ليس لأنها لا غنى عنها من
وجودنا المادي، بل لأنها تمثل رسالة شخصية من المؤلف إلى مجموعة من
المحتملين[1].

الفكرة الثانية المعتمدة في التّداوليّة الأدبية فهي انّ أيا من المؤلف أو القارئ لا
يعان أن يدعيا امتلاكهما النّص الأدبي امتلاكاً كلياً أو أنّ لهما سلطة مطلقة
هنا انطلق النقد في هذه الفكرة من تصور أنّ النّص هو منتج، فإذا كان النّص
منتجاً فالمنتج لا يمكن لأحد أن يتصرف به إلا حسب لائحة التعليمات الخاصة
اً من تركيبه وانتهاء باستخدامه، فجهاز الحاسوب مثلاً لا يمكن لشخص أن
خدمه من دون التقيد بالتعليمات المتعلقة بكيفية استخدامه والحفاظ
إلخ، وهو ينتمي إلى مصنع معين أو شركة خاصة وله علامة مسجلة ولا يجوز
ن يقلده أو أن يستخدم هذه العلامة، فإذا كان هذا كذلك فكيف نسمح
بأن نقول إن النّص الأدبي لم يعد ملكاً لأحد لا للمؤلف ولا للمتلقي بل هو
ناع، فلا سلطة للمؤلف على النّص ولا للقارئ، بل أين سلطة النّص نفسها؟
ما أذهب إليه هو أنّ المؤلف له السلطة الكاملة على نصه فهو الذي يصوغ
دبي وينظمه بطريقة مخصوصة، وهو الذي أبدع تلك الصورة وأوجد ذلك
ظف ذلك التراث وأوجد تلك الشخصية في الرواية أو المسرح وصاغ ذلك
صور ذلك المكان ووصفه... إلخ، وهو الذي يأخذ هذا المعنى ويقتبس معنًى آخر
مع نصوص أخر، وهو إنما يفعل كل ذلك بوعي تام وقصدية، وهو الذي
معنى الجملة هنا ويوضحه ليمنع أي تأويل مضاد ومتوقع للقارئ، ويغمضه في

ية التّداوليّة المختصرة، التّداوليّة الأدبية: ٥٥١.

جملة أخرى ليمنح القارئ جزءاً من سلطته ليستمتع بمتعة التأويل والبحث الدلالة وليفعل آليته الذهنية التأويلية، وكلاهما مقيد كذلك بسلطة النّص وفق اللغة التي يكتب بها أو التي يحلل بها النّص الأدبي. وفي ذلك يقول الناقد الكبير حـ القرطاجني (إنّ المعاني، وإن كانت أكثر مقاصد الكلام ومواطن القول تفتضي الإعـ عنها والتصريح عن مفهوماتها، فقد يقصد في كثير من المواضع إغماضها وإغلاق أبـ الكلام دونها. وكذلك أيضاً قد نقصد تأدية المعنى في عبارتين: إحداهما واضحة الدلـ عليه. والأخرى غير واضحة الدلالة لضروب من المقاصد)[1]. ويقول أيضاً (إنّ المـ منها ما يقصد أن تكون في غاية من البيان على ما تقدّم. ومنها ما يقصد أن تكون غاية من الإغماض، ومنها ما يقصد أن يقع فيه بعض غموض، ومنها ما يقصد يُبان من جهة وأن يغمض من جهة)[2] فللأديب مقاصده ورسائل يريد أن يرسلها متلقيه وقرّائه، أي أنه لم يفعل ذلك إلا لمقصد معين أو مقاصد متنوعة واعية أو تكون غير واعية في بعض الأحيان.

الفكرة الثالثة متعلقة بمفهوم السياق إذ أنّ السياق قد تحول من سياق نـ لغوي متعلق بالجملة ثم العبارة والنّص، ولاشيء خارج السياق النّصي، إلى مفـ أوسع من هذا يشمل الموضع الذي نطق فيه الكلام أي سياق الخطاب (*ourse* *Context*) والمشاركون في الحدث الكلامي والعلاقات المتبادلة بينهم، وأهـ ومقاصدهم، والمكان الطبيعي والاجتماعي للحدث الكلامي والزمان الذي نطق فـ والظروف الاجتماعية والثقافية المحيطة بالمستخدمين أو المشاركين أي المؤ والقارئ. فهو سياق لغوي واجتماعي وثقافي شامل. وذلك سيتطلب بحثاً عمّا بتاريخ حياة المؤلف، بل لابد من استقصاء تاريخ حياة القارئ أيضاً لفهم ما المؤلف وما يفهمه القارئ ويعيد إنتاجه بوصف الإبداع هو إبداع مشترك. وبذلك مرة أخرى إلى إشكالية الاهتمام بداخل النّص أو خارجه، وتقديم قراءة قد تنبع النّص الأدبي نفسه، توظف فيها المعرفة اللغوية والأدبية والاجتماعية والفلـ والدينية بل حتى السياسية عندما نتكلم عن سلطة المركز ولابد من تفتيتها والا بالهوامش والأقليات المضطهدة.

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لأبي الحسن حازم القرطاجني (٦٠٨هـ=١٢١١م-٦٨٤هـ=١٢٨٥م)، وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، ١٩٦٦م: ٧٢.

(٢) المصدر نفسه: ١٧٧.

...در والمراجع

❖ الكتب العربية والانجليزية

- تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص)، د. محمد مفتاح، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ط١، ١٩٨٥.
- التداولية عند العلماء العرب، د. مسعود صحراوي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ط١، ٢٠٠٥.
- التداولية من أوستن إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية-اللاذقية، ط١، ٢٠٠٧.
- علم النص، جوليا كرستيفا، ترجمة: فريد الزاهي، مراجعة: عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩١.
- قضايا الفن الإبداعي عند دوستويفسكي، م. ب. باختين، ترجمة د. جميل نصيف التكريتي، مراجعة د. حياة شرارة، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، العراق-بغداد، ط١، ١٩٨٦.
- المبدأ الحواري دراسة في فكر ميخائيل باختين، تزفيتان تودوروف، ترجمة: فخري صالح، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق-بغداد، ط١، ١٩٩٢.
- المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت-لبنان، (د-ط)، ١٩٨٢.
- المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو، ترجمة: د. سعيد علوش، مركز الانماء القومي، (د-ط)، ١٩٨٦.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لأبي الحسن حازم القرطاجني (٦٠٨هـ=١٢١١م-٦٨٤هـ=١٢٨٥م)، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، (د-ط)، ١٩٦٦.
- المورد ، قاموس انكليزي-عربي، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ط٣٧، ٢٠٠٣.
- النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، فان دايك، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، (د-ط)، ٢٠٠٠.
- *Alan Cruse (2006). A Glossary of Semantics and Pragm... Edinburgh: Edinburgh University Press.*
- *Jacob. L. Mey (2009). Concise Encyclopedia of Pragmatics (s... edtition). Oxford, UK: Elsevier Ltd.*
- *Teun A. van Dijk (1977). Text and Context: Explorations i... Semantics and Pragmatics of Discours. London and New ... Longman.*

❖ **الدوريات**

- مشكلة التناص في النقد الأدبي المعاصر، محمد أديوان، مجلة الأقلام، بغداد، العراق، العدد ٤-٥-٦، ١٩٩٥.

❖ **المواقع الإلكترونية**

bbustani.wordpress.com

الفصل الثاني

التداوليـة.. مفاهيـم.. وآفـاق

ثُلاثية القارئ والنّص والسّياق
مُقاربة للشّواذ النّحوية تداولياً

د. جُودة مبروك مُحمد*

❖ مدخل

اللغة ظاهرة إنسانية، يتحقق وجودها بالفعل الكلامي، وهو العنصر الملموس في عملية التّواصل بين أفراد الجماعة اللغوية الواحدة. ومن الظواهر اللغوية ما هو شائع وما هو نادر الوجود، ويبدو أنّ الأخير في حال من الصّراع من أجل البقاء مع سابقه، وكان حظ العربية أن وجدت بها شواذ نحوية حفظها التاريخ، ولا يتوقف أثرها على النظام التركيبيّ، فهناك شواذ صرفية ودلالية وصوتية.

يتطرق هذا البحث إلى دراسة ظاهرة الشذوذ النحوية وفق معطيات حددتها التداولية اللسانية، ويبين خصائصها التركيبية في ضوء ما اشتهرت به من صفة الشذوذ والإهمال، كما يهدف إلى دراسة الظاهرة في ضوء ملكات المتلقي والنص والسياق بقسميه الداخلي والخارجي.

وقد انقسم البحث على ثلاثة أقسام: الأول عن خصائص القارئ، والثاني عن النص والثالث عن السياق، واختتم سطوره بالنتائج والمصادر والمراجع.

* كلية الدراسات الإسلامية والعربية - دبي

❖ تمهيـد

عن دائرة الحدث التّداولي[١]: حدّد أندريه- جاك ديشين[٢] ثلاثة عوامل تؤثر في عملية التّواصل، هي: الأول: السياق الذي يجري فيه الحدث (أو التّواصل)، والثاني: خصائص النصّ، والثالث: خصائص القارئ.

وتُسهم مجموعة من خصائص النصّ المنقول بوسائل متباينة وعبر أوساط مختلفة تشكل بعدًا مهمًّا في عملية التّواصل، منها أن النصّ في بعض الأحيان ليس مكتمل النصية، فهو عبارة عن جمل قليلة ومحدودة لا تعالج قضية فكرية في الغالب، فالشواهد النحوية تكاد تفتقد التماسك النصي، وإنما هي قوالب تركيبية منتزعة من نصوص، شكّلت رسالة وهدفًا بناءً على كونها وثيقة مهمة من عصور الاحتجاج؛ لاحتوائها على نماذج اللغة الفصيحة غالبًا، إذا استثنينا من هذا القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وبعض الأشعار المأخوذة من قصائد مشهورة، فهي نصوص مكتملة، وتُعرف سياقاتها.

كما أن المتلقي (وهو هنا النّحوي) ليس مقصودًا لذاته، فالمتلقي الحقيقي أو المرسَل إليه في الأصل خارج السياق الوجودي اللغوي في ذلك الوقت، ومن المعتقد أن هناك صلة وثيقة بين المتكلم والمخاطب في أسلوب التفاهم وطريقة المشاركة في قواعد التركيب، ولكن بخروج النصّ إلى مستوى التمثيل النحوي، يكاد يرقى إلى ما فوق المحلية أو الجغرافيا اللغوية المحددة للمرسِل والمرسَل إليه الحقيقي، ومع ذلك كان هدف التّواصل الوقوف على حقيقة الاستعمال بوصف هذا التركيب أداة للتواصل في تلك العصور، ويؤكد بعض العلماء[٣] على أن العلاقة بين المرسِل والمرسَل إليه من أبرز العناصر السياقية التي تؤثر في تحديد استراتيجية الخطاب المناسبة واختيارها؛ إذ

---

(١) التداولية: هي دراسة الاتصال اللغوي في السياق، ويذهب ليفنسون *Levinson.S.C.* في كتابه (*Pragmatics*) إلى وجوه متعددة عُرفت بها التداولية، محصولها أنها عند إطلاقها يُفهَمُ أمران: الدلالة والاستعمال، والاستعمال يدخل تحته أربعة عناصر: الأول أطراف التخاطب، والثاني قصودهم، والثالث السياق، والرابع المقام. وذهب جيفري ليتش *Geoffrey Leach* إلى أن التداولية دراسة المعنى في صلته بظروف الكلام، وأدخل في هذه الظروف المتخاطبين (المتكلم والمخاطب على حدّ سواء)، وسياق الملفوظ (*the contex of utterance*)، والهدف من الملفوظ (القصدية) (*the goal of utterance*). فيلتقي إلى أنها وظائف للتداولية خارج سياق الاتصال. إدريس مقبول، الأسس الإبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، ص ٢٦٤، ٢٦٥. وعبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب، ص ١١

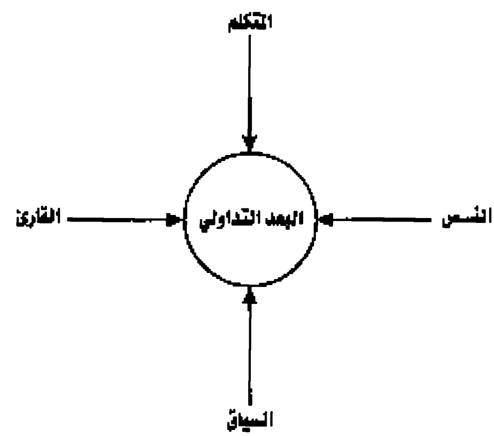
(٢) جاك ديشن، استيعاب النصوص وتأليفها، ص ١٦.

(٣) عبد الهادي بن ظافر، استراتيجية الخطاب الأصولي، ص ٤٨.

يراعيها المرسل دومًا عند إنتاج خطابه، فلا يغفلها، وذلك بوصفها محدِّدًا سياقيًا، له دوره في إنجاح عملية التَّواصل.

وفي ظلّ هذه الشواذ التركيبية تتضح أبعاد السياق وأهميته، ليس فقط من حيث النظر إلى صحة التركيب وامتثاله للقواعد، لكن يضاف إلى ذلك مراعاة السياق المكون من قوالب ثلاثة غير لغوية: القالب المعرفي والقالب الإدراكي والقالب الاجتماعي[1]، وهذه يُطلق عليها العلاقات الخارجية للنصّ، التي تؤكد أن الذي يُبدع النصّ هو الطبقة، أو الفاعل الاجتماعي عند جولدمان (*Goldman*). (فكل ظاهرة إنسانية هي من عمل صاحبها الفرد، وتعبر عن طريقته في التفكير والإحساس، إلا أن هذه الطريقة لا تكون مستقلة عن سلوك غيره من الناس، فلا وجود لها، ولا يمكن أن نفهمها إلا في علاقة صاحبها بغيره)[2]، وهذا بعدٌ تداولي، فإنها تكون مفهومة لكل أفراد المجموعة اللغوية.

فالتَّواصل إذن لا يتحقق بشكله التام إلا من خلال مقومات أربعة هي: المتكلم المخاطب ونص الخطاب والسياق، ويحدث اتساق بين هذه العناصر الأربعة، فتكون المحصلة النهائية هي التفاعل بين هذه المكونات التي تؤدي إلى ما يسمّى التَّواصل التام، كما في الشكل[1]:



شكل(١)

---

(١) عبد الهادي بن ظافر، استراتيجية الخطاب الأصولي، ص ٤٨.
(٢) توفيق الزيدي، أثر اللسانيات في النقد الأدبي، ص ١٤٦.

إن الحكم على تركيب بأنه شاذ يتطلب النظر إليه من مواقف متباينة أو جهات مختلفة، ومعرفة الأسباب وراء الظاهرة قبل الحكم عليها. فبعض النصوص قد تحتاج إلى تفسير يعتمد على سياقها أو على كفاءة القارئ وخبرته، التي تؤهله للتصور الثقافي والاجتماعي في أثناء إنتاج النصّ. وينصرف الاهتمام هنا إلى مكونات التواصل التداولي دون المتكلم؛ وذلك لغاية منهجية، أو للجهل به أحيانًا، ولتقديم قراءة جديدة لبعض النصوص الشاذة -حسب تعبير النحاة- عن الأصول النحوية المعروفة عندهم، ولا تزعم أنها تنطلق من إنكار جهودهم في التحليل، لكنها تحاول أن تنظر إلى بعض العناصر التي تسهم في إنتاج النصوص وتلقيها، وهي المتمثلة في: خصائص القارئ والسياق والنص.

❖ أولاً: خصائص القارئ:

انبعثت فكرة الشذوذ في تراثنا النحوي من صميم الصناعة النحوية، واكتفي بالتلقي من قبل النحاة أو قل المشتغلين باللغة دون الاعتماد على الجهة المتسع المتمثلة في الجمهور العربي وقتئذٍ، وهو المنتج والمستقبل الحقيقي للغة، وهو الأولى بالرعاية والعناية. فأفراد المجتمع هم الذين يتعاملون مع النصوص، ويستعملون اللغة وقواعدها، وتقوم علاقة المحاورة والتّواصل فيما بينهم بها، فهم يشكّلون حينئذٍ جزءًا من السياق[1].

نعم إن الجمهور المتلقي هنا حالة خاصة، إنه عقل نحوي نافذ مدرك قواعد اللغة، ولديه خبرة بالأنماط التركيبية المعيارية، تمثل عنده قانونًا يجب الالتزام به في تواصله، حتى يتحقق التطابق بين طريقة الاستعمال والأحكام التركيبية المقننة عند النحاة، والتي تمثل معيارًا لحالة الصواب اللغوي، ومقياسًا للمنطق الكلامي الأصح المتفق عليه غالبًا[2].

---

(١) ومن هذا المنطلق يولي فيرث الكلام مكانة مساوية للسان، في تفرقته بينهما، ويذهب رولان رباط إلى اللسان مؤسسة اجتماعية، أو منجز اجتماعي، إلا أن الكلام أساس فعل فردي، وهو فعل اختيار وانتقاء، ومكون من التأليفات التي بفضلها يمكن للذات المتكلمة أن تستعمل شفرة اللغة بهدف التعبير عن تفكيرها الشخصي. انظر: محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، (اللغة دفاتر فلسفية، نصوص مختارة)، ص ٣٦.

(٢) يفرق السيوطي في المزهر، ج ٢، ص ٣٠٩ بين العرب المستعملين للغة السليقة وبين جمهور العلماء، العرب يلاحظون في كلامهم بالطبع ما لا يمكن أن يلاحظه العلماء بعد طول مباحثة واستماع.

إن اللغة ذاتها نظام قائم على أساس من السلطة، هكذا قال ر.بارط[١]، فهي سلطة تشريعية، اللسان قانونها؛ (لأننا لا ننسى أن كل لسانٍ تصنيف، وأن كلّ تصنيف ينطوي على نوعٍ من القهر)[٢].

ويفرق الدكتور تمام حسان[٣] بين موقفين: موقف المتكلم وموقف الباحث، فالأول يختلف عن الآخر، فمن مظاهر موقف المتكلم من الاستعمال اللغوي أن يراعي معايير اجتماعية معينة يطبّقها في الاستعمال، ويقيس في كلامه على هذه المعايير، ومن ثم يصطبغ نشاطه اللغوي بصبغة ظاهرة الصوغ اللغوي.

وعلى هذا فتحليل أنماط لغة ما ونماذجها، هو تحليل لحقائق اجتماعية، (وفي وسعنا إذن أن نرى أن علم اللغة لا يدرس مجموعات ضخمة من السياقات الصوتية، بل يدرس نظامًا من الأعراف الاجتماعية، وإن المرء ليحاول أن يحدد عناصر التأليف وقواعده التي تشكل ذلك النظام، التي تجعل الاتصال اللغوي بين أفراد المجتمع ممكنًا، ومن فضائل نظرية سوسير في اللغة أنها وضعت الأعراف والوقائع الاجتماعية في قلب البحث اللغوي)[٤].

ويقف بجوار هذه الإشكالية قضية تأويل ما أُشكِل على النحاة من التراكيب، وإرجاعها في الشواذ، ويرى الدكتور محمد مفتاح[٥] أن العرب والمسلمين انشغلوا بإشكال التأويل كما انشغلت به الأمم الأخرى: فالأمر يرجع إلى التأويل ذاته، فهو ضرورة، فكل كائن بشريّ سويّ يحاول اكتشاف الكون من حوله، فيحاول تفسير ظواهره، فتقوده عملية حب الاستطلاع على تلك الظواهر إلى طلب معرفة ما خفي منها وبطن، وإذا كانت الظواهر أو الأفعال أو ضروب السلوك لا تتلاءم مع ما تعارف عليه من معارف وعادات وأعراف فإنه يلجأ إلى عملية تأويل الظواهر؛ ليجعلها منسجمة متناغمة مع معارفه، وهذا يعني أنّ الكائن البشري يعتقد في شيءٍ ما أنه أصل أو أساس، وأن هناك شيئًا ثانويًا، أو فرعيًّا، يمكن أن يرجع إلى الأصل أو الأساس. وربما لا يكون التأويل أو أي إجراء يقف موقفه في صالح استكشاف الأنماط المختلفة من التراث الكلامي، فإنه يفضي إلى عدم الاعتداد بالتعدد اللغوي، الأمر الذي يحرّلنا التنوع في استعمال اللغة عبر مجموعات مختلفة من العرب، حسب اختلاف

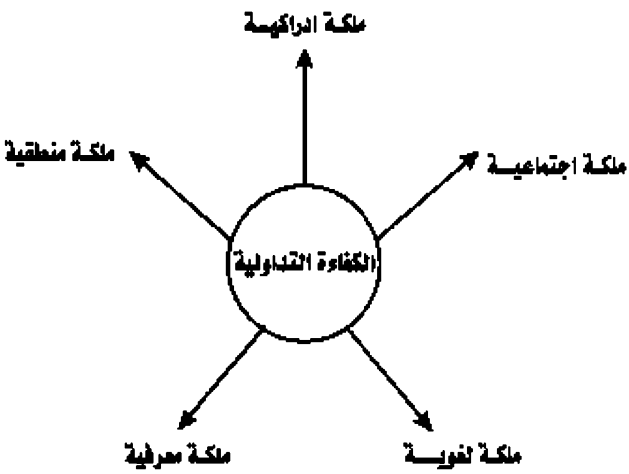
---

(١) ...مد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، (اللغة دفاتر فلسفية، نصوص مختارة)، ص ٨٤.
(٢) ...مد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، (اللغة دفاتر فلسفية، نصوص مختارة)، ص ٨٤.
(٣) ...م حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص٣٩.
(٤) ...ثان كلر، فرديناند دي سوسير (أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامات)، ص١١١.
(٥) ...مد مفتاح، التلقي والتأويل مقاربة نسقية، ص ٢١٧.

المكان والزمان والثقافة والعادات والتقاليد والبيئة وغيرها.

وعلى الرغم من كثرة ما ورد علينا من أخبار العرب وأيامهم لم نجد إشارات واضحة إلى صورة التفاعل والتواصل لمستعملي اللغة حيال الشواذ، ما عدا النحاة واللغويين، وقد سبق الحديث عن ذلك، وربما كان الأمر لا يعنتهم كثيرًا، فهم يفهمون ما يُقال، ولا يلتبس عليهم شيء أو يُستصعب مما يسمعونه.

لقد أدرك بعض النحاة أن مخالفة الأصل المقرر ليست نوعًا من الخطأ أو اللحن الخارج عن أنظمة اللغة المستعملة، فالتمسوا في توجيههم تلك التراكيب اللغوية النظرة الاعتبارية في أنها نتاج واقع لغويّ أو بيئة لغوية لها خصوصيتها. غير أن هناك فريقًا ثانيًا ظلّ ثابتًا على كونها من الشاذ الذي لا يقاس عليه، وشيوعها في عصور لحن، ولكن توجد مقومات مكّنت الفريق الأول من امتلاك الكفاءة التداولية التي ترتكز على خمس ملكات؛ هي: اللغوية والمنطقية المعرفية والإدراكية والاجتماعية(١) حسب الشكل رقم (٢):



شكل رقم (٢)

(١) عبد الهادي بن ظافر، استراتيجية الخطاب، ص٥٧.

❖ أولاً: الملكة اللغوية

إذا ثبت لدينا أنّ الشواذ من روافد الاستعمال، فتأويل النحاة انطلق من الاعتراف في بعض الأحيان بالموقف اللغوي الذي أنتجت فيه تلك التراكيب، فدلّ حديثهم على أنها شائعة في لهجة قبيلة من القبائل أو بيئة من البيئات اللغوية.

وتتجلى الملكة اللغوية في تفسيرهم لقضية التضعيف في الوصل، وإن كان خاصًا بحال الوقف في الشائع من الاستعمال العربيّ، وذلك في قول رؤبة:

لقد خَشيتُ أنْ أرى جَدَبَّا ... في عامِنا ذا بَعْدَما أخْصَبَّا[1]

فشدّد الباء من (جَدَبّا) و(أخْصَبّا)، وإن لم يقف على الباء، فقد وقف باجتلاب الألف، وفسّره النحاة على أنه عامَلَ الوصل معاملة الوقف.

ندرك من توجيههم إلمامهم بفن الشعر وما يجوز فيه، ودفعهم إلى هذا أمران: الأول: اعترافهم أن القافية لها نظام صوتي خاص مقيدة به، مما قد يمنح الشاعر حرية في إمكانية مخالفة القاعدة النحوية، فهي شغله الشاغل، والثاني: أن الشاعر قد تصرّف فعامل الوصل معاملة الوقف، وهذا يُبنى عليه أنه يجوز للشاعر ما لا يجوز لغيره. وهم بذلك يميّزون بين الموقف التّواصلي وغيره، فالشاعر له ظرفه الخاصّ، ويمتلك القدرة على التصرف بمخالفة ما هو شائع.

❖ ثانياً: الملكة المنطقية

لقد وظّف النُّحاة خبرتهم في التّوصل إلى التّوجيه الملائم بالسير وفق قواعد الاستدلال، وهو ما يُعرف بأصول النّحو بأركانه الأربعة: القياس والنّقل والسّماع واستصحاب الحال، فهو علم يقيم النحو على حالة تمس الاتصال اللغوي والاحتكاك المباشر بالتراكيب المستعملة؛ ولذا يكثر في كتبهم عبارة (وقد استدلّوا على ذلك بقول الشاعر)، ويبدو لنا أنهم طبّقوا معايير الأقيسة النحوية التي وضعوها بشكل متميز.

ومن الأمثلة التي تؤكد ذلك ما استدلوا به في عرضهم للقراءة: (إنَّ هذان لساحران)[2]، فقد احتجُّوا في توجيههم إلى (إنّ) بمعنى (نعم) بقول الشاعر:

قالوا غَدَرْتَ فَقُلْتُ إنَّ وربَّما ... نالَ المُنى وشَفى الغليلَ الغادرُ[3]

---

(1) في ديوانه، ص ١٦٩.

(2) سورة طه: ٦٣. وانظر: محمد عبد القادر، ظاهرة التأويل في إعراب القرآن الكريم، ص ٤٠.

(3) البيت غير منسوب في: ابن يعيش، شرح المفصل، ج ٣، ص ١٣٠، ويستدلّ به النحاة على مجيء (إنّ)

أي: فقلت نعم، و(أي) نعني عندهم: أقصد وأريد.

كما استدلوا من النثر بقول رسول الله (ﷺ): (إنَّ الحمدُ لله، نحمده ونستعينه)(١)

أي: نعم: الحمد لله.

من الملاحظ أن نحاة العربية وفقوا كثيرًا في الاستئناس بالاستشهاد بالنقل.

❖ ثالثاً: الملكة المعرفية

إنَّ امتلاك المعرفة يمكّن من تعرّف الآخر، والوقوف على المعاني المقصودة م كلامه؛ لذا تمكّن النحاة من استدعاء هذه المعارف وتوظيفها من خلال النما الكلامية الشاذة.

ففي لغة إلزام المثنى الألف في جميع أحواله نجد أكثر من وجه، وأكثر من طريق في فهم الآية الكريمة السابقة في قراءة: (إنَّ هذان لساحران)، فالتوجيه كان مبني على أحد أمرين: أمر العامل، وأمر المعمول، وجرى النقاش حول طبيعة كلٍّ منهما، العنصر الأول (إنَّ) فجعلوها كما سبق بمعنى (نعم)، أو (أجل)، ولعل سيبويه[٢] يك من أوائل هؤلاء النحاة الذين ذهبوا هذا المذهب، ونُسِب هذا الرأي إلى الكسائي أي في حكاية عن عاصم، وإن كان المبرد أنكر قول النحاة الذين خرّجوا الآية على لغة الحارث، وقال إن أولى الأمور أن تكون (إنَّ) ههنا بمعنى (نعم)[٣].

وقد مكّنتهم الملكة المعرفية بلغات العرب في التوجيه، فذهبوا في مناقش للمسألة من جهة العنصر الثاني على أنها لغة من لغات العرب، وهي إلزام المثنى الأ في أحواله الثلاث، فاعتمدوا على لغة بني الحارث وغيرها من القبائل المتّفقة معها، سبق.

امتازت هذه المعرفة بشمولية الرؤية، ومع هذا كانوا يعتقدون أن المعنى هو الأس في عملية التخاطب، أما الشكل فهو محور إجرائي، فالتكاملية في البنية اللغوية تشكل التركيب هي المسؤولة عن أداء الرسالة كاملة، ومن هذا المنطلق يرى الن محمد حماسة[٤] أن غاية النحو- الذي هو نظام- ترتكز على أداء المعنى بوص محصلة نهائية، ففي الفترة المبكرة للنحو العربي كان أتباع مدرسة الكوفة يقولون سيبويه إنه عمل كلام العرب على المعاني وأهمل الألفاظ، يريدون أنه أولى الم

بمعنى (نعم)، فلا تكون عاملة.

(١) النحاس، إعراب القرآن، ج ٢، ص ٣٤٤.

(٢) سيبويه، الكتاب، ج ٤، ص ١٦٢.

(٣) محمد عبد القادر، ظاهرة التأويل في إعراب القرآن الكريم، ص ٣٥.

(٤) محمد حماسة عبد اللطيف، النّحو والدلالة (مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي)، ص ٤٨.

دراكي رعاية واهتمامًا على حساب الجانب الصوتي، فهو يهتم بالدلالة، وليس بالدال.
ما اعتنى الدرس البلاغي القديم بذلك[1]، في نحو العبارة المشهورة: كل بليغ فصيح،
عكس. فالبلاغيون يركزون على محصلة التخاطب، وهي أداء المعنى؛ لذا اشترطوا
حدود البلاغة أن تكون راجعة إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى بالتركيب؛ ولذلك
علوه بليغًا في أمور ثلاثة: أن يخرج من النفس على لفظ قائم به، وأن يؤدي ما في
س القائل، وأن يفيد المتلقي.

❖ رابعًا: الملكة الإدراكية

الملكة الإدراكية قدرة من القدرات التي تمكّن صاحبها من امتلاك الذاكرة التي
تنشط في معالجة المعلومات، فنشاط الأشخاص الإدراكي يتعلّق بالذاكرة إلى حدّ
بعيد، من تكلّم وكتابة وقراءة واستماع. فكل شيء يتطلب الذاكرة[2]، كما أنه يحتاج
استعدادٍ خاصٍّ في عملية تفسير اللغة واستيعابها، ويتطلب إدراكًا بالمحيط اللغوي.
وتجدر الإشارة إلى أن نحاة العربية كانوا قد امتلكوا فكرًا يوصف بالموسوعية في
إلمام بكثير من معارف عصرهم، فكان لبعضهم خبرة بالمنطق والفلسفة والتاريخ
والتفسير والقراءات وغيرها من العلوم التي تصقل العقلية وتوسّع مداركها فتمكّن
صاحبها من الإدراك التام للنص. وقد تجلّت بوضوح هذه الملكة على ثلاث صور:

- إدراك النُّصوص الموازية، وهي التي تحمل إشكالية مماثلة أو مشابهة، فقوّى ذلك من صدق الظاهرة، مما يدفع إلى الاعتراف بها، ومحاولة التّواصل معها على المستوى القاعدي، على ما سيجيء، وهذا أشبه بطريق الحصر للمخزون الكلامي المستعمل عند العرب، وهو مبدأ الاستقصاء الذي يعتمد على الذاكرة النشطة القادرة على استرجاع المحفوظات في علاج المعلومات المستغربة أو البعيدة عن الوجه الشائع.

- إدراك الآراء الموازية، أو التّواصل مع أفكار الآخرين، ويمكن في هذا السياق أن يقال: قارئ واحدٌ لا يكفي، فقد لا يدرك الفرد المسألة من جميع جوانبها، ويخفى عليه بعض أسرارها، فالحاجة تدعو إلى إدراك الآخر وقراءته، فالتفسير يتوقف على طبيعة القارئ أو المتلقي وما يمتلكه من حصيلة ثقافية

---

(1) بركات حمدي، مفهوم المعنى بين الأدب والبلاغة، ص ٥٨.
(2) ...يشين، استيعاب النصوص وتأليفها، ص ٤٠.

ومعلوماتية وتنظيرية مغايرة، وقد رأينا أمثلة متعددة لهذا الموقف، على
سيأتي.

الثالثة: إدراك العلاقة بين النحو والمعنى، فلقد أدرك النحاة علاقة النحو بالمع
فليس بمقدورنا فهم جمل متسقة نحويًا، إن لم يكن لها معنًى، على نحو
نعوم تشومسكي *Noam Chomsky* : تنام الأفكار الخضراء التي بلا لون غا
(*Colorless green ideas sleep furiously*) وقد نتعرّف جملاً ما نحويًا
لم يكن لكلماتها معنًى، نحو قولنا: اشترى الأسدُ الجبلَ الذهبيُّ، فإنه لا خ
أن هناك ائتلافًا نحويًا، فالفاعل مرفوع، والمفعول منصوب، والصفة تب
الموصوف، إلا أن المعاني غير مستساغة، أو متآلفة، وغير مفهومة.

فمن إدراكهم للنصوص الموازية ما كان مشهورًا عندهم بتعدّد الشواهد
المسألة الواحدة، فذلك يمنح النظام التركيبي القوة، ومن ذلك مجيء (الذي) ب
الياء، في نحو قول الراجز:

لَــنْ تَنْقَـــعِي ذا حــاجةٍ وَيَنْفَعَـــكْ
وتَجْعَلِـينَ اللُّـذ مَعِي في اللُّـذْ مَعَـكْ[1]

واستشهدوا بشاهد آخر يقوي السابق، وهو قول أحد الهذليين:

فَظَلْــتُ فـي شـرٍّ مــن اللَّــذْ كِيــدا
كاللَّــذْ تَزَبَّــى زُبْيَــةً فاصْــطِيدَا[2]

أما عن إدراكهم للآراء الأخرى، فنجدها بكثرة في كتب الخلافات، إنها تعكس
الخبرة بالآخر، والتمكن من معرفة مصطلحات المدرسة الموازية وأقيستها وأ
النحوية، ومن ذلك ما نلمسه في قول البصريين في رواية قول عامر بن الطفيل[3]:

فلــمْ أرَ مثلَهـــا خُبَاسَـــةَ واحـــدٍ   ونَهْنَهْتُ نفسي بعدما كِدْتُ أفع

فرواية الكوفيين (أفعلَه) بفتح اللام، على أن التقدير (أن أفعله) فحذف (أنْ)
عملها، والبصريون لا يغفلون قياس الكوفيين في هذه المسألة، فيذهبون إلى أن
البيت بهذه الرّواية جاء على قياس الكوفيين، ويرونه لحنًا، وأن الرّواية الصحيح

---

(١) الرجز بلا نسبة في: ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، ص ٥٣٧.
(٢)البغدادي، خزانة الأدب، ج ١١، ص ٤٢٦.
(٣) وقيل إنه لغيره، انظر في تفصيل الخلاف: ابن منظور، لسان العرب (خبس) ج٦، ص ٦٢.
(٤) البيت في الديوان ٤٧١، وسيبويه، الكتاب، ج ١، ص ٣٠٧، وابن الأنباري، الإنصاف في مسائل ال
ص ٤٤٩.

...) بضم اللام.

...ا عن الفرق بين النحو والمعنى فقد أدرك سيبويه[1] هذا النوع في بعض الجمل، ...ب (الاستقامة من الكلام والإحالة) فيقول في تقسيمه: (فمنه محالٌ كذبٌ، ...الٌ، ومستقيم كذبٌ، ومستقيمٌ قبيحٌ، وما هو محالٌ كذبٌ. نحو: أتيتُك أمس، ...غدًا....... مُستقيم حسن، أتيتُك غدًا، وسآتيك أمس.......مُحالٌ. (نقض لأول ...بآخره)، حملتُ الجبلَ، وشربتُ ماءَ البحرِ.....مستقيم كذبٌ. قدْ زيدًا رأيتُ، وكي ...يأتيك.... مستقيم قبيحٌ. (وهو وضع اللفظ في غير موضعه)، سوف أشرب ماءَ ...أمس.... محال كذبٌ[2].

خامسًا: الملكة الاجتماعية

...ن قواعد النحو بمفردها لا تكفي في تفسير الأنماط اللغوية جميعًا، فلا بدّ من ...وسائط أخرى مناظرة، تتوافر فيها المقومات التي تجتهد في إيجاد حلّ لكثير من ...لات النصّ، وعلى هذا ستجد هذه الشواذ مكانها من الدرس التركيبي.

...قد آن الوقت لإعطاء القواعد الضمنية في بنية المجتمع اللغوية حقها من ...مام؛ ومن هنا يسعى مايكل كوربـاليس *(Michael C. Corballis)* في *(From Hand to Mouth: the Origins of Language)* في نشأة اللغة من اليد (إلى نطق الفم) إلى التأكيد على أننا (نستخدم هذه القواعد من دون أن ...وانه حتى اللغويون لا يتفقون مع كل القواعد، ولا على الطريقة التي تُطبّق بها ...ها)[3].

...الملكة الاجتماعية تسهم في تشكيل الكفاءة على اكتشاف خصوصية اللغة في ...ن، فلا يمتلك النحوي تلك القدرة على معرفة ما يُقال فحسب، بل يتعدّى الأمر ...رفة الطريقة التي بها تتم عملية إصدار الخطاب إلى مخاطب معيّن حسب ...ف التواصليّة بغية تحقيق الأهداف من وراء الفعل الكلامي.

...د ظهرت تلك الملكة في كتابات النحاة، في إلمامهم بالظرف الاجتماعي للقائل ...طب على حدٍّ سواء، ولعلّ ظهور التأويل والتوجيه من ثمار تلك الملكة، فقد ...وا إليه في سبيل التوصل إلى قصد القائل، واجتهدوا في اكتشاف فهم المخاطب ...لال المطروح من الدلالة.

---

[1] ...بويه، الكتاب، ج ١، ص ٢٥، ٢٦.

[2] ...عبد الواحد وافي، نشأة اللغة من إشارة اليد إلى نطق الفم، ص ٢٠.

[3] ...عبد الواحد وافي، نشأة اللغة من إشارة اليد إلى نطق الفم، ص ١٩.

ويتجلى حضور الملكة الاجتماعية في رؤية النص مما يُعرف باللغات أو اللهجا
وهي مظهرٌ اجتماعيٌ مميز للجماعة اللغوية الواحدة، ودليل المحلية اللغوية.

ومن الأمثلة على ذلك من قضايا شواذ التركيب فتح نون المثنى وكسر نون ج
المذكر السالم، نحو قول جرير:

عرفْنـا جَعفـرًا وبَنـي أبيـه   وأنكَرْنـا زَعانِفَ آخَـرين

فقد جاء كسر النون من (آخرين)، وهي جمع مذكر سالم، وكان حقها الفتح،
القياس.

وقول سحيم بن وثيل:

ومـاذا تَبْتَغـي الشُّـعراءُ مِنّـي   وقـدْ جـاوَزْتُ حَـدَّ الأرْبَعيـن

فكسر النون، وكان حقها الفتح.

أما المثنَّى فنحو قول حميد بن ثور:

علـى أحْـوَذِيَّيْنَ اسْـتَقَلَّتْ عليهمـا   فمـا هِـيَ إلا لَمْحَـةٌ فَتَغيـب

ففتح النون من (أحْوَذِيَّيْنَ)، وكان حقه الكسر على القياس.

فالملكة الاجتماعية تظهر في التفريق عندهم بين ما خرج عن الأصل المقرر؛ لأنه
قبيل الشاذ، وما خرج عن الأصل لأنه من قبيل اللغات، وتأمل نص ابن عقيل[4] الآ
في حديثه عن التفرقة بين نون جمع المذكر السالم ونون المثنى (وظاهر كلام المص
رحمه الله تعالى- أن فتح النون في التثنية ككسر نون الجمع في القلة، وليس كذلك
كسرها في الجمع شاذّ، وفتحها في التثنية لغة).

كما أن اعتقادهم بفصاحة الأعراب دفعتهم إلى الاعتداد بأقوالهم، حتى تلك
لم يشتهر استعمالها، بل هو من قبيل الارتجال، يقول ابن جني: (إن الأعرابي إذا ق
فصاحته وسمت طبيعته تصرف وارتجل ما لم يسبقه أحد قبله)[5]. وحكى ج
الدين السيوطي أمر رؤبة وأبيه في ارتجالهما اللغة دون سابق سماع، فيقول: (
قاسا اللغة وتصرفا فيها، وأقدما على ما لم يأتِ به مَن قبلَهما)[6]. ويقول ابن ج

---

(١) البغدادي، خزانة الأدب، ج ٨، ص ٦٥.

(٢) البغدادي، خزانة الأدب، ج ٨، ص٦١، وابن يعيش، شرح المفصل، ج ٥، ص ١١.

(٣) البغدادي، خزانة الأدب، ج ٧، ص ٤٥٨.

(٤) انظر: شرح ابن عقيل، ج ١، ص ٧٠، ٧١.

(٥) ابن جني، الخصائص، ج ٢، ص ٢٥.

(٦) السيوطي، الاقتراح، ص ٥٣.

...في نفسه: (ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب)[1]. ويذكر الأستاذ ...ي الأفغاني أن (اللغات على اختلافها كلها حجة. والناطق على قياس لغة من لغات ...ا مصيبٌ غير مخطئ)[2]. وفي مقابل ذلك نرى سيبويه يتهم بعض العرب بالخطإ، ...ل: (واعلم أنّ ناسًا من العرب يغلطون، فيقولون: إنهم أجمعون ذاهبون، وإنك ...ذاهبان)[3].

...ذا من منطلق الملكة الاجتماعية التي منحتهم وأكسبتهم القدرة على التفرقة ...قًا من قراءة المجتمع ومن معرفتهم بما هو في خلفية النصوص المنتجة، وأصبحوا ...ين على اتخاذ موقف بين مَن نؤخذ منه النصوص، ومَن تُردُّ، أو وضع معايير ...احة.

...خصائص النص

(٢ - ١)

...لغات قديمة[4]:

...ل لبعض الشواذ النحوية صلة بتاريخ اللغة القديم، ومن المعتقد أن التطور لم ... فجاءة، وإنما وجد طريقه إلى الألسنة عبر أجيال من المتخاطبين، (واللغة العربية ...ي في ماضيها وحاضرها لغة متطورة، ولا شك أنها تطورت كثيرًا في نظمها ...لة بين أيام امرئ القيس وأيام الشاعر ابن هرمة، أو مسلم بن الوليد، أو فجر ... العباسي)[5].

...بدو أن الحديث عن بداية مرحلة أو انتهائها هو مجرد افتراض وليس على سبيل ... والقول الفصل. كما أن القول بأن الظاهرة اللغوية اعتباطية، كما قال دي ... *Ferdinand de Saussure*[6] يجعلنا معتقدين عدم تصور استمرارية الفعل ...ي ثابتًا. فليس بإمكانه حينئذٍ أن يقاوم فعل الزمن بتغيراته التي يجليها على

---

(1) ...جني، الخصائص، ج ٢، ص ٢٥.

(2) ...يد الأفغاني، في أصول النحو، ص ١١١.

(3) ...بويه، الكتاب، ج٢، ص ١٥٥.

(4) ...جدر الإشارة إلى أنني اهتممت بهذه الظاهرة، وقدمت فيها بحثًا إلى مؤتمر كلية دار العلوم جامعة ...هرة (سيبويه إمام العربية) عن اللغات القديمة بعنوان: (ظاهرة الرواسب التركيبية وإشكالية ...ب النص عند سيبويه).

(5) ...حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص ٩١.

(6) ...ثان كلر، فرديناند دي سوسير أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامات، ص ٩١.

الإنسان في نواحي حياته المختلفة من مسكن وملبس وعادات وتقاليد، فتُوصَ
الظاهرة الكلامية بأنها طارئة على الحياة، شأنها شأن الأحداث التاريخية.

وتتجلى هذه القيمة خاصة في دراسة الآداب وفق المنهج التاريخي، وهي المحاولة أ
كانت حلمًا، للأستاذ محمود شاكر، فقد قصّ المرحوم الدكتور محمود الطناح
حكاية شيخه مع دراسته لشعر امرئ القيس والنابغة وزهير والأعشى، ثم شعر عمر
أبي ربيعة وذي الرمة، فقد أراد لنفسه أن يدرس هذه الأشعار والدواوين وفق مسا
الزمنية عبر الحقب التاريخية، وإن لم يوافقه الحظ إلى فيما يصبو إليه، فقد أفاد
تذوقه للشعر. ولم تكن صنعة الشيخ شاكر بكرًا في تراثنا اللغوي والأدبي، بل سب
محاولات جادّة في نقدنا القديم، تتجلى في صورة رائعة بصحبة ابن سلام الجمحي
كتابه (طبقات فحول الشعراء)، الذي يظهر فيه بوضوح تقسيماته للشعراء الم
على عتبات التاريخ وتقسيمات الزمن، فأعطى الاعتبار للسبق الزمني، وكانت فيه
الباحث حول بدء الظاهرة الأدبية، كمن أول من بدأ بكاء الديار، وأول من م
الشعر، وغير ذلك.

كل هذا رأيناه في أكناف الأدب ونقده، أما في الدرس اللغوي فلم ينتفع بهذا ا
جانب التحديد الزمني للفصيح والمولّد، فلم تقف على دراسة تاريخية للأمثلة الت
والشواهد النحوية التي تكثر في المتون ومطولات النحاة، وإن اكتفى بعضهم ظنًا
أنه سدّ ثغرة في الصقيع بنسبة بعض الأبيات في مصنفه، ناهيك عن كتب الت
والطبقات، فلم تفسر الظاهرة اللغوية تاريخيًا، نحو أخبار النحويين البصريين
سعيد السيرافي، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي، وطبقات ال
واللغويين للزبيدي، وإنباه الرُّواة على أنباه النحاة للقفطي، إلى غيرها من ا
التراجم، وقد انشغلت هذه الكتب بتاريخ النحاة واللغويين، وهذا كان منها م
حسب الظن.

ويرى الدكتور علي أبو المكارم[٢] أن الإشكالية تكمن في منهج النحاة في دراسة
على أنها ثابتة طيلة عصور الاحتجاج التي قد تزيد على أربعة قرون، ولم تأ
لناموس التغير، وهذا برفضه مبدأ الارتقاء والتطور الذي يصيب اللغات جميعًا
يؤثر في مصداقية أحكامهم على بعض القواعد.

---

(١) محمود الطناحي، في اللغة والأدب دراسات وبحوث، ج ١، ص ٢١٢.
(٢) تقويم الفكر النحوي ٢٢٠.

(٢ - ٢)

❖ منهج العزل:

لقد لاحظ النحاة الفرق بين الشواذّ النحوية والأنماط اللغوية الأخرى، واستنادًا
استقرائهم للنصوص المتنوعة أحسوا أنها مختلفة عن الصورة المثلى التي اختاروها
ن معيارًا للسلوك اللغوي الذي عليه تُقاسُ الصحة والخطأ. فأزمعوا أمرهم على
ها، وإن تناولها بعضهم بالتخريج أو التقدير أو التوجيه أو التأويل، حتى تتوافق
قاعدة المرضية للأصول النحوية عند كل فريق أو مدرسة.

تعود أسباب العزل على ما يُظَن إلى الاعتقاد[1] بوجود اللحن قبل الإسلام وفي
ه، فقد كان جائزًا من العرب وقتئذٍ، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (أنا
العرب، ولَدَتْني قُرَيْشٌ، ونَشَأْتُ في بني سعد بن بكر، فأنَّى يأتيني اللَّحْنُ!)[2].
اللحن عنه إفادة بوجوده عند غيره، ويتضح في قول ابن فارس[3]: وما جعل الله
عراء معصومين من الخطأ والغلط، فما صحَّ من شعرهم فمقبول، وما أبته
ة وأصولها فمردود. ومن أسباب العزل التفرقة بين اللهجات المتعددة من حيث
تابعة، فمنها ما عُومِل معاملة اللغة المشتركة، ومنها ما لم يُلقَ لها بالٌ، فقد
زوا لهجات بعينها على أساس من القرب المكاني من البصرة، مثل قبيلة قيس
وأسد[4]، كما سيأتي في أثناء الحديث عن سياق الجغرافيا اللغوية.

ن ذلك اللغة المتداولة بين العرب، وقد جاءت بها تراكيب كثيرة، في مقدمتها
ن الكريم، هي لغة (أكلوني البراغيث)، فلم يغلبوا الجانب الوصفي في التحليل
ي، إلا أن استقامة القاعدة عندهم كانت تقتضي أمرًا آخر، فقد عدُّوا الواو
وليس اسمًا، خارقين بذلك شطرًا آخر من طبيعة التقعيد النحوي وفلسفته
لة عندهم، فذهبوا إلى أمرين:

على أنها اسم، وهو الموضع المشهور لها في الاستعمال.

على أنها حرف دالٌّ على الجمع، وهنا توجد إشكالية في طبيعة التقعيد على ما
سيأتي بيانه. نعم لا إشكال بين المتخاطبين رغم اختلافهم في طريقة الإصدار

حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص ٨٢.
وينالشة الخبر في: المرجع السابق، الصفحة ذاتها.
فارس، الصاحبي، ص ٢٣٦.
حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص٨٣.

اللغوي في فهم المثالين: يخرج الرجال، ويخرجون الرجال، لكن ارتضى النحـ
النموذج الذي يعتقدون أنه الأفصح، وهو إفراد الفعل.

ولم تكن هذه الفكرة التي تمخضت عنها أصولهم النحوية منتظمة في الاعتـ
بأحادية التقعيد[١]، فلقد جاء تصنيفهم لبعض الكلمات، مختلفًا من سياق لآخر، ثـ
الفروق التي نجدها في المثالين: جاء كلا الرَّجُلَيْنِ، وجاء الرَّجلانِ كِلاهُمَا، إن تصنيـ
(كِلا) مختلف في المثالين، فهي في الأول اسم مقصور، أما في الثاني فملحقة بالمثـ
ولعل سبب الازدواجية يكمن في الاستعمال، فالحكم عليها في النموذج الأول لجـ
التوافق التي يشهدها آخر الكلمة في السياق اللغوي المختلف، نحو: جاء كِلا الرَّجُلَـ
ورأيت كِلا الرَّجُلَيْنِ، ومررت بكِلا الرَّجُلَيْنِ.

أما الحكم عليها في نمط الاستعمال الثاني فلعلةِ التماثل مع إعراب قسم آخـ
الاسم، وهو المثنى، حسب اختلاف السياق اللغوي أيضًا، نحو قولنا: جاء الرجـ
كِلاهما، ورأيت الرجلينِ كليهما، ومررت بالرجلين كِلَيْهما. وربما أسهم المكمّل الإضافـ
الاهتداء إلى تصنيفها، فلقد فرّق النحاة بين المضاف إليه في النمطين التركيبيين، ـ
كان اسمًا ظاهرًا فـ(كِلا) اسم مقصور، ألفها مماثلة لألف (فتى) و(مصطفى)، وإذا ـ
المكمل الإضافي ضمير تثنية، فإن ألف (كلا) مماثلة لألف (الرجلان)، أي علامة للتثـ
فصارت القاعدة منعكسة حسب التوضيح الآتي:

أ- المعنى النحوي: النمط الأول:

جاء	الرَّجلان	كلاهما
وحدة مشتركة	وحدة تامة	وحدتان مضافتان

النمط الثاني:

جاء	كلا	الرجلين
وحدة مشتركة	وحدة ناقصة	وحدة متممة

ب- الأثر الإعرابي:

جاء الرجلان.............كلاهما
إعراب المثنى

---

(١) ربما يرجع ذلك إلى ما يعتقده بعض المحدثين من أن النحاة العرب استعملوا الاتجاه الشكلي في الـ
إلى حدٍّ ما، وخصوصًا في مرحلة التأسيس عند سيبويه مثلاً، فكانت أحكامهم معيارية، يتضح ذلك
أشار إليه في باب الاستقامة من الكلام والإحالة؛ إذ فرّق بين صحة التركيب النحوي في الجملة و
دلالتها. عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب الأصولي، ص٥.

كلا[1] ....الرجلين

إعراب المقصور

(٢ - ٣)

❖ أحاديــة النمــط

لعل الحكمة التي تشكّل الفكر النحوي على أساسها تقوم على تصور لأحادية النمط القاعدي، بحيث تُصاغ الجملة على طريقةٍ واحدة، كأن تكون مرفوعة الفاعل منصوبة المفعول، ثم يصبح هذا قياسًا للتراكيب اللغوية الأخرى، وهذا ما نطلق عليه (أحادية النمط)، فلا يجيء الفاعل منصوبًا، والمفعول مرفوعًا، فيخالف النحو الذي تحدث به العرب[2]. ولكن يصحب الإنسان مع أخيه الإنسان قدر الاختلاف. ويؤكد هذا ما يذهب إليه الدكتور سعد مصلوح[3] من أمر التوافق والاختلاف في الظاهرة اللغوية الإنسانية، فالتجانس والتنوع قطبان متجادلان يتجاذبان السلوك البشري، فاللسان الذي تشترك فيه أمة من الأمم فيه ما تتفق عليه طائفة، وفيه ما تنفرد به طائفة أخرى عن البقية، وهو نتاج عن فعل العوامل الزمانية والمكانية والثقافية والاجتماعية في هذا اللسان، وبما هو مظهر لصراع عوامل الانتماء المجمّعة، وعوامل الانتماء المفرّقة في أبناء الجماعة اللغوية الواحدة.

وإنما تحدث التعادلية بين ما يصيب اللهجات العربية وتلك اللغات سابقة الذكر من حيث الوقوع في طبيعة الاتفاق والاختلاف، فإذا اتفقت في بعض الظواهر فإنها تختلف في بعضها الآخر، وهو ما يتيح الفرصة لخصوصية كل لسان. ومن هذا:

ضرب الزّيدُون عمرًا	فعل + فاعل + مفعول به
الزيدون ضَرَبُوا عمرًا	مبتدأ +فعل +فاعل+ مفعول به

وقولنا:

ضربوا الزّيدون عمرًا	فعل+ فاعل+ فاعل+ مفعول به

---

(١) يقول أحد حسب اعتقادي بأن (كلا) هنا مثنى جاء على لغة من يلزمه الألف، ولم يقل أحد كذلك بأن الألف قلبت ياءً في حال إلحاقه بالمثنى.

(٢) ويخرج عن هذه الأحادية وجه وصفًا عند النحاة بالشذوذ، ولم يخل من فوائد، منها إتاحة الفرصة للتوسع في مجال الاستعمال اللغوي، والتنبيه على الأصل، وللتخفيف، ولكثرة الاستعمال. فتحي عبد الفتاح، ظاهرة الشذوذ في النحو العربي، ص ٤٨) ٥٢.

(٣) سعد مصلوح، في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، ص ١٥٥.

فلا يكاد يُتصوَّر تحققه لوجود فاعلين في الجملة، فيصبح من الشاذ الذي لا يقاس عليه، أما قولنا:

قامتْ فاطمة (فعل + حرف للتأنيث + فاعل)

فلا إشكال فيه، فالتاء حرف دالٌّ على التأنيث ومشعر به، وكذلك قولنا:

قامت الرجال (فعل+ حرف للتأنيث+ فاعل)

فإذا كان النمط الأخير جائزًا فلأن التاء ليست من جنس الاسم، أما النمط التركيبي: قاموا الرجال، أو ضربوا الزيدون عمرًا، فإنه غير جائز قياسًا، وإن ورد سماعًا عن العرب، ومع هذه الازدواجية تنبعث الحكمة في تطور بعض الشواذ عن أصول تركيبية، تنتمي إلى ما يُعرف بالقواعد العامة *Universal Grammer* عند نعوم تشومسكي *Noam Chomsky*، ولكنها لا تخصّ اللغة الإنسانية، بل تنحدر وتقل معها لتشمل تلك القواعد العامة في اللغة مع المتغير اللهجي في محيطها، وتصبح القواعد العامة هي الركيزة المشتركة بين اللهجات من ناحية وبينها جميعًا وبين الفصحى في ناحية ثانية، أما الأشكال الخاصة بلغة من اللغات أو بلهجة من اللهجات فهي المتغيرات التي تختلف من لغة إلى أخرى.

(٢ – ٤)

❖ المخالفة التداولية:

إنّ طبيعة الشواذ مخالفة الشائع في الواقع اللغوي، أو المستعمل من الخطأ، وإن كان لا يُنْكَر عليها صفة التداولية كما سبق، وإنما حُكِم عليها بالشذوذ لمخالفة الأصل، وهو المتفق عليه عند النحاة، وبالتالي مخالفة شروط القاعدة، وتأتي النظرة النقدية للنحاة إلى جواز ذلك فيما هو مروي ومنقول، ومعنى جوازه هو استقامته، اعترافهم بصحته، لكن يحظر معاودة استعماله، أو لا تعد معاودة محاكاته من الـ...

ومن هذا النحو: إلزام المثنى ألفًا في جميع أحواله: فالمثنى صيغة تشترك في معالجة علم النحو العربي مع الصرف، كلٌّ حسب اختصاصه، فهو صيغة صرفية تدخلها مورفيمات الإعراب في نهايتها، فتتغيّر صورتها، تُرْفَع حينئذٍ بالألف في حالة الرفع، وتُنْصَب وتُجَرّ بالياء في حالتي النصب والجرّ، ومن الشاذ قول الراجز:

إنَّ أبَــــــــاهَا وأبـــــــــا أبَاهَـــــــــا
قَـــدْ بَلَغَـــا فِـــي المجْـــدِ غايَتَاهَـــا[1]

وقوله أيضًا:

وَاهًـــا لِسَـــلْمَى ثُـــمَّ وَاهًـــا وَاهًـــا
....
يَـــا لَيْـــتَ لِـــي فَاهَـــا ولـــي عيناهـــا[2]

فقد نقل ذلك الشعر عن العرب، ويتضح فيه استعمالهم للمثنى بإلزامه الألف في جميع أحواله وإعرابه إعراب الاسم المقصور، أي بالحركات المقدرة على آخره، ورغم أن هذه اللغة قليلة إلا أنها منقولة عن العرب.

ومنه أيضًا زيادة (مِنْ) في الكلام الموجب[3]: يذهب البصريون إلى أن (مِنْ) لا تُزاد في الإيجاب، ولكن تزاد في حيّز النفي، ومجرورها نكرة، نحو: ما جاءني من أحدٍ، غير أن الكوفيين أوردوا قول العرب: (قد كان مِنْ مطرٍ)، وعليه فزيادتها واضحة في هذا المثال، واستدل الأخفش على جواز زيادتها في الإيجاب بقوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[4]، فلو أن (من) أصلية لأدت معنى التبعيض، الذي تخالفه حسب رؤية الأخفش في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[5].

إن الذي احتجّ به الكوفيون على زيادة (مِنْ) يتضح في المثال: (قد كان من مطر)، لصيغته بزيادتها، أما في الآية الكريمة فلا يخلو أمر الدلالة فيها من تأويل، حسب رؤية للسياق اللغوي، أما القول في (قد كان مِن مطر) فإنه جاء تعبيرًا محفوظًا من لهجة، وظلّ متداولاً على ألسنة المتحدثين، وهذا يعني أنه فقد الشهرة والانتشار في اللغة المشتركة، فلا يقال: جاء من أحدٍ، ولكن بقيت هذه الآثار، وإن كانت قليلة، خلاف الشائع.

---

(1) ... اختلف في نسبته، فهو لرؤبة في ملحق ديوانه ١٦٨، وله أو لأبي النجم في: العيني، المقاصد النحوية، ج١، ص١٣٣، وله أو لرجل من بني الحارث في: البغدادي، خزانة الأدب، ج ٧، ص٤٥٥. وهذا البيت شاهد على لغة القصر في الأسماء الستة، وشاهد أيضًا على إلزام المثنّى الألف في حالة النصب، ... لغة.

(2) ... يُنسب لرؤبة في ملحق ديوانه ١٦٨، وله أو لأبي النجم في: العيني، المقاصد النحوية، ج١، ص١٢٣.

(3) ينظر في تفصيل ذلك: أبو الفداء، الكناش في النحو والتصريف، ج٢، ص ٧٢.

(4) سورة الأحقاف ٣١.

(5) سورة الزمر ٥٣.

❖ خصائص السياق

السياق (Context) هو مجموعة الظروف التي تحفُّ فعل التلفظ[1]، فعناصره لغوية وغير لغوية[2]، أما التسييق فهو ربط الكلام (الملفوظات) بسياق النص، فاللغة ليست حسابًا منطقيًا دقيقًا، لكل كلمة معنى محدد، ولكل جملة معنًى محدّد كذلك لكن الكلمة الواحدة تتعدد معانيها بتعدد استخدامنا لها في الحياة اليومية، وتتعدد معاني الجملة الواحدة حسب السياق الذي تُذكر فيه[3]. وتُسمّى العناصر اللغوية أيضًا بالسياق اللغوي[4]، وغير اللغوية تتصل بسياق التلفظ أو سياق الحال أو سياق الموقف[5]، ويمثل أبعادًا كثيرة، والنظرة إليه لا بدّ أن تكون من جهات متعددة، تنتج من النصّ، وتنطلق من ملابسات القول والبيئة والثقافة وخصوصية المتكلم، حتى تصل إلى مواضعها من كتب النحو واللغة، حيث يتولد سياق آخر، هو سياق منبثق عن التلقي، ولا يغيب عنه أمر الرُّواة وظروف الشارحين وأحوالهم، ويشمل السياق ظروف الحاضرين من المستقبلين لكلام النحاة وشروحهم والواقع الثقافي وغيره مما يؤثر في صياغة المفاهيم وبلورة أهداف النص.

إن النصّ يرتبط مع الكائنات الخارجية بواسطة الإنسان بوصف الأخير ومستقبلاً، كما يتصل بالظروف الاجتماعية والتاريخية، فالإنتاج الفكري يرتبط بأنشطة الإنسان العلمية والاقتصادية[6]. ولا يخفى علينا أن بعض النصوص التي اعتمدها النحاة على أنها شواهد أو أمثلة تقوم مقامها قد يكتنفها في الجهل بالمنشئ الأصلي، فبعضها يتصل بفترات زمانية قديمة في تاريخ العربية وبعضها مجهول المنشئ فهو من قبيل اللهجات، وغاب عن بعضها الإلمام الحقيقي بالسياق الأصلي، أو ثمة سياقٌ غيره لا يتوافق حتمًا مع السياق الأول، ولا ندري شيئًا عن حال التلفظ في الإصدار، وهذا يمثل نقصًا في المعلومات عن النص للتمكن من تفسيره بشكل تام.

كل هذا يشير إلى أننا نقف على نصوص لها طبيعتها الخاصة، فهي ليست وليدة لحظة، وإنما هي متباعدة في مجاهل التاريخ، مغمورة في سياقات كثيرة عبر...

---

(١) عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب الأصولي، ص ٤١.

(٢) ردة الله الطلحي، دلالة السياق، ص ٥١.

(٣) إدريس مقبول، الأسس الإبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، ص٣٠٩.

(٤) ويشترط فيه أن تنتظم فيه وحدات النص وعناصره، وتتصل بواسطته الجمل فيما بينها، وتترابط بينة لغوية وتداولية، ولا نكاد نتوصل إلى معنى كلمة إلا من خلاله.

(٥) عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب الأصولي، ص٤٠.

(٦) توفيق الزيدي، أثر اللسانيات في النقد الأدبي، ص ١٤٤.

شافهة بين كثيرين من المرددين لها، وأما قائلوها فأحيانًا غير معروفين. فعلى سبيل المثال حكاية المضارع واسم الفاعل من (عمى) يقال: عسى يَعْمِي فهو عاسٍ، وحكاية المضارع كذلك من (طفق يطفق)[١]. فهذه اللغات تعود إلى اللغة القديمة، ولكن انتابها الهجر والنسيان، فما عادت توجد في النصوص المروية، وعدّت تلك البقايا شاذةً في كانها.

إن أمر السياق يرتبط بمعرفة المستوى اللغوي للمتكلم وقدرته على التمثيل الجمعي لأفراد جماعته اللغوية، كما يتصل بالكيانات اللغوية، التي تختلف عن رابقتها بعض الشيء، كما يتصل بخصائص العلاقات الداخلية في النص، نحو إهمال العامل، والاضطراب الإعرابي، وطبيعة النص الشعري بما يفرضه على الشاعر من وزن وقافية.

وقد اخترنا أن نوضح السياق وفق قسميه الداخلي والخارجي:

(٣ - ١)

❖ الأول: السياق الداخلي:

❖ سياق إهمال العامل:

الإعراب أثرٌ يجلبه العامل، وإنْ كان- وحده - كما يقول الدكتور أحمد قدّور[٢]- لا ... على تبيان المعنى النحوي، فإن النحاة لم يقصدوا في البداية أنه عامل حقيقيّ ... على المعمولات، وإنما قصدوا أنه عامل اقتراني، يفسّر التغيير الحاصل في ... أواخر الكلمات. فالعوامل كما يرى الأنباري[٣] ليست مؤثرة حسيةً كالإحراق ... والإغراق للماء، والقطع للسيف، وإنما هي أمارات ودلالات، وإذا كانت العوامل ... الإجماع إما أمارات ودلالات فالأمارة والدلالة تكون بعدم الشيء، كما تكون ... الشيء، ويصور ذلك بأنه لو كان معك ثوبان وأردت أن تميز أحدهما من الآخر، ... أحدهما وتركت صبغ الآخر، لكان ترك صبغ أحدهما في التمييز بمنزلة صبغ

(١) ابن عقيل، ج ١، ص ٣١٣.
(٢) أحمد قدور، مبادئ اللسانيات، ص ٢٣١، ٢٣٢.
(٣) الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، ص ٤٢.

إنَّ بعضَ العلاقات بين ألفاظ التراكيب أصابها إهمال العامل، ووُجِدت بعض الشواذ تخالف قوانين الإعراب[1]. والتزمت إهمال العوامل المحفوظة، وهو ما ارتضى أن نسميه (سياق الإهمال)[2]. ومن أمثلة ذلك: إسكان آخر المعرب المتحرك: نحو قراءة حمزة لقوله تعالى: (وَمَكْرَ السَّيِّئْ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ)[3]، بإسكان الهمزة في (السَّيِّئْ). وكان حقه أن يكون بكسرها، ويبدو أنه تخفف من الكسرة، ولكن في السياق محدود، فهناك إعراب واقع على الكلمات الأخرى التي هي من تمام الآية. ومن إهمال الجازم (إذا دخل على المضارع الناقص): نحو قول الشاعر:

هَجَوْتَ زَبَّانَ ثُمَّ جِئْتَ مُعْتَذِرًا   مِنْ هَجْوِ زَبَّانَ لَمْ تَهْجُو ولَمْ تَدَعِ

فقال: لم تهجو، ولم يقل: لم تَهْجُ، وهو الأصل، ولكن يُلاحَظُ أنه قال (ولم تدع) فجزم المضارع الناقص، مما يدلّ على أنه ليس نظامًا تركيبيًا. ولكن الترخص في العلامة الإعرابية يمثل الدافع من وراء عدم الجزم.

ومثله قول الشاعر:

لولا فوارسُ مِنْ ذُهْلٍ وأُسْرَتُهُمْ   يومَ الصُّلَيْفَاءِ لم يُوفُونَ بالجَارِ[5]

فقال: لم يوفون، وكان حقه حسب النظام التركيبي السائد أن يقول: لم يوفوا بجزم الفعل بحذف النون. ومن هذا القبيل قوله تعالى: (إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ)[6]، وقد سبق أن (إنّ) هنا من الوجوه أنها مهملة، فهي بمعنى (نعم). ومثله قول الشاعر:

أَنْ تَهْبِطِينَ بِلادَ قَوْمٍ يَرْتَعُونَ مِنَ الطِّلَاحِ[7].

---

(١) يرى الدكتور عبد السلام المسدي (مبادئ اللسانيات، ص ١٤٣) أن العربية تعرف في عملية التع... التركيبي الكلمات العاملة والكلمات المعمولة، وهي تعكس أثر بعضها في بعض في التركيب، فيضبط ذلك الدلالة النحوية التداولية، التي لا نكتشف إلا بالقاعدة.

(٢) عبّر عنه الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف (العلامة الإعرابية، ص ٣٣٢) بالترخص في الع... الإعرابية، فذهب إلى أن النظام اللغوي يسمح ببعض الترخُّص في القرائن التي تعمل متعاونةً على إ... تماسك الجملة، على أن هذا الترخص نفسه جزءٌ من النظام اللغوي يسمح به في الموضع المعين... غرض مخصوص، ومعنى هذا أنه لم يحدث عبثًا أو تلاعبًا، لكنه يُؤتَى به عن قصد وتعمد بهدف إ... أثر معين، ولمّا كان النحاة لا تعنيهم إلا القواعد فقد شغلوا بها دون تبيين ما ترمي إليه هذه الرخص...

(٣) سورة فاطر ٤٣. فقد قرأ حمزة والأعمش (ومكر السيّئْ) بإسكان الهمز. ابن مجاهد، السبع... القراءات، ص ٥٣٥.

(٤) البيت لأبي عمرو بن العلاء، وهو في: ابن يعيش، شرح المفصل، ج ١٠، ص ١٠٤. والفارسي، ... الشعر، ج١، ص ١٠٤.

(٥) البيت بدون نسبة في: العيني، المقاصد النحوية، ج٤، ص ٤٤٦.

(٦) سورة طه: ٦٣.

(٧) البيت للقاسم بن معن في: العيني، المقاصد النحوية، ج ٢، ص ٢٧٩. وقيل إن (أنْ) أهملت هنا...

فقال: أن تهبطينّ، والقياس: أن تهبطي، بحذف النون للنصب.

❖ سياق الاضطراب

قد يكون العامل مؤثرا لكنه غير ثابت في جلب ذلك الأثر على معموله، فيُوصَف طراب؛ لعدم جريانه على حالة واحدة، ولكنه يؤدي أكثر من عمل أو تكون له من وظيفة نحوية، حسب سياقه اللغوي، وهذا يُطلق عليه باضطراب العامل، أو ق الاضطراب، ومن العوامل التي تُوصَف بذلك (لات)، فقد قيل عنها إنها حرف بة (ليس)، ولا أظنّ أن عملها من قبيل الظاهرة الإعرابية بقدر ما يرجع إلى قراءة اة للمعنى وقصديته، في دلالتها على النفي، فكان بإمكانهم أن يقولوا في (حين) في تعالى: (وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ)[1] أنه منصوب على الظرفية، إلا أنهم ذهبوا إلى كونها هة، وتختص بالدخول على الوقت أو الحين اسمًا وخبرًا، مع حذف أحدهما، حذف الأول.

قد جاءت (لات) في الشعر ولا تحتفظ بهذه القيود، نحو قول الشاعر:

ـنت نَـــوَارُ ولاتَ هَنَّـــا حَنَّـــتِ   وبـــدا الّـــذي كانـــتْ نَـــوارُ أجَنَّـــتِ[2]

جعل النحاة (هنّا) بمعنى (حين) وهذا من أجل دخول (لات) عليها، وهي في للمكان[3]، والدافع لهذا التوجيه هو احتفاظ (لات) بالدخول على الحين، فأوّلوا للمكان ليكون للزمان، وهو (هنّا).

ن ذلك مجيء بعض الكلمات متغايرة في التصنيف حسب زعم النحاة، مثل فالمشهور عنها أنها حرف تشبيه وجرّ، إلا أنها تجيء اسمًا، كما في قول الأعشى:

ـونَ وَلَـــنْ يَنْهَـــى ذَوِي شَـــطَطٍ   كالطَّعْنِ يَذْهَبُ فيهِ الزَّيتُ والفُتُلُ[4]

كاف اسم مرفوع على الفاعلية، وفعله هو (ينهى)، والتقدير: ولن ينهى ذوي

() المصدرية، وقيل إنها مخففة من الثقيلة، والأصل: أنك تهبطين، فخففها وحذف اسمها.

ص: ٣.

فيه اختلاف في النسبة فهو لحجل بن نضلة في: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج١، ص ٩٥، بن حنبل في: الآمدي، المؤتلف والمختلف، ص١١٥.

النحاة بهذا البيت على شيئين: الأول أنّ (هنّا) يُشارُ بها إلى الزمان، والأصل أنها للمكان، والثاني أن بنى في (هنّا)، وقيل إن (لات) غير عاملة.

نين الخوارزمي، شرح أبيات المفصل، ج ١، ص ٤٦٢.

ي- خزانة الأدب، ج ٩، ص ٤٥٣.

النحاة بهذا البيت على شيئين: الأول أنّ (هنّا) يُشارُ بها إلى الزمان، والأصل أنها للمكان، والثاني أن بنى في (هنّا)، وقيل إن (لات) غير عاملة.

شطط مثلُ الطعن.

وتكثر في المؤلفات النحوية هذه الظاهرة، فيكون للعامل أكثر من سياق، ولا
من أن يكون أحدهما أكثر شهرةً من الآخر، ومن ذلك:

العامل	السياق الأول	السياق الثاني
أنْ	تنصب الفعل المضارع	تجزم الفعل المضارع
لم	تجزم الفعل المضارع	تنصب الفعل المضارع
إنَّ	ناسخة تنصب المبتدأ وترفع الخبر	ينتصب الطرفان بعدها
لعلّ	تنصب المبتدأ وترفع الخبر	تجر الاسم بعدها
كي	تنصب المضارع	تجر المصدر المؤول
القول بمعنى الظن	فعل متعدٍّ	فعل متعدٍّ لمفعولين[1]
عسى	من أفعال الرجاء	تعمل عمل (لعل)[2]

العوامل السابقة وهي: (أنْ ولم وإنَّ ولعلّ وكي وقال) تحتفظ بالقدرة على
فيما بعدها، غير أنها تؤدي عملاً يوصف بالازدواجية من سياق لآخر.

❖ ج- سياق التجاذب بين الإعراب والبناء:

يؤثر الإعراب في توجيه الدلالة النحوية المعروفة بالدلالة الوظيفية، لما يشك
قرينة دالة على الموقع والرتبة في التركيب بما يحمله من العلامة الإعرابية
وُجدت مجموعة من الألفاظ التي وقعت تحت طائل جدلية الإعراب والبناء
وإن كان الأصل المحفوظ لها هو الإعراب، وتُعرب وإن كان الأصل المحفوظ لها
فهو سياق داخلي للنص[3]. ومنه (لدن)، فالمحفوظ لها أنها ظرف ملازم للإضا

---

(١) نحو قول الراجز:

قالت وكُنتُ رَجُلاً فطينا
هذا لعَمرُ اللهِ إسرائينا

فالمفعول الأول هو (هذا)، والثاني هو (إسرائينا). العيني، المقاصد النحوية، ج ٢، ص ٤٢٥.

(٢) وذلك في قول عمران بن حطان:

وَلِي نَفسٌ أَقولُ لَهَا إذا مَا ... تُنازِعُني لعَلِّي أو عَسَاني

فقد عامل (عسى) معاملة (لعل) فنصب الاسم، وحذف خبرها. الفارسي، كتاب الشعر، ج٢
وسيبويه، الكتاب، ج ٢، ص ٣٧٥.

(٣) تُصنَّف العربية على أنها من اللغات المتصرفة أو التحليلية، ويمتاز هذا القسم بأن كلماته
بتغير مبانيها، وبأن أجزاء الجملة يتصل بعضها ببعض بروابط مستقلة تدل على العلاقات
عبد الواحد وافي، نشأة اللغة عند الإنسان والطفل، ص ٥٧، ٥٨.

كقوله تعالى: {وعَلَّمْنَاهُ مِن لَدُنَّا عِلْمًا}[1]، لكنه ورد معربًا في رواية أبي بكر عن
{لِيُنذِرَ بأسًا شديدًا منْ لَدُنِهِ}[2]، وربما يكون مثله قول الشاعر:

يستَهِضُ الرِّعْـــدَةُ فـــي ظُهَيـــرِي ... مِـــنْ لَـــدُنِ الظُّهْـــرِ إلـــى العُصَـــيْرِ[3]

فيها احتمالان في (لدن): الأول أنها أُعْرِبَتْ على لغة قيس، فجُرَّتْ بالكسرة، والثاني
كُسِرتْ لالتقاء الساكنين. ومنه (معْ)، فهي اسم مكان الاصطحاب أو وقته،
الجمهور فيها أنها معربة، ففتحتها فتحة إعراب، لكن تتجاذبها حالة أخرى، فتجيء
العين، ويرى النحاة أنها حالة بناء، ومنه قول جرير:

فريشِي مِـــنكُمْ وهَـــوايَ مَعْكُـــمْ ... وإنْ كانَـــــتْ زِيـــــارَتُكُمْ لِمامَـــــا[4]

وعد النحاة مجموعةً من الحالات التي يوجد فيها ذلك السياق، نحو (قبل وبعد
فتأتي معربة ومبنية حسب السياق.

سياق الضرورة

أقر في النظام التركيبي المتداول ما يُسمّيه النحاة بالضرورة، ولا سيما في
وقد قال بهذا سيبويه، عندما فرّق بين لغة الشعر ولغة النثر، فذكر أنه يجوز
ربما لا يجوز في النثر[5]، وهذا السياق له طبيعته الخاصة التي اضطرت
إلى أن يخالف القاعدة المشهورة، وينحو بها نحوًا آخر، ولقد امتلأت كتب
، وألّف فيها جمع من النحاة[6].
القول بالضرورة في كثير من الأحيان يصيب البحث بالتوقف، وعدم الاجتهاد
على أمثلة تركيبية متغايرة، وهو ما يفسّر اللغات التي تطورت عنها النماذج

الكهف: ٦٥.
الكهف: ٢.
في الرجز، لراجز من طيّئ، في: العيني، المقاصد النحوية، ج٣، ص ٤٢٩، وابن جني، الخصائص، ٢٣٥.
: من لدنِ، بكسر نونها، إمّا على أنها اسم مجرور بـ(مِنْ) على لغة قيس، وإمّا لأنها مبنية على كُسِرت لالتقاء الساكنين.
جرير في ديوانه ٢٢٥، والعيني، المقاصد النحوية، ج٣، ص ٤٣٢، وللراعي النميري في ملحق ديوانه سيبويه، الكتاب، ج٢، ص ٢٨٧.
الكتاب، ج ١، ص ٢٦.
الكتب: ما يجوز للشاعر في الضرورة، للقزاز، وقد حققه الدكتور رمضان عبد التواب، وضرائر ابن عصفور.

المعاصرة في الفترة اللغوية المتزامنة مع البحث، نحو قولهم بفكّ التثنية للضرورة في قول الراجز:

كـــــأنَّ بـــــينَ خِلْفِهـــــا والخِـــــلْفِ
كَشَّـــةُ أفْعَـــى فـــي يبـــيسٍ قُـــفِّ(١)

فلم يقل: بين خِلْفَيْها، وإنما قال: بين خِلْفِها والخِلْف، بإفراد المتعاطفين، وهذا يدلُّ على أن أصل المثنّى العطف بالواو، غير أنه وُضِعت صيغة المثنّى للاختصار.

ومثله قول الراجز أيضًا:

لَيْـــثٌ ولَيْـــثٌ فـــي مجـــالٍ ضَـــنْكِ
كلاهمـــــا ذو أشَـــــرٍ ومَحْـــــكِ(٢)

فلم يقل (ليثان)، وإنما قال: ليث وليث.

ومثله قول الراجز أيضًا:

كـــــأنَّ بـــــينَ فَكِّـــــها والفَـــــكِّ
فَـــارةُ مِسْـــكٍ ذُبِحَـــتْ فـــي سُـــكِّ(٣)

فالمراد: بين فكَّيْها، لكنه جاء بها على إفراد المتعاطفين ضرورةً.

وربما تُعلّل الضرورة هنا لتعمُّد ذكر الفرق بين المتعاطفين، فهما ليسا متطابقين، فالليث الأول غير الثاني، والفك الأول غير الثاني كذلك، من رؤية الشاعر، فلجأ إلى فكّ التثنية.

ومن هذا قول طرفة:

اضْـــرِبَ عنـــكَ الهُمُـــومَ طارِقَهـــا   ضَـــرْبَك بالسَّـــوْطِ قَـــوْنَسَ الفَرَسِ

والأصل فيه (اضرِبَنْ) بنون التوكيد الخفيفة، حُذِفَت للضرورة، وبقيت الفتحة، وقد تكون طريقة النطق في زمنه بنونٍ خفيّة، لكنها لا تؤثر في الوزن، مما أتاح له فرصة التحقق منها.

ومثله ما عبّر عنه النحاة بأقبح الضرورات، في قول العجّاج:

---

(١) رجز بدون نسبة في: ابن الأنباري، أسرار العربية، ص ٤٨.

(٢) الرجز لواثلة بن الأسقع أو لجحدرين ما لك في: البغدادي، خزانة الأدب، ج ٧، ص ٤٦١.

(٣) الرجز لمنظور بن مرثد في: البغدادي، خزانة الأدب، ج ٧، ص ٤٦٢.

(٤) البيت في: فخر الدين الخوارزمي، شرح أبيات المفصل ج١، ص ٤٣٨، وابن يعيش، شرح المفصل ص١٠٧.

والشاهد فيه: اضربَ، فقد حذف نون التوكيد في الوصل دون ساكن، وهذا نادر.

(٥) وفي جلال الدين السيوطي، شرح شواهد المغني، ج ٢، ص ٩٢٣ أنه مصنوع عند ابن بري.

قد رأى الــرّاؤونَ غيــرَ البُطّــلِ   إنّــكَ يــا مُعَــاوِ يــا ابــنَ الأفضــلِ[1]

فلقد جاء (معاوية) مرخَّمًا مرتين، حسب ما ذُكر، فإنه رُخِّم أولاً فأصبح (معاوي)، ورُخِّم ثانيًا فصار (معاو)، وهذا ضرورة.

وكان من المفيد أن يعالج هذا وفق سياقه وما نجم عنه من دلالة قد تفيد.

❖ الثاني: السياق الخارجي:

(٣ – ٢)

❖ الخصوصيــة اللهجيــة:

نلاحظ كما سبق أن الشواذ تحمل خصائص لهجية، وقد أشار النحاة إلى ذلك، فيما يسمّى بألقاب اللهجات[2]، وإن غلبت على قضايا الأصوات والصرف، وقليل في النحو مثل (ما) الحجازية و(ما) التميمية.

ومن أمثلة ذلك في التركيب: مجيء (الَّذُون) في حال الرفع بالواو والنون، أما اللغة المتداولة بين العرب للاسم الموصول لجمع المذكر فهي صيغة (الذين)، وهو مبني على آخره، إلا أن هناك لغةً نادرة جاءت عن قبيلة هذيل، وهي (الَّذون) في قول

نحــــنُ الَّــــذُونَ صَبَّــــحُوا الصَّــــبَاحَا
يَــــوْمَ النُّخيــــلِ غــــارةً مِلْحَاحَــــا[3]

وعن آراء النحويين في الكلمة فمتعددة، فهي مرفوعة على أنها معربة إعراب جمع المذكر السالم، وهي ليست جمع مذكر سالم على وجه الحقيقة، وهي أيضًا مبنية على صورة المعرب، وقيل إنها مبنية على الواو والياء.

ومن ذلك قول الشاعر:

---

(1) ...ان في ديوانه ١/ ٢٥٦، وسيبويه، الكتاب، ج ٢، ص ٢٥٠، والبغدادي، خزانة الأدب، ج ٢، ص ٣٧٨.

(2) ... الكشكشة والشنشنة والكسكسة والعنعنة والفحفحة والعجعجة والعجرفية والغمغمة والتلتلة ... أحمد علم الدين الجندي، اللهجات العربية في التراث، ص(٣٥٩) ٤١٦.

(3) ...ني، المقاصد النحوية، ج١، ص ٤٢٦، والبغدادي، خزانة الأدب، ج٦، ص ٢٣. وقد اختلف في ... فقيل إنه رجل جاهلي من بني عقيل، اسمه أبو حرب الأعلم، وقيل إنها ليلى الأخيلية، وقيل إنه ... إلى آخر ذلك من اضطراب نسبة البيت.

عَزَمْتُ على إقامةِ ذِي صَبَاحٍ   لأمرٍ ما يُسَوَّدُ مَنْ يَسُودُ

فـ(ذا) في قوله (ذي الصباح) من الظروف اللازمة غير المتمكنة، ولا يجوز جرُّها في لغة قوم من خَثْعَم. ومن ذلك قول جذيمة الأبرش:

رُبَّما أَوْفَيْتُ في عَلَمٍ   تَرْفَعَنْ ثَوْبِي شَمالاتُ

يأتي هذا البيت شاهدًا على توكيد الفعل بالنون الخفيفة (ترفعن) ضرورة، في (ما) المسبوقة بـ(رُبَّ)، وهذا نادرٌ. وذهب الشيخ محمود شاكر في تحقيقه لطبقات فحول الشعراء[٣] في تعليقه على هذا البيت إلى أنها لغة قديمة، لم يجعلها اضطرارًا.

ومن أمثلة ذلك أيضًا هذه اللغات:

اسم الظاهرة	اللهجة
إسكان أواخر الكلمات بإسقاط العلامة الإعرابية	لغة لبني تميم وعلى وفاقها جاءت أحـ من قراءة أبي عمرو بن العلاء[٤]
إلزام المثنى الألف	لغة بني الحارث بن كعب[٥]
نصب اسم (إنّ) وخبرها	لغة لبعض العرب[٦]
عدم جزم المضارع المعتل بحذف حرف العلة	لغة طيئ وبعض بني عبس وبعض حنيفة[٧]
(ما) الحجازية والتميمية	لغة الحجاز وبني تميم[٨]
جزم المضارع المعتل في غير موضع الجزم	لهجة هذيل[٩]
جزم الفعل الصحيح الآخر في غير موضع الجزم	لغة بني عبس وبني ضبة[١٠]

---

(١) البيت لأنس بن مُدرِكة الخَثْعَمي في: فخر الدين الخوارزمي، شرح أبيات المفصل، ج ١، والبغدادي، خزانة الأدب، ج ٣، ص ٨٧. ونُسب إلى أنس بن نهيك في: ابن منظور، اللسان (صبح)، ص ٥٠٣.

(٢) الفارسي، كتاب الشعر، ج٢، ص ٣٩٢، وسيبويه، الكتاب، ج٣، ص ٥١٨.

(٣) ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج١، ص٣٨.

(٤) محمد حماسة عبد اللطيف، العلامة الإعرابية، ص ٣٤٨.

(٥) المرجع السابق، ص ٣٤٧.

(٦) المرجع السابق، الصفحة نفسها. وقد خرّج أبو حيان قراءة سعيد بن جبير: {إنّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَالَكُمْ} سورة الأعراف: ١٩٤. وانظر: أبو حيان، البحر المحيط، ج ٤، ص ٤٤٤.

(٧) محمد حماسة عبد اللطيف، العلامة الإعرابية، ص ٣٤٨.

(٨) سيبويه، الكتاب، ج١، ص ٢٨.

(٩) الزمخشري، الكشاف، ج ٢، ص ٢٣٥.

(١٠) الفراء، معاني القرآن، ج ١، ص ١٦١.

عراب (لدن)	لغة قيس[1]
الجزم بـ(أن)	لغة بني صباح من ضبة[2]
جزم بـ(لو)	لغة قوم[3]
نصب بـ(لم)	بعض العرب[4]
نون المثنّى	لغة عن العرب[5]
ت) تنصب المبتدأ والخبر	لغة لبعض العرب[6]
ف نون المثنى من (اللتان)	عند بعض ربيعة وبلحارث[7]
نون المثنى وضمُّها	لغة عن العرب[8]
خرف جر	لغة عقيل[9]
ألف المقصور ياء في حال الإضافة (...	لغة هُذَيل[10]
جر ما بعدها	لغة هذيل[11]
...	لهجة ربيعة[12]
-(لدن)	لهجة (قيس)[13]
ألف (أنا) في الوصل كما في الوقف	لغة بني تميم[1]

شرح ابن عقيل، ج ٢، ص ٦٥. وهناك قراءة موافقة للغتهم، وهي قراءة أبي بكر عن عاصم: (قَيِّمًا
سًا شديدًا من لَدْنِهِ) سورة الكهف: ٢، بكسر نون (لدن) وهي رواية أبي بكر. انظر: الواسطي،
القراءات العشر، ج٢، ص ٥٤٣.
سامة عبد اللطيف، العلامة الإعرابية، ص ٣٤٨.
السابق، والصفحة نفسها.
السابق، والصفحة نفسها وعليها جاءت قراءة أبي جعفر المنصور: (ألم نشرحَ لك صدرك). انظر:
المحتسب، ج٢، ص٣٦٦.
ح ابن عقيل، ج ١، ص ٧٠.
قول رؤبة أو أبيه العجاج:

يـا ليـت أيّـام الصِّـبا رواجعـا

ح المفصل، ج ١، ص ١٠٤.
خزانة الأدب، ج ٦، ص ١٤.
يعيش، شرح المفصل، ج ٣، ص ١٢٩، ج٤، ص ٦٤. والبغدادي، خزانة الأدب، ج ٧، ص

ابن عقيل، ج٢، ص ٨.
الخوارزمي، شرح أبيات المفصل، ج ١، ص ٢ (٥٠٢) ٥٠٤.
ابن عقيل ج٢، ص ١٠.
ابن عقيل ج ٢، ص ٦٧.
ابن عقيل ج ٢، ص ٦٥.

إجراء الوقف مجرى الوصل	لغة بعض العرب[1]

❖ الجغرافيا اللغوية

يرى بعض الباحثين أن الجغرافيا اللغوية لم تُعرف بشكل دقيق في تراثنا اللغوي[2]، معتمدًا على أنه لم تفرد لها دراسة، ولكن في الحقيقة توجد إشارات واضحة ترجّح معرفتهم بأثر المكان في الخصائص اللغوية، ولقد كانت هناك إشارة للبعد المكاني من خلال الألقاب التي كانوا يطلقونها خاصة على الشعراء[4]، وكذلك في منهجهم في الاستشهاد بالنثر.

وفي العصر الحديث أُطلق على مجموعة النقاط السكانية أو الجماعات التي يجمعها عدد من ظواهر الاستعمال اللغوي الموحد بينها والمائز عن غيرها الكيانات اللغوية[5]، التي تحدّ كلاًّ منها حدود حسب ما يعرف بنقاط الجذب التوزيعي، أو الحزم التوزيعية[6].

ويؤكد جان روسو على أثر الجغرافيا في اللغة الفرنسية فيقول: (لغات الجنوب لا بدّ أنها كانت حيةً ورنانةً ونابرة وبليغة وكثيرة الغموض من فرط مكانتها، أما لغات الشمال فلا بدّ أنها كانت صمّاء خشنة مقطعة وحادة ورتيبة وواضحة من فرط

---

(١) كما في قول أبي النجم:

أنا أبو النجم وشعري شعري

انظر: البغدادي، خزانة الأدب، ج ١، ص ٤٣٩.

(٢) نحو قول أبي النجم:

واللهُ نجّاك بكفّي مُسلمتْ
من بعدما وبعدما وبعدمتْ
كانتْ نفوسُ القومِ عندَ الغلصمتْ
وكادتِ الحُرّةُ أنْ تُدعَى أمَتْ

انظر: ابن منظور، اللسان (ما)، ج ١٥، ص ٤٧٢، والعيني، المقاصد النحوية، ج ٤، ص ٥٥٩.

(٣) سعد مصلوح، في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، ص ١٧٣.

(٤) نحو: الأحنف بن قيس، والأحول الأزدي أو الكندي، وابن أحمر الكناني، والأخضر بن هبيرة ال... وأعشى قيس، وأعشى باهلة، ومجموعة الشعراء الهذليين... وغيرهم.

(٥) سعد مصلوح، في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، ص ١٧٣.

(٦) ويذكر الدكتور سعد مصلوح (في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية ١٦٤، ١٦٥) مناطق الك... اللغوية على النحو التالي: المنطقة المركزية: وتبدو متجانسة نسبيًا من حيث السلوك اللغوي، وال... الانتقالية: تتميز بزيادة درجة التنوع اللغوي، والجزر اللغوية: وهي مناطق معزولة لغويًا عمّا حولها... باستعمال لغوي يخالف سائر النقاط المحيطة، ومنطقة المخلفات اللغوية: وهي نوع من الجزر الل... إلا أنها تختلف عن الجزر الأخرى بأن الظاهرة الاستعمالية التي تميزها تنتمي إلى مراحل زمنية م... من تاريخ اللغة.

...ها من الكلمات لا من حسن تركيبها))[1].

ولقد كانت الخريطة عند اللغويين القدامى في الاعتداد بالاستشهاد بالنثر، وقد تجلّت في تقسيمهم للقبائل على أساس جغرافيا اللغة، فعندما تقترب القبيلة من قريش فيعتدّ بكلامها، وكلما اقتربت من العجم قلت فصاحتها. وفي ذلك يشير السيوطي[2] إلى أنه لا تؤخذ اللغة عن حضريّ قط، ولا عن سكان البوادي ممّن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين هم حولهم، فإنه لم يؤخذ عن لخم ولا عن جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط، ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام، وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرية، ولا من تغلب واليمن، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر لمجاورتهم القبط والفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز؛ لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب، وقد خالطهم غيرهم من الأمم، فسدت ألسنتهم.

الخبر السابق يدلنا على أن البعد الجغرافي كان مهمًا في قبول اللغة أو رفضها من قبل اللغويين، كما يدلّ على معرفتهم بخريطة القبائل العربية.

ومن ذلك قول أحد أهل اليمن أو رؤبة:

(أيُّ قَلُوصِ رَاكِبٍ تَرَاهَا ... طَارُوا عَلاهُنَّ فَطِرْ عَلاهَا)[3]

فقال (علاهُنّ) و(علاها)، والقياس: عليهنّ وعليها، ولكن لغة أهل اليمن تقلب الياء الساكنة المفتوح ما قبلها ألفًا[4]، وهذا الرجز من كلامهم.

وهناك لغات كثيرة تُصنف تصنيفًا إقليميًا، نحو (ما) الحجازية و(ما) التميمية وغيرها.

❖ سياق الموقف

يتلخص سياق الموقف في ربط الألفاظ بالحدث أو بالواقعة قبل أو في أثناء الاستشهاد، ويشمل كذلك الألفاظ التي تُذكر خلال التفوّه بالشاهد، من خلال سرد

---

(1) جان جاك روسو، محاولة في أصل اللغات، ص ٧٠.

(2) السيوطي، المزهر، ج ١، ص ٢١١، ٢١٢.

(3) نسب الرجز إلى أحد أهل اليمن في: العيني، المقاصد النحوية، ج ١، ص ١٣٣، ولرؤبة في ملحق ديوانه ...

(4) يبدو أن (على) تمثل إشكالية في التصنيف، فهي موزعة بين الحرفية والفعلية والاسمية، ولغة اليمن ... بين كونها فعلاً وحرفًا، فصورتها الحرفية هنا هي صورة الفعل.

قصة أو حادثة ترتبط بموضوع النص، فذلك يجعل القارئ متفاعلاً مع قصد المتكلم الذي عليه حال المتلفظ بالكلام، وهذا له في كتب النحو وقفة مطولة، خاصة كتب الشواهد وشروحها، فإنه يُختار ذكر الموقف للحاجة الإعرابية وتوضيح وجهه النحوي وشرح ما ينطوي عليه من دلالة.

ومن سياق الموقف ما اشتهر عن ثقة الراوية، فإنه يمثل موقفًا يُبين عن سلامة الأخذ به من عدمه فقد اشتهر رواة أهل الكوفة في وضع الشعر، ولعلّه كان سببًا في أن يشكّل موقفًا مضادًا للثقات من رواتهم، فصرف الناس إلى عدم الاعتداد بما يروونه يستدلون به، فصار هذا ونحوه كالمعدم، فالشعر الذي جاء من ناحية حماد الراوية وخلف الأحمر مشكوك فيه عند أهل البصرة، وقد أشار ابن سلاّم الجمحي[1] إلى أن حماد من وضع الشعر، فهو عنده أول مَن جمع أشعار العرب، وتنسبها إلى غير أصحابها، ويزيد في الأشعار، ويقول يونس[2]: العجب لمن يأخذ عن حماد، وكان يلحن ويكذب ويكسر.

ويورد ابن جني[3] سياقًا يُبين فيه عن ثقة أبي عمرو بن العلاء، فيذكر أنه لم يزد في شعر العرب إلا بيتًا واحدًا، وهو ما يرويه منسوبًا للأعشى:

وأنكرتْني وما كان الذي نكرت   من الحوادث إلا الشَّيب والصَّلَعَ

ويعلّق ابن جني على الخبر بقوله: (أفلا ترى إلى هذا البدر الطّالع الباهر والبحر الزّاخر، الذي هو أبو العلماء وكهفهم، وبدء الرُّواة وسبقهم، كيف تخلّصه من تبعات هذا العلم وتحرُّجه وتراجعه فيه... حتّى إنه لمّا زاد فيه على سعته وانبثاقه وترامي وانتشاره بيتًا واحدًا وفّقه الله للاعتراف به)[5].

ولقد اشتُهر عن أبي علي الفارسي[6] الاستشهاد بشعر المولدين في النحو، وحاول عبد القاهر الجرجاني جهده أن ينفي عنه هذه التهمة، إلا أن محاولته لم تلق نجاحًا لاشتهاره بذلك.

ونحو ذلك بيت الفرزدق:

فَلَوْ كَانَ عَبْدُ اللهِ مَوْلًى هَجَوْتُهُ   ولكِنَّ عَبْدَ اللهِ مَوْلَى مَوالِيَا

---

(١) ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج١، ص ٤٨.
(٢) السيوطي، المزهر، ج ١، ص ١٧٦.
(٣) ابن جني، الخصائص، ج ٣، ص ٣١٠.
(٤) ابن جني، الخصائص، ج ٣، ص ٣١٠.
(٥) ابن جني، الخصائص، ج ٣، ص ٣١٠.
(٦) انظر هذا الخبر في: مقدمة كتاب الشعر، ج ١، ص ٧٤.
(٧) انظر: سيبويه، الكتاب، ج٣، ص٣١٣، وابن يعيش، شرح المفصل، ج ١، ص٦٤. وهذا البيت

فهناك قصة لهذا البيت يرويها النحاة واللغويون، وهي أن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي كان يتربص بالفرزدق في شعره، مظهرًا ما فيه من أخطاء، فكان ذلك البيت من الفرزدق يهجوه فيه، وما لبث أن قال له عبد الله بن أبي إسحاق: وفي ذلك لحنتَ أيضًا، وكان حقُّك أن تقول: مولى مواليَ، فهي قصة مشهورة، تمثل سياقًا لذلك الموقف.

ومن القصص التي تُحكى عن حال الرُّواة من حيث الضبط ما قُصّ من نبأ الأصمعي في زيارته لولد سعيد بن سلْم الباهلي، فسألهم عما يَرْوُونَهُ من الشعر، فأنشده بعضهم القصيدة التي فيها:

تمزن الضواحي لم تُؤَرِّقْهُ ليلـة — وأنْعَمَ أبكارُ الهموم وعُونِها[1]

فقال الأصمعي: مَنْ رِوّاك هذا الشعر؟ قال: مؤدّبٌ لنا يُعرَف بابن الأعرابي، فقال: أحضروه، فأحضَرُوه، فقال له: هكذا روَّيْتَهم هذا البيت برفع (ليلة)؟ قال: نَعَم، قال الأصمعي: خطأ، وإنما الرِّواية (ليلةً) بالنصب[2].

إن القصص التي كانت تتردد بين النحاة عن أمر أحدهم مثّلت وقائع لغوية، بُني أساسها مبدأ تواصلي موثوق به مع روايته، وربما كان نتاجها الخلافات المذهبية الكثيرة بين قادة الفكر النحوي، من بصرة وكوفة وغيرهم.

مما سبق نستطيع الإشارة بإيجاز إلى أهم ما يمكن استخلاصه من محاور البحث:

- إن الأدوات التي ينبغي أن يمتلكها محلل النصوص لا بد أن تمتاز بما يُعرف بالكفاءة التداولية، وهي مجموعة من خمس ملكات؛ هي: اللغوية والمنطقية المعرفية والإدراكية والاجتماعية.
- لا بدّ من دراسة اللغة، مفرداتها وتراكيبها، دراسة تاريخية، رغم صعوبة ذلك، وذلك من خلال النظر في شواهدها وأمثلتها ونماذجها التي تكثر في كتب النحو واللغة.
- السياق له دور كبير في فهم ظاهرة الشواذ، بردّها إلى المستوى الاستعمالي ودراستها في هذا الإطار، يستوي في ذلك سياق النص الداخلي، وسياقه الخارجي.
- لا بدَّ من إفادة النحو من علم الصرف، فالصيغة وهي شغل الصرفيين

النحاة على معاملة الاسم المنقوص الممنوع من الصرف في حال الجر معاملة الصحيح، فأثبت الياء، [و]فتحها بالفتحة نيابة عن الكسرة، وهذا شاذٌّ.

[1] السيوطي، المزهر، ج ٢، ص ٣٢٢.

[2] السيوطي، المزهر ج ٢، ص ٣٢٢.

يمكن أن تقدم حلولاً كثيرة لبعض ظواهر التركيب.

- إن مخالفة الأصل النحوي واللغوي ليست نوعًا من الخطأ أو اللحن، ما هي ظاهرة اجتماعية ناتجة عن واقع لغوي له خصوصيته.

❖ المصادر والمراجع

- أحمد بن فارس، الصاحبي، مطبعة المؤيد، القاهرة ١٩١٠م.
- أحمد علم الدين الجندي (دكتور)، اللهجات العربية في التراث، الدار العربية للكتاب ١٩٨٣م.
- أحمد محمد قدّور (دكتور)، مبادئ اللسانيات، ط٢، دار الفكر المعاصر، لبنان، ١٩٩٩م.
- إدريس مقبول (دكتور)، الأسس الإبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، عالم الكتب الحديث، الأردن ٢٠٠٧م.
- الآمدي، المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء، ط٢، (مطبوع مع معجم الشعراء للمرزباني)، مكتبة القدسي، القاهرة ١٩٨٢م.
- ابن الأنباري:
  - أسرار العربية، تحقيق محمد بهجة البيطار، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق ١٩٥٧م.
  - الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، تحقيق الدكتور جودة مبروك محمد، مكتبة الخانجي – القاهرة ٢٠٠٢م.
- أندريه، جاك ديشين، استيعاب النصوص وتأليفها، ترجمة هيثم لمع، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت١٤١١هـ=١٩٩١م.
- تمام حسان (دكتور)، اللغة بين المعيارية والوصفية، ط٤، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- توفيق الزيدي، أثر اللسانيات في النقد الأدبي، الدار العربية للكتاب، تونس ١٩٨٤م.
- جان جاك روسو، محاولة في أصل اللغات، ترجمة حمد محجوب، تقديم الدكتور عبد السلام المسدي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد (د.ت).
- ابن جني:
  - الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، القاهرة ١٩٥٢م.
  - المحتسب في تبيين وجوه شواذّ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق علي النجدي وعبد الحليم النجار وعبد الفتاح إسماعيل شلبي، لجنة إحياء التراث الإسلامي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ١٣٨٦هـ.
- جوناثان كلر، فردينانـد دي سوسير (أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامات)، ترجمة الدكتور عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة ٢٠٠٠م.
- أبو حيان، البحر المحيط، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، لبنان، ١٩٩٠م.

- ردة الله الطلحي (دكتورة)، دلالة السياق، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ١٤٢٣هـ
- رؤبة بن العجاج، الديوان، تحقيق وليم بن الورد، ط٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٠م.
- ريمون طحان(دكتور)، الألسنية العربية، ط٢، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨١م.
- سامي أدهم، فلسفة اللغة، تفكيك العقلي اللغوي، بحث إبستمولوجي أنطولوجي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.
- سعد مصلوح(دكتور)، في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، سعد مصلوح، عالم الكتب – القاهرة ٢٠٠٦م.
- سعيد الأفغاني، في أصول النحو، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٨٧م.
- عبد السلام المسدّي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، طرابلس الغرب ١٩٨١م.
- ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق الشيخ محمود شاكر، دار المدني، جدة (لا ت).
- سمير شريف استيتية(دكتور)، اللسانيات (المجال والوظيفة والمنهج)، عالم الكتب الحديث، الأردن ٢٠٠٥م.
- سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٨م.
- السيرافي، شرح أبيات الكتاب، دار المأمون، دمشق ١٩٧٩م.
- السيوطي:
  - الاقتراح، مطبعة دائرة المعارف، حيدر أباد– الهند ١٣١٠هـ
  - شرح شواهد المغني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت (لا ت).
  - المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد جاد المولى وعلى البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط٣، دار إحياء الكتب العربية، (لا ت).
- علي عبد الواحد وافي (دكتور)، نشأة اللغة عند الإنسان والطفل، نهضة مصر، القاهرة ٢٠٠٣م.
- العيني، المقاصد النحوية، بهامش خزانة الأدب، دار صادر، بيروت.
- الفارسي، كتاب الشعر(أو الأبيات المشكلة الإعراب)، تحقيق الدكتور محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٨م.
- فتحي عبد الفتاح(دكتور)، ظاهرة الشذوذ في النحو العربي، وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٧٤م.
- فخر الدين الخوارزمي، شرح أبيات المفصل، دراسة وتحقيق محمد

رمضان، منشورات كلية الدعوة الإسلامية – الجماهيرية الليبية ١٩٩٩م.

- أبو الفداء، الكناش في النحو والتصريف، تحقيق ودراسة الدكتور جودة مبروك محمد، ط٢، مكتبة الآداب، القاهرة ٢٠٠٥م.
- الفراء، معاني القرآن، تحقيق محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠م.
- عبد القادر البغدادي:
  - خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٥م.
  - شرح شواهد الشافية (مطبوع مع شرح الشافية)، تحقيق محمد نور الحسن ومحمد الزفزاف ومحمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٢م.
  - علي أبو المكارم (دكتور)، تقويم الفكر النحوي، دار غريب ، القاهرة ٢٠٠٥م.
- أبو علي القالي، ذيل أمالي القالي (مطبوع مع الأمالي)، دار الكتاب العربي، بيروت، (لا ت).
- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط٣، (لا توجد بيانات نشر)، ١٩٧٧م.
- قيس بن زهير، الديوان، تحقيق عادل جاسم البياتي، النجف ١٩٧٢م.
- الكنغراوي، الموفي في النحو الكوفي، شرح محمد بهجة البيطار، المجمع العلمي بدمشق (لا ت).
- ابن مالك، شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة دار العروبة (بدون تاريخ).
- المبرد، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ١٩٧٢م.
- ابن مجاهد، السبعة في القراءات، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة١٩٧٢م.
- محمد بركات حمدي، مفهوم المعنى بين الأدب والبلاغة، دار البشير، الأردن ١٩٨٨م.
- محمد حماسة عبد اللطيف(دكتور)، العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث، دار غريب، القاهرة ٢٠٠١م.
- محمد حماسة عبد اللطيف(دكتور)، النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، ط٢، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- محمد خليفة الدناع (دكتور)، مسالك النحاة في وجوه الروايات عرض ودراسة لشروح أبيات الكتاب، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي

١٩٩٦م.
- محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، اللغة (دفاتر فلسفية، نصوص مختارة)، دار توبقال، المغرب ١٩٩٤م.
- محمد عبد القادر(دكتور)، ظاهرة التأويل في إعراب القرآن الكريم (دراسة تحليلية لموقف النحاة من القراءات القرآنية المتواترة التي تتعارض مع القواعد النحوية)، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- محمد مفتاح (دكتور)، التلقي والتأويل مقاربة نسقية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ١٩٩٤م.
- محمود الطناحي(دكتور)، في اللغة والأدب دراسات وبحوث، دار الغرب الإسلامي، بيروت ٢٠٠٢م.
- ابن منظور، لسان العرب، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢م.
- ناصر المبارك، الظاهر اللغوي في الثقافة العربية، دراسة في المنهج الدلالي عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن ٢٠٠٤م.
- النحاس، إعراب القرآن، تحقيق زهير غازي زاهد، عالم الكتب ١٩٨٥م.
- نعوم تشومسكي:
  - اللغة والمسؤولية، ترجمة الدكتور حسام البهنساوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة ١٩٩٩م.
  - اللغة ومشكلات المعرفة، ترجمة الدكتور حمزة بن قبلان المزيني، دار توبقال للنشر، المغرب ١٩٩٠م.
- عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب الأصولي مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، بيروت ٢٠٠٤م.
- ابن هشام، شرح شذور الذهب، تحقيق عبد الغني الدقر، دار الكتب العربية (لا ت).
- الواسطي، الكنز في القراءات العشر، تحقيق الدكتور خالد أحمد المشهداني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٤م.
- يحيى رمضان(دكتور)، القراءة في الخطاب الأصولي الاستراتيجية والإجراء، عالم الكتب الحديث، إربد ٢٠٠٧م.
- ابن يعيش، شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت (لا ت).

الاستدلال على المغزى المقصود من الفعل الكلامي غير المباشر

بين الفعليات* الحديثة والتراث اللغوي العربي

أ.م. هشام إبراهيم عبد الله الخليفة*

❖ مدخل

البحث الحالي هو محاولة لتأصيل (نظرية الفعل الكلامي) *Speech Act Theory* ظهرت في العصر الحديث على يد اللغويين والفلاسفة الغربيين مثل جون أوستن *J.A* وجون سيرل *J.Searle* وبيان سبق اللغويين العرب والمسلمين في تأسيسها. البحث يركز بشكل خاص على ظاهرة أفعال الكلام غير المباشرة *indirect Speech A* التي أقترن اسمها بالفيلسوف *Searle* يبدأ البحث بتقديم مركز جداً (سيرل) في الفعل الكلامي غير المباشر: تعريفه ومصدر وجوده وعلاقته بفرضية الحرفي والخطوات الاستدلالية التي توصل المستمع إليه. ثم تناول بقية البحث اللغويين العرب ولاسيما البلاغيين في الكشف عن هذه الظاهرة ابتداء من الجرجاني والسكاكي للاستدلال في الكشف عن المغازي والمقاصد الفعلية بصورة عامة ومروراً بتحليل ظاهرة المجاز المركب التي استعملها البلاغيون في الفعل الكلامي غير المباشر بالمصطلح المعاصر. وفي الختام سيتم التركيز على البلاغيين من شراح التلخيص لتحليل أفعال الكلام غير المباشرة ولاسيما للخطوات الاستدلالية التي يستعملها المستمع للوصول إلى المغزى المقصود من والتي نكاد تكون مطابقة للخطوات التي أوردناها من مقالة (سيرل) بشأن نفسه. كل ذلك من خلال أمثلة اقتبست من شراح التلخيص وبخاصة (ابن المغربي) في كتابه (مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح) ونتيجة البحث هي

مصطلح (الفعليات) واستعمله في مقابل *Pragmatics* بدلاً من المصطلح المتداول (التداولية) اللغة التداولي)، فهو يشمل ماتعنيه حين نتكلم عن المعنى أو المغزى (الفعلي) للكلام تمييزاً عن اللغوي الوضعي الذي هو موضوع علم الدلالة. وفضلاً عن ذلك فإن أصل الكلمة الاغريقية *P* التي اشتق منها المصطلح تعني (الفعل). ومن المصطلح اشتققتُ النسبة (فعلياني) واسم (الفعليات) على غرار (الرياضيات).

التدريب والتطوير التربوي

أن ما يسميه اللغويون الغربيون (أفعال الكلام غير المباشرة) هي الظاهرة نفسها التي يشير إليها البلاغيون العرب عند الحديث عن خروج الكلام لا على مقتضى الظاهر أي خروجه عن معناه الحرفي لإفادة معان مجازية بحسب السياق، وإن خطوات الاستدلال التي يستعملها المستمع هي واحدة في الحالتين.

❖ **نظريــة سيرل** *Searle*

إن المستمع حين يسمع المتكلم ينطق بقولة ما، فإنه يحتاج إلى ما يساعده في تحديد المغزى الكلامي الذي قصده المتكلم. ومن الأشياء التي يفيد المستمع منها في هذا المجال الشكل اللغوي للقولة.وكان سيرل قد اختصر هذا الجانب تحت تسمية (الوسائل الدالة على المغزى الكلامي) *illocutionary force indicating devices* (ودمك)*IFIDs* وهي تشمل أولاً: (لفظ الفعل الإنجازي)*Performative Verb*. أما الـ (ودمك) الثانية فهي (الصيغة النحوية) *(mood)* فنحن نعرف أن أغلب اللغات فيها صيغ نحوية مرتبطة بمغاز كلامية معينة كما في حالة صيغ: الخبر والاستفهام والأمر والتعجب.. التي قد ارتبطت في العرف بانجاز الأفعال الكلامية: الإخبار، والاستخبار، الطلب، والتعجب على التوالي. وذلك مما حدا ببعض اللغويين إلى اعتبار هذه المغازي جزءاً من المعنى الدلالي لتلك الصيغ.

إن هذه الوسيلة الثانية هي أيضا لايمكن الاعتماد عليها. ففي الإمكان التعبير عن أي من المغازي الكلامية باستعمال أي من الصيغ النحوية. ومن الناحية الثانية في الإمكان استعمال أي من الصيغ النحوية في التعبير عن العديد من المغازي الكلامية المختلفة.

إنَّ أشهر الحلول للمشكلة التي تولّدها هذه الجمل هو نظرية (سيرل) حول (أفعال الكلام غير المباشرة)*Indirect Speech Acts*. و(سيرل) من القائلين بفرضية المغزى الحرفي (فمح) *Literal Force Hypothesis (LFH)* لأنه يفترض أن كل جملة في اللغة لها مغزى كلامي يتولد من صيغتها الشكلية أو النحوية، أي الـ (ودمك) الثانية التي اشرنا إليها آنفاً. لهذا فحين تنطق بجملة صيغتها النحوية استفهامية، فانك في كل الأحوال وفي المقام الأول، تسأل سؤالاً بغض النظر عن أي شيء أو أي فعل آخر يمكن أن تنجزه بواسطة ذلك السؤال. لكن إذا كان السؤال معيباً أو فيه خلل لمخالفته شروط الموفقية*Felicity Conditions* الخاصة به، بل حتى إذا كان السؤال موفقاً فأن المتكلم قد يقصد بسؤاله شيئاً آخر غير الاستفهام أو طلب الفهم. أي بكلمة أخرى فان المتكلم قد ينجز فعلاً كلامياً آخر فضلاً عن الفعل الكلامي الذي تدل عليه الصيغة النحوية بصورة مباشرة. فهذا الفعل الأخير حسب مصطلح سيرل يمثل الفع

الكلامي المباشر. أما الأول فيمثل الفعل الكلامي غير المباشر.

وكما أسلفنا فقد ابتدع (سيرل) فكرة الأفعال الكلامية غير المباشرة ليحل مشكلة القولات التي لاتؤدي فيها الصيغ النحوية: الخبرية والاستفهامية والأمرية وظائفها الرئيسة في انجاز الأفعال أو المغازي الكلامية: الإخبار والاستخبار والطلب، على التوالي. وهو يركز على أمثلة من القولات الطلبية أو التوجيهية كما يسميها:

١- هل بإمكانك أن تناولني الملح؟

٢- هل ستناولني الملح؟

٣- أريد الملح.

٤- عليك أن تناولها الملح.

يقول سيرل[1] إن (المسألة التي تطرحها الافعال الكلامية غير المباشرة هي: كيف يتسنى للمتكلم أن يقول شيئاً ويعنيه، لكنه يعني به شيئاً آخر أيضاً؟).ثم يطرح سؤالين آخرين من وجهة نظر المستمع: كيف يفهم المستمع الفعل الكلامي الأولي اللاحرفي عن طريق فهمه للفعل الكلامي الثانوي الحرفي؟ وهذا جزء من سؤال اكبر هو: كيف يكون للمتكلم أن يعني الكلام الأولي في حين هو لاينطق سوى بجملة تعني الكلام الثانوي..؟ ولكي يجيب (سيرل) عن هذه التساؤلات فهو يحاول تزويدنا بالخطوات الاستنتاجية اللازمة للاستدلال على الفعل غير المباشر من الفعل المباشر.

وسأجازف الآن باحتمال إملال القارئ فأورد الخطوات اللازمة للاستدلال على الفعل الكلامي غير المباشر (أو الأولي والرئيس) من الفعل الكلامي المباشر (أو الحرفي). يؤكد (سيرل) بالطبع أن المتخاطبين في المحادثة اليومية لايمرون بخطوات الاستدلال عليه بصورة شعورية مطلقاً.

الخطوة (١): لقد سألني (أ) عما إذا كانت لدي القدرة على مناولة الملح. (حقيقة من حقائق المحاورة).

الخطوة (٢): أنا أفترض أنه متعاون في المحاورة ومن ثم فأن لقولته هدفاً أو غاية. (مبدأ التعاون الحواري)

الخطوة (٣): أن خلفية المحاورة ووضعها ليس فيهما ما يدل على الاهتمام بموضوع مقدرتي على مناولة الملح. (معلومات وحقائق عامة).

الخطوة (٤): فضلاً عن أنه قد يعرف أن الجواب عن سؤاله هو بالإيجاب. (معلومات وحقائق عامة) (إن هذه الخطوة تسهّل الانتقال إلى الخطوة الخامسة لكنها ليست أساسية).

---

(1)Searle, J.R. (1975). Indirect Speech Acts. In Cole and Morgan (1975: 60).

الخطوة (٥): لذلك فأن قولته قد لاتكون مجرد سؤال، وقد تكون لها غاية كلامية أبعد من ذلك (استنتاج من الخطوات ١، ٢، ٣، ٤). فما تلك الغاية؟

الخطوة (٦): إن من الشروط التحضيرية لأي فعل كلامي توجيهي أو طلبي هو مقدرة المخاطب على إنجاز الفعل المذكور في المحتوى القضوي. (نظرية أفعال الكلام).

الخطوة (٧): لذلك فأن (أ) قد سألني سؤالاً يلزم من إجابته بالإيجاب، أن الشرط التحضيري لطلب مناولة الملح مستوف. (استنتاج من الخطوتين ((١)، ((٢)).

الخطوة (٨): نحن الآن نتناول العشاء. ومن عادة الناس أن يستعملوا الملح أثناء تناول الطعام، وعادة ما يناولون الملح من الواحد للآخر ويطلبون من الآخرين مناولتهم إياه.. الخ (معلومات عامة)

الخطوة (٩): لذلك فأنه قد أشار ضمناً إلى استيفاء أحد الشروط التحضيرية لفعل الطلب، ويحتمل أنه يريدني أن أحقق شروط الاستجابة لذلك الفعل (استنتاج من الخطوتين ٧، ٨).

الخطوة (١٠): لذلك، ولانعدام أي مقصد آخر معقول، فأنه ربما يطلب مني أن أناول الملح (استنتاج من الخطوتين ٩،٥).

يقول (لفنسن)[1] إن فكرة الأفعال الكلامية غير المباشرة لاتكتسب معناها إلا إذا تقبلنا فكرة المغزى الحرفي *(Literal Force)* أي الرأي القائل بأن المغزى الكلامي مبني أي يمثل جزءاً مبنياً في صيغة الجملة. ويطلق (لفنسن) على هذا الرأي تسمية (فرضية المغزى الحرفي) وتختصر على شكل (فمح) وقد حددها (كازدر)[2] (١٩٨١) بأنها تعني الموافقة على ما يأتي:

أولاً: أن الإنجازيات الصريحة *Explicit Performatives* تسمي وتحدد مغزاها بواسطة لفظ الفعل الإنجازي الذي يرد في صدر الجملة الرئيسة.

ثانياً: وبطريقة أخرى فأن للأنماط الرئيسة الثلاثة للجمل في اللغة الانكليزية، أعني الأمرية والاستفهامية والخبرية، مغازي مرتبطة بها عرفاً، وهي الطلب (أو الأمر) والاستخبار (أو السؤال)، والتصريح (أو الإخبار) على التوالي. (وبالطبع باستثناء الإنجازيات الصريحة والتي ترد بصيغة الإخبار).

---

(1)*Levinson, S.C. (1983). Prgmatics. Cambridge: CUP:263*
(2)*Gazdar, G. (1981). Speech Act Assignment. In Joshi, Webber and Sag (1981).*

يقول (لفنسن)[1] إن هناك اكثر من نظرية واحدة في الاستنتاج. لكنها جميعاً تشترك في المواصفات الأساسية وهي:

أولاً: إن المعنى الحرفي و المغزى الحرفي للقولة ممافي متناول المتحاورين ويُحتسبان من قبلهما.

ثانياً: ولكي تكون القولة فعلاً كلامياً غير مباشر يجب أن يكون هناك مولِّد للاستنتاج، أي ما يدل على ان المعنى الحرفي أوالمغزى الحرفي غير كاف لغرض المحاورة ضمن السياق، ويجب ان يعدَّل باستخدام الاستنتاج.

ثالثاً: يجب توفر مبادئ وقواعد محددة لاستخراج المغزى غير المباشر المقصود من المعنى أو المغزى الحرفي والسياق.

رابعاً: يجب توفر قواعد أو ضوابط لغوية فعلياتية تتحكم في إمكانية ورود تعابير معينة مثل (رجاءً)).

وهذه المتطلبات موجودة في نظرية سيرل الشهيرة في أفعال الكلام غير المباشرة

بداية الانطلاقة: إدخال الاستدلال المنطقي على يد الجرجاني والسكاكي:

كثرت ظاهرة التحليل والاستنتاج في مدرسة عبد القاهر الجرجاني والسكاكي من بعده، ممثلةً بشراح التلخيص ومن تبعهم من البلاغيين واللغويين، الذين استعملوا المنطق والاستدلال في تحليل النصوص اللغوية، متجاوزين اطلاق الأحكام الانطباعية في علاتها كما كان يفعل البلاغيون السابقون لهم. وفي هذا الاتجاه الجديد كان السبق للأصوليين(علماء اصول الفقه) ومباحثهم اللغوية. فالارجح أن عبد القاهر والسكاكي ومن تبعهما قد استفادوا من تلك المباحث التي أدخل فيها الأصوليون المنطق والاستدلال.

سنبدأ بتناول موضوع إدخال الاستدلال المنطقي على يد الجرجاني والسكاكي، ثم نسلط الضوء بتركيز على بعض الأمثلة التحليلية التطبيقية من السكاكي، وعلى تناول شراح التلخيص بالتفصيل لمسألة خطوات استنتاج المغزى الكلامي غير المباشر، كما وردت لدى ابن يعقوب المغربي.

سنلتقي فيما يأتي بعض المقاطع من عبد القاهر والسكاكي تبين أن إدخالهما المنطق والاستدلال في تحليل اللغة، لم يكن مجرد نزوة أو فكرة عابرة، بل كان خطوة مدروسة ومخططاً لها. سنتناول أولاً نصاً من الشيخ عبد القاهر بشأن خطوات استنتاج المعنى الكنائي من المعنى اللفظي، ثم نتحول إلى بعض المقاطع من السكاكي

---

(1)Levinson, S.C. (1983). Prygmatics. Cambridge: CUP: 270

يتحدث فيها عن (علم الاستدلال) والأسباب التي دعته إلى إدخاله في (علم البلاغة)...

أدخل الشيخ عبد القاهر فكرة الاستدلال المنطقي إلى البلاغة من خلال تناو... لمشكلة (اللفظ والمعنى)، وهي مشكلة شغلت البلاغيين العرب طويلاً. كما أن اللغوي... المعاصرين في الغرب هم أيضاً توصلوا الى فكرة (الأفعال الكلامية غير المباشرة) نتيج... ملاحظتهم للاختلاف بين اللفظ والمعنى. يقول الشيخ عبد القاهر في تحليله للمع... المقصود في الكناية (دلائل الإعجاز)[1]:

(وإذا نظرت إليها [أي الكناية] وجدت حقيقتها ومحصول أمرها أنها إثبات لمعنى أن... تعرف ذلك المعنى من طريق المعقول دون طريق اللفظ. ألا ترى أنك لما نظرت إ... قولهم (هو كثير رماد القدر)، وعرفت منه أنهم أرادوا أنه كثير القرى والضيافة، ... تعرف ذلك من اللفظ ولكنك عرفته بأن رجعت إلى نفسك فقلت: إنه كلام جاء عن... في المدح، ولا معنى للمدح بكثرة الرماد، فليس إلا أنهم أرادوا أن يدلّوا بكثرة الرماد ... أنه تنصب له القدور الكثيرة ويطبخ فيها للقرى وللضيافة. وذلك أنه إذا كثر الطبخ... القدور كثر إحراق الحطب تحتها. وإذا كثر إحراق الحطب كثر الرماد لامحالة.) ...

أما قول الشيخ أنه (لا معنى للمدح بكثرة الرماد) فهو يدل على إدراكه الخط... الاستنتاجية التي قال (سيرل) أنها تحصل بسبب مخالفة (قاعدة الصل... المناسبة) *Maxim of Relevance* من قواعد (كرايس) *Grice*. وقوله (*أنه كلام قد جاء عنهم في المدح*) يشير أيضاً إلى الاستعانة بتصنيف أفعال الكلام في عملية الاستنتا... وأما بقية الخطوات الاستنتاجية فهي تتم بمساعدة المعلومات العامة وقابلية المست... على الاستنتاج. لكن ما يهمنا من كلام عبد القاهر المتقدم، هو الخطوات الاستنتاج... التي حلل بموجبها كيفية توصل المستمع إلى المغزى الفعلي *...ragmatic Force* المقصود من الكلام.

وكانت هذه الملاحظات من الشيخ، ومثيلاتها كثيرات في (دلائل الإعجاز) و (أسر... البلاغة)، بمثابة البذرة الأولى لفكرة إدخال القياس المنطقي والاستدلال في مباح... علم البلاغة، وإن كان الأصوليون قد سبقوه في ذلك من خلال مباحثهم اللغوي... والأرجح أنه قد استعار الفكرة منهم كما أسلفنا.

ثم جاء السكاكي فبلغت الفكرة مداها وتوسعت على يده حيث ألحق بمباح... علمي (المعاني) و (البيان) في (مفتاح العلوم) فصلاً خاصاً بالمنطق والاستدلال. وه... بهذا يعد من الذين ساعدوا على إرساء حقل (الفعليّات) *Pragmatics* على قواع...

---

(١) الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الاعجاز، تحقيق محمد عبده، مكتبة القاهرة، القاهرة، ١٩٦١: (٣٣٠)...

فية ومنطقية شبيهة بما لجأ إليه اللغويون المعاصرون في الغرب. وبعد عرض طويل قواعد الاستدلال المنطقي، يتحول السكاكي إلى كيفية استعمال الاستدلال في تحليل اللغة مع أمثلة توضيحية، فيقول[1]:

"ثم إذا كان حاصل الاستدلال عند رفع الحجب هو ما أنت تشاهد بنور البصيرة، فإنك إذا شبهت قائلاً: (خدها وردة)، تصنع شيئاً سوى أن تلزم الخد ما تعرفه يلزم الحمرة الصافية فيتوصل بذلك إلى وصف الخد بها؟...أرأيت والحال هذه، إن ألقيَ إليك زمام الحكم، أتجدك لاتستحي أن تحكم بغير ما حكمنا نحن، أو تهجس في ضميرك: أني يعشو صاحب التشبيه أو الكناية أو الاستعارة إلى نار المستدل! ما أبعد التمييز بمجرده أن يسوغ ذلك فضلاً أن يسوغه العقل الكامل!)

وهذا الكلام من السكاكي واضح جلي لايحتاج إلى تعليق أو توضيح. فهو يبين أن في اللغة منطقاً واستدلالاً خفيين لا غنى للمتكلم ولا للمستمع عنهما في عملية التواصل حتى في الخطاب الأدبي.

إن (مدرسة السكاكي)، وأقصد بذلك السكاكي وأتباعه مثل القزويني الذي لخص كتابه وشراح التلخيص كالتفتازاني وبهاء الدين السبكي والسيد الشريف الجرجاني وعصام الدين الاسفراييني وعبد الحكيم السيالكوتي وابن يعقوب المغربي وغيرهم، تمثل، في رأيي، نقلة نوعية في حقل (علم اللغة) و(الفعليات) ليس في العالم العربي والإسلامي فحسب، وإنما في العالم أجمع، لكنها بحاجة إلى إزالة الغبار عنها وإعادة تقييمها على ضوء علم اللغة الحديث.

❖ ردة فعل المحدثين على الاتجاه الكلامي

غير أن هذا الاتجاه الجديد في تحليل اللغة تحليلاً منطقياً فعلياتياً *pragmatically* وما يستتبع ذلك من استنتاجات في ذهن المتلقي، لم ينل قبول واستحسان كتاب البلاغة العربية من المحدثين والمعاصرين. والسبب يعود إلى عدم اطلاعهم على مستجدات علم اللغة الحديث. لهذا تجدهم يكررون الموقف نفسه من هذا الاتجاه الجديد، ابتداءً من جيل المرحوم الأستاذ أمين الخولي ومروراً بجيل تلامذته مثل الدكتور شكري عياد والدكتور أحمد مطلوب والدكتور بدوي طبانة والدكتور عبد العزيز عتيق وغيرهم كثير. فهم يتحدثون عن مدرستين بلاغيتين، يسمون الأولى (مدرسة المتكلمين) أو (المدرسة الشرقية). ويقصدون بها مدرسة السكاكي وشراحه، التي انطلقت من إقليم خوارزم (جمهورية تركستان في الاتحاد السوفيتي السابق)،

---

(1) السكاكي، أبو يعقوب يوسف، مفتاح العلوم، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٧: ٢٢٩

ويسمون الثانية (المدرسة الذوقية) أو (مدرسة الشام ومصر)، ويقصدون بها مدرسة البلاغيين الانطباعيين الذين كانوا يكثرون من الشواهد والأمثلة ويطلقون على الأحكام الانطباعية دون تحليل أو تفسير أو أدلة لإثبات تلك الأحكام كقولهم (ومن ألطف ما قيل في هذا الباب قول الشاعر... الخ). لكن العبرة ليست في إطلاق الأحكام وإنما في تحليلها بصورة علمية مقنعة. فمثلاً كلنا أعجب بروعة قوله تعالى في وصف الطوفان ((وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي... الآية)). لكن كم منا من يستطيع أن يفسر تلك الروعة تفسيراً لغوياً علمياً؟ ولا نريد أن نستشهد بكتب البلاغة المحدثين ففي الإمكان الرجوع إلى مؤلفاتهم حيث لا يملون من ترديد القول بأن (المدرسة الكلامية) أفسدت البلاغة وأزهقت روحها وأحالتها قواعد جامدة لا أثر للذوق فيها، وغير ذلك من الكلام الذي يتناقلونه الواحد عن الآخر، وهو يعود إلى الخولي في الأساس. والحقيقة أن تلك المدرسة لم تتخل عن الذوق والجمال وإنما سعت إلى تفسير الجمال بصورة علمية مقنعة، ولم تقتنع بإطلاق الأحكام الانطباعية على علاتها.

ونكتفي هنا بالإشارة إلى استغراب الدكتور شكري محمد عياد[1] لمحاولتي الجرجاني والسكاكي. فقد بين الدكتور عياد، وهو من تلامذة الخولي، أن الشيخ عبد القاهر تصور الحركة الذهنية التي تصاحب الصور البيانية بأنها حركة منطقية إلى حد كبير، وأن ذلك قد (زيّن) للسكاكي أن يلحق بمبحثي (المعاني) و (البيان) مبحثاً في المنطق، وأن يعد الاستعارة والتشبيه والكناية قياساً منطقياً قد حذف منه الحد الأوسط والنتيجة. فإذا قلت: (خدها وردة) فأنت تؤلف قياساً نطقت بمقدمته وتركت لسامعك أن يبني عليها الحد الأوسط (الوردة حمراء)، ثم النتيجة: (خدها أحمر). أ

في الحقيقة يمكن تفسير العديد من الظواهر اللغوية ولاسيما الأفعال الكلامية غير المباشرة بوصفها نوعاً من (القياس المضمر *enthymeme*) حذفت منه أحدى مقدمتيه أو النتيجة. وتحت هذه الطريقة في التفسير يمكننا أن ندرج خطوات (سيرل) التي أوردناها. لكن لغة الأدب والشعر تتضمن أكثر من ذلك: فالصورة الشعرية والوسائل البلاغية ليست قياساً مضمراً بل هي قياس ناقص وضعيف وغير محدد *Indeterminate* يقوم به السامع (المتلقي) على مسؤوليته. ولا يمكننا أن ينسب إلى المتكلم أو الشاعر طلب القيام بذلك القياس أو قصده أو الدعوة له. فالأثر الشعري يأتي نتيجة لقائمة طويلة وعريضة من التلويحات الضعيفة *Weak Implicatures* أي باستعمال تصوير دلالي ناقص واستنتاج غير مؤكد. وكلما ...

(١) ينظر: عياد، شكري محمد (١٩٦٧): كتاب أرسطو طاليس فن الشعر، دار الكاتب العربي ، القاهرة.

بعد التلويحات والاستنتاجات. ازدادت ضعفاً ولا تحديداً ولا تعيئناً، وازدادت عمقاً شعرية وازدادت مسؤولية المتلقي في استنباطها. وعلى ضوء هذا الكلام فأن العيب الوحيد في تحليلات السكاكي هو انه لم يركز على ضعف القياس وعدم تحديده وزيادة التلويحات في حالة الخطاب الشعري.والأرجح انه كان يعدّ ذلك من المسلّمات. فالتلويحات والإيحاءات المرتبطة بالتشبيه بالوردة لا يمكن حصرها بالحمرة، فهناك الطبيعة وهناك الرقة والضعف... الخ وغير ذلك من الاستنتاجات المبنية على السياق والمعلومات الموسوعية الخزينة في ذهن المتلقي تحت باب أو مفهوم (الوردة) بما يحقق الصلة للكلام المقول.

ولانريد أن نخوض في نقاش هذه المسألة فقد أصبح موضوع الاستدلال والمنطق مفروغاً منه في علم اللغة الحديث. وفي النقد الأدبي الحديث يعتبر وصف الأحكام بأنها انطباعية أو ذوقية، شيئاً سلبياً. والتحليل اللغوي، سواء للنص الأدبي، كما في الأسلوبيات الأدبية *Stylistics Literery*، أو للكلام العادي، كما في (الفعليات) تحليل الخطاب) *Discourse Analysis*، يعتمد بصورة أساسية على عمليات الاستدلال التي تحصل في ذهن المتلقي قارئاً كان أو مستمعاً. وقد وسع الجرجاني والسكاكي دائرة علم البلاغة لتشمل اللغة بصورة عامة. أي أن (علم البلاغة) تحول إلى (علم اللغة) و علم الأسلوبيات على يديهما. لكن هذا لايعني أن طرق التحليل البلاغي التي جاءا بها لا تنطبق على الخطاب الأدبي.

لقد ابتعدنا قليلاً عن موضوعنا حين استرسلنا في حديثنا المتقدم الذي يستحق دراسة منفصلة. ولكن قبل أن نعود الى موضوعنا ونعطي بعض الأمثلة التحليلية من السكاكي، نود أن نؤكد حقيقة تجاهلها أحياناً بعض الكتاب المحدثين، وهي أن جذور نظرية السكاكي البلاغية الكلامية تعود إلى الشيخ عبد القاهر الجرجاني، الواضع الأول لعلم البلاغة على أسس علمية. فهو أول من ابتعد عن النقد الانطباعي. لذلك يمكن تسمية هذه المدرسة بـ (مدرسة الجرجاني- السكاكي). وتحتاج هذه المدرسة إلى إعادة التقويم على ضوء اكتشافات علم اللغة الحديث، وعلى أسس موضوعية بعيداً عن التعصب. فقد بالغ الأستاذ الخولي وتلامذته في التهجم عليها، وإن كانوا يستثنون الشيخ عبد القاهر من هجومهم لأن ذلك يحتاج قدراً أكبر من الجرأة والمكابرة. وهم يبررون استثناء عبد القاهر من هجومهم لأنه، حسب رأيهم، جمع الاتجاهين معاً، فقد كان ذوقياً في (أسرار البلاغة)، وكلامياً في (دلائل الإعجاز). لكنهم نسوا أن (أسرار البلاغة) مليء بالتحليل العلمي الدقيق ولا يختلف في ذلك عن (دلائل الإعجاز)، وأن كثرة الشواهد والأمثلة فيه لا تغير من هذه الحقيقة. فقد تعامل عبد القاهر مع الأمثلة

الكثيرة بالعلمية المنطقية المعهودة فيه نفسها، فهو لم يطلق حكماً إلا
الأسناذ منطقياً بصورة مقنعة. وهم نسوا أيضاً أن عبد القاهر هو الذي بدأ
العلمي الكلامي في البلاغة ثم أكمل السكاكي المسيرة من بعده.

إن الذي دعاهم إلى القول بأن عبد القاهر كان ذوقياً في (أسرار البلاغة) هو
من الأمثلة والشواهد الشعرية، وكونه تحدث عن تحليل الجمال والقبح فهو
مقياس كثرة الشواهد لايصلح مقياساً لتحديد مدرسة أو اتجاه، فهو مقياس
وليس هناك تناقض بين الإكثار من الشواهد والاتجاه العلمي الكلامي. أما
وتفسيره العلمي للجمال والقبح، فهذا هو عين ما تصبو إليه المدرسة الكلامية
تريد أحكاماً مزاجية بل تعليلاً يساعد في الكشف عن المعنى الجميل، كما
نثبت أن عبد القاهر لم يتخل عن علميته في التحليل حتى في (أسرار البلاغة)
النص الآتي، حيث حلل الاستعارة التمثيلية تحليلاً علمياً ثم قال[1]:

(واعلم أن هذه الأمور التي قصدت البحث عنها أمور كأنها معروفة مجهولة
أنها معروفة على الجملة، لاينكر بيانها في نفوس العارفين ذوق الكلام والمتمي
فصل جيده من رديئه، مجهولة من حيث لم تتفق فيها أوضاع تجري مجرى
التي يرجع إليها فتستخرج منها العلل في حسن ما استحسن، وقبح ما استهجن
تعلم علم اليقين غير الموهوم، وتضبط ضبط المزموم المخطوم. ولعل الملال إلى
لك، أو النشاط إن فتر عنك، قلت: ما الحاجة إلى كل هذه الإطالة وإنما يكفي أن
الاستعارة مثل كذا، ثم تعقد كلمات وتنشد أبيات، وهكذا يكفينا المؤونة في
والتمثيل يسير من القول. فإنك تعلم أن قائلاً لو قال: الخبر مثل قولنا (زيد
ورضي به وقنع ولم تطالبه نفسه بأن يعرف حداً للخبر إذا عرفه تميز في نفسه
سائر الكلام حتى يمكنه أن يعلم أن ههنا كلاماً لفظه لفظ الخبر وليس بخبر
دعاء كقولنا: (رحمة الله عليه، وغفر الله له)... كان قد أساء الاختيار وأسرف في
الاستغناء عما هو محتاج إليه إن أراد هذا النوع من العلم) (التوكيد من تصرفي)

إن المقاطع التي أكدتها آنفاً لاتحتاج إلى تعليق أو توضيح. فالشيخ يدافع
الاتجاه العلمي الكلامي، ويرد على الاتجاه الذوقي الانطباعي الذي يكتفي بالقول
الاستعارة مثل كذا ثم تعقد كلمات وتنشد أبيات ..من دون وضع القوانين التي
إليها لاستخراج العلل في حسن ما استحسن، وقبح ما استهجن .فهل هناك أوضح
هذا الكلام؟ .

---

(١) الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ١٩٣٢: ٢٩٥

أمثلة تطبيقية على التحليل العلمي لدى السكاكي

نتحول إلى معالجة السكاكي لموضوع مخالفة الفعل الكلامي لمقتضى الظاهر. لال هـذه المعالجـة يتبـين مـدى فهمـه وتحليلـه لظـاهرة (الفعـل الكلامي غير الخطوات الاستنتاج التي تؤدي إلى إدراك السـامع للمغزى الفعلي غير المباشـر من سـوق الكلام. ففي ختـام قـانون أو مبحـث الخبر يقـول السـكاكي[1] (هـذا كثيراً ما يخرج لا على مقتضى الظاهر ويكون المراد به الطلب، فسـيذكر ذلك قانون الثـاني بإذن اللّه تعـالى). وفي القـانون الثـاني المخصـص لأنـواع الطلـب سكاكي بتحليل رائع لكيفية خروج أنواع الطلب على خلاف مقتضى الظاهر تنع تفسيرها بموجب أصل المعنى، بل تفسر على ضوء المغزى غير المباشر الذي يني المتكلم بمعونـة القـرائن السـياقية. ونظـراً لأهميـة كـلام السـكاكي وعمـق تحليل فيه، نكتفي ببعض النصـوص المنتقـاة ونترك للقـارئ خيـار الاسـتزادة يقول[2]:

متنع إجراء هذه الأبواب على الأصل تولد منها ما ناسب المقام... كما إذا قلت ذي الأب: (أتفعل هذا؟) امتنع توجه الاستفهام إلى فعل الأذى لعلمك بحاله، ما لا تعلم مما يلابسه من نحو (أتستحسن؟) وولد الإنكار والزجر. أو كما إذا شتم مولاه، وإنك أدبته حق التأديب أو أوعدته على ذلك أبلغ إيعاد: (إشـتمْ امتنع أن يكون المراد الأمر بالشـتم، والحـال مـا ذكـر، وتوجـه بمعونـة قرينـة نحو: (إعرفْ لازم الشـتم)، وتولد منه التهديد...أو كما إذا قلت لعبد لايمتثل يمتثل أمري)، امتنع طلب ترك الامتثال لكونه حاصلاً، وتوجه إلى غير حاصل كترث لأمري ولاتبالي به)، وتولد منه التهديد.)

سبق السكاكي في هذا النوع من التحليل الفعلياتي اللغويين المعاصرين من سيرل) في مجـال تفسـير الفعـل الكلامي غير المباشـر. وفي بـاب الاسـتفهام يركـز تحليلـه بصـورة أكثر كثافـة وتفصـيلاً بحيـث يقترب مـن جـوهر خطـوات ج التي ذكرها (سيرل). ولأهمية وعمق هـذا التحليل من السكاكي سـنورد منه لاً لكي يقارن القارئ بينه وبين خطوات الاستنتاج عند (سيرل)، يقول[3]:

---

(١) أبو يعقوب يوسف، مفتاح العلوم، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٧: ١٤٥

(٢) نفسه: ١٤٦

(٣) أبو يعقوب يوسف، مفتاح العلوم، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٧: ١٥٠

(واعلم أن هذه الكلمات كثيراً ما يتولد منها أمثال ما سبق من المعاني بمعونة قرائن الأحوال... وعليه قوله تعالى (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم؟) بمعنى التعجب. ووجه تحقيق ذلك هو أن الكفار في حين صدور الكفر منهم لابد من أن يكونوا على إحدى الحالتين: إما عالمين بالله، وإما جاهلين به، فلا ثالثة. فإذا قيل: (كيف تكفرون بالله؟) وقد علمت أن (كيف) للسؤال عن الحال، وللكفر اختصاص بالعلم بالصانع وبالجهل به، انساق الى ذلك فأفاد: (أفي حال العلم تكفرون أم في حال الجهل به؟). ثم إذا قيد (أتكفرون بالله؟) بقوله (وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) وصار المعنى: كيف تكفرون بالله والحال حال علمكم بهذه القصة؟، وهي أن كنتم أمواتاً فصرتم أحياء وسيكون كذا وكذا صيّر الكفر شيء عن العاقل، فصار وجوده منه مظنة التعجب. ووجه بعده هو أن هذه الحالة تأبى أن لايكون للعاقل علم بأن له صانعاً... وعلمه بأن له هذا الصانع يأبى أن يكفر وصدور الفعل عن القادر مع الصارف القوي مظنة تعجب وتعجيب وإنكار وتوبيخ).

إن التسلسل المنطقي في حالة الاستنتاج من الآية الكريمة (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم؟) بأن المغزى الكلامي المقصود ليس السؤال وإنما التعجب والتوبيخ، هو على درجة من نفاذ البصيرة بحيث يذكرنا بخطوات الاستنتاج التي جاء بها (سيرل) والتي أوردناها آنفاً. إن هذا التحليل من السكاكي وبهذه الكيفية سابق لزمانه بقرون.

ويستمر السكاكي في بقية الأبواب (الأمر والنهي والنداء) في تناول خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر. ففي باب (الأمر)، مثلاً، يبين المعاني المختلفة لصيغة الأمر حسب القرائن السياقية، وبخاصة الاختلاف في المرتبة بين المتكلم والمخاطب. وفي هذا الموضوع بالذات كان السبق للأصوليين كما أسلفنا. وفي باب النداء يفسر استعمال صيغة الخبر بالزمن الماضي في مقام الدعاء، تفسيراً منطقياً مقبولاً، حيث يقول:

(...والجهات المحسنة لاستعمال الخبر في موضع الطلب تكثر، تارةً تكون قصد التفاؤل بالوقوع كما إذا قيل لك في مقام الدعاء (أعاذك الله من الشبهة وعصمك من الحيرة ووفقك للتقوى) ليتفاءل بلفظ المضي على عدها من الأمور الحاصلة التي حقها الإخبار عنها بأفعال ماضية).

وهذا قريب جداً من تفسير الفقهاء والأصوليين لظاهرة استعمال صيغة الماضي في الإنجازيات *Performatives* مثل (بعتك) و (زوّجتك) و (أمرتك).

❖ أفعال الكلام غير المباشرة والمجاز المركب

و التهانوي في استعراضه لتعريفات (المجاز المركب) تعريف الخطيب القزويني في ص المفتاح) وهو (إن المجاز المركب هو اللفظ المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي و تمثيل للمبالغة في التشبيه). وهذا التعريف يبدو لنا قاصراً جداً؛ فهو يعرف بالجزء، إذ إن الاستعارة التمثيلية هي حالة واحدة من حالات المجاز المركب كل مجاز مركب استعارة تمثيلية. ثم إن الاستعارة التمثيلية تعدّ مجازاً مركباً أو ليس بسبب تشبيه أجزاء بأجزاء، بل بسبب استعمال الجملة كاملة بصورة ة في غير ما وضعت له أي هي(مجاز الاستعمال) أو(مجاز الخطاب) إن جاز

تناول سعد الدين التفتازاني هذا التعريف بالنقد وبصورة تنم عن نظر ثاقب. التهانوي[1] مستشهداً بكلام السعد:

عترض المحقق التفتازاني على هذا التعريف بأنه غير جامع، لخروج مجازات ليست علاقتها التشبيه، كالأخبار المستعملة في التحسر والتحزن أو الدعاء ونحو تحقيق ذلك أن الواضع كما وضع المفردات لمعانيها بحسب الشخص، كذلك المركبات لمعانيها التركيبية بحسب النوع. مثلاً هيئة التركيب في نحو: ((زيد قائم))، عة للإخبار بإثبات القيام لزيد. فإذا استعمل ذلك المركب في غير ما وضع له، بملة من العلاقة بين المعنيين. فإن كانت المشابهة، فاستعارة. وإلا فغير ة. فحصر المجاز المركب في الاستعارة، وتعريفه بما ذكر، عدول عن الصواب...) من تصرفي)

صري في حاشيته على السمرقندية[2] يشير إلى الكلام نفسه، عند تناوله المجاز المركب، وينسبه إلى السعد في المطول:

له ((وضع له حقيقة أي وضعاً حقيقياً بأن يكون أولياً أصلياً، واحترز به عن التأويلي، وهو الوضع الثانوي التبعي لأنه ثابت للمجاز فلا يصح نفيه. وقد تقدم له، وفي هذا تصريح بأن المركبات موضوعة. وهو التحقيق، لكن وضعها نوعي. المركب في نحو: ((زيد قائم)) موضوعة وضعاً تحقيقياً للإخبار بثبوت المسند إليه. كما في المطول. فالواضع لاحظ الموضوع بأمر عام بأن قال: (وضعتُ كل ن مسند ومسند إليه للإخبار بثبوت الأول للثاني). فهذا هو الحقيقة المركبة.) يد السعد من قوله (بحسب الشخص) أي بحسب عين الشيء الذي تشير إليه

---

(1) محمد علي الفاروقي، كشاف اصطلاحات الفنون، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٣: ٣٠٥

(2) محمد الدمياطي، حاشية على السمرقندية، المطبعة الأزهرية، ١٩٣٦: (٧٩)

المفردة وتدل عليه: وهو ما يسمى في الغرب بـ(الإشارة والدلالة *Sense and Reference*)، كما في حالة العلاقة بين كلمتي (زيد) و(الشجاعة) وبين ما تشير إليه هاتان الكلمتان في الواقع.

أما قصده من قوله (بحسب النوع) فهو، كما يبدو واضحاً، يكشف عن إدراك سابق لزمانه لفكرة (نمط الفعل أو المغزى الكلامي) المرتبط بالصيغة التركيبية أو النحوية، وهو ما يسميه فلاسفة أفعال الكلام المعاصرون بالانكليزية *Illocutionary Act Type* وهذا يرتبط أيضاً ب (فرضية المغزى الحرفي)*Literal Force Hypothesis* (فمح)*LFH*، التي تقول بوجود علاقة وضعية[١] بين أنماط الجمل النحوية الرئيسة وبين (المغزى الكلامي)*Illocutionary Force* الذي تؤديه تلك الأنماط. وغالبية الأفعال الكلامية غير المباشرة تكون نتيجة للتباين بين الاثنين، مما يولد تعريضاً أو مجازاً مركباً يفيد المغزى غير المباشر.

وتفريق السعد بين المجاز المفرد والمجاز المركب يذكرنا بكلام، لايقل عمقاً ورؤية قاله ابن الشجري في أماليه:[٢]

(وقد أريتك أن أكثر معاني الكلام ليس لفظ من ألفاظها إلا وهو محتمل لمعان مباينة للمعنى الذي وضع له ذلك. فلا يكون في احتماله لتلك المعاني ما يخرجه عن معناه الأصلي. وأقول انه كما جاز في الألفاظ المفردة ما يتفق لفظه ويختلف معناه كذلك أن يكون في الألفاظ المركبة المفيدة ما يختلف معناه واللفظ واحد.)

وهذا يبين إدراكاً سابقاً لإدراك السعد للفكرة ذاتها. وهي تشكل مبدأ أساسياً في موضوع أفعال الكلام غير المباشرة.

ويلاحظ هنا أن ابن الشجري يميل إلى الرأي الذي قال به (سيرل)، فيما بعد، في القول بأن أفعال الكلام غير المباشرة تحتفظ بمعانيها الحرفية أيضاً؛ فالمتكلم ينفذ الفعل غير المباشر باستعماله للفعل الحرفي. ولذلك في الإمكان الإجابة عن الاستفهام الطلبي: (هل بإمكانك أن تناولني الملح؟) بالاستجابة إلى المعنى الحرفي للصيغة هكذا (نعم، تفضّل، ها هو). ويجدر الذكر أن ابن الشجري يحيل على لغويين سابقين لم يذكر أسمائهم، وأرجح أن يكون أغلبهم من المعتزلة، ولاسيما القاضي عبد الجبار، إذ يبدو أحياناً متأثراً به. وهذا يدل على أن مثل تلك الأفكار كانت معروفة قبل عصره.

---

(١)وهذا واضح من تأكيد السعد بأن المركبات موضوعة وضعاً حقيقياً نوعياً. أما الوضع التأويلي فقد المقصود به التنميط أو التفنن بتقادم الاستعمال في المعنى المجازي غير المباشر

(٢)ابن الشجري، أبو السعادات، الأمالي الشجرية، حيدر أباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٤٩هـ، ٢٧٧.

الشجري.

إن النص المنقول عن السعد آنفاً يلخص زبدة نظرية أفعال الكلام الحديثة بصورة تنم عن عبقرية ليس لها مثيل، بل إن النص يغطي فكرة تنميط وتقنين الأفعال الكلامية غير المباشرة من خلال تفريقه الرائع بين ما اسماه (الوضع الحقيقي) أي وضع المركبات لمعانيها وضعاً نوعياً وبين ما اسماه (الوضع التأويلي). فالأول هو التسمية العربية لفكرة (فمع)، والثاني هو التسمية العربية لفكرة التنميط الكلامي الذي يحصل بتقادم الاستعمال الاصطلاحي في المعنى المجازي. لكن ما يسترعي الانتباه هو استخدام السعد للفظة (الوضع) في وصف التنميط مما قد يوحي بأنه ربما كان يقول برأي مشابه لرأي (سادوك) القائل بأن المعنى غير المباشر هو جزء من المعنى الوضعي.

إن كلام السعد التفتازاني وابن الشجري المذكور أعلاه يستحق الكثير من الدرس مما يضيق به المجال هنا. وبجمع النصين نخلص إلى نتيجة مفادها أن للمفردات مشاراً أو مدلولاً، بينما للمركبات مغزى أو نمط فعل كلامي. وكما أن هناك مجازاً لمفرد يشمل استعمال لفظة مفردة بدل أخرى أو للإشارة الى أخرى لم توضع المفردة المستعملة في الأساس للدلالة عليها. كذلك هناك مجاز مركب يشتمل على استعمال نمط جملة بدل أخرى للدلالة على مغزى كلامي لم توضع الجملة المستعملة في الأساس لإفادته.

وملاحظة السعد المهمة في قوله ... فإذا استعمل ذلك المركب في غير ما وضع له فلا بد حينئذ من العلاقة بين المعنيين. فيها شبه بأفكار لغوية حديثة مثل تأكيد (سبيربر وولسن) على مبدأ الصلة أو المناسبة: فالمستمع يبحث دائماً عن علاقة أو صلة بين الكلام والسياق، بل هو أحياناً يخلق العلاقة تحقيقاً لمبدأ الصلة أو المناسبة.

❖ توسيع التحليل على يد شراح التخليص

والآن إذا جئنا إلى شروح التلخيص (ولاسيما الجزء الثاني ص٢٢٢-٣٤٢) لوجدناها حافلة بجواهر التحليل اللغوي الفعلياتي. وهي دليل موسع لتحليل أفعال الكلام وشروط موفقيتها ومبادئ تصنيفها وما شاكل. إن كل مايحتاجه الباحث المعاصر هو إزالة الغبار عن هذه الكتب القديمة وعن أوراقها الصفراء، ودراستها في ضوء الثقافات الحديثة لعلم اللغة المعاصر. وأمام هذا الخضم لايسعني إلا أن أحاول استعراض عينات صغيرة؛ فالمجال يضيق بإيراد التفاصيل الشاملة لتحليلات أحد الأفعال الكلامية، ناهيك عن تغطيتها كلها كما وردت في تلك المراجع. وسنورد أولاً

خطوات استنتاج المغزى الكلامي غير المباشر لصيغة الاستفهام كما وردت لدى يعقوب المغربي).

❖ خطوات استنتاج المغزى الكلامي غير المباشر في حالة الاستفهام

سأكتفي هنا باختيار أمثلة على تحليل أفعال كلامية غير مباشرة متولدة الاستفهام، وخطوات الاستنتاج المتبعة في التوصل إلى المغزى المقصود كما ورد واحد من شروح التلخيص، وهو كتاب (مواهب الفتاح) لابن يعقوب المغربي ١١١٠ هـ). وشرح المغربي هو، في اعتقادي، واحد من أفضل الشروح، إن لم أفضلها. فهو يتسم بالتفصيل والدقة والعمق في التحليل كما لو كان الكاتب اللغويين المعاصرين في الغرب.

ولكن قبل أن نستعرض تحليلات المغربي لابد من أن نتذكر، وللأمانة ال والتاريخية، بأن نسبة كبيرة من الفضل في تلك التحليلات تعود إلى السكاكي لأن لها بصورة واضحة لاتقبل الشك[1] كما في الأمثلة السابقة، وكذلك إلى الشريف الجرجاني، الذي نقل عنه المغربي وزاد في التفاصيل، كما يبدو لي اكتشفت أن غالبية التحليلات الآتية التي سنوردها من المغربي، موجودة، ولو أقل تفصيلاً، في حاشية السيد الشريف على مطول السعد (ص٢٣٥). ف الشريف هو أحد السابقين للمغربي، وربما كان هو أول من جاء بهذا التحليل و للعلاقة المجازية في هذه الأمثلة، وبهذه الكيفية، أي على شكل خطوات است فقد كان البلاغيون قبل ذلك يستصعبون هذه المهمة، بدليل قول السعد في الم (وتحقيق كيفية هذا المجاز وبيان أنه من أي نوع من أنواعه مما لم يحم أحد ويقول السيد الشريف معلقاً في حاشيته على كلام السعد المذكور: (قال: (ل يحم أحد حوله)) أقول وذلك لصعوبة بيان علاقة المجاز وكيفية المناسبة المج ونحن نذكر في هذه المواضع ما يتضح به وجه المجاز فيها وتستعين به فيما عدا

والسعد نفسه، وإن نوّه إلى تجنب الشراح لموضوع تفسير تلك العلاقة، ف لم ينجز تلك المهمة في (المطول)؛ وإنما تكفل السيد الشريف بذلك في حاشيته أمثلة تطبيقية على تحليل بعض الأفعال الكلامية التي يخرج الاستفهام إ كالاستبطاء والتعجب، ثم ترك الباب مفتوحاً لتحليل البقية بقوله: (وقس

---

(١) هذا شيء طبيعي فالمغربي والآخرون هم شراح تلخيص مفتاح السكاكي.

(٢) التفتازاني، سعد الدين، المطول على التلخيص، مطبعة أحمد كامل، اسطنبول، ١٣٣٠هـ: ٢٣٥

الطائره) .ومهما يكن فإن تحليل المغربي يبقى يتميز على سواه بزيادة التفصيل
مولية، لذلك فضلناه.

السبب في اختيارنا الجمل الاستفهامية كأمثلة على تحليل الفعل الكلامي غير
هو لغرض المقارنة مع أمثلة (سيرل) حيث ركّز الأخير على الجمل الاستفهامية.
المغربي[1] (مواهب الفتاح) في شرح تلخيص القزويني لمفتاح السكاكي:
ثم ان هذه الكلمات)) الاستفهامية (كثيراً ما تستعمل) أي تستعمل كثيراً (في)
ى أخرى (غير الاستفهام) الذي هو أصلها، فتكون في ذلك الغير مجازاً لمناسبة
قرينة دالة في المقام وذلك ((كالاستبطاء نحو)) قولك لمخاطب دعوته فأبطأ في
((كم دعوتك؟))، فليس المراد استفهامه عن عدد الدعوة لجهله بها. ولايتعلق
ض، فقرينة الإبطاء واستثقاله، مع عدم تعلق الغرض بالاستفهام ومع جهل
ب بالعدد، دالة على قصد الإستبطاء. والعلاقة: أن السؤال عن عدد الدعوة،
و مدلول اللفظ، يستلزم الجهل بذلك العدد، والجهل به يستلزم كثرته عادةً أو
أنه لايحصره الإدراك من أول وهلة. وكثرته تستلزم بعد زمن الإجابة عن زمن
، والبعد يستلزم الاستبطاء. فهو كالمجاز المرسل لعلاقة اللزوم من استعمال
في الملزوم في اللازم.) (التوكيد من تصرفي)

النص المتقدّم غني جداً ويمكن أن يكتب عنه الكثير. فهو يبين أن المقصود من
قولنا (استفهام مجازي) هو المجاز المرسل وليس المجاز الاستعاري (التشبيهي).
كان حرياً بالمغربي أن يقول أنه مجاز مرسل مركب، وهذا هو الأهم؛ فمجرد
لاً لايضمن كونه مركباً لأن من المعروف أن المجاز المرسل أغلبه من النوع
ما المجاز في المثال الذي أورده المغربي هو من النوع المركب لأنه يتضمن
جملة بأكملها (بصورتها المجموعية) لأداء فعل كلامي مغاير لم توضع له
ا المبرر لإضافة صفة (المرسل) للتسمية. فهو أن العلاقة في هذا النوع من
ت التشبيه وإنما هي السببية أو اللزومية؛ وهذه، بالطبع، من علاقات المجاز
ليس هناك شبه بين السؤال عن عدد مرات الدعوة وبين الاستبطاء، وإنما
م بين الاثنين.

النص يتناول بصورة ضمنية موضوعاً طالما شغل فلاسفة أفعال الكلام في
خص (سيرل)، ألا وهو مسألة هل أن الجملة حين تستعمل في إنجاز فعل
تبقى محتفظة بمغزاها الأصلي الحرفي أيضاً، أم أنها تتحول كليةً إلى إفادة

---

[1] ابن يعقوب، مواهب الفتاح، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٤٢هـ: ٢٩٠

المغزى الجديد؟ لكننا سنتناول هذا الموضوع فيما بعد كما ورد عند الـ
والاسفراييني، فهما قد ركزا على هذه المسألة بصورة أكبر.

والآن سأوجز وأتناول جانباً واحداً من النص المذكور في أعلاه، وهو خـ
الاستنتاج أو الاستدلال من الفعل الكلامي المباشر (الاستفهام)، على الفعل الكلا
المباشر (الاستبطاء). ولنحاول أن نعرض تحليل المغربي على شكل خطوات متسـ
من وجهة نظر المخاطب، على غرار الخطوات التي أوردناها من سيرل(١٩٧٥)، لـ
عملية المقارنة بين الطريقتين في الاستدلال:

(أ) لقد قال لي المتكلم ((كم دعوتك؟)) وهي جملة استفهامية (حقيقة من
المخاطبة).

(ب) مدلول تلك الجملة الاستفهامية هو طلب معرفة عدد مرات الدعوة (حقيـ
حقائق اللغة/ فمح).

(ج) لايتعلق الغرض بالاستفهام عن عدد مرات الدعوة. (معلومات وحقائق
مبدأ التعاون الحواري، وبالأخص قاعدة الصلة التي يسلم بها المغربي كـ
حاصل).

(د) فضلاً عن أن المتكلم ليس جاهلاً بذلك العدد. (معلومات وحقائق عامة).

(هـ) فليس المراد استفهامه عن عدد الدعوة لجهله بذلك (استنتاج من الـ
السابقة).

(و) كان المتكلم قد دعاني فأبطأت في الجواب (حقيقة من حقائق المخاطبة).

(ز) إن السؤال عن عدد الدعوة، الذي هو مدلول اللفظ، يستلزم جهل السائـ
العدد. (الشرط التحضيري للاستفهام/ شروط الموفقية/ نظرية أفعال الكـ

(ح) إن الجهل بذلك العدد يستلزم كثرته عادةً أو ادعاءً. وأنه لايحصره الإ
أول وهلة (استنتاج من الخطوة السابقة).

(ط) إن كثرة عدد مرات الدعوة تستلزم بُعد زمن الإجابة عن زمن السؤال
من الخطوة السابقة).

(ي) إن بعد زمن الإجابة في (ط) يستلزم أني كنت بطيئاً في الإجابة، ومن ثـ
استبطائي (استنتاج من الخطوتين السابقتين).

(ك) إذن فالمتكلم بقوله ((كم دعوتك؟)) لايريد الاستفهام، بل يريد إ
(مجاز مركب مرسل علاقته اللزوم، أي استخدام الملزوم للدلالة على اللازم)
هذه الخطوات الاستنتاجية أخذتها كلها نصاً تقريباً من كلام المغربي الوار

---

(١) إن المواصفات الأساسية لنظريات الاستنتاج متوافرة في تحليل المغربي هذا. وفي تحليل الـ
الجرجاني والسكاكي من قبله

ما فعلته هو أني أعطيت لكل خطوة رقماً أو حرفاً كما فعل (سيرل)، وأضفت بين قوسين تفسيراً للخطوات على غرار ما فعله (سيرل). علماً أن الكثير من تلك الخطوات كان معروفاً عند اللغويين والأصوليين في العالم العربي الإسلامي لكنهم عدّوها من المسلمات التي لاتحتاج الذكر.

والسؤال الآن هو: ما الذي تركه المغربي لـ(سيرل)؟ وهل هناك خطوة مهمة ذكرها (سيرل) ولم يذكرها المغربي؟ لا أظن ذلك. إن الاختلاف الوحيد هو استخدام (سيرل) لمصطلحات كان المغربي واللغويون العرب يفهمونها ضمناً أو يعدونها تحصيل حاصل لا حاجة إليه. مثال ذلك أن أكثر الخطوات تدخل فيها المعلومات السياقية المشتركة والخلفية بين المتكلم والمخاطب، وهذا ما يعده اللغويون العرب تحصيل حاصل لا حاجة إلى ذكره، وإن كان تحديدهم عن القرائن السياقية يغطي ذلك ضمناً، كما في قول المغربي بشأن تحول مغزى الاستفهام(لمناسبة بمعونة قرينة دالة في المقام)، وهو مما أكدناه في النص المتقدم.

ثم إن (سيرل) يشير إلى أن ما يقابل عنده الخطوة (جـ) في تحليل المغربي، يحصل باستغلال (قاعدة الصلة) من قواعد المحاورة التي قال بها (كرايس). لكن في تحليل المغربي في الخطوة (جـ) ما يدل على إدراكه أن الغرض لايتعلق بالاستفهام عن ذلك، وهذا يدل على إدراكه لاستغلال قاعدة الصلة في هذه الخطوة، وهو يستعمل مصطلح (كرايس) نفسه حين يذكر (العلاقة) و (المناسبة) وهي تعابير متنوعة عن فكرة الصلة. و(سيرل) يعد الخطوة (جـ) هي الخطوة الحاسمة في عملية الاستدلال على الفعل الكلامي غير المباشر، حيث يكتشف المخاطب أن المغزى المقصود لايتساوق مع ظاهر الكلام أو مدلولها الوضعي. والمغربي بالطبع لايستعمل مصطلحات نظرية أفعال الكلام أو مصطلحات نظرية التلويح الحواري، بل يستعمل مصطلحاً عربياً موازياً. فبدلاً من أن يسمي المثال الذي حلله (فعل كلام غير مباشر) فهو يسميه (مجازاً) علاقته اللزوم أو السببية. لكن العبرة ليست بالمصطلحات والتسميات بل بالإدراك الفعلي. لذلك أقول: من الناحية العملية والفعلية ليس هناك فرق بين الاثنين برغم الشقة الزمنية الفاصلة بينهما.

والدسوقي في (عروس الأفراح) يورد نفس التحليل لنفس القولة، ولكن بصورة أكثر إيجازاً من تحليل المغربي. والسبكي يفضّل أن يجعل الفعل بصيغة المضارع (لِمَ لا أدعوك؟) لأنه، كما يقول،(أدل على بقاء الطلب والاستبطاء، بخلاف الماضي أو المصدر من موبّخ قد انقطع غرضه من إجابة دعائه أو بعد تعذر الإجابة)

ثم يقول[1]:

(إن الاستبطاء في قولك (كم أدعوك) معناه أن الدعاء قد وصل إلى حد لا عدده. فأنا أطلب أن أفهم عدده. والعادة تقضي[2] بأن الشخص يستفهم عن عدد صدر عنه إذا كثر فلم يعلمه. وفي طلب فهم عدده ما يشعر بالاستبطاء) (التوكيد تصرفي)

والسبكي يشير إلى أن حالات خروج الاستفهام على خلاف مقتضى الظاهر بالتعبير المعاصر استخدام صيغة الاستفهام في إنجاز الأفعال الكلامية غير المباشرة يسمى (الإعنات)، وأن ابن المعتز سماه (تجاهل العارف). وقد لاحظنا أن البلاغيين المتأخرين أسموه (استفهاماً مجازياً) أو غير حقيقي. ولا عبرة بالأسماء، كما ذكرنا.

والآن نعود إلى المغربي لنورد مثالاً آخر منه على فعل كلامي غير مباشر (العرض) - باستخدام الاستفهام. فبعد أن يقارن المغربي بين فعلي (العرض) (التحضيض)، يحلل مثالاً على العرض، وهو قول القائل (ألا تنزل تصب خيراً؟) المغربي[3]:

(وإنما قلنا أن العرض داخل في الاستفهام لأنك إذا قلت (ألا تنزل تُصِبْ خيراً) مثلاً، فالهمزة فيه للاستفهام في الأصل، ومنع في الحال من إرادة الاستفهام كون النزول في الحال وفي الاستقبال معلوماً بقرينة من القرائن، أو نزل منزلة المعلوم كون السؤال عنه لايتعلق به الغرض. والاستفهام إنما يكون عن المجهول استقبالاً مع تعلّق الغرض. ولما تعذر الاستفهام الحقيقي للعلم ولعدم تعلّق الغرض حمل على الإنكار بقرينة إظهار محبة ضد مدخولها.ومعلوم أن إنكار النفي يتولد منه طلب ضده ومحبته فتضمن الكلام طلب النزول وعرضه على المخاطب) (التوكيد تصرفي).

وفي هذا المثال أيضاً يمكن أن نذكر خطوات الاستنتاج فيه على غرار المثال السابق فهو لايختلف كثيراً من ناحية طريقة التحليل والاستنتاج. ومن خلال السطور التي أكدناها يتبين إشارة المغربي لمبدأ (تجاهل العارف) أو (سوق المعلوم مساق غيره) لـ(قاعدة الصلة)، ولدور العرف أو المعلومات الخلفية المشتركة. وهذه كلها

---

(1) السبكي، بهاء الدين، عروس الأفراح، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٤٢هـ:٣٠٤

(2) هذه إشارة واضحة إلى فكرة القرائن والمعلومات السياقية المشتركة ومنها العرف والتقاليد ودورها في استنتاج المغزى غير المباشر

(3) المغربي، ابن يعقوب، مواهب الفتاح، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٤٢هـ: ٣٣٠

ودة في مثال الاستبطاء وخطواته الاستنتاجية. ويورد الدسوقي في حاشيته[1] لات دقيقة بشأن خطوات الاستنتاج في هذا المثال يضيق المجال بذكرها.

نا أود أن أقول أنه كان الأجدر بابن الأثير والعلوي أن يحللا أمثلة الأفعال ية غير المباشرة، بنفس هذه الطريقة، وباستخدام الخطوات الاستنتاجية مثلاً لتحليل قول عمر (رضي الله عنه) لعثمان (رضي الله عنه) (أية ساعة هذه؟) معرضاً به لتأخره صلاة الجمعة. فهذا مثال رائع جداً على الاستخدام اليومي المتداول لمثل هذه ال غير المباشرة. غير أن ابن الأثير في (المثل السائر) والعلوي في (الطراز) اكتفيا المثال ووصفه بأنه من التعريض اللطيف والرشيق والمعرب عن الأدب. وكلامهما ير كافٍ لتفسير اللطافة والرشاقة والأدب في ذلك المثال على التعريض، بل هو قرب إلى الأحكام الانطباعية الذوقية التي كانت سائدة قبل الشيخ عبد القاهر اني.

ورد الآن بعض الأمثلة الأخرى على تحليل أفعال الكلام غير المباشرة المنجزة عمال الجملة الاستفهامية، لكي نثبت أن هذه الطريقة في التحليل كانت جية عند مدرسة (الجرجاني/ السكاكي) وأنها لم تكن مجرد نزوة أو فكرة عابرة في مثال واحد يتيم.

ل المغربي شارح التلخيص في كتابه (مواهب الفتاح)[2]، في معرض تحليله ثال الاستفهام لغرض (التعجب)، ما يأتي:

التعجب نحو) قوله تعالى حكاية عن سليمان، على نبينا وعليه أفضل السلام: أرى الهدهد؟)، فإن الغرض من هذا التركيب التعجب لأن الهدهد كان لا يغيب سليمان، صلى الله على نبينا وعليه وسلم، إلا بإذنه. فلما لم يبصره، تعجب من نفسه وعدم رؤيته. والمتعجَّب منه في الحقيقة غيبته من غير إذن. وإنما لم يحمل ظاهره من السؤال عن حال نفسه عند عدم الرؤية لأن الإنسان أعرف بحال غالباً، فلا يستفهم عنها...) (التوكيد من تصرفي)

لأن المغربي يبدي ملاحظة ذكية على هذا التفسير الشائع لعدم حمل الاستفهام ظاهره. فهو يقول إن التفسير الشائع المذكور أعلاه ينطبق فقط على الأحوال ة بالمتكلم وحده والتي لا تخفى عنه، كقيامه وقعوده وجوعه وعطشه، إذ لا إرادة: (ما حالي هل أنا عطشان أو جائع أو لا؟). ولهذا يصير الاستفهام في هذه

---

(1) الدسوقي، محمد بن أحمد، حاشية الدسوقي على شرح السعد، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٤٢هـ:

(2) ابن يعقوب، مواهب الفتاح، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٤٢هـ: ٢٩٢

الحالة مجازياً. أما السؤال عن الأحوال المنفصلة أو المتعلقة بغير المتكلم أيضاً، ف هناك غرابة في أن يسأل المتكلم عن نفسه بها. وفي هذه الحالة يمكن الاستفهام النفس دون أن يتوجب أن يكون الاستفهام مجازياً، إذ يمكن أن يجري على الح ومن هنا يفسر المغربي ما ذهب إليه الزمخشري وغيره من إجراء الاستفهام في الآية الكريمة على الحقيقة. فالسبب هو أن السؤال في الآية الكريمة يمكن حمل الحال المنفصلة التي يمكن فيها الاستفهام. لنستمع إلى المغربي وهو يكمل كلامه

(.كذا يقال. ولكن هذا في الأحوال التي لاتخفى عن صاحبها كقيامه وقعوده و وعطشه، فلا يقال: ما حالي أي أنا قائم أو قاعد أو أنا جائع أو لا؟ وأما إن كا الأحوال المنفصلة أو ما في حكمها، فيجوز أن يستفهم الإنسان عنها كأن يقال: أوذى دون سائر المسلمين؟ أي ما السبب الذي صار متعلقاً بي وحالاً من أ فأوجب إذايتي؟ اللهم إلا أن يقال أن الحال المنفصلة ليست في الحقيقة حال ولما أمكن حمل السؤال في الآية على الحال المنفصلة التي يمكن فيها الاس أجريت على الاستفهام الحقيقي عند بعض الناس كالزمخشري)

ثم يشرع المغربي في تفسير التجوز أو اللامباشرة بناء على أن الاستفهام خرج مغزى التعجب، فيقول في الصفحة نفسها (٢٩٢):

(ووجه التجوز بناء على أن الاستفهام للتعجب، أن السؤال عن الحال السبب في عدم الرؤية يستلزم الجهل بذلك السبب، والجهل بسبب عدم يستلزم التعجب وقوعاً أو ادعاءً، إذ التعجب معنى قائم بالنفس يحصل م الأمور القليلة الوقوع المجهولة السبب. فاستعمل لفظ الاستفهام في التعجب مرسلاً من استعمال الدال على الملزوم في اللازم)[1]

ومن المغازي الكلامية التي يحققها الاستفهام بصورة غير مباشرة، (التنبي الضلال). ويحلل المغربي المغزى غير المباشر في هذه الحالة فيقول في الصفح (ص ٢٩٢):

{ ((وكالتنبيه على الضلال نحو)) قوله تعالى ((فأين تذهبون؟)). إذ ليس منه استعلام مذهبهم، بل التنبيه على ضلالهم وأنهم لا مذهب لهم ينجون به. و يؤكد هذا الاستعمال بالتصريح بالضلال فيقال لمن ضل عن طريق القصد:

---

(١)أورد الاسفرايني في كتابه (الأطول ج١ ص٢٤٣) التعليل نفسه ولكن بأسلوب أوضح التعجب لأن الاستفهام عن سبب عدم رؤيته يستلزم قلة وقوعه والجهل لسببه، إذ لايُستفهم سبب ما يكثر وقوعه. وقلة الوقوع والجهل بالسبب يستلزم التعجب لأنه كيفية نفسانية تابعة الأمور القليلة الوقوع المجهولة الأسباب..)

...ن تذهب؟ قد ضللت فارجع). وبهذا يعلم أن التنبيه على الضلال لايخلو من ... والنفي. والعلاقة بين التنبيه على الضلال والاستفهام أن في الاستفهام تنبيه ...ب على المستفهم عنه وذلك مستلزم لتوجيه القلب له وتوجيه القلب إلى ... الذي تراه واضح الفساد والهلاك والضلال، مستلزم للتنبيه إلى الضلال الذي ... للتنبيه عليه. فهو مجاز مرسل من استعمال الدال على الملزوم في الجملة. وقد ... التنبيه على الضلال على وجه الاستفهام إشارةً لطيفة إلى أن إدراك الضلال ... التنبيه، وأن المنبَّه كأنه أعلم به حتى أتى فيه بطريق الاستفهام الذي إنما ...ن هو أعلم بالمستفهم عنه)[1].

... تحليل المغربي للاستعمال غير المباشر لجملة الاستفهام في إنجاز فعل (الوعيد) ...يد، يتحدث بصورة صريحة عن (المعلومات المتبادلة) *(Mutual Knowledge)* ...كرها (سيرل) وغيره من اللغويين المعاصرين في تحليلاتهم. وهذا مما يؤكد ما ...ليه من أن المغربي وغيره من البلاغيين كانوا مدركين لدور المعلومات والمعتقدات ...ة والمتبادلة، بصورة ضمنية من خلال تحليلاتهم، وإن لم يذكروها صراحة، ...يرونها تحصيل حاصل مسلماً به. فلنستمع إلى المغربي[2]:

...كالوعيد كقولك لمن يسيء الأدب)) معك: ((ألم أؤدب فلاناً؟))[3] وإنما يكون ...((إذا علم)) المخاطب المسيء للأدب ((ذلك)) التأديب، فلا يحمل كلامك على ...لم لأنه يستدعي الجهل، وهو عالم أنك عالم بتأديب فلان، بل يحمله على ...ك من الوعيد بقرينة كراهية الإساءة المقتضية للزجر بالوعيد. والعلاقة كون ...لم عن شأن الأدب في الإساءة مشعراً ومنبهاً على أنه جزاء الإساءة لينزجر عنها، ...على ذلك الجزاء من المتكلم وعيد. فهو مجاز مرسل من استعمال اسم الملابس ...سه باللزوم في الجملة.((التوكيد من تصرفي).

...لومات والمعتقدات المشتركة والمتبادلة تعتبر جزءاً مهماً من مفهوم السياق ... المقامي. فإذا كانت حال المتكلم والمخاطب، مثلاً، هي المعرفة المتبادلة بينهما ...خاطب بالتأديب، كما في المثال المذكور أعلاه مثلاً، فإن السؤال لايحمل على

---

[1] ...ى الإسفرايني (الأطول ج١ ص٢٤٣) هذه الإشارة اللطيفة نوعاً من المبالغة حيث قال: (وفي ...ل الاستفهام دون التصريح بكونه طريق ضلال، مبالغتان: إحداهما أن كونه ضالاً أمر واضح يكفي ...ه به مجرد الالتفات إليه، والثانية إيهام أن المخاطب أعلم بذلك الطريق من المتكلم حيث يحتاج ...ؤال عنه).

[2] ... ابن يعقوب، مواهب الفتاح، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٤٢هـ: ٢٩٢

[3] ... الإسفرايني تحليل هذا المثال في (الأطول ج١ ص٢٤٣) بتفصيل أكثر مع ذكر بدائل أخرى للتحليل

الاستفهام لأن الاستفهام يستلزم الجهل على حد تعبير المغربي. ومن هنا يتبين إ
المهم للمعلومات المتبادلة كعنصر فعلياتي وسياقي حاسم في تحديد مغزى الكلا
على الأقل في تحديد كونه مباشراً أو غير مباشر. فهو يمثل نقطة حاسمة في ع
الاستدلال، كما قال (سيرل)، لأنه يساعد المستمع، في مفترق الطرق، على اتخا
باتجاه التفسير المباشر أو غير المباشر أما تشخيص الفعل الكلامي أو المغزى المق
بالذات فتتظافر فيه المعلومات المتبادلة وبقية القرائن السياقية وقابلية المستمع
الاستنتاج وقواعد المحاورة.. الخ مما تقدم ذكره.

وأما بالنسبة لاستخدام الاستفهام في الإنجاز غير المباشر لفعل (التقرير)، ف
المغربي نوعين من المغزى ويميز بينهما هكذا[1]:

(((وكالتقرير)) ويكون لمعنيين: أحدهما التحقيق والتثبيت، كقولك، عند
الانتقام أو اللوم والعزم على الشروع فيه لا على طريق الوعيد والتخويف، (أ
فلاناً؟) بمعنى: (إنك قتلته قطعاً، فلا نجاة لك من اللوم أو القتل). والعلاقة ف
الاستفهام مقتضٍ لكون المستفهم أعلم بحيث لاينكر بل يحقق ما استفهم
فاستعمل في التحقيق الذي لاينكر توسعاً ومجازاً بالملابسة اللزومية في الجمل
تقدم. والآخر حمل المخاطب على الإقرار وإلجاؤه الى ذلك الاقرار والزامه إياه لأ
من الأغراض، كأن يكون السامع منكراً لوقوع ذلك الفعل من المخاطب، فتر
يسمعه منه من غير قصد لحقيقة الاستفهام المستلزم للجهل؛ أو يكون في السما
تلذذ بسبب المراجعة في الخطاب أو نحو ذلك... والاقرار، أي حمل المخاطب
الإقرار، تابع له [للاستفهام] لأن الجواب في الاستفهام إقرار. فالاستفهام مس
لحمله على الإقرار في الجملة. فاستعمل الاستفهام في مطلق طلب الإقرار م
سابق جهل مجازاً مرسلاً فيعتبر في التقرير ما يعتبر في أصله.) (التوكيد من تصر

إن النص المتقدم لايختلف عن النصوص السابقة الأخرى في تفسيره وت
لعملية الاستنتاج أو التوصل إلى المغزى غير المباشر للجملة الاستفهامية. ويلاحظ
سعة أفق المحلل ورؤيته الفعلياتية لتنوع المغازي والتفسيرات التي يمكن أن تم
مثل التحقيق، والتلذذ بسبب المراجعة والتقرير أي حمل المخاطب على الإقرا
إسماع الشخص الثالث المنكر لوقوع الفعل. وهذا المغزى الأخير قريب جداً مما ي
في المحاكمة والاستجواب. ويسمى في اللغة الانكليزية (السؤال التقريري) *ding*
Question والذي يقصد منه حمل المخاطب على الاقرار ليسمع الحاضرون،

(١) المغربي، ابن يعقوب، مواهب الفتاح، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٤٢هـ: ٢٩٤

المعلومات.

المثـال الأخير الـذي نـورده مـن المغربي على تحليـل أفعـال الكـلام غير المباشـرة ...وات استنتاجها يتعلق باستخدام الاستفهام لغرض (التهكم) و (التحقير). يقول ...:[1]

((وكالتهكم نحو)) قوله تعالى حكاية عن الكافرين في شأن شعيب على نبينا وعليه ... الصلاة والسلام: ((أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا؟)). فليس المراد به ...ال عـن كـون الصـلاة آمـرة بمـا ذكـر، وهـو ظـاهر، بـل قصـدهم لعنـة اللّـه علـيهم ...خفاف بشـأن شـعيب في صـلاته،فكأنهم يقولـون: لا قرينـة لـك توجـب اختصاصـك ...ونهينـا إلا هـذه الصـلاة الـتي تلازمهـا، وليسـت هـي ولا أنـت بشـيء. وبهـذا الاعتبـار ... الصلاة كما يُشك في كونه سبباً للأمر، فنسب الأمر لها مجازاً عقلياً كما تقدم. ...هذا التركيب مجازاً إسنادياً، وفيه أيضاً، باعتبار آله الاستفهام، [مجاز] لغوي. ...قـة أن الاسـتفهام عـن كـون الصـلاة آمـره ينـاسـب اعتقـاد المخاطـب أنهـا آمـرة. ...اد ذلك يقتضي الاستهزاء بالمعتقد، إذ ليست مما يأمر أو ينهي. فهو مـن المجاز ...ل لعلاقـة اللـزوم في الجملـة. ((وكالتحقير نحـو)) قولـك: ((مَـنْ هـذا؟)) لقصـد ...اره مع أنك تعرفه. والعلاقة أن المحتقر من شأنه أن يُجهَل لعدم الاهتمام به، ...تهم عنه. فبينهما اللزوم في الجملة..).

...مثال التهكم الوارد في النص أعلاه هو مثال مركب، كما هو واضح. فقد اختلط ...التعريض بالاستعارة المفردة. أو لنقل أنه يحتوي مجازاً مركباً ومجازاً مفرداً. وقد ...المغربي هذا التركيب وفسره بشكل مقبول.

...إن المغربي قـد تنـاول خـروج الاسـتفهام لإفـادة مغـزى الإنكـار، لكـن تحليلـه كـان ...ضيق به المجال. ثم إن العصام الاسفراييني، صاحب كتاب (الأطول) في شرح ...ص، تناول أيضاً نفس المثال على استخدام الاستفهام للإنكار. ولا بـأس في أن ...إستعراضـنا المـوجز لتحليلات فعل الكلام غير المباشـر، بتحليل العصـام لفعـل ...) باستخدام الجملة الاستفهامية. فهو يتسم بالدقة والعلمية وبخاصة تحليل ... السند (السـيد الشـريف الجرجـاني) الـذي يستشـهد بـه. ويميز العصـام، متـأثراً ...ده السكاكي، بين نوعين من الإنكار. الأول يعني التوبيخ لعدم لياقة الفعل المنكر؛ ...ي يعني تكذيب من ادعى حصول الفعل المنكر. ولنقتبس المقطع الآتي منتحليله ...فهام الإنكاري كما في قـول القائل لمن همَّ بالعصيان (أتعصى ربك؟)، أو كما في

...ربي، ابن يعقوب، مواهب الفتاح، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٤٢هـ: ٣٠٣

قوله تعالى ((أفأصفاكم ربكم بالبنين؟)). يقول في(الأطول) [١]

(والعلاقة بين الاستفهام والإنكار بمعنى نفي اللياقة أن ما لاينبغي مما لا
العاقل بوقوعه في الماضي أو المستقبل، ويشك فيه والشك يستدعي الاستفهام،
بالاستفهام أنه مما لاينبغي. وكذا بين الاستفهام والإنكار بمعنى التكذيب. إن
الكاذب، وإن ادعاه أحد، لاينبغي أن يصدّق به، غاية الأمر الشك فيه. فأفاد المـ
أن غاية الأمر فيه الشك دون الدعوى. وقال السيد السند: إنكار الشيء بمعنى
والنفرة عن وقوعه في أحد الأزمنة. وادعاء أنه مما لاينبغي أن يقع يستلزم الجـ
المستلزم لعدم توجه الذهن إليه، المناسب للكراهة والنفرة عنه وإدعاء أن
لاينبغي أن يكون واقعاً. وقس على هذا حال الإنكار بمعنى التكذيب.)[٢]

لا أظن أنّ أحداً يجرؤ على التشكيك في علمية ومنطقية هذا التحليل
الفعلياتي من السيد الشريف الجرجاني والعصام الاسفرايني. فهذا التحليل
لزمانه في بيان كيفية اكتساب القولة لمغزاها الفعلي غير المباشر والخطوات الـ
المستمع في استنتاج ذلك المغزى. وفي هذا النوع من التحليل يبدو جلياً أن المـ
استفاد من علم الدلالة والفعليات وعلم النفس وغيرها من الحقول.

لقد ركزنا في هذا القسم بصورة رئيسة على ما كتبه أحد شراح الـ
بخصوص بعض حالات الفعل الكلامي غير المباشر المنجز باستخدام الاستفهام
بما كتبه بخصوص الحالات الأخرى؟ وكيف بما كتبه الآخرون وهم كثر؟ وكيف
الذي كُتب ولم يصلنا، أو وصلنا لكنه ما زال مخطوطاً لم ينشر لحد الآن؟
كتاب كامل مكرس فقط للاستفهام وللأفعال المجازية (غير المباشرة)
باستخدامه، وهو كتاب العلامة (شمس الدين بن الصائغ) وعنوانه (روض
أقسام الاستفهام). وقد ذكره السيوطي في (الإتقان)[٣] فقال: (وقد تستعمل
الاستفهام في غيره مجازاً. وألّف في ذلك العلامة شمس الدين بن الصائغ كتاب
(روض الأفهام في أقسام الاستفهام)، قال فيه: قد توسعت العرب فأخرجت
عن حقيقته لمعانٍ أو أشربته تلك المعاني..) ولاندري ما مصير هذا الكتاب
كثيرة؟ وهو موضوع يستحق الاستقصاء.

---

(١)الإسفرايني، عصام الدين، الأطول في شرح التلخيص، المطبعة السلطانية، اسطانبول، ١٢٨٤
٢٤٥:

(٢)كلام العصام في اغلبه منقول نصاً عن أستاذه السيد الشريف الجرجاني، الذي يلقبوله أحيا
السند). أنظر حاشية السيد الشريف على المطول (ص٢٣٨) فهو العقل المفكر وراء الكثير
المغربي والعصام وغيرهم من الشراح

(٣)السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٧٣: ٧٩

كله فيما يخص استخدام الاستفهام فقط. وهناك بالطبع نفس القدر من والتحليلات والاستنتاجات فيما يخص الأمر والنهي والخبر وأنماط الجمل تعج بها كتب شراح التلخيص وغيرهم ويضيق بها المجال. لهذا توجب علينا أن تقاشين.

أود أن أعود فأؤكد ما سبق أن ذكرته من أنه كان حرياً بالمغربي وبقية شراح أن يسموا الأفعال الكلامية غير المباشرة التي حللوها (مجازاً مركباً)، لأن هذه سمة في الموضوع. فالفعل الكلامي غير المباشر هو، حسب تعريف (سيرل)، م فعل كلامي لإنجاز فعل كلامي آخر، أو إضافة إلى الفعل الكلامي الحرفي بنمط الجملة. وهذا هو بالضبط مفهوم (المجاز المركب): فهو عبارة عن م الجملة أو التركيب بأكمله أو بصورته المجموعية، في غير ما وضع له، لعلاقة السياق وستراتيجية المستمع في الاستنتاج. فالاستفهام، مثلاً، وضع في الأصل فهم أو طلب التزود بالمعلومات التي يجهلها المستفهم، وليس للأغراض غير أو المجازية التي أوردنا أمثلة على بعضها.

إن لفظة (مجازي) في مصطلح (استفهام مجازي) تتعلق بالمجاز المركب لأولى. أما ما ذكره المغربي والشراح الآخرون من أنه (مجاز مرسل)، فهو مع كونه مجازاً مركباً. فالأمثلة التي أوردناها كانت في آن واحد مركبة ي علاقتها ليست علاقة تشبيه.

كر القارئ، بما سبق أن أكدناه من أن هناك نوعاً من المجاز المركب علاقته حسب رأي البلاغيين، وهو المجاز التمثيلي أو الاستعارة التمثيلية. وهذا ل للنقاش، في رأيي. فقد سبق أن أبدينا رأياً رددنا فيه كافة علاقات المجاز ي التعريض، إلى قاعدة الصلة واستغلالها. وهذا يفسر إصرار البلاغيين ناً على ذكر ما يسمونه بـ (العلاقة) بين المعنى الحرفي الحقيقي وبين المعنى لابد من علاقة أو صلة، أي صلة بين المعنى والسياق، وبين (معنى الجملة) تكلم)، أو بين المعنى الوضعي الحقيقي والمعنى المجازي غير المباشر. وقد ي المجازي غير المباشر لأن استغلال (قاعدة الصلة أو المناسبة) لابد أن ينتج ي غير ذي صلة ظاهرياً، أي مغزى غير مباشر؛ وهذا يشمل (التعريض) و كيب) بكل أنواعه.

ول قائل إن المغربي وبقية الشراح حللوا المجاز المركب بنفس المعايير التي لمجاز المرسل المفرد، مثل علاقة السببية التي يمثل لها بقول القائل (رعينا النبات الذي سبّبه الغيث وهو المطر، لذلك فالعلاقة هي السببية؛ أو مثل

علاقة المسبَّبية كما في قوله تعالى ((وينزل لكم من السماء رزقاً))، فالنبات، الذي الرزق، مسبَّب عن المطر الذي ينزل من السماء، فهو مجاز علاقته المسبَّبية. وعلا المجاز المرسل، كالسببية والمسببية،ليست مقتصرة على المجاز المفرد. فالمجاز المر قد يكون مركباً، كما أسلفنا. وفي تلك الحالة، تكون العلاقة التي يتحدث البلاغيون، مثل السببية وغيرها،علاقة بين جملة كاملة وجملة كاملة أخرى، وليس علاقة لفظة مفردة بلفظة مفردة أخرى. أي أنها علاقة تركيب وليست علاقة ال مفردة. وهذا أمر معروف ومفروغ منه قبل ابن الشجري الذي قال في أماليه في كلامه على المعاني المجازية التي يخرج إليها الكلام[1]: (وأقول أنه كما جاز في الأل المفردة ما يتفق لفظه ويختلف معناه، كذلك أن يكون من الألفاظ المركبة المف يختلف معناه واللفظ واحد).

إذن فليس هناك ما يدعو إلى الخوف من أن شراح التلخيص كانوا يتحدثو المجاز المفرد. وأمثلتهم التي ساقوها أكبر دليل على كلامنا. فكل الأمثلة كانت عبا استخدام تركيب أو جملة بمعنى آخر مغاير للمعنى الحرفي لذلك التركيب أو الجملة بصورتها المجموعية، مع قرينة مانعة من إرادته (أي إرادة المعنى الح الحرفي) ولعلاقة مصححة هي علاقة (اللزوم أو الاستلزام). وعلاقة اللزوم هذه علاقتي السببية والمسببية، وهي، من ثم، تتضمن مفهوم الاستنتاج الذي تمنا نظرية التلويح لدى (كرايس). أما القرينة المانعة من إرادة المعنى الموضوع له، تصرف الذهن عنه، فهي إما قرينة حالية، وتشمل حال المتكلم، لكن يمكننا تو لتشمل (المقام أو السياق المقامي) *Context* الذي يتضمن المعلومات والمع السياقية المشتركة والعرف والتقاليد وما شاكل، أو هي قد تكون قرينة ال ويقصدون بها (السياق اللغوي أو اللفظي)*Cotext*.فالقرينة المانعة هي السياق المقامي والحالي من جهة، و المقالي (اللفظي) من جهة أخرى. والقرينة هي التي المخاطب في الكشف عن طبيعة (العلاقة المصحِّحة) التي تربط بين المعنى ال والمعنى المجازي.

---

(١)ابن الشجري، أبو السعادات، الأمالي الشجرية، حيدر أباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية، ١٩
٢٧٧

المصادر والمراجع

المصادر العربية

ابن الأثير، ضياء الدين،المثل السائر، مطبعة الحلبي، مصر، ١٩٣٩.

ابن الشجري، أبو السعادات، الأمالي الشجرية، حيدر آباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٤٩هـ

الإسفراييني، عصام الدين، الأطول في شرح التلخيص، المطبعة السلطانية، استانبول، ١٢٨٤هـ

التفتازاني، سعد الدين، المطول على التخليص، مطبعة أحمد كامل، اسطنبول، ١٣٣٠هـ

التهانوي، محمد علي الفاروقي، كشاف اصطلاحات الفنون، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٣.

الجرجاني، السيد الشريف، حاشية على المطول، مطبعة أحمد كامل، اسطنبول، ١٣٣٠هـ

الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ١٩٣٢.

الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الاعجاز، تحقيق محمد عبده، مكتبة القاهرة، القاهرة، ١٩٦١.

الخضري، محمد الدمياطي،حاشية على السمرقندية، المطبعة الأزهرية، ١٩٣١.

الدسوقي، محمد بن أحمد، حاشية الدسوقي على شرح السعد، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٤٢هـ

السبكي، بهاء الدين، عروس الأفراح، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٤٢هـ

السكاكي، أبو يعقوب يوسف، مفتاح العلوم، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٧.

السيالكوتي، عبد الحكيم،حاشية على المطول، الشركة الصحافية العثمانية، ١٣١١ هـ

السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٧٣

العلوي، يحيى بن حمزة،الطراز المتضمن لأسرار البلاغة، دار الكتب الخديوية، القاهرة، ١٩١٤.

عياد، شكري محمد (١٩٦٧): كتاب أرسطوطاليس فن الشعر، دار الكاتب العربي ، القاهرة.

القزويني، جلال الدين محمد، تلخيص المفتاح، مطبعة أحمد كامل، اسطنبول ١٣٣٠هـ

المغربي، ابن يعقوب، مواهب الفتاح، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٤٢هـ

جملة من الملفوظات تنتظم في مواقف لغوية تحكمها قواعد اللغة واستعمالاتها، والمواقف الخارجية التي يمثلها السياق غير اللغوي الذي يوجه المتكلم والسامع على حد سواء في توجيه الدلالات اللغوية للكلام. من هنا نجد (فان دايك) الذي يعد أحد الراشدين في اللسانيات النصية، يضيف سمة أخرى إلى سمات النصّ، ألا وهي التداوليّة (*Pragmatics*)*، فهي التي تقوم بمهمة معالجة القيود التي تجعل المنطوقات اللغوية مقبولة أو ملائمة في موقف اتصاليّ يعبر بواسطته مستعمل اللغة، يقول (فان دايك): ((والتداوليّة كأكبر مكوّن ثالث لأيّ نظرية سيميوطيقيّة... ينبغي أن تكون مهمتها دراسة العلاقات بين الرموز والعلامات والمستعملين لها (...) أعني أن التداوليّة يجب أن تعين المجال الأمبيريقيّ (التجريبيّ) القائم على القواعد المتواطأ عليها في اللغة، والبرهنة على هذه القواعد من خلال إنتاج العبارات الملفوظة وتأويلها، وبخاصة يجب أن تسهم إسهاما مستقلا في تحليل الشروط التي تجعل تلك العبارات جائزة ومقبولة في موقف معين بالنسبة للمتكلمين بتلك اللغة))[(١)].

والتداوليّة[(٢)] بوصفها سياقا تواصليا، تقوم أساسا على تفسير النصّ بوصفه فعلا كلاميًا، أو بوصفه سلسلة من أفعال كلاميّة، ((فالوعود والتهديدات، والتأكيدات، والأسئلة، والطلبات، والأوامر الخ... هي أمثلة على الأفعال الكلاميّة. نقوم بفعل كلاميّ

---

* تعرف التداولية (*Pragmatics*) بأنها: (دراسة التواصل اللغوي، وبصفة خاصة العلاقات بين الجمل والسياقات والأحوال التي استعملت اللغة فيها، وهي تدرس:

١. كيفية تفسير الأقوال المستعملة، أو اعتمادها على المعرفة بالعالم الواقعي المحيط بالنص.
٢. كيفية فهم المتحدثين للأحداث الكلامية (*Speech Acts*).
٣. كيفية تأثر تراكيب الجمل في العلاقة بين المتحدث والسامع.

الفقي (د. صبحي إبراهيم): علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، القاهرة، ٢٠٠٠: ١/ ١٣.

(١) فان دايك (تون أ): النص والسياق: ترجمة عبد القادر قنيني: أفريقيا الشرق، د ط، الدار البيضاء، ٢٠٠٠: ٢٦٥-٢٦٦.

(٢) تجدر الإشارة هنا إلى أن تودوروف في دراسته عن فكر ميخائيل باختين، وعند حديثه عن مصطلح (*metalinguistics*) الذي يقترح له مترجم الكتاب تسمية (عبر اللسانيات)، يقول تودوروف: "والاصطلاح المستخدم حاليا والذي يتطابق تماما مع غرض باختين هو التداولية *Pragmatics* على الأغلب، ويمكن للمرء أن يقول من دون مبالغة إن باختين هو المؤسس الحديث لهذا الحقل من حقول المعرفة".

ينظر: تزفيتان تودوروف، المبدأ الحواري، دراسة في فكر ميخائيل باختين، ترجمة: فخري صالح، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ١٩٩٢: ٤٠.

حين ننطق بجملة أو بعدة جمل في سياق ملائم لها))[١]. ويقدم (فان دايك) المثال الآتي: ((هل تستطيع مساعدتي في دفع السيارة))[٢] على أنّ لفظه يعني القيام بفعل الطلب، وأن هذا الفعل لا معنى له ما لم تتوافر فيه بعض الشروط التي تتعلق بالسياق الذي تلفظ فيه العبارة بوصفها فعلا كلاميًا. ففي هذه الحالة (حالة الطلب) يجب أن يكون المتكلّم راغبا في شيء ما، ويفترض بالمتلقّي أن يكون مستعدًا لفعل ذلك الطلب وقادرا عليه. ومن ثمّ فإن هنالك جملة من العوامل التي يتألف منها السياق التداولي تتمثل في المعرفة التي يمتلكها مستعملو اللغة، ورغباتهم أو إرادتهم، وأشيائهم المفضلة، وآرائهم، وأيضا علاقاتهم الاجتماعيّة (علاقة سلطوية، علاقة صداقة... وغيرها)[٣].

وفي حديثه عن تداوليّة النصوص بوصفها متتاليات أفعال كلاميّة، يرى (فان دايك) أن من المهمّ أن تحدّد العلاقات التي تمكّن من ترتيب أفعال كلاميّة في متتاليات أفعال كلاميّة أكبر منها، وعن طريق ارتباط هذه المتتاليات بمتتاليات جمل أو عبارات النصّ المنطوق، يرى أنّ هناك مجموعة من العلاقات هي التي تحكم هذا الارتباط منها علاقة التعليل أو التفسير – التي تكون بين الطلب والإبلاغ مثلا- ((فبواسطة النطق أوجّه طلبا، وبواسطة الجملة السابقة أو اللاحقة للأولى أعلّل طلبيّ، وأعرض أسبابه، إذن يمكننا بوجه عامّ أن نجعل أحد الأفعال الكلاميّة معقولا أو ممكن التصديق بواسطة فعل آخر))[٤].

ويشير (فان دايك)، إلى أنّ من الممكن أن تشكّل متتاليات الأفعال الكلاميّة للنصّ المأخوذ ككلّ –مثلما في بيان المعلومات والسرد والعرض والمحادثة- بالاستدلال الذي قدّمه اعتمادا على بنى تداوليّه كبرى لكي ((نتمكن من الكلام على الوظيفة الإجماليّة لنصّ معين. في الواقع حينما ننطق بنصّ مأخوذ بكلّيته، إنما نقوم أيضا بفعل كلاميّ إجماليّ أو حتى بفعل كلاميّ كبير))[٥]، فهذه الأفعال الكلاميّة الكبيرة مشتقة من

---

(١) فان دايك (تون أ): النص: بناؤه ووظائفه مقدمة أولية لعلم النص: ترجمة جورج أبي صالح: مجلة العرب والفكر العالمي: مركز الإنماء القومي، العدد الخامس، شتاء ١٩٨٩: ٦٩.

(٢) المرجع نفسه: ٦٩.

(٣) يُنظر: المرجع نفسه: ٧٠.

(٤) فان دايك (تون أ): النص: بناؤه ووظائفه مقدمة أولية لعلم النص: ترجمة جورج أبي صالح: مجلة العرب والفكر العالمي: مركز الإنماء القومي، العدد الخامس، شتاء ١٩٨٩: ٧٠.

(٥) المرجع نفسه: ٧٠.

هو تفاعل المعلومات التي يعرّفها النصّ مع المعرفة المسبقة بالعالم.

٣. القصديّة (*Intentionality*):

تتضمن القصدية موقف ملشئ النصّ من صورة معينة من صور اللغة قصد بها أن تكون نصّا يتمتع بالاتّساق والانسجام، وأن نصاً مثل هذا يمثل الوسيلة المرجوّة للوصول إلى غاية بعينها.

٤. المقبوليّة (*Acceptability*):

تشمل المقبولية موقف مستقبل النصّ إزاء كون صورة ما من اللغة لها أن تكون مقبولة من حيث هي نصّ ذو اتّساق وانسجام.

٥. رعاية الموقف (*Situationality*):

ويطلق عليها المقاميّة، وتتضمّن العوامل التي تجعل النصّ مرتبطا بموقف سائد يمكن استرجاعه. ويأتي النصّ في صورة عمل يمكن له أن يراقب الموقف وأن يغيّره. وقد لا يوجد إلا القليل من الوساطة في عناصر الموقف كما في حالة الاتصال بالمواجهة في شأن أمور تخضع للإدراك المباشر، وربّما توجد وساطة جوهرية كما في قراءة نصّ قديم ذي طبيعة أدبيّة بشأن أمور تنتمي إلى عالم آخر(مثلا: ملحمة كلكامش، أو الأوديسا).

إن مدى رعاية الموقف يشير دائما إلى مكانة طرفي الاتصال في الأقل، ولكن قد لا يدخل هذان الطرفان في بؤرة الانتباه بوصفهما شخصين.

٦- التناصّ (*Intertextuality*):

يتضمن التناصّ العلاقات بين نصّ ونصوص أخرى مرتبطة به. وقعت في حدود تجربة سابقة، بوساطة كانت أو بغير وساطة. فالجواب في المحادثة، أو أي ملخص يذكّر بنصّ ما بعد قراءته مباشرة.

٧. الإعلاميّة (*Informativity*):

هي العوامل المؤثرة بلا حتميّة الحكم على الوقائع النفسيّة، أو الوقائع في عالم نصّي في مقابل البدائل الممكنة. فالإعلاميّة تكون عالية الدرجة عند كثرة البدائل وعند الاختيار الفعليّ لبديل من خارج الاحتمال ويرى (دي بوجراند) أنّ اثنين من هذه المعايير السبعة لهما صلة وثيقة بالنصّ، وهما(الاتّساق والانسجام)، واثنين منهما نفسيّان، هما (رعاية الموقف والتناصّ). أما المعيار الأخير (الإعلاميّة) فهو بحسب

التقدير[1]. ويرى أنّ هذه المعايير لا يُفهم أيّ منها من دون التفكير في العوامل الأربعة، اللغة، والعقل، والمجتمع، والإجراء (*Processing*)، وإنّ النصّ لا يعدّ نصًا إلا بمراعاة هذه المعايير السبعة. ويرى أيضا أنّه لابدّ من مبادئ تنظيميّة تمنح أيّ أنموذج لغوي قيمة ليعترف له من ثمّ بأنه نصّ. ويقترح معايير تؤدي الوظيفة التنظيميّة، يطلق عليها معايير التصميم، وهي[2]:

- كفاءة النصّ: وتأتي من انتفاعه في الاتصال بأفضل نتائج الاقتصاد في الجهد حتى يصل إلى سهولة متزايدة.
- تأثير النصّ: يتوقف هذا المعيار على قوة تأثيره في مستقبليه، وهي تعزز عمق الإجراء، كما يتوقف على الإسهام في الوصول بمنتجه إلى غايته بتأسيس صلة ما بين مادة النصّ وخطوات خطّة ما.
- ملاءمة النصّ للتوافق الكميّ بين مطالب الموقف الاتصاليّ ودرجة مراعاة معايير النصيّة. ويشير الى أنَّ هذه المعايير التصميميّة أكثر حيوية قياسا بمقدرة مستعملي اللغة على التفريق الشهير بين الجمل واللاجمل، أو التفريق بين النصّ واللا نصّ[3].

وفضلا عن المعايير التنظيمية آنفة الذكر ثمة بعد وظيفي يوجّه العلاقة بين النص/الكلام، والتواصل/السياق، إذ يحاول هذا البعد الربط بين البنية اللغوية للجمل، والظروف المقامية التي تنجز فيها، فهو يعالج الظاهرة اللغوية ضمن ظروف خارجية تحيط بالعملية الكلامية، من دون حصر هذه المعالجة في إطار لغوي خالص، لذا فإن هذا الاتجاه ينظر إلى الأبعاد غير اللغوية على أنها علاقات قائمة بين مكونات الجملة، على غرار العلاقات التركيبية والدلالية، وعليه ينبغي عند تحليل الجملة أن يكون ثمة تمثيل للوظائف غير اللغوية، مثلما تمثل الوظائف التركيبية والدلالية، وذلك بقصد تحقيق الأهداف التواصلية بين مستعملي اللغة، التي هي الغاية الأساسية التي تسعى إلى تحقيقها اللغة.

ومن هنا جاءت الإسهامات التي قدمها علم اللغة النصي بالربط بين اللغة بوصفها

---

(١) ينظر: دي بوجراند: ١٠٦.

يشير سعيد بحيري نقلا عن (دي بوجراند) و (درسلر) الى أن الإعلامية ورعاية الموقف هما المعياران اللذان يتصلان بكل من السياق المادي والثقافي المحيط بالنص. يُنظر: بحيري (سعيد حسن): ١٦٩.

(٢) ينظر: دي بوجراند: ١٠٧.

(٣) يُنظر: دي بوجراند: ١٠٧.

❖ المراجع الأجنبية

Gazdar, G. (1979). Pragmatics: Implicature, Presupposition and Logical Form. New York: Academic Press.

Gazdar, G. (1981). Speech Act Assignment. In Joshi, Webber and Sag (1981).

Levinson, S.C. (1983). Prgmatics. Cambridge: CUP.

Searle, J.R. (1975). Indirect Speech Acts. In Cole and Morgan.

Sperber, D. and Wilson, D. (1986,1995). Relevance. Oxford: Blackwell.

الحجاج ونظريات التواصل

د فاطمة داود*

❖ مدخل

تناول هذا البحث قضية الحجاج في الدرس البلاغي المعاصر الذي تبدى في حقلين بين: الحقل اللساني، والحقل النقدي، وانفلت الحجاج ليصبح من فروع نظرية التواصل، ومن هنا ستبين الباحثة العلاقة بين الحجاج ونظريات التواصل، وتوضح ارتباط الوثيق بين البلاغة ونظريات التواصل والسيميائيات في مجال وصف خصائص الإقناعية للنصوص وتقويمها.

لقد تناول المفكرون – قديما – قضية الحجاج في إطار الخطاب الشفوي المباشر جهة، والمساعدات المقامية الشكلية من جهة أخرى، وإذا كانت البلاغة القديمة – يونانية والعربية – قد تناولت الحجاج إلا أنها اكتفت بالإشارة إلى مقامات سامعين، وما يدور في فلك الخطيب في دعم خطابه.

أما الحجاج في الدرس البلاغي المعاصر فقد برز الاهتمام به في الحقلين، اللساني نقدي خاصة، وقد فرضت البلاغة نفسها في مختلف ميادين المعرفة؛ الاجتماعية سياسية، والقانونية، والإعلامية بكل أنواعها، إضافة إلى الدينية، والنفسية، أدبية، والفنية. ومن هنا نشأ ارتباط وثيق الصلة بين البلاغة ونظريات التواصل، سيميائيات في مجال وصف الخصائص الإقناعية للنصوص وتقويمها.

كما أصبح للتواصل مجاله الواسع، الذي يقوم على القصدية الصريحة، وعلى الة الإبلاغية من خلال التأثر والتأثير المباشر في سلوك المخاطب. وانفلت الحجاج من التأثيرات التقليدية للديالكتيك والمنطق ليُستخدم في فرع من فروع النظرية مة للتواصل، ذلك الفرع الذي اعتنى بالرسائل الإقناعية، فانتقل الحجاج من لسوف إلى عالم النفس إلى الإعلام، وتحول من الخطيب إلى العالم النفسي تماعي، إلى الإعلامي الذي استخدم معرفته بخفايا النفس والجماعة لإقناع كل بون شعور بمزايا منتوج، أو بخصال مرشح في حزب سياسي، أو غير ذلك. فأصبح حجاج شأنا من شؤون سيميائيات التواصل.

بما أن الحجاج نبت في بيئة بلاغية وكلامية تعتني بالحوار وفن الإقناع، وأضحت

---

* أستاذة محاضرة، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والفنون، جامعة عبد الحميد بن باديس- مستغانم- الجزائر.

البلاغة تسير في أفق إنساني يتلاق مع السيميولوجيا، وتخطت دراسة جماليات اللغ
وتحليل النصوص إلى فلسفة تفكير، وثقافة للمجتمع وأسلوبية للحوار، وهذا م
جعلها تكتسب طبيعة الازدواجية بين الآلية الحجاجية والآلية التواصلية على مستو
الملفوظ والمكتوب، وبهذا يظل المظهر الحجاجي من أبرز خصائص الفكر البلاغي في
مراحله المختلفة من القديم إلى المعاصر.

والإشكال المطروح هو: ما العلاقة بين نظريات التواصل والحجاج؟ كيف استثم
الحجاج بعض رؤاه من التنظير السيميائي والنظريات التواصلية؟ ما العلاقة بين
البلاغة والحجاج، والتواصل؟. عبر محاور هذا البحث سنحاول الكشف عن نظريا
التواصل التي تعددت توجهاتها، ملقين الضوء على أهمية الحجاج في هذه النظريات

❖ اللغـة وسيميائيات التواصـل

تعددت تعاريف اللّغة بين القدماء والمحدثين، وسنحاول ذكر بعضها يقول ا
جنّي في اللّغة: (أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم)[1]. يؤكد ابن جنّي على شمو
اللغة واجتماعيتها، ووظائفها التعبيرية، حيث حصَر اللغة في الطبيعة الصو
والوظيفة الاجتماعية بقوله (أغراضهم) وهذه الأغراض تشمل الأدوات أيضاً.

ويقول الآمدي: (لمّا كان الواحد لا يستقل بتحصيل معارفه بنفسه وحده
مُعين، ومساعد له من نوعه، دَعَت الحاجة إلى نصب دلائل يتوصل بها كل واح
معرفة ما في ضمير الآخر من المعلومات المُعِينَة له في تحقيق غرضه، لذلك است
الإنسان ما يتركب من المقاطع الصوتية التي خصّ بها نوع الإنسان دون سائر
الحيوانات ومن اختلاف تركيبات المقاطع الصوتية، حدثت الدلائل الكلامية والع
اللغوية)[2].

وهذا التعريف لا يخرج عن كون اللغة أداة للتواصل ومجموعة من العلا
يُستعان بها على توصيل دلالات اصطلاحية، فهي عبارة عن مقاطع صوتية وذب
هوائية لها معنى يحدثها الإنسان ليخدم غرضا بشريا و هذا الغرض هو التواصل.

ويوافق (روي سي هجمان) هذا الرأي فيقول في اللغة: « قدرة ذهنية مكت
يمثلها نسق يتكون من رموز اعتباطية منطوقة يتواصل بها أفراد مجتمع ما)[3]. و

---

(١) أبو الفتح عثمان بن جني، تح محمد علي النجار، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب،
١٩٨٦، ط٣، ج١، ص ٣٣.

(٢) سيف الدين محمد الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، تح إبراهيم العجوز، بيروت ١٩٨٥،
ص١٦.

(٣) روي سي هجمان، اللغة والحياة والطبيعة البشرية، ترجمة: داود حلمي أحمد السيد. عالم ا

بملامح مميّزة، فمفهومه يشبه تعاريف القدماء،وهي: أنّ اللّغة نسق من العلامات
ـتوياتها (الصوتي، الصرفي، التركيبي، الدلالي) واللغة مكتسبة من جانب: كاكتساب
ـطفل، وغريزية فطرية من جانب آخر، وهذا الجانب هو الملكة اللسانية التي ترتبط
ـهاز النطقي والسمع، وهي مرتبطة بالطبيعة الإنسانية والجنس البشري حسب
ـومسكي.

إذاً، فاللسان بالنسبة لسوسير هو ذلك النمط الرائع للحادث المصطنع (العارض)،
الموضوع الذي يقوم العالم بإعادة بنائه عن طريق التجريد انطلاقاً من المادة التي
ـها ملاحظته. وضمن هذا المنظور، ستنطوي مهمة الألسني على جمع أوفر كمية
ـنة من الرسائل التي ينتجها مستخدمو اللسان، وبعد أن تجمع مادة البحث هذه،
ـم الألسني بالبحث- بدون أن تكون لديه فكرة مسبقة عن الوحدات التي تتكون
ـمادة البحث، ثم تصنيف هذه الوحدات، واستخلاص قوانين تكونها.هذه المهمة،
ـلاً، هي التي أنجزتها اللسانيات المسماة: (البنيوية).

ـحقيقة أن اللسانيات البنيوية برعت في وضع مناهج فعالة - بشكل أساسي في
ـية المتعلقة بالتواصل - تمكنت بعضها- وبدقة كبيرة من تقطيع مادة البحث
ـالوحدات الدالة والوحدات الصوتية الصغرى غير الدالة، في السلسلة المتصلة
ـشكل مادة البحث، كما تمكنت من التعرف على السيمات *Semes* المميزة التي
ـها تقابل الوحدة كافة الوحدات الأخرى الواقعة في المستوى نفسه (المورفيمي أو
ـي)، وضم العناصر التي لها بعض الخواص التوزيعية المشتركة في جذر *Pardigme*

ـول دو سوسير في اللغة: (هي نظام من الرموز الصوتية في أذهان الجماعة اللغوية
ـ التواصل بينهم ويكتسبها الفرد سماعا من مجتمعه)[٢]. ونجد التأكيد على
ـة الاجتماعية للغة في قول (بلوك وتريجر): (اللغة منظومة من الرموز الصوتية
ـنة يمكن بواسطتها لمجموعة من الناس أن تتعاون)[٣]. يربط سوسير
ـولوجية بالتواصل الإنساني، فالسميولوجية - كما هي عند كثير من اللسانيين
ـين - علم يختص بدراسة ما يعود إلى الظاهرة التواصلية في شكلها اللفظي

ـ، ٢٠٠٠، ط ٢، ص ١٥.

ـورفوني، اللفوظية:، ترجمة قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨، ص ١٢.

(2)*DE SAUSSURE, F: Cours de linguistique générale. Paris, Editions Pa*
Préparé; TULLIO DE MORO, 1979. p 65.

ـدة فارع، جهاد حمدان، موسى عمايرة، محمد العناني،، مقدمة في اللّغويات المعاصرة،، دار وائل
ـ٢٠، ط ١، ص ١٣.

أساسا، فالعلامات هي أدوات يستعملها باث بشكل قصدي من أجل التواصل مع ...
ضمن دورة كلامية تبناها سوسير برسم حدودها في محاضراته (دروس في اللسانيات العامة).

إذاً : فالتواصل نشاط قائم على قصدية صريحة، وهو يتضمن حالات ... والدلالة بحيث لايمكن الفصل بين الدلالة والتواصل كما ذهب إلى ذلك ... الباحثين، والدلالة باعتبارها سيرورة لاتتحدد من خلال نيّة التأثير المباشر في ... مخاطب مخصوص، وهي لاتخلو من قصدية إبلاغية صريحة أو مفترضة ... خلال المقام التلفظي[1]. وتعتبر اللغة تقنية أو مجموعة من التقنيات تُمَكِّن شخصا من توجيه أفكار شخص آخر من خلال استخدام السلوك الكلامي. أي استعمال ... كنسق من الرّموز النّطقية الاصطلاحية للتواصل[2]

ويرى سابير أنّ اللغة: (طريقة بشرية غير غريزية لنقل الأفكار والأحاسيس والر... بواسطة رموز تُنتج طوعا)[3]. فاللغة نظام من الرّموز للتواصل لأغراض ... واجتماعية...الخ، و تكون برموز منطوقة من خلال الكلام أو مكتوبة من خلال ال... وهو يركّز على الوظيفة التواصلية للغة.

هذه التعاريف شملت الاتصال والتفاعل والاستخدام الشفهي السمعي ... على المتكلم والمستمع، ولعل اكتساب اللّغة واستخدامها تحكمه مجموعة من ال... المتشابكة: (بيولوجي، إدراكي، نفسي، بيئي، ثقافي...). وهذا كلّه لفهم عملية ال... فهما عميقا، ويتبدى هنا مصطلح الملفوظية الذي يقابل الملفوظ بالمعنى الأكثر ... لهذه العبارة، مثلما نقابل صناعة الشيء، الشيء المصنوع وهي فعل الاس... الفردي للسان، بينما الملفوظ يعني نتيجة هذا الفعل.

والملفوظية تتكون من جملة العوامل والأفعال التي تتسبب في إنتاج الملفوظ، ... ذلك التواصل الذي يشكل حالة خاصة من حالات الملفوظية[4]، وقد أثارت ... جاكوبسون الشهيرة التي تتحدث عن وظائف اللغة اعتراضات لم تتوقف حتى الآن.

فـ(جاكوبسون) يرى، كما يرى (سوسير)، أن وظيفة اللغة تكمن في ...

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٢.

(٢) ينظر: روي مي هجمان، اللغة والحياة والطبيعة البشرية: ترجمة: داود حلمي أحمد الس... الكتاب، ط ٢، القاهرة، ٢٠٠٠، ص١٥.

(٣) ينظر: اللّغة و الحياة و الطبيعة البشرية، ص ٧٥ -٧٧.

(٤) جان سيرفوني، الملفوظية:، ترجمة قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨، ص ...

...لومات بواسطة مدونة، بينما يرى المعترضون أن اللغة أكثر من ذلك بكثير. اللغة ...ت مدونة، أي أداة أو وسيلة تواصل إنما هي تطرح قواعد لعب تختلط اختلاطاً ... بالحياة اليومية. وتعددت الآراء في تعريف الملفوظية. فهذا (بينفينيست) يقول: ...الملفوظية هي عملية تشغيل اللسان عن طريق فعل استخدام فردي)[١]، أما ... وأنكومبر فيريان فيها ذلك النشاط اللغوي الذي يمارسه المتكلم في لحظة كلامه، ...يمارسه المستمع في لحظة استماعه)[٢].

...الوظيفة التي تؤديها العبارات اللغوية هي توصيل المعاني في حين يعتبر توصيل ...ار المتعلقة باستعمال اللغة -أمرا عرضيا- بالنسبة لوظيفة الأدوات الأساسية: ...ة الاستعمال، فيتحدث الأشخاص من أجل التأثير في تفكير الآخرين وسلوكهم، ...نة الكلام هي التواصل بين البشر[٣]، أمّا الكتابة كتقنية من التقنيات: فهي ... الوسائل الحياتية الكلامية بتحويلها إلى مادة أكثر دواما باستعمال مجموعة من ...د، أي النسق الكتابي، وتعتبر أكثر الوسائل أهمية وتوصيلا للمعلومات، فهي ...ة يدويّة تساعد الحضارة اللفظية وتكمّلها.[٤]

...ا الكلام إلا وسيلة حياتية مُنْتَجة، وقدرة على أداء النشاط الكلامي: إن قدرة ...هي قدرة على صنع هذه الوسائل الحياتية، وبالتالي يعمل التكلّم على إحداث ...ت في العالم المادي لخدمة الأغراض البشرية، كما رأى ابن جنّي. ومن خلال هذه ...م تتجلى سيميائيات التواصل: فالكلام، والكتابة، وكل ما يدور حولهما من ...ت وحركات...ألخ كلها علامات للتواصل الفعّال. وانطلاقا من ذلك فاللغة ...ة من التقنيات لإنتاج هذه الوسائل وهي ترتيب الأشياء من أجل خدمة غرض ...وهذا الغرض هو التّواصل الذي يؤثر به الناس بعضهم في بعض.

...استعمال تقنيات اللّغة لتكوين جملة ما (صوتيا، أو صرفيا، أو نحويا) يُوَجِّهُ ...تاج جمل لا متناهية، وإذا كانت التقنية هي:(الأسلوب المكتسب لإنجاز شيء ...من خصائص الإنسان الاكتساب والتعلم، فانتقلت هذه التقنيات من جيل ... بالتّعلم رغم التجديد والتغيير الذّي يلحق اللّغة على الدوام.

...ا تظهر وظيفة اللغة من هذه المضامين حيث تبدأ هذه الوظيفة بملاحظة الأثر

... نفسه، ص٧.
... نفسه.
... اللّغة و الحياة و الطبيعة البشرية، ص ٧٨.
... المرجع نفسه، ص ٧٦.
... الحياة والطبيعة البشرية، ص ١٤٢-١٤٣.

المباشر والفوري للوسائل الحياتية المُنتجة من الذبذبات الهوائية المتمثلة في التعبير اللّغوية المنطوقة التي لها أثر في جلب انتباه السامع، إنّها أدوات تُمَكِّن شخصا تسخير قوى خيال شخص آخر لينتج صورا ذهنية مطلوبة[1]. والرموز المطلوبة تشت على المعرفة الاجتماعية المشتركة لتسهيل عملية التواصل. ويتم ذلك باستعمال ج وعبارات منطوقة أو تفوهات مترابطة، وهذا جلّي في سلوكنا اليومي، ولذا وج الاهتمام بمستوى الخطاب المنطوق و المكتوب ويقودنا هذا إلى الحديث عن كي استخدام الجمل المقبولة نحويا ودلاليا في سياق معقول ومثال ذلك: قولنا في التع (عظّم الله أجركم)، وإذا قيلت للتهنئة، فهي في سياق مرفوض اجتماعيا[2].

وفي هذا الشأن نذكر القواعد التوليدية والتحويلية التي وسّعت نطاق البحث الكفاية اللغوية التي تتضمن قدرة المتكلم / المستمع على تقييم نص ما إذا كان متماسكة أو غير ذلك. و هذه الكفاءة هي التي تقود عملية الأداء الكلامي: الاستعمال الآني للغة ضمن سياق معين، وفيه يعود المتكلم إلى القواعد الك بصورة طبيعية كلما استعمل اللغة في مختلف أحوال التكلم[3].

ويرى (هول) أن بَني البشر يقومون بواسطة اللغة بالاتصال والتفاعل بعضهم(برموز شفهية سمعية توفيقية يستخدمونها بحكم العادة)[4]. فالتواصل نقل المعلومات وتبادلها عن طريق هذه اللغة التي تعد نظاما معقدا من الرموز.

وليتم التفاعل الإنساني لا بدّ من فهم عملية التواصل التي تقع في اهتمامها المنطوقة أكثر من المكتوبة، فتعتني بالأصوات والصرف والنحو والدلالة والأسل اللغوي، لتحقيق أفعال في الواقع: فإذا شكرت شخصا قمت بنطق الشكر: (ش وتسمى أفعالا كلامية.

فالفعل الكلامي أو المحادثة هي:(كيفية القول وطريقة استعمال اللغة)[5] الفعل يحدّد دور المتكلم والسامع وعلاقتهما من مركز متكافئ أو غير متكافئ[6] وا على الأجهزة - كالجهاز التنفسي، الصوتي، العصبي- التي تُمكنه من استخدام بشكل فعّال، والتي لم يتوقف دورها على الوظيفة التواصلية بل تعداه إلى ن

---

(١) ينظر: مقدمة في اللّغويات المعاصرة، ص ١٩٨

(٢) ينظر: ميشال زكريا، الألسنية التوليدية والتحويلية، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت ١٩٨٢، ص ٣٣

(٣)مقدمة في اللّغويات المعاصرة، ص ١٣.

(٤)جورج يول، معرفة اللّغة، ترجمة محمود فراج عبد الحافظ، دار الوفاء، الإسكندرية ١٩٩٩، ص

(٥) ينظر: المرجع نفسه، ص ٢٠.

(٦) ينظر: المرجع نفسه، ص ٢٠.

رفة والمهارات والمعلومات مع ارتباطها بالزمان والمكان[1]. كما يكتسب الاتصال، واصل شرعية بتحقيق الانتظام عن طريق التراكيب وائتلافها، فلا يكتب لها ود الفعلي (المنطوق/ المكتوب) إلاّ في هذه الدائرة (الاتصال)، وتمارس اللّغة أداءها دقة لتضمن البقاء والتجدّد بنقل الأفكار والمفاهيم والتنسيق بين الصور معية[2]. يقول (روي مي هجمان): (كثيراً ما تُمَكّن اللغة شخصا من إحداث تغير لوك شخص آخر، حيث تعمل المعرفة على توجيه السلوك)[3]، فليضع أحدنا في موقف كلامي، وينتج عبارة لغوية منطوقة، ماذا يحدث.

سب (روي هجمان) يتم التأثير والتأثر عن طريق الفعل الكلامي أو الإنتاج امي، فكل عبارة منطوقة تخدم غرضا معينا مما يجعل الكلام سلسلة من اطات حيث يتم تصميم هذه العبارة وتنفيذ ها، وهي تتفاوت استخدما حسب العبارات في حلّ المشاكل. إن استخدام اللغة يمرّ بمراحل إنتاج الكلام انطلاقا نية الصوت أو المستوى الصوتي، فالنحوي ثم الدلالي، من أجل إنجاز الفهم ب عبر العلاقة الوثقى بين الفهم والكلام.

تم الفعل الكلامي أو التفاعل أي المحادثة: (وهو نشاط يتداول الحديث فيه نان أو أكثر) [4] وهو كذلك كيفية القول، وطريقة استعمال اللغة كما يرى جورج وقد وضعت مبادىء وأسس هذا التكلم لتوضح هذه العملية التي يتشارك فيها والسامع، وما ينبغي لكل واحد القيام به رغم أنّ الكثير من التقسيمات جاءت لة، واندرجت في مراحل واحدة يشترك فيها كلاهما (المتكلم والسامع) وسنذكر عملية (الكلام/الفهم) مراحلها كالآتي:

تحديد التغيّر الذي سيُحدث الأثر المطلوب في معرفة السامع، ويتجلى في هذه تحقيق سلسلة من الرموز الصوتية إذا كان متكلما أو الرّموز الكتابية إذا كان هنا تتم مرحلة فهم الفعل الصوتي أي مجموع الأصوات أو الكلمات التي ا ولها دلالة معينة أي أنّ يناسب الحديث موضوع الحوار.

إنتاج صورة ذهنية عن طريق فكرة تجسّد ذلك التغيير في المعرفة التي يعتقد

عبد القادر عبد الجليل، علم اللّسانيات الحديثة، دار الصفاء، عمان، ٢٠٠٢، ط١، ص ٣٥

(2) *LOHISSE. J. La Communication Anonyme. Paris, Editions Universitaires. 196*

صالح بلعيد، دروس في اللسانيات التطبيقية.، دار هومة، الجزائر، (د.ط) ص٤٣.

الحياة والطبيعة البشرية، ص ١٦٥.

المرجع نفسه، ص ١٢٨-١٣٨.

أنها لدى السامع[١]، وهنا المقصود معنى العبارة (الفكرة) بالنسبة للمتكلم أو مو
من السامع والفعل المقصود من كلامه حيث يدخل قصد المتكلم أيضا. وتعتبر الم
الأولى والثانية أكثر أقسام الفعل الكلامي إبداعا، وهما إجراءان معرفيان لاستع
اللغة.

ثالثا: تفتيت الفكرة إلى أجزاء، تُحدد برموز منطوقة اصطلاحيا لتكون ج
منطوقة. وهذه مرحلة التحليل الدلالي الاختزالي[٢] حيث تُحلل الفكرة التي تمّ إنتا
في المرحلة الثانية ثم اختزالها في رموز صوتية وبدون هذه المرحلة يصبح التواصل
ممكن.

رابعا: تنظيم الرموز المنطوقة في سلسلة بواسطة القواعد النحوية لتمكن الس
من إعادة تركيب الفكرة الأصلية[٣] وهنا يقرر المتكلم إنتاج جمل على وفق قو
اللغة (المستوى النحوي) وتسمى بمرحلة التركيب وفقا للقواعد حيث يرتب الم
أجزاء المعنى الذي تعرض للتفتيت بإصدار تعليمات لإعادة تركيبها واختيار الأس
وفقا للقواعد وللبعد المعرفي، ولا تَخْلُو هذه المرحلة من إبداع.

يتضح - في هذه المراحل - التداخل بين عملية الكلام، والفهم التي سنشير إليها
مراحل أوردها بعض الباحثين متداخلة ومزدوجة بين الكلام والفهم، بين الم
والسامع و هي باختصار: (مبدأ النوعية، مبدأ الكمية، مناسبة الحديث لمو
الحوار، الوضوح أو كيفية نقل الرسالة)[٤]، وأدرجوها تداوليا في مبدأ التعاو
الحديث.

كما افترض (روبان لاكوف) *Robin Lakoff* مبدأ الأدب في الحديث[٥] بعدم
الرأي وإعطاء الخيار للمستمع، كما أنّ هذه المرحلة الكلامية قد أثبتت بمعايير
التماسك اللغوي، وهو ترابط الجمل، كالإحالة عند استعمال الضمير أو ال
بالعطف، والحذف، والترادف، وغيرها، وهذا العنصر هو ألصق بالمرحلة الرابعة
مراحل الفعل الكلامي.

ونخلص هنا إلى أن استخدام اللغة في سياق المتكلم ذو علاقة وثيقة بتح
الخطاب الذي يهتم بلغة التواصل (منطوقا/مكتوبا) والحوار والنص مقيما العلاق

(١) جورج يول، معرفة اللغة، ص ١٤٨.
(٢)ينظر: المرجع نفسه، ص ١٤٨
(٣)المرجع نفسه، ص١٦٧.
(٤)المرجع نفسه، ص ١٦٦-١٦٧.
(٥) المرجع نفسه، ص ١٦٧.

...ة والسياق كما يظهر التداخل في الفعل الكلامي، فالمتكلم يعيد صياغة أفكاره ...الوسائل المتاحة قبل أن ينتج – فعلا - عبارة منطوقة، ويمكن أن يخوض جميع ...ل ثم يقرر رفض نطق العبارة المنطوقة فلا يقولها.

...في المقابل يتلقى السامع هذا الكلام بمراحل: كالفهم، فالفهم نشاط معقد ...، وهو أساس عملية التحويل التي يقوم بها المتكلم لأنها صورة منعكسة لعملية ...ل الكلامي، وفهم السامع لما يقول المتكلم يتوقف على مراحل أربعة أيضا وهي:

...: التعرف على الرموز المنطوقة والقواعد الموجودة في السلسلة الصوتية[1]، ...من هذه المرحلة فهم قصد المتكلم أو الأثر الصوتي أو معنى العبارة المنطوقة، ...يتطلب الانتباه إلى نمط الأصوات ومعرفة رموزها، فقد يَقصُر الفهم إذا نقُص ...ز من عناصر التركيب أو كان غير مألوف لدى السامع.

...ها: ينبغي أن ينتج فكرة متكاملة مستخدما المفاهيم التي استدعتها هذه الرموز ...اعد[2]، وهذه مرحلة التركيب الدلالي، فيكوّن فكرة من استنتاجه للعبارة ...ة، ونجاح هذه العملية يحدده تطابق المعنى حسب فهم السامع وقصد المتكلم، ...الفكرة التي تكوّنت في المرحلة الثانية من مراحل الكلام أي أثر فكرة المتكلم في ...السامع.

...ا: يقرر السامع قبول الفكرة أو رفضها[3]، ثم تبرز استجابة السامع إثباتا أو ...لفظيا أو حركيا، وتندرج في مبدأ النوعية، ولكي تنجح هذه العملية لابد من ...السامع لقول المتكلم، لأنَّ العبارة المنطوقة تؤدي وظيفة نقل المعرفة أو أمر أو ...ة أو قول شيء، ويُشترط فيها صدق المتكلم وثقة السامع.

...ا: في حالة القبول تحدث تغيرات مستمدة من معرفته بالعالم والتي ستلزمها ...[4] هذه المرحلة هي مرحلة الالتزام يتنفيذ السامع رغبات المتكلم عن طريق ...ث تغير في المعرفة والسلوك المتضمن في معنى العبارة، وهذا يتناسب مع مبدأ ... أو ما تقدمه، ويكون مناسبا لهدف الحوار.

...يرا، فإن الفهم الناجح يكون عند تنفيذ جميع المضامين المعرفية، والسلوكية ...عبارة منطوقة، وأحيانا يتطلب الفهم العميق جهدا أكبر من السامع عندما يكون ...الاهتمام بالمعرفة التي يتم توصيلها، ويكون الفعل الكلامي ناجحا إذا أنتج

...: مقدمة في اللغويات المعاصرة، ص ٢١٣
...: المرجع نفسه، ص ٢١١-٢١٢.
...ة والحياة الطبيعية البشرية، ص ١٦٨
...ع نفسه، ص١٦٨.

السامع نفس المعنى المقصود من المتكلم، وتصبح المشاركة في المعرفة أمرا ممك
كما تقل الفوارق بين المتكلمين وتزول الحواجز وبذلك يتم التواصل، ويتبادل كل
المتكلم والسامع طرفي الفعل الكلامي ويتعاونان على تكوين نموذج مشترك عن ال
انطلاقا من خبراتهم، وتجاربهم، وهما يعملان على خلق حضارة.

وتعتبر هذه المراحل المتبادلة بين السامع والمتكلم كأفعال الكلام التي تدفع ال
المخاطبين إلى إنجاز الأفعال المنطوقة، فنرى أن الحجاج اللغوي كامن في الأ
اللغوية بوصفه علاقات توجه القول وجهات معينة ذات مضامين دلالية مفه
وآفاق تواصلية واسعة قائمة على التأويل والاحتمال لأن المدار هنا على الـ
التبليغية التواصلية والتحليلية.

❖ ب - نظريات التواصل:

إنّ التواصل أساس الوجود الإنساني؛ وهو أبسط الطرق لوصف وظيفة الل
رغم أن عملية التواصل البشري أكثر تعقيدا، ودراسة التواصل يجب أن ينظر إليه
زوايا مختلفة ومتنوعة منها؛ (تصنيف ظواهره التواصلية، وتحديد أشكاله، تح
حجم التواصل وعمقه ومناطقه، ووظائفه في النفس والاجتماع...)، فالتواصل أس
التوازن النفسي والاندماج الاجتماعي للفرد، وأساس الانتماء الثقافي إلى ثقافة
ويؤدي انعدام التواصل إلى انعدام السلوك، كونه الميكانيزم الذي بواسطته تـ
العلاقات الإنسانية وتتطور، كما يتضمن أيضا الإشارات وتعابير الوجه وهي
الجسم والحركات والمطبوعات والقطارات والتلغراف والتلفون وكل ما تمّ من اكتش
في المكان والزمان)[1] فكل وسائل الاتصال اللغوي هي أشكال للتواصل كاستـ
أدوات حديثة وأجهزة سمعية بصرية كالكمبيوتر أو الحاسوب، التلفاز وشبكة الانت
فهذا الاتصال الآلي أفرزته الثقافة الإلكترونية[2] حيث أُدْخِلت البرامج ووُظِّفت الأ
للتواصل بين بني الإنسان وبين المتعلمين والمعلمين، وفقا للاستراتيجية التنموية
تطوير الإنسان. ويتضح هنا أنّ التواصل لا ينحصر في تبادل لفظي تحركه قم
صريحة، بل مجاله أوسع من ذلك، وهو مجموع ما ينتمي إلى التجربة الإنسانية
تستوطن الذات: (كالإيماءات الجسدية، وطريقة الجلوس، واستقبال الضيف...)
فضلا عما يحيط بالذات من مكان وزمان وأشكال وعمران[3].

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٦٨.

(٢) المرجع نفسه، ص١٦٨.

(٣)ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استرتيجيات الخطاب: دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت

يستثمر (توماس هال) هذه الأشكال وحدودها ليكشف عن الآليات الداخلية
الحسية التي ينتجها الجسد في تفاعله مع محيطه الإنساني والمادي، فأنماط
ال الحواس تكشف عن الاختلافات الموجودة بين ثقافات الشعوب[1]. وتؤدي
دورا مهما في تحديد طبيعة التعامل مع المحيط المباشر للكائن البشري بأبعاده
ية والمكانية، وتأثيرها في مجمل الاستعمالات الخاصة بالجسد وعوالمه المتعددة،
يط به.

الظواهر الإنسانية لايمكن أن توجد خارج رغبة الكائن البشري في التواصل،
وع ما ينتجه الإنسان عبر لغته وأشيائه وجسده وإيماءاته وطقوسه ومعماره
ضمن سيرورة تواصلية متعددة المظاهر والوجود والتجلي إلى الحدّ الذي جعل
ية في كليتها سيرورة تواصلية[2]. ورغم الطابع الإنساني المحض للتواصل إلاّ أنه
في أحضان نشاطات علمية أخرى: (الأنثروبولوجية، والتلغراف، والاتصالات
ية واللاسلكية، وقياس المسافات الافتراضية، والسبرنيطقا).

التواصل قد يكون بديهيا، اجتماعيا نفعيا، وقد يكون اصطناعيا (مصطنعا)
يتخذ أشكالا إلزاميا تفرضها الوسائط والوسائل الحديثة حسب الأفكار،
يولوجية، والمعتقدات التي تحكم السلوك، وتشمل كلّ الأساليب الحديثة في
مثل من: (دعاية سياسية، أو توجيه ديني أوتكوين إيديولوجي، إضافة إلى الإشهار
بنوع التلفزية والإذاعية...)[3]. وهذه من أهم الأساليب التي يمارس فيها الحجاج
ية.

اهتدى (نوربيرفيين) الذي ينسب إليه علم السبرنطيقا (*Cybernétique* - إلى
(الارجاع)[4] من خلال المدفع الأرضي الذي يتصيَّد الطائرة، محددا اتجاه
ية وسرعتها، لتكون في الموعد المحدد من خلال ضبط دقيق للمدار الذي تتحرك
الطائرة. وقد أعطى لمفهوم الارجاع بُعدا كونيا ينطبق على كل الظواهر الطبيعة
تماعية، وهوقدرة الفعل المُنجز آنيا على التأثير في سبب وجوده وفي ارتباطه
بمروره، (فكلّ نتيجة تؤثر بشكل إرجاعي على سببها، وكلّ شيء يجب أن ينظر إليه

٢٠٠، ص١٢-١٣

(٢) ليونيل بليجر، الآلية الحجاجية للتواصل، ترجمة عبد الرفيق بوركي، مجلة علامات، ص٣٦
... نفسه

(٣) سعيد بنكراد، السميائيات وموضوعها:، مجلة علامات، عدد٢١، ص ٧٩.

(4)*GUIRAND PIERRE, Théorie de la Communication, in « le Langage », [illegible] direction d'A. MARTINET, Paris, Encyclopédie de laPléiade, 1968. p145..*

باعتبار بعده الدائري لا الخطي)[١].

ويعدّ علم السيبرنطيقا - الذي يعني القيادة والمراقبة - جهازا علمياغايته التحكم في آليات التواصل كما تتحقق عند الآلة، وعند الحيوان[٢]، وهذا التحكم سيشمل الكائن البشري، وبالتالي إمكانية التحكم في السلوك الإنساني وتوجيهه من خلال البرمجة الإرجاعية، كالتحكم في السلوك الاجتماعي من خلال ما يشبه البرمجة لردود الأفعال والذوق والوجدان، وقد انتقل مفهوم الإرجاع إلى الأنثروبولوجية، واستخدم من أجل فهم السلوكات الإنسانية، وإنتاجها لقيم تسهم إرجاعها في حماية النسق المنتمية إليه، ومن خلال فكرة الإرجاع يتم ضبط الظواهر[٣]، مثل حالة التواصل الإشهاري، ليتم التحكم في المسلك الشرائي الاستقبالي للمستهلك وتوجيهه، وذلك بمعرفة قدرته الشرائية، وميوله الذوقي، ومعتقداته...الخ، لتتحدد هويته الشرائية ومن خلالها تبرز حدود الفرد، وممارسة نشاطاته.

لقد كانت نظرية المهندس الأمريكي (كلود شانون) الرياضية وخطاطته التواصلية في الاتصالات الهاتفية منطلقا للتواصل الإنساني مستندا إلى نموذج الإخبار عن التلغراف. كما طبّقها (رومان جاكبسون) في وظائفه الست[٤] في الستينات بطريقة مختلفة، وقدّم (شانون) هذه الخطاطة في سبيل تحسين مردودية الاتصالات الصوتية التي تتم عن بُعد تفاديا للتشوّش الذي يحدث على الإرسالية بسبب القصور التقني وعدم ملاءمة الآلات الموجودة لمتطلبات الاتصال.

وما يميّز هذه الخطاطة هو تركيزها على الخبر؛ الذي يُعدّ كيانا أعمى، فهو:(وحدة إحصائية مجردة تتعامل مع الإرسالية في انفصال عن دلالاتها)[٥]، ويرتبط نجاح الإرسالية أوفشلها بسلامة ووضوح الكم الخبري المبثوث، وهو خبر أعمى لأنه يستدعي حالة انفعالية عند طرف من أطراف التواصل، كما أنّه لا يفترض لبسا أو غموضا في دلالات الإرسالية، ولا يقاس بالكم المعلوماتي، وتظهر الخطّاطة كالآتي[٦]:

مصدر الخبر- الإشارة المبثوثة- الإرسالية

وتبيّن هذه الخطاطة التتابع الخطي المنطقي، وهو وجود مصدر للخبر ينتج إرسالة

(١) المرجع نفسه

(٢)المرجع نفسه.

(٣)المرجع نفسه

(٤)ينظر: استراتيجيات الخطاب، ص ١٢.

(٥) DUCROT. O et TODOROV T, *Dictionnaire Encyclopédique des Sciences du Langage*, paris, Editions du seuil, 1972, p 117.

(٦) نفسه

(التحدث في الهاتف)، ووجود باث يحوّل الإرسالية إلى إشارات (الهاتف الناقل الصوت إلى تموجات كهربائية)، ووجود القناة (الأسلاك الهاتفية)، وهي الأداة المستخدمة لإنجاز التواصل، ووجود متلق ليعيد بناء الإرسالية انطلاقا من الإشارات الحرارية، ووجود نهاية الإرسال، وهو مستقبل الإرسالية[1].

ورغم أهمية نظرية (شانون) وخطاطته كحدث معرفي في تاريخ التواصل إلاّ أنّ التطورات التي عرفها البحث في مجال التواصل دعت إلى التخلص من طابعها الآلي، لينفتح التواصل على مجالات الحياة الإنسانية المختلفة بما فيها الأبعاد الزمانية والمكانية.

ويقترب (رومان ياكبسون) من (شانون) في خطاطته، غير أنّه يفترق عنه في اعتماد خطاطته على الانفعالات الواقعة مع التواصل، ويتحدّد جوهر التواصل عنده في علاقته بالوظائف الممكنة للغة، ولذلك وصفت خطاطة شانون بأنها عمياء، وقد سميت بالنموذج التلغرافي. وأدّت الوظائف الست: (انفعالية، شعرية، إفهامية، مرجعية، لغوية، ميتالغوية)[2]. إلى استعادة المعنى الأصلي للتواصل الذي يدلّ على المشاركة والتفاهم، مما فتح للتواصل أبعادا وآفاقا للفعل الإنساني. وتظهر خطاطة ياكبسون كالآتي[3]:

السياق

الباث..........الإرسالية..........المتلقي

الاتصال

السنن

مرجعية

انفعالية..........شعرية..........إفهامية

لغوية

ميتالغوية

٢- بلاغة الحجاج بين نظرية التواصل والسيميائيات:

---

(١) نفسه.

(٢) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استرتيجيات الخطاب: دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت- ليبيا ٢٠٠٣، ط١، ص١٢-١٣.

(٣) المرجع نفسه.

أ- الحجاج والتواصل

لقد اقترن الحجاج عند الفلاسفة القدماء بالاستدلال والبرهنة، كما اقترب من الديالكتيك (فن الحوار) والبلاغة(فن الإقناع)، والحجاج يقتضي تفاعل الذوات، أما البرهنة فتنفي الذات[1]، مبتعدة عن تأثيرات اللغة، والعواطف، وظروف المكان والزمان وملابساته، كما تبتعد عن دور المستمع والمخاطب، وكان الحجاج أكثر اقترابا من فن الحوار والبلاغة. وقد اهتم أرسطو – وهو مؤسس الاستدلال والبرهنة بالحجاج معتمدا على الاستدلال وأساليب التحاور مبينا تقنيات الحجاج في محاورة أفلاطون بناء على خاصية مبدأ التناقض، وعمّق تصوره الاستدلالي المنطقي معتمدا على البلاغة حيث جعلها فن الكلام والإقناع، وصنف أنواع الخطاب، وأنماط الحجج المقنعة[2].

ويفرق أرسطو بين بلاغة الخطاب وبلاغة الشعر، في أن الأولى تقنية بلاغية تنشأ في التواصل اليومي، والخطاب وسط الجمهور في حين أن التقنية الشعرية تلتجئ للاستحضار التخييلي، كما يرى أن الخطابة فن من الجدل، وفرع منه وهنا تلاقح وعيه المبكر كما هو في البلاغة المعاصرة[3].

إذن، شكلت البلاغة والديالكتيك والمنطق مصادر الحجاج وأطره، ومازال يتغلغل هذه المعارف الثلاث: (فن الجدل- وتقنيات الاستدلال-وفن الخطاب) روافد الدراسات المعاصرة خاصة عند بيرلمان وميشيل مايير[4] ومن تبعه، فقد برز الحجاج وتأسس كمبحث أساسي في البلاغة المعاصرة، وقد اعتمد بيرلمان على اللغة، واعتبر الإنسان حيوانا بلاغيا مشيرا إلى الأبعاد الاجتماعية للبلاغة الجديدة، وأعطاها دفعا جديدا وأعاد لها روحها بالعودة إلى بلاغة أرسطو، وقد اقتحمت تصورات بيرلمان تخصصات جديدة كالإنثروبولوجيا، والتحليل النفسي والفلسفة والسميائيات واللسانيات.

وتمثلت الأطر الحجاجية في العلاقات القائمة بين الحجاج والاستدلال، ثم الحوار والبلاغة، والحجاج والجدل لإقامة الدليل، والبحث عن آليات الاقتناع لإنجاز الفعل المقصود، وهذا كله لايستغني عن مجال التواصل وإطاره، وقد جعل البلاغيون الحجاج عمدة دراستهم بعد وضوح معالمه، فأصبح محور الآلة البلاغية حيث يؤ

---

(١) محمد سالم محمد أمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٨ ط ١، ص٢٣ ومابعدها.

(٢)ينظر: المرجع نفسه، ص ٣٦.

(٣)ينظر: المرجع نفسه، ص ٣٢-٣٣.

(٤)ينظر: المرجع نفسه، ص١٠١.

...ير في الحجاج إنه: (جهد إقناعي وبعد جوهري في اللغة لكون كل خطاب يسعى إلى ...ناع من يتوجه إليه)[١].

...والحجاج يستمد خصائصه من الحياة اليومية للناس وقيمهم، والتواصل بينهم، ...ل خطاب يصبح بهذا المعنى كامنا داخل اللغة حيث تمنحه اللغة / الحياة العناصر ...لية لكل مضامينه، أي عناصر الاستدلال والتدليل، وقد سعت الحقول المعرفية ...م الحجاج ضمن معارفها، مما أدى إلى اختلاف وتعدد مفهوم الحجاج وحدوده ...طبيراته.

...لاشك أن اللغة التواصلية كان لها الدور المهم في الحجاج وتقنياته، كما اهتم ...لغويون ببلاغة الحجاج في المجالات المرئية الخاصة بالإعلام والخطابات الفنية التي ...كون المتكلم المرسل حاضرا فيها بنفسه وصورته أمام مخاطبه.

...نجد أن بيرلمان وضع تساؤلات حول العلاقة بين المخاطب والموضوع، وتداخل ...ستمعين والموضوعات بفعل الثورة التكنولوجية والاتصالية. وما يتطلبه ذلك من ...تزبين المخاطبين الفعليين والمخاطبين الكونيين، وما يستدعيه كل منهما من ...اب، ومن هذا جعل الحجاج حوارا علميا بعيدا عن المغالطات[٢].

...إن موضوع نظرية الحجاج عند بيرلمان يتعلق بالبلاغة وتقنيات الخطابات الموجهة ...لمختلف المستمعين: سواء كانوا جمهورا مجتمعا في ساحة، أم مختصين، أم ...صا واحدا، أم تعلق الأمر بالإنسانية كافة، أم بالحجج التي يوجهها الشخص إلى ...سه في مقام حوار ذاتي. ونظرية الحجاج باعتبارها بلاغة جديدة تشمل حقل ...طاب في مجموعه الذي غايته الإقناع، بغض النظر عن نوعية المستمع الذي ...ه إليه الخطاب.

...الحجاج لا يختص بالخطابات التربوية، والأخلاقية، والفنية، والفلسفية، ...قانونية حسب، لأن الحياة اليومية والعائلية والسياسية أصبحت توفر لنا كما هائلا ...أمثلة الحجاج البلاغي. إن أهمية هذه الأمثلة المنتمية إلى الحياة اليومية تكمن في ...قرب الذي تسمح به مع الأمثلة التي يوفرها الحجاج الأكثر سموا عند الفلاسفة ...لونيين.

...وهكذا وسّع بيرلمان من حدود الخطابة، بدمج الفلسفة والعلوم الإنسانية عامة، ...حاور اليومي، في نموذجه الموحد الذي أطلق عليه: البلاغة الجديدة والواقع أن

---

(١) ...جع نفسه، ص١٠٣.

(٢) ...ظر: المرجع نفسه، ص١٠٦

بيرلمان بهذا قد وقف على آليات مشتركة بين كل أشكال الكلام سواء الـ... الشخصي[1]، أو الثنائي، أو الجماهيري، أو الشعري، أو خطاب المختصين في... القانون والعلوم الإنسانية.

وانفلت الحجاج بهذا ليستخدم كفرع من فروع التواصل الذي يهتم بالـ... الاقناعية، وصار شأنا من شؤون نظرية التواصل، فبحثوا في فن الحوار الـ... والرسائل الاشهارية، والحملات الدعائية، وغيرها من ميادين الحياة الفكرية والـ... والإيديولوجية والاقتصادية... فارتباط الحجاج بالكلام والحوار وما يحو... نصوص شفوية ومكتوبة، ويؤكد مايير هذا البعد الحجاجي المؤسس على اللغـ... والبلاغة خاصة،كما يقيم العلاقات الخطابية على التواصل في ضوء التطور في... الاتصال[2].

لقد استقى مايير تنظيره من مقولات أستاذه بيرلمان، وإضاف إلى الفلسفة... المعنى حيث شكّل أبعادا ثلاثة: تداولية حين درس ظروف إنجاز الخطاب... وتأويلية من حيث علاقة السؤال والجواب، وما يصير إليهما من تأويل، وبلا... ربط البلاغة بالحجاج، وفتح بابه على تقنيات الاتصال المختلفة في حاضرنا... إلى بروز العلاقة بين الحجاج والتداولية[3].

وتنطلق التداولية من استثمار الممكن والمتاح من الآليات لتوصيل رسا... معينة في إطار إنجازها، ولهذا اعتبرت التداولية فن الوصول إلى تعديل... المستمع، والبلاغة تداولية في صميمها لأنها تمارس الاتصال بين المتكلم و... والتأثير على بعضهما، وبذلك تصبح الأفعال المنجزة لغويا أفعالا اجتماعية لأ... ضمن تفاعل تواصلي وهو يخص المقامات الاجتماعية[4]. وأصبحت الصحف... والتلفزة توظف بلاغة الحجاج توظيفا واضحا للوصول إلى التأثير في المستمع... التواصل الجماهيري. كما أن الخطاب الحجاجي يتميز بخاصية بنائية... تداولية، وبذلك تعد الحوارية سمة أساسية لكل خطاب، ويصير بذلك الـ... والتواصل الحواريان في صميم كل عملية حجاجية.

---

(١) ينظر: المرجع نفسه، ص١٣٥.

(٢)ينظر: المرجع نفسه،ص١٣٦

(٣)ينظر: المرجع نفسه،ص١٣٨.

(٤)ينظر: المرجع نفسه،ص١٨٠-١٨١

ب. الحجــاج والسميائيــات

أشارت الكثير من الدراسات إلى هذا التداخل بين العلوم اللسانية والتداولية، عـن ذلـك نلمـس تـداخلا جليـا بـين الحجـاج وعلمـي الدلالـة والعلامـات أي ليات، وخاصـة السـميائيات التداوليـة. ففي الجانـب السـميائي أبحـاث (هنريش البلاغـة والأسـلوبية حيث أكـد على الطابع التـداولي للبلاغـة القديمـة متبنيا لامية دلالية، وسـعى لتكون البلاغـة علمـا للحجاج وعلمـا للنص بكل المكونات ون (الصوتية، الصرفية، النحوية، الدلالية، العلامية، السياقية، الحجاجية، ...)[1].

ج مما سبق أنّ تمازج اللسانيات التداولية بنظريات التواصل والسميائيات ية، واستقرار الحجاج في البنية اللغوية جعله من بين العمليات التداولية والتأويلية. فعولج الحجاج كظاهرة نصية لسانية وسمي الحجاج اللساني مع وابط الحجاجية، وتحليلها داخل الأقوال مع إظهار مراتب المتكلمين. وكان ن بحث في الأبعاد التداولية للغة التواصلية اليومية، واللغة الإبداعية[2].

هذه التوجهات إلى استثمار السميائيات التداولية في نظرية الخطاب التي يوام البلاغة الجديدة، فبحث فيها المهتمون عن الأنساق السميائية الدالة، ية واصفة للخطابات الاجتماعية. وصارت هذه الأنساقُ الموضوعَ الأكثر رواجا ت حيث تجمع أنماط العلامات المختلفة، واستعان بشتى وسائل التواصل وأصبحت الصورة من أهم وسائل الإقناع، واتسم اقتراب البلاغة الجديدة ائيات بمقاربات التحليل السميائي للخطاب بالكشف عن قوانينه وكلياته[3].

حولت السيميولوجية إلى نظرية للتواصل بمراعاة العناصر الخارجية لفهم كما أصبح التواصل يشمل العمليات المتبادلة بين المتخاطبين للتأثير بينهم، أو حدث يعتبر مظهرا تواصليا، وبذلك أصبحت السيميائية تواصلا[4].

ي دراسة حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية، وهو علم عام للدلائل لغوية وغير لغوية، فاعتنت بكل ما يمس التجربة الإنسانية العادية

جع نفسه، ص١٩٧--١٨٠.
جع نفسه، ص١٩٦.
جع نفسه، ص١٦٢.
مد الولي، السيميوطيقا والتواصل.. مجلة علامات، العدد٦، 1996ص٨٨

المشروطة بسيرورة دلالية. فإنتاج المعنى والدلالة هو من أساسيات السيميائية[1].

وختاما نتبين التشاجر الذي برز واضحا بين السميائيات بفرعها اللساني، التد... والتواصل بآلياته، والحجاج بتقنياته الحوارية، التي لا تنفك عن الأولين. فالحوار أ... فعالية للتواصل، والدلالة والقصد جوهر السيرورة التواصلية، وكل تواصل يش... مقاما ومكانا وكلاما، كما لايمكن تصور سميائيات من دون تواصل. فالتواصل ي... السميائيات وحدودها، والتواصل لا يتحقق إلا ضمن وضعية تفاعلية تتسم بالمـ... الحجاجية بين المتخاطبين، وهذه القواسم المشتركة تتفق في أن كل نشاط ل... موجه للتواصل في إطار إبلاغ الحجج وبلاغة الحجاج، أي التبادل الاجتماعي في... الإقناع والتأثير، باللغة هذه الأداة الأساسية للتواصل الإنساني ضمن أدوات آ... فرضها التطور الحضاري والتقني وهي معظم وسائل الاتصال التي بلورت العدي... المفاهيم والنظريات الحجاجية في العلوم الإنسانية واللسانية المعاصرة.

---

(١) ينظر: سعيد بنكراد، السميائيات وموضوعها: مجلة علامات، عدد٢١، ص ٧٨-٩٢.

❖ المصادر والمراجع

- الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي، تحقيق إبراهيم العجوز، بيروت ١٩٨٥.
- الألسنة التوليدية والتحويلية، ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات، ط١ بيروت ١٩٨٦.
- الحجاج في البلاغة المعاصرة: محمد سالم محمد أمين الطلبة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط ١، بيروت - ليبيا ٢٠٠٨.
- الخصائص، ج١، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، القاهرة ١٩٨٦.
- دروس في اللسانيات التطبيقية، صالح بلعيد، دار هومة، الجزائر.
- العربية وعلم اللغة الحديث، د.محمد محمد داود، دار غريب، القاهرة ٢٠٠١.
- علم اللسانيات الحديثة، دار الصفاء، ط١، عمان ٢٠٠٢.
- اللغة و التواصل، عبد الجليل مرتاض، دار هومة، الجزائر ٢٠٠٠.
- اللغة والحياة والطبيعة البشرية، روي سي هجمان، ترجمة داود حلمي أحمد السيد، عالم الكتب، ط٢ القاهرة ٢٠٠٠.
- مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، نور الهدى لوشن، المكتبة الجامعية، الإسكندرية ٢٠٠٢.
- معرفة اللغة، جورج يول، ترجمة محمود فراج عبد الحافظ، دار الوفاء، الإسكندرية، ١٩٩٩.
- الملفوظية: جان سيرفوني، ترجمة قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٩٨.
- مقدمة في اللغويات المعاصرة، د. شحدة فارع، جهاد حمدان، موسى عمايرة، محمد العناني، دار وائل، ط١، عمان ٢٠٠٠.
- مجلة علامات العدد ٥ سنة ١٩٩٦، والعدد ٢١، موقع سعيد بنكراد.

- *De SAUSSURE F, Cours de Linguistique Générale, Editions payothéque, préparé par: de MORO TULLIO, 19*
- *DUCROT. O et TODOROV. T, Dictionnaire Encyclopédi Sciences du Langage, Paris, Editions du seuil, 1972.*
- *GUIRAND PIERRE, Théorie de la Communication, Langage» sous la direction d'A. MARTINET, Paris, Ency de la Pléiade, 1968.*
- *LOHISSE. J, La Communication Anonyme, Paris, Universitaires, 1965.*

بين نظرية السياق ونظرية الاستلزام الحواري

مقاربة تداولية

د . هيثم محمد مصطفى *

مدخل

و هذه الدراسة منحى المقاربة والجمع والتحليل لنظريتين مهمتين من نظريات تقصد من خلالها بيان وظيفة الأقوال اللغوية وخصائصها في التواصل اللغوي ر التواصل السياقي الاجتماعي بين أطراف العملية التخاطبية، من حيث الصلة ية بهذا الخطاب وعلاقته بمستعمليها.

ظريتان اللتان حاول البحث كشف المقاربة بينهما تداوليا بالنظر إلى بنية المعنى مستواهما الوظيفي في النص وأداتهما كتحصيل سياقي ملائم مع الجو الخطابي، الخطاب بأحوال المتخاطبين ومقاصدهم، هما (النظرية السياقية *Contextual* *T*) و(نظرية الاستلزام الحواري *Conversational Implicature*)، والنظرية عنى بـ(السياق التواصلي *Communicative Context*) للألفاظ والعبارات وكل ما يحيط بالحدث اللغوي من ظواهر غير لغوية كـ(المقام، والمتكلمين، هم، وحيثيات الاستعمال) وغيرها وأثر ذلك في استخلاص المعنى من النص أو ، في حين تعنى النظرية الثانية بالبحث عن معايير وضوابط (القدرة *Communicative Competence*) كوسيلة لاستقصاد المعنى في شكله المطلوب، ذلك أن أصل الخطاب حسبما تفترضه هذه النظرية وجود قوانين محادثة خاصة يلتزم بها المخاطب بالكيفية التي يتطلبها الغرض متسما في ذلك والإبانة قدر المستطاع لتحقيق المقصود التخاطبي، غير أن المتكلم عادة ما يتحدى محاور هذه المحادثة فيلجأ إلى خرقها، ويتوسل لإدراك المعنى بغرض اء لغوي غير مباشر، أو مستلزم من مقام خطابي آخر يتقصده المتكلم عيا نحو خلق الدلالة المتضمنة من القول.

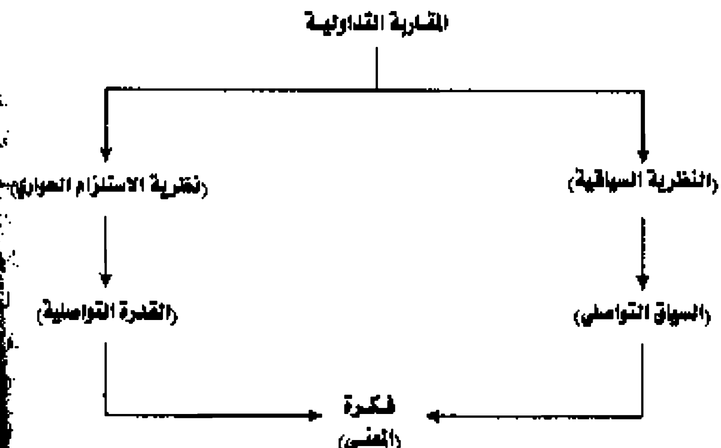
النظريتين إذن يتشربان المعنى تداوليا ويسعيان إلى إنتاج علاقة خطابية مع أوضاع المتخاطبين ومقاصدهم وظروفهم المرهونة، حيث يوظف الخطاب لبلوغ المقصد التواصلي، من خلال الربط بين النص وغرضه، بغية استكناه

---

*: جامعة الموصل

المعنى النموذجي.

والمخطط الآتي يحاول إعطاء أسبقية البيان لهذه المقاربة الحاصلة في البحث بـ… النظريتين:



على أن الولوج في غور هذه المقاربة والشراكة التداولية العميقة هو ما نهض… المبحث الأول من الدراسة والذي حمل عنوان (البعد التداولي المشترك بين نـ… السياق ونظرية الاستلزام الحواري)، وخلص إلى استدلال توفر الإطار التداولي الم… بين النظريتين والقضايا العملية الوظيفية للغة، والذي يكون المعنى فيهما نـ… بخصوصيات سياق المقام الكلامي وقدرة المبادئ الحوارية المفترضة على أ… وتحديد عملية الاتصال الضرورية للعبارة اللغوية، من خلال القدرة على الم… والمناسبة للخطاب بما يهيئ التواصل الناجح بين المتكلم والمخاطب.

ثم كانت دراسة (المعنى التداولي في ضوء النظريتين السياقية والحوارية) … المبحث الثاني، والنزعة التداولية التي انطلق منها هذا المبحث هو بيان الأثر التـ… للمعنى بين كلتا النظريتين وتوجهاتهما القصدية في تحليل المواضعات النصية، … يحتل المسار اللغوي الذي يبسط العلاقة بين المتكلم والمخاطب طريقة أ… مخصوصة، من حيث صلة المعنى الجادة بأطراف خارج النص في (النظرية السيا… وتحكيم المواضعات غير القولية أو الحالة المفهومية الإشارية التي يلوح بها النـ… (النظرية الحوارية)، وبذلك يغدو المعنى هو الواقعة المهيمنة والحدث الذي ينـ…

استخلاصه من سلسلة التحولات الدلالية والتغيرات المقامية التي يستعرضها النص، أصبح شرط الغاية والفهم التداولي ركنا استدلاليا، لتفعيل وتحقيق الاستجابة العملية المناسبة للتواصل اللغوي.

وقد تبنت الدراسة منهجا تحليليا جعل من صيرورة البحث عن ملامح المشتركات الدقيقة بين النظريتين، بالمقاربة التي ارتهن بها من تطابق نسبة الكلام مع الواقعة التي قيل فيه، وجهة خصائصية محكمة ومنتظمة لتفسير الوحدات اللغوية، من خلال (العنصر الذاتي) في هذا التوجيه المتمثل بمعتقدات المتكلم ومقاصده، و(العنصر الموضوعي) المشتمل على الوقائع الخارجية من استحضار المقام الذي يمثل الوضعية الاجتماعية للخطاب، و(العنصر الذواتي) الدال على المعرفة المشتركة بين طرفي العملية التخاطبية[1].

والرؤية التي تقوم عليها الدراسة كما بينا تحمل وجهة نظر تداولية على وفق آلياتها وآلياتها الخاصة، وهي تباين في ذلك الرؤى الألسنية الأخرى كالرؤية العقلية والرؤية السلوكية المجردة مثلا، في انصرافهما لتفسير الظاهرة اللغوية وتصوراتهما للمعنى والنص، عكس التداولية التي تأخذ بالأبعاد كلها في دراسة النص، بل تشترط حضور سياق النطق ودوافع المتكلم وكافة الملابسات المحيطة بالمنطوق، حيث الكثير من الجوانب التي يقف عليها بناء المعنى وإنتاج الكلام. ومعلوم أن الخطاب يقترن بمجموعة من القرائن التي تحيط بعملية التلفظ والخلفيات المعرفية التي تقوم عليها الكفاءة التداولية لكل من المخاطب والمخاطب، إضافة إلى الفعل الإنجازي الذي يرومه الخطاب من بين عدد من الغايات التي قد تفيده في سياق

(1) اللساني والسيميائي: طه عبد الرحمن، ندوة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، جامعة محمد الخامس، ١٤٠١هـ ٢٩٩.

المبحث الأول

البعد التداولي المشترك بين نظرية السياق ونظرية الاستلزام الحواري

تنطلق النظرية التداولية *Pragmatics* بدراسة اللغة في حيز استعمالها، ... بذلك حدودها الوضعية الأصلية المجردة، بالنظر إلى محتوى الكلام الخاص ... بمقاصد المتخاطبين وأغراضهم الدلالية، حيث يستدعي ذلك توجيه الاهتـ... كيفية تشكيل السياق الخطابي والنظر إلى جميع الأوضاع المؤثرة في توجيـ... المفردة وقيمتها التأثيرية للمخاطب بتخليصها إلى إنجاز وأثر في متحقق الواقع[1].

فالبحث عن المعنى هو السمة الأساسية للتداولية، وهذا المعيار المفتوح الـ... معيار البحث عن المعنى وصياغة القواعد والنظم والمبادئ حوله، هو ما تجـ... وتشترك فيه النظريتان (السياقية، والاستلزام الحواري)، حيث يصبح المعنى ... جدليا متداولا بين المحيط وظرفه المعين، وبين المخاطب وفهم مقاصده ومعـ... خطابه باقتضاء الملاءمة الحاصلة لتسهيل عملية التخاطب.

وعند العودة إلى أصول البناء المعرفي لكلتا النظريتين وبيان المنطلق الو... منهما تجاه النص، يتضح معلم اتفاق الوحدة التداولية لمعالجة النظام ... والموقف الدلالي الخاص المشترك بينهما.

والنظرية السياقية أو سياق الحالة كما تسمى، هي النظرية الفيرثية ... *Theory Of Meaning* نسبة إلى جون فيرث مؤسس المدرسة الانكليزية الحديـ... المدرسة الشكلية التركيبية، ووفقا لهذه النظرية فإن معنى الكلمات يعتمد ... على السياق، أي أن المعنى مركب من العلاقات السياقية[2]، وأن الوظيفة الـ... تتأتى إلا بعد أن تتجسد القولة في موقف فعلي معين[3].

وقد سعى فيرث إلى وضع مجموعة من المبادئ البارزة في التحليل اللغـ... يمكن التقرير أنها كانت كفيلة بصنع هيكل جديد لنظرية لغوية واسعة الشمو...

---

(١) التداولية اليوم، علم جديد في التواصل: آن روبول، وجاك موشلار، ترجمة: سيف الدين ... ومحمد الشيباني: ٣١ - ٣٢، والتداولية والسرد: جون . ك آدمز، ترجمة: خالد سهر: ٨.

...rth, *Papers in Linguistics*, p. 19.

...ns, *Linguistic Semantics*, p. 35.

...ة حضورية بين النظريات اللسانية المختلفة، وأهم مبدأين لهذه النظرية هما:
...أن اللغة ظاهرة اجتماعية، فلا يمكن فهمها وتحليلها إلا على هذا الأساس.
...والمبدأ الثاني المشهور هو التمركز حول فكرة (السياق) بكونها الأساس العملي في ...نظرية التحليل اللغوي[1].

...النقطة الرئيسة لهذه النظرية هي أهمية السياق الذي يقال فيه الكلام كما ...فالكلام لا يقال في فراغ بل نقوله في سياق، فيكون مدار فهمه والقدرة على ... بالنظر إليه في إطار اجتماعي معين سماه فيرث بـ(سياق الحال ...Situation of C) أو الموقف الكلامي، وهو يتكون من عناصر معينة متكاملة ...ورية في عملية الفهم والإفهام[2]، والسياق على هذا الاعتبار في جزء منه لغوي ...ر (الأشياء التي قيلت مسبقا)، وفي جزء آخر منه غير لغوي (غير مباشر) ...ظروف المتحدثين كمعرفتهم للعالم من حولهم وخبراتهم وتوقعاتهم[3]، ومن ...اصر غير اللغوية المكونة لسياق الحال أو الموقف الكلامي المحيط بالنص[4]:

...شخصية المتكلم والسامع وتكوينهما (الثقافي)، وشخصيات من شهد الكلام غير المتكلم والسامع _ إن وجدوا _ وبيان ما لذلك من علاقة بالسلوك اللغوي، ...دورهم أيقتصر على (الشهود) أم يشاركون من آن لآن بالكلام، والنصوص ...الكلامية التي تصدر عنهم.

...العوامل والظواهر الاجتماعية المختلفة ذات العلاقة باللغة وبالسلوك اللغوي ...خاصة، يشارك في الموقف الكلامي كحالة الجو إن كان لها دخل، وكالوضع ...السياسي وكتمان الكلام... إلخ، وكل ما يطرأ أثناء عملية الكلام ممن يشهد ...الموقف الكلامي من انفعال أو أي ضرب من ضروب الاستجابة، وكل ما يتعلق ...بالموقف الكلامي أيا كانت درجة تعلقه.

...ر النص الكلامي لمشتركي عملية الكلام أو الصياغة التخاطبية كالإقناع أو ...لم أو الإغراء أو الضحك... إلخ.

...العناصر حسب فيرث هي التي تحدد التمثيل الدلالي للمفردة وتظهر قيمتها ...السيق.

...لغوي بين القديم والحديث: كمال بشر: ١٣١.
...سه.
...اللغة: ر.ك تراسك، ترجمة: رانيا إبراهيم يوسف: ٧٨. واللغة والتأويل: عمارة ناصر: ٣٥.
...مقدمة للقارئ العربي: محمود السعران: ٣٣٨.

فصلة التداولية بالنظرية السياقية تتحدد في أن كلتيهما تأسس على بعـ
التخاطب والتواصل بين طرفي العملية التخاطبية، وأن ظروف المتكلم والمخاطب
اللغوية ممثلة بالعوامل غير المباشرة حسب الفكرة التداولية، تقوم بدور مهم
تحديد خصائص الخطاب ومتطلبات التخاطب على اختلاف مستوياتها، فهما يهـ
أي (الاتجاه التداولي والسياقي) (بأثر التفاعل التخاطبي في موقف الخطاب، ويسـ
هذا التفاعل دراسة كل المعطيات اللغوية وغير اللغوية، والخطابية المتعلقة بالتلـ
وبخاصة المضامين والمدلولات التي يولدها الاستعمال في السياق)[1].

وإذا علمنا أن التداولية تدرس في جانب كبير منها علاقة العلامات بمستعمـ
يكون للسياق التواصلي دور مهم في تفسير المفردة خلال النص، والعلاقة بالخـ
الثقافية بين المتحدثين والقواعد المتواطئ عليها في اللغة المتداولة بينهم. وهذا ما يـ
من إنتاج العبارات لا معنى لها ما لم تتوافر فيها الشروط اللازمة التي تتعلق بالمـ
الذي تلفظ فيه العبارة في موقف معين بوصفها فعلا كلاميا[2]. فالمعنى المقامي
التداوليين أي ما يستدعيه السياق من اختيار ألفاظ معينة وترتيبها في النص
عمدة التفسير التواصلي للتراكيب من خلال الاستعمال الوظيفي للغة، ذلك
الاتجاه السياقي للغة لا ينفصل عن الاتجاه الوظيفي الذي يعنى في النهاية بكـ
استخدام اللغة ومن ثم عن قيمتها الاتصالية، وهو ليس شيئا منفصلا أي الا
الوظيفي عن النظام اللغوي نفسه، وعلى ذلك فإن تداخل الأدوار والمشاركـ
النظام التركيبي المستخدم حسب نمط معين لأية لغة مرتبط ارتباطا وثيقا ومـ
بالوظيفة التي تؤديها تلك الجمل في سياقاتها المختلفة، وهذا ما يعني أن اللغة ونـ
البنائي يوظفان حسب السياق الذي يردان فيه والصورة المتشكلة في ظله[3]
المنحى الوظيفي المشار إليه قبلا يكتسب منطلقاته الجامعة بين التداولية والسـ
من اعتبار النص، أي نص، رسالة لها قصدها متمثلة بالغاية التي يحيلـ
وموقفها وظروف تلقيها. فتغدو العملية التواصلية ذات استراتيجية خاصـ
المحورين: المقتضى التداولي وخصائص الدور الاجتماعي أو التغييرات الاجتماعيـ
يحكم الموقف الكلامي، والوجهة الأدائية المقصودة التي تحدد اللغة خلالهما[4].

---

(١) دراسات في اللسانيات العربية: عبد الحميد مصطفى السيد: ١١٩.
(٢) التداولية: جان سيرفوني، ترجمة: قاسم المقداد: ١٠٩، وفعل القول من الذاتية في اللغة:
ك. أوريكيوني، ترجمة: محمد نظيف: ٩٥.
(٣) في اللسانيات العامة: مصطفى غلفان: ٨٠.
(٤) مغامرة المعنى من النحو إلى التداولية، قراءة في شروح التلخيص للخطيب القزويني: صابر الحباشـ

...الدراسة التداولية للنصوص إنما تستند في تفسير معنى النص وترجمته وتأويله ...ار ما هو مؤطر ضمن ظرفه الخارجي وفي سياق يكون ملائما له، فأفعال اللسان ...ازية على سبيل المثال لا تتحقق فعليتها وهدفها وتأثيرها في الخارج ما لم تتلاءم ...ط إنجازها بالسياق الذي يتم فيه التلفظ بالعبارة بوصفها فعلا للسان، وهذه ...وط يمكن تحديدها بالأمور الآتية:[١]

... الظروف والأشخاص المشاركون في إنجاز الفعل اللغوي وإخراجه من كمونه الاعتيادي.

... مقاصد الأشخاص.

... نمط التأثير المرتبط بإنتاج الفعل اللغوي.

...التعبير بجملة (سأسافر غدا) نجد أنها توحي بعدة معاني وذلك بحسب السياق، ...تدعي الإخبار في سياق ما، وتفيد الوعد في سياق آخر، وقد تحمل معنى التهديد ...ياق ثالث، وغيرها من التوجيهات التي يكون عامل حضور السياق فيها شرطا ...يا لقيام المعنى ومن ثم تحقيق عملية الفهم والتواصل الضروريين بين المخاطب ...اطب، ولا شك أن الفعل القصدي هو الذي يحدد وجهة وإطار هذا النوع من ...ير. وهذا الفرع من التداولية المشار إله أي الفعل اللساني الإنجازي ينحو منحا ...اتيا في تفسير الظاهرة اللغوية حين يتجه نحو (الكشف عن الأعمال اللغوية ...تطابق الحدث اللغوي مع الحدث الفعلي، وهذا جانب من اللغة يكرس أهمية ... الذي تنشئه اللغة، كما يعكس خطورة القوة الإنشائية للغة باعتبارها قانونا ...ا يسرع لا للتفكير والتواصل فحسب بل وللسلوك كذلك)[٢].

...تيجة لما مضى نقول (إن فعل اللسان يكون ملائما لسياق معين عندما تكون ...شروط الضرورية لإنجاز هذا الفعل قد اكتملت، وهذه المهمة هي مهمة التداولية ...ما أن تحدد الشروط التي على كل فعل من أفعال اللسان أن ينجزها لكي يكون ...للسياق الخاص)[٣]. وشرط السياق التداولي يتعانق ويمتلك حضوره بشكل ...مع (الاستلزام الحواري) والذي يمثل الطرف الآخر المقابل والمقارن لموضوع ... كما سيأتي.

...ل العناصر الثلاثة المذكورة سابقا والتي حددها فيرث وجعلها أساسا للتفسير ...ي الاجتماعي للغة ممثلة بـ(العنصر البشري "الأشخاص" _ وعنصر الموضوع _

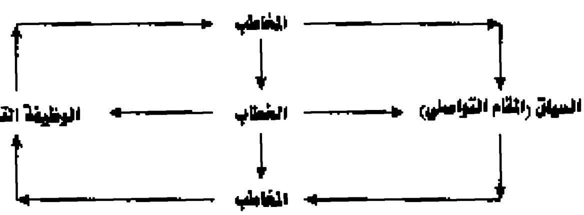
...اولية من أوستن إلى غوفمان: فيليب بلانشيه، ترجمة: صابر الحباشة: ٧٨ . ٧٩.

...قضايا الفكر اللساني في النحو والدلالة والتداولية: صابر الحباشة: ١٨.

...لمانية وعلم النص: إعداد وترجمة: منذر عياشي: ١٧٢.

وعنصر الهدف أو الأثر) هي عناصر تمتزج مع الفكرة التداولية في تحليلها للنصوص والعبارات بصورة واضحة والمعاني المستلهمة منها، وهذه هي مهمة التداولية الاجتماعية *Socio-pragmatics* كما يصنفها البعض، في اهتمامها بدراسة شرائط الاستعمال اللغوي المستنبطة من السياق الاجتماعي، عكس التداولية اللغوية الصرفة *Linguistics Pragmatics* إن صح التعبير، التي تدرس الاستعمال اللغوي من وجهة نظر تركيبية فقط[1].

ولأن المستوى التداولي كما يرى فان دايك *Van Dijk* هو مستوى عملي *Action* فإن النصوص والخطابات العملية تقتضي ملاءمتها مع السياقات التواصلية التي تنجز فيها وتتحدد مناسبتها لذلك نسبة للحضور المقامي لكل من المخاطِب والمخاطَب فضلا عن الخطاب[2]. لذا فالذي يحدد بنية المعنى وفق هذه الصورة ليس الأقوال وحدها، رغم أن المعنى الفعلي في التداولية ينشأ في جزء كبير منه من بنية الأقوال، إلا أن لظروف المقام التواصلي ومظهر إنتاج الكلام فيه يتكأ على الموقف الخارجي بشكل كبير، وهذا الموقف أو السياق الخارجي كما يسمى ليس مجرد مكان يلقى فيه الكلام، وإنما هو نتاج عناصر متكاملة كما بينا يتعانق بعضها مع البعض الآخر في سبيل كشف المعنى الملائم للخط البياني المقامي الذي يوجه فيه النص والتركيب، والمخطط الآتي لتوضيح العلاقة بين التداولية والسياق (الموقف الخارجي):



يتضح مما ذكر أن العناصر والشروط المركز عليها في التحليل التداولي للنص اللغوي تتقارب مقاربة شديدة مع نظرية السياق في مقاصدها التوجيهية والتحليلية والتأثيرية للغة بشروطها الخارجية المذكورة، وسعيها نحو بناء سيرورة التواصل التأثيري والمثمر بين أطراف عملية التخاطب.

---

(1) *Robins, R.H., A Short History of Linguistics, p. 97.*

ومدخل إلى علم اللغة النصي: فولفجانج هاينه من، وديتر فيهفيجر، ترجمة: فالح بن شبيب العجمي: ٦١-٦٢.

(٢) لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب: محمد خطابي: ٢٨ – ٢٩.

أما نظرية الاستلزام الحواري أو التلويح الحواري كما تسمى أيضا، فهي قائمة في الأساس على فكرة المحادثة وإدارة الحوار واستقامته. والتي تتبين في استعمال التراكيب الصحيحة منطلقة من كيفية الأداء الحواري والتدرج فيه وصولا إلى انتهائه وسلامته اللغوية وتوفيقه بين أطراف العملية التخاطبية.

وأصل فكرة النظرية تعود إلى الفيلسوف اللغوي بول غرايس *P. Grice*، التي تعد واحدة من أهم الاتجاهات الخاصة بعلم مفاهيم الكلام التي تستند عليها التداولية بشكل خاص، وذلك بالتفرقة التي أقامتها النظرية بين المعنى اللغوي الحرفي (المحض) الذي يحمله الملفوظ في محتواه الأصلي، وبين المعنى السياقي المقصود في عملية التواصل[1]، حيث يدل دلالة غير مباشرة على المعنى المطلوب من النص.

والسؤال الذي طرحته التداولية عبر هذه النظرية والتي جاءت تفسيرا للتعارض أو التباين الحاصل بين المعنى الوضعي والمعنى السياقي هو أنه (كيف يمكن لعملٍ قوتُه (أ) أن يدل على عمل قوته (ب)، وكيف يتمكن المتكلم من إبلاغ (ب) عن طريق (أ)، وما الذي يعتمده المخاطب لفهم الغرض المقصود)[2]، وبمعنى آخر كيف يتسنى لنا أن نفيد من المعاني أكثر مما نقول ونعبر عنه حرفيا بالدلالة اللفظية النطقية المباشرة[3].

فعندما نتأمل التعبير الآتي:

(أ) أين كان عبد الله البارحة؟

(ب) لقد وصل عمرو من عند خالد الليلة الماضية متأخرا.

ظاهر هذه الإجابة يبدو غريبا، فالسائل طرح سؤالا بشأن (عبد الله) ولكن المجيب (ب) لم يشر بكلمة واحدة بخصوصه، بل ذكر وصول (عمرو) من عند (خالد) متأخرا اللذين لم يرد ذكرهما في السؤال بأي حال من الأحوال، ولكن بالرغم من ذلك فإن الإجابة رغم عدم صراحتها ومنطقيتها اللغوية الواضحة والمفهومة مباشرة، فإن الإجابة جاءت من (ب) بصيغة تضمنية مستلزمة من خلال الحوار المحادثي الدائر بينهما، وكأن المجيب ينوي القول: (أنا لا أعرف أين قضى عبد الله الليلة الماضية يقينا ولكن عندي من الأسباب ما يجعلني أعتقد بأنه قضى تلك الليلة في بيت (خالد) مصاحبا له عمرو، ولا سيما إذا علمنا مسبقا أن موعد اللقاء بين هؤلاء الأصدقاء الثلاثة كانت شبه دورية يتناوبون الزيارة والمصاحبة كل ليلة في بيت واحد منهم يوميا.

ولا شك أن الظرف السياقي والمحيط الذي يقال فيه هذا النوع من التعابير

---

(1) التداولية: جورج يول، ترجمة: قصي العتابي: ٦٧.

(2) أهم المدارس اللسانية: عبد القادر المهيري وآخرون: ١١٤.

(3) الخطاب وخصائص اللغة العربية، دراسة في الوظيفة والبنية والنمط: أحمد المتوكل: ٥٠.

يحضران بقوة ويتواجدان لاستخلاص المعاني المطلوبة والمفهومة إدراكا لملمح نجاح العملية التواصلية، ويؤكدان من ناحية أخرى أن الوظيفة التداولية تجمع النظريتين (السياقية والحوارية) على صعيد بناء لغوي إفهامي واحد ومشترك.

ولما كان لهذه النظرية صلتها بتحديد معايير القدرة التواصلية وسلامة الاتصال ونجاحه بين المتخاطبين، فقد رأى التداوليون أن المقياس الذي وضعه غرايس في مبادئ الحوار والمحادثة يعد بعدا مهما وأساسيا من أسس ضبط قوانين القيم اللغوية وتسييرها بصورة محكمة في تحقيق المعنى المطلوب بين المتكلم والمخاطب[1].

وقد صاغ غرايس هذه المعايير على وفق ما أسماه بمبدأ التعاون *Cooperative Principle*، بين المتكلم والمخاطب، وهو مبدأ تداولي حواري عام يشتمل على أربعة مبادئ فرعية، يقتضي أن المتكلمين متعاونون في تسهيل عملية التخاطب، وتتلخص هذه المبادئ فيما يأتي[2]:

١. مبدأ الكم *Quantity*: اجعل مساهمتك ذات كفاءة إعلامية بالقدر المطلوب أي كمية الإخبار الملتزمة والمطلوبة في الخطاب من غير زيادة ولا نقصان.
٢. مبدأ الكيف *Quality*: وهو مبدأ يتصل بالصدق، أي لا تقل ما تعتقد عدم صدقه ولا دليل عليه.
٣. مبدأ العلاقة *Relation* أو المناسبة: اجعل كلامك مناسبا، أي أن يكون كلامك مناسبا لسياق الحال.
٤. مبدأ الطريقة *Manner*، أو الأسلوب كما يسمى أيضا: وهذا المبدأ يتفرع إلى:

أ- الوضوح: حيث يجب أن يكون خطابك واضحا في قصده، كي يمهد السبيل أمام ما يقصده المتكلم من أقواله.
ب- تجنب الغموض والإبهام: بالابتعاد عن الكلمات الملتبسة التي تحتمل معاني مختلفة في سياقات مختلفة.
ج- الإيجاز: بتركيز المخاطب على ما يجب أن يقال.
د- الترتيب: والمقصود ترتيب المفردات في الخطاب، وبضرورة عرض ما لدى المتكلم من معلومات كما يطلبها الآخرون.

وتوضيح هذه المبادئ الرئيسة بالمثال الآتي:

---

(١) علم التخاطب الإسلامي، دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص: محمد محمد يونس علي:١١٣.

(٢) و التداولية: جورج يول: ٦٨. *H. P. Grice, Logic and Conversation: p. 305.*

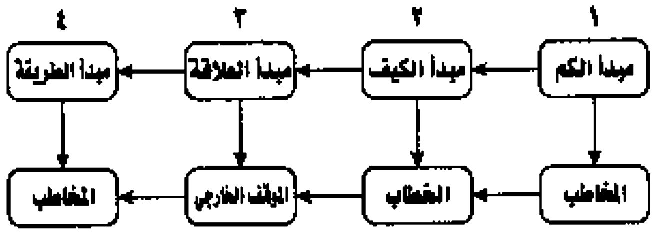
قولنا:	(س) أين زيد؟	(ج) في الجامعة.

نجد أن هذه المبادئ العامة والفرعية المذكورتين قد تحقق حضورها في هذا الحوار لحادثي القصير، فالإجابة وردت واضحة مفهومة غير ملبسة (مبدأ الطريقة)، وكانت لائمة لمعيار الصدق لأنها جاءت صريحة وصادقة (مبدأ الكيف)، وكمية المعلومات واردة في الخطاب استخدمت القدر المطلوب من الكلمات دون تزيد أو نقص (مبدأ لكم)، كما أن الإجابة كانت ملائمة ومناسبة لسياق السؤال، وذات صلة وثيقة السؤال (مبدأ المناسبة)، ولذلك كانت العملية التواصلية ناجحة بين المتخاطبين.

وتأتي نظرية الاستلزام الحواري لتعلق حصولها في الخطاب أو النص عند خرق حدى القواعد الأربعة المذكورة، فلئن عدنا إلى مثالنا السابق بين (عبد الله - وعمرو - خالد) نجد أن جملة الإجابة: لقد وصل عمرو من عند خالد الليلة الماضية متأخرا، ستلزمت حواريا ضمنيا وبصورة غير مباشرة وجود (عبد الله) في بيت (خالد) ومعهم مرو)، فحصل مفهوم الاستلزام نتيجة خرق مبدأ (العلاقة) أو المناسبة الكلامية بين طرفين (المتكلم والمخاطب)، مما جعل الإجابة غير ملائمة ظاهريا ومباشرة للسؤال طروح، وبانتهاك مبدأ (العلاقة) لم يوصف الاتصال بالنجاح مثلما هو طبيعي تعارف عليه لفقدانها الملاءمة التعبيرية كما ذكرنا. وينبغي الملاحظة هنا أن المتكلم البا ما يتقصد خرق إحدى هذه المبادئ متبعا الإيهام واللبس في الكلام بغية إدراك صود المعنى والغاية التي يتوخاها من الخطاب بصيغة أسلوبية غير مباشرة، وذلك بأن ون تعبيره استنتاجيا ملوحا غير مصرح، ليلتمس المخاطب وراء صياغته الكلامية عدا مضافا في سبيل تحليلها وتفكيكها بالوصول إلى مناحي الدلالة المطلوبة.

ومن خلال تتبع القراءة لهذه المبادئ والأسس الأربعة التي وضعها (غرايس) وفصل قول فيها، نجدها تتجانس وتجتمع مع عناصر عملية التخاطب الأربعة الرئيسة وهي: خاطب (المتكلم)، والمخاطب (المستقبل)، والخطاب (الرسالة)، وسياق الحال لموقف الخارجي)، لكون بعض هذه المبادئ يتعلق بالمخاطب (مبدأ الكم) بقدراته مكاناته الحوارية، وبالمخاطب (مبدأ الطريقة) في كيفية استقباله للخطاب بتفكيك بهام لبسها وغموضها، وبالخطاب (مبدأ الكيف) بما يتسم به من السمات لمفهومة والمستعملة خطابيا، وبالموقف الخارجي (مبدأ العلاقة) الذي هو حلقة وصل ي تسيير وإحكام ربط الخطاب بين المخاطب والمتلقي، وتوضيح العلاقة بين مبادئ رايس) وعناصر العملية التخاطبية بالمخطط الآتي:

) نحو نظرية أسلوبية لسانية: فيلي ساندبرس، ترجمة: خالد محمود جمعة: ١٩٨.



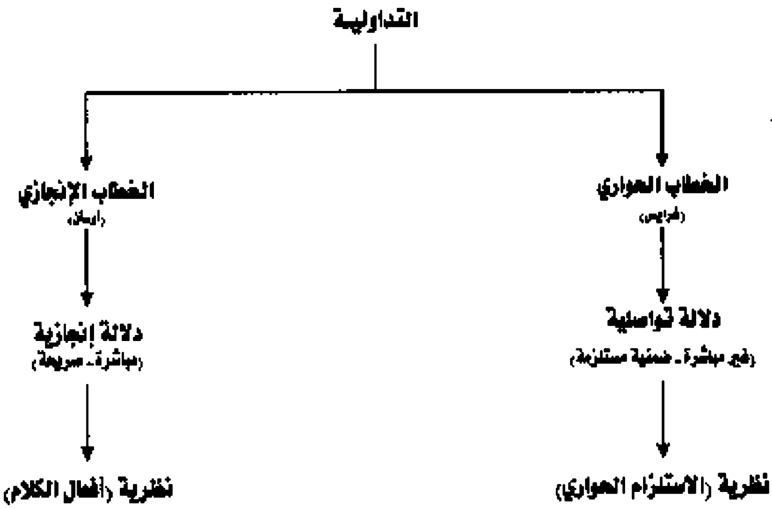
ويبقى للسياق دخلا قويا ودورا مميزا في تسهيل وتسيير عملية المحادثة أو الحوار للبلوغ إلى العمل غير المباشر، ولا سيما إذا علمنا أن هذه المبادئ ليست إلا جزءا من مبادئ اجتماعية(١) ترتب معانيها وتخير لتناسب سياقها الظرفي الاجتماعي الذي يقال فيه الكلام، خاصة أن إحدى هذه المبادئ التي يتبناها (غرايس) وهو مبدأ العلاقة أو المناسبة، يتطابق كليا مع فكرة (سياق الحالة) التي صاغها (فيرث) في تحليله لمستويات المعاني المستقاة من النص وذلك بمراعاة الظرف العام من حال المتكلم والمخاطب، إلى حال الخطاب الذي ينتج في حدود الموقف الخارجي الملائم لمقتضى السياق.

ولا ننسى الإشارة في هذا المقام ونحن نختم هذا المبحث بأن (الخطاب الحواري) الذي مثلناه بنظرية الاستلزام يختلف عن (الخطاب الإنجازي) ذي الأثر المتحقق في الواقع، فالأول يندرج ضمن الفعل التواصلي غير المباشر، ويعتمد في العادة على خلفية من المعلومات المشتركة بين المتكلم والمخاطب، كما أنه يتطلب كفاءة تواصلية من خلال عملية استدلالية من لدن المخاطب بإقناع المتلقي في التماس القصد الدلالي المطلوب(٢)، ويتدخل المقام فيه كما ذكرنا بصورة فعلية في توضيح ذلك عبر التفرقة بين المعنى الوضعي والمعنى السياقي الاستلزامي، وبعبارة أخرى بين قصد التعبير وقصد التواصل.

أما الخطاب الإنجازي فهو يصنف ضمن الأفعال المباشرة* عادة وهو ميدان ننجز فيه أعمالا لا تتحقق إلا بواسطة اللغة على حد قول أوستن *J.Austin*، وهذا الخطاب يحمل صفة براغماتية لأنه يبحث عن أثر القول في الخارج(٣). لذلك فهو ذو دلالة نفعية عملية بالدرجة الأولى، توظف اللغة من خلاله لإحداث أثر أو لتغيير ما في العالم

(١) الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر: محمد سالم الأمين الطلبة: ١٦٨.
(٢) اللغة والمعنى، مقاربات في فلسفة اللغة: إعداد وتقديم: مخلوف سيد أحمد: ٢٠٣.
* استثنينا في هذه العبارة ذكر الأفعال الإنجازية المباشرة، دون الأفعال غير المباشرة كما طرحها سيرل، لكون الإنجاز المباشر للأفعال أصل في هذه النظرية لنسبة إلى واضعها أوستن
(٣) نظرية أفعال الكلام: جون أوستن، ترجمة: عبد القادر قنيني: ١٢٣.

أو الواقع. وتوضيح ما ذكرناه بهذا المخطط:



يلحظ مما مضى تقابل المنحى التداولي الذي نحت به كل من نظريتي (السياق) و(الاستلزام الحواري) في تلازم شروط العناصر السياقية لـ(فيرث) ومبادئ التعاون والمساهمة في تحديد معايير المقدرة التواصلية الناجحة لـ(غرايس)، مع أجواء الخطاب التداولي، واشتراكهما في بلورة قاعدة تلازم يمنحهما التفاعل في سبيل اكتشاف المعنى ونشيط وظيفته في الخطاب أو النص.

المبحث الثاني

المعنى التداولي في ضوء النظريتين (السياقية والحوارية)

لا تقتصر طبيعة المعنى واكتسابه من جهة واحدة، بل هي حصيلة تداخلات معرفية متعددة، كما أن حيثيات استخلاصه تمثل مكمن الوعي المختلف منذ اللحظة التي بنيت عليها اللغة في تواصلها مع الوجود، ولأن المعنى في النص مشروع انفتاحي للفهم فإنه يكتسب حضورا ظاهرا أحيانا أو تلازما وتأويلا أحيانا أخرى، يستكشف مغزاه من السياقات التي تحف بالكلام، لذا فقد أضحت ضرورة التوسل بالنسبية والظن في إدراكه منهجا موازنا يخدم الغرض والفائدة المتوخاة منه والتمامس المطلوب كذلك، تماشيا مع القيمة المتاحة من فضاء التعبير، بعيدا عن الإطلاق قريبا من المنحى الدلالي المتاخم للواقع.

والفكرة الغائية للمعنى تعد المنطلق التداولي للنص في أشهر صورها لكنها ليست الوحيدة، فما بين أيدينا من النظريتين اللتين سنتناول فكرة (المعنى) فيهما هي تداولية أيضا لكن من وجهة استعدادية مختلفة، توجه النص وتفسره وتحلله وفق المعيار المقامي التواصلي بالدرجة الأولى، وبما يقتضي مزيدا من الحفر للنسق الظاهري للنص، كي تكتسي هذه المقاربة صفة المفهوم المتصل جذريا بالمنهج التداولي الذي يسعى إلى المساءلة دوما في نقل دلالة النص من البناء الشكلي العلائقي الداخلي المعتاد وهو ما نسميه بالبنية المنغلقة، إلى حيز الإسقاط الخارجي من وضعية الاستعمال والمقام اللتين تحددان مسيرة عملية التخاطب عن طريق ما نسميه بالبنية المفتوحة.

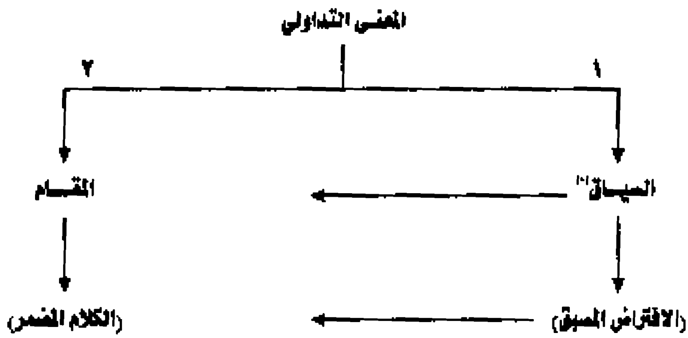
تتجه النظرية السياقية إلى السياق للحصول على معنى الكلمة كما ذكرنا، وذلك ضمن المحور المقامي بمكوناته ولوازمه الخارجية ومعطياته المعرفية المعهودة، وهو ما تدور حوله الرؤية التداولية كذلك في استكناه المعنى المستفاد من النص من خلال جدل العلاقة الدائر بين السياق التداولي والسياق الاجتماعي الخارجي. ومن هنا يشترط جون لاينز *J. Lyons* للنص توفر علاقات ولوازم خارجية يحكمها السياق، ويخلص إلى أن كلا من النص والسياق يتمم أحدهما الآخر، ويفترض مسبقا كل منهما الآخر، لذا فهو يعد النصوص مكونات للسياقات التي تظهر فيها، أما السياقات فيتم تكوينها وتحويلها وتعديلها بشكل دائم بواسطة النصوص التي يستخدمها المتحدثون والكتاب في مواقف معينة[1]. ولا شك أن حضور الموقف في النص له دور وظيفي وتداولي كبير

---

(١) اللغة والمعنى والسياق: جون لاينز، ترجمة: عباس صادق الوهاب: ٢١٥.

في مستوى التخاطب والتلقي، ويوفر الإنجاز للمعنى بمعطيات الحالة غير القولية الحافة حول النص.

وهناك عنصران أساسيان يرتبطان - كما يرى التداوليون - أشد الارتباط بتحليل الموقف الخطابي في إطار المقصد التواصلي وصولا إلى استكناه المعنى التداولي من الكلام، وينعكسان في تعلقهما من حيث الإحالة مع كل من (السياق) و(المقام)، هذان العنصران هما (الافتراض المسبق *Pre-supposition*) و(القول المضمر)(١)، ويشترط احتواؤهما ضمن النصوص والتراكيب اللغوية التي تنحو المنحى التداولي في الفهم والتحليل، والمخطط الآتي يوضح ذلك:



ويتحقق (الافتراض المسبق) عندما يتوفر لدى كل من المتكلم والمخاطب معطيات لغوية مسبقة متفقة ومتعارفة فيما بينهم قبل الدخول في عملية التخاطب، بخلاف (الكلام المضمر) الذي يصاغ فهمه ويتعلق مدلوله بمعطيات خارج لغوية (مقامية)(٣)، باعتبار أن (المقام) يرتبط بالسياق الخارجي، ومجموع الشروط التي تتحكم في عملية إنتاج وتلقي النص، عكس (السياق) الذي ينحصر مدلوله في العلاقات بين الوحدات اللسانية داخل النص(٤)، فالفرق إذن قائم بين (سياق الكلام) و(مقام الكلام)، والمعنى التداولي يتسحب مدلوله ويكون استنباطه من الثاني، أما الأول فهو وسيلة لفهم الأخير

الملفوظية: ١٠، ١١، ١٦١.

المقصود بالسياق هنا، السياق اللفظي (المنطقي أو الكتابي).

مدخل إلى اللسانيات: محمد محمد يونس علي: ٩٩.

نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال: حسين خمري: ١٨٤.

وبرد نحو امتلاك القيمة التداولية من النص. مع التنبيه هنا إلى أن مصطلح (مقام الكلام) يناظر مصطلح (سياق الموقف) أو (سياق الحالة) الذي جاء به فيرث كما مر بنا، سوى أن مصطلح المقام ارتبطت نشأته وتسميته عند البلاغيين العرب في تمرسهم لأساليب البيان المختلفة في النصوص التي تناولها كتابة وفهما وتحليلا.

فقول القائل: هل لك أن تعيرني كتابا من المكتبة غدا ؟ يفهم من سياق هذا المثال ويفترض مسبقا أن المخاطب يعرف القراءة، كما أن لديه خبرة في الإعارة. أما إذا كان النص منفتحا على أكثر من جهة في التأويل والتحليل بحيث يكون سياق الحالة أو المقام هو الفيصل في إفراز المعنى التداولي المتعدد من التركيب أو النص فهو كما في المثال التالي: الجو شديد الحر اليوم، فعن طريق تدخل المقام في هكذا تعبير يؤول الكلام نحو أكثر من جهة من الفهم المتاح للمخاطب، فقد يكون المغزى: تأجيل موعد اللقاء أو السفر، المكوث في البيت، اللبس الخفيف تحاشيا من حرارة الشمس إلخ... فالوجود المتحقق لهذه التعبيرات في الواقع مرهونة معانيها التداولية بظروف المقام وخصوصياته التي تلقى ضمنها النصوص والتراكيب.

ولو حاولنا الإيغال في هاتين المقولتين التداوليين لنلتمس منهما النهج التداولي لمعاني الألفاظ والعبارات لتبين لنا أولا أن مقولة (الافتراض المسبق) أوسع إثارة ودلالة من نظيرتها (الكلام المضمر)، بكون هذا الأخير ومن خلال ما نستنتجه يكون محتواة ضمن الأول ومندرج تحته بما أسميناه (الافتراض الناتج عن القصد) كما سيأتي، إلا أننا في ذلك نكرر البيان فنقول: إن أي تحليل للخطاب يقوم على أساس المكون الكلي وهو ثنائيتا (المقال والمقام) كما هو حاصل في الدرس اللساني القديم والمعاصر، حيث إن العلاقة بين المقام والمقال تسير في اتجاهين على نحو مستمر، فكما أن المقال دال على المقام، فكذلك نجد المعرفة بالمقام ضرورية في فهم المقال "(١)". ولما كانت التداولية في أصبح وصف لها تعني المجاوزة للبنية إلى الاستعمال، ومن قدرة اللغة إلى قدرة الكلام، ومن الجملة إلى النص أو الخطاب، ومن ثم دراسة المنجز الخطابي في إطار التواصل، نجد أن هذا التوجيه يتبنى المنهجية في إلحاق البنية الشكلية بالأبعاد المقامية للنص وذلك لتحديد معناه متساوقاً مع الموقف التواصلي.

ورغم ما للمقال من أهمية لسانية كونه يمثل القاعدة في تأصيل المعنى الحقيقي للخطاب، إلا أن حصره للدلالة في أفق ضيق يجعل منه ملكة معرفية نسبية الإفادة، ومن هنا أتى اللجوء لقرائن السياق والمقام لإدراك ما انتفى من المعاني،

---

(١) الدراسات الإحصائية للأسلوب، بحث في المفهوم والإجراء: سعد مصلوح، عالم الفكر، الكويت، م٢٠، ع٣، ١٩٨٩م: ١٦٥.

أتبع التداوليون مقولة (القصد) أو القصدية[1] تعضيدا للمقام في فك إغلاق التلفظ وانفتاحها نحو مديات إفهامية واسعة، ليأخذ (الافتراض المسبق) بعد ذلك، وبعد هذه المزاوجة الخارجية بين (المقام - والقصد) نمطين تداوليين فرعيين نحاول هنا التمييز بينهما - وإن على سبيل الاجتهاد والتبسيط - مما لم يشر إليهما في المصادر التداولية المطلعة حسبما نعلم وهما:

- افتراض مسبق منشؤه العرف.
- افتراض مسبق منشؤه القصد.

فالافتراض الذي منشؤه العرف هو ذلك الخطاب التداولي ذو المعنى المحدد، الذي يصاغ في مقام محدد وضمن ظروف إنجازية مناسبة بالنظر إلى عناصر السياق. كقولنا مثلا: لدي ثلاثة من الأولاد المتعلمين، فالافتراض الذي ألمح إليه الخطاب جاء بالاعتماد على مرجعية (ضمنية) دالة وبصيغة إفادية محددة، وهو أن المخاطب متزوج ولديه أسرة تربوية وتعليمية ناجحة، فيكون معيار هدف الخطاب قد توسل بنسبة تواصلية مفهومة ومقدرة في ذهن المتلقي يستطيع كشف دلالة كلام المرسل واستبيان مغزاه بسهولة.

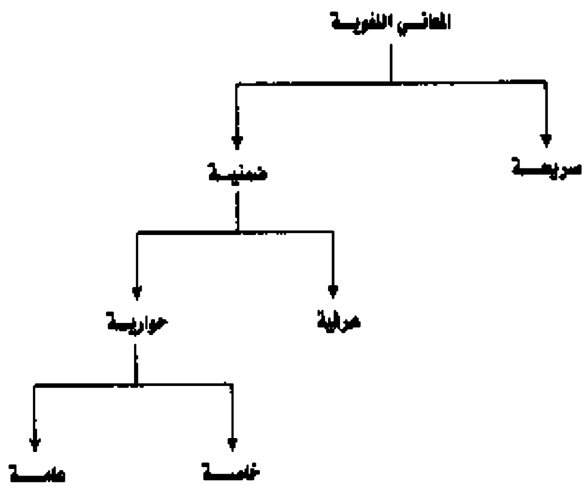
أما الافتراض الذي منشؤه القصد، وهو يناظر مدلول (الكلام المضمر)، فهو ذلك الخطاب الذي ينفتح فيه التأويل على مديات استعمالية متعددة، حيث المعاني المضمرة من قبل المتكلم عندما يتفوه بمثل هذا الخطاب أو ذاك في سياقه القصدي العرضي، والدلالات الإضافية التي يستنتجها المتلقي من مضمون الكلام المتفوه، مما يؤكد - أي هذا النوع من الافتراض - أن وحدة التحليل في التداولية هي الوظيفة التي تنطلق منها النص أو الخطاب، والقدرة التواصلية التي تصطبغ بها عناصره ومكوناته. ولنأخذ مثالنا الذي استدعيناه في (الكلام المضمر) سابقا نستدعيه هنا لكن بصيغة أخرى كقولنا: (الجو حار في الخارج)، من هذا التفوه البسيط الذي يطلقه المتكلم، يستطيع المخاطب بحكم قناعته المعرفية بمقاصد الخطاب المختلفة أن يلتمس لها دلالات متعددة، فإما أن يكون القصد مثلا: أعطوني والجملة على لسان المتكلم - مروحة أو مظلة تقيني لهيب السماء، أو أن يتقصد تأجيل خروجه والذهاب لعمله إلى وقت لاحق بسبب الحر المفرط، أو أنه يريد نصيحة من معه في المسكن بعدم التعرض للشمس خشية الإصابة بالمرض إثر أشعتها القوية إلخ...، وهكذا فبالإمكان أن نفتح التأويل للخطاب نحو مخارج تداولية استعمالية مختلفة، انطلاقا من عامل المقام

---

(١) العقل واللغة والمجتمع، الفلسفة في العالم الواقعي: جون سيرل، ترجمة: سعيد الغانمي: ٢٠٤.

وقدرة التواصل الحاصلة للخطاب.

والصورة التداولية نفسها تنسحب في النظرية (الحوارية)، ذلك أن المعاني عند غرايس إما (صريحة) أو(ضمنية)، والمعاني الضمنية التي هي موضوع دراستنا ، صنفان: الأول عرفية: وهي تلك المعاني المرتبطة بالنص ارتباطا يجعلها تتلاءم ولا تتغير بتغير السياقات التي يتعرض لها النص، والثاني حوارية: وهي المعاني المتولدة وأيضا المتعددة طبقا للمقامات التي ينجز خلالها النص، وهذه الأخيرة بدورها نوعان: فهي إما ناتجة عن سياق خاص، وإما ناتجة عن العموم، وقد اصطلح غرايس على هذين النوعين من المعاني الضمنية الفرعية بـ(الاستلزامات الحوارية الخاصة) و(الاستلزامات الحوارية العامة أو المعممة)[1]، والمخطط الآتي يوضح ذلك:



(الاستلزام الحواري)

ومفهوم (الاستلزام الحواري) يتصل بسياق الموقف الخاص، لأن فيه قصدية مسبقة من لدن المخاطب عن طريق تشكيل مغزى خاص للخطاب منوط بظروف ينتقل من (المعنى الحرفي) إلى (المعنى الإيحائي)، بحيث لا يكون الأول محتملا السياق.

(١) اللسانيات الوظيفية، مدخل نظري: أحمد المتوكل: ٩٨ - ١٠٠.

وبالعودة إلى المعاني (العرفية) و(الحوارية)، نجد أن من أبرز الفوارق الملحوظة بين المعنيين، أن المعنى الحواري أو التخاطبي تعددي وتأملي، فالدلالة الملتمسة منه تتعدد ويعضد بعضها بعضا، بسبب ارتباط استخراجها بظروف وملابسات العملية التخاطبية، ففي المثال الذي قدمناه سابقا: الجو شديد الحر اليوم، رأينا كيف أن الصياغة ارتبطت بالمعنى لا باللفظ، وانفتح التعبير على أكثر من دلالة لدى المتلقي، بخلاف المعاني (العرفية) فإنها واحدة ثابتة لا تتغير بتغير السياق، بسبب ارتباطها بالصيغة ارتباطا وثيقا[1].

وبما أن التداولية تتجاوز محددات الدلالة الأولية للتعبير، بالسعي نحو دراسة مدى إمكانية الكشف عن قصدية المخاطب من خلال إحالة النص إلى سياقه الخاص، وذلك لمعرفة مقدار التطابق أو اللاتطابق بين معنى النص لسانيا وظروف المقام المنتج فيه، يكون المعنى (الحواري) عند غرايس ناتجا عن عدم التماثل بين المنطوق والسياق، بسبب خرق وكسر مجموع القوانين السياقية التي يُنتج خلالها الكلام، لذا فإن ما يحدث في حالة غياب الملاءمة السياقية حسب قواعد المحاورة والتأدب التي وضعها غرايس، هو عدول سياقي تداولي، وهذا العدول لا يخرق قوانين صوتية أو نحوية أو دلالية، وإنما يحدث نتيجة خرق إحد مبادئ ومحددات السياق الاجتماعي والثقافي، وهذه المبادئ إنما وضعت كي تعطي للمنطوق صورته الأدائية اللازمة، و(الاستلزام الحواري) خروج وانزياح عن هذه المبادئ وعن هذا الأداء المفترض[2].

وبناء على ذلك فإن المعنى الظاهر الذي يدل عليه لفظ العبارة أو النص، ليس هو المعنى الوارد والمفهوم دائما، بل العكس فالمعنى في أحايين كثيرة لا تحدده صورة أو وضع العبارة، وإنما ظروف الإنتاج يجعل من المستلزم أولى وأدل من الصريح ويتوجه إليه القصد، وإن كان الصريح هو الأصل والمستلزم هو الفرع في أصل المواضعات التعبيرية للغة، ذلك أن الكلام " قد يصاغ في تمثيل تدرك معانيه الحرفية، ولكنها غير كافية لإدراك المغزى.... وعلى هذا فإن النص لا يتمظهر في شاكلة واحدة، وإنما في كيفيات مختلفة وراء قصدية المرسل، ومراعاة مقصدية المخاطب، والظروف التي

---

(1) النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي: فان دايك، ترجمة عبد القادر قنيني: ٢٧.

(2) التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد: صلاح إسماعيل عبد الحق: ٢١٤.

يروج فيها النص، وجنس النص، وهذه الماورائيات نفسها تؤدي إلى اختلاف استراتيجية التأويل من عصر إلى عصر، ومن مجموعة إلى مجموعة، ومن شخص إلى شخص "[1].

كما نلاحظ أيضا أن المعنى السياقي التداولي المستخلص في الانتقال من المعنى الحرفي الصريح إلى المعنى البعيد المستلزم، يتم وصفه وصياغته بنفس الإجراءات التي تقوم عليها (قاعدة التعدية الرياضية المعروفة)[2]، فإذا كانت أ تقتضي ب، و ب تقتضي ج، فإن أ تقتضي ج، فقولنا: زيد مبسوطة يداه، واضح أن المعنى الحرفي لهذه العبارة ليس هو مقصود مراد المتكلم حتما بطول ذراعيه أو راحتيه، بل إن معناه: زيد معطاء أو بالغ العطاء، فالعبارة تشير إلى الرمز (أ)، والمعنى الحرفي يشير إلى الرمز (ب)، أما المعنى المفهوم للعبارة فيشير إلى الرمز (ج)، وبذلك يكون (أ) مقتضيا ومستلزما (ج) معنى ودلالة.

وقد بدا لنا من كل ذلك مدى التلاقح المنهجي والتقارب في المنحى التحليلي والرؤية التداولية المشتركة في استلهام المعنى من النص، للدور الثنائي البارز للنظريتين (السياقية) و(الحوارية)، من خلال سياق الظرف الاجتماعي الذي انطلقت منه النظرية الأولى، والسلوك اللغوي المرتبط بالتفاعل والتعاون الاجتماعي بما يفسر وحداتهم الكلامية - أي المخاطبين - على أنها معقولة وتعاونية "[3] وذلك ما انطلقت منه النظرية الثانية.

وأخيرا لا بد من الاشارة إلى أن هدف غرايس من نظرية (الاستلزام الحواري) في الأصل هو وضع آليات ضابطة للحوار من خلال المحادثة اليومية المباشرة، وليس في صدد تأسيس وتبني قوانين شاملة تأخذ على عاتقها حصر العملية التخاطبية بتلك القوانين والمبادئ[4]، وإنما هذه المبادئ سبيل لتحقيق التعاون المطلوب بين المتكلم والمخاطب، لبلوغ العملية التواصلية أفقها الملائم المتزن، فلا يحيطها الغموض يشوبها الثقل فيتعذر الفهم والإفهام عند إلقاء النص أولا، لاحتمالات التأويل التي تجيزه تبعا للتغاير السياقي الحاصل له بظروفه وأحواله. وعلى ذلك فما نراه في التعبيرات المجازية التي يتضمنها (الاستلزام الحواري)، ليس الهدف المطموح إليه

(١) إستراتيجية الخطاب، مقاربة لغوية تداولية: عبد الهادي بن ظافر الشهري: ٢٦٢.
(٢) الفلسفة وقضايا اللغة، قراءة في التصور التحليلي: بشير خليفي: ١٣٢.
(٣) اللغة والمعنى والسياق: ٢٣٤.
Halliday, M.A.K. and Hassan, R. Cohesion in English, p. 84.

لدن غرايس تفسير هذا النص والإفراط في تعليل سبب التوجه ووقوع الاختيار له من قبل المتكلم والاستئثار به دون غيره، وإنما الغاية التي يودها من هذه الأساليب، هي التمييز بين ما يقال فعلا وما يقصد، طبقا للملاءمة السياقية التي يحددها الظرف الاجتماعي والثقافي، فضلا عن قيود تفرضها معتقدات المشاركين في الحوار وافتراضاتهم في مثل هذه الأنواع من النصوص والخطابات[1].

---

(1) اللغة والمعنى والسياق: ٢٣٩.

❖ المصادر والمراجع

- أساسيات اللغة: ر. ل. تراسك، ترجمة: رانيا إبراهيم يوسف، ط١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- إستراتيجية الخطاب، مقاربة لغوية تداولية: عبد الهادي بن ظافر الشهري، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤م.
- أهم المدارس اللسانية: عبد القادر المهيري وآخرون، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، ١٩٩٠م.
- البحث اللساني والسيميائي: طه عبد الرحمن، ندوة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، جامعة محمد الخامس، ١٤٠١هـ.
- التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد: صلاح إسماعيل عبد الحق، ط١، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٣م.
- التداولية: جورج يول، ترجمة: د. قصي العتابي، ط١، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠١٠م.
- التداولية اليوم، علم جديد للتواصل: آن روبول، وباك موشلار، ترجمة: د. سيف الدين دغفوس، ود. محمد الشيباني، ط١، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٣م.
- التداولية من أوستن إلى غوفمان: فيليب بلانشيه، ترجمة: صابر الحباشة، ط١، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ٢٠٠٧م.
- التداولية والسرد: جون ـــ ك آدمز، ترجمة: د. خالد سهر، ط١، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ٢٠٠٩م.
- التفكير اللغوي بين القديم والحديث: د. كمال بشر، ط١، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر: د. محمد سالم محمد الأمين الطلبة، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٨م.
- الخطاب وخصائص اللغة العربية، دراسة في الوظيفة والبنية والنمط: د. أحمد المتوكل، ط١، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠١٠م.
- الدراسات الإحصائية للأسلوب، بحث في المفهوم والإجراء: د. سعد مصلوح، مجلة عالم الفكر، الكويت، م٢٠، ع٣، ١٩٨٩م.
- دراسات في اللسانيات العربية: د. عبد الحميد مصطفى السيد، ط١، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٤م.
- العقل واللغة والمجتمع، الفلسفة في العالم الواقعي: جون سيرل، ترجمة: سعيد الغانمي، ط١، الدار العربية للعلوم، بيروت، ١٩٨٢م.
- العلاماتية وعلم النص: إعداد وترجمة: منذر عياشي، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٤م.

- علم التخاطب الإسلامي. دراسة لسانية لمناهج الأصول في فهم النص: د. محمد محمد يونس علي، ط١، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٦م.
- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: د. محمود السعران، دار النهضة العربية، بيروت، (د. ت).
- فعل القول من الذاتية في اللغة: ك ـ أوريكيوني، ترجمة: محمد نظيف، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٧م.
- الفلسفة وقضايا اللغة، قراءة في التصور التحليلي: بشير خليفي، ط١، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠١٠م.
- في اللسانيات العامة: د. مصطفى غلفان، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠١٠م.
- لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب: محمد خطابي، ط٢، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٦م.
- اللسانيات الوظيفية، مدخل نظري: د. أحمد المتوكل، منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٨٩م.
- اللغة والتأويل، مقاربات في الهرمينوطيقا الغربية والتأويل العربي الإسلامي: عمارة ناصر، ط١، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠٠٧م.
- اللغة والمعنى، مقاربات في فلسفة اللغة: إعداد وتقديم: مخلوف سيد أحمد، ط١، الدر العربية للعلوم، بيروت، ٢٠١٠م.
- اللغة والمعنى والسياق: جون لاينز، ترجمة: عباس صادق الوهاب، مراجعة: د. يونيل عزيز، ط١، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٧م.
- مدخل إلى علم اللغة النصي: فولفجانج هاينه من، ديتر فيهفيجر، ترجمة: د. فالح بن شبيب العجمي، مطبعة جامعة الملك بن سعود، ١٩٩٩م.
- مدخل إلى اللسانيات: د. محمد محمد يونس علي، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤م.
- مغامرة المعنى من النحو إلى التداولية، قراءة في شروح التلخيص للخطيب القزويني: صابر الحباشة، ط١، دار صفحات للدراسة والنشر، دمشق، ٢٠١١م.
- من قضايا الفكر اللساني في النحو والدلالة والتداولية: صابر الحباشة، ط١، دار صفحات للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٩م.
- الملفوظية: جان سيرفوني، ترجمة: قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨م.
- نحو نظرية أسلوبية لسانية: فيلي ساندريس، ترجمة: د. خالد محمود جمعة، ط١، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٣م.
- النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي: فان دايك، ترجمة: عبد القادر قنيني، ط١، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٠م.

- نظرية أفعال الكلام: جون أوستن، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩١م.
- نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال: د. حسين خمري، ط١، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠٠٧م.

المراجع الأجنبية

- *Firth, J.R. (1957). Papers in Linguistics, Oxford University Press.*
- *Grice, H.P. (1991). "Logic and Conversation ", in Steven Davis, Pragmatics: A Reader, Oxford University Press.*
- *Halliday, M.A.K. and Hassan, R. (1976). Cohesion in English. London: Longman Group.*
- *Lyons, J. (1995). Linguistic Semantics: An Introduction. Cambridge: Cambridge University Press.*
- *Robins, R.H. (1978). A Short History of Linguistics. London: Longman.*

مشكلة اللغة والمنطق
في تعلم اللغة والترجمة

أ. م. د. سوسن صالح سرية*

❖ مدخل

يتناول هذا البحث دراسة بعض المشاكل التي يواجهها دارس ومدرس اللغة الأجنبية افة إلى المترجم والتي تتعلق بابتعاد اللغات في بعض الأمور عن المنطق مما يصعب لية الفهم والتواصل بين المعلم والمتعلم. وبعض هذه المشاكل دلالية وبعضها اولية وبعضها نحوية وبعضها صرفية بل وبعضها حسية. ولكن البحث لا يسعى منبعها. كما لا يحاول البحث تفسير أو محاولة فهم هذه الظاهرة بل يكتفي بالإشارة ها والتنبيه لوجودها لان تفسيرها لا يخضع للمنطق. ويركز البحث على الاختلافات أربع لغات تسنى للباحثة دراستها أو تدريسها وهي العربية والانكليزية والألمانية سبينية.

ويطرح البحث أسئلة مثل: هل تخضع اللغة للمنطق؟ وهل تشترك الأمم المختلفة منطق واحد؟ وعندما يتحدث الناس من أمم مختلفة عن الأشياء نفسها هل ابق الصور المنطقية التي تخلقها عقولهم وبالتالي يتحدثون عن الفكرة ذاتها بنفس سلوب والمنطق؟ وهل يرى الناس من أمم مختلفة الأشياء بالمنظار نفسه؟ وهل تمع آذانهم للأصوات والموسيقى بالطريقة نفسها؟ وهل يمكن تطبيق بعض اهيم التداولية على كل اللغات بطريقة متكافئة؟

فعلى سبيل المثال عند دراسة اللغة أو تدريسها يجد المرء نفسه أمام اختلاف ل اللغات مع مسألة التنكير والتعريف فما هو نكرة في لغة نجده معرفة في اللغة رى. وينطبق هذا الأمر على التذكير والتأنيث، والتعامل مع العدد، مثل المعدود ر المعدود، وكذلك الإفراد والتثنية والجمع. وحتى التعامل النحوي يختلف بين ات مثل التعامل مع استمرارية الحدث وتمامه، وترتيب الجمل والعبارات، ووجود زاء كلام في لغة وانعدامها في أخرى. ولا نجد المنطق كذلك في نظرة متحدثي اللغة لفتهم من حيث الشمولية والتعميم وتسمية الأشياء فما يراه أحدهم منطقياً في يعده الآخر بعيداً عن المنطق. بل يتعدى الابتعاد عن المنطق في اللغات المختلفة

جامعة العراقية- كلية التربية للبنات- قسم الشريعة.

إلى أمور حسية مثل رؤية الألوان بطريقة مختلفة وتحديد جمالية الأصوات بصورة مختلفة.

ومن خلال تجربة الباحثة في التعامل مع هذه المشكلة عند الترجمة، وعند تدريس اللغة على وجه الخصوص ترى الباحثة ضرورة تنبيه الطلبة إلى هذه المشكلة وضرب الأمثلة على البعض منها مما يجعل الطلبة أكثر تفهماً لمسألة اختلاف وجهة النظر المنطقية للغات المختلفة مما يسهل عملية تقبلهم لهكذا اختلاف وبالتالي تسهل عملية التعلم لأنهم سيبتعدون إلى حد ما عن عملية قياس كل اللغات بمقياس لغتهم الأم وسيتقبلون المقياس الجديد للغة التي يتعلمونها. وينطبق هذا الأمر على المترجم كذلك.

❖ مواقع الاختلاف في التفكير بين اللغات

يعرّف المعجم الوسيط[1] المنطق بأنه "الكلام" وكذلك "علم يعصم الذهن من الخطأ في الفكر. ويقال: فلان منطقي: عالم بالمنطق، أو يفكر تفكيراً سليماً." فمفهوم المنطق في هذا البحث يعني التفكير السليم الشائع الذي يتفق الناس عليه عادة في مجتمع من المجتمعات وليس في كل المجتمعات. فما تعده مجموعة من الناس منطقياً قد لا تعده مجموعة أخرى كذلك.

وستتناول المباحث التالية بعض مواقع الاختلاف في التفكير بين اللغات التي يمكن تفسيرها تفسيراً منطقياً والتي لاحظت الباحثة وجودها من خلال دراسة أربع لغات هي العربية والانكليزية والألمانية والصينية (المندرين). ولا يعني هذا التقسيم حصر الاختلافات فيه أو انه التقسيم الوحيد، فهنالك مواقع اختلاف كثيرة أخرى لا يسع مجال البحث الخوض فيها. بيد ان هذا التقسيم يلقي الضوء على بعض المسائل التي يكثر الخوض فيها في قاعات الدراسة عند تعلم لغة أجنبية أو تعليمها أ وعند ممارسة عملية الترجمة.

تباعدت وتقاربت اهتمامات الفلاسفة وعلماء المنطق واللغة فيما يتعلق باللغة سواء في الشرق أو الغرب على مر العصور. فهناك من اهتم بالبنية ومن اهتم بالصوت ومن اهتم بالمعنى ومن اهتم بهذه الجوانب كلها كما فعلت التداولية. ولم يكن اهتمام العلماء العرب اقل من اهتمام الغرب بموضوع التداولية في اللغة[2] بل انهم كانوا

---

١ المعجم الوسيط. ابراهيم أنيس وآخرون. الطبعة الثانية. اسطنبول: دار الدعوة، ١٩٧٢، ص٩٣١، ج٢

٢ يُنظر. كتاب نظرية الفعل الكلامي: بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي الاسلامي. هشام عبدالله الخليفة. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون. ٢٠٠٧ في نظرية الفعل الكلامي بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي الاسلامي

سباقين في هذا المجال. وعلى الرغم من محاولة علماء اللغة تجنب المنطق والمعنى في بحوثهم الأولى – فقد أدرك العلماء صعوبة هذا الأمر وتشعبه وتعقيده في اللغة الواحدة – إلا انهم رضخوا في نهاية الأمر واضطروا الى تضمين المعنى والمنطق في دراساتهم الأخيرة.

وهذا ما فعله غرايس (١٩٧٥)[1] في نظريته في التلويح الحواري *(conversational implicature)* التي حاول فيها ان يفسر كيف يتسنى للمرء ان يعني اكثر مما يقول فعلاً. اذ يعتقد ان:[2] (هنالك مجموعة سامية من الفرضيات التي تهتدي بها عملية الحوار وانها تنبع في ظاهر الحال من اعتبارات عقلانية أساسية يمكن صياغتها كإرشادات لاستخدام اللغة استخداماً كفوءاً ومؤثراً في الحوار للحصول على غايات تعاونية)[3] ووضع غرايس مبادئ للحوار لتفسير ظاهرة التلويح في الخطاب منها ما يسميه مبدأ التعاون *(Cooperative Principle)* الذي ينص على الآتي: (اجعل إسهامك الحواري، حين تدلي به، مناسباً للاتجاه والغاية المتوخاة من المحاورة التي تشارك بها) كما وضع غرايس[4] قواعد لهذا المبدأ:

أولاً: قاعدة الصلة *Maxim of Relation*: (ليكن كلامك ذا صلة بموضوع الحديث)

ثانياً: قاعدة النوعية *Maxim of Quality*: حاول ان تجعل كلامك صحيحاً، خصوصاً:

أ- لا تقل ما لا تعتقد انه غير صادق.

ب- لا تقل ما ليس لديك دليل كافٍ على صدقه.

ثالثاً: قاعدة الكمية *Maxim of Quantity*:

أ- اجعل اسهامك في المحاورة مفيداً بالمعلومات الضرورية (بالنسبة للأغراض الحالية في المحاورة).

ب- لا تجعل اسهامك بالمعلومات أكثر مما هو مطلوب.

رابعاً: قاعدة الأسلوب (الكيف) *Maxim of Manner*: كن واضحاً، وخصوصاً:

أ- تجنب غموض العبارة

---

1 *Grice, H. P. (1975). "Logic and Conversation". In Cole, P. and Morgan, J. L. (eds) Syntax and Semantics 3: Speech Acts. New York: Academic Press, pp.41-58.*

2 ترجمت الباحثة النصوص الانكليزية الواردة في النص جميعها الى العربية إلا اذا ذكر اسم المترجم.

3 *Levinson, Stephen C. (1981). Pragmatics. Cambridge: Cambridge University Press, 101.*

4 غرايس، صص ١٠٠-١٠٦. وانظر ترجمة الخليفة في نظرية الفعل الكلامي، ص ١٦٦.

ب- تجنب اللبس
ج- تكلّم بإيجاز
د- ليكن كلامك مرتباً بالتسلسل

وعلى الرغم من ان غرايس يقر ان هذه القواعد لا تمثل وصفاً لواقع حال المحاورات فكثيراً ما يخالفها *(violate)* المتحاورون كما هو الحال عند الكذب او اخفاء معلومات، أو يستخفون بها *(flout)* ليلوحوا تلويحاً متعمداً لإعطاء الصور البلاغية ولكي يلوحوا بمعانٍ أخرى يدركها السامع من الاستدلال *inference*، وقد يتقيدون بها تقيداً مباشراً. وتكون مقدرة السامع في هذه الحالات على التوسع في التفسير عن طريق الاستنتاج المباشر المبني على افتراض ان المتكلم يطيع القواعد. كما ويقر غرايس بأهمية العرف في اللغة حيث يضع انواعاً غير عرفية *(non-conventional)* من التلويح والتي يسميها اللغويون العرب (غير لفظية) تختلف عن التلويحات العرفية *(conventional)* التي لا تتولد بواسطة قواعد المحاورة بل بواسطة ألفاظ متعارف عليها في توليد ذلك النوع من التلويح وتعد هذه التلويحات لفظية في المصطلحات العربية[١]. وبما ان للغات المختلفة اعرافاً مختلفة فمن البديهي ان تختلف تلويحاتها

ويزداد الامر تعقيداً عند تعدد اللغات المدروسة. حيث يفرق ليتش[٢] بين علم التداولية العام *General Pragmatics* والتداولية الاجتماعية *Socio-pragmatics* انه: (يميز دراسة الظروف العامة للاستخدام التواصلي للغة، ويستبعد الظروف (المحلية) على وجه الخصوص في استخدام اللغة. اذ يمكن القول ان الأخيرة تنتمي إلى حقل اقل تطبيقاً من حقول التداولية الاجتماعية، فمن الواضح ان مبدأ التعاون ومبدأ التأدب يعملان بطريقة مختلفة في الثقافات المختلفة او المجتمعات اللغوية المختلفة... فالتأدب (على سبيل المثال) يؤول تأويلاً مختلفاً في المجتمعات الصينية، الهندية أو الامريكية بحيث تصبح الأوصاف التداولية في نهاية الأمر متعلقة بظروف اجتماعية بعينها.) وسيبدو ذلك جلياً في المباحث الآتية.

١- التنكير والتعريف

مسألة التنكير والتعريف في اللغة من المسائل التي يحاول دارسو اللغة وضعها في إطار المنطق فيخفقون أحياناً ويصيبون أحياناً أخرى. فظاهر الحال يدل على ان التعريف بشكل عام يستخدم لإزالة الإبهام عن نكرة وتستخدم اللغات عدة وسائل

---

١ نظرية الفعل الكلامي، الخليفة، ص ١٦٣.

Leech, Geoffrey. (1983[1996]). Principles of Pragmatics. New York: Longman, p.10.

للتعبير عن ذلك. وسيتناول هذا البحث منها استخدام أدوات تحديد ما هو معرفة وما هو نكرة ونخصص منها (أل) التعريف العربية وما يقابلها في الانكليزية أداة التعريف definite article the والتنوين الذي يشير في العربية للنكرة وأداتي التنكير الانكليزيتين (a أو an).

ومن ناحية منطقية لا تشير أداة التعريف العربية (أل) إلى التعريف وإزالة الإبهام دائماً فهناك ظلال من المعاني. يبين عباس حسن[1] وجود "أل" المعرفة التي تفيد التعريف وهي نوعان: "أل العهدية" التي تشير للعهد (الذكري، والذهني أو العلمي، والحضوري) والجنسية التي تدخل على نكرة لتفيد معنى الجنس المحض من غير ان تفيد العهد، والزائدة التي لا تغير التعريف أو التنكير، والموصولة.

وفي الانكليزية نجد ان بوغراند[2] يذكر تسعة كيانات يمكن ان تشير إليها أداة التعريف *the: mentioned, specific, episodic, unique, institutionalized, default, prototypical, superlative and relational*.[3]

فظلال المعاني الموجودة في معاني أدوات التعريف والتنكير في اللغتين العربية والإنكليزية تبتعد احياناً عن مسألة الإبهام والمعرفة والنكرة وتتطرف إلى درجة الزيادة حتى الإشارة إلى كل الجنس مما يجعل لغة ما تستخدم أداة تعريف بينما تشير اللغة الأخرى إلى المعنى نفسه باستخدام أداة تنكير أو حتى بعدم استعمال الأداة. على سبيل المثال، أل الجنسية تترجم إلى أداة غير معرّفة في الانكليزية، انظر الامثلة الآتية:

الأسد أقوى من الفأر	*A lion is stronger than a mouse.*
البصرة مدينةٌ عراقية	*Basra is an Iraqi city.*
قال رسول الله ﷺ : "لا تُقام الحدود في المساجد، ولا يُقاد بالولد الوالدُ."[4]	*God's messenger said, "The prescribed punishments are not to be inflicted in mosques and a father is not to be killed for a son."*[5]

---

1 النحو الوافي. عباس حسن. القاهرة: دار المعارف بمصر. ١٩٧٥، صص ٤٢١-٤٣٢، ج١.

2 *Beaugrande, Robert de. (1980). Text, Discourse and Process. London: Longman Group Limited, p.183.*

3 للمقارنة بين استخدامات ومعاني أل التعريف وترجمتها انظر بحث المؤلفة:

Sirriyya, Sawsan Saleh. 2010. "Translation of the Arabic Definite Article ال *Into English." Translation Studies. Vol. 11, pp13-20.*

4 مشكاة المصابيح. محمد بن عبدالله الخطيب التبريزي. تحقيق ناصر الدين الألباني. ط٣. بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٨٥. ص ١٠٣٢.

5 *Robson, James, tr. 1963. Mishkat Al-Masabih: English Translation with Explanatory Notes. 4 vols. By Muhammad bin Abdullah 'At-Tibrizi (completed the work in AD1336). Lahore: Sh. Muhammad Ashraf, p. 738.*

عند تدريس اللغة تثير ظلال المعاني هذه والتي تبتعد أحياناً عن المنطق حيرة الكثير من دارسي اللغة وخصوصاً من غير المتبحرين في لغتهم الأم فيأخذون المعنى العا للتعريف والتنكير وبعموميته على اللغة الأخرى. اضافة إلى ذلك لا يفهم الكثير من العرب الذين يتعلمون اللغة الانكليزية لماذا نضع للنكرة أداة تسبقها (*a* أو *an*) على الرغم من اننا نستخدم التنوين للتنكير. ويمكن أن يعزى هذا للجهل أكثر منه للمنطق.

ولحل هذه المعضلة يستطيع المدرس إعطاء بعض الأمثلة عن بعض الاستخدامات الأخرى لأدوات التنكير لإلقاء الضوء على بعض ظلال المعاني الأخرى لهذه الأدوات فكثيرا ما أضرب لطلبتي أمثلة عن أل الجنسية وأنها تعطي معنى (كل) وليس إزالة الإبهام وكيف انها تقابل أدوات التنكير في الانكليزية. والحقيقة ضرب مثل واحد يكفي لفتح أبواب الاختلافات المنطقية بين اللغات ويجعله أكثر تقبلاً لهذه الاختلافات وبالتالي تعلمها.

٢- **المعدود وغير المعدود**

يشكل الاستخدام العددي بين اللغات معضلة منطقية أخرى تسبب اللبس وتعيق الفهم والاستيعاب في عملية التعلم كما تربك المترجمين وخصوصاً من ذوي الخبرة المحدودة. فلماذا يوجد في العربية مفرد ومثنى وجمع ولا يوجد في الصينية سوى المفرد وإذا أريد الإشارة إلى الجمع تكرر الكلمة مرتين، بينما الانكليزية والألمانية فيها المفرد والجمع فقط.

ولماذا نجد كلمات معدودة في العربية ولكنها غير معدودة في الانكليزية والعكس صحيح مثل *money, information, news* وفي العربية مال وتجمع أموال، ومعلومة وتجمع معلومات وخبر وتجمع أخبار ولكنها غير معدودة في الانكليزية. وحتى بعض الكلمات غير المعدودة مثل كلمة ماء تجمع أحياناً على مياه في العربية لتضيف ظلال جديدة لمعنى الكلمة وجمعها. بل ان الجمع نفسه في العربية قد يشير إلى جموع قلة جموع كثرة فيتحدد بذلك الحد الأعلى للعدد بثلاثة فما فوق ولا يعود مطلق العدد.

ومن الطريف الإشارة إلى ان اللهجة العامية العراقية تجمع بعض الكلمات غير المعدودة في العربية ليس للإشارة إلى الجمع والتكثير ولكن للتقليل، على سبيل المثال نفط - نفطات و تمن - تمنات (رز)، و حنطة - حنطات... الخ.

تنبيه الطالب لابتعاد العدد عن المنطق يخفف وطأة تقبل الاختلاف، بل انني ألجأ أحياناً إلى ضرب أمثلة اللهجة العراقية واستخدامها العكسي لعملية الجمع في التقليل لأنبه الطلبة إلى ذلك. فارتباك الطالب في تحديد مسألة العدد كثيراً ما كانت تميز

أخطاء في الامتحانات. فمثلاً اذا ما بدأت القطعة المطلوب ترجمتها إلى العربية بعبارة:
"*<u>Two women</u> went to the market because <u>they</u> wanted to buy dresses an[d] shoes for their children. <u>They</u> entered the first shop ...*"

[أ]جد الكثير من الطلبة يبدءون ترجمة النص ترجمة صحيحة ثم يخطئون بعد ذلك في [الع]دد فتكون ترجمة الطالب:

[ذ]هبت امرأتان إلى السوق <u>لأنهم</u> <u>أرادوا</u> شراء الملابس والأحذية <u>لأطفالهم</u>. و <u>دخلوا</u> أول [مح]ل..."

[ول]يس "ذهبت امرأتان إلى السوق لأنهما أرادتا شراء ملابس وأحذية لأولادهما ودخلتا [أو]ل محل ..."

والغريب انني كثيراً ما أجد الطلبة يترجمون ضمير الجمع الانكليزي مذكراً وليس [مؤ]نثاً كما هو الحال في المثال أعلاه.

استمرارية الحدث وتمامه

[عند] تطبيق القاعدة الثالثة من قواعد غرايس، أي قاعدة الكمية *Maxim of Quant[ity]*:

- اجعل اسهامك في المحاورة مفيداً بالمعلومات الضرورية (بالنسبة للأغراض [ا]لحالية في المحاورة).
- لا تجعل اسهامك بالمعلومات أكثر مما هو مطلوب.

[ع]لى اللغات المختلفة نجد اختلافاً كبيراً بين ما يعده متحدثو لغة ما ضرورياً وما لا [يعد]ونه ضروري. فعلى سبيل المثال عند التحدث عن الحدث في اللغات المختلفة [يختل]ف التركيز بين اللغات عما يسعى المتحدث لمعرفته. وهذا السعي لا يخضع [للمنط]ق. فلأن العربية فيها ماض ومضارع ومستقبل فقط لا يدرك العربي لماذا يحتاج [الانك]ليزي ان يعرف هل الحدث مستمر أم تام. حيث يوجد في الانكليزية الماضي [البس]يط والمستمر والتام، بل وحتى الماضي التام المستمر. والأمر نفسه ينطبق على [المض]ارع البسيط والمستمر والتام والمضارع التام المستمر. ويتكرر الأمر نفسه مع [المس]تقبل. وعلى الرغم من ان العربي يستخدم أساليب أخرى للتعبير عن الاستمرارية [وتم]ام الحدث إلا انها ليست بالضرورة المهمة التي يحتاج الانكليزي ان يعبر عنها بل [يبح]ث عنها في الفعل في كل حين. فالعربي يلجأ للبحث عن الاستمرارية والتمام في [حالا]ت محدودة فقط يستخدم لأجلها أدوات واضافات معجمية مثل (قد، وأخوات ان

أو أخوات كان وظروف زمانية... الخ) وليس حاجة ضرورية دائمة قائمة مع كل فعل كما هو الحال في الانكليزية. كما في الأمثلة أدناه:

يتحدث	Speaks, is speaking
تحدث، ظل يتحدث، كان يتحدث، قد تحدث، كان قد تحدث،	Spoke, has spoken, has been speaking, had spoken, was speaking, had been speaking

ان تنبيه الطلبة وخصوصاً طلبة الترجمة منهم لحاجة الانكليزي لمعرفة استمرارية الحدث وتمامه على عكس العربي تجعلهم يسعون لتوخي الدقة في الحديث والترجمة.

٤- التذكير والتأنيث

ويشبه ما ذكر في (٣) أعلاه عن قاعدة غرايس الثالثة في كمية المعلومات المطلوبة في الحوار مسألة السعي لمعرفة التذكير والتأنيث في الكلام. حيث يذكّر العربي ويؤنث الفعل والاسم والضمير والاسم الموصول. بل المفرد قد يختلف عن الجمع في هذه المسألة ففي حين ان (يوم) مذكر في العربية نجد ان جمعه (أيام) مؤنثة.

ولا يذكر ويؤنث الانكليزي الا مع الضمائر واقل القليل من الأسماء والصفات مثل:

Poet-poetess, husband-wife, son-daughter, father-mother, uncle-aunt, lion, lioness

بل ان العربي يبحث عن التذكير والتأنيث في اللغة حتى وان كانت أجنبية بينما لا يفعل الانكليزي ذلك. ففي إحدى المرات كنت أتحدث بالانكليزية مع فتاة نيوزيلندية حديثة الإسلام نسبياً وكانت تجلس معنا فتاة عربية تتحدث الانكليزية هي الأخرى وبدأت الفتاة النيوزيلندية تتحدث عن *my friend* (صديقي أو صديقتي بالعربية) وبعد عدة جمل استخدمت فيها ضمير الجمع *we* (نحن) ولم تستخدم فيها ضميراً يشير إلى جنس هذا الصديق بدا نفاذ الصبر على الفتاة العربية فسألتها:

Is your friend a male or female? هل الصديق ذكر أم أنثى؟

وعندها اندهشت النيوزيلندية وبدا عليها الانزعاج الشديد لان معرفة جنس الصديق لم يخطر ببالها لأنه ليس ضرورياً في لغتها بينما وجدت العربية صعوبة في فهم الفكرة من دون معرفة جنس الصديق.

فبينما يبحث الانكليزي في اللغة عن استمرارية الفعل وتمامه يبحث العربي عن تأنيثه وتذكيره.

وحتى لو استخدم الجنس في الكلام فإنه قد لا يستخدم بالمنطق نفسه في اللغات المختلفة. ففي حين ان الشمس مؤنثة في العربية والقمر مذكر، نجد الشمس مذكراً

في الانكليزية والقمر مؤنثاً. وقد نتساءل أيهما أقرب للمنطق أن يكون القمر – مضرب المثل في الجمال والشاعرية – مؤنثاً أم مذكراً؟ وهل الأصح أن تكون الشمس القوية اللاهبة الحارة مذكرة أم مؤنثة؟ ولماذا نستخدم في العربية المؤنث والمذكر فقط، في حين تستخدم الألمانية المذكر والمؤنث والمحايد. لماذا تكون (المنضدة) مؤنثة في العربية ومذكرة *der Tisch* في الألمانية.

ان مسألة التذكير والتأنيث هذه تخلق الكثير من المشاكل في اللغات التي تتغير فيها الأفعال والصفات والضمائر... الخ في اللغة مع الجنس كالعربية والألمانية. وأذكر انني عانيت كثيراً من ذلك عند دراستي للألمانية. فما هو مؤنث في العربية قد يكون مذكراً أو حتى محايداً في الألمانية. وقس على ذلك تغير الصفات والأفعال والضمائر... الخ. كما مبين في الأمثلة التالية:

الكلمات المذكرة بالعربية والمؤنثة في الألمانية	
لوح	*die Platte*
قناع	*die Maske*
صندوق	*die Kiste*
عدد	*die Anzahl*
صبر	*die Geduld*
غراب	*die Krähe*
جيب	*die Tasche*
ميزان	*die Waage*
رباط العنق	*die Krawatte*

الأسماء المؤنثة بالعربية والمذكرة في الألمانية	
حلقة	*der Ring*
سمكة	*der Fisch*
صخرة	*der Fels*
حصة	*der Anteil*
عربة	*der Kutsch*

ملعقة	*der Löffel*
سلة	*der Korb*

الأسماء المذكرة أو المؤنثة في العربية ولكنها محايدة في الألمانية	
قصيدة	*das Gedicht*
هدف	*das Ziel*
قلب	*das Herz*
صلاة	*das Gebet*
ورقة	*das Blatt*
نافذة	*das Fenster*
ركبة	*das Knie*
قبر	*das Grab*

أما الصينية فتستخدم أدوات للتذكير والتأنيث في بعض الأحيان ولكنها تستخدم في الكتابة ولا تنطقها. وهذا أحد الأسباب الذي يجعل المسلسلات الصينية التلفازي تلجأ إلى إضافة ترجمة مكتوبة للحوار على الصور الموجهة للصينيين أنفسهم وليس للغرباء. بل حتى الأخبار والبرامج الأخرى تأتي مصحوبة بترجمة مكتوبة للصينيين أنفسهم. وكأن الكلام المنطوق لا يكفي لإيصال المعنى!! والحقيقة كان هذا من الأمر التي أثارت دهشتي عندما شاهدت الترجمة مكتوبة لنص موجه للمتحدث باللغة الأم

٥- موسيقية الأصوات وجماليتها

ان مختلف الأمم تستمع إلى الأصوات وتستجيب لها بطرائق مختلفة. بل ان ماهي الجمال نفسه قد لا تخضع للمنطق. فمرة كنت أتحدث مع فتاة صينية بالانكليزي وتطرقنا إلى لغتينا الأصليتين وجمالياتهما. فتلوت عليها أبياتا من الشعر العربي ولم تدرك ان ما قلته شعراً إلا بعد ان اخبرتها انه شعر. فتلت عليّ هي الأخرى ابياتاً من الشعر الصيني وفي الحقيقة لم أجد فيها أية موسيقية ولا جمالية ولا عرفت بداية القصيدة من نهايتها. وتذكرت هذه الحادثة عندما رأيت رد فعل الطلبة العرب في الشعر الانكليزي عندما كنت أدرّس الأدب الانكليزي أو ترجمته. فالطلبة العرب يدركون ان مسرحيات شكسبير كتبت بالشعر الا عندما يبلّغون بذلك؛ وبعد ما

ينسون أصلاً ان هذا شعر: أما الشعر الانكليزي القديم الذي كان يبنى على النبرة *stress* فيصعب كثيراً على الطلبة تذوقه أو فهم انه شعر. وعلى الرغم من تأثر الشعراء المحدثين بالشعر الانكليزي وتقليدهم له ونشوء قصيدة النثر وغيرها من الأشكال الحديثة إلا ان الطلبة العرب ما يزالون يبحثون عن القافية في اغلب الأحيان فيما يسمى شعراً. وحتى اذا ترجم الطلبة العرب – ولا أتحدث عن المحترفين – الشعر الانكليزي شعراً عربياً فإنهم يركزون على القافية ولا يعيرون الوزن اهتماماً يذكر.

ويضع كثير من الطلبة تلقائياً حاجزاً نفسياً أمام ما هو غريب عن ثقافتهم وشعورهم وحسهم الجمالي فيحاولون ان يؤولوا هذه المسألة تأويلا منطقياً وان كان المنطق براءً من هذا الأمر. ان تنبيه الطلبة الدارسين للأدب أو ترجمة الأدب إلى هذه المسألة تقلل من هذا الحاجز النفسي وتوسع الأفق الذي ينظرون به لأدب اللغات الأخرى.

- الشمولية والتعميم وتسمية الأشياء

تعد تطبيق قاعدة غرايس الرابعة في الأسلوب (الكيف) *Maxim of Manner*: كن واضحاً، وخصوصاً:

أ- تجنب غموض العبارة

ب- تجنب اللبس

ج- تكلّم بايجاز

د- ليكن كلامك مرتباً بالتسلسل

على اللغات المختلفة تجد البون الشاسع بين ما يعده بعضهم غامضاً أو يسبب لبس وبين ما هو ليس كذلك، فنظرتنا إلى لغاتنا تبتعد عن المنطق أحياناً. فقد انتبهت عند دراستي اللغة الصينية في تايبيه عاصمة تايوان بشاب من الاوروغواي يعمل في تايبيه ويستخدم الانكليزية وسيلة في التخاطب معهم. وأخبرني كيف انه يواجه صعوبة في توصيل التفاصيل الدقيقة لعمله إلى الصينيين الذين يعملون معه ذلك لان لغتهم – كما يعتقد – تميل إلى التعميم والنظرة الواسعة الشمولية للكون يتعاملون الانكليزية المعاملة نفسها. وفي الحقيقة انتابني الشعور نفسه عند دراستي المحدودة للصينية وعند تعاملي معهم وعندما ترجمت كتاباً يتحدث عن إحدى النظريات الصينية. حيث تقول مؤلفة كتاب *Architect's Guide to Feng Shui*

(دليل المعماري إلى الفينغ شوي) كيت برامبل[1]: (تختلف الهندسة الصينية عن الهندسة الغربية – فعلى سبيل المثال لا يتوافق اي اسم صيني مع كلمة (مثلث). ففي الهندسة الصينية تعني الخطوط المستقيمة الماء، وتعني الأشكال المحددة (مستدقة الطرف) النار، والأشكال المدورة التربة/ الأرض، والأشكال المنحنية الخشب، والأشكال المربعة المعدن.)[2]

كما أخبرتني إحدى الصينيات المسلمات ان لغتنا العربية لا تسمي الأشياء الدقيقة بأسماء محددة في حين ان اللغة الصينية تراعي حتى الاختلافات البسيطة وأخبرتني بأسماء بعض الأشياء المختلفة اختلافاً بسيطاً ولكن لكل واحد منها اسم خاص بالصينية. فهي ترى ان لغتها أكثر شمولية في تسمية الأشياء ونحن نرى ان لغتنا هي الأكثر دقة.

هل الأمر يرتبط بمدى استخدام الناس لشيء معين فيطلقون عليه أسماء مختلفة تشير إلى الاختلافات الدقيقة لذلك كما يفعل شعب الاسكيمو الذين لديهم الكثير من التسميات للثلج. أو كلمة "اعصار" والذي يطلق عليه في الانكليزية تسميات عدة مثل *tornado, hurricane, cyclone, twister, typhoon* ولا ادري كم اسماً يسميه الصينيون لانهم يعانون من موسم الأعاصير كل سنة بينما يندر حصوله في الدول العربية فتكاد لغتهم تقتصر على اسم واحد له. هل هي مسألة استخدام فقط؟ هل هي مسألة منطق؟ اذن لماذا تميل الانكليزية إلى إعطاء الكثير من الأسماء لكلمة (نافذة) أو (كرسي) تزيد كثيراً عن مكافآتها العربية إضافة إلى الكثير من الأسماء الأخرى التي نكاد نستخدم تعبيراً واحداً لها بالعربية على الرغم من ان (نافذة) و(كرسي) كلمتان شائعتان في العربية ايضاً؟ واعتقد ان المترجمين بين العربية والانكليزية يدركون ذلك جيداً ويشاركونني في هذا الرأي. ولكن هل يعني ذلك ان الانكليزية اغنى من العربية؟ ام انها أكثر تفصيلاً؟ وهل الصينية اكثر تفصيلاً من الاثنين؟ ولماذا توجد اسماء للحصان في العربية اكثر بكثير من الانكليزية علماً ان الانكليز استخدموا الحصان في نفس الفترة التي استخدم فيها العرب الحصان؟ ولم يكن اهتمام الانكليز بالفروسية قليلاً هو الآخر. فهل المسألة تعود للمنطق؟ أم للاستخدام؟ أم إلى شيء آخر؟

---

[1] Bramble, Cate. (2003). *Architect's Guide to Feng Shui*. Oxford: Architectural Press, 15.

٢ ترجمت المؤلفة هذا الكتاب إلى العربية: دليل المعماري إلى الفينغ شوي. بغداد: بيت الحكمة، سلسلة كتب ثقافية شهرية، ٢٠١١.

وهناك ما يثير التساؤل في اللغة الواحدة. فلماذا يستخدم العراقيون تسمية "وزارة العمل" بينما يطلق الجزائريون على نفس الوزارة "وزارة الشغل"؟ ولماذا لا يستخدم الانكليز صيغة الاستمرارية مع بعض الأفعال (مثل أفعال الاحساس والشعور) ويستخدمونها مع الأفعال الأخرى، ويقولون مثلاً *I think he is stupid* (أعتقد انه غبي) ولا يستخدمون معه صيغة المستمر مع العلم انني اعتقد ذلك واستمر في هذا الاعتقاد مثلما أقول *I'm thinking of beating him* (أفكر في ضربه) بمعنى هنالك تخطيط لفعل ذلك، وفي الحالتين الفعلان مستمران أو يشيران إلى الزمن الحالي للكلام ولكن أحدهما يأخذ صيغة الاستمرار والآخر لا يأخذها.

٣- وجود أجزاء الكلام وانعدامها في لغة أخرى

إن تقسيم أجزاء الكلام في اللغات وأنواعها في اللغات المختلفة لا يخضع هو الآخر للمنطق فمكونات الفعل في العربية ليست مطابقة لمكوناته في الانكليزية أو الألمانية مثلاً. وما يستخدم للحصول على النفي أو الإثبات أو التوكيد هو الآخر يختلف وهكذا. وهذا الاختلاف بسبب صعوبة أخرى تضاف لمسألة تحليل اللغة تحليلاً منطقياً عند الطلبة ويجعل استخدام الترجمة الحرفية وسيلة للتعليم أكثر صعوبة.

كما يختلف الخطاب المحكي عن النص المكتوب وفي هذا السياق يقول فان ديك[1]: (خطاب اللغة الطبيعية لا يشبه الخطاب الرسمي في انه ليس صريح العبارة *explicit* صراحة تاماً. فالعلاقات بين الجمل او الفرضيات قد تحصل من دون التعبير عنها بكلمات. وهذا هو السبب الذي يجعل التركيب النظري لنص ما ضرورياً في اظهار كيف يمكن تأويل الخطابات تأويلاً مترابطاً ترابطاً منطقياً حتى لو بقيت معظم الفرضيات الضرورية لصياغة الترابط المنطقي *coherence* ضمنية *implicit*، مثلاً فرضيات مضمنة لفرضيات صريحة يعبر عنها في الخطاب.)

إلا ان عدم ذكر بعض الكلمات ذكراً صريحاً مع بقاء الترابط المنطقي بين الجمل والعبارات قد يزداد تعقيداً مع اختلاف اللغات. على سبيل المثال يكثر استخدام الترابط المنطقي *coherence* في ربط النصوص في اللغة الانكليزية اكثر من استخدام التماسك *cohesion* الذي يستخدم الكلمات. بينما تفضل العربية التماسك باستخدام الكلمات على الترابط المنطقي من دونها. انظر للفرق بين الربط بين الجملتين الآتيتين في العربية والانكليزية على سبيل المثال:

---

1 *Van Dijk, Teun A. 1977[1989]. Text and Context: Explorations in the Semantics and Pragmatics of Discourse. New York: Longman, p.94*

- لن يأتي لأنها تمطر مطراً غزيراً   It's raining heavily. He'll not come.

ويشـعر الكثير ممـن يترجمـون النصـوص الانكليزية الى العربيـة بـأن بعـض الجمل الانكليزية لا ترتبط بما يليها من جمل مما يجعل المترجمين يضيفون روابط تعوض عن هذا النقص الذي يشعر به في الترجمة العربية. وعند عكس الترجمة من العربية الى الانكليزية يضطر المترجم الى حذف الكثير من الكلمات العربية الرابطة والاستعاضة عنها بالترابط المنطقي في الانكليزية.

ويتجاوز هذا الاختلاف بين اللغات مسألة الترابط المنطقي والتماسك تجاوزاً كبيراً ففي أحد الأيام وبينما كانت المعلمة الصينية تعلمنا كيفية توجيه السـؤال بالصينية طلبت مني الإجابة على سـؤال وجهته، وكان الجـواب (نعـم) فسـألتها "كيـف تقولون (نعـم) أو (لا) بالصـينية؟" فأجابـت "لـيس لـدينا مكـافئ لـنعم yes ولا لكلمـة لا no فأصـابتني دهشـة عظيمـة فسـألتها "وكيـف أجيـب بالإيجـاب اذن؟" فقالـت انهم يستخدمون صيغة اشبه بصيغة فعل الكينونة بالانكليزية مثل I am لنعم و هنالك أداة تستعمل للحصول على النفي فيكون النفي مثل I am not وليس كلمة بسيطة مثل "لا" أو "no".

ومثل ذلك وجود الأفعال والأسماء فالكثير من الأفعال الانكليزية لا يوجد لها فعل مرادف في العربية ولكن يوجد لأسمائها أو صفاتها مرادفات أو نجد مرادفات للأفعال ولا نجد للأسماء وهكذا. ففي الأمثلة التالية نجد أفعالاً عربية لا تقابلها أفعال انكليزية بل صفات تحتاج إلى أفعال ترافقها لتعطي المعنى المكافئ:

فعل	صفة
يكبُر	*(gets) Old*
يقترب	*(gets) Near*
يَعدِل	*(is) Just/ fair*
يسهّل	*(makes) Easy/ facilitate*
يتكبّر	*(becomes) Proud*
يمتن	*(is) grateful*

وفي الأمثلة التالية نجد أفعالاً انكليزية لا تقابلها أفعال عربية بل أسماء تحتاج أفعالاً ترافقها عند الترجمة:

فعل	اسم
tip	(يعطي) بخشيش
man	(جهز با) رجل/ رجال
jeopardize	(يعرض لل) خطر
idealize	(يضفي) الكمال
file	(يحفظ في) ملف
bed	(يضع في) الفراش
bill	(يرسل) فاتورة

- ترتيب الجمل والعبارات

يقول فان ديك[1] ان العلاقة بين ترتيب الجمل وترتيب الحقائق تمثل جانباً من جوانب علم دلالة الخطاب. ويضيف: (سيسمى ترتيب الخطاب للافعال والاحداث طبيعياً إذا ما توافق ترتيبها الزماني والسببي مع الترتيب الخطي للخطاب. وسيفترض بالنسبة لأوصاف الحالات حيث تتواجد الحقائق جميعها سوية في ذات الوقت – ان الترتيب الطبيعي يتوافق مع علاقات العام-الخاص والكل-الجزء بين الحقائق.)

ولن نتمكن من تطبيق ذلك على كل اللغات بشكل عام. فترتيب الجمل والكلمات والعبارات في اللغات المختلفة هو الآخر لا يخضع للمنطق. مما يضع الجزء الرابع من قاعدة غرايس (قاعدة الأسلوب (الكيف) *Maxim of Manner*: كن واضحاً، خصوصاً: د- ليكن كلامك مرتباً بالتسلسل) على المحك عند تطبيقها على اللغات المختلفة.

حيث نقول في العربية "الكتاب فوق المنضدة" بينما يقول الصينيون "المنضدة تحت الكتاب." وتتبع الصفة الموصوف في العربية فنقول "كتاب ابيض" بينما تأتي غالبية الصفات في الانكليزية قبل الموصوف فنقول "ابيض كتاب" *white book*. وقد يأتي الخبر قبل المبتدأ في العربية وقد يلحقه. وفي الالمانية عندما يتكون الفعل من فعل مساعد وفعل آخر رئيس يُذكر الفعل المساعد اولاً ثم باقي أجزاء الجملة من

---

(1) المصدر نفسه، ص٩٧.

مفعول به وظروف زمان ومكان.. الخ وأخيراً يأتي الجزء الرئيس من الفعل في نهاية الجملة كما في المثال الآتي:

Ich habe das Buch in den Schrank gestellt.

وهذا التسلسل غير ممكن لا في العربية ولا في الانكليزية:

I have put the book in the closet.   قد وضعت الكتاب في الخزانة.

٩- الألوان

لا يرى متحدثو اللغات المختلفة العالم بالألوان نفسها ويبدو ان استخدامهم المجازي للألوان هو الآخر لا يخضع للمنطق. وهذا الأمر دفع الكثير من اللغويين للبحث في موضوع الألوان ومجاميعها والنظرة الثقافية لها ووجود بعض الألوان في لغة وانعدامها في لغة أخرى أو وجود ظلال للألوان في لغة لا نجدها في اللغة الأخرى[١]. فلو نظرنا للأمثلة التالية في اللغة الانكليزية من رواية نورا روبرتس (الداليا الزرقاء)[٢]:

- *Sentiment was only going to make her blue. (p.188)*
- لن تزيدها رقة الشعور الا حزناً واكتئاباً. [حرفياً: إلا إزرقاقاً]
- *The other two [boys] woke up, and Harper said he was going, and we could stay behind if we were yellow coward dogs." (p.196)*
- استيقظ الولدان الآخران وقال هاربر انه سيذهب وبإمكاننا البقاء ان كنا مثل كلاب جبانة يمكن إخافتها بسرعة. [حرفياً كلاب صفراء جبانة]
- *My neighbors are going to be green with envy. (p.272)*
- سيحسدني جيراني حسداً شديداً. [حرفياً: سيصبح جيراني خضراً من الحسد]

لماذا يكون المكتئب الحزين بالانكليزية أزرق اللون أو السريع الإخافة أصفراً والحسود والغيران أخضر اللون. بل ان هذا الاستخدام يتعارض مع قاعدة غرايس الاولى (قاعدة الصلة *Maxim of Relation*: ليكن كلامك ذا صلة بموضوع الحديث) ويجعل متحدثي اللغات المختلفة يظنون ان لا صلة لاستخدام هذه الألوان بصلب الموضوع.

---

١ ينظر على سبيل المثال لا الحصر:

علم الدلالة. احمد مختار عمر. الكويت: مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع. ١٩٨٢.

...as, Asim I. (no date). "Idiomatic Colour Expressions in English and Arabic with ...ference to Translation." Adab Al-Rafidayn. Vol. 16

...lmer, F. R. (1981). Semantics (2nd ed). Cambridge: Cambridge Univ. Press.

Roberts, Nora. 2004. Blue Dahlia. New York: Jove Books.

ويضرب الياس[1] بعض الأمثلة الأخرى التي يستخدم فيها العرب والانكليز الألوان استخداماً مختلفاً غير متكافئ:

النص العربي	الترجمة الحرفية	النص الانكليزي
شاي بالحليب	شاي ابيض	*White tea*
جندي أحمر	قدم سوداء	*Black foot*
موظف حكومي	ياقة بيضاء	*White collar*
عامل	ياقة زرقاء	*Blue collar*
السلاح الأبيض	فولاذ بارد	*Cold steel*
أرض بيضاء	ارض قاحلة	*Barren land*
قوانين قاسية	قوانين زرقاء	*Blue laws*
الأحمران	الخمر واللحم	*Wine and meat*
لحم طازج	لحم اخضر	*Green meat*

بل نجد في العربية أحياناً ان الشيء نفسه يوصف بلونين متناقضين فيقال الأسودان (للتمر والماء) ويقال الأبيضان (للبن والماء) فنرى الماء مرة أبيض ومرة أسود.

من هنا نجد أن المنطق ودقة التعبير في اللغة مسألة نسبية وليست منطقية. أي أن العربية ليست أكثر منطقية من الانكليزية أو ان الألمانية أكثر دقة من الصينية أو ان الصينية أشمل من العربية. فأحياناً تكون لغة ما في موقف ما أكثر منطقية ودقة من اللغة الأخرى ويكون العكس صحيحاً في موقف ثان.

كل اللغات يمكنها التعبير عن الفكرة الواحدة ولكن الأساليب أو التراكيب تختلف. فبينما تركز لغة على نقطة معينة تركز الأخرى على نقطة أخرى واذا افتقرت لغة إلى تعبير عن فكرة ما فإنها تعبر عن فكرة أخرى بفصاحة أفضل.

ان نظريات التداولية العامة لا تنطبق على جميع اللغات من حيث التطبيق بشكل عمومي. فما يصدق في عرف لغة ما يتناقض مع اعراف لغة أخرى ولابد من الحذر وتجنب التعميم عند تطبيق هذه النظريات ومحاولة دراسة صفات كل لغة على حدة. ولقد أدرك بعض علماء اللغة هذه المسألة وبدؤوا يتناولونها في علم التداولية الاجتماعية.

1) *Ilyas, Asim I. (no date). "Idiomatic Colour Expressions in English and Arabic with Reference to Translation." Adab Al-Rafidayn. Vol. 16, pp. 30-35.*

واذا ما سقط حاجز اللغة عن الاعتبار كما هو الحال أثناء موسم الحج مثلاً فسنرى البشر من كل أنحاء العالم وبكل لغاتهم يتواصلون بطرائق تتجاوز حاجز اللغة وقد تصل إلى وسائل بدائية كالإشارات ولكن التعبير عن الفكرة والتواصل يظل قابلاً للحصول.

الحقيقة ان مسألة المنطق واللغة هذه تسبب الكثير من المشاكل لمعلم اللغات ومتعلمها. فعدم ادراك الطالب لسبب الاختلاف يجعله يضع حاجزاً ثقافياً نفسياً بينه وبين اللغة الثانية مما يعيق عملية استيعاب المادة وبالتالي حفظها. ولأن اللغة لا تتصرف تصرفاً منطقياً في كثير من الأحيان كما بين البحث فيستطيع المدرس كسر هذا الحاجز النفسي بتسليط الضوء على مسألة عدم ربط اللغة بالمنطق.

ولابد من التأكيد على هذه المسألة وتكرارها كلما تكرر حصولها في قاعة الدرس سواء حصلت دلالياً أو نحوياً أو أدبياً.

وينطبق هذا الأمر على دارسي الترجمة وممارسيها. فإدراك المترجم لهذه المسألة يجعله يسعى لتبني منطق اللغة المترجم إليها وليس منطق اللغة الأصل.

والحل الأمثل الذي يمكن اللجوء إليه أثناء التدريس هو أن يضرب المدرس للطلبة لهم أحد الأمثلة أعلاه ثم يقول للطلبة "لا تفكروا بمسألة المنطق هنا. فاللغة لا تخضع للمنطق في كثير من الأحيان. ولكن اقول لكم هكذا قال العرب وهكذا قال الانكليز فاحفظوا ما قالوه كما قالوه."

❖ المصادر والمراجع

١- المصادر العربية

- أنيس، ابراهيم؛ ومنتصر، عبد الحليم؛ والصوالحي، عطية؛ وأحمد، محمد خلف الله. ١٩٧٢. المعجم الوسيط. جزءان. الطبعة الثانية. اسطنبول: دار الدعوة.
- برامبل، كيت. (ترجمة سوسن صالح سرية). دليل المعماري للفينغ شوي: تفجير الاسطورة. في طريقه للنشر في دار الحكمة ان شاء الله.
- التبريزي، محمد بن عبدالله الخطيب. ١٩٨٥. مشكاة المصابيح. تحقيق ناصر الدين الألباني. ط٣. ٣ مجلدات. بيروت: المكتب الاسلامي.
- حسن، عباس. النحو الوافي. ١٩٧٥. اربعة أجزاء. القاهرة: دار المعارف بمصر.
- الخليفة، هشام إ. عبدالله. ٢٠٠٧. نظرية الفعل الكلامي: بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي الاسلامي. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون.
- عمر، احمد مختار. ١٩٨٢. علم الدلالة. الكويت: مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع.

٢- المصادر الانكليزية

- *Beaugrande, Robert de. (1980). Text, Discourse and Process. London: Longman Group Limited.*
- *Bramble, Cate. 2003. Architect's Guide to Feng Shui. Oxford: Architectural Press.*
- *Grice, H. P. 1975. "Logic and Conversation." In Cole, P. and Morgan, J. L. (eds.) Syntax and Semantics 3: Speech Acts. New York: Academic Press, pp.41-58.*
- *Ilyas, Asim I. (no date). "Idiomatic Colour Expressions in English and Arabic with Reference to Translation." Adab Al-Rafidayn. Vol. 16, pp.27-37*
- *Leech, Geoffrey. 1983[1996]. Principles of Pragmatics. New York: Longman.*
- *Levinson, Stephen C. 1981. Pragmatics. Cambridge: Cambridge University Press.*
- *Palmer, F. R. 1981. Semantics. 2nd ed. Cambridge: Cambridge Univ. Press.*
- *Roberts, Nora. 2004. Blue Dahlia. New York: Jove Books.*
- *Robson, James, tr. 1963. Mishkat Al-Masabih: English Translation with Explanatory Notes. 4 vols. By Muhammad bin Abdullah 'At-Tibrīzī (completed the work in AD1336). Lahore: Sh. Muhammad Ashraf.*
- *Sirriyya, Sawsan Saleh. 2010. "Translation of the Arabic Definite Article ال into English." Translation Studies. Vol. 11, pp13-20.*
- *Van Dijk, Teun A. 1977[1989]. Text and Context: Explorations in the Semantics and Pragmatics of Discourse. New York: Longm*

قصيدة النثر مقولة تداولية في مشروع الجماعة المفسرة

د. محمود خليف الحياني *

❖ مدخل

يشتغل مشروع ستانلي فش على مسار ومراحل يبدأ بالأسلوبية، وخبرة القارئ، والتأويلية وينتهي بتداولية الجماعة المفسرة وسلطتها التي تقوم على إنتاج النص وإعادة كتابته على وفق استراتيجيات تؤمن بقدرة القارئ باستعمال النص وتشكيله انطولوجيا إذ يؤمن فيش أنه لا يوجد نص إلا من خلال القارئ مستبدلاً. فش. السؤال القديم عند الشكلانية والبنيوية والنقد الجديد والأسلوبية (ماذا تعني هذه الجملة)؟ إلى سؤال أكثر فاعلية ماذا تفعل هذه الجملة؟ وما تفعله هذه الجملة في الواقع أنها تحول دور القارئ من مكتشف المعنى أو الدلالة في النص إلى حدوثية المعنى، فالمعنى شيء يحدث للقارئ وبمشاركته وبذاتيته وبراغماتيته التي تربط المعنى أو الكلمة بالسياق الذي وقع استعمال الكلمة فيه أو بالمقام الذي نطقت به منتقلاً بالمعنى والكلمة من الأنموذج القاموسي إلى الأنموذج الموسوعي (السياق) وسلطة الجماعة المفسرة التي تعمل بوصفها ضابطاً لتداولية واستعمال النص التي تتماهى مع ضوابط أخرى تساعد على الحد من استعمال القارئ وتطرفه؛ لذلك استعان بنظرية الفعل الكلامي عند سيرلي وأوستن من خلال مفهوم الموقف والسياق والظروف والاعتقادات أو الأحكام المسبقة، إذ إن السياق والظروف المكانية والزمانية التي تقال بها الجملة أو الكلمة تساعد على تكوين سياق خاص يعمل على وضع حدود لدلالة الكلمة ويساعد على فهم المعنى؛ وذلك لأن التواصل لا يحدث حسب فش إلا في إطار نظام السياق أو الموقف أو الجماعة المفسرة، وإن الفهم الذي ينجزه شخصان أو أكثر لا ينفصل عن هذا النظام وهو مفهوم في نطاق حدوده، وهذا ما أثار تعليق فش على سؤال طالبة لأحد الأساتذة في جامعة (جونز هوبكنز) عندما سألته هل يوجد نص في هذا الفصل؟ فأصاب الأستاذ سوء الفهم مما أخطأ في إجابة الطالبة، ومما بسبب سوء الفهم حسب فش الظروف المرتبط بالموقف والسياق وموسوعية الكلمة. لذلك ارتأينا أن تكون قراءتنا لفش على أساس أنها مشروع تداولي يستعمل النص، وبعد

---

* الكلية التقنية الإدارية - الموصل

تقويض وتفكيك مركزية خطاب المرحبين والمشككين بقصيدة النثر المتبلور في الأسس النصية والتاريخية، فكان لابد أن نتلمس اتجاه ثالثا لقراءتنا لقصيدة النثر على وفق مشروع فش بأنها مقولة تداولية من إنتاج واستعمال الجماعة المفسرة التي تعيد كتابتها حسب الظروف والسياقات المتغيرة، وبذلك تتحول النظرية الأدبية عند فش والتداوليين من نظرية قائمة على التثبيت أو الثبات المنهجي إلى الإقناع والاستعمال والتغيير السياقي التداولي.

❖ تداولية السياق، الموقف، الجماعة المفسرة

يطور ستانلي فش مقاربة تداولية تتماهى مع الأسلوبية في بدايتها وخبرة القارئ وتداولية الجماعة المفسرة في نهايتها، إذ إن مسار تداولية فش تتدرج في مراحل زمانية ساعدت على تكوين مشروعه التأويلي، فالقارئ يستطيع أنْ يرصد ثلاث مراحل في مسيرة فش نحو استجابة القارئ في المرحلة الأولى التي تظهر جلية في محاولته تأكيد تأثير النص الأدبي على قارئه وللوقوف على هذا التأثير يستلزم تحليل استجابات القارئ المتصاعدة في نسق من تعاقب الكلمات الواحدة تلو الأخرى في الزمن، والمرحلة الثانية يقرر فيها فش أن خبرة القارئ بالنص هي المعنى ذاته، وإنه في هذين المسارين أو المرحلتين لا يخرج عن أسار النص، فالقارئ يستقي خبرته من النص، أما في المرحلة الثالثة فإنه ينفي وجود النص أو يكاد ويعزز سلطة الجماعات المفسرة التي ينتمي إليها القارئ وهي التي تنشئ المعنى[1]، إذ إنه في المرحلة الأولى من مشروعه التأويلي طور منظورا تأويليا متجها إلى القارئ سُمي (الأسلوبية العاطفية) مركزا على التعديلات التي يجريها القارئ على التوقعات والفرضيات في أثناء مروره بالنص، متأملا على المستوى الموضعي المباشر للجملة مميزه عن النقاد الشكلانين والنقاد الجدد والأسلوبيين في استراتيجيات القراءة التي تطور استجابة القارئ فيما يخص الكلمات و الجمل الأنساق وهي تتوالى زمانيا[2]، متحديا فكرة أن النص مكتفيا ذاتيا (بالمعنى معتمدا على أثبات أن شكله الفضائي الظاهر يناقض بعده الزمني الذي تتحقق فيه معانيه، وكنت أجادل بأنّ الشكل المتصاعد لهذا التحقق هو الأجدر بأن يكون هدف التفسير النقدي بدلا من الشكل الاستاتيكي للصفحة المطبوعة باختصار استبدلت بالبنية الشكلية

---

(١) ينظر هل يوجد نص في هذا الفصل؟ سلطة الجماعة المفسرة، ستانلي فش، ترجمة احمد الشيمي: ٤٠ ٢٥.

(٢) ينظر نقد استجابة القارئ نقاده ونظرياته، رامان سلدن، ترجمة سعيد الغانمي: ٣٤.

للنص بنية خبرة القارئ)[1]. وعلى وفق قوة تفسيرية تأخذ القارئ في الاعتبار بوصفه كيانا ووسيطا فعالا يستجيب للأثر النصي حسب إستراتيجية أو فعلا يقع على القارئ بدلا من كونه أي المعنى وعاء يستخرج منه رسالة، وتمثل الإستراتيجية والفعل اللايقين المتصاعد، إذ إن القارئ يسلم نفسه للجزم في الكلمة والعبارة الأولى من الجملة وبمجرد فهمه لهذه العبارة من خلال استبداله السؤال القديم في النقد الأدبي الذي كان عند الشكلانيين وأصحاب النقد الجديد والأسلوبيين، ماذا تعني هذه الجملة؟ إلى سؤال أكثر فاعلية ماذا تفعل هذه الجملة؟ وما تفعله هذه الجملة في الواقع هو أنها تمنح القارئ شيئا سرعان ما تسلمه إياه من خلال استجابة القارئ لها ليتحول المعنى من شي يمكن اكتشافه في النص إلى حادثة، شيئا يحدث للقارئ وبمشاركته، وبذلك فالحدث نفسه ليس ما يقال عنه أو أنه أخبار يمكن استخراجها منه بل هو معنى الجملة وفي هذه الحالة ينفي وجود الأخبار، وإنّ القراءة التي تحدث للقارئ تتحول إلى خبرة زمانية، تستلزم تطبيقها تحليل استجابات المتصاعدة للقارئ للكلمات وهي تتعاقب الواحدة تلو الأخرى في الزمن، وتشمل لفظة الاستجابة كل الأنشطة التي تثيرها متواليات من الكلمات مكونةً جدلية في ذهن القارئ تتركز على كل ما يتعلق بالتوقعات والاحتمالات التركيبية والمعجمية، وهكذا يحدث نوعا من التفاعل بين التدفق الزمني لخبرة القراءة مفترضا أنّ القارئ يستجيب على وفق جريان الزمان ليس للقول ككل، وإنّ قيمة هذا الأجراء يتأسس في واقع الأمر على فكرة المعنى بوصفه حادثة شيئا يحدث بين الكلمات وعقل أو ذهن القارئ، شيء لا تراه العين المجردة بيد أنه بالإمكان رؤيته أو جعله ملموسا يقع في حدود الممكن، وبذلك يكون المعنى سهل الصناعة مما يؤدي إلى أن يصنع القارئ المعنى ومما يكون خبرة للقارئ في المعنى، و هذه السيرورة الزمنية من الاستجابات تختلف عن معطيات وفرضيات نظريات الشكلانيين الروس والنقاد الجدد والأسلوبيين التي تبحث عن ملامح شكلية وخصائص ومميزات في النص، و تنظر إلى العناصر النصية بناء على انطولوجية مكانية (مكانية) النص،إذ تربط عناصر النص التي تكون نسيج من الجمل دفعة واحدة معلنة و مكتشفة المعنى الخفي في النص وليست منتجته أو صانعته[2]. ويتقدم فش خطوة أخرى في المرحلة الثانية معززاً فيها مهمة القارئ في إنتاج المعنى آخذاً من حساب أو سلطة النص ليضيفه إلى حساب أو سلطة القارئ من خلال تأكيد حدوثية

(1) هل يوجد نص في هذا الفصل؟: ٤٠.

(2) هل يوجد نص في هذا الفصل؟: ٦١-٨٨.وينظر نقد استجابة القارئ من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية، جين ب. تومبكنز، ترجمة حسن ناظم، علي حاكم: ١٤١- ١٦٠.

المعنى التي تتساوق مع خبرة القارئ المرتبطة بالنص التي تصنع المعنى، مقترحا خبرة الكلمة من خلال فرضيته المؤمنة بعدم وجود علاقة " مباشرة بين معنى الجملة (فقرة أو رواية أو قصيدة) وبين معاني كلماتها أو حتى تكون المسالة اقل استفزازا، إنّ الحقائق التي يحملها كل تعبير هي بمنزلة الرسالة التي ينقلها ليست ألا مكون من مكونات المعنى، وهي بالتأكيد لا يمكن أن تتطابق معه، فالخبرة بالكلمات، الخبرة ذاتها وليس ما يدور حولها من حديث هي معنى هذه الكلمات "[1]. وبذلك فقد جعل من القارئ نقطة ارتكازه الأساسية وليس النص من خلال الخبرة الزمانية التي تؤسس حدوثية المعنى،وتعد كلمة المفتاح في تحليل النص هي الخبرة، وأنّ القراءة والفهم هي عملية استخراج المعنى من المادة المطبوعة إلى أمام وتمثل. القراءة. حدثا لا يمكن أن ننسى منه جزء، وفي هذا الحدث يتحقق المعنى إذ تلعب البنية العميقة دوراً مهما فيه، بيد أنها ليست كل شيء،لأنّ قدرتنا على الفهم لا تأتي من البنية العميقة وحدها بل بالاعتماد على العلاقة بين الكشف في الزمن عن البنية السطحية ومراجعتنا المتواصلة لها، وعلى أساس تصورنا ستكشف عنه البنية العميقة وعندما يتم الانكشاف الأخير ويتم فهم البنية العميقة التي اختبرها القارئ وكانت موجودة في حياته، ويصور فيش قارئه الخبير على شكل بنية تصورية مجردة قارئ مثالي أو صفات مثالية ناضج وكفء ويكون محملا بأدوات ثقافية ومعرفية ترتبط بعصره،ويمتاز القارئ الخبير بالقدرة على أن يتحدث اللغة التي كتب بها النص بكفاءة ويكون على إلمام تام بعلم الدلالة وبمعانيه ويمتلك ثقافة لغوية تتجلى في المفردات المعجمية والاحتمالات والترادفات المصاحبة للفظة والتعبيرات الاصطلاحية النقدية واللهجات الحرفية وغير الحرفية، وذائقة أدبية عميقة بالقراءة التي يمكن من خلالها أن يستبطن خصائص الخطاب والأجناس الأدبية وأنواعها المختلفة. ولا نجانب الصواب إذ قلنا إنه ليس مثالياً فقط إنما هو خليط من القارئ الفعلي والمعنى المثالي إذ أنّ القارئ الفعلي يعمل كل ما بوسعه حتى يجعل من نفسه قارئا خبيرا وبذلك أطلق فش يد قارئه الخبير على مصراعيه في تفسير النصوص عاملا على تحطيم ثنائية الذات والموضوع متمحورا حول ذاتية القارئ حتى نجده في النهاية يبدل القارئ الخبير بالنص والمؤلف محاولا تشكيل أو أنتاج انطولوجيا يستجيب له النص حين يدخل القارئ في تفاعل معه ولعل محاولته في التفريق بين اللغة العادية وال

---

(١) هل يوجد نص في هذا الفصل؟: ٦٢.

(٢) ينظر:هل يوجد نص في هذا الفصل؟: ٧١-٩١، ونقد استجابة القارئ من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية: ١٦٠-١٨٥.

المجازية أو الأدبية التي حاول من خلالها الشكلانيين الروس وأصحاب النقد الجديد والأسلوبيين تشكيل نظرية منهجية صارمة تؤمن بمبدأ الاختلاف بين اللغة العادية واللغة الأدبية من خلال فرض نموذج الملامح أو المميزات أو الخصائص الشكلية أو الأسلوبية ما بين الأدبي أو اللادبي، والتي عمل فش على تقويضها و تفكيكها من خلال فكرة أن الأدب مقولة تداولية من صنع القارئ الخبير و الجماعة المفسرة القائمة على فرضية أن الملامح والمميزات الشكلية الموجودة في النص الأدبي هي نفسها موجودة في اللغة العادية، وبذلك يعيب على البنيوية و الأسلوبية طريقتها في فرض نموذج مسبق على النص تلك التي يتم في ضوءها النص التي يتم في العثور في تضاريس النص على ملامح مميزات أو انحرافات أسلوبية،متجاوزا فيش هذه الثنائيات اللغة العادية الأدبية. وفروض البنيوية والأسلوبية في فكرة الملامح والمميزات من خلال وصفه المؤلف أو الكاتب بأنه قارئ خبير يرتبط بجماعة مفسرة تعمل على تكوين أو تشكيل نماذج أو مقولات الأجناس الأدبية، مهما الدراسات البنيوية والأسلوبية بأنها دراسات تفسيرية وليست دراسات وصفية عاملا من خلال تجاوزه لثنائية اللغة العادية الأدبية التأكيد على أن الحقائق أو الوقائع يمكن أن توجد في الأدب، وبذلك فان الثقة والمغالاة في القارئ الخبير أدت إلى أن يكون المؤلف والنص من أنتاج و صنع القارئ الخبير[1]. ولكن بعد أن استشعر فش الخطر الكامن في أطلاق يد القارئ في التفسير والتأويل واستعمال النص وتداوله دون ضابط مما قد يسفر عن فوضى تأويلية حذر منها الكثيرين من النقاد، فكانت المرحلة الثالثة تتمحور حول مفهوم الجماعة المفسرة والتي تعمل بوصفها ضابطا عاما و مضلة تحد من افراطية عملية التفسير ولا سيما بعد أن أصبح قارئ فش يقرأ النص ويعيد كتابته في ضوء استراتيجية القراءة التي يحيا بها النص، والتي هي في الواقع ليست إستراتيجية فردية وإنما إستراتيجية الجماعة المفسرة[2]، أو نوعا من الاستراتيجيات التفسيرية التي عند وضعها موضع التنفيذ تصبح فعل القراءة بمعناه الواسع أي أنها الاستراتيجيات التفسيرية لا توضع موضع التنفيذ بعد القراءة إنما هي شكل القراءة التي تمنح النصوص شكلها وتصنعها بدلا منه، و هذه الاستراتيجيات تخلق نوعا من القراءات المختلفة وغير متناسبة أو مؤتلفة إذ إنّ كل واحد منها يخضع لمفهوم الجماعة المفسرة الخاصة به،و تتألف هذه الجماعة المفسرة من أولئك الذين يشتركون في

---

(1) هل يوجد نص في هذا الفصل؟: ١١٧-٢٦٥.

(2) المصدر نفسه: ٣٦.

الاستراتيجيات التفسيرية لا من أجل القراءة بالمعنى العرفي بل من اجل كتابة النصوص وتداوله وكذلك من اجل تحديد خصائصها المائزة وتعيين مقاصدها، وبعبارة أخرى إنَّ هذه الاستراتيجيات سابقة في وجودها على فعل القراءة وأنها تحدد شكل ما يقرأ، فضلا على أنها لا تخضع لحدود أو الضوابط فقد تتزايد وتتناقض في فترات مختلفة وقد يتنقل أفرادها من جماعة إلى أخرى أو قد تكون هناك جماعات رئيسة وأخرى ثانوية وقد تقلب مصطلح" فش" في فهمه لهذه الجماعة بين المؤسساتية، والأكاديمية، والثقافة والمعرفة، والتعليم،والفلسفة العصرية، والأذواق الأدبية التي تساعد على تكوين توافقية أو تجانس لمعنى من المعاني أو لعمل من الأعمال أو لجنس من الأجناس الأدبية[1]، وكذلك يحاول فش أن يقدم ضوابط أخرى في الحد من ممارسة القارئ الخبير وتطرفه مستعينا بنظرية الفعل الكلامي عند سيرل وأوستن[2] من خلال الاستعانة بمفهوم الموقف، والسياق،والظروف، والاعتقادات أو الأحكام المسبقة التي ترتبط بالتقاليد الأدبية أو الثقافية التي تساعد على ضبط استعمال النص والحد من تعويم المعنى في النص، إذ إن السياق والظروف المكانية والزمانية التي نقال فيها الجملة أو الكلمة تساعد على تكوين سياق خاص يعمل على وضع حدود لدلالة الكلمة ويساعد على فهم المعنى وذلك لأن التواصل لا يحدث حسب فش إلا في إطار نظام السياق أو الموقف أو الجماعة المفسرة، وأنَّ الفهم الذي ينجزه شخصان أو أكثر لا ينفصل عن هذا النظام وهو مفهوم في نطاق حدوده، وهذا ما أثار تعليق فش على سؤال طالبة لأحد الأساتذة في جامعة (جونز هوبكنز) عندما سألته هل يوجد نص في هذا الفصل؟ فأصاب الأستاذ سوء الفهم مما أخطأ في إجابة الطالبة عندما قال (نعم مختارات نورتون الأدبية)، فأسرعت الطالبة بالقول (لا، أقصد في هذا الفصل الدراسي هل سنؤمن بالقصائد والأشياء أم هي ليست شيئا غير أنها (نحن)) فيعود فش سبب سوء الفهم عند الأستاذ إلى تعدد المعاني و الحيز السياق والظروف المكانية و الاعتقادات و المعلومات المسبقة التي ارتبطت بمكانة المؤسسة الأكاديمية مما أدى إلى أطلاق لحظة الاحتمالات السياقية[3]، ولكن هذه الضوابط لم تمنع فش من استلاب أو سرقة النص[4] من مؤلفه مركزا على القارئ الخبير وقدرته الانطولوجية على صنع النص،وبذلك يكون القارئ هو الوحيد الذي

(١) المصدر نفسه: ٢٤٩- ٢٥٦.
(٢) المصدر نفسه: ٢٨٧- ٣٤١.
(٣) ينظر هل يوجد نص في هذا الفصل؟: ٤١١- ٤٣٠.
(٤) ينظر الخروج من التيه، عبد العزيز حمودة: ٩٩- ١٣٠.

يملك الساحة النصية والجماهير واللعبة الأدبية مكونا الملامح الأسلوبية ومنتجا للنص، حتى أننا نجد فش من خلال أيمانه العميق بالقارئ أو الجماعة المفسرة قد اتهم النظرية الأدبية بأنها نظرية اقناعية وليست تثبيتاً مؤكداً على أنّ البنيوية والأسلوبية والنقد الجديد كانت تقنع الجماعة المفسرة والذوق الأدبي في السبعينات. أما الآن فإن نظرية التلقي والتأويل والتداولية هي التي تمارس هذا الدور في أقناع الجماعة المفسرة والذوق الأدبي و النظرية الأدبية خاضعة لسلطة الجماعة المفسرة التي تحيي قراءات وتميت أخرى وتبدل وتعدل وتغير اعتقادات و قناعات الجمهور من خلال الإقناع.[1]

ولعلّ من أهم الانتقادات التي وجهت إلى هذه النظرية اختفاء أو تجاوز ثنائية الذات والموضوع من خلال الإيمان بالجماعة المفسرة[2]، وكذلك من الانتقادات الأخرى التي وجهت إلى هذه النظرية كونها قائمة على القارئ الخبير الذي (يظهر كمجرد شرط ضروري لحدوث سيرورة تؤدي إلى تحسين كفاءة القارئ وليس أداة إجرائية تمكننا من وصف ما يحدث خلالها وزيادة على ذلك فان مفهوم القارئ الخبير يمتنع عن النظرية أصلا أي أنه من الصعب التنظير له لأنه لا يملك تحديدا فاصلا ونهائيا)[3]، وفضلا على أن قارئ ستانلي فيش (لا يشعر بأي عذاب ولا يمكن أن يثير أي تغيير في نفسه فهو من الناحية النظرية يستطيع أن يقنع الآخرين ولكنه لا يستطيع تجاوز معتقدات الأعراف التي تحدده ولا يستطيع إشعال أي ثورة. ويكون الميدان قد فهم دائما وهضم بل أنتج جميع حجج أعادة تنظيمه التي يولدها القارئ)[4].

❖ إشكالية التجنيس والاصطلاح بين القبول والرفض:

يتمظهر الانتهاك في قصيدة النثر في تداخل الحدود والتهجين بين جنسين أدبين مختلفين (الشعر والنثر)؛ لذلك مثل حضورها - قصيدة النثر تقويضا وهدما لجوهر و مركزية الشعر العربي القديم الوزن والقافية التي ظلت الذاكرة والوعي العربي يحافظان عليه لمدة طويلة. ولاسيما في تبلورها بوصفها مشروعا أو جنسا أدبيا مفرزا أحدثت ارتباكاً ومعضلة في المشهد النقدي العربي في ثنائية القبول والرفض متجلية في مجال نقدي وضعها وسط خطابين متناقضين خطاب الأصالة والمعاصرة، وإنّ ثمة

---

(1) ينظر هل يوجد نص في هذا الفصل؟: ٤٦٧-٤٨٣.
(2) ينظر نقد استجابة القارئ نقاده ونظرياته :٣٥.
(3) من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، عبد الكريم شرفي: ١٨٧-١٨٨.
(4) المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، وليم راي، ترجمة يوئيل يوسف: ١٩٠.

حـالات من الانفلات والخـروج عـن الـوزن والقافيـة في المدونات العربيـة القديمـة (فقـد وجـدت نصـوص منـذ الجاهليـة تحـاول الخـروج علـى نظـام الـوزن وتقفياتـه، ومنهـا مـا أصاب من خروجات على العروض في قصيدة عبيد بن الأبرص / المعلقة. وأشعار عدي بن زيـد العبادي)[١] وأبي العتاهيـة الـذي قـال قولتـه المشهورة (أنا اكبر من العـروض)[٢] وأبي تمام والمعري وأبي فراس الحمداني وغيرهم. فضلا عن ظهور تنويعات على نموذج وزن وقافيـة القصيدة العربيـة القديمـة كالموشـح والبنـد والإجـازة والتشـطير والتخمـيس ولـزوم مـا لا يلـزم[٣]، والتي لـم تمـس جـوهر القصـيدة العربيـة القديمـة، أمـا انطلاقـة المرحبين بقصيدة النثر ومشـروعيتها بوصـفها جنسـا أدبيـاً فقـد اصـطدمت بإشـكاليات كثيرة كالتسمية والتجنيس والمرجعيات ومرحلة التأسيس والتاريخ، إذ إنه في وقت وجيز تجمعـت في سـلة الشـعر العربـي مصـطلحات كثيرة مثـل الشـعر المنثـور، القصـيدة المنثورة، الشعر المرسل، الشعر المطلق، الشعر الحر، النثر المركز، النثر المشعور، النثر الموقع، البيت المنثور، النثر الشعري، قصيدة النثر، النثيرة، غير العمود والحر، القول الشعري، قصيدة الكتلة، الشعر الاجد، النص المفتوح، شذارات شعرية، الكتابة خارج الوزن، الكتابة الخاطرانية، كتابة خنثى، الجنس الثالث[٤].وان كان حضـور مصـطلح قصيدة النثر الغالب في الاستعمال النقدي، ولكن هذا الارتباك في التسمية انتقل إلى محاولـة تعريفهـا[*] فعلـى سـبيل المثـال لا الحصـر عرفهـا جبرا إبـراهيم جبرا - بأنهـا القصيدة التي يكون قوامها نثرا متواصلا في فقرات كفقرات أي نثر آخر. وقصيدة النثر على كلٍ، ترجمة لمصطلح فرنسي الأصل (*poeme en prose*) "[٥]، أما أدونيس فيعرفها

---

(١) قصيدة النثر في الأردن: الإشكالية والتجليات، عبد الرحيم مراشدة، مجلة أبحاث اليرموك، مج ٢٤، ع ١، ٢٠٠٦، جامعة اليرموك، الأردن: ٣٣ . ٣٤.

(٢) ديوان أبي العتاهية، أبو العتاهية، تح مجيد طراد: ٨

(٣)المنهل الصافي في العروض والقوافي، عبدالله فتحي الظاهر: ٢١٩ . ٢٤٧.

(٤)ينظر قصيدة النثر تأملات في المصطلح، محمد الصالحي، نزوى، ع ١٠، *www.nizwa.com*، و قصيدة النثر: إشكالية التسمية والتجنيس والتاريخ، عز الدين المناصرة، نزوى، ٢٩، *www.nizwa.com* .

(*) نجد ان إشكالية تحديد وتعريف قصيدة النثر لا ترتبط بالبيئة او الحاضنة العربية إنما نلمس هذه الإشكالية عند الغرب فقد عرفت قصيدة النثر في موسوعة برنستون بأنها " أنشاء قادر على أن يكون له بعض ملامح القصيدة الغنائية او جميعها باستثناء كونه (الأنشاء) يوضع على الصفحة كالنثر" ويعرفها أي.جالو بأنها " قطعة نثر، موجزة من غير إخلال ، موحدة ومضغوطة كقطعة من بلور تتراءى فيها مئة من الانعكاسات المختلفة " وتحدها سوزان بيرنار" بأنها قطعة نثرية موجزة موحدة ومكثفة مثل كتلة من البلور والكثافة وهنا صنوا للإيجاز"، ينظر قصيدة النثر مقاربة أولية، عبد الفتاح النجار، أبحاث اليرموك، جامعة اليرموك، عمان، مج ١٩، ع٤، ٢٠٠١: ٢٧٦ . ٢٧٧.

٥ . أقنعة الحقيقة والخيال، جبرا أبراهيم جبرا: ٢١٦.

بأنها " شعر خاص يستخدم النثر لغايات شعرية خالصة "[١] في حين يكتفي يوسف الخال بوصفها شكلاً (من أشكال التعبير الشعري)[٢] ويحد عبد الستار جواد المتأثر بالغرب قصيدة النثر في كونها (جنسا أدبيا نثريا يستعير بعض خصائص الشعر كالإيقاع والخيال والعاطفة واللغة المجازية المكتنزة بالمعاني والصور،وإن طولها يتراوح بين نصف صفحة وخمس صفحات، وأنها تختلف عن الشعر الحر بكونها تخلو من التقسيمات القائمة على السطر أو الشطر، فلا وجود لوقفة في آخر كل سطر فيها، كما تختلف عن النثر الشعري بأنها قصيرة ومحكمة العبارة وعن القطعة النثرية الصغيرة بأن فيها إيقاعات أكثر وتأثيرات وصورا وعمقا في التعبير، وقد تضم عبارات موزونة وقوافي داخلية،وقصيدة النثر إن طالت أصبحت نثرا شعريا وفقدت التوتر والتأثير)[٣] وبعضهم عرف قصيدة النثر بقصيدة (اللاشكل أو اللاقصيدة)[٤]، وإنَّ الاضطراب وعدم الدقة والقارية في مفهوم وتعريف قصيدة النثر لا يمنع من القول إن معظم التعاريف لا تبتعد عن كونها ركزت على أنها " شعر" عند أدونيس ويوسف الخال، أو أنها " نثر" في تعريف جبرا إبراهيم جبرا، وعبد الستار جواد[٥]، أو أنها قطعة من الكتابة أو لا شكل لها يحدد نوعها عند فاضل العزاوي وشعراء التجريب، ويمكن القول إنَّ الارتباك في التعريف انسحب إلى حالة التجنيس أو وضع حدود لقصيدة النثر،وذلك بسبب التداخل بين منطقتين أو خانتين متنازعتين ومتنافرتين التجنيس والحدود(الشعر والنثر)، فالشعر نمط خاص من الوزن والقافية وأسلوب تعبير عن الخيال والعاطفة الذي يمثل النثر الحد الآخر المناقض له من خلال العقل والانتظام والإخبار والسكون[٦]، والتي سببت إشكالية في محاولة كل جنس- الشعر والنثر- بأن يدعي أحقية ومرجعية ومشروعية انتساب الجنس الجديد له،فضلا على إشكالية وضع قصيدة النثر في سيرورتها التاريخية الصحيحة، فمنذ ولادتها بوصفها جنسا أدبيا

---

١. مجلة شعر (البيروتية)، ع ١٤، سنة ٤، ١٩٦٠،بيروت: ٨١، وينظر مفهوم قصيدة النثر في النقد العربي الحديث، الأصول والتحولات، احمد علي محمد، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، إشراف د. جميل نصيف التكريتي، ٢٠٠٥، الملحق التعريفي بالمصطلحات (ح).

٢. الحداثة في الشعر، يوسف الخال: ٤٥.

٣. مجلة الأديب المعاصر (العراقية) الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، ع ٤١، كانون الثاني، العراق، ١٩٩٠: ٤٨.

٤. الروح الحية، جيل الستينات في العراق، فاضل العزاوي: ٢٢٨.

(٥) ينظر قصيدة النثر مقاربة أولية: ٢٧٨.

(٦) ينظر قصيدة النثر، سليمان الشطي، مجلة البيان، تصدر عن رابطة الأدباء في الكويت، الكويت، ع ٢٢٢، ١٩٨٤ م، و الشعر والنثر، المساق والمفاضلة، حورية الخمليشي، نزوى، ع ٤٥، www.nizwa.com

في سياق المخاضات الثقافية والفلسفية والبيئية وحاضنتها الغربية ارتبطت بولادتها على يد بيرتران ١٨٢٨م بوصفها طريقة جديدة إلى استوائها كجنس أدبي عند بودلير،ولازميه، ورامبو، ولوتريامون[١]، ودخولها شكلا غريبا دخيلا إلى المشهد النقدي العربي في عام ١٩٥٧م في مجلة شعر البيروتية في مقالة لادونيس معتمدا على كتاب سوزان برنار، فضلا عن إصدار أنسي الحاج لديوان (لن) الذي ينطوي على مقدمة نقدية تعريفية لقصيدة النثر مع تضمنه مجموعة من قصائد النثر[٢] حتى شيوع حضورها في الخطاب النقدي العربي عام ١٩٦٠م مصطلحا ومفهوما وممارسة بشكل رسمي بوصفها حركة جديدة[٣]، وإنْ كان ثمة من يعود بظهور قصيدة النثر قبل هذا التاريخ إلى الإرهاصات الأولى في كتابة الشعر المنثور عند محاولة أمين الريحاني عام ١٩٠٥م متأثرا بالشاعر الأمريكي والت وتيمان ومتطورة عند جبران خليل جبران ورشيد أيوب وأمين مشرق وأبو شادي والبيراديب[٤]، وثمة من يمرحل قصيدة النثر على وفق مسارات مختلفة ومتدرجة التطور وتمثل تصنيفا ثالثا يأتي بعد مرحلة الاحياء، والديون، ومرحلة ابولو واصفا مرحلة قصيدة النثر (بالشعر نسبة إلى مجلة شعر)[٥]. ولا تكمن إشكالية قصيدة النثر في التسمية والتجنيس والتاريخ إنما يضاف إليها إشكالية الريادة وادعاء أسبقية الابوة للجنس الجديد، مابين انسي الحاج،وادونيس،والماغوط، وإن كان الماغوط يمكن أن يعد صاحب تيار ثان يختلف عن قصيدة النثر في ريادته وابداعه للقصيدة الحرة[*] المتجاوزة للوزن والقافية، وابرز روادها توفيق الصايغ وجبران خليل جبران، وإنّ حدود القصيدة الحرة تختلف عن

---

(١) ينظر قصيدة النثر من بودلير إلى أيامنا، سوزان برنار، زهير مجيد مغامس، دار المأمون، بغداد، ط٤٧، ١٩٩٣، ١، ٦١.

٢ . لن، انسي الحاج: ٥ . ١٥.

٣ . ينظر الإبهام في شعر الحداثة، عبد الرحمن محمد القعود: ١٥٢ . ١٥٧، و قصيدة النثر مقاربة أولية: ٢٨١.

٤ ــ يتظر محاولات التجديد في الشعر العربي المعاصر، طراد الكبيسي: ٣٦ ــ ٣٨. و القصيدة الحر محمد الماغوط نموذجا، فائز العراقي: ٤٨ . ٥٢.

٥ . ينظر القصيدة الحرة محمد الماغوط نموذجا: ٥٤.

* - لا نتفق مع الرأي القائل إن الشاعرة العراقية نازك الملائكة عام ١٩٤٧ ارتكبت أخطاء معرفية ونقالية عندما أقدمت على نظم القصائد القائمة على تعدد التفعيلات معتقدة بذلك أنها تعيد إنتاج قصيدة الشعر الحر المعروفة في الغرب في حين أن ما فعلته هو أنها انتقلت من شكل خاص للقصيدة العربية إلى شكل شعري تفعيلي، ويمكن الرد على هذا الرأي في أن نازك الملائكة لا تنقصها الثقافة والمعرفة واللغة الانكليزية لكي تخطئ في فهم وترجمة مصطلح الشعر الحر، ينظر بعيدا داخل الغابة،فاضل العزاوي:٩٩-١٠١، القصيدة الحرة محمد الماغوط أنموذجا: ٦٤-٦٥.

قصيدة النثر المنجلية في الشكل الكتابي أو التنظيم الخطي فيما تنتهي قصيدة النثر في نهاية الجملة تعتمد القصيدة الحرة بقطع الجملة أي أنها تكتب على نسق شعر التفعيلة أو نسق الاشطر لكن دون وزن وقافية[1]، وان ثمة رأياً يصنف قصيد النثر إلى اتجاهين القصيدة الرؤيا ممثلة بانسي الحاج وادودينس، والقصيدة الشفوية ممثلة بالماغوط[2] وهو الذي لا نتفق معه لأن قصائد الماغوط وانسي الحاج وادونيس تتفق في الجوهر على تجاوز الوزن وقافية القصيدة العربية القديمة، أما تقنيات الكتاب فيمكن عدها من حريات التنويع في الشكل لكل اتجاه أو شاعر، وأما قضية انتساب قصيدة النثر وارتباطها بجينات الشعر الحر والمتبلورة في عدها حالة من حالات تطور الشعر الحر الذي مارس نوعاً من نظام حر للتفعيلة متحررا من القافية[3]، وهو رأي بعيد عن الصواب لان الشعر الحر لا يمكن أن يعد خروجا على جوهر القصيدة العربية القديمة وقيود الوزن والقافية،وإن كان قد تجاوز القافية جزئيا لكنه حافظ على أهم ركن للقصيدة العربية القديمة الوزن، وبذلك يمكن أنْ نعد الشعر الحر تنويعا وحوارا مع نموذج القصيدة العربية القديمة، وما يعزز ذلك رفض نازك الملائكة لقصيدة النثر لأنها خرجت عن الوزن والقافية[4]، ولعل من المفارقات الغريبة أن يأتي رفض قصيدة النثر من قبل شعراء كانوا يحسبون لمدة من الزمن على حركة مجلة شعر (قصيدة النثر) فخليل حاوي، ومحمد الماغوط عضوان مؤسسان للحركة، ونازك الملائكة قد نشرت مجموعة من قصائدها في مجلة شعر متهمين قصيدة النثر بانفصالها عن الواقع وهشاشة الصرح الايديولوجي الذي عملت مجلة شعر على ترسيخه، وأنها لا تمثل فقط سوى قطعة نثرية[5].وفي محاولة للحفاظ على كيان قصيدة النثر ومشروعيتها من خلال تقنيتها فقد استعار انسي الحاج وادونيس خصائص وشروط قصيدة النثر من كتاب برنار في أن قصيدة النثر ينبغي أن تكون وحدة عضوية مستقلة ولها عالمٌ مغلق يحفظها كقصيدة، فضلا عن التسليم بأن ليس لقصيدة النثر أي غاية بيانية أو سردية خارج ذاتها وإن العناصر السردية الوصفية لأغراض شعرية وهنا يبرز عنصر المجانية الذي يتحدد بفكرة اللازمنية في

(1) ينظر المصدر نفسه، ٦٠ ـ ٦٤.
(2) ينظر الإبهام في شعر الحداثة، ١٣٨.
(3) ينظر محاولات التجديد في الشعر العربي المعاصر: ١٠ ، ٣٠.
(4) ينظر قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة: ٤١٣.
(5) ينظر الأسس النظرية لقصيدة النثر في الأدب العربي الحديث (مرحلة التأسيس)، حسن مخافي، نزوى، www.nizwa.com.

الحد الذي لا تتطور فيه القصيدة نحو هدف ولا تعرض سلسلة أفعال أو أفكار إنما كتلة لازمنية، وهذان الشرطان الوحدة، والمجانية يقودان إلى شرط ثالث الايجاز والتكثيف والإيقاع الداخلي واتحاد المتناقضات إذ توجد قوة فوضوية مدمرة تمثل رفض الإشكال الموجود وقوة منظمة تحافظ عليها في ثنائية مميزات الشعر والنثر[1]، ولكن بمرور الوقت أثبتت هذه الخصائص و الشروط فشلها؛ لأنها مجرد خصائص ومفاهيم مجردة ومثالية لا تمت إلى الواقع الإبداعي بصلة فضلا عن أن قصيدة النثر قائمة على مبدأ الرؤيا والتجريب وحرية الشكل الذي ينبع من التجربة الشعرية الخاصة بالشاعر[2].أما عن جانب محافظة قصيدة النثر على أصالتها من خلال العودة بها إلى خلفيات ومرجعيات عربية قديمة فقد ارتبطت بالتراث النثري الفني،والمقامات، والنصوص الصوفية عند النفري وابن العربي والحلاج والقران الكريم الذي نبناه ادونيس، وان كانت في احد وجوهها لا تجسد تجاوزا للشكل القديم ورفضه،وإنما هي حسب رأي انسي الحاج عمل طبيعي تجاه التقليد الذي يشبه سجنا لابد من التحرر منه، وتكون بذلك نموذجاً مستعارا من الغرب[3]، ولعل هذا السبب في تبعيتها للغرب وتجاوزها للشعر العربي القديم فضلا عن أنها أوحت بفكرة خطيرة حول القران الكريم تسمح بالقول بأنه شعر مما لم يقنع الرافضين والمشككين بها[4].

- **قصيدة النثر مقولة تداولية عند الجماعة المفسرة**

وجدير بالذكر أنَّ السجال النقدي القائم على الجدل والتناقض بين المرحبين والمشككين بقصيدة النثر يقودنا إلى أن نتلمس زاوية نظر أو اتجاهاً ثالثاً يقع بين منطقتي التنازع أو التنافر في الخطاب النقدي العربي، محاولا حل هذه الإشكالية من خلال إقامة الدليل على أنَّ قصيدة النثر مقولة تداولية،ويكمن تميزها عن غيرها بقراءة تتخذه الجماعات المفسرة (المتلقي) وقبل الخوض في البرهنة على هذه الفرضية لابد أن ننطلق من مسلمة أولية تقوض وتفكك مركزية الخطاب الذي حاول المرحبون والمشككين الانطلاق منه في بناء فرضياتهم إذ إن السيرورة التاريخية وشهادة ميلاد قصيدة النثر أثبتت بأنها انتهاك و تجاوز للموروث الغربي والقصيدة الكلاسيكية

---

١ - ينظر قصيدة النثر من بودلير إلى أيامنا: ٢٣ . ٢٥.

٢ . ينظر بعيدا داخل الغابة: ١٢٠ . ١٣٨، و قصيدة النثر من بودلير إلى أيامنا: ١٦ . ١٧.

٣ - ينظر الإبهام في شعر الحداثة، ١٣٣ . ١٣٥، وما لا تؤديه الصفة المقتربات اللسانية والأسلوبية والشعرية حاتم الصكر: ٣٤ . ٣٥، وقضايا الإبداع في قصيدة النثر، يوسف حامد جابر: ١٥ . ٣٠.

٤ - ينظر قصيدة النثر بين القبول والرفض، شمس الدين درمش، صابرين شمردل، مجلة الأدب الإسلامي تصدر عن رابطة الأدب الإسلامي، المملكة العربية السعودية، مج ١٢، ع٤٥، ٤٧، ٢٠٠٥.

وبذلك نسقط فرضيات وبراهين الذين يحاولون أن يدخلوا قصيدة النثر في حوار مع القصيدة العربية القديمة من خلال تكوين معيار حكمهم النقدي على مرجعية الوزن والقافية العربية الذي لا يتسق مع ولادة قصيدة النثر في بيئة وثقافة ومرجعية شعرية غربية مختلفة، أما التسليم الآخر المتبلور في المعيار الشكلي أو الملامح والخصائص الشكلية التي انطلق منها المشككون والمرحبون في التفريق بين قصيدة النثر والقصيدة العربية والنثر الأدبي ومحاولة كل فريق جر قصيدة النثر من خلال الملامح الشكلية إلى منطقة و حدود جنس الشعر أو النثر فقد سبب جدلاً وسجالا وشكاً بين رفض أو قبول قصيدة النثر.ولعل إشكالية المرجعية والملامح الشكلية يلقي بظلال من الشك على الفريقين المرحبين والمشككين معا. وان قمة الإشكالية هو في كيف يتم في غياب مرجعيات ثقافية ومعايير شكلية واحدة تحديد جنس قصيد النثر؟

وانطلاقا من الفرضية التداولية التي تقول أن المتلقي هو الذي يصنع النص فإننا نجد أن الملامح والخصائص الشكلية التي ينطلق منها المرحبون بقصيدة النثر قائمة بالدرجة الأساسية على الفرق مابين اللغة العادية[*] ولغة الأدب،وإن خصائص لغة الأدب تمثل انحرافا و انزياحا أسلوبيا ينطوي على غرض او هدف، وقيمة جمالية، وقصدية،والتزام، وهذه الخصائص تختلف عن اللغة العادية التي تتصف بالموضوعية، والحقيقة، والرسالة الإخبارية[١]. ولو وسعنا الرؤية فإننا نجد أنه لا يوجد فرق بين اللغة الاعتيادية واللغة الأدبية لأن المشترك فيما بينهما هو الامتداد اللغوي الذي ينطوي على الملامح التي نعرف سلفا أنها خصائص أدبية مشتركة وهذا ما حدا ببارت الى تأكيده بأن الأدب ينبني داخل نظام ليس هو نظامه إنما هو نظام اللغة العادية، وإنه ينبني حسب قواعده الخاصة ولكن مع بقائه داخل إطار اللغة العادية[٢]، إذ أثبتت الدراسات اللسانية والبنيوية أن الملامح الأسلوبية المتجسدة في الفونيمات والمورفيمات والنبرات والقوالب النحوية والصرفية والتكرار والتنغيم تجدها في اللغة الأدبية والعادية على حد سواء، وعلى وفق هذا النحو فإن جميع النصوص تحمل في طياتها احتمالية أن تعد أدبا،وإن أي امتداد لغوي يتضمن ملامح تعرف سلفا

(*) - هناك عدة تسميات للغة العادية مثل اللغة الطبيعية، اللغة الحرفية، اللغة العملية، اللغة الخبرية، اللغة المنطقية،اللغة الدلالية، اللغة المحايدة، اللغة اليقينية، اللغة الجادة، اللغة اللامجازية، اللغة التصويرية، اللغة الحاملة للرسالة، اللغة الإحالية، اللغة الوصفية، اللغة الموضوعية، اللغة الصناعية، ينظر هل يوجد نص في هذا الفصل:١٥٥.

(١) ينظر المصدر نفسه؟: ١٥٥ ، ١٧٠.

(٢) ينظر الأدب عند رولان بارت، فانسان جوف، ترجمة عبد الرحمن أبو علي: ٤٩ ، ٥٠.

بأنها من خصائص الأدب وبعبارة أخرى لا يدفعنا الأدب للتظر إليه لأنه يظهر خصائص شكلية بعينها بل احتفالنا به هو الذي يحدد مفهومنا له الذي يسفر عن بروز الخصائص التي تعرف سلفا على أنها من الخصائص الأدبية أو الجنس الأدبي التي تقودنا إلى القول بان قصيدة النثر مقولة تداولية مفتوحة لا تحددها العناصر الخيالية الموجودة فيها بل بما نقرر نحن أن نضعه فيها.وبذلك يكون القارئ هو الذي يصنع الجنس الأدبي (قصيدة النثر) وهذا لا يعني أن المتلقي أو القارئ له اليد الطولى في صنع الجنس الأدبي كيفما يشاء، بل بوصفه عضوا في جماعة تكون فرضياتها بشان الأدب والجنس الأدبي . وهي (الجماعة) التي تحدد طبيعة الاهتمام الذي توليه للنص ومن ثم طبيعة الأدب والجنس الأدبي الذي يصنعه وهكذا فإن فعل التعرف على الجنس الأدبي(قصيدة النثر هنا) لا يصدر عن ملامح ومميزات تكمن في النص ولا يصدر عن إرادة المتلقي المتعسفة، بل ينشأ عن قرار جماعي يحدد الجنس الأدبي(قصيدة النثر) ومفهومه وتعريفه الذي يصبح ساريا طالما تلتزم به جماعة القراء او جماعة المؤمنين به، و هذه الطريقة في تحديد الجنس الأدبي (قصيدة النثر) بعيدة عن الثبات الدائم وتختلف باختلاف الثقافات والأزمان و طبيعة المؤسسة الأدبية والسياقات التداولية وعلاقتها بالمؤسسات الأخرى التي تشكلت بالطريقة نفسها،والتي سوف تكون عرضة للتغير المستمر[1]، وهذا لا يعني أن الجنس الأدبي (قصيدة النثر) لا يكون ذات طبيعة سوسيولوجية وانطولوجية، إذ إن فكرة جوهر الأدب والجنس الأدبي دائمة لكنها تتغير حسب تغير الظروف الثقافية والتاريخية[2] وتداولية الجماعة المفسرة، وإن انفتاح الأدب أو قصيدة النثر بوصفها مقولة تداولية تستوعب في المستقبل أي تجديد و انتهاك يتبلور على ضوئه جنسا جديدا مرتبطا بصيرورة المجتمع والجماعة المفسرة.

١ . ينظر هل يوجد نص في هذا الفصل؟: ١٥٥ ، ١٧٠.

٢ . ينظر الأدب عند رولان بارت: ٣٩ ، ٤٤.

❖ المصادر والمراجع

الإبهام في شعر الحداثة، عبد الرحمن محمد القعود، عالم المعرفة، الكويت،ط٢٠٠٢،١.

الأدب عند رولان بارث، فانسان جوف، ترجمة عبد الرحمن (أبو علي)،دار الحوار، اللاذقية،ط٢٠٠٤،١.

أقنعة الحقيقة والخيال، جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،د.ط، ١٩٩٢

بعيدا داخل الغابة، البيان النقدي للحداثة العربية، فاضل العزاوي، دار المدى،١٩٩٤، ط١، سوريا.

الحداثة في الشعر، يوسف الخال، دار الطليعة، بيروت، د.ط، ١٩٧٨.

الخروج من التيه، عبد العزيز حمودة، عالم المعرفة، ٢٠٠٣، ط١، الكويت.

ديوان أبي العتاهية، أبو العتاهية، تح مجيد طراد، دار الكتاب العربي، ١٩٩٩، ط٣، بيروت.

الروح الحية، جيل الستينات في العراق، فاضل العزاوي، دار المدى، ط٢، ٢٠٠٣، سوريا.

القصيدة الحر محمد الماغوط نموذجا، فائز العراقي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط٢٠٠٧،١.

قضايا الإبداع في قصيدة النثر" دراسات في نصوص القصيدة "، يوسف حامد جابر، دار الحصاد للنشر والتوزيع، ١٩٩١، ط١، دمشق.

قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٧٨.

قصيدة النثر من بودلير إلى أيامنا، سوزان بيرنار ،زهير مجيد مغامس،دار المأمون، بغداد، ط١٩٩٣،١.

ما لا تؤديه الصفة المقتربات اللسانية والأسلوبية والشعرية، حاتم الصكر،دار كتابات،بيروت،ط١٩٩٣،١:

محاولات التجديد في الشعر العربي المعاصر، طراد الكبيسي،الموسوعة الصغيرة،دار الشؤون الثقافية،بغداد،ط١٩٨٩،١

المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، وليم راي، ترجمة يوئيل يوسف عزيز،دار المأمون، ١٩٨٧،ط١،بغداد.

من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، عبد الكريم شرفي، منشورات الاختلاف، ٢٠٠٧، ط ١، الجزائر.

المنهل الصافي في العروض والقوافي، عبدالله فتحي الظاهر، ابن الأثير للطباعة والنشر، ٢٠٠٧، ط١، الموصل.

- نقد استجابة القارئ من الشكلانية إلى ما بعد البنيوية، جين ب. تومبكنز، ترجمة حسن ناظم، علي حاكم، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩، مصر
- نقد استجابة القارئ نقاده ونظرياته، رامان سلدن، ترجمة سعيد الغانمي، آفاق أدبية، دار الشؤون الثقافية، ١٩٩٣،ط١، العراق.
- هل يوجد نص في هذا الفصل؟ سلطة الجماعة المفسرة، ستانلي فش، ترجمة احمد الشيمي، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤. ط١،القاهرة.

❖ الدوريات:

- قصيدة النثر بين القبول والرفض، شمس الدين درمش، صابرين شمردل، مجلة الأدب الإسلامي، تصدر عن رابطة الأدب الإسلامي، المملكة العربية السعودية، مج ١٢، ع٤٥،٢٠٠٥
- قصيدة النثر في الأردن، الإشكالية والتجليات، عبد الرحيم مراشدة، مجلة أبحاث اليرموك، جامعة الأردن، مج ٢٤، ع١، ٢٠٠٦.
- قصيدة النثر، سليمان الشطي، مجلة البيان، تصدر عن رابطة الأدباء في الكويت الكويت، ع ٢٢٢، ١٩٨٤
- قصيدة النثر مقاربة أولية، عبد الفتاح النجار، أبحاث اليرموك، جامعة اليرموك عمان، مج ١٩، ع٢، ٢٠٠١
- مجلة الأديب المعاصر (العراقية) الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، ع ١، كانون الثاني، العراق، ١٩٩٠
- مجلة شعر (البيروتية)، ع ١٤، سنة ٤، ١٩٦٠،بيروت.

❖ الرسائل والاطاريح الجامعية:

- مفهوم قصيدة النثر في النقد العربي الحديث، الأصول والتحولات، احمد علي محمد، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، إشراف د. جميل نصيف التكريتي، ٢٠٠٥.

❖ المواقع الالكترونية

- الأسس النظرية لقصيدة النثر في الأدب العربي الحديث (مرحلة التأسيس)، حسن مخافي، نزوى، ع٣٨، www.nizwa.com .
- الشعر والنثر، السياق والمفاضلة، حورية الخمليشي، نزوى، ع ٤٥، www.nizwa.com
- قصيد النثر: إشكالية التسمية والتجنيس والتاريخ، عز الدين المناصرة، نزوى، ع٢٩، www.nizwa.com
- قصيدة النثر تأملات في المصطلح، محمد الصالحي، نزوى،ع١٠ www.nizwa.com

الفصل الثالث

مسارات الرؤى في التطبيق

الفعل الكلامي النصي

قصيدة (وتعطّلت لغة الكلام...) لمفدي زكريا أنموذجاً

أ. د. عبد الحليم بن عيسى*

❖ مدخل

عرف التحليل النصي في الدراسات المعاصرة تحوّلات كبيرة، والسر في ذلك يعود إلى تأثير إفرازات المسار الذي عرفته الدراسة اللسانية: من الاهتمام بالجملة إلى توسيع الآفاق لتشمل ما هو أشمل وأعم: أي النص. وكان من نتائج ذلك أن استدعى الاهتمام به ضرورة الانفتاح على مكوّناته وعدم البقاء في الإطار النسقي الذي ينبغي عليه المناهج البنيوية التي أقصت عمدا المعطيات الخارجية في الممارسة النصية)، وقد تم ذلك في رحاب الدراسات التي دعا فيها روادها إلى الأخذ بعين الاعتبار ما تمليه معطيات العملية التواصلية في الكشف عن مكامن السياق وفعاليته.

وتعد الدراسات التّداوليّة من بين أهم المجالات التي دعا فيها أصحابها إلى تفعيل (السياق) من أجل ضبط المقاصد التي يقتضيها التّفاعل الكلامي، وتعدّ (نظرية أفعال الكلامية) من بين أهم المجالات التي احتضنت هذه الدعوة؛ إذ بيّن فيها (أوستين) وتلامذته أنّه لا يمكن ضبط الفعل الإنجازي الذي يقوم عليه الفعل الكلامي من غير الأخذ بعين الاعتبار معطيات مسرح القول الذي يُنتج فيه.

والمطّلع على المسار الذي عرفته هذه النظرية يدرك أنّها قد عرفت تطوّرات مختلفة نوعية الدراسة، ويعدّ(فان ديك) من أهم المنظّرين لهذه النقلة النوعية من (الفعل الكلامي الجزئي): والذي تم على يد (أوسيتن) و(سيرل) وغيرهما، إلى (الفعل الكلامي النصي)؛ والذي يُنظر فيه إلى النص بوصفه سلسلة من أفعال الكلام تخدم فعلا كليا شاملا.

وبحثنا يندرج ضمن هذه الرؤية؛ نضبط من خلاله طبيعة هذه النقلة، والأسباب التي أدّت إليها. ولتوضيح كل ذلك سنعتمد على مدونة أدبية لتطبيق إجراءات هذا المنهج في النص الشعري. وننطلق فيه من إشكالية البحث عن طبيعة الفعل الكلامي النصي، والكشف عن التصور الذي يضبط ويحدّد كيفيات تحديد قوته الإنجازية

---

*...بمة وهران - الجزائر.

١. نشأة نظرية الأفعال الكلامية وتطوّرها

ترتبط هذه النظرية -كما يذكر معظم الدارسين- برائدها (أوستين) الذي قدّم مفاهيم دقيقة حول (الفعل الكلامي *Speech act*) وطبيعته وشروطه وأصنافه. وقد طرحها انطلاقاً من عدم رضاه عما آل إليه الخطاب الفلسفي الحديث على وجه الخصوص[١]، فقدّم ملاحظات لاذعة تصف أعمال الفلاسفة بأنّها واهيةٌ مبتذلةٌ، ثم إنّهم ينطلقون في بحوثهم من أحكام جاهزة، مما جعل دراساتهم غير دقيقة.

ولهذا كانت العبارات الأولى التي افتتح بها كتابه تدعو إلى أنه سيناقش ظاهرة واسعة الانتشار، ولكن -كما يقول- لم يولها أحد الاهتمام الذي يليق بها. فانطلق من الوهم الذي وقع فيه الفلاسفة حينما افترضوا أنّ شأن الحكم في القضية إما أن (يصف) حالة شيء ما، وإما أن (يثبت واقعة عيْنية)، مما يعني أنّ حكم القضية إما أن يكون صادقاً أو كاذباً[٢].

ويظهر أنّ (أوستين) من البداية أراد أن يتجاوز ما كان سائداً في الفكر الفلسفي واللساني الشائع آنذاك، والذي أُعطيت فيه المكانة الأولى للجمل التي تصف الواقع على حساب الجمل التي تنشئه أو تهدف إلى ذلك على الأقل باعتبارها -كما يرى المناطقة- مجرّد أشباه إثباتات أو مجرد تعبيرات انفعالية قد تصلح في ميدان الشعر أو التعبير الخيالي بعامة، ولكنّها لا تصلح لصياغة قضايا المنطق[٣]. فاقترح طرحاً جديداً بيّن فيه أنّه من غير الممكن اعتبار الوظيفة الوحيدة للغة هي (الوصف)، ولذلك أطلق شعاره المشهور في معارضة هذه الوظيفة؛ وهو (الوهم الوصفي *L'illision descriptive*)، ليثبت أنّ القول هو بدون شك تقلٌ لمعلومات معينة لآخرين حول موضوع ما نتكلّم عنه؛ ولكنّه أيضاً (فعل)[٤]. فحاول إبراز (الوجه الإنجازي) من القول، والذي تمثّله استعمالات معينة من اللغة، بعد أن كان (الوجه الإخباري) هو المسيطر في الدراسات اللسانية والفلسفية، فأراد أن يجسّد ذلك ابتداءً من عنوان كتابه (كيف ننجز الأشياء بالكلام *How to Do Things with Words*)، وهو عنوان ينحو -كما نلاحظ- نحو النزعة التطبيقية، وذلك انطلاقاً من تلك العناوين التي تقوم على هذه

---

(1) *Voir, Austin, Quand dire c'est faire, traduction Gilles Lane, (Préface) P :9.*

(٢) أوستين، نظرية أفعال الكلام كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة: عبد القادر قينيني، ص١٢

(٣) إدريس سرحان، الأمر والنهي في نظرية الأفعال الكلامية، أطروحة لنيل الدراسات العليا إشراف د.عبد الوهاب التازي، المغرب جامعة فاس، ١٩٨٨، ص١٢.

(4) *Voir: Charaudeau et Maingueneau ,Dictionnaire d'analyse du discours, Paris édition du seuil, 2002, p: 16.*

و أيضا جون ليونز، اللغة والمعنى والسياق، ص١٩١، ومحمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص٥٧، وصلاح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، ص١٢٥.

النزعة من مثل: (كيف تبني شخصيتك؟) و(كيف تختار صديقك؟) و(كيف تكون ناجحا؟) فجسد هذه النزعة ضمن (نظرية الفعل الكلامي).

ويقوم التحليل اللغوي الذي اعتمده (أوستين *Austin*) في اكتشاف الأفعال الكلامية وتصنيفها على دعامتين منهجيتين أساسيتين[١]:

أ-**القصدية**: وشكّلت الأساس الذي انبنت عليه نظرية الأفعال الكلامية، وتتجلى انطلاقا من الربط بين العبارات اللغوية وغرض المتكلم أو مقصده من الفعل الكلامي: إذ (يجب أن ينظر إلى الإنجاز بوصفه جانبا قصديا لفعل كلامي في سياق الموقف الكلي البراجماتي التواصلي (السياق البراجماتي-التواصلي))[٢]. فكل فعل كلامي يقوم على قصد معين، وله تأثير ودور في ضبط القوة الإنجازية المرادة.

ب-السياق العام بأنواعه: أي السياق الذي يجري فيه القول؛ بكل معطياته الثقافية والاجتماعية والنفسية. وقد قرّر (أوستين) أنّ الأقوال تُنتج ضمن سياقات محدَّدة، فتضحى دلالاتها جزءا لا يتجزأ من هذه السياقات.

وفي رحاب هذا التحوّل تغيّرت بؤرة الدرس اللساني؛ بحكم أنّ نظرية الأفعال الكلامية لا تقرُّ بأنّ الوحدة الأساسية للتواصل الإنساني هي (الجملة)، ولا أي تعبير آخر؛ بل هي (إنجاز) بعض أنماط الأفعال[٣]، وذلك انطلاقا من موقف معيّن.

ولكن حتى وإن كان هذا الطرح قد تبلور مع (أوستين) فإنه يجب أن ننبّه إلى أمرين مهمين:

الأمر الأول يتعلّق بأهمية الجهود السّابقة عليه في إرساء الأرضية الخصبة التي دعمت معطيات هذه النظرية؛ ومنها على الخصوص صنيع (فتجنشتاين) الذي كان له الفضل الكبير في التأسيس لهذه النظرية؛ إذ بيّن من قبلُ أيضا أنّ اللغة قد تستخدم لوصف العالم من حولنا، وقد نستعمل أيضا لغير وصف وقائع العالم: كالأمر والاستفهام والشكر والتحية والدعاء وغيرها من الاستعمالات التي أطلق عليها مصطلح (ألعاب اللغة *Language Games*)، وأسمى كل استعمال منها (لعبة).

ويتجّه مفهوم (اللعبة اللغوية) حسب (فتجنشتاين) نحو الاستعمالات اللغوية انطلاقا من مقتضيات التواصل الاجتماعي في المقامات المختلفة، وقد بيّن أنّ استعمال اللغة شبيه بلعبة، علينا أن نتعلّم قواعدها بممارستها في حدّ ذاتها (تطبيقها في سياقات

---

(١) د. مسعود صحراوي، الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي، ص٦٩.

(٢) زتسيسلاف واورزنياك، مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص، ترجمة سعيد حسن بحيري، ص٢١-٢٢.

(٣) فرانسواز أرمينكو، المقاربة التّداوليّة، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي (د ت)، ص٦٠.

معينة)؛ فـ(نحن لا نصبح ممتلكين للسان ما بداية بتعلّم مجموعة وحيدة من القواعد الوصفية التي تتحكّم في استعماله في كل حالة، ولكن بمشاركتنا في كثير من الألعاب اللغوية المختلفة التي ترتبط كل واحدة منها بصنف من السياق الاجتماعي مخصوص ومحدّد، عبر مواضعات اجتماعية مخصوصة)[1]. فـ(اللعبة اللغوية) هي استعمال للغة في موقف محدّد، أما ضوابطها فهي مستمدة من الحال الذي تستخدم فيه.

ولذلك أكّد (فتغنشتاين) في غير مرة أنّ نماذج الألعاب اللغوية تتنوّع، غير أنّ تمظهراتها لا تتم إلا من خلال استعمالاتها المختلفة حيث تتعيّن مقاصدها: يقول معلّقا على قولنا: (المطر ينزل): (أليس غريبا أنّني لا أستطيع بالضرورة أن أفكّر أنّ المطر سيكفّ حتى دون المؤسسة اللغوية وكل ما يحيط بها؟ أتريد أن تقول إنّه من الغريب أنّك تستطيع أن تنطق هذه الألفاظ وتقصدها دون ما يحيط بها)[2]؟ وفي كل ذلك تأكيد واضح على ضرورة ربط مقاصد اللغة بالمقامات الاجتماعية التي تستعمل فيها العبارات اللغوية.

والأمر الثاني يرتبط بما قدّمه تلامذته من بعده في استجلاء خصوصيات هذه النظرية، والذين كان لهم الفضل الكبير في تطوير مقولاتها، واستكمال طروحاتها؛ منهم (سيرل) و(ريكانتي) و(غوفمان) و(أوركيوني) و(فوندرليش) وغيرهم. قد نركز في هذه المناسبة على عمل (سيرل) الذي قدّم رؤية متطوّرة لذلك، استفاد فيها من الهفوات التي وقع فيها أستاذه (أوستين)، فاستطاع أن يطوّر ويعمق أكثر في طروحاته، وأن يعدّل ويزيل الكثير الالتباسات التي بقيت عالقة مع التحليل الأوستيني، مستفيدا في ذلك أيضا من آراء غيره من فلاسفة اللغة أمثال: (فيتغنشتاين)، و(غرايس)، و(ستراوسن) وغيرهم.

ويمكن تلخيص أهم القضايا التي قدّمها (سيرل) فيما يلي:

- بيّن في غير مرّة من كتابه (أفعال الكلام *Les actes de langage*) أنّه من غير الممكن أن ينحصر ويقوم مفهوم الفعل الكلامي على مراد المتكلّم فحسب؛ بل هو مرتبط أيضا بالعرف اللغوي والاجتماعي الذي يتقاسمه أفراد البيئة اللغوية المعيّنة[3]، والذي يسهم بشكل كبير في تحقيق الإنجازية المطلوبة.

---

(١) صابر حباشة، التداولية والحجاج مداخل ونصوص، دمشق صفحات للدراسات والنشر، ط١/٢٠٠٨، ص٧٧.

(٢) لودفيك فتغنشتاين، تحقيقات فلسفية، ترجمة وتقديم وتعليق د.عبد الرزاق بنور، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ط١/٢٠٠٧، ٣٤٩.

(3) Voir Searle, Les actes de Langage, p: 84-85.

- تمييزه بين مفهومين أساسيين في الفعل الكلامي: (فعل القول) و(الفعل المتضمّن في القول)؛ فالأول يوافق فيه أستاذه في بيان مفهومه[1]، ومعناه هو الفعل اللغوي ذو المعنى المحدّد في لغة من اللغات. أما الثاني فيقدّم فيه مفهوما آخر يتعلّق بالقوة الإنجازية التي يُنبئ بها اللفظ، كأن يكون فعل القول ظاهره الاستفهام، والقوة التي يتضمّنها هي (الإنكار أو التوبيخ أو التهديد)، أو غير ذلك.

ولكن هذا لا يعني كما يذكر (سيرل) أنّ كلّ فعل لغوي مؤسس على ذلك: بل لاحظ أنّه قد يحدث أن يتداخل الفعلان، فيكون التلفّظ بجملة ما خاليا من أية قوّة ضمنية؛ بل يكون ما تدلّ عليه الجملة معنى ظاهريا صرفا خاليا من أي فعل متضمّن في القول.

وتفاديا للتداخل بين الفعلين: (الفعل الإحالي)، و(الفعل الإنجازي)، يقترح (سيرل) تمييزا آخر يحدّد به نمطين من الأفعال في كل جملة وهما:

١. **فعل القضية أو الفعل القضَوي**: وهو الحمولة الدلالية الإحالية المباشرة التي تحملها الجملة، وهو مأخوذ من المعجم في العادة، وهو معادل لمفهوم (فعل القول) (الدلالة الإحالية المباشرة)، ويرمز لها (سيرل) بـ(*P*) التي تُرجمت بـ(ض)، وتعني (قضية).
٢. **فعل القوة**: ويتعلّق بالطاقة المفهومية (الإنجازية) التي تتضمّنها الجملة؛ كالإخبار والاستخبار أو الوعد أو الوعيد، وغير ذلك. وفعل القوة هو الفعل الكلامي الحقيقي، ويرمز له بالرمز (*F*) الذي تُرجم في العربية بـ(ق).

وعليه يرمز للمحتوى القضوي لكل الملفوظات الإنجازية بـ$F\ (P)$، والتي تُرجمت في العربية بـ: ق (ض)[2].

ولكي يوضّح ذلك قدّم الأمثلة الأربعة التالية التي تحمل محتوى قضويا واحدا لكنّها تختلف في قوتها الإنجازية وهي:

- (جون يدّخن كثيرا).
- (هل يدخّن جون كثيراً؟)
- (دخّن كثيرا جون).

---

(١) وقد بيّن (أوستين) أنّ (الفعل الكلامي) يمثّل وحدة مركّبة من ثلاثة عناصر فعلية مرتبطة فيما بينها، ولا يمكن فصل بعضها عن بعض. وهذه العناصر أو الأفعال هي: (فعل القول)، و(الفعل المتضمّن في القول (أو الفعل الإنجازي) ، و(الفعل الناتج عن القول (الفعل التأثيري)).

(٢) د.مسعود صحراوي، الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي، ص٨٤.

- (كم إنَّ جون يدخِّن كثيرا!)

حيث تختلف القوى الإنجازية في هذه الأقوال بين: الإخبار والاستفهام والأمر والتعجّب، على الرغم من أنّ المحتوى القضوي واحد؛ إذ يعبّر عن قضية واحدة موضوعها (جون) ومحمولها (التدخين)[1].

- قدّم تصوّرا آخر لـ(الأفعال المتضمّنة في القول) (الفعل الإنجازي)، وحوّل فيها الاهتمام من (الفعل المتضمّن في القول) إلى (القوة المتضمّنة في القول)؛ باعتبارها الأساس الذي يقوم عليها الفعل الكلامي.
- أعاد النظر في تصنيف الفعل الإنجازي، مؤكّدا أنّ جهود (أوستين) كانت موجّهة إلى دراسة الألفاظ وليس الأفعال؛ أي دراسة لفظ الفعل، وليس الفعل منجزا بكل ما يحمله من حركية ومادية[2]. وقد ارتكز في ذلك على أسس منهجية مضبوطة على أساسها يختلف الفعل الإنجازي المعيّن عن غيره، وترتبط في عمومها بالغرض الإنجازي، واتجاه المطابقة، وشرط الإخلاص[3]. وضبطها هو الآخر ضمن خمسة أصناف:

١. (التقريريات): والهدف أو الغرض من هذا النوع يرتبط بمسؤولية المتكلم (وبدرجات متفاوتة) حول حقيقة الاقتراح المعبّر عنه (الغرض التقريري)، وهي تصف حقيقة الأشياء المعبر عنها، واتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم ويتضمّن هذا الصنف معظم (أفعال الإيضاح) عند (أوستين) وكثيرا من أفعال الإحكام)[4].

٢. (التوجيهيات): ويقوم الهدف الإنجازي لهذه الأفعال على العمل الذي يتكوّن من محاولات (بدرجات متفاوتة) من جانب المتكلّم لفعل شيء ما من خلال المستمع، وهي ما يسعى فيها إلى القيام بأشياء للآخرين: فالغرض الإنجازي هو

---

(١) Voir : Les actes de Langage, Searle, P :60.

(٢) وقد أوضح (سيرل) أنّ (تصنيف (اوستين) يطرح ستة مآخذ بارزة، وهي بحسب أهميتها: هناك اختلاط بين (الأفعال *Verbes*) و(الأفعال (الأداءات) *Actes*) فالأفعال ليست جميعها (أفعالا *Des verbes*) إنجازية، ثم الأنواع المذكورة بينها هوة واسعة، ثم هناك الكثير من الأنواع غير المتجانسة، ثم الكثير من (الأفعال *Des verbes*) مدمجة في نوع لا توافق المعنى العام له. وفي الأخير الأمر المهم ليس هناك أساس متناسق في الترتيب). *Searle, Sens et expression, P51.*

(٣) وهذه الشروط خارجة عن إطار المعطيات اللغوية، تتعالق أكثر مع معطيات سياق الموقف، وقد شرحها انطلاقا من الاختلافات التي قد تكون بين مختلف القوى الإنجازية، يقول: (هناك وفي رأيي اثنا عشر بعدا (*Dimensions*) للاختلافات الدلالية يمكن أن تجعل الأفعال الإنجازية تختلف الواحدة عن الأخرى). *Searle, Sens et expression étude de théorie des actes de langage, P:40.*

(٤) *Voir Searle, sens et expression, P:52-53.*

محاولة المتكلِّم توجيه المخاطب إلى فعل شيء ما. واتجاه المطابقة فيها من (العالم إلى الكلمات *Du monde aux mots*)، وشرط الإخلاص فيها يتمثّل في الإرادة أو الرغبة الصادقة، والفعل القضوي فيها هو دائما فعل السامع شيئا في المستقبل. والأفعال التي تدلّ على هذا الصنف هي: سأل، طلب، أمر، اعترض، استعطف، دافع، التمس، توسل، دعا، سمح، نصح، تحدى، وكثير من أفعال (القرارات *Exercitifs*) عند (أوستين) تدخل في هذا الصنف[1]، فأساسها (حمل المخاطب على القيام بفعل ما).

٣. (الالتزاميات *Promissifs*): وتضم الأفعال الكلامية التي يكون فيها الهدف الإنجازي إجبار المتكلم (وبدرجات متفاوتة أيضا) على تبني تصرف ثابت مستقبلي، تتعهد فيها بالقيام بأشياء للآخرين[2].

واتجاه المطابقة في هذه الأفعال من العالم إلى الكلمات، وشرط الإخلاص هو القصد، والمحتوى القضوي فيها دائما فعل المتكلم شيئا في المستقبل، و(ظاهر أن اتجاه المطابقة في الالتزاميات والتوجيهات واحد؛ فهل يسوغ ذلك ضمهما في قسم واحد؟ والجواب أن ذلك غير ممكن لسببين: أحدهما أن المرجع في الالتزاميات هو المتكلم، أما في التوجيهات فهو المخاطب. والثاني أن المتكلم في الالتزاميات لا يحاول التأثير في السامع، وفي التوجيهات يحاول التأثير فيه)[3]، ومن ههنا يظهر الفرق الواضح بين الالتزاميات والتوجيهات، ففي الأفعال الأولى يكون التركيز على المتكلّم أما في الثانية فالمستهدف فيها هو السامع.

٤. (التعبيريات *Expressifs*): والغرض الإنجازي لهذا الصنف هو التعبير عن الحالة النفسية المخصوصة ضمن شرط الإخلاص، وتتعلق بحالة أشياء محدّدة في المضمون القضوي. ومن نماذج الأفعال التعبيرية نذكر: (شكر، هنّأ، اعتذر، قدّم التعازي، حزن، رحّب)، ففي التعبيريات نعبّر عن أحاسيسنا وواقعنا. ولا وجود لأثر المطابقة بين العالم والكلمات لاقتضاء حقيقة القضية المعبر عنها فقط.

٥. (الإيقاعيات *Déclarations*): والغرض منها إحداث تغيير في العالم بحيث يطابق العالم المحتوى القضوي بمجرد الإنشاء الناجح للفعل الكلامي. ويتم ذلك بالاستناد إلى مؤسسة غير لغوية بحيث تعتبر هذه المؤسسة عن الأداء

(1) *Voir Searle, Ibid, P: 53.*
(2) *Voir Searle, Ibid, P: 54.*
(3) د. محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص٧٨.

الناجح لذلك الفعل الكلامي إحداثاً للتغيير المطلوب، واتجاه المطابقة هو الاتجاه المزدوج؛ إذ تتميز الإيقاعيات عن غيرها من الأفعال الكلامية بأن أداءها بنجاح يكفي لتحقيق المطابقة بين القول والعالم.

وأما الحالة النفسية التي تعبّر عنها الإيقاعيات فهي الاعتقاد بوقوع الفعل ناجحا، والرغبة في وقوعه ناجحا، ويتوافق الاعتقاد والرغبة مع القصد في تحقيق الغرض المتضمن في القول[1].

- أدخل مفهوما آخر في هذه النظرية ضمّنه تلك الأفعال التي لا توحي مباشرة إلى قوتها الإنجازية سماها (الأفعال الكلامية غير المباشرة)؛ والتي ترتبط أساسا بقصد المتكلم. وقد أشار هنا إلى المشكلة التي قد تعترضنا في تحديد القوة الإنجازية غير المباشرة هي كيف يمكن للمتلفظ أن يقول شيئا، ويريد شيئا آخر؟[2] ليتضح له أنّ الحل يكمن في مبدأ التعاون الحواري بين طرفي العملية التخاطبية، وما عند المخاطَب من علم بجوانب الموضوع، وبما سماه أيضا باستراتيجية الاستنتاج التي تتوافر لدى المتلقي بما تمكنه من ضبط المقصد المراد.

وهنا نشير إلى قيمة الأفعال الكلامية غير المباشرة وأهميتها في تحقيق الفعل التأثيري المنوط بها، كونها تعطي للفعل الكلامي فعالية أكثر في تحقيق القوة الإنجازية، وبالخصوص لدى الأديب والسياسي.

- ومّع في الشروط التي اقترحها (أوستين)، والتي تقتضيها إنجازية العبارة اللغوية[3]، وقد حاول احتواء كل ما من شأنه أن يسهم في تأطير الفعل الكلامي وتحقيق إنجازيته، وسمّاها (شروط الملاءمة أو الاستخدام)[4]، إذا تحقّقت في الفعل الكلامي كان ناجحا، وقد طبّقها على التحية والاستفهام والتحذير والتهنئة والوعد وغير ذلك.

لكن كل هذه التوضيحات التي تمت مع (سيرل) بقيت في حدود الفعل الكلامي البسيط الذي لا يتعدّى حدود القول أو الجملة، ليلتفت بعده بعض العلماء إلى

---

(١) د.طالب هاشم طبطبائي، نظرية الأفعال الكلامية، ص٧٢.

(٢) *Voir John Searle, Sens et expression, P:72.*

(٣) وقد خصص لها ثلاثة فصول، الأول سمّاه: (شروط مطابقة مقتضى الحال في الإنشاء)، أما الثاني فعنونه (الخروج عن مطابقة مقتضى الحال عدم توخّي قصد النظم)، ووسَم الثالث بـ(الخروج عن مطابقة مقتضى الحال الشطط في صلاحية الاستعمال). أوستين، نظرية أفعال الكلام كيف ننجز الأشياء بالكلام، ص٢٣-٧١. ولاحظنا كيف أنّه ما استطاع احتواء كل ما قد تقتضيه تداعيات هذه الشروط وتأثيرها في تحقيق القوة الإنجازية المطلوبة، ونعتقد أن ارتباطها بالسياق ومعطياته المتنوعة والمتجددة التي قد يجري فيه التخاطب هو السبب المباشر في ذلك.

(٤) *Voir, John Searle, Les Actes de langage, P:98-103*

ضرورة تجاوز ذلك، وهذا من أجل احتواء الأفعال الكلامية الأكبر، وبالخصوص تلك التي تكون على مستوى النص ككل، ومنهم (فان دايك) و(مانقونو) وغيرهما.

وفي هذا السياق يذكر (فان دايك) أنه يمكن أن نحلّل النصوص على المستوى التداولي بوصفها (تتابعات من أفعال اللسان). وتحليل (النص) من هذا المنظور يستدعي الوقوف على (السياق التداولي) الذي يُنتج فيه، كما يقتضي أيضا تناول النص بوصفه فعلا كلاميا أكبر انطلاقا من سياق ما، وهنا قد نتساءل ونقول: ما هو الفعل الكلامي النصي؟ وما هي سماته؟

٢. الفعل الكلامي النصي

قبل الحديث عن ماهية (الفعل الكلامي النصي) نشير إلى أنّ مصطلح (الفعل الكلامي) يرتبط بـ(أوستين)، وقد حُدِّد بتعريفات مختلفة، ويعود السر في ذلك إلى المرجعيات المتنوّعة التي انطلق منها الدارسون. فقد عرّفه (مانقونو) بقوله: (والمقصود به الوحدة الصغرى التي بفضلها تحقق اللغة فعلا بعينه (أمر، طلب، تصريح، وعد...)، غايته تغيير حال المخاطبين. إنّ المتلفظ المشارك لا يمكنه تأويل هذا الفعل إلا إذا اعترف بالطابع القصدي لفعل المتلفّظ)[١].

أما (فان دايك) فقد ربطه بالحدث الذي يعني في أساسه (التغيير)[٢]. ولا تكمن طبيعته (الفعلية) أو (الحدثية) هذه في كونه إنجازا أو ممارسة فيزيولوجية فقط؛ بل لأنّه فضلا عن ذلك سلوك لغوي، أو ممارسة يستطيع المتكلّم تجسيدها عبر العملية التواصلية، فلا يختلف الفعل اللغوي عن باقي الأفعال غير اللغوية[٣]. يقول (فان دايك): (وما نعنيه بقولنا إنّنا نفعل شيئا ما متى صغنا عبارة معيّنة هو أنّنا نقوم بإنجاز فعل اجتماعي: كأن نعد وعداً ما، ونطلب وننصح، وغير ذلك مما شاع وذاع أنّه يطلق عليه (أفعال الكلام)، ويطلق عليه على نحو أخصّ (قوة فعل الكلام). ومن الواضح علاوة على ذلك أنّه يوجد بون شاسع بين حال إصدار بعض الأصوات من ناحية أولى، وبين القيام بإنجاز فعل مجتمعي معقّد من ناحية ثانية)[٤]. ومنه نلاحظ أنّ (الفعل الكلامي) لا يقف عند حدود النطق الكلامي؛ بل يتعدّاه إلى النمط الإنجازي التأثيري الذي يبتغيه المتكلّم من المتلقّي.

ومن الضروري أن نشير إلى البنية الإنجازية العميقة للفعل الكلامي، فنحن

---

(١) مانقانو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة محمد يحياتن، ص٧.
(٢) فان دايك، النص والسياق، ص٢٢٨.
(٣) عبد السلام إسماعيلي علوي، التلفظ والإنجاز، www.fikrwanakd.aljabriabed.net/n58 .
(٤) فان دايك، النص والسياق، ص٢٦٣.

بتحقيقه نتصبح بالإحالة على حدث ما، (أمر، وعد...)، يتم ذلك بالتعبير بالجملة في سلسلة فونيتيكية صرفية ونحوية ودلالية، لتتحقق بعد ذلك (إنجازية) الفعل الكلامي لربط العبارة اللغوية بحدث ذي غاية معيّنة. وفي هذا الإطار يتخذ الكلام –كما يرى (أوستين) و(سيرل)- مجرى آخر ينقله من الظواهر الصوتية التي لا أثر لها في العالم الخارجي، إلى الظواهر الفاعلة والمؤثرة في الواقع، وبهذا يبرز الوجه الآخر للغة: وهو الوجه (الإنشائي)، بعد أن كان الوجه (الإخباري) مسيطرا على الدراسات الفلسفية واللسانية[1].

وقد عرّفه (أوستين) بأنه (الفعل المؤسس من قبل متكلّم يتمتّع بصلاحيات معيّنة)[2]؛ وفيه تأكيد على الصلاحيات بمنظور اجتماعي باعتبار أنّ الفعل الإنجازي المعين لا يمكن أن يتحقق من غير أن تتوافر في المخاطب الشروط التي تمكّنه من خلق الفعالية فيه. ومنه فالفعل الكلامي هو الملفوظ المتحقّق من قبل متكلّم محدّد في سياق معيّن، والذي لا تكون اللغة معه مجرّد أداة تواصلية: بل فعلا اجتماعيا أو سلوكا فرديا أو مؤسساتيا.

وقد دقّق أكثر (أوستين) في مصطلح (الفعل) الذي تقوم عليه هذه النظرية فقال: (ونحن نتصوّر الفعل على أنّه حدث مادي فيزيائي نقوم بإنجازه، ونعتبره متمايزا عن ضروب التواضع والتواطؤ في كيفية الوقوع، ومتمايزة أيضا عن آثاره ونتائجه)[3]. ومنه نلاحظ الطبيعة العملية الإنجازية التي تطبع الفعل الكلامي، والتي تجعله يتجاوز حدود البنية اللغوية التي توقفت عندها النظرية اللسانية.

ومنه نلاحظ هذه النقلة النوعية في اللسانيات التّداوليّة، والتي تجاوزت في دراسة الإنتاج اللغوي البنية الصوتية والنحوية والدلالية إلى البحث في الآثار الاجتماعية والإنجازية للغة، فأصبحت اللغة في ظلّ هذا التحوّل فضاءً للإنجاز والممارسة والفعل؛ حيث الوعد والأمر والنهي والاستفهام والتهديد والسخرية وغيرها مما يمثّل إنجازات لغوية.

أما (الفعل الكلامي النصي) فقد نؤصّله انطلاقا من الدعوة الصريحة التي دعا خلالها (فان دايك) إلى ضرورة استثمار مقولات (الفعل الكلامي) في تحليل النص ضمن ما سمّاه بـ(النص كفعل كلامي)[4]. لذلك حاول أن يلفت الانتباه إلى السمات التّداوليّة

---

(1) *Les actes de langage, Searle, Paris édition Hermann, 1972, p11.*

(٢) د.مسعود صحراوي، الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي، ص٨٣.

(٣) أوستين، نظرية أفعال الكلام-كيف ننجز الأشياء بالكلام، ص١٣٨.

(٤) فان دايك، النص بناه ووظائفه مقدمة أولية لعلم النص، ترجمة جورج أبي صالح، مجلة العرب والفكر

الخاصة بالنصوص، وليس بالجمل فحسب[1]. ويرى في رحاب هذا المسألة أنه لا يكفي أن ندرس النصوص من جهة بنياتها فحسب؛ بل يجب أن نطرقها من جهة وظيفتها أيضا، باعتبار أننا لا نسعى إلى معرفة (الأشكال) و(المحتويات) التي قد يختص بها (نص) ما فحسب: بل نروم أيضا معرفة الوظائف المحتملة التي يمكن أن ينجزها هذا النص بفضل الشكل والمحتوى الخاص اللذين يتمتع بهما[2].

٣. تحليل (النص) في رحاب نظرية الأفعال الكلامية

وهو التحليل الذي ينظر فيه رواده إلى النص ليس كمتوالية من الجمل ذات الطبيعة الدلالية: بل يُنظر إليه كمتوالية من الأفعال الكلامية المتعلقة بفعل كلامي كلي يقوم على إنجازية معينة. وقد نستأنس في هذه المناسبة مع (زتسيسلاف واورزنياك) الذي أشار إلى قصور نحو النص، واقتصاره على مسائل تكوين النص من غير احتواء للعلاقات التّداوليّة التي قد تكتنفه[3].

ومن هنا تتبدى لنا هذه النقلة النوعية في التحليل النصي من النظرية النسقية التي تراهن على ما يُكشف عنه ضمن المستويات اللغوية المعروفة: الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، إلى النظرية التّداوليّة التي تراهن على كل ما من شأنه أن يسهم في العملية الاتصالية ككل، ويؤثر في تحقيق مقاصدها.

وفي هذا الإطار يشير محمد العبد إلى أنّه قد أتاحت تداولية أفعال الكلام لتحليل الخطاب بهذا الطرح منهجية لسانية جديدة، من حيث إنها نظرت إلى الكلام الأدبي وغير الأدبي بوصفه (فعلا كلاميا) أكبر يدل عليه قصد المتكلم، ثم إنها برهنت على أنّ إدراك المعاني الحقيقية للمنطوقات اللغوية إنّما يتحقق في سياقات الاتصال الفعلية. وقد أدّى هذا الطرح إلى فسح المجال واسعا للتعريف بتداولية أفعال الكلام وتكييف بعض مفاهيمها لأهداف التحليل النصي، والتي رأتها ضرورية لاكتمال دائرة فهم المنطوقات والنصوص المرتبطة بوظائفها وسياقاتها الحقيقية[4].

العالمي، مركز الإنماء القومي، العدد الخامس ١٩٨٩، ص٦٩.

(1) فان ديك، النص بنياته ووظائفه مدخل أولي إلى علم النص، ضمن كتاب نظرية الأدب في القرن العشرين، ترجمة وإعداد د.محمد العمري، الدار البيضاء أفريقيا الشرق، ٢٠٠٥، ص١١٨، ود.منذر عياشي، العلاماتية وعلم النص، المغرب المركز الثقافي العربي، ط١/٢٠٠٤، ص١٧١.

(2) فان ديك، النص بنياته ووظائفه مدخل أولي إلى علم النص، ضمن كتاب نظرية الأدب في القرن العشرين، ترجمة وإعداد د.محمد العمري، ص٦٦.

(3) زتسيسلاف واورزنياك، مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص، ترجمة د.سعيد حسن بحيري، ص٧٤.

(4) محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ص٢٧٨.

وأكّد (فان دايك) في رحاب هذا الطرح أنّه من الممكن تحليل (النص) على أنّه (متوالية من أفعال الكلام)، مثلما يُحلَّلُ على أنّه (متوالية من الجمل)، وأنّه يمكن إدخال (أبنية كبرى) تداولية لأفعال الكلام كما أدخلت أبنية كبرى لمضمون النص: بل يمكن النظر إلى النص عنده على أنّه (فعل كلامي إجمالي أو (فعل لغوي كبير) من أفعال الكلام[(١)].

ولشرح هذا التصور أكثر فقد قدّم مجموعة من الطروحات التي تبيّن طبيعة الفعل الكلامي النصي وتأويله وشروطه وإنجازيته وتنوّعه وأصنافه وعلاقاته، نركز في هذه المناسبة على ما يلي:

١. للسياق دور كبير في تشكيل النص وتأويله بوصفه متوالية من أفعال الكلام؛ ثم إنّ (بنية النص) ضمن سياق الاتصال لا تتأثر فقط (بمعرفة الفرد أو مقاصده أو بوظائف النص في تأثيرها في مواقف أفراد آخرين وسلوكهم، فإنّ جماعات ومؤسسات وطبقات تتواصل أيضا تواصلا جماعيا أو عبر أفرادها من خلال إنتاج النص. ويبرز كذلك مكان الفرد ودوره ووظيفته في هذه الأبنية الاجتماعية من خلال سلوكه اللغوي. وقد رأينا أنّ الفرد يجب أن يتصرّف من خلال سلطة أو وظيفة محدّدة أيضا لإنجاز أحداث لغوية معينة مثل القاضي أو الراهب أو المدير)[(٢)]. وفي كل ذلك إشارة دقيقة إلى تنوّع معطيات السياق التي يتشكل فيها الفعل الكلامي النصي، والتي تضفي عليه صبغة خاصة تسهم في تحديد إنجازيته.

٢. يتكون السياق التداولي الذي يُنتج فيه النص من مجمل العوامل الاجتماعية والنفسية التي تُحدّد بدقّة مناسبة أفعال الكلام، ومن بينها المعرفة والرغبة أو الإرادة، والأسبقيات المعتبرة عند مستعملي اللغة وأحكامهم من جهة وعلاقاتهم الاجتماعية من جهة أخرى كعلاقات الصداقة أو السلطة أو غير ذلك[(٣)]. وفي إطار هذه المعطيات تتحدّد القوى الإنجازية المقصودة للنص.

والسياق بهذا الطرح هو الديناميكية أو المسرح الذي تتمظهر وتتوالى من خلاله أفعال الكلام. إنّه الاتجاه الذي تتنامى من خلاله مجرى الأحداث؛ ابتداءً من حالة

(١) فان ديك، النص بنياته ووظائفه مدخل أولي إلى علم النص، ترجمة وإعداد د.محمد العمري، ص١٦، وسماه أيضا (الفعل الكلامي الشامل) أو (الفعل الكلامي الكلي). فان دايك، النص والسياق، ص٣١٦.

(٢) فان ديك، المصدر نفسه، ص٢٧.

(٣) فان دايك، النص بنياته ووظائفه مدخل أولي إلى علم النص، ترجمة محمد العمري، ضمن كتاب الرباض في نظرية الأدب مقالات ودراسات، يصدر عن مؤسسة اليمامة الصحفية، ص٨٥.

ابتدائية، ثم حالات وسطى إلى الحالة النهائية، وهذا الاتجاه هو الذي ينظِّم التمثّل الذهني للقضايا المعبّر عنها.

٣. تؤوّل متوالية الأفعال الكلامية كفعل واحد إذا صح تعيين الغرض أو الهدف الكلي العام الذي تقوم عليه[١].

٤. يتأسس الفعل الكلامي النصي على سمات خاصة تقوم على الترابط والاتساق وتوزيع المعلومات والجمل، وترتيب متوالياتها بما يخلق ملاءمة تلك الخصائص لغاية القيام بإنجاز متواليات قوى أفعال الكلام، وهي خصائص لا تكتفي بما تقتضيها العلاقات الدلالية باعتبار أنّ (مسألة توزيع المعلومات في الخطاب ليست مسألة دلالية فقط: إذ في ضروب عملية إنجاز الفعل المشترك الإيقاع التواصلي يتوقف هذا الترتيب على ما نعرفه ونصدقه، وعلى اعتقاداتنا الخاصة بمعرفة شركائنا في التحاور. وكذلك وبالمثل فإنّ المعلومات المركبة هي من شأن أمانينا ومقاصد إنجاز فعلنا، وبضروب التخمين المتعلق بأولئك المخاطبين)[٢]. وفي ذلك توضيح لطبيعة الأفعال الكلامية المركبة التي قد تختلف في تأليفها بحسب تداعيات السياق سواء في تركيبها أو في تراتبيتها.

وقد بيّن (فان دايك) أنّ التراتبية التي تقوم عليها الأفعال الكلامية تستدعي طريقة معينة في تأليفها وترابط قضاياها، وحتى في اقتضاءاتها التعبيرية. فالعلاقات بين الأفعال القولية ليست دلالية فحسب[٣]؛ بل هي علاقات تداولية تؤدّيها مجموعة الروابط ذات السمات المميزة، والتي تستمد فعاليتها من معطيات السياق الذي تتعالق به؛ مثل أدوات الربط العلية والاستنتاجية من مثل (من أجل ذلك، لأن، بما أن، إذن، ولغاية أن). ومنه يفرّق بين (الاستعمال الدلالي) للروابط، و(الاستعمال التداولي) لها: فالأول يشير إلى العلاقات بين الوقائع، أما الثاني فيتصل بتلك العلاقات التي تتم بين الأفعال الكلامية ذات صلة بالسياق الاتصالي.

كما أوضح أنّ كل صنف من الأفعال الكلامية يقتضي متواليات معينة: فالحكم المثبت مثلا (الإثبات والتقرير) قد يتبعه تفسير أو إضافة معنى زائد، كما يتبع الإثبات مصححا أو خيارا بديلا، أو قد يعقبه حكم مثبت إنكارا أو تناقضا. قد نمثّل لذلك بقول مفدي زكريا[٤]:

---

(١) فان دايك، النص والسياق، ص٢٨٧.

(٢) فان دايك، المصدر نفسه، ص٢٧٦.

(٣) فان دايك، علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، ص١٤٤، والنص والسياق، ص٢٧٦.

(٤) مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص٥٠.

وَبِلاَدُنَـــا بِيَـــدِ الكُـــلاَصِ خَلاَصُـــهَا هَيْهَـــاتَ يُجْـــدِي مَجْلِـــسٌ وَخِصَـــام

حيث يؤكِّد الشاعر في الفعل القولي الأول (وَبِلاَدُنَا بِيَدِ الكُلاَصِ خَلاَصُهَا) أنَّ بلادنا لا تُحرَّر إلا بالرشاش، ويُنكر في القول الثاني (هَيْهَاتَ يُجْدِي مَجْلِسٌ وَخِصَامُ) في صيغة تهكمية أن يكون الخلاص من المستعمر بمجلس الأمن؛ أي بالكلام. وكل ذلك تمَّ في إطار التراتبية التي اقتضاها الفعل الكلامي النصي الكلي؛ والذي يفيد أنّ لغة الكلام مع المستعمر في الحصول على الاستقلال قد تعطّلت، فلا تجدي معه بعد ذلك إلا لغة الجهاد؛ لأنّه كما يقول[1]:

تُكَذِّبُـــه فِـــي كُـــلِّ قَـــوْلٍ فِعَالُـــهُ مَـــرِيضٌ يَصُـــوغُ الـــوَهْمُ أَفْكَـــارَهُ النَّتْنَ

٥. يقوم الترابط الذي تقتضيه متوالية الأفعال الكلامية على ضرورة توفر العلاقات بين كل فعل كلامي وما يمكن أن يتعلق به انطلاقا من شروط معينة؛ فكَوني شاعرا بالبرد -مثلا- هو شرط صريح لصياغة الفعل الكلامي الأمري في نحو: (إنَّ الطَّقْسَ بَارِدٌ هُنَا وَمِنْ فَضْلِكَ أَغْلِقْ البَابَ)، ومنه قول مفدي زكريا في رفاق (أحمد زبانا) في الجهاد:

أَنْـــتُمْ يَـــا رِفَـــاقُ قُرْبَـــانُ شَـــعْبٍ كُنْـــتُمْ البَعْـــثَ فِيـــهِ والتَّجْدِيـــدَا

فَاقْبَلُوهَـــا إِنْيَهَالَـــةُ صَـــنَعَ الرَّشَـــ ـــاشُ أوزانهـــا فصـــارت قصـــيدا

واستريـــحوا إلـــى جـــوار كـــريم واطمئنـــوا فإنَّنـــا لَـــنْ نَحِيـــدَا

فالبيت الأول يمثِّل إثبات حكمٍ لرفاق الشهيد (أحمد زبانا)، شكّل شرطا للأفعال الأمرية التي وردت بعد ذلك في مجمل الأقوال التي تلتها. والنتيجة التي قد نستخلصها من هذه الأمثلة هي أنّ قوى أفعال الكلام قد تتوالى وتنسجم بحسب شُروط الإنجازيات التي تتعلق بها، تجسّدها هنا عبارات (اقبلوها)، ثم (استريحوا) ثم (اطمئنوا)، ويؤكِّدها الرابط التداولي (الواو).

٦. من المهم بالنسبة للتداولية النصية أن تحدّد الشروط التي يمكن أن تأتلف من خلالها أفعال الكلام، لتكوّن متواليات محدَّدة من جهة، وتوضّح الكيفية التي تتعالق فيما بينها من جهة أخرى. فاتّضح لـ(فان دايك) أنّ هذه الشروط ليست مقصورة على خواص محيط الأفعال؛ كالتأثير على الأشياء، ولا على المقاصد والأغراض، وإنّما أيضا على الخواص الأولى للأشياء والمحيط، وعلى قدرات الفاعل واستعداداته[2]. وتقرّر لديه أنّ إحدى العلاقات الأساسية التي

(١) مفدي زكريا، المصدر نفسه، ٣١٣.

(٢) فان دايك، النص والسياق، ص٢٢٨-٢٢٩.

تحكم متولية أفعال الكلام النصية هي (علاقة تعليل وتفسير)[1]؛ أي كل فعل يعلِّل ويعطي الأحقية لتحقيق الآخر ضمن متواليات أفعال كلامية كلية، وبالتالي النجاح الكامل للفعل الكلامي النصي.

وهذا ما نلحظه -مثلا- في قصيدة (وتكلّم الرشاش جل جلاله!!)، التي يقوم الفعل الكلامي النصي على متوالية كلامية غايتها التأكيد أنّ حرية الجزائر أُخذت بالقوة؛ ولذا لا تسترجع إلا بالقوة أيضا؛ ولذلك حاول مفدي زكريا من بداية هذه القصيدة أن يُثبت جرائم فرنسا الشنيعة، والتي لم تراع فيها أية اعتبارات إنسانية، ولهذا لا يمكن أن يكون هناك سبيل للاستقلال من غير الرشاش، ومن ذلك قوله[2]:

أكبادُ مـن..؟ هـذي التي تتفطَّـر؟　　　ودمـاءُ مـن..؟ هـذي التي تتقطـر؟
وقلوبُ مـن..؟ هـذي التي أنفاسُـها　　　فـوق المـذابح للسّمـا تتعطَّـر؟
ورؤوسُ مـن..؟ تلك التي ترقى إلى　　　حبـل المشـانق، طلقـةً تتبختـر؟
ومن الـذي..؟ عُـرِضَ الجزائـر شيَّها　　　مـن كـل شـاهقة لظًى تتعسَّـر؟
أجهنمٌ.. هـذي التـي أفواهـها　　　مـن كـل فـجٍّ نقمـة تتفجَّـر
أم أرض ربـك زُلزِلـت زلزالهـا　　　لـمَّا طغى في أرضـه المسـتعمر؟
أغضب الجزائـر ذاك..؟ أم أحرارهـا　　　ذكـروا الجـراح فأقسـموا أن يثأروا؟
وتكلَّم الرشّـاشُ جَـلَّ جلالُـه..!!　　　فـاهتزت الـدنيا وضَـجَّ النيِّـر...
والنـارُ فـي مـس الجفـون عزيمـةٌ　　　يصـلى بهـا المسـتعمر المتكبـر

فتنامي الأفعال الكلامية لهذه القصيدة غايته تأكيد الفعل الإنجازي الكلي الذي يقوم عليه، وهو مواصلة الجهاد بالقوة؛ لأنَّ فعل القول الذي دام طويلا لم يأت بأية نتيجة، وهذا ما ظلَّ يؤكد عليه في مناسبات متنوّعة؛ منها قوله[3]:

وإذا الجزائـر بالسِّـلاحِ اسْـتُعْبِدَتْ　　　فَمَصِـيرُهَا بِسِـلاَحِهَا يَتَقَـرَّرُ

٧. من اللازم إدخال بنيات تداولية كبرى لتأويل النص للكشف عن الوظيفة الإجمالية له، ولذا يمكن أن ترتبط متوالية الأفعال الكلامية المبسوطة فيه بفعل كلامي كبير. ولهذا إذا كان التحليل النصي من هذا المنظور يتّجه إلى الفعل الكلامي الكامل أو الأكبر للنص فليس معناه إغفال الأفعال الكلامية البسيطة التي تسهم في إنتاجه وتحقيقه، ولهذا لا يمكن التغافل عن أهميتها

---

(1) فان دايك، النص بلماته ووظائفه مدخل أولي إلى علم النص، ترجمة محمد العمري، ضمن كتاب الرياض في نظرية الأدب، ص٨٦، والنص والسياق، ص٢٧٦.
(2) مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص١٣٣.
(3) مفدي زكريا، المصدر نفسه، ص١٣٩.

وقيمتها. غير أنّ هذا التحليل يقتضي الكشف عن هذا التعالق الذي يكون بين هذه الأفعال.

٨. يقوم النص على (أفعال كلامية مركبة)، و(أفعال كلامية جزئية بسيطة)؛ فـ(الأفعال الكلامية المركبة) ما تركّبت وتوالت فيها مجموعة من الأفعال البسيطة، ذات القصد الكلي الواحد؛ والفعل الإنجازي البسيط هو ما أنتج وحقق أثرا واحدا لحال إنجاز واحدة[1]. ونتائج الأفعال البسيطة ههنا تدخل تحت مجال قصد كلي واحد مما يحققه حصول الفعل المركب في شموليته؛ فـ(بناء منزل ما هو فعل مركب: إذ يتكون من جملة أفعال، كل واحد منها يمكن أن ينجز بنجاح، أو قد يفشل، إلا أنها أفعال مقصود بها كل جزء من أجزاء تحقق الخطة أو التصميم؛ فالفعل المركب يكون ناجحا إذا تحقق تصميمه)[2]. معنى هذا أنّ بناء الفعل المركب مرهون بالتخطيط العام الذي ينبني عليه، مما يستدعي تصميما ما وفق علاقات مضبوطة، يضمن إنجازيته المقصودة. لتبقى غاية التحليل هي تركيب أفعال الكلام مع الكشف عن الفعل الإنجازي المشترك. وقد لاحظ (فان دايك) التعقيدات التي قد تظهر في ذلك[3].

٩. ومن المفيد ههنا إدخال (الأفعال الكلامية الإضافية المساعدة) في تنامي القوة الإنجازية الكبرى التي يقوم عليها النص: و(الفعل المساعد هو كل فعل تفهم نتيجته كشرط كافٍ لنجاح فعل رئيسي (أصلي). وكل فعل مركب مما تكون بعض أجزائه أفعالا مساعدة يسمى بالفعل المعقد. وأجزاء الأفعال المتعلقة بالأفعال المركبة يجوز أيضا أن تكون شروطا لما يعقب من أفعال)[4].

وقد لاحظنا من خلال كل هذه المعطيات أنّ الهدف الذي يبتغيه (فان دايك) هو اقتراح كيفية معينة في الكشف عن بنية أفعال الكلام النصية، وهي قائمة في جوهرها على (التصنيف والتمييز) (الفعل الكلامي المركب، الفعل الكلامي المساعد) و(الاختزال والحذف): فالأفعال الكلامية التمهيدية والمساعدة يمكن أن تختزل، كما تحذف تلك الأفعال الجزئية المكونة التي إن أُخذت مجتمعة تعرف العنصر الجوهري مما تنتجه الأفعال الكلامية الشاملة، و(التعميم): أي نتيجة تأويل متواليات الأفعال.

(١) فان دايك، النص والسياق، ص٢٣٩.

(٢) علي أيت أوشان، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، ص٨٧.

(٣) فان دايك، النص والسياق، ص٢٦٢.

(٤) فان دايك، المصدر نفسه، ص٢٤٠.

الكلامية: أو الفعل المشترك الإنجازي بوجه عام[١]. وكل ذلك من أجل تحديد الفعل الإنجازي الكلي الذي يقوم عليه الفعل الكلامي النصي المحدد، ولذلك اقترح هذه الطروحات من أجل تحقيق ذلك. ولكن رغم ذلك أحس بالصعوبة التي تكتنف هذا الأمر، ولذا صرح وقال: (إن التأويل التداولي الإجمالي لنص ما: أي تحديد الأفعال الكبرى اعتمادا على متتاليات من الأفعال اللغوية مهمٌ في الإعداد المعرفي (البرمجة) لمتتاليات أفعال اللغة وتنفيذها وتوجيهها وتأويلها... ليس لدي لحد الآن أكثرُ من استراتيجية إجمالية)[٢].

ونعتقد أنّه ليس من السهل الوقوف على الفعل الإنجازي الكلي الذي قد يقوم عليه الخطاب المعين، ومن المؤكد -في الوقت نفسه- أنّ الأخذ بالطروحات التي قدّمها (فان دايك) بعين الاعتبار سيسهم في الكشف عن ذلك.

٤. تحليل قصيدة (وَتَعَطَّلَتْ لُغَةُ الكَلَامِ)

نحاول في هذا العنصر تحليل قصيدة (وَتَعَطَّلَتْ لُغَـةُ الكَلَامِ) لمفدي زكريا بغية الكشف عن فعالية التصور السابق حول (الفعل الكلامي النصي)، وسنكشف أولا عن الفعل الإنجازي المهيمن فيها، ثم نضبط علاقاته مع بقية الأفعال الإنجازية الأخرى التي تخدمه، ونبيّن عن الأفعال الكلامية المساعدة، ونحدّد أيضا (دور الروابط التداوليّة) في تحقيق (الاتساق) في بنية القصيدة، ثم نضبط السياق التداولي للقصيدة.

وبداية نعرّف بالمناسبة التي أُنتجت فيها هذه القصيدة، فقد نظمها الشاعر بسجن (بربروس) في فبراير (شباط) ١٩٥٧م إثر خذلان المنظمة العربية للقضية الجزائرية في دورتها الثالثة عشرة، فساق هذا الخطاب ليؤكد فيه أنّ الحرية تؤخذ ممن أصابه الوفر بغير لغة الكلام: إنّها لغة الجهاد.

ومن الضروري أن نذكر عناصر السياق التواصلي ككل؛ لأنّها تسهم في ضبط وظيفة النص: فالمتكلم هو الشاعر (مفدي زكريا)، والذي تكلّم في بعض الأحيان على لسان الشعب الجزائري الغيور على وطنه. أما المتلقي فهو فرنسا وحلفائها في هيئة الأمم ككل، أما المناسبة فهي الرد على قرارات المنظمة الدولية التي خذلت القضية الجزائرية. ونلاحظ أنّ كلّ هذه المعطيات تساعد على تلقي النص وتحليله.

---

(١) فان دايك، المصدر نفسه، ص٣١٧-٣١٨.

(٢) فان دايك، النص بنياته ووظائفه مدخل أولي إلى علم النص، ترجمة د.محمد العمري ضمن كتاب نظرية الأدب في القرن العشرين، ص٦٨.

أ- الفعل الإنجازي الكلي للقصيدة:

تقوم مجمل الأفعال الكلامية في قصيدة مفدي زكريا على قوة إنجازية كلية؛ وهي التأكيد للاستعمار ومنه لمنظمة الأمم المتحدة أنه بعدما أن خيبت آمال الشعب الجزائري المناضل والمكافح لا مجال للكلام أو التفاوض، ولتحل محل ذلك لغة الرشاش. وقد عكست ذلك القصيدة؛ إذ هناك علاقة وطيدة بين البنية الخطية المستقيمة والبنية المتوالية للنص وبين البنية الخطية للسياق نعني بين متواليات الجمل ومتواليات إنجاز الفعل الكلامي. ولذلك كان الفعل الكلامي النصي المسيطر هو (الفعل التقريري)؛ ويتضح ذلك ابتداءً العتبة الأولى؛ إذ كان العنوان: (وتعطلت لغة الكلام). ونوضح ذلك أكثر من خلال الأفعال الكلامية التقريرية التي ساقها الشاعر في بداية القصيدة وهي قوله[1]:

نَطَقَ الرَّصَاصُ فَمَا يُبَاحُ كَلَامُ   وَجَرَى القِصَاصُ فَمَا يُتَاحُ مَلَامُ
وقضى الزَّمان فلا مردٌّ لحكمه   وجرى القضاءُ وتمت الأحكامُ
السيفُ أصدقُ لهجةً من أحرُفٍ   كُتبت فكان بيانُها الإبهامُ
والنارُ أصدَقُ حُجَّةٍ فاكْتُبْ بِهَا   ما شئتَ تُصْعَقْ عِنْدَهَا الأحلامُ
لغة القنابل في البيان فصيحة   وُضِعت لمن في مسمعيْه صَمَمُ
ولوافح النيران خير لوائح   رُفِعت لمن في ناظريْه زُكامُ
وروائح البارود مسك توافح   سُجرت لمن في منخرَيْه زُكامُ
والحق والرشاشُ إن نطقا معاً   عَنَتِ الوجوهُ وخَرَّتِ الأصنامُ
وبلادنا بيدِ (الكُلاصي) خلاصُها   هيهات يُجدي مجلسٌ وخصامُ

إلى نهايتها في قوله:

فَعَلَيْكِ يَا أرْضَ الكِرَامِ تَحِيَّةٌ   وَعَلَيْكِ يَا أُمَّ السَّلَامِ سَلَامُ

وهي كلها أفعال كلامية (تقريرية) وردت في انساق خطابي تراتبي يخدم تنامي القوة الإنجازية الكلية التي يريد أن يثبتها الشاعر: وهي التأكيد على فعل الجهاد.

ولخدمة هذه القوة الإنجازية الكلية ساق مجموعة من (الأفعال الكلامية المساعدة) على تحقيق القوة الإنجازية الشاملة للقصيدة؛ منها توظيف (الالتزامي) في قوله[2]:

لا النارُ، لا التقتيلُ يَثْنِي عَزمهُ   لا السجنُ، لا التنكيلُ، لا الإعدامُ
لا الذارياتُ، الساحقاتُ، هواطلاً   لا الشامخاتُ تدكُّها الألغامُ

---

(١) مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص٤٢-٥٢.

(٢) مفدي زكريا، المصدر نفسه، ص٤٥.

لا القاصـــراتُ، الـــغافلاتُ كَـــوَاعبا   ديســـتْ قَداسَــتُها، وَفُـــضَّ ختــامُ
لا الـــحاملاتُ، بُطونُهـــا مـــبقورةٌ   ذُبِـــحَتْ أجنَّتُهـــا وفُـــكَّ حِـــزَامُ
لا، والمـــراضِعُ عُوِّضَـــتْ أثـــداؤُهَا   بـــفمِ المســـدس، والرَّصَـــاصُ فِطـــامُ

وهي كلّها أفعال إنجازية مساعدة تخدم وتؤكد دائما الفعل الإنجازي الشامل الذي تقوم عليه القصيدة. غذّاها أكثر تكرار النفي الذي أعطى شحنة إضافية لتداعيات القوة الإنجازية الكلية: فالشاعر يأخذ على لسان الشعب الجزائري عهدا بأنّه ليس هناك أي قوة ستثنيه عن غايته: وهي تحقيق الاستقلال. وكل ذلك قد يحدث أثرا كبيرا في المتلقي مما يجبره أكثر على الإذعان والاقتناع بمطالب هذا الشعب المشروعة.

وقد استعمل شاعر الثورة (التوجيهيات) أيضا. خاطب فيها (جبهة التحرير) من أجل حمل الثوار على المواصلة في الكفاح من أجل الشهادة أو نيل الاستقلال. وذلك في قوله:

يـــا جَبْهَـــةَ التَّحْرِيـــرِ أنْـــتِ رَجَاؤُنـــا   وَعَلَـــى يَـــدَيْكِ إلَـــى المصِـــيرِ زِمَـــامُ
شُـــقِّي طَرِيـــقَ الخَالِـــدينَ وَسَـــطِّرِي   بِـــدَمِ الشَّـــهَادَةِ فَالـــدِّمَاءُ قِـــوَامُ
وَاسْـــتَنْطِقِي الأَجْـــدَاثَ عَـــنْ أجْـــدَادِنَا   تَشْـــهَدْ لَنَـــا فِـــي الخالِـــدينَ عِظَـــامُ
وَاسْـــتَجْوِبِي الأفـــلاَكَ عَـــن أمْجَادِنَـــا   تَـــدْحَضْ كِـــذَاباً يَدَّعيـــهِ طَغَـــامُ

ففي هذا المقطوعة أنماط تعبيرية واحدة، يمثّلها الأمر في (شُقّي)، و(وَاسْتَنْطِقِي)، و(وَاسْتَجْوِبِي)، ولكنّها سيقت في تفاعل تواصلي ذي غرض إنجازي محدّد: من الـ(أنا) المخاطِبة: وتمثّل الذات الجزائرية الحاملة لرجائها، إلى الـ(أنتم) المخاطَبين، وهم مجاهدو الوطن والحاملون لواء الثورة من أجل تجسيد لغة الكفاح ميدانيا، وبالتالي تحقيق النصر.

وقد قام الفعل الكلامي النصي للقصيدة على سمات خاصة أفصحت عنها أشكال الترابط والاتساق وتوزيع أصناف الأفعال الإنجازية وتواليها، ندرك ذلك من خلال التراتبية التي انبنت مجمل الأفعال الكلامية، والتي ظلّت مرتبطة بمقتضيات الفعل الإنجازي الكلّي: فالشاعر منذ البداية ساق مجموعة من (الأفعال الكلامية التقريرية) التي تثبت أنّه قد نطق الرصاص فلا رادّ له بعدما أن فشلت لغة الأقلام: فلا التقتيل ولا التعذيب ولا التنكيل سيثني عزيمة الشعب الجزائري عن هدفه. ثم أورد أفعالا كلامية أخرى (توجيهية) دعا فيها جبهة التحرير إلى مواصلة الكفاح فهي أمل الوطن من البيت السادس والأربعين إلى البيت التاسع والأربعين). ثم قدّم (أفعالا كلامية تقريرية) أكّد فيها للمستعمر وذكّرهم بأنّه قد انقضى وقت السّلب والنهب، وحلّ وقت التكفل بعقد الجهاد لا يعقد الندوات (من البيت الخمسين إلى البيت السابع

والستين). ثم ساق أفعالا كلامية تقريرية أخرى أكد فيها الشاعر على مدى الترابط مع الأمة العربية من جهة، وسمو الرسالة التي يحملها شهداء الثورة فكان لسان حالها: فحيا أرض الجزائر وودّع أمم السلام!! (من البيت الثامن والستين إلى البيت الأخير).

وهذه التراتبية التي قامت عليها الأفعال الكلامية تخدم القوة الإنجازية الشاملة للقصيدة؛ إذ جعلت كل صنف من أصناف الأفعال التي ذكرناها تسهم في الغرض الكلّي الذي تقوم عليه (التقريريات)؛ و(هو حيازة المتكلّم على شواهد أو أسس أو مبرِّرات ترجّح أو تؤيّد صدق المحتوى القضوي والحالة النفسية التي تعبر عنها التقريريات هي الاعتقاد)[1]. فالشاعر من بداية القصيدة يريد أن يقدّم من الشواهد والمبرّرات ما يثبت للمستعمر أنّه لا ثقة في لغة الكلام؛ بل اللغة الأفصح والأبلغ هي لغة الكفاح. وعلى هذا الأساس ظلّ يشرح ويوضّح الحالة النفسية له، ومنه لكلّ الثوار الذين يشاركونه في الشعور نفسه بتوظيف أفعال كلامية مساعدة، تخدم هذه الوظيفة وتدعمها.

ومما دعم ذلك استعماله في بعض الأحيان الأفعال الكلامية القائمة على السخرية، ومن ذلك قوله[2]:

كـــاللص يســـترقُ المتـــاعَ وَيـــدَّعي ... ملكـــاً أيَســـمَعُ لِلصُـــوصِ كـــلامُ
لا تَعْجَبُـوا فَـالقَوْمُ ضَـاعَ صَـوابُهُمْ ... يَـا نَـاسُ لـيس علـى المـريض مَـلامُ
إنْ أتخمَـتْكُمْ فِـي القَـديمِ خُبُوبُنَـا ... وَبَطِـرتُمْ.. فعلـى الحبـوبِ سـلامُ
أوْ أسْـكَرَتْكُمْ بالمُـدَامِ كُرُومُنَـا ... لَـمْ يَبْـقَ فـي قَـدَحِ الكُـرومِ مُـدامُ
أو أبْشَـمَتْكُمْ فـي البُطُونِ زُيُوتُنَـا ... لَـمْ يَبْـقَ فيهـا للـدخيلِ إدامُ
فكمـا نـزلتم راحلـونَ.. هكـذَا ... حـقُّ الـزوال إذَا يُقَـالُ تَـمامُ

وهي كلها أفعال تناسب القوة الإنجازية الكلية؛ إذ يريد الشاعر بلهجة ساخرة أن يثبت أنّه لم يبقَ للاستعمار مقام، فالشطر الثاني من البيت الأول ظاهره استفهام ولكنّ غرضه تأكيد الدعوى التي يريد أن يثبتها شاعر الثورة؛ وهو أنّه لا ثقة ولا تحكّم ولا كلام مع الاستعمار. والأمر نفسه في بقية أبيات المقطوعة فظاهرها إخبار؛ ولكنّ غرضها الإنجازي هو الإثبات بلهجة ساخرة أنّ وقت الرحيل قد حان.

ولتدعيم الفعل الكلامي النصي أيضا وتأكيده استعمل الشاعر صور المجاز المختلفة في الأفعال الكلامية (أفعال كلامية غير مباشرة)، مما يفتح مجالا جديدا

(١) طالب سيد هاشم الطبطبائي، نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، الكويت مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٩٤، ص٢٨.

(٢) مفدي زكريا، اللهب المقدس، ٤٨-٤٩.

لحركة التفرير التي أرادها الشاعر، ولكنّه ظلّ يقدّم أنماطه وفق المبتغيات المقصدية التي بقيّت تحرّكه؛ وهو يمثّل في جوهره (عاملا فعالا في تعويض الواقع الفعلي من الخطاب الشعري، بحكم عدم أهلية اللغة في عمومها لنقل تفاصيل التجربة في الواقع الحقيقي الذي أفرزها)(١).

ولنوضّح ذلك نمثّل بالاستعارات التي تكرّرت تقريبا في كل بيت من أبيات القصيدة؛ قد نستأنس بقول شاعر الثورة (نطق الرصاص) و(قضى الزمان) و(قالت الأيام) و(لغة القنابل في البيان فصيحة) و(خرت الأصنام)، والتشبيهات المتكررة أيضا من مثل (وروائح البارود مسك) و(وكاللص يسترق المتاع)، وغير ذلك من الأفعال التقريرية غير المباشرة، التي تعطي لهذه القصيدة بعدا تأثيريا أبلغ من التقرير المباشر.

ب. السياق التداولي للفعل الكلامي النصي:

ونقصد بالسياق التداولي ما قضى به(فان دايك) باعتبار أنّ ضبط وظيفة (الفعل الكلامي النصي) لا تقتضي التوقف عند بنيته فحسب؛ بل لابد من توسيع هذه الدراسة لتشمل السياق الذي يتعالق به. ويضم مجمل المعطيات الاجتماعية والدينية والتاريخية والنفسية التي أسهمت في تنامي إنجازية الفعل الكلامي الكلي الذي قامت عليه القصيدة، والتي أسهمت في إنتاج الفعل القولي من جهة، وفي تحقيق قواه الإنجازية من جهة أخرى. ومن بينها المعرفة والرغبات أو الإرادة والعلاقات الاجتماعية والقيود المؤسساتية(٢). وقد تبلورت أكثر في تعابير كثيرة ومتنوّعة تعكس غنى تجربة الشاعر واتّساعها.

وفي هذا الإطار يذكر (أوستين) أنّنا (نستعمل الكثرة من التعابير التي يضعها غنى لغتنا بتصرفنا من أجل توجيه الانتباه إلى كثرة وغنى تجاربنا. فاللغة تستعمل هنا كلسان حال من أجل ملاحظة الوقائع الحية التي تؤلف تجربتنا)(٣). ونبرز قيمة ذلك بالتركيز على ما يلي:

السياق الاجتماعي:

يسهم السياق الاجتماعي في تحديد الخصوصيات التي يمكن أن تطبع الخطاب

(١) د. نواري سعودي أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي المبادئ والإجراء، الجزائر بيت الحكمة، ط١/٢٠٠٩م، ص٨١.

(٢) فان دايك، النص بنياته ووظائفه مدخل أولي إلى علم النص، ضمن كتاب نظرية الأدب في القرن العشرين، لمحمد العمري، ص٦٧.

(٣) عندما يكون الكلام هو الفعل، جيل يلان، ترجمة جورج كتورة، مجلة العرب والفكر العالمي، لبنان مركز الإنماء القومي، العدد الخامس ١٩٨٩، ص٣٧.

الأدبي، فالقصيدة لمفدي زكريا موجهة في أساسها إلى فرنسا، ومنه إلى منظمة الأمم من أجل التأكيد أنّ الشعب الجزائري بعد خذلانه قد تعطّلت معه لغة الكلام. كما أنها موجهة إلى ثوار الجزائر من أجل استنهاض هممهم وشدّ عزيمتهم على المقاومة أكثر، وعليه فقد طُبعت بخصوصيات اجتماعية مخصوصة قوامُها الاحترام والوقار للشهداء والثوار من جهة، والاحتقار الازدراء للأعمال الإجرامية التي قامت بها فرنسا من جهة أخرى.

ولتحقيق القوة الإنجازية التي قام عليها (الفعل الكلامي النصي) ظلّ الشاعر يستمد من طبيعة المجتمع الجزائري بعض الاستعمالات التي تسهم في بلورة هذا الفعل، ومن ذلك عبارات (مَفْصُوصُ الجَنَاحْ) و(خَرْبُ الخَلاَصْ) و(نَمَامْ)، و(حَوْلَهُ الفُضِيحَهْ) و(الدْخِيلْ) و(إدَامْ)؛ وهي ألفاظ وتعابير مستقاة من البيئة اللغوية الجزائرية، وهي في هذا الموقف أبلغ وأفصح وأوقع من غيرها؛ لأنها أقرب إلى الأسماع، وأسهل في الأفهام.

السياق الديني

وظّف الشاعر معطيات هذا السياق في بلورة الوظيفة الكلية التي ابتغاها من إنجازية النص؛ قد نسجها ببعض المفردات والتعابير القرآنية التي وظّفها مفدي زكريا، والتي صبغت القصيدة بصبغة خاصة، ومن ذلك (القصاص، يوم النشور، جفت الأقلام، عنت الوجود، والأصنام، والزرع أخرج شطأه، قربانها، الذاريات، الأنصاب والأزلام، الأجداث، يسترق، أسرى)؛ وهي اقتباسات أعطت للفعل الكلامي النصي قوة وشرعية من نوع خاص لدى المتلقي، ومن ذلك قوله[1]:

والحـــقُّ والرشّـــاشُ إنْ نطقَـــا مَعـــاً   عَنَـــتِ الوُجُـــوهُ وخـــرّتِ الأصْـــنَامُ

فهو اقتباس من قوله تعالى: (وَعَنَتْ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا)[2]؛ و(الغرض الإنجازي) -كما يسميه (سيرل)- من ذلك هو بيان الأثر الكبير الذي قد تحققه لغة الرشاش وبالخصوص حينما تقوم على حقّ. ومنه كذلك قوله[3]:

وَالــزَّرْعُ أَخْــرَجَ فــي الجَزَائِــرِ شَــطْأَهُ   فَمَضَــى وَهَــبَّ إلــى الحَصَــادِ كِــرَامُ

وهو اقتباس من قوله جل جلاله: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي

---

(١) مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص٤٤.

(٢) طه:١١١.

(٣) مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص٤٤.

وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)[1]، يريد الشاعر أن يفخر بالرجال الذين أنتجتهم الجزائر؛ فهم أكثر شدّة وقوة وعظمة، ومثل الصحابة (رضوان الله عليهم) أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم).

السيـاق النفسي

ويتعلّق بمختلف التعابير والألفاظ التي يوظّفها كمؤشّرات تقوم بوظيفة وصف النفس الشاعرة، ولخدمة الفعل الكلامي النصي وظّف الشاعر مجموعة من الأقوال التي تؤكد ردة الفعل القوية التي نتجت عن خذلان منظمة الأمم المتحدة للقضية الجزائرية، إذ أضحى الثوار الجزائريون، ومنهم الشاعر، كلّهم عزما وثقة وصلابة وإرادة بأنّه لا جدوى من الكلام؛ بل كما يقول[2]:

إنَّ الصَّحَائِفَ للصَّفَائِحِ أَمْرُهَا ... والحِبْرُ حَرْبٌ والكَلَامُ كِلَامُ

عَزُّ المكاتبِ في الحياةِ كتائبُ ... زحفتْ كأنَّ جنودَهَا الأعلامُ

لُغَةُ القنابلِ في البَيَانِ فصيحةٌ ... وُضِعَتْ لِمَنْ فِي مِسْمَعَيْهِ صُمَامُ

وفي بعض الأحيان نلمس ذلك الشعور بالتعجب والحسرة من هذا المستعمر الذي تكالب عن الجزائر يقول[3]:

مَا لِلْجَزَائِرِ تَرْجُفُ الدُّنْيَا لَهَا؟ ... وَالْكَوْنُ يُقْعِدُ حَوْلَهَا وَيَقَامُ؟

مَا للقِيَامَةِ فِي الجَزَائِرِ أزعجتْ؟ ... فَغَدًا لَهَا في الخافقين غمامُ؟

وتخدم الأغراض الإنجازية ههنا القوة الإنجازية الكبرى التي تقوم عليها القصيدة.

مما سبق يتراءى لنا من خلال المطارحة العلمية التي عقدنها حول الفعل الكلامي النصي أنّه في جوهره نظرة تطورية في التحليل وبيان طبيعة الفعل الإنجازي من الفعل الكلامي الجزئي إلى الفعل الكلامي الكلي، والذي قد يشمل النص أو الخطاب ككل. واتضح لنا أنه لا يمكن تحديد قوته الإنجازية من خلال النظرة التجزيئية التي تبقى في حدود إنجازية الأفعال الكلامية الجزئية؛ بل تتعدى ذلك لترتبط بالنص برمته.

كما اتضح لنا أنّ تحديد (إنجازية النص) لا تقف عند معالم الضوابط التركيبية والدلالية؛ بل تتسع لتشمل معطيات أخرى (تداولية) تخلق حوارية بين النص وعالمه المنتج فيه، والذي ينبني به في ذاته، باعتبار أنّ هذا التحليل يتجاوز الوصف الشكلي

---

(١) الفتح: ٢٩.

(٢) مفدي زكريا، اللهب المقدس، ٤٣-٤٤.

(٣) مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص٤٤.

القائم على التجزئة من غير ربط كل ذلك بالإنجازية الكلية للقصيدة، ومن غير استحضار للمعطيات السياقية المتنوعة التي لها دور كبير في ضبط مقاصد المتكلم وغايات النص المنجز.

ثم إن أي نص لا بد أن يقوم على فعل كلامي شامل تدعمه أفعال مساعدة على تحقيق قوته الإنجازية المنوطة به، وهذا ما لاحظناه على قصيدة مفدي زكريا (وتعطلت لغة الكلام)، والتي أراد من خلالها أن يثبت أنّ القول أضحى غير مجدٍ، لذلك ساق لخدمة الفعل الكلامي المسيطر مجموعة من الأفعال الكلامية المساعدة على تأكيد القوة الإنجازية المقصودة وهي أخذ الحرية بالقوة.

وقد لاحظنا أيضا أنّ ديناميمة الفعل الكلامي النصي لا ترتبط بالنص كمتواليات لغوية فحسب؛ بل تشكل المعطيات السياقية المتنوعة التي ينبني بها أهم مشكِّلات القوة الإنجازية فيه.

- **المصادر والمراجع**

- أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة عبد القادر قينيني، المغرب أفريقيا الشرق، ط٢/٢٠٠٨.
- إدريس مرحان، الأمر والنهي في نظرية الأفعال الكلامية، أطروحة لنيل الدراسات العليا إشراف د.عبد الوهاب التازي، المغرب جامعة فاس، ١٩٨٨.
- جون ليونز، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب، العراق دار الشؤون الثقافية العامة للطباعة والنشر، ط١/١٩٨٧.
- زتسيسلاف واورزنياك، مدخل إلى علم لغة النص مشكلات بناء النص، ترجمة سعيد حسن بحيري، القاهرة مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط١/٢٠٠٣.
- صلاح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند فلاسفة أوكسفورد، بيروت دار التنوير للطباعة والنشر، ط١/١٩٩٣.
- صابر حباشة، التّداوليّة والحجاج مداخل ونصوص، دمشق صفحات للدراسات والنشر، ط١/٢٠٠٨.
- طالب سيد هاشم الطبطبائي، نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، الكويت مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٩٤.
- علي آيت أوشان، السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة، الدار البيضاء دار الثقافة (د.ت).
- فان ديك، النص بنياته ووظائفه مدخل أولي إلى علم النص، ضمن كتاب نظرية الأدب في القرن العشرين، ترجمة وإعداد د.محمد العمري، الدار البيضاء أفريقيا الشرق، ٢٠٠٥.
- فان دايك، النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة عبد القادر قنيني، الدار البيضاء أفريقيا الشرق، ٢٠٠٠.
- فان دايك، النص بنياته ووظائفه مدخل أولي إلى علم النص، ترجمة محمد العمري، ضمن كتاب الرياض في نظرية الأدب مقالات ودراسات، يصدر عن مؤسسة اليمامة الصحفية.
- فان دايك، علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة وتعليق د.سعيد حسن بحيري، القاهرة دار القاهرة، ط٢/٢٠٠٥.
- فرانسواز أرمينكو، المقاربة التّداوليّة، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي (د.ت).

- لودفيك فتغنشتاين، تحقيقات فلسفية، ترجمة وتقديم وتعليق د.عبد الرزاق بنور، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ط١/٢٠٠٧.
- دومينيك مانغانو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة د.محمد يحياتن، الجزائر منشورات الاختلاف، ط١/٢٠٠٥.
- محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، القاهرة الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ط١/ ٢٠٠٥.
- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، الإسكندرية دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٢م.
- مسعود صحراوي، الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي، رسالة دكتوراه، جامعة باتنة، إشراف الدكتور عبد الله العشي، جامعة باتنة ٢٠٠٣.
- مفدي زكريا، اللهب المقدس، الجزائر موفم للنشر والتوزيع، ط٤/٢٠٠٠م.
- منذر عياشي، العلاماتية وعلم النص، المغرب المركز الثقافي العربي، ط١/٢٠٠٤.
- نواري سعودي أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي المبادئ والإجراء، الجزائر بيت الحكمة، ط١/٢٠٠٩م.

- **المصادر والمراجع الأجنبية:**

- *John Austin, Quand dire c'est faire, traduction Gilles Lane, Paris édition du seuil, 1970.*
- *Charaudeau et Maingueneau ,Dictionnaire d'analyse du discours, Paris édition du seul, 2002.*
- *John searle, Les actes de langage essai de philosophie, du langage, paris, hermann, 1972.*
- *Searle, Sens et expression études de théorie des actes de langage, Paris les éditions de minuit, 1982.*

- **المقالات في المجلات والأنترنيت**

- جيل بلان عندما يكون الكلام هو الفعل،، ترجمة جورج كتورة، مجلة العرب والفكر العالمي، لبنان مركز الإنماء القومي، العدد الخامس ١٩٨٩.
- فان ديك، النص بناه ووظائفه مقدمة أولية لعلم النص، ترجمة جورج أبي صالح مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، العدد الخامس ١٩٨٩.
- عبد السلام إسماعيلي علوي التلفظ والإنجا *www.fikrwanakd.aljabriabed.net/n58*

نطق الرّصاصُ فمَا يُبَاحُ كَلَامُ ... وجرى القصاصُ فما يُتاحُ ملامُ
وقضى الزمان فلا مردٌّ لحكمه ... وجرى القضاءُ وتمت الأحكام
وسعت فرنسا للقيامة وانطوى ... يوم النشور وجفّت الأقلام
والقابضون على البسيطة أفصحوا ... والكون باح وقالت الأيامُ!
ويعلم المستعمرونَ شعوبَها ... أنّ التحكم في الشعوب حرام!
فهم حرروا الميثاق، هلاّ حرروا ... أممًا تُسَامُ حقارة وتضامُ؟؟
ما إن تقامُ لما يُسطّرُ حرمةٌ ... أو يعضد القلمَ الرفيعَ حسام
السيفُ أصدقُ لهجةً من أحرُفٍ ... كُتبت فكان بيانَها الإبهامُ
والنارُ أصدقُ حُجّةٍ فاكْتُبْ بِهَا ... ما شئت تُصْعَقُ عِنْدَهَا الأحْلامُ
إنّ الصّحَائِفَ للصّفَائِحِ أمْرُهَا ... والحِبْرُ حَرْبٌ والكَلامُ كِلامُ
عِزُّ المكاتبِ في الحياةِ كتائِبُ ... زحفت كأنّ جنودَهَا الأعْلامُ
وعِزُّ المحافل في الزمان جحافلٌ ... رُفعت على وحداتها الأعلامُ
لغةُ القَنَابِلِ في البَيَانِ فصيحةٌ ... وُضِعَتْ لِمَنْ فِي مَسْمَعَيْهِ صُمَامُ
ونوافح النيران خير لوائح ... رُفِعَت لمن في ناظريه رُكام
ولوائح البارود مسك نَوافِحٍ ... سُجِرتْ لمن في مِنْخَرَيْهِ زُكَام
والحقُّ والرشّاشُ إنْ نَطَقَا مَعًا ... عَنَتِ الوُجُوهُ وخرّتِ الأصْنامُ!
مَا للجزائر تَرْجُفُ الدُّنْيَا لَهَا؟ ... والكَوْنُ يُقْعَدُ حَوْلَهَا وَيُقَامُ؟
مَا للقِيَامَةِ فِي الجَزَائِرِ أرْعَدَتْ؟ ... فغَدَا لَهَا فِي الخَافِقِينَ غَمامُ؟
لا تعجبوا فالدهر سجّل دورةً ... ما للخطوب على الشعوب دوامُ
الزّرْعُ أخْرَجَ في الجَزَائِرِ شَطْأَهُ ... فمَضَى وَقَبَّ إلى الحَصَادِ كِرَامُ
للشعب شقّ إلى الخلودِ طريقهُ ... فوق الجماجم والخميس لهامُ
ثارها حربا لأجل بقائه ... قربانها الأرواحُ والأنسامُ
النارُ، لا التقتيلُ يَثْنِي عَزمه ... لا السجنُ، لا التنكيلُ، لا الإعدامُ
الذارياتُ، الماحقاتُ، هواطلاً ... لا الشامخاتُ تدكُّها الألغامُ
القاصراتُ، الغافلاتُ كَوَاعبا ... ديست قَدَاسَتُهَا، وَفُضَّ ختامُ
الحاملاتُ، بُطونُها مبقورةٌ ... ذُبِحَتْ أجنّتُها وفُكَّ حِزامُ
والمراضعُ عُوِّضَتْ أثداؤُهَا ... بفم المسدس، والرّصاصُ فِطامُ

والأم يهتك عرضها وفحولها ... حول الفضيحة شاخصون قيام
يا للفضاعة من وحوش جوّع ... تسمو على أخلاقها الأنعا
وضعت فرنسا في النذالة بدعةً ... لم تروها الأعصار وهْيَ ظلا
يا لعنة الأجيال! أنت شهادة ... أنَّ التمدُّن للشرور لثا
والعدلُ زورٌ والسلامُ خرافةٌ ... لُغةٌ تحلُّلُ باسمها الآثا
فلتكتب الأقلام سفر هَنَاتِكُمْ ... للعالمينَ وتنطق الأفلا
ولتشهد الأكوانُ أقدسَ ثورةٍ ... للحقِّ حارتْ دونها الأفهامُ
يا ثورة التحرير أنت رسالةٌ ... أزليةٌ إعجازها الإلها
لك في الجزائر حرمة قدسية ... وبكل قلب في الوجوه هُيا
الشعبُ أنت ضميرُهُ وصوابهُ ... والجيشُ أنت دماغهُ العا
ليس الجهاد زعامةً وتنيئةً ... إنَّ الجهادَ شجاعة ونظا
ذاق الخناقُ على دعاة هزيمة ... زلَّت بهم في الثورة الأقا
وتناثرت تلك الهياكل وانطوت ... وتهاوت الأنصاب والأز
ولقد بهرْتِ العالمين وطأطأتْ ... يا ثورة التحرير دونك ها
وتقمصت فيك الجزائر وانبرى ... شيخٌ يحاربُ في الوغى وغُ
يحدوهم للنصر (مجلس ثورة) ... أركانه صهرتهم الآلا
وحباهم طولُ الجهادِ حصافةً ... وزكت بهم في المحنةِ الأعيا
وأنالهم صدقُ الضمير كرامةً ... وسما بهم في الطامحينَ مـ
يَا جَبْهَةَ التّحْرِيرِ أَنْتِ رَجَاؤُنَا ... وَعَلَى يَدَيْكِ إِلَى المَصِيرِ زِ
شُقِّي طَرِيقَ الخَالِدِينَ وَسَطِّري ... بِدَمِ الشَّهَادَةِ فَالدِّمَاءُ
وَاسْتَنْطِقِي الأَحْدَاثَ عَنْ أَجْدَادِنَا ... تَشْهَدُ لَنَا فِي الخَالِدِينَ عِظَ
وَاسْتَجْوِبِي الأَفْلاَكَ عَنْ أَمْجَادِنَا ... تَدْحَضْ كِذَاباً تَدَّعِيهِ طُغَ
زعمت فرنسا في المحافل ضِلَّةً ... مُلْكَ الجزائر.. والجنون غـ
كَاللص يسترقُ المتاعَ وَيَدَّعِي ... مِلكاً أَيَسْمَعُ لِلُّصُوصِ كـ
لاَ تَعْجَبُوا فَالقَوْمُ ضَاعَ صَوَابُهُمْ ... يَا نَاسُ ليس على المريض
من يسرق الأحْرَارَ في كبدِ السما ... يسرق شعوباً واللصوصُ
يا معشرَ المستعمرين تربّصوا ... ودعوا المطامعَ فالسحابُ جَ
إنْ أَتْخَمَتْكُمْ فِي القَدِيمِ حُبُوبُنَا ... وَبَطِرْتُمْ.. فعلى الحبوبِ

أوْ أسْكَرتكُمْ بالمُدَامِ كُرُومُنَا ... لَمْ يَبْقَ في هَذِي الكُرومِ مُدامُ
أوْ أبْشَمَتْكُمْ في البُطُونِ زُيُوتُنَا ... لَمْ يَبْقَ فيها للدخيل إدامُ!!
فكما نزلتم راحلونَ.. هكذا ... حقُّ الزوال إذا يُقالُ تمَامُ!
فلتعلم الأقطابُ أنّا للفدا ... ثُرنا وأنَّ الانعتاقَ لِزامُ
السِّمطُ في أرضِ الجزائر خالصٌ ... والسقطُ في أرض الجزائر خامُ!
إن تنكر الحقُّ الصراح سياسةٌ ... فيها توزع في الخفاءِ سهامُ!
فلنا على عبث السياسة ثورةٌ ... ولنا لردِّ الطامعينَ سهامُ!
صحراؤنا فوّارةٌ بنضَارِنا ... فيها منازلُ عندنا وخيامُ
أرزاقنَا وقفٌ على أبنائنا ... لم يعطِها لسواهم القسّامُ
وحقوقنا اعترفوا بها أنكروا ... فطريقنا لبلوغها إرغامُ
وبلادُنا بيَدِ الكُلاَصي خلاَصُهَا ... فَبَهاتَ يُجْدِي مَجْلِسٌ وَخِصَامُ
وجهادُنا ما كانَ قطُّ لندوةٍ ... بصوابها تتحكم الأرقامُ
يا أمَّةَ العَرَبِ الكِرَامِ كَرَامةٌ ... لَكِ فِي الجَزَائِرِ حُرْمَةٌ وذِمَامُ
في كل أرضٍ للعروبةِ عندنا ... رحِمٌ نشابكُ عندها الأرحامُ
إنْ صَاحَ في أرضِ الجزائرِ صائحٌ ... لَبّتهُ مِصْرُ وأدركته شامُ
في المغرب العربي عرقٌ نابضٌ ... يذكيه في حرب الخلاص ضرامُ
عزُّ العروبةِ في حمَى استقلالنا ... أيَطيرُ مقصُوصَ الجناحِ حمَامُ؟
الذي تحيَّةُ شاعرٍ يسمو به ... في دولةِ الأدبِ الرفيعِ نظامُ
رسالةٌ صاغَ الشهيدُ بيَانَهَا ... وزكَا بِهَا في الخالدين عصَامُ
سرى بها من بَرْبَرُوس خَيَالُه ... وَقَفَتْ بِهِ لِحِمَاكُمُ الأحلامُ
س بها في الليلِ يعزفُ لحنَهَا ... وَقْعُ السلاسِلِ والرفاقُ نيامُ
القلبُ بالأنّاتِ يقطعُ بحرَهَا ... دِقَّاتُهُ الأوزانُ والأنغامُ
عليكِ يا أرضَ الكِرَامِ تَحِيَّةٌ ... وَعَلَيْكِ يَا أُمَّ السَّلاَمِ سَلاَمُ

اللهب المقدس، ص٥٢-٤٢.

الأبعاد التّداوليّة عند الخطيب القزويني

التقديم والتأخير في كتاب الإيضاح نموذجاً*

أ. م. د. هنــاء محمــود شهــاب**

❖ مدخــل

❖ البلاغة والتّداوليّة

تنــاول البــاحثون حــديثاً العلاقــة بـين البلاغــة والاتصــال منطلقـين مـن ان البلاغــة إبلاغ، بحسب المعنى اللغوي للفظ، الذي هو فرع على معنى الإبلاغ أو التّواصل الذي هـو موضـوع مـن موضـوعات علـم الاتصــال، فصــارت البلاغــة شـعبة خاصـة بفـن التّواصل[1].

ان عمليـة التّواصـل (بين المُرسـل والمُتلقي التي حرصـت البلاغـة على إبرازهـا قـد وجـدت طريقهـا إلى نظريـة الاتصــال، ومـن ثـم إلى التّداوليّة التي عنيـت بالسـياقات المختلفة، وأطراف الموقف التّواصلي عناية كبيرة)[2].

ويلاحظ ان طرفي الاتصال -المتكلم والمخاطَب- أكثر عناصر المقام تحكماً وحضوراً، فالمبدع كونه مصدر التّراكيب، والمُتلقي من خلال قيامه بعملية الفهم والمعرفة. وتأتي بين هذين الطّرفين الرّسالة بشقيها الإبداعي والإخباري فضلاً عن الحال التي يكون عليها المُتكلم والمُخاطب في أثناء أداء الخطاب.

وكان للبلاغيين والنُّقاد العرب اهتمـام خـاص بطرفي العمليـة الابلاغيـة، بـل ان اهتمامهم بالمخاطب يكاد يُغطي على أي اهتمام بجانب المُتكلم، إذْ إن البلاغة مراعاة مقتضى الحال، والحال عندهم هي حال المخاطب لا المتكلم، لأنه ليس من المتصور عقلاً ودينا ان يتناول هؤلاء المنظرون القرآن من جهة مصدره، لذا اتجهت مباحثهم إلى جهة المُتلقي ومحاولة ربط الأسلوب بظروفه الاجتماعية أو الثقافية أو الدينية[3] وتلك

---

* البحث مقبول للنشر في مجلة التربية والعلم لجامعة الموصل

** كلية التربية - جامعة الموصل

(1) نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية مشروع لربط البلاغة بالاتصال، د.خليفة بوحادي، جامعة سطيف، الجزائر، ندوة الدراسات البلاغية، الواقع والمأمول، ١٤٢٩هـ، ص ٧١٤؛ والمصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة، تمام حسان، مجلة فصول، مج٧، ع٣و٤، ابريل – سبتمبر، ١٩٨٧م: ٨٧.

(2) علم لغة النّص المفاهيم والاتجاهات، سعيد حسن بحيري:٢٣.

(3) البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب: ١٧٥.

هي سمة اللسانيات التُداوليَّة الحديثة (*Pragmatics*). إذ إن من أهم مجالاتها الاهتمام بالمُتلقي، والاعتداد بكل العناصر الفاعلة في الإبلاغ[١]. فالدَّرس التُداولي (يُعنى بأثر التفاعل التخاطبي في موقف الخطاب ويستتبع هذا التفاعل دراسة كل المعطيات اللغوية والخطابية المتعلقة بالتلفظ وبخاصة المضامين والمدلولات التي يولدها الاستعمال في السياق)[٢].

ان قنوات الالتقاء بين البلاغة والتُداوليَّة عميقة وذلك لأن كليهما (تعتمدان على اللغة كأداة لممارسة الفعل على المتلقي على أساس إنَّ النَّص اللغوي في جملته إنما هو (نص في موقف) فكل رسالة لها قصدها وموقفها وظروف تلقيها)[٣].

ويرى احد اصحاب النَّظرية ان (البلاغة تداولية في صميمها إذ إنها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محددة للتأثير على بعضهما)[٤].

فالتُّداوليَّة تقوم على الاهتمام بكشف الدوافع النفسية للمتكلمين وردود أفعال المتلقين، أي انها لا تدرس الكلام من حيث هو رسالة بين المتكلم والمتلقي فقط، بل تدرسه بوصفه نتاج ثقافة عصر معين يشتمل على سمات مميزة للشخص المرسل وسمات مميزة للشخص المتلقي وهو يخضع لزمن إنتاجه وزمن تلقيه كما يخضع لمكان إنتاجه وتلقيه أيضاً[٥].

ان مفهوم التُداوليَّة هذا يغطي بطريقة منهجية منظمة، المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة العربية بعبارة (مُقتضى الحال) وهي التي أنتجت المقولة الشهيرة لكل مقام مقال[٦].

(١) نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية مشروع الربط البلاغة بالاتصال: ٧٢٦.

(٢) البراغماتية وعلم التراكيب بالاستناد إلى أمثلة عربية، عثمان بن طالب، سلسلة اللسانيات، الجامعة التونسية، المطبعة العصرية، تونس، ١٩٨٦م: ١٢٥.

(٣) علم لغة النص: ٢٣-٢٤؛ بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل: ٩٨.

(٤) بلاغة الخطاب وعلم النص: ٩٧-٩٨، علم لغة النص: ٢٣.

(٥) البلاغة والنقد، المصطلح والنشأة والتجديد، محمد كريم الكواز: ٢٧٩.

(٦) بلاغة الخطاب وعلم النص: ٣٦.

❖ الأبعاد التّداوليّة عند الخطيب القزويني

من مظاهر العبقرية عند العلماء القدامى انهم لم يفهموا من اللغة انها منظومة من القواعد المجردة حسب، وإنما فهموا منها أيضاً انها لفظ معين يؤديه متكلم معين الى مخاطَب معين في مقام معين لأداء غرض تواصلي إبلاغي معين لذلك جعلوا من اهداف دراستهم البلاغية والنحوية إفادة المخاطب معنى الخطاب وإيصال رسالة إبلاغية إليه[1].

ان الدرس التّداولي في التُّراث اللغوي العربي كان مُتحركاً تحرك البحث النَّحوي البلاغي وارتبط بهما ارتباطاً وثيقاً وكان جزءاً لا يتجزأ من المنظومة الفكرية سواء في دراستها للغة ورصد خصائصها أم البحث في أسباب الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم وطريقة نظمه، ومن ثم ارتبطت التّداوليّة بالدرس النحوي والبلاغي في التراث العربي بداية من سيبويه ومروراً بعبد القاهر الجرجاني والسكاكي والاستراباذي والخطيب القزويني[2].

فكتاب الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ) الذي يعد خلاصة ما سبقه من البحث البلاغي، يحتوي على الكثير من القضايا التي تتعلق بما بشرت به التداوليّة الحديثة، اذ يلخص القزويني في بداية كتابه قول عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز معنوناً له بـ(تنبيه) مشيراً الى أهمية مشاركة الأطراف الأساسية للعملية التواصلية وهما المتكلم والسامع بقوله: (اعلم انه لا يصادف القول في هذا الباب موقعاً من السّامع، ولا يجد لديه قبولاً، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة، وحتى يكون ممن تحدّثه نفسه بأن لما تومئ اليه من الحُسن أصلاً، فيختلف الحال عليه عند تأمل الكلام، فيجد الأريحية تارة ويعرى منها تارة أخرى، واذا أعجبته تعجب، واذا نبهته لموضع المزية انتبه)[3].

فهذا التنبيه القزويني بالاهتمام بمنتجي الخطاب وبأثر التفاعل التخاطبي والمعرفة المشتركة بينهما أي الدلالة والفهم هي العناصر الأساسية في التحليل التداولي من اجل أن تتواصل عملية التبادل الفكري والشعوري بين قطبي الخطاب.

لذا حاول البحث استكشاف جهود القزويني ودراسته للتغييرات التي تجري في

التّداوليّة عند العلماء العرب، د. مسعود صحراوي: ١٧٤: التّداوليّة النشأة والمفهوم، مؤيد عبيد، مجلة الأقلام، ع ٥، ٢٠٠٨م: ٣٩.

لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، د. عبد الفتاح احمد يوسف: ٣٢.

الإيضاح: ٢٧.

العلاقات السياقية ضمن إجراء التغيير الرتبي الذي يطلق عليه بلاغياً بأسلوب التقديم والتأخير، وبيان الوظائف الدلالية التي تؤديها التغييرات الرتبية عن النمط المألوف ضمن المكونات النحوية في ضوء التّداوليّة، وذلك بعرض النصوص التي ذكرها القزويني وتعليقاته عليها وتحليلاته لها لاستخلاص قنوات التشابه والتلاقي بين دراسة القزويني البلاغية في القرن الثامن الهجري وبين الدراسة التّداوليّة المعاصرة.

❖ التقديم والتأخير

يعد التقديم والتّأخير مُتغيراً أسلوبياً في اللغة لأنّه انزياح سياقي لغرض يتطلبه المقام ليصبح معلماً متميزاً للشعرية[1] فهو (تبادل في المواقع، تترك الكلمة مكانها في المقدمة لتحل محلها كلمة أخرى لتؤدي غرضاً بلاغياً ما كانت لتؤديه لو انها بقيت في مكانها الذي حكمت به قاعدة الانضباط اللغوي)[2].

ان العلاقة السّياقية بين المُفردات الموسومة بالرتبة عند اللغويين المحدثين هي التي تعني ظاهرة التقديم والتأخير عند القدماء، وهذا التحويل في الرتبة أولاها المحدثون عناية كبيرة لما لها من الأثر البليغ في توجيه الناتج الدلالي للخطاب. يقول محمد عبد المطلب: (ان سياقات التقديم تدور على اعتبارات يعود بعضها إلى المبدع وحركته الذهنية ويعود بعضها إلى المتلقي واحتياجاته الدلالية ويخلص بعضها الثالث للصياغة ذاتها)[3]. وهذه العلاقة الايجابية القوية بين المتكلم والمتلقي تبرز المعطيات التّداوليّة في الدراسة الحديثة.

وقد ركز الخطيب القزويني على هذه المعطيات في حديثه عن التقديم على نية التأخير وأورد له أمثلة من النصوص الشعرية وحللها تحليلاً يقترب من الدّراسة التّداوليّة لأن التّداوليّة تحدد (مناسبة الجمل والخطاب للسياقات التّواصلية التي تنجز فيها)[4]. إذ ركز على مقصدية المتكلم (*speaker's intention*) وإيصال هذه المقصدية إلى المتلقي من خلال إجراء هذه التحولات الرتبية.

لقد نهج القزويني منهجاً متميزاً في تحليل الظواهر التركيبية كظاهرة التقديم والتأخير التي هي اغراض وغايات تواصلية يسعى المتكلم الى تحقيقها، وأما بلغة التداوليين المعاصرين فهي افعال كلامية يراد بها تخصيص الخطاب او الحرص على

(١) بنية اللغة الشعرية، جون كوهين، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري: ١٨.

(٢) بلاغة الكلمة والجملة والجمل، منير سلطان: ١٣٨.

(٣) البلاغة العربية قراءة أخرى، محمد عبد المطلب: ٢٣٨.

(٤) لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي: ٦٩.

(٣) التّداوليّة عند العلماء العرب: ٢١٩.

تضمينه فائدة تواصلية معينة او تأكيد الرسالة الإبلاغية للمخاطَب او تنبيهه او توبيخه وهذه الافعال الكلامية تؤدى عن طريق تركيب كالتقديم والتأخير مثلا الذي يعد ظاهرة أسلوبية[٣].

سنذكر طائفة من التراكيب العدولية (التحويلية) التي عرض لها القزويني، ونقف عندها من حيث هي ظواهر تداولية مختلفة تتحدد خصائصها التركيبية ونواتجها الدلالية على وفق المقامات المنجزة فيها، وسنقسم البحث على عنوانات جانبية تبين نمط المتقدم نحوياً وما أحدثه ذلك التقديم في سياقه من تغييرات إجرائية تبعاً للمدلولات والرسائل التي يريد المتكلم إيصالها للمتلقي كما يرى القزويني.

❖ سياقات تقديم المسند اليه على المسند

ذكر القزويني سبب تقديم المسند اليه على المسند في قوله (هو يعطي الجزيل) مشيراً إلى إجراء التحويل الرتبي بتقديم الضمير (هو) الذي يدل على الفاعل على الفعل (يعطي) ليناسب حال المخاطب ويقوي الحكم ويمكنه في ذهنه فيقول: (لا يفيد إلا تقوي الحكم وتقرره في ذهن السامع وتمكنه، كقولك (هو يعطي الجزيل) لا تريد أن غيره لا يعطي الجزيل، ولا أن يُعرِّض بإنسان، ولكن تريد أن تقرر في ذهن السامع وتحقق انه يفعل إعطاء الجزيل)[١].

ان تقديم المسند إليه (هو) يحمل وظيفة تداولية وهي (كشف الإرادة الاستعمالية للتركيب المنجز، وهذه الإرادة شيء زائد على التركيب لأنها مرتبطة ببيان الحال وموافقة لمقتضاه)[٢] ومقتضى الحال هنا هو انك تريد ان تحقق المعنى على السامع وتثبت له ان العطاء دأبه وتمكن ذلك في نفسه، لأن حال المخاطب شاك في ذلك.

ويستطرد القزويني مُعضداً رأيه بتوجيه تداولي فيقول: (وسبب تقويه هو أن المبتدأ يستدعي أن يستند إليه شيء، فإذا جاء بعده ما يصلح ان يستند اليه صرفه إلى نفسه فينعقد بينهما حكم فيكتسي الحكم قوة)[٣]. والإسناد هو احد أسس اكتمال العملية التواصلية في بعدها التداولي لتوقف تمام الفائدة عليه، ولحاجة المخاطب في وضعه الانتظاري إعلامه مما تتوقف عليه الفائدة[٤].

---

(١) الإيضاح: ٦٧.

(٢) التراكيب النحوية من الوجهة التداولية، عبد الحميد السيد، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، مج ١٦، ع٢، ٢٠٠١م: ٦٥.

(٣) الإيضاح: ٦٧.

(٤) البعد التداولي عند سيبويه، مقبول إدريس، مجلة عالم الفكر، ع١، مج٣٣، يوليو سبتمبر ٢٠٠١م: ٢٦٨.

من تحليلات القزويني يتبين حدوث مقاربة تداولية من خلال مقصدية المتكلم من خطابه وهي إيصال رسالة إلى المتلقي لتأكيد الأمر وإبراز المؤكد وزيادة تقرير المعنى في ذهنه. فقد تنبه القزويني إلى العناصر التي يرتكز عليها التداوليون بين المخاطِب والمخاطَب عبر السياق الخطابي المنسجم مع الموقف الخارجي بذكره السبب المؤدي إلى إجراء هذا التغيير في الصياغة، لينتقل الفاعل (من موضعه الأصلي إلى موضع طارئ في حركة أفقية مرتبطة مع حركة الفكر لدى المتكلم ومقصدية الدلالة في ذهنه الذي يريد إيصالها إلى المتلقي من ناحية وطبيعة المقام من ناحية أخرى)[1].

ويعرض القزويني اثر تقديم الفاعل النكرة – دون الفاعل المعرّف - على الفعل مبيناً الناتج الدلالي لكلا التركيبين لأن مقتضى الحال أو الاعتبار المناسب للحال يستدعي في كل من التركيبين المختلفين بنية، ناتجاً دلالياً يوافق سياقهما ومقامهما فيقول (فإن بني على منكر أفاد ذلك تخصيص الجنس أو الواحد بالفعل، كقولك: (رجل جاءني) أي لا امرأة، أو لا رجلان)[2] فالإخبار في ذلك السياق يكون إما عن الجنس أو عن العين (الذات) وهذا لا يتحقق مع الفاعل المعرّف (وذلك لأن اصل النكرة أن تكون للواحد من الجنس فيقع القصد بها تارة إلى الجنس فقط، كما إذا كان المخاطب بهذا الكلام قد عرف أن قد أتاك آتٍ، ولم يدر جنسه: أرجل هو أو امرأة؟ أو اعتقد انه امرأة، وتارة إلى الوحدة فقط كما إذا عرف انه قد أتاك من هو جنس الرجال، ولم يدر أرجل هو أم رجلان أو اعتقد انه رجلان)[3].

لقد كان القزويني يحوم في تحليلاته حول العلاقة القائمة بين قطبي العملية التّواصلية فضلاً عن الخطاب والمقام، فمراعاة المتكلم للمتلقي بتحديد جنس الجائي وعدده كلها أمور تؤثر في تركيب الخطاب ولا يخرج الاتجاه التداولي عن هذا الإطار، كونه (يتضمن إشارات مباشرة يتمكن المتلقي من التقاطها للدخول مع المرسل في حوار متكافئ على أساس من الفهم المتبادل)[4].

❖ تقديم المسند إليه في سياقات الوعد والضمان والمدح والفخر

ركز القزويني على المواقف أو السياقات التي تحتاج إلى هذا التقديم أو التغيير في الإجراء الرتبي إذ أشار إلى سياقات الوعد والضمان في قوله: (كقولك للرجل (أنا أكفيك، أنا أقوم بهذا الأمر) لأن من شأن من تعده وتضمن له أن يعترضه الشك في

---

(١) البلاغة العربية قراءة أخرى: ٢٣٥، ٢٣٨.

(٢) الإيضاح: ٧.

(٣) م.ن.

(٤) اللسانيات والدلالة (الكلمة)، منذر عياشي: ٩٤.

انجاز الوعد والوفاء بالضمان، فهو من أحوج شيء إلى التأكيد)[١].

أكفيك	أنا أكفيك
فعل + فاعل + مفعول به	فاعل + فعل + مفعول به
جملة إخبارية تؤدي إلى أن يساور المخاطب الشك في إنجاز هذا الوعد أو الوفاء بالضمان لعدم وجود دلالة على التأكيد.	جملة إخبارية تؤدي إلى التأكيد وإزالة الشك عما يساور المخاطب لأن التقديم يولد توكيداً هو أحوج ما يكون إليه طالب الوعد أو الضمان.

وأشار القزويني إلى سياق آخر يحتاج فيه المتكلم الى التأكيد والقوة والتحقيق وهو سياق المدح والفخر فيقول (وفي المدح والافتخار لأن من شأن المادح أن يمنع السامعين من الشك فيما يمدح فيه ويبعدهم عن الشبهة وكذلك المفتخر)[٢]

وبهذا المنظور يكون التأكيد (معنى اسلوبيا) يتميز بإفادة خاصة متعلقة بمراعاة السامع وهي دفع الاحتمالية والتجوز عن ظنه وازالة الشك عنه، اما بلغة التداوليين المعاصرين فهو فعل كلامي مندرج ضمن صنف التقريريات *Assertif* والغرض المتضمن في القول لهذه المجموعة الكلامية عندهم هو التقرير او بعبارة اخرى إدراج مسؤولية المتكلم عن صحة ما يتلفظ به[٣] وبهذا يكون المتكلم قد رفع الاحتمالية او الشك عن ذهن السامع.

ويواصل القزويني إيراد الأبيات الشعرية والآيات القرآنية الكريمة مبيناً سياقات المقام ومقصدية المتكلم التي يريد تنبيه المتلقي إليها[٤] ولا يسعفنا حجم البحث أن نتناولها جميعاً بالدراسة، إلا أننا سنقف عند مثال شعري واحد في سياق الفخر ذكره القزويني مشيراً إلى المقاصد التّداوليّة التي تصاحب التراكيب التحويلية أو العدول عن الأصل في قول الشاعر طرفة[٥]. [الرمل]:

نحن في المشتاة ندعو الجَفَلى

لقد توسل الشاعر بأكثر من وسيلة ليفتخر بنفسه وبقومه فقدم المسند إليه (نحن) وكذلك الجار والمجرور (في المشتاة) قصد التأكيد ولفت انتباه المخاطب وإرادة تحقق فحوى الخبر بأنهم كرماء وانهم وحدهم من يقوم بالإكرام وإطعام الطعام في الشتاء خاصة.

---

(١) الإيضاح: ٦٨.
(٢) الإيضاح: ٦٨.
(٣) التّداوليّة عند العلماء العرب: ٢٠٧.
(٤) ينظر، الإيضاح: ٦٤-٧٣.
(٥) الشاعر الجاهلي الشاب طرفة بن العبد، تحقيق ودراسة لشعره وشخصيته. د. علي الجندي: ٧٩.

٦. برتراند رسل (-١٩٧٠) طوّر لغة رمزية وحلل معطياتها
٧. إرفينغ غوفمان (-١٩٨٢) المحادثات اليومية وتفاعلها

وتعد الذرائعية أو النفعية (*Pragmatism*) المعين الفلسفي الرئيس الذي انطلقت منه التداولية. ويُعد شارلز بيرس (-١٩١٠) مؤسس الذرائعية إلى جانب وليم جيمس (-١٩١٠) وجون ديوي (-١٩٥٢)، والنفعية نظرية فلسفية في العمل تختزل الحقيقة في المصلحة انطلاقا من العقلانية والتجريبية[١].

ومن المظاهر الفلسفية لاشتغالات التداولية نظرية أفعال الكلام التي تقوم على النظر إلى اللغة على أنها أداء أعمال مختلفة في آن واحد، وما القول إلا واحد منها، ويقسم أوستن الفعل الكلامي على ثلاثة أفعال فرعية[٢]:

١. **فعل القول**: النطق بالمفردات بناء على قواعد اللغة.
٢. **الفعل المتضمن في القول**: الحدث الذي يقصده المتكلم بالجملة.
٣. **الفعل الناتج من القول**: التأثير العملي للقول الذي يقوم به المتلقي.

وقد وضع (غرايس) انطلاقاً من معايير (كانت) (-١٨٠٤) المتعالية المستندة إلى القياس الإرسطي مفهوم التعاون في سياق المقاصد التخاطبية، الذي يقتضي أن المتكلمين متعاونون في تسهيل التخاطب، ويرى أن هذا المفهوم تحكمه مبادئ تخاطبية تواصلية هي[٣]:

مبدأ الكم: وهو أن نقول ما هو ضروري دون استطراد.
مبدأ الكيف: لا نقول ما لا تستطيع البرهنة على صدقه.
مبدأ الأسلوب: الإيجاز دون الغموض والإبهام.
مبدأ المناسبة: مناسبة الكلام لسياق الحال.

ويمكن القول إن المسار الفلسفي للتداولية له رافدان:
الأول: الفلسفة التحليلية.   الثاني: الفلسفة الذرائعية.

إذ نهج الرافد الأول المتمثل بمعطيات (فريجه، وأوستين، وغرايس، وسيرل، وفيتغنشتاين، ورسل، وغوفمان) على إعادة الإشكالات والموضوعات الفلسفية المتعلقة باللغة على أساس علمي، ففهم الإنسان لذاته ولعالمه يرتكز في المقام الأول على اللغة، لذلك وجب تحليل المباحث اللغوية[٤].

---

(١) المصدر نفسه: ٢٨.
(٢) ينظر: التداولية اليوم: ٣٠ – ٣١.
(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٥٥ - ٥٦، والتداولية من أوستن إلى غوفمان: ٨٤.
(٤) ينظر: التداولية عند العلماء العرب، مسعود صحراوي: ٢٠ – ٢١.

أما الرافد الثاني المتمثل بمعطيات (تشارلز بيرس، ووليم جيمس، وجون ديوي، وريتشارد رورتي) فقد نهض على أن المعرفة باللغة هي فكرة، وهي خطوة تمهيدية للعمل ولإحداث النتائج في العالم المحسوس، وأصبحت النتائج التي ستترتب على الفكرة برهاناً على صحتها، فقيمة الفكرة ليست في الأشكال، وإنما في الأعمال وفي التغيرات التي تنتجها[١].

وترتبط الفكرة عند البراجماتية بالصواب والحقيقة، بشرط أن تؤدي بعض النتائج الواقعية، فإن لم تؤد ذلك فلا مكان لها في التعامل الواقعي، فالموضوع موجود إذا كان للفكرة وظيفة تؤديها، والدليل على حقيقة أي شيء إنما هو أثر هذا الشيء عمله ووظيفته[٢].

وتتلخص معطيات البراجماتية انطلاقا من روادها بالآتي[٣]:

- بيرس: الفكرة التي تقود إلى العمل، تكون فكرة صالحة وحقيقية.
- جيمس: العمل الذي تؤدي إليه الفكرة، إنما هو البرهان القاطع على صحتها.
- ديوي: الأصل في الفكر أو العقل ليس المعرفة فالعقل ليس أداة المعرفة، إنما هو أداة الحياة.

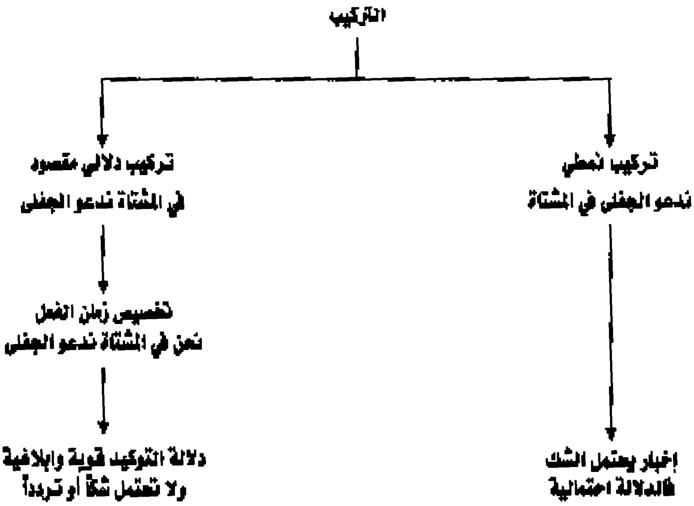
تشير هذه المعطيات إلى التوجه الفلسفي الذرائعي النفعي للبراجماتية بوصفها مذهباً فلسفياً مادياً تجريبياً[٤]، لا يؤمن بوجود المعرفة السابقة على الفكر، ولا يعترف بتحقق الشيء وجوداً إلا إذا كان ملموساً بمعنى أنها لا تعترف بالمعرفة المتحققة خارج الحواس وشرط الأعمال كلها أن تتصل بما يحقق المصلحة أو المنفعة.

❖ المحور الثاني: المسار النقدي

يتناول هذا المحور الحديث عن التداولية تعريفاً ومصطلحاً وتطوراً. فقد حُددت التداولية على أنها توجه لساني يُعنى بأثر التفاعل التخاطبي المتعلق باللفظ في موقف الخطاب، وقيل إنها دراسة الآثار اللغوية التي تظهر من الخطاب، أو هي الدراسة التي تُعنى باستعمال اللغة وتتجه لدراسة التلاؤم بين التعابير والسياقات المرجعية، وهناك من عرفها بوصفها ميدانا لسانيا لدراسة كل شيء إنساني في العملية التواصلية، أو هي دراسة العلاقة بين اللغة والسياق، أو هي إيجاد قوانين كلية للاستعمال اللغوي

(١) ينظر: البراجماتزم أو مذهب الذرائع: ١٥٠ – ١٥١.
(٢) المصدر نفسه: ١٥٥.
(٣) المصدر نفسه: ١٥٩.
(٤) وضعت الناقدة الفرنسية (فرانسواز أرمينكو) مخططاً معرفياً تفصيلياً دقيقاً بعنوان (تواليية التداولية) بوضع الأصول الفلسفية للتداولية. ينظر: المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش: ٨٨ – ٨٩.

فانسجم الخطاب مع السياق من خلال لفت انتباه المتلقي وإيصال الرسالة له محملاً تلك الرسالة دلالتها المقصودة.



ان هذه التحليلات القزوينية لا تبتعد عن تحليلات التداوليين التي تؤكد دراسة (الدور الذي يلعبه السياق في المعنى الذي يقصده المتكلم أو المقصود من العبارة المنطوقة)[1]. فالتراكيب عندهم تؤخذ في مواطنها وسياقاتها، لأن نجاح الخطاب تداولياً مرهون بسياقه المنجب له.

❖ تقديم المسند إليه (مثل وغير)

ينتقل القزويني في تحليلاته المتقاربة مع التّداوليّة مشيراً إلى كلمتي (مثل وغير) كقولنا (مثلك لا يبخل) التي ترد في سياق لا يدل على التعريض بشخص آخر، وإنما أريد بها أن من كان على هذه الصفة التي هو عليها كان من مقتضى القياس وموجب العرف أن يفعل ما ذكر، أو أن لا يفعل[2].

ويستشهد بقول القبعثري* للحجاج لما توعده بقوله: (لأحملنّك على الأدهم)* فأجابه

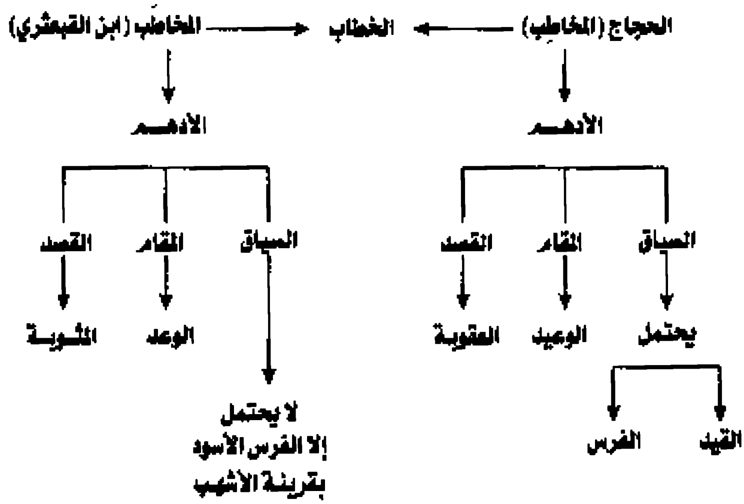
(١) قراءات في علم اللغة، د. احمد شفيق الخطيب: ١٣١.

(٢) الإيضاح: ٧٣.

* من فرسان الخوارج الذين حاربهم الحجاج بن يوسف.

(مثل الأمير حمل على الأدهم* والأشهب) (أي من كان على هذه الصفة من السلطان وبسطة اليد، ولم يقصد أن يجعل أحداً مثله)[1].

ويمكننا ان نوضح هذه المحاورة التّداوليّة في المخطط الآتي:



من هذا المخطط نلاحظ أن ابن القبعثري كان أكثر حنكة في هذه المحاورة التّداوليّة من الحجاج، لانه اعتمد على القرائن الثلاث، السياق والمقام والقصد، وذلك ليقطع دلالة اللفظ على معناه، لانه كان في موقف ضعف لذا احتاج الى قوة الدلالة ووضوحها، بخلاف الحجاج الذي جعل كلامه محتملاً.

لقد عد القزويني تقديم المسند إليه (مثل) في هذا السياق والمقام المدعي من أقوى القرائن في دفع ظن السامع باحتمالية الدلالة وتجوزها.

ويضيف بشأن (غير): (وكذلك حكم (غير) إذا سلك به هذا المسلك: فقيل: غيري يفعل ذاك، على معنى اني لا افعله فقط، من غير إرادة التعريض بإنسان)[2].

القيد لغلبة سواده على بياضه.

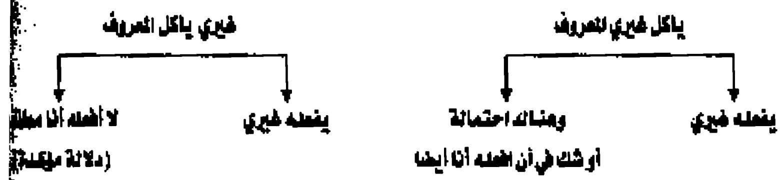
*قصد به الفرس الذي يغلب سواده بياضه.

(1) الإيضاح: ٧٣.

(2) الإيضاح: ٧٤.

ويستشهد بقول الشّاعر أبي تمام[1] (الوافر):

وغيري يأكل المعروف سُحتاً　　　ويشحب عنده بيض الأيا



فيعلق (فانه لم يرد أن يعرض بشاعر سواه، فيزعم أن الذي قُرِفَ به عند الممدو من انه هجاء، كان من ذلك الشاعر لا منه، بل أراد أن ينفي عن نفسه أن يكون مم يكفر النعمة ويلؤم لا غير)[2].

فالسر في تقديمهما كما يقول القزويني لإفادة (تقوي الحكم وتقريره فالمطلوب بالكناية في مثل قولنا (مثلك لا يبخل) و (غيرك لا يجود) هو الحكم وإن الكناية ابلغ من التصريح فيما قصد بها، فكان تقديمهما أعون للمعنى الذي جليا لأجله)[3].

فالعناصر الأساسية في التحليل التداولي تبدو جلية للمتفحص لمعالجة القزويني للأمثلة التي ذكرها إذ يركز على عملية الاتصال بين طرفي العملية مع العناية والاهتمام بكيفية صياغة الخطاب فالمبدع لا يهدف إلى التّواصل مع المتلقي قفزاً على الصياغة، وإنما يهدف الى توصيل الصياغة ذاتها إليه، أي انها اتصال يجعل لهذه الصياغة الأولوية على ما عداها من عناصر الاتصال[4].

❖ تقديم المسند إليه في سياق النفي

وعالج القزويني في تحليلاته للنصوص الشعرية والآيات القرآنية الكريمة تغيير النسق التركيبي في سياق النفي إذ يقول: (وكذا إذا كان الفعل منفياً، كقولك (أنت لا تكذب) فإنه أشد لنفي الكذب عنه من قولك: لا تكذب وكذا من قولك لا تكذب أنت

(١) شرح ديوان أبي تمام، الخطيب التبريزي: ٢٠٢.
(٢) الإيضاح: ٧٤.
(٣) م.ن.
(٤) البلاغة العربية قراءة أخرى: ٢٥٩-٢٦٠.

[فإ]نه لتأكيد المحكوم عليه، لا الحكم)[1]، ففي هذه الموازنة بين ما يجب أن تقول وما لا [تق]ول تبعاً لقصدية المتكلم بعد تداولي إذ إن المتكلم (يعدّل منطوقه أو يكيفه لمقصده [في] سياق اتصالي بعينه)[2].

وعليه قوله تعالى: (وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ) المؤمنون:٥٩ (فإنه يفيد من [ال]تأكيد في نفي الإشراك عنهم مالا يفيده قولنا: والذين لا يشركون بربهم ولا قولنا: [و]الذين بربهم لا يشركون)[3].

فحدوث عملية التغيير في البناء التركيبي بتقديم الضمير في الآية الكريمة دليل على [ت]أكيد نفي الشرك عن هؤلاء المؤمنين وإصرارهم على التوحيد وإخلاص العمل لوجهه [و]حده، لا يعبدون معه غيره[4]، فينتقل المعنى إلى غرض انجازي وفقاً للمقصد [و]السياق.

وهكذا تمتاز تحليلات القزويني بأبعاد تداولية تربط الخطاب بقائله وبمتلقيه في سياق تواصلي يركز على المقصدية ومتطلبات المحيط الخارجي في موقف سياق عبر إجراءات تحريكية على العناصر التركيبية في بنية الخطاب.

❖ **تقديم المسند إليه ليفيد التخصيص بالخبر الفعلي**

ويورد القزويني قول الجرجاني في تقديم المسند إليه ليفيد تخصيصه بالخبر الفعلي [إ]ن جاء بعد حرف النفي فيقول:

قال عبد القاهر: (وقد يقدم المسند إليه ليفيد تخصيصه بالخبر الفعلي ان ولي حرف النفي، كقولك: (ما أنا قلت هذا) أي لم أقله مع أنه مقول: فأفاد نفي الفعل عنك وثبوته لغيرك، فلا تقول ذلك إلا في شيء ثبت انه مقول وأنت تريد نفي كونك [ق]ائلاً له)[5].

ويمثل له بقول المتنبي[6] [المتقارب]:

وما أنا أسقمت جسمي به ... ولا أنا أضرمت في القلب نارا

ثم يحلل البيت بقوله (اذ المعنى ان هذا السقم الموجود والضرم الثابت، ما أنا

---

(١) الإيضاح: ٦٩.

(٢) تعديل القوة الانجازية دراسة في التحليل التداولي للخطاب، محمد العبد، ضمن كتاب التداوليات علم استعمال اللغة، إعداد وتقديم د. حافظ إسماعيل علوي: ٣٦٢.

(٣) الإيضاح: ٦٩.

(٤) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني: ٢/٢٠٧.

(٥) الإيضاح: ٦٥؛ ودلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني: ٩٦-٩٧.

(٦) شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، أبو العلاء المعري: ٣/٣٦٨.

جالب لهما، فالقصد إلى نفي كونه فاعلاً لهما لا إلى نفيهما)[1]، وفي هذا بعد تداولي لأنه: (ربط الصيغة بالمقصد، ومفهوم القصد والمقصدية من المفاهيم التي نجدها عند التداوليين فالكلام عندهم قد يحصل بغير قصد فلا يدل، وأما مع القصد فيدل ويفيد)[2]، ولإبراز مفهوم القزويني نوضح ذلك بالخطاطة الآتية:

الاسقام حاصل	الإضرام حاصل
▼	▼
ينفي عن نفسه فقط جلب الاسقام	ينفي عن نفسه فقط جلب الإضرام
▼	▼
هناك من جلب الاسقام	هناك من جلب الإضرام
▼	▼
تعريض بآخر	تعريض بآخر

ولا يكتفي القزويني بهذا القدر وإنما يقلب هذه التراكيب على أوجه مختلفة ليتحرى الدقة في اختيار البنية النظمية لتجنب حدوث تناقض او تضارب في البنية الدلالية، فيميز بين التراكيب السليمة وغيرها من التراكيب (التي تنخرم فيها شروط المطابقة بين النسبة الكلامية والنسبة الواقعية الخارجية والنسبة العقلية كما يعبر البلاغيون وكذا التداوليون)[3] فيقول: (ولهذا لا يقال: (ما أنا قلت، ولا أحد غيري) لمناقضة منطوق الثاني مفهوم الأول، بل يقال: (ما قلت أنا ولا أحد غيري...)[4].

❖ تخصيص المسند إليه بالمسند

ويؤكد إفادة تخصيص المسند إليه بالمسند راداً على من زعم انفراد غيره به أو مشاركته فيه، فيستشهد بالقول التداولي: (أنا كتبت في معنى فلان، وأنا سعيت في حاجته، وإذا أراد المتكلم أن يؤكد ذلك قلت للزاعم في الوجه الأول أنا كتبت في معنى فلان لا غيري ونحو ذلك وفي الوجه الثاني أنا كتبت في معنى فلان وحدي ونحو ذلك)[5].

إن استخدام الوسائط المعجمية (لا غيري، وحدي) يعد مؤشراً او علامة دالة لزيادة القوة الانجازية للخطاب، وإيصالها الى المتلقي محملة بدلالة قطعية مؤكدة، تحقيقاً لمقصد المتكلم وإزالة اللبس عن المخاطب، وتعد هذه الإضافة دعامة لسانية

---

(١) الإيضاح: ٦٦.

(٢) البعد التداولي عند سيبويه، مقبول إدريس، مجلة عالم الفكر، ع١، مج ٣٣، يوليو – سبتمبر، ٢٠١١: ٢٦٨.

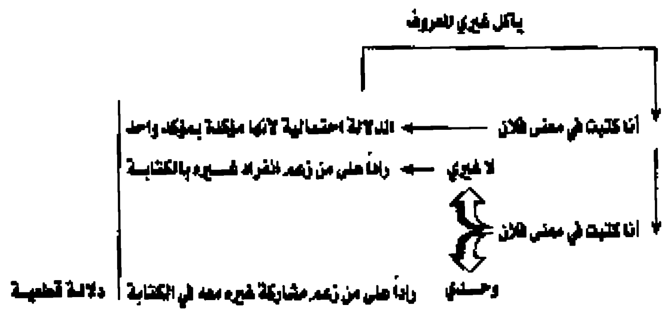
(٣) البعد التداولي عند سيبويه: ٢٤٦.

(٤) الايضاح: ٦٦.

(٥) م.ن.

تداولية أساسية في النظرية الأدبية المعاصرة، وذلك ان المتكلمين لا يستعملون كلمات زائدة دون سبب[1] (فلا قيمة لفعل كلامي خارج دائرة السياق التّواصلي)[2].

ويبين القزويني الدوافع والأسباب التي حدت بالمتكلم إلى توظيف مثل هذه الاستراتيجيات في الاتصال بقوله: (لأن جدوى التأكيد لما كانت إماطة شبهة خالجت قلب السامع وكانت في الأول ان الفعل صدر من غيرك، وفي الثاني انه صدر منك، بشركة الغير، أكدت وأمطت الشبهة في الأول بقولك (غيري) وفي الثاني بقولك (وحدي) لأنه معزّه)[3]



❖ تقديم المسند إليه (كل)

ويستطرد القزويني في بيان نظرته التحليلية والتّداوليّة على السياق الذي يرد فيه لفظ العموم (كل) وينقل عن الجرجاني قوله: (كل إنسان لم يقم، فيقدم (كل) ليفيد في نفي القيام عن كل واحد من الناس، أما إذا أخر اللفظ وقدم عليه لفظٌ كقول أبي الطيب[4] [البسيط]:

مـا كـل مـا يتمنى المـرء يدركـه   تجـري الريـاح بمـا لا تشـتهي السـفن

توجه النفي إلى الشمول خاصة دون اصل الفعل، وأفاد الكلام ثبوته لبعض أو

---

(١) تعديل القوة الانجازية دراسة في التحليل التداولي للخطاب، محمد العبد، ضمن كتاب التداوليات علم استعمال اللغة: ٣٢٢.

(٢) سلطة الوسائل البرغماتية في فهم الخطاب وتأويله، حليفة الميساوي، ضمن كتاب التداوليات علم استعمال اللغة: ٣٦١.

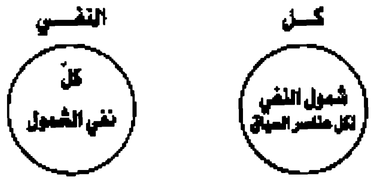
(٣) الإيضاح: ٦٧.

(٤) شرح ديوان أبي الطيب المتنبي: ١٦٨/٤.

تعلقه ببعض)[1].

فالابتداء بعنصر (كل) حمل وظيفة تداولية لأنه (يعد مكتوناً حاملاً للمعلومة وهي الأكثر أهمية وبروزاً في الجملة)[2] وبناء النفي عليه يؤدي إلى هيمنة الدلالة الكلية (الشمول) على أجزاء النفي وأفراده جميعاً. أما إذ أخر عنصر (كل) ووقع في حيّز النفي فدل الحدث اللغوي على نفي دلالة العموم المفهوم من (كل) نفسه.

فالسياق العام وظروف الحدث اللغوي وما يتعلق به من ظروف المخاطِب والمخاطَب لها الأثر الكبير في تغيير نمط هذه الدلالة وتوجهها مع ما ينسجم ومقتضيات المقام وذلك ما يعنى به التداوليون.



❖ تقديم المسند على المسند إليه

يعد التّحويل بالترتيب تحويلاً جذرياً، فالجملة التي فيها تقديم على نية التأخير هي تحويل جذري بمفهوم اللسانيات الحديثة، لأن التحويل فيها وسيلة للفت انتباه السامع الى منطلق مشترك بينهما، وهو يمثل صاحب الأولوية[3].

وقد عالج القزويني ذلك في تقديم المسند على المسند إليه في الشاهد التداولي الذي ذكره بقوله: (وكذلك إذا قلت (بزيد مررت) أفاد ان سامعك كان يعتقد مرورك بغير زيد، فأزلت عنه الخطأ مخصصاً مرورك بزيد دون غيره)[4].

ان تقديم الخبر (بزيد) الذي هو محط فائدة السامع (يحمل وظيفة تداولية داخلية تسمى المحور (*Topic*) وتسند للمحدث عنه داخل الجملة)[5] وهي التي تمثل محط اهتمام المتكلم والمخاطب، وهذا ما أوضحه القزويني عندما بين المقاصد التّداوليّة التي

---

(١) الإيضاح: ٧٦: وينظر دلائل الإعجاز: ٢١٥.

(٢) التراكيب النحوية من الوجهة التّداوليّة، عبد الحميد السيد، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، مج ١٦، ع ٢، ٢٠١١م: ٨١.

(٣) نظرية النحو العربي ورؤيتها لتحليل البنى اللغوية، د. رابح بو معزة: ١٦٠.

(٤) الإيضاح: ١١٦.

(٥) التراكيب النحوية من الوجهة التّداوليّة، عبد الحميد السيد، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، مج ١٦، ع ٢، ٢٠٠١م: ٨١.

صاحبت العدول عن الأصل.

وعرض القزويني أحوال تقديم المسند على المسند إليه في موضع آخر من كتابه[1] وذكر أربع غايات لهذا التقديم وهي:

١. لتخصيصه بالمسند إليه وأورد عدداً من الآيات الكريمة منها قوله تعالى: (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) الكافرون: ٦. وجملاً متداولة كـ(قولك (قائم هو) لمن يقول: زيد إما قائم أو قاعد، فيردده بين القيام والقعود من غير انه يخصصه بأحدهما).

إن هذه النماذج التي عرضها القزويني تثبت انه أراد أن يقول ان الجملة بين المتكلم والمخاطب حيّة ومتداولة يراعي فيها المتكلم ما يأخذ باهتمام مخاطبه فيقدم ما يجب تقديمه ويؤخر ما يجب تأخيره، حسب درجة الشك لدى المخاطب لأن الشك (يرتبط بحالة التردد في قبول الحكم)[2] وهي عين المعرفة المشتركة التي نص عليها التداوليون التي هي شرط من شرائط التّواصل بين المتكلم والمخاطب.

٢. التنبيه على أن المسند خبر لا نعت كقوله تعالى: (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) البقرة: ٣٦ وهذه إشارة نحوية خالصة كما ذكر احد الباحثين وهي تبدو بهذا المعنى غير مندرجة في الأبعاد التّداوليّة التّواصلية لكن الباحث يعود ليعالج هذه الغاية تداولياً أيضاً كونها تعتمد على كفاءة المخاطب النحوية للوصول إلى التأويل الصحيح الذي أراد صاحب الملفوظ أن يبلغه غيره ليزيل عنه المشكل أو الغموض التداولي لأن المخاطب يعلم أن النعت لا يسبق المنعوت، فإذا جاء قبله انتفى عنه كونه نعتاً، وبالاعتماد على منظومة التقديم والتأخير واستناداً إلى كفاءة المخاطب النحوية أمكن حدوث ذلك[3].

وبهذا التعليل التداولي يندرج ما يبدو نحوياً خالصاً في معالجة القزويني إلى الدرس اللساني الحديث، لأنه ذو حصيلة دلالية داخل سور النحو لا يتجاوزه فهو خروج من وظيفة إلى وظيفة[4].

٣. للتفاؤل ولم يذكر شاهداً على ذلك.

٤. للتشويق إلى ذكر المسند إليه تذكر منها استشهاده بقول المعَري[5] (الوافر):

كالنـــار الحيـــاة، فمـــن رمـــادٍ   أواخرهـــا، وأولهـــا دخـــان

(١) الإيضاح: ١٠٦-١٠٧.

(٢) البلاغة العربية قراءة أخرى: ٢٠٦.

(٣) مغامرة المعنى من النحو إلى التّداوليّة، صابر الحباشة: ١٣٨.

(٤) م. ن.

(٥) سقط الزند، أبو العلاء المعري: ٦٤.

إذ قدم المسند على المسند إليه ليجعل المخاطب يتشوق لمعرفة المسند إليه المتأخر وهذه غاية تداولية وهي قصد التأثير في المخاطب و (غاية التشويق ضرباً من الأهداف التي تستعملها الإستراتيجية الخطابية، لتحقيقه نجاح الغرض من التّواصل)[1].

فتأخير المسند إليه أسهم في إنجاح المقصد التشويقي للبيت من أجل تحقيق أهداف تواصلية محددة.

❖ **سياقات تقديم المفعول على الفعل**

قد يتقدم المفعول على الفعل في تركيب مغيراً التشكيل البنائي المألوف من اجل إيصال ناتج دلالي إلى المخاطب، فأشار القزويني إلى اجرائيات التغيير تلك وضرب مثالاً لذلك في الشاهد التداولي (زيداً عرفت) إذ ذكر بأن التقديم البنائي في المفعول به لإزالة الشك عن السامع قائلاً (لمن اعتقد انك عرفت إنساناً وانه غير زيد، وأصاب في الأول دون الثاني)[2]، أي أن المعرفة حاصلة لكن الشك واقع في الشخص الذي تعرفت عليه (وتقول لتأكيده وتقريره زيداً عرفت لا غيره)[3]. فـ(زيداً) إذن يحمل وظيفة تداولية (البؤرة) لأنه الأولى بالاهتمام فضلاً عن وظيفته التركيبية (مفعول به)[4].

وتقديم هذا العنصر يكون بمقتضى الموقف التداولي وموقف المخاطِب الذي يؤثر في المخاطَب ويجعله يتصرف في موقعية كل عنصر من عناصر كلامه.

فإذن على المخاطِب أن يقوم برصف مفرداته السياقية حسب تردد المخاطَب والجهة التي يقع عليها ضغط التردد. ولأدراك هذه القيمة التّداوليّة في التراكيب يستلزم إحضار الأصل لتقاس عليه ضبط درجة العدول كماً وكيفاً[5].

عرفت زيداً ⇐ أعملت الجملة شكاً عند المتلقي في الشخص الذي تعرفت عليه.

زيداً عرفت ⇐ أزالت الاحتمال في التأويل للتأكيد على الشخص الذي تعرفت عليه.

ويستطرد القزويني في تقليب بنيات التراكيب تبعاً لحاجة المخاطَب كونه متلقياً لا تخلو أحواله من انفعال نفسي أو حراك فكري ليثمر استجابة منه بتمثل تلك الدلالة المرادة من الخطاب فيقول (لا يصح أن يقال (ما زيداً ضربت ولا أحداً من النّاس) لتناقض دلالتي الأول والثاني ولا أن تعقب الفعل المنفي بإثبات ضده كقولك: (ما زيداً

(١) مقاربة المعنى من النحو إلى التّداوليّة: ١٣٩.

(٢) الإيضاح: ١٦٦.

(٣) م.ن.

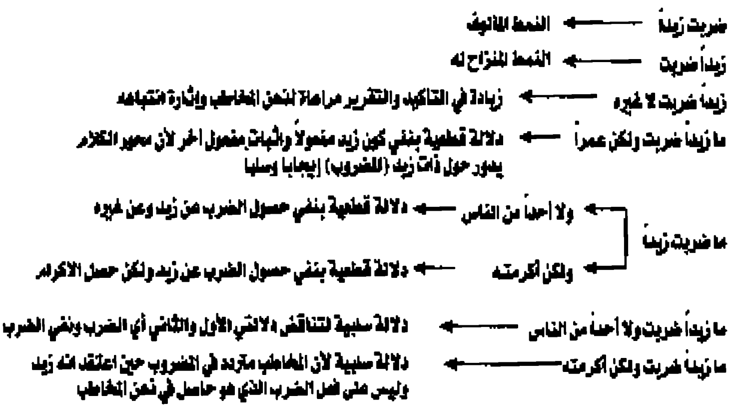
(٤) الوظائف التّداوليّة في اللغة العربية، د. احمد المتوكل: ١٢٦.

(٥) التراكيب النحوية من الوجهة التّداوليّة: ٦٥.

ضربتُ ولكن أكرمته) لأن مبنى الكلام ليس على الخطأ في الضرب، فترده إلى الصواب في الإكرام، وإنما هو على الخطأ في المضروب حين اعتقد انه زيد، فردّه إلى الصواب أن تقول: ولكن عمراً)[1].

وهكذا نظر القزويني إلى التراكيب على أساس صورتها الظاهرة المنجزة في إطار من التفاعل بينها وبين مقتضيات المقام، وفي إبرازه لدور المتلقي في العملية التخاطبية – كونه أهم عناصرها – منع القزويني بعض التراكيب لما فيها من تناقض في الدلالة، وقد أطلق التداوليون على هذا الممتنع (الذي يستحيل وجوده منطقياً)[2] (باللحن التداولي)[3].

فحاجة المخاطَب الفكرية أدت بالمخاطِب إلى إجراء هذا التغيير في البناء الذي يبحث عن مقصدية الخطاب، وهذه هي العناصر التي يرتكز عليها التداوليون في معالجاتهم للخطاب.



ان هذه الموازنات بين أنماط الكلام في النماذج التي طرحها القزويني للاستشهاد تنسجم مع المواقف التّداوليّة، فالأنماط التي تجري على القاعدة النحوية المنضبطة والأنماط المزاحة عنها اقتضاءً للحاجات والمقاصد التي يبتغيها كلا الطرفين المخاطِب

---

(١) الإيضاح: ١١٦.

(٢) المعجم الفلسفي، صليبا جميل: ٢/ ٢٥٠.

(٣) البعد التداولي عند سيبويه: ٢٤٦.

والمخاطَب. فوضوح المعنى ووجه قبوله قائم على صوابه وصحته مع ما يقدمه من فائدة للمخاطب وهذا هو مبدأ المنفعة وهو أحد أسس التداولية اللسانية الحديثة لموافقته لمقام السامع وحاله وقصود المتكلم وأحوال السياق[١].

❖ التقديم والتأخير في سياق الاستفهام

ويلحظ التحليل التداولي والعناية بإبراز مظاهر التداول عند القزويني في تناوله لأسلوب التقديم والتأخير في سياق الاستفهام فيقول في سبب تقلبات التركيب اللغوي في سياق الاستفهام وخروجه إلى معان ثانية (غير الاستفهام بحسب ما يناسب المقام ومنها التقرير فيشترط في الهمزة أن يليها المقرر به، كقولك أفعلت؟ إذا أردت أن تقرره بأن الفعل كان منه، وكذلك أأنت فعلت؟ إذا أردت أن تقرره بأنه الفاعل)[٢].

فتغير المواقع بعد همزة الاستفهام بالفعل أو الفاعل تشير إلى ديناميبة التواصل بين المخاطِب والمخاطَب في توجيه المسار الدلالي لنسيج الخطاب فهذا التحويل الرتبي يتم لمقصدية بلاغية يحددها وضع المخاطب والمقام الذي قيل فيه الخطاب، ويكون تعليله لتقديم العنصر الذي يلي الهمزة تعليلاً تداولياً لأنه قائم على القصدية فالمتكلم (عنصر فعال في تحديد خصائص النص إذ على عاتقه تقع كلفة إخراجه على سمت يستجيب لمقتضيات الوظيفة الإسنادية والإبانة والمقام)[٣].

ويضيف القزويني إلى معاني الاستفهام معاني أخر كالإنكار فيقول (والإنكار كالتقرير يشترط أن يلي المنكر الهمزة كقوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ الزخرف: ٣٢ والتهكم نحو﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ هود: ٨٧ والتحقير والتهويل والاستبعاد، والتوبيخ والتعجب)[٤]. ويورد أمثلة قرآنية لكل غرض.

لقد حدد القزويني طبيعة الخطاب (إنكار، تقرير، تهكم، تحقير، تهويل، استبعاد، توبيخ، تعجب) بعد أداة الاستفهام التي تعبر عن القوة الانجازية[٥] بحسب الظروف المحيطة وبحسب غرض المتكلم وقصده ثم بحسب المخاطب وهذه كلها العناصر

---

(١) نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية: ٢٣٧.

(٢) الإيضاح: ١٤١.

(٣) التفكير البلاغي عند العرب نصوصه وتطوره الى القرن السادس، مشروع قراءة، حمادي صمود: ٢٤٨.

(٤) الإيضاح: ١٤٢-١٤٥.

(٥) الوظائف التداولية في اللغة العربية: ١٢٣.

المتضافرة في إنتاج الخطاب، كما يشرحها التداوليون[١]. ويكون تحليله تحليلاً تداولياً لأنه قائم على القصدية.

فالعنصر الذي يلي الهمزة هو الركن الذي توجه إليه عدسة الفكر لأن المتكلم عندما نقل أحدى المفردات من موقع إلى موقع آخر يكون لغاية يقتضيها المقام وبهذا التحليل الذي لا يبعد عن الاتجاه التداولي يوضح القزويني أن المخاطب يستطيع التصرف في مواقع عناصر خطابه استناداً إلى الحدث الخطابي وإلى التفاعل المزدوج القائم بينه وبين المتلقي في مقام جامع بينهما.

مما سبق يتأكد لنا بطلان فكرة كون تراثنا البلاغي في رأي كثير من المعاصرين عبارة عن كتب صفراء، قد آل بها التاريخ الى سلة المهملات، وان البلاغة فيها قد قضت نحبها، لأنها بلاغة جافة جامدة، ذلك ان معاشرة تلك النصوص - ولاسيما القزوينية – تثبت انها ما زالت حية وفاعلة ومتواصلة عبر الأجيال، إذ إنها تقدم في كل جديد مكتشف مفاهيم سبق أن عرفها ووسائل امتلكتها يمكنها من التفاعل والبقاء، بحيث تجعل من الدرس البلاغي القديم واقعاً حياً، وان هذا التراث قد عرف قبل أكثر من ألف عام نظرية بلاغيّة متطورة جداً، تلك هي نظرية التّواصل التي بشرت بها النظريات اللسانية الحديثة. فالنتائج التي خرج بها البحث في أسلوب واحد من أساليبها تثبت ذلك، ونذكر هنا أهم ما توصلنا إليه:

١. إن معالجة القزويني للتقديم والتأخير فيه حس تداولي، وهو ذات صلة وثيقة بالتداول اللغوي، لأنه يهتم باركان العملية التّواصلية وهي المخاطِب، المخاطَب، مقتضى الحال، الذي يعد أساس الدرس التداولي الحديث.
٢. يرى القزويني أن التقديم والتأخير في النظام الرتبي أي الخروج عن الانضباط النحوي في التراكيب لغاية، وهي الاهتمام بالمخاطَب وبآليات تحريكه، والتأثير عليه لإزالة شك في نفسه، أو تغيير في موقفه، أو تأكيد موقف حاصل لديه، وهذا ما جاءت به نظرية الإفادة (*pertinence*) التّداوليّة.
٣. كشف القزويني أن على المتكلم أن يحدد خصائص تراكيبه ونواتجها الدلالية وفقاً للمقامات المنجزة فيها، فنظر إلى التراكيب على أساس موافقة الكلام لمقتضى الحال، فدرس الأحوال التي تطرأ على البنية الاسنادية من أنماط تركيبية تنشأ بسبب التغييرات الرتبية، وما يصاحبها من وظائف تداولية، فالمقام والحال عنده لا يختلف عن السياق في مفهومه التداولي الحديث.
٤. حرص القزويني على تقليب أوجه التراكيب ليميز بين العبارات السليمة التي تطابق الواقع والمنطق، وبين تلك التي تنخرم بها أوجه المطابقة أو ما يطلق عليها

---

(١) نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية: ٢٣٨.

عند التداوليين باللحن التداولي. أن رصد هذه الفوضى الدلالية وتقنينها من اجل إيصال رسالة سليمة إلى المتلقي محملة بدلالاتها القصدية هي مطمح اللسانيات التَّداوليَّة الحديثة.

❖ المصادر والمراجع

- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ)، تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، د. ط، ٢٠٠٨م.
- البرغماتية وعلم التراكيب بالاستناد الى أمثلة عربية، عثمان بن طالب، سلسلة اللسانيات، ع٦، الجامعة التونسية، المطبعة العصرية، تونس، ١٩٨٦م.
- البعد التداولي عند سيبويه، مقبول إدريس، مجلة عالم الفكر، العدد ١، مج ٣٣، يوليو - سبتمبر ٢٠٠١م.
- بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل، سلسلة عالم المعرفة، ١٩٩٢م.
- البلاغة العربية قراءة اخرى، د. محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان، ط١، ١٩٩٧م.
- بلاغة الكلمة والجملة والجمل، منير سلطان، منشأة معارف الإسكندرية، د.ت.
- البلاغة والأسلوبية، د. محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م.
- البلاغة والنقد، المصطلح والنشأة والتجديد، محمد كريم الكواز، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٦م.
- بنية اللغة الشعرية، جان كوهين، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء – المغرب، ط ١، ١٩٨٦م.
- التداوليات علم استعمال اللغة، إعداد وتقديم د. حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث، اربد – الأردن، ط ١، ٢٠١١م.
- التّداوليّة عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، د. مسعود صحراوي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.
- التراكيب النحوية من الوجهة التّداوليّة، عبد الحميد السيد، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، مج ١٦، ع٢، ٢٠٠١.
- التفكير البلاغي عند العرب، نصوصه وتطوره الى القرن السادس / مشروع قراءة، حمادي حمود، منشورات الجامعة التونسية، ١٩٨١م.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ)، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان ن ١٩٧٨م.
- سقط الزند، ابو العلاء المعري، دار صادر، بيروت، ١٩٦٣ م.
- الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد، تحقيق ودراسة لشعره وشخصيته، د.علي الجندي، دار الفكر العربي، د.ت.
- شرح ديوان أبي تمام، الخطيب التبريزي، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ط.، ٢٠٠٧ م.

- شـرح ديـوان أبي الطيـب المتنبي، أبـو العـلاء المعري، تحقيـق ودراسـة عبـد المجيـد دياب، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٩٢ م.
- صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.
- علم لغة النص / المفاهيم والاتجاهات، أ.د. سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- قراءات في علـم اللغـة، د. احمـد شـفيق الخطيب، دار النشـر للجامعات، القـاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠٦م.
- لسـانيات الخطاب وأنساق الثقافـة، د. عبـد الفتـاح احمـد يوسـف، الـدار العربيـة للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، ط١، ٢٠١٠م.
- لسانيات النص، مدخل الى انسجام الخطاب، محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، - بيروت ط١، ١٩٩١م.
- اللسـانيات والدلالـة (الكلمـة)، منـذر عياشـي، مركـز الإنمـاء الحضـاري، حلب، ط١، ١٩٩٦م.
- مجلة الأقلام، العدد ٥، أيلول - تشرين الأول، ٢٠٠٨م.
- المصطلح البلاغي القـديم في ضـوء البلاغـة الحديثـة، تمام حسان، مجلة فصـول، مج٧، ع ٣ ، ٤ ابريل – سبتمبر، ١٩٨٧م.
- المعجم الفلسفي، صليبا جميل، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢م
- مغـامرة المعنى مـن النحـو الى التّداوليّـة / قـراءة في شـروح التلخـيص للخطيـب القزويني، صابر الحباشـة، صـفحات للدراسـات والنشـر، الإصـدار الأول، دمشـق، سـورية، ٢٠١١م.
- نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية / مشروع لربط البلاغة بالاتصال، د. خليفـة بوجـادي، جامعـة سـطيف، الجزائـر، نـدوة الدراسـات البلاغيـة الواقـع والمأمول، ١٤٢٩هـ
- نظريـة النحـو العربي ورؤيتها لتحليل البنى اللغوية، د. رابح بـو معزة، عـالم الكتب الحديث، اربد – الأردن، ط١، ٢٠١١م.
- الوظائف التّداوليّة في اللغة العربية، د. احمد المتوكل، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة وانشر، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٨٥م.

الحِجَاج في الخطاب الشعري الحديث
قصيدة... لا تصالح.. لأمل دنقل* نموذجاً

أ.م د ورقـــاء يحيى قاسم العاضيـــدي*

❖ مدخل

تكمن أهمية هذا البحث في الكيفية التي يمكن للحجاج أن يشتغل فيها داخل إطار الشعرية ، وبيان علاقة هذا المصطلح بالتداولية ، وكيف أفاد الحِجَاج من نظرية أفعال الكلام، عبر دراسة الأفعال الإنجازية، التي تؤسس لعملية التواصل عن طريق اللغة منطلقين من فكرة (أن كل شيء عند الإنسان تواصل) على رأي فيليب بلا نشيه، والخطاب الشعري المدروس هنا هو قصيدة (لا تصالح) للشاعر أمل دنقل وحِجاجه فيها يهدف إلى رفض الصلح مع العدو الصهيوني الذي اغتصب فلسطين وامتد اغتصابه لأراضي عربية أخرى ، كما ألحق بالشعب العربي مجازر ومذابح عدة وهذه القصيدة تمثل هدف المؤلف في توصيل فكرة وقعت ضمن الأفق التداولي الذي تشكل بالاحتجاج وبني نفسه من خلال تواصل المتكلم مع المخاطب، بدواعٍ مقصودة عبر السياق العام .

يُعدُّ الحجاج (أهم أركان التّداوليّة إلى جانب نظرية الأعمال اللغوية)[1] وظهر اهتمام التّداوليّة بالحِجَاج في السنوات الثمانين من القرن العشرين، ومن المهتمين بدراسة الحِجاج العالمان أوزفالد ديكرو وجان كلود انسكومبر، إذ عاد أوزفالد ديكرو إلى مفهوم المواضع لوصف آليات اللغة الحجاجية[2]. والحِجاج في ذاته بناءٌ تتلمسه في

---

* ولد أمل دنقل (محمد أمل فهيم محارب دنقل) في ٢٣يوليو-١٩٤٠ بقرية القلعة في محافظة قنا، خلّفَ أمل دنقل ستة دواوين (البكاء بين يدي زرقاء اليمامة١٩٦٩بيروت، تعليق على ما حدث ١٩٧١، بيروت ومقتل القمر١٩٧٤ بيروت، والعهد الآتي ١٩٧٥ بيروت، وأقوال جديدة عن حرب البسوس ١٩٨٣ القاهرة، وأوراق الغرفة٨، ١٩٨٣ القاهرة ومجموعة من القصائد المتفرقة جمعت كلها فيما بعد في الأعمال الشعرية الصادر عن مكتبة مدبولي. توفي في ٢١مايو١٩٨٣. ينظر: أمير شعراء الرفض، أمل دنقل، مجلة آفاق عربية، (نسيم مجلي) دار الشؤون الثقافية، بغداد،ع٨ لسنة١٩٨٦،٩٢.

* كلية الآداب - جامعة الموصل

(١) التّداولية والحجاج مداخل ونصوص، صابر الحباشة،١٥، دار صفحات للدراسات والنشر، ٢٠٠٨.

(٢) م. ن، ٦.

الخطاب من خلال مستويات ثلاثة: اللسانيات أو البلاغة أو الأسلوبية[١] أما التّداوليّة ففي أحد تعريفاتها (دراسة المعنى في صلته بظروف الخطاب وقد أدخل في هذه الظروف المتخاطبين وسياق الخطاب والأهداف من الخطاب)[٢].

وتسهم التّداوليّة بنحو كبير في ممارسة تأويل *Interpretation* إلى حد ما، والعمل على فحص آلية اشتغال الحِجَاج *Argumentation* وموجهاته[٣]، ولاسيما أن التّداوليّة هي(دراسة للآثار اللغوية التي تظهر من الخطاب، وتنظر في عنصر الذاتية للخطاب، ويشمل هذا التداول ضمائر الشخص ومبهمات الزمان والمكان، وينظر في الجانب الضمني والتلميحي والحِجَاجي للكلام)[٤] وتتشكل العلاقة بين التّداوليّة والحِجَاج من خلال عد التّداوليّة القاسم المشترك بين أبنية الاتصال النحوية والدلالية والبلاغية، وإن الخطاب الحِجَاجي كما يراه التداوليون المعاصرون متميز بخصائص بنائية تواصلية (براغماتية) تجعله مختلفاً عن غيره من الخطابات السردية والحكائية والإخبارية، فضلاً عن تميزه بصوره البنائية الاستدلالية والكلامية وخضوعه لشروط القول والتلقي والمقام والرغبة في التأثير والفعل[٥].

والتّداوليّة *Pragmatics* ومقابله بالعربية علم الفعليات[٦] وعند أوستن (نظرية الفعل الكلامي)، التي حلل فيها أفعال الكلام إلى ثلاثة أفعال: فعل القول، والفعل الكلامي، والأثر أو التأثير الكلامي، ترتبط بالحِجَاج تحت الأثر أو التأثير الكلامي، لأن الأفعال التحقيقية التي يندرج الحِجَاج تحتها، ينتظرون منها تسويغات قبل أن يمنحوا انضمامهم إلى صف الملفوظ فيها... بمعنى يتوجب على المتحدث إقناع سامعيه، والنجاح مرهون بفاعلية الحجاج المقدم[٧].

ومن السمات المهمة التي يتميز بها أي خطاب (الحِوارية) والخطاب الحِجَاجي بشكل خاص يهتم بالتواصل الحِواري، الذي برز بوضوح على صعيد التواصل الفكري الذي اتضح مع (التّداوليّة المتعالية) لدى كارل أوتو أبل و(التّداوليّة العالمية) لدى يورغن

---

(١) الحجاج في البلاغة المعاصرة، د محمد سالم محمد الأمين الطلبة،١٧٦، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.

(2) *Principals of Pragmatics, p. 13.*

نقلاً عن ومضات من التّداولية في كتاب الرسالة للأمام الشافعي (ت٢٠٤هـ)، بريخان محمد طاهر،١٦، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة صلاح الدين – أربيل ٢٠٠٥م.

(٣) التّداولية محاولة لضبط الدّرس اللساني تجريبياً، فالح حسن،١٥،٨، الأقلام، ملف التّداولية ١٩٩٥

(٤) التّداولية النشأة والمفهوم، مؤيد عبيد، ٣٦، الأقلام، ملف التّداولية ١٩٩٥.

(٥) الحجاج والاستدلال الحجاجي، حبيب أعراب،١٣٤، مجلة عالم الفكر عدد يوليو، ٢٠٠١ نقلاً عن الحجاج في البلاغة المعاصرة،١٧٦.

(٦) الفعل الكلامي، هشام عبد الله خليفة،١١، مكتبة ناشرون،لبنان،ط١، ٢٠٠٧،١.

(٧)التّداولية محاولة لضبط الدّرس اللساني،٢١

هابرماس، إذ إن أساس الحِجاج في منظور بعض هذه الاتجاهات التَّداوليَّة هو الحِوارية وما تتطلبه من عمليات حِجَاجية تتنوع وتتباين تقنياً بتنوع وتباين أنماط التحاور ومراتب الحِوارية[١].

وهذه الدراسة تسعى إلى تحليل الخطاب الشعري بوصفه خِطاباً حِجَاجياً (لا يرى في الحِجَاج نمطاً من أنماط الخطاب المتعددة، بل هو ركنٌ متضمنٌ في الخِطاب ذاته)[٢] وذلك من خلال وصف الخطاب بـ(اللغة التي يسيطر عليها المتكلم في حالة استعمال، ليكون مرادفاً للكلام *Parole* وهو وحدة تساوي أو تفوق الجملة، مكون من متتالية تشكل رسالة ذات بداية ونهاية، وتشتغل اللغة فيه وسيلة تواصل)[٣] وتشترط جوليا كرستيفا في الخطاب التواصل في سياقات معرفية وتداولية وسوسيوثقافية وتاريخية[٤].

وقد اهتمت السيميائيات التَّداوليَّة (بماهية المتكلم ومصدر الكلام وفي أسيقة إنتاج الخطاب وملابسة التواصل ومقصديات الكلام والمتكلمين)[٥].

وفي دراستنا للحِجَاج في الخطاب الشعري الحديث لابد من الوقوف على مصطلح الحِجَاج فالحِجَاج لغة: الدليل والبرهان[٦] والحِجَاج جملة من الحِجَج التي يؤتى بها للبرهان على رأي أو إبطاله، أو هو طريقة تقديم الحجج والاستفادة منها[٧].

وفي الاصطلاح: هو فن الإقناع وطرائق الاستدلال الحاضر في الخطاب كما تؤكده النظرية الحديثة[٨].

ويرتبط الحِجَاج بالخِطاب أي باللغة مستخدمة في سياق مما يعني انه ليس وقفاً على خطاب معين ولا بطرائق تنظيم للخطاب محددة[٩].

---

(١) الحجاج في البلاغة المعاصرة،١٧٧.

(٢) الحجاج بين المنوال والمثال، د. علي الشبعان، ٧٢، مسكيلياني للنشر،ط١، ٢٠٠٨.

(٣) لسانيات النَّص نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، د. احمد مداس، ١٠، عالم الكتب الحديث، الأردن،٢٠٠٩.

(٤) انفتاح النص الروائي، د. سعيد يقطين، ٨٣، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان،٢٠٠١.

(٥) الدلالات المفتوحة مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة، احمد يوسف، ١١٤-١١٥ عالم الكتب الحديث،الأردن،ط٢، ٢٠٠٩.

(٦) المعجم الوسيط،ج١،١٥٧،(مادة حج) مجمع اللغة العربية، القاهرة.

(٧) المعجم الفلسفي، جميل صليبا، ١/٤٤٦، دار الكتاب اللبناني، بيروت/ لبنان.

(٨) دراسات في الحجاج قراءة لنصوص مختارة من الأدب العربي القديم، ٤، د. سامية الدريدي الحسيني، عالم الكتب الحديث،٢٠٠٩.

(٩) في تحليل الخطاب السردي وجهة النظر والبعد الحجاجي، محمد نجيب العمامي، ٨٩، الشركة التونسية للنشر، تونس.

أما الخطاب فهو جملة التقنيات الخطابية التي تمكن مستخدمها من إثارة الاعتقاد أو ترسيخه في العقول خلال أطروحات مقدمة أو أقوال معروضة[1].

وارتبط الحجاج بالخطابة بوصفها فن العمل على الإقناع، إذ يلجأ الخطيب لحمل مخاطبه على الإقناع إلى قوة الكلام وفعل العبارة والأداء كما يرتبط الحجاج بالاستدلال والمنطق[2].

لكن هناك من النقاد ومنهم (بيرلمان) في كتابه (مقال في البرهان: البلاغة الجديدة).الذي يعتمد فيه على محاولة لإعادة تأسيس البرهان أو المحاججة الاستدلالية[3] إذ يرى أن الحِجاج ليس استدلالاً تعليلياً يدور في حقل البرهان المنطقي وخارج كل اندراج للذات بل يتطلبُ أمراً آخراً معاكساً لذلك تماماً هو وجود العلاقة التفاعلية بين الباث والمتقبل[4].

ويعد الحِجاج جزءاً من الدراسات التّداوليّة كون الأخيرة تشدد على أن سلوك الأفراد إزاء الخطاب مرهونٌ بحجة صاحبه أي المتلفظ به، وأن ما يدعى (بالتفكير بالحجة) تحديداً، التفكير إذ تتأتى قيمة الجملة من حجة صاحبها، من هنا يقع على محلل الخطاب أن ينظر في الشروط التي تجعل الخطاب ذا حجة أي الإبانة عن السياق الذي يجعل الخطاب مشروعاً وفعالاً من خلال المشاركين في التخاطب[5] ومن خلال إقناع الآخرين بمصداقية طروحاته وحمل المتلقي على القبول بها فيتحقق التواصل معه بقصدية مسبقة، وتنجلي مقولة القصدية بالخصوص في الربط بين التراكيب اللغوية ومراعاة غرض المتكلم والمقصد العام من الخطاب في إطار مفاهيمي مستوف للأبعاد التّداوليّة للظاهرة اللغوية[6].

والحِجاج من الناحية العملية لدى التداوليين (فاعلية لفظية واجتماعية للعقل ترمي إلى مضاعفة قبول وجهة نظر مخالفة في نظر السامع أو القارئ أو تقليصها وذلك من خلال تقديم جملة من الاقتراحات تستعمل في البرهنة على نقض وجهة نظر الآخر وفق حكم عقلي)[7] ويلازم البعد الحجاجي خطابات متعددة[8]. والخطاب الشعري

---

(١) الحجاج بين المنوال والمثال، ١٥

(٢) م. ن، ١٥.

(٣) بلاغة الخطاب وعلم النص، د صلاح فضل، ٧٣، سلسلة عالم المعرفة (١٦٤) المجلس الوطني للثقافة والفنون - الكويت،١٩٩٢م.

(٤) الحجاج بين المنوال والمثال، ١٥.

(٥) المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، ت محمد يحياتن، ١٢-١٣ الدار العربية للعلوم، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.

(٦) التّداولية عند العلماء العرب، د. مسعود صحراوي، ١٠، دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠٥.

(٧) الحجاج بين المنوال والمثال، ١٨.

(٨) في تحليل الخطاب السردي،وجهة النظر والبعد الحجاجي، ٨٩.

واحدٌ من هذه الخطابات بوصفه تعبيراً عن رؤية الشاعر وتوجهاته التي تمنح النّص فرادته وتميزه في الموضوعة التي يختارها ليعبر عنها في سياق ثري تتناسل فيه الدلالات التي تتضافر لغاية واحدة هي إقناع المتلقي بوجهة نظر معينة تهدف إلى التأثير في المتلقي واستمالته لقبول وجهة النظر تلك.

لقد توسعت دائرة تحليل الخطاب الحِجَاجي وأصبحت لها منطلقات متعددة تعتمد بدورها مقاربات كثيرة منها[1]:

المقاربة اللغوية	المقاربة التخاطبية	المقاربة التحاورية -التفاعلية
المقاربة الأنواعية	المقاربة الأسلوبية	المقاربة النصانية

ولكن تعدد هذه المقاربات لاينفي توحدها في سمتين بارزتين موجودتين داخل كل خطاب حِجَاجي:

الأولى: التفاعل ويكون على ضربين فعلي حقيقي وافتراضي

الثانية: التحاورية.

أما أبرز خصائص النّص الحِجَاجي فهي[2]:

١- الانسجام والتناغم.

٢- الحياد.

٣- التوجيه.

٤- الأستدلال.

فالنّص الحجاجي نص يسوده الانسجام بين أقسامه الكبرى فلا تناقض بين المقدمات والنتائج، لأن كل تناقض يُقوض الحِجَاج ويُجهز على كل محاولة اقناع.

أما الحياد: فميزته تكمن في أنه كلما أنكر الحِجَاج نفسه كان قوياً ناجعاً لأن النّص كلما كان موضوعياً محايداً يعرض الحقائق ولا يسعى إلى فرض فكرة أو موقف كان ناجحاً، ويمكن أن يلجأ الباث أحياناً إلى النزوع نحو المخاتلة والخداع ليمارس التأثير.

أما التوجيه: فيقوم على توجيه المتلقي وقيادته إلى غاية واحدة أو وجهة واحدة في الخطاب هي الفكرة المراد الإقناع بها.

أما الاستدلال: فهو سياق النّص العقلي أي تطوره المنطقي.

فالنّص الحِجَاجي نص قائم على البرهنة يبني نفسه على وفق نظام معين تترابط فيه العناصر وفق نسق تفاعلي وتهدف جميعاً إلى غاية مشتركة هي إقناع المتلقي بوجهة نظر معينة. ويرد الحِجَاج بطريقتين:

---

(١) الحجاج بين المنوال والمثال، ٢٠.

(٢) دراسات في الحجاج، ٧-٨.

١- متخفياً أو غير مباشر.

٢- صريحاً أو مباشرا.

وورود الحجاج في هذين الشكلين حمل بعض الدارسين على التمييز بين:

١- المقصد الحجاجي الصريح والمباشر.

٢- والبعد الحجاجي المضمر وغير المباشر.

ويتخذ الحجاج الذي يرسمه الشاعر لنفسه آليات مُختلفة تهدف جميعها إلى تحقيق هدفٍ واحدٍ، هو إقناع المتلقي بالحجج التي يسوقها معبراً عن وجهة نظره في الموضوعات المختلفة.

ومن أهم آليات الحجاج[1]: الاخبار والتفسير والإقناع، اذ تظهر آلية الاخبار من خلال الأسلوب الخبري في قصيدة (لا تصالح) لأمل دنقل وتعد ظاهرتا الإثبات والنفي من أكثر الظواهر وروداً في هذا الأسلوب لذلك بنى النحاة العرب عليهما كثيراً من الأصول النحوية والمسائل التطبيقية بحكم أن الأغراض التواصلية تتحقق فائدتها عبر ضروب الخبر والإنشاء ومنها الضربان الخبريان (الإثبات والنفي)[2].

فعلى صعيد العنوان بوصفه جزءاً من استراتيجية النّص،يعمل موجهاً رئيساً للنص الشعري[3] ولاسيما أن القصيدة بدأت وانتهت به وهذا يدلل على أهمية الهدف الذي يحمله وهو الغاية التي يقف وراءها قصد الشاعر في عرض القضية بوصفها قضية رأي عام للنقاش، فضلاً عن سعي النّص للتمسك بهذه القضية من خلال معاودة تكرار العُنوان الذي مثّل القضية وشكل نوعاً من (المغالطة القصدية، التي تعد فيها القصيدة تعبيراً عن ذات المؤلف، وبهذا تكون القصيدة سبيلاً يفضي إلى المؤلف ذاته)[4]، فالعنوان يفترض وجود الجملة الإنشائية الطلبية القائمة على النهي (لا تصالح) انه بالإمكان أن يتوفر فعل انجازي احتمالي مستقبلي (صالح)، أمنا الافتراض المسبق الذي يعد من مضمرات القول هو وجود خصومة، وجود اعتداء، وجود خسارة، وفي حالة النفي تحديداً (لا تصالح) يفترض أن المتخاصم لن يتجاوب معك إذ إن تشجيع الباث وتحفيزه للآخر بعدم الصلح يستند على أن في الصلح خسارة نسبب بالتأكيد هدر الحق لعدم توفر النية الطيبة من الآخر، في المقابل انعدام الصلح يستلزم مقاطعة العدو وما يترتب على المقاطعة من جوع وتشرد واضطهاد، فالقوة الانجازية الحرفية توفرت في الجملة بوجود النهي (لا تصالح) وينهض هذا الملفوظ بوصفه فعلاً قولياً غايته التأثير في المتلقي بالرفض أو القبول.

(1)www.ar.wikipedia.org/windox.phb? Title.

(٢) التداولية عند العلماء العرب، د مسعود صحراوي، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٤، ٢٠٠٥.

(٣) سيمياء العنوان، أ.د بسام قطوس ٦١، دائرة المطبوعات، وزارة الثقافة الأردن، ط١، ٢٠٠١.

(٤) دليل الناقد الأدبي، دميجان الرويلي، د سعد البازعي،١٥٦، المركز الثقافي العربي، ط٢، ٢٠٠٠م.

ولذلك فالنّص الحِجَاجي يفترض مرحلة للتفكير بـ

الأطروحة المعروضة المفترضة ⇐ صالح

والأطروحة الرافضة المقترحة ⇐ لا تصالحْ

فبنية المقابلة الناشئة بين الإثبات والنفي تفترض وسائل إقناع تتوزع:

بين ← المنطقي الاستدلالي

← البلاغـــي

← واللغـــوي

فعلى الصعيد المنطقي الاستدلالي:-

لدينا مقدمة أولى كبرى أساسية (لا تصالحْ)(1)

ومقدمة ثانية صغرى ثانوية (لا تتوخ الهربْ)(2).

من هاتين المقدمتين يمكن أن نستنتج نتيجة بعد أن نسأل

إذا لم يصالحْ

وإذا لم يتوخ الهربْ

ستكون النتيجة:

الإعداد للمواجهة ورفض التصالح.

وهذا ما يسعى النّص إليه (أوما يسمى وجهة نظر المؤلف/الشاعر التي يريد إقناع المتلقي بها) وهي نبذ التصالح مع العدو لأن فيه ضياعاً للحقوق وقد جاءت مكررة (٢٢) مرة، ولاسيما أن بنية التكرار من البنى المهمة في الخطاب الحِجَاجي ويفهم منها توكيد الكلام وتقرير المعنى وإثباته(3) فضلاً عن أنها وسيلة بلاغية مهمة يقصد إليها المتكلم لتقوية قوة المنطوق الإنجازية، كما تعد بنية التكرار استراتيجية للإقناع بالتكرير الهدف منها تثبيت تبريره دعواه(4). وإذا كان من صفات المقدمة أن تكون واضحة(5) لا لبس فيها، وإذا كان الحِجاجُ تبريراً فينبغي أن يوجزَ المحتج جملة تبريرات أو حجج بوصفها دعائم لإقناع المتلقي، ويفترض أن تكون الحجج واقعية وفي الخطاب

(1) الأعمال الشعرية، أمل دنقل، ٣٩٤. مكتبة مدبولي.

(2) م. ن. ٣٩٥.

(3) النص والخطاب والأتصال د. محمد العبد، ٢٣١، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥.

(4) م.ن.، ٢٤٠.

(5) http:/ar.wikiped.org/windaxphb

الشعري يمكن أن تتوفر في صور حجاجية تستند إلى أفعال إنجازية نسبة إلى نظرية الفعل الكلامي التي قال بها أوستن في كتابه (كيف نصنع أشياء بالكلمات). لأن أوستن صاغ المصطلح بإضافة *per* وتعني بواسطة إلى *locutionary* أي كلامي وذلك للدلالة على التأثير الذي يحصل على المخاطب عن طريق أو بواسطة الفعل الكلامي وكنتيجة له[1].

ويسعى الشاعر من خلال أفعال إنجازية متعددة أن يوجز أحداثاً كبيرة من أجل أن يوفق في إقناع المتلقي، وقد تعددت في قصيدة (لا تصالح) وسنأتي عليها في التطبيق.

يحصر هتخفلد وما كتزي عدد القوى الإنجازية في اثنتي عشرة قوة إنجازية وهي: (الخبر والاستفهام والأمر والنهي والتمني والدعاء والتحضيض والنُّصح والالتزام والالتماس والاستغراب)[2].

وإذا تتبعنا النَّص الشعري المدروس نجد توافر كل هذه القوى تقريباً، مما يدلل على قدرة المؤلف على الاستعانة بكل ما يساعده على إثبات دعواه، ليحقق ميل القارئ اتجاه قضيته المطروحة، وسنأتي على توضيح ذلك من خلال النَّص.

أترى حين افقأ عينيك،
ثم اثبت جوهرتين مكانهما.
هل ترى...؟[3].

إن معنى الاستفهام بوصفه (فعلاً كلامياً استعلامياً) يصنع كما يرى (أوستن) فعلاً اجتماعياً هو في المبدأ التداولي الفائدة المرجوة في إقناع المتلقي بالتصديق أو عدمه[4]، ومن هنا يشتغل الاستفهام بـ(الهمزة وهل) في النَّص بوصفهما صيغتين بلاغيتين تعمدان إلى تنبيه المتلقي، فالفعل (ترى) الذي ولي أداة الاستفهام:هل هو المشكوك فيه والمستفهم عنه (هل ترى...؟)

من خلال أداء الفعل (أفقأ) في الجملة الإنجازية (أترى حين أفقأ عينيك) بوصفه فعلاً إنجازياً بدلالته على (القلع)[5] الذي يولد العجز عن الرؤية وانقطاع الحياة عن العينين، والذي لا ينفع معه تثبيت جوهرتين مكانهما، فمقابلة الفعل أفقأ/اثبتُ قد يعيد شكل الوجه لكنه لن يعيد الرؤية بالسؤال

---

(١) نظرية الفعل الكلامي،هشام إبراهيم عبد الله خليفة،٢٩، مكتبة ناشرون، لبنان، ط١، ٢٠٠٧

(٢)الخطاب وخصائص اللغة العربية،دراسة في الوظيفة والبنية والنمط،احمد المتوكل،٥٧-٥٨،الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، ٢٠١٠م.

(٣) الأعمال الشعرية، ٣٦٤.

(٤) التّداولية عند العلماء العرب،١٩٦-١٩٧

(٥)لسان العرب، ابو الفضل جمال الدين بن منظور، مادة(فقأ)، م٢/١١٦٥، دار صادر، بيروت ،١٩٥٦.

هل ترى...؟

بكل ما يحمله من دلالة استنكار ضمني يدخر جواباً في داخله لن ترى.

هي أشياء لا تشترى

ذكريات الطفولة بين أخيك وبينك[١].

وهذه النتيجة التي ينهي الشاعر بها هذا النّص متشكلة في حقيقتين:

الاولى: إن في الحياة أشياء لاتشترى: البصر/الوطن.

الثانية: ذكريات الطفولة التي ستنتهي، وفقدانها لايمكن أن يعوض، وهذا من باب تدعيم القيمة، قيمة الشئ المفقود، والقيمة مفهوم يستخرج مما يقوله الناس، ومما يفعلونه، ومما تبنيه المجادلات[٢].

ومن التدعيم بالقيمة أيضاً ورود المثل ضمنياً في قوله:

هل يصيرُ دمي بين عينيك ماءً؟[٣] فهذه الجملة الاستفهامية تضمر المثل الذي يقول (الدم ما يصير ماء) في دلالة على الرابط الأخوي بينهما، وقد أكد ابن وهب على علاقة المثل بالحِجاج إذ يقول (المثل مقرون بالحجة)[٤].

أما الجمل الخبرية فهي الأخرى حاضرة في النّص، ومعززة مبررات المحاجة التي لن تغيبَ عن الذاكرة وان خفتَت بفعل مشاغل الحياة، وتستخدم في دحض أمل المعتدي بالموافقة على التصالح.

ذكريات الطفولة بين أخيك وبينك[٥].

هذا الحياءُ الذي يكتب الشوق... حين تعانقه[٦].

الصمتُ – مبتسمينِ – لتأنيب أمكما[٧].

جئناك كي تحقن الدم[٨].

سيقولون:

ها نحن أبناء عمْ

قل لهمْ: إنهم لم يراعوا العمومة فيمن هَلَكْ

---

(١) الأعمال الشعرية، ٣٩٤.

(٢) ينظر النص والخطاب والأتصال،٢١١.

(٣) الأعمال الشعرية،٣٩٥.

(٤)البرهان في وجوه البيان، ابن وهب(ابو الحسين اسحق بن ابراهيم بن سليمان)، تح د.أحمد مطلوب، ود.خديجة الحديثي ،١٦٠، ساعدت جامعة بغداد على لشره، العراق ، ط١، ١٩٦٧ وينظر: النص والخطاب والأتصال ،٢١٠ .

(٥) الأعمال الشعرية: ٣٩٤.

(٦) م.ن: ٣٩٤.

(٧) م.ن: ٣٩٤.

(٨) م. ن: ٣٩٦.

واغرسْ السيفَ في جبهة الصحراء...
إلى أن يجيب العدم[١].

فالجملة الإنجازية (اغرس السيف في جبهة الصحراء) التي وجه المؤلف بها (الفارس) بعد شحنه بكل الذكريات، وقد وفق في تخيره الفعل (اغرسْ) وهو فعلٌ إنجازيٌ يعمل بصيغة الأمر بوصفه فعلاً ايجابياً يتكئ على الغرس، وهو الشجر الذي يثبت في الأرض بكل ما فيه من دلالة الثبات المادي والانتفاع الروحي بإحساس القوة والتشبث بالتراب والنزول منزلة المالك الأصلي للأرض التي يحاول العدو الغاصب أن يمحوها من ذاكرة الجيل، ولاسيما أن النزاع على ملكية الأرض جزءٌ من الاعتراف بالوطن المسلوب أرضاً وشعباً فصيغة الأمر (اغرسْ) فيها استنفار للهمم وحجة قاطعة للبقاء على الأرض وتعميرها، ولكن إقصاء الزرع وتقديم السيف(اغرس سيفك) بكل ما تحمله دلالة السيف من قوة بمقابلة العدو والانتصار عليه وما استعان به النّص بعد ذلك من أفعال مضارعة موحية بالبقاء المستقبلي للفارس الموعود (يولد، يوقد، يطلب)

سوف يولد من يلبس الدرعَ كاملةً
يوقد النارَ شاملةً

ويختم النّص بـ(إلى أن يجيب العدم) وما تولده دلالة (العدم)، التي تعني قبل أن يكون الإنسان شيئاً، وبعد أن يستجيب و يصبح شيئاً (الولادة)، وما يرافق ذلك من مخاض وشدة ليس في الولادة حسب وإنما في فعل الثورة الذي تجسده دلالة (يوقد) بوصفه فعلاً إنجازياً حركياً، والوقد نَفَسُ النار وتوقدت واتقدت النار(هاجت) بكل ما يحمله التهيج من أصوات، اختصرت فيه الفعل الحركي للثورة ببعده السياسي الذي يختزن فيه الحرب الشاملة التي يطلبها الثائر ممن سلبوا الأرض وأضاعوا العرض.

سوف يولدُ من يلبسُ الدرعَ كاملةً،
يوقد النّار شاملةً،
يطلب الثأر
يستولد الحقَّ،
من أضلع المستحيل[٢].

ولو تأملنا القصيدة لرأينا الصور الحجاجية، التي استعان بها الشاعر، إذ توفرت في هذه الصور ممارسات حياتية مختلفة بدأت بالطفولة والانتقال إلى مرحلة الصبا والشباب، إذ مثلت مرحلة الصبا بكل ما تحمله من عنفوان وما توفره هذه المرحلة من

---

(١)الأعمال الشعرية: ٣٩٦.
(٢) م. ن: ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤.

روح الدعابة والمرح بين الأخوة، ذلك الجو العائلي الذي يدل على الاستقرار والطمأنينة في بيت آمن يحمل الذكريات على مدى العمر، وفي انتقالة مفاجئة لمرحلة الرجولة التي تحمل في أجّل معانيها المسؤولية الحقيقية اتجاه الأسرة والوطن.

حسكما فجأة -بالرجولة-
هذا الحياءُ الذي يكتب الشوق... حين تعانقه
الصمت – مبتسمين – لتأنيب أمكما...
وكأنكما
ما تزالان طفلين؛ تلك الطمأنينة بينكما[١].

وصورة حجاجية أخرى تمثل مرحلة البهجة والفرح الطفولي، حينها لم يكن العدو موجوداً تلك هي ذكريات الطفولة لفتاة صغيرة (ابنة أخيه) هذه الصورة التي تُثري بألق الطفولة البريئة لفتاة صغيرة تحبو ممسكة بساقه، وما يشكل ذلك من ثقافة تعي معنى هذه الحركات الطفولية وتتمسك بها على صعيد الذاكرة الدائمة.

تعدو على درج القصر
تمسك ساقي عند نزولي
فأرفعها – وهي ضاحكة
فوق ظهر الجواد[٢].

وتبرز صورة حجاجية أخرى كانت نتيجة للعدوان الغادر، تلك هي صورة الفتاة الصغيرة التي أثكلها العدوان أباها فاختفت وراءها صورة الجد الذي يداعب الأحفاد، وهي ليست قضية موت طبيعية عادية وإنما هي قضية جيل يسعى العدو إلى تدميره وقتل لحظات الفرح فيه...

حرمتها يد الغدر
من أب يتبسّم في عرسها...
ونعود إليه إذا الزوج أغضبها...
وإذا زارها... يتسابق أحفاده نحو أحضانه
لينالوا الهدايا...
ويلهو بلحيته (وهو مستسلم)
ويشدوا العمامة[٣].

ومن وسائل الإقناع اللغوية التوكيد والشرط والنفي، والتكرار اللفظي والمعنوي،

---

(١) الأعمال الشعرية: ٣٩٤.
(٢) م. ن: ٣٩٧.
(٣) الأعمال الشعرية، ٣٩٩.

والاستفهام والنداء والأمر وقد احتضنت القصيدة هذه الوسائل[١].

فالتوكيد في النص بـ(إنّ) فيه تأهيل لحقيقة يدركها المتكلم وهو يسعى للانتصار لقضيته وان كان الثمن غالياً (التضحية /الموت)، فعلى مستوى القول يرى لفعل التضحية من خلال إقناع المقاتل بأن بيته وطفله في أمان لأن مهمته ليست شخصية وإنما هي خدمة للوطن الذي تقف خلفه الجموع محتضنة ابنه وحارسة لبيته.

إنك إن مت
للبيت رب
وللطفل أب[٢].

أما أحرف العرض فهي أيضا حاضرة في النص ومنها(لو) التي استخدمها الشاعر كثيراً في النص وغالباً ما تستخدم في النّص الحِجَاجي لتقوية المنعة لديه مهما حاولوا إغراءه بالمال والسلطان، لأن الوعي الذي يهبه الشاعر/ الباث، من خلال التقليل من أهمية العروض المقدمة من قبل المعتدي (الذهب، تاج الإمارة)[٣]. ولاسيما أنه يجلي عن بصيرة الفارس الخداع الذي يخفيه المعتدي هو ومن يسانده ممن باعوا الوطن.

جئناك كي تحقن الدم[٤]
ولو قيل ما قيل من كلمات السلام[٥]
لا تقتسم مع من قتلوك الطعام[٦]
لو ناشَدَتْك القبيلة
باسم حزن (الجليلة)
أن تسوق الدهاء[٧].
لو قيل إن التصالح حيلة،
لو حذّرتك النجوم،[٨]
ولو وقَفَتْ ضدّ سَيْفِكَ كلُّ الشيوخْ)[٩]

---

(١) اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان،١٢٤، عالم الكتب، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٦.
(٢)اللغة العربية معناها ومبناها، مصدر سابق،٣٩٥.
(٣) المرجع نفسه، ٣٩٤ و٣٩٩.
(٤) الأعمال الشعرية، ٣٩٦.
(٥) المرجع نفسه، ٤٠٦.
(٦)المرجع نفسه ٤٠١
(٧) المرجع نفسه، ٤٠٢.
(٨) المرجع نفسه، ٤٠٣.
(٩) المرجع نفسه، ٤٠٧.

كما أن الحوار جزءٌ مهم في الحِجَاج، ولا سيما إذا (استطاع المرسل (المُحاجِج) أن يقدم أطره البُرهانية، من خلال (محاولة إقصاء) كل المساعدات على حجاج مستقبلي يدحض الراهن)[1] وهذا ما نلمسه في النص باختيار براهين منطقية على مستوى الفكرة التي يدافع عنها من جانبين:

الأول: استبعاد صفة القدسية عن عدوه، ليكون له الحق في التحكم بمصيره.

الثاني: القيمة التي أعطاها لنفسه بوصفه معادلاً لخصمه (نداً مساوياً) باستخدامه النفي بـ(ليس) وصيغة أفعل التفضيل (أنبل، أمهر) التي توفر بمصاحبتها لليس تساوي الخصمين في القوة والمهارة.

الذي اغتالني: ليس ربّاً..
ليقتلني.. بمشيئته
ليس أنبل منّي.. ليقتلني بسكينتِهِ،
ليس أمهر منّي.. ليقتلني باستدارته الماكرة[2].

إن صدقَ الحِجة يجب أن يقدمَ لها بمبررات توظفُ من قبل الباث لإرساء حقيقة معينة، لأن النّص في جملته إنما هو (نص في موقف)[3].

ولقد استطاع المؤلف أن يفعل ذلك باستخدامه أسلوب الجزم عن كل ما يجعله مداناً في قضية أو مغتصباً أو قاتلاً كما هو العدو.

لم أكن غازياً،
لم أكن أتسلّلُ قربَ مضاربهم
أو أحومُ وراءَ التخوم
لم أمدّ يداً لثمار الكروم
أرضَ بستانهم لم أطَأ
لم يَصِح قاتلي بي (انتَبِه)[4]!

ومن مهمات المُحاجِج بناء القيم التي يريدها لأنه يؤسس لوعي مجتمعي له "دورٌ فعالٌ في بناء الثقة بين المتحاورين، لذا فقد عدها بيرلمان قواعد حِجاجية يستندُ عليها المُحاجِج لكي يحمِل المُخاطَب على القيام بأفعال معينة دون أخرى"[5].

عندما يملأُ الحقُّ قلبكَ:
تندلع النارُ إن تتنفَّس،

---

(١)الحجاج و البلاغة المعاصرة، ١١٢.

(٢) الأعمال الشعرية، ٤٠٦.

(٣) علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، أ.د سعيد بحيري، ١٥٠، مؤسسة المختار، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣.

(٤) الأعمال الشعرية، ٤٠٤.

(٥)ينظر الحجاج والبلاغة المعاصرة، ١١٢.

س لا تصالح[1].

إن قيمة (الحق) معيار لصدق القضية التي ندافعُ عنها، والقيمة يمكن أن تعززها من ناحيتين: ذاتية وموضوعية،

الذاتية: هي التي تجعل الشيء مطلوباً أو مرغوباً فيه عند شخص واحد أو عند طائفة معينة من الأشخاص.

والموضوعية: هي ما يتميز به الشيء من صفات تجعله مستحقاً للتقدير كثيراً أو قليلاً.[2] والقيمة تتعزز في الذات بالرغبة أولاً، إلا أن ما يطمح الإنسان إليه هو الوصول إلى الموضوعية لأن قيمة شيء من الأشياء هي إمكان الرغبة فيه ومن ثم يود كل امرئ أن يبلغ في تقديره لقيمة ما منزلة الموضوعية، وينزع في جميع الأحوال إلى التخلص من الذاتية حتى يهب القيمة صبغة الحقيقة، من هنا كان ارتباط القيمة بالواقع ومن ثم بالوجود[3]، وبنية القيمة وبنية الوجود تشمل على تعاون الضرورة والتجاوز دوماً في تأليفها، لأن كل بحث في القيمة ينطلق من الإنسان ويلازم وجوده لذلك كانت القيمة تعالياً على الذات أو تجاوزاً للذات[4] والقيمة (تعرف بالاهتمام وكلما زاد الاهتمام زادت القيمة)[5]، لذلك كان اهتمام الشاعر بهذه القيمة بوصفها قيمة عليا سامية يدرك من خلالها أهمية صدق القضايا كلها في الواقع الذي يعيش فيه، في ظل هيمنة المعتدي الغاصب لكل الحقوق، إلا أن ذلك لم يثنيهِ عن الدفاع عن قضيته، بل شكلت هذه القضية حياته التي يعيش النضال والمعاناة من أجل تحقيقها والتي جسدها المؤلف بانفتاح لاحدود له عندما أعطاها لصيغة المجهول (س) الذي يفتح بأفق النَّص ليشمل كل فلسطيني يدافع عن حقه بالعودة ونبذ التصالح الزائف الذي يصادر دم الأبرياء.

وقد يستعين المُحاجج بالاستعطاف من أجل استمالة وإقناع محاوره اتجاه إحساس عاطفي يثير انفعالاً، ولا سيما في حالة الموت وفقدان الأحبة.

تذكَّر

(إذا لان قلبك للنسوة اللابسات السواد ولأطفالهن الذين تخاصمهم الابتسامة)

إن بنتَ أخيك (اليمامة)

زهرة تتسربل- في سنوات الصبا.

---

(١) الأعمال الشعرية، ٤٠٠.

(٢) المعجم الفلسفي، مادة قيمة، ٢/٢١٢-٢١٣.

(٣)القيمة، بول سيزاري، ت عادل العوا، ٧٧، دار الكاتب اللبناني، بيروت، لبنان.

(٤) م. ن، ٧٧.

(٥) القيم في الواقعية الجديدة عند رالف بارتون بيري، ت احمد عبد الحليم عطية، ٢٢٧، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٨٩.

بلهاب الحداد[١].

ومن تقنيات الحجاج الحشد والجمع[٢] وقد يكون في الصفات والنعوت،وقد يكون في حشد صور حياتية مختلفة يشكل فقدانها خسارة تعرّض لها هو ضد خصمه الذي فاز بكل شيء.

كلُّ شيء تحطّم في لحظة عابرة:

الصبا -بهجةُ الأمل- صوتُ الحصان- التعرُّفُ بالضيف- همهمةُ القلب حين يرى برعماً في الحديقة يذوي- الصلاةُ لكي ينزلَ المطرُ الموسميُّ- مراوغة القلب حين يرى طائرَ الموتِ[٣].

ومن تقنيات الحجاج أيضا استخدام حجج السلطة.[٤].

ولقد ظهر في النّص من خلال صيغة الأمر(ارو) التي تكررت لأقرار وتثبيت ما يدعو إليه وما يشكله هذا الفعل من دلالة على عطش معنوي جمع كل أدوات التضحية (الدم، التراب، الرافدين، العِظام)

اروِ قلبك بالدم..

وارو الترابَ المقدَّس...

وارو أسلافَك الراقدين...

إلى أن تردَّ عليك العِظام![٥].

وأخيراً لابد للحجاج من نتيجة يختم بها المَحاج نصه بعد أن قدم مقدمة وعرض جملة مبررات بتقنيات مختلفة، من نتيجة يتوصل بها مع من يحاول إقناعه بالبراهين التي استعرضها في نصه، والنتيجة التي ينتهي إليها هي عدم التصالح مع المعتدي منتقداً كل الرؤساء والزعماء العرب والشيوخ الذين طعموا الثريد وامتطوا العبيد، العميان الذين تدلت عمائمهم فوق أعينهم.

لا تصالحْ

ولو وقفت ضدَّ سَيفِك كلُّ الشيوخ،

والرجالُ التي ملأتها الشروخ،

هؤلاء الذين يُحبون طعم الثريد،

وامتطاء العبيد،

---

(١) الاعمال الشعرية، ٤٠٦.

(٢) الحجاج والبلاغة المعاصرة، ١٣٦.

(٣) الاعمال الشعرية، ٣٩٧.

(٤) م. ن: ٤٠٥.

(٥) م. ن: ٤٠١.

هؤلاء الذين تدلت عمائمهم فوق أعينهم،
وسيوفهم العربية قد نسيت سنوات الشموخ،[1]

وقد بنى هذه النتيجة من خلال إعطاء الثقة بالنفس بالتدليل عليها بكلمة (فارس) هذا الزمن الوحيد الذي يصالح برغبته وفي الوقت الذي يريد، ليس بأمر من أحد،لأنك فارس هذا الزمان بكل ما تحمله من دلالة على الثقة والقوة التي يبنها المؤلف وهي من متطلبات الحِجاج المهمة،من خلال المقابلة غير المتكافئة الفارس / المسخ

لا تصالحْ.
فليس سوى أن تريد
أنت فارس هذا الزمان الوحيد
وسواكَ... المسوخ![2]

ولا يكتفي المؤلف بذلك بل يقدم له شروط الصلح،عندما يعود كل شيء.

إلى أن يعودالوجود لدورته الدائرة:
النجوم . لـ . ميقاتها.
الطيور . لـ . أصواتها
الرمال . لـ . ذراتها
القتيل . لـ . طفلته[3].

إن في استحالة تحقيق هذه المطالب بوجود العدو الصهيوني، من خلال اغتصاب الأرض الفلسطينية أمام مرأى ومسمع العالم، ستكون عملية الصلح سلبية، لذلك انتهت القصيدة بنفس المقدمة (لا تصالحْ) على البناء الدائري، بعد أن استطاع المؤلف على صعيد التلقي أن يمارس الإقناع المنطقي بتتابع الأحداث وانسجامها في خطابه الشعري الموجه، على صعيد التواصل والتأثير الثوري، الذي شكل جزءاً من تجارب الواقع المعيش،الذي لا يسعف من قبل الحكام ليحقق الانتقالة الحقيقية من التهاون إلى تحصيل الحقوق، التي تشكل في كل الأحيان أمل الجماهير العربية بالانتصار لكل القضايا.

ان توسيع دائرة النقد الادبي وممارساته تعني تبني مصطلحات جديدة وتشكيلها على وفق رؤية معرفية تسهم في اثراء الدراسات النقدية الادبية ، ومصطلح الحجاج واحد من المصطلحات التي تمثل مسارا من مسارات التداولية التي تهتم بمفهوم

(١) م.ن: ٤٠٧.
(٢) الأعمال الشعرية: ٤٠٧.
(٣) م. ن: ٤٠٥.

التواصل الانساني وهو يمارس ادواره الاجتماعية اذ يشتغل على وسائل الاقناع التي توظف لاحداث التاثير في المتلقي بالقبول او الرفض، من هنا وجدنا كيف اعتمدت القصيدة على بعض الوسائل الاقناعية التي توزعت بين المنطقي الاستدلالي واللغوي والبلاغي الذي يثبت اهمية تقديم الدعائم والمبررات من اجل البرهنة على رفض معادلة الصلح مع العدو كونها معادلة خاسرة لاسباب اهتمت القصيدة بعرضها شعريا . كما وصل البحث الى اهمية نظرية الفعل الكلامي التي تعتمد على الافعال الانجازية المختلفة والتي تنوعت في الخطاب الشعري المدروس بين الخبر والاستفهام والامر والنهي والتمني والدعاء وغيرها ، مؤكدا عبر محاورد قدرة الحجاج على الافادة من الجوانب البلاغية من خلال التشكيلات الصورية التي أثرت فعل الحجاج وهو يتواشج شعريا . وأخيرا فان مساءلة الخطاب الشعري حجاجيا تعني إحضار الوعي للانطلاق نحو المعارضة والاختلاف فضلا عن التحذير من اخفاء الحقيقة وكشف طبيعة الواقع المزيف للعدو الصهيوني .

- **المصادر والمراجع**
- الأعمال الشعرية، أمل دنقل، مكتبة مدبولي.
- انفتاح النص الروائي، د. سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ٢٠٠١.
- البرهان، ابو الحسين اسحق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب، تح د.أحمد مطلوب د.خديجة الحديثي، ساعدت جامعة بغداد على طبعه، بغداد ، العراق، ط١، ١٩٦٧.
- بلاغة الخطاب وعلم النّص، د صلاح فضل، سلسلة عالم المعرفة (١٦٤) المجلس الوطني للثقافة والفنون - الكويت،١٩٩٢م.
- التداولية عند العلماء العرب، د. مسعود صحراوي، دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠٥.
- التّداوليّة والحجاج مداخل ونصوص، صابر الحباشنة، دار صفحات للدراسات والنشر،٢٠٠٨.
- الحجاج بين المنوال والمثال، د. علي الشبعان، مسكيلياني للنشر، ط١، ٢٠٠٨
- الحجاج في البلاغة المعاصرة، د محمد سالم محمد الأمين الطلبة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت،ط١، ٢٠٠٨.
- الخطاب وخصائص اللغة العربية، دراسة في الوظيفة والبنية والنمط، احمد المتوكل، الدار العربية للعلوم ناشرون،ط١ ،٢٠١٠م.
- دراسات في الحجاج قراءة لنصوص مختارة من الأدب العربي القديم، د. سامية الدريدي الحسيني، عالم الكتب الحديث،٢٠٠٩.
- الدلالات المفتوحة مقاربة سيميائية في فلسفة العلاقة، احمد يوسف، عالم الكتب الحديث،الاردن،ط٢، ٢٠٠٩.
- دليل الناقد الأدبي، دميجان الرويلي، د سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، ط٢،٢٠٠٠ م.
- سيمياء العنوان، أ. د بسام قطوس، دائرة المطبوعات، وزارة الثقافة الأردن، ط١،٢٠٠١.
- علم لغة النّص المفاهيم والاتجاهات، أد سعيد بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، ط١ ٢٠٠٣.
- في تحليل الخطاب السردي وجهة النظر والبعد الحجاجي، محمد نجيب العمامي، الشركة التونسية للنشر، تونس.

- القيم في الواقعية الجديدة عند رالف بارتون بيري، ت احمد عبد الحليم عطية، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٨٩.
- القيمة، بول سيزاري، ت عادل العوا، دار الكاتب اللبناني، بيروت، لبنان.
- لسان العرب،ابو الفضل جمال الدين بن منظور ، اعداد يوسف خياط ، دار صادر بيروت ، ط٣ ،١٩٩٤.
- لسانيات النّص نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، د. احمد مداس، عالم الكتب الحديث، الأردن،٢٠٠٩.
- اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٦.
- المصطلحات المفاهيم لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، ت محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.
- المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت/ لبنان.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، د.ت.
- النّص والخطاب والأتصال د. محمد العبد، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥.
- نظرية الفعل الكلامي، هشام إبراهيم عبد الله خليفة، مكتبة ناشرون، لبنان، ط١، ٢٠٠٧.
- **الرسائل الجامعية**
- ومضات من التّداوليّة في كتاب الرسالة للأمام الشافعي (ت٢٠٤هـ)، بريخان محمد طاهر، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة صلاح الدين – أربيل ٢٠٠٥م.
- **المجلات**
- أمير شعراء الرفض، أمل دنقل، نسيم مجلي، مجلة آفاق عربية، دار الشؤون الثقافية، بغداد،ع ٨ لسنة ١٩٨٦
- التداولية، محاولة لضبط الدرس اللساني تجريبياً، فالح حسن، مجلة الاقلام، دار الشؤون الثقافية، بغداد، العراق،ع ٥ لسنة ٢٠٠٨.
- التداولية. النشأة والمفهوم، مؤيد عبيد، مجلة الاقلام، دار الشؤون الثقافية، بغداد، العراق، ع٥، ٢٠٠٨.
- الحجاج والاستدلال الحجاجي، حبيب أعراب، مجلة عالم الفكر، دار السياسة،الكويت، عدد يوليو ،٢٠٠١.
- **المواقع على شبكة الانترنيت:**
- *www.ar.wikipedia.org.*

إنجازيــة أفعــال الكلام
مقاربــة تداوليــة لنمــاذج من الشعر العباسي

د. عبدالله بيرم يونس الراشدي *

❖ مدخل

أصبح مفهوم الفعل الكلامي (*Speech Act*) نواةً مركزية في كثير من الأعمال التداولية، وفحواه: أن (كُلُّ ملفوظٍ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري، وعلاوةً على ذلك، فهو يُعدُّ نشاطاً ماديًا نحوياً يتوسّلُ بأفعال قولية (*Locatoires Actes*) إلى تحقيق أغراض إنجازية (*Illocutoires Actes*) (كالطلب والأمر والوعد والوعيد... الخ) وغايات تأثيرية (*Prolocutors Actes*) تخصُّ ردود فعل المتلقي (كالرفض والقبول)، ومن ثمَّ هو فعل يطمح إلى أن يكون ذا تأثير في المخاطب، اجتماعياً أو مؤسساتياً، ومن ثم إنجاز شيء ما)[1].

وقد يعود الفضل في التنظير لهذا المفهوم إلى الفيلسوف الإنجليزي أوستن الذي حرص في محاضراته الأولى على التنبيه إلى أن الأكثر أهمية في الكلام أنه يعمل على إحداث فعل ما قبل أن يكون ما يعنيه، الأمر الذي دفعه إلى التمييز بين أمرين:

١- المنطوقات التقريرية التي تصف وقائع العالم الخارجي، وتكون صادقة أو كاذبة.

٢- المنطوقاتالأدائية التي تُنجز بها الأفعال؛ أي: تُؤدى بها أعمال في أثناء نطقها؛ إذ يقترن فيها النطق أو القول بأداء الفعل، أو إنجازه، وهي – لذلك – لا توصف بصدق ولا بكذب، وإنما تكون- بحسب شروط معنية[2]– موفقة الأداء، أو غير

---

* كلية التربية - جامعة الموصل

(١) في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر، مسعود صحراوي بحث مقدم ضمن كتاب التداوليات إعداد وتقديم د. حافظ إسماعيلي علوي: ٥١-٥٢.

(٢) حدد أوستن شروط المنطوقات الأدائية بما يأتي:

١. وجود إجراء عرفي مقبول، وله أثر عرفي محدد وأن يشتمل هذا الإجراء على كلمات محددة، ينطق بها أشخاص محدودة في ظروف محددة.

٢. وجوب أن يكون أولئك الأشخاص مناسبين لهذا الإجراء المحدد، ووجوب أن تكون هذه الظروف مناسبة.

٣. وجوب أن يؤدي هذا الإجراء جميع المشاركين فيه أداء صحيحاً بالبعد عن استعمال العبارات الغامضة أو الملتبسة.

٤. يجب على المشارك في الإجراء أن تكون لديه الأفكار والمشاعر التي يتطلبها الإجراء، ينظر: نظرية أفعال الكلام العامة: ٧٣.

موفقة[١].

لقد أنكر أوستن أن تقتصر وظيفة اللغة على وصف وقائع العالم وصفاً يكون إما صادقاً وإما كاذباً، ورأى أن هناك نوعاً آخر من العبارات يشبه العبارات الوظيفية (الخبرية) في تركيبها لكنه لا يصف وقائع العالم، ولا يوصف بصدق ولا كذب، كأن يقول رجل مسلم لامرأته: أنت طالق، أو يقول: أوصي بنصف مالي لمرضى السرطان... ألخ فهذه العبارات وأمثالها لا تصف شيئاً من وقائع العالم الخارجي، ولا توصف بصدق أو كذب، بل إنك إذا نطقت بواحدة منها أو مثلها لا تنشئ قولاً فحسب، بل تؤدي فعلاً، فهي أفعال كلام، أو هي أفعال كلامية[٢].

إن جوهر نظرية أوستن يكمن في أن الأقوال قد تكون أحياناً أفعالاً، أو بعبارة أدق: (مؤدية إلى أفعال)، وأهميتها ترجع إلى إثبات أنّ تلك المنطوقات ليست خالية من المعنى، وإلى تحديد السمات المميزة لها، التي تجعلها مخالفة للمنطوقات الأخرى، وأهم هذه السمات هو ارتباطها بالموقف الذي تُقال فيه، من حيث إنها مُلائمة له، أو غير مُلائمة[٣].

إن الفكرة الأدائية هي التي هيمنت على ذهن أوستن حتى أصبح لا ينظر بحدّة إلى هذين القسمين بوصفهما متمايزين، بل حاول النظر إلى الجمل أو المنطوقات بمعيار الأدائية التي تحققها هذه المنطوقات بالفعل، ولذا فإن جملة (في الحقل ثور) قد تكون تحذيراً، وقد لا تكون، فإذا كانت تحذيراً تصبح جملة (أدائية) وقد تكون خبرية فحسب، تبعاً للظروف المحيطة بالملفوظ[٤].

❖ التمييز بين جوانب الفعل الكلامي الثلاثي:

عندما تبيّن لأوستن تعذُّر الاحتفاظ بالتمييز الأصيل بين المنطوقات الأدائية والمنطوقات التقريرية، وذلك حينما اكتشف أن لكل منطوق – بما في ذلك المنطوقات التقريرية أو العبارات – بُعداً أدائياً، ومن ثم انهار الأمل في العثور على معيار يفصل – بصورة حقيقية- المنطوقات الأدائية عن كل ما سواها من أنواع أخرى للمنطوق، آثر أن يعود القهقرى ليبحث من جديد عن الطرائق العديدة التي يكون فيها:

١- قول شيء ما (هو) فعل شيء ما، أو:

---

(١)نظرية أفعال الكلام: ١٥-١٦.

(٢) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د. محمود أحمد نحلة: ٤٣، ٦١، ٦٢.

(٣) ينظر: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، صلاح إسماعيل عبد الحق: ٣٩، وفي البراجماتية الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، د. علي محمود حجي الصراف: ٣٢.

(٤) ينظر: دلالة السياق، د. ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي: ٢٢٥، نقلاً عن الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي، د. مؤيد آل صوينت: ٣٤.

٢- (في) قول شيء ما نؤدي شيئاً ما، أو:

٣- (عن طريق) قول شيء ما نؤدي شيئاً ما[١].

رأى أوستن أن الفعل الكلامي مُركَّبٌ من ثلاثة أفعال تُؤدى في الوقت نفسه الذي يُنطق فيه بالفعل الكلامي، فهي ليست أفعالاً ثلاثة يستطيع المتكلم أن يؤديها واحداً وراء الآخر، بل هي جوانب مختلفة لفعل كلامي واحد[٢].

وقد قادته هذه الملاحظة إلى تمييز جديد لا يزال مقبولاً إلى يومنا هذا، ولا سيما لتعيينه الفعل الإنجازي بشكل أكثر وضوحاً في هذه المرحلة[٣]. فقد ميَّز أوستن في الفعل الكلامي ثلاثة أفعال فرعية وعلى النحو الآتي:

١- الفعل اللفظي *Locatoires Act*

٢- الفعل الإنجازي *Illocutoires Act*

٣- الفعل التأثيري *Prolocutors Act*[٤]

وقد أطلق الدارسون العرب على الأفعال السابقة تسميات عديدة[٥]، وقد ارتضينا في هذا البحث الاصطلاحات التي وضعها الأستاذ الدكتور محمد حسن والأستاذ الدكتور محمود نحلة لدقتها واختصارها[٦].

١. الفعل اللفظي:

يتساءل أحد الدارسين عن وجه اعتبار القول، أو التلفظ عملاً أو فعلاً، فيقول: بأي وجه يكون مجرَّد (القول) فعلاً؟[٧].

لا شكَّ في أن الأمر في النطق يتعلَّق بنوع من الفعل طبعاً. ألسنا فاعلين لشيء ما عندما تصدر عبارة ما؟ أليس إصدار العبارة هذا في حد ذاته يُمثِّل تصرُّفاً عملياً؟ أليس إصدار العبارة هو قولها أو النطق بها؟ إذن نطقُ عبارة ما هو عمل أو فعل، ويمكن توضيح ذلك بالتفريق بين من فعل، ومن لم يفعل: فمن فعل هو من تكلَّم، ومن لم يفعل هو من لم يتكلم، فقد تكتفي بالتفكير في الشيء دون أن تُعبِّر عمَّا فكرت

---

(١) ينظر: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد: ١٨٣.

(٢) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٦٧، ٦٨.

(٣) في البراجماتية: ٤٠.

(٤) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٤٥، ٦٨، وفي البراجماتية: ٤١.

(٥) يسميها الدكتور عبد القادر قنيني (فعل الكلام)، و(قوة فعل الكلام)، و(لازم فعل الكلام) (نظرية أفعال الكلام العامة: ١٢٢). ويسميها الدكتور مسعود الصحراوي: (فعل القول أو الفعل اللغوي)، و(الفعل المتضمن في القول)، و(الفعل الناتج عن القول) (التداولية عند العلماء العرب: ٤١-٤٢).

(٦) ينظر: كيف ننجز الأشياء بالكلمات؟، محمد حسن عبد العزيز: ٨٧، وآفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٧٣.

(٧) ينظر: كيف ننجز الأشياء بالكلمات؟: ٨٧.

فيه، وهذا يعني أنك لم تحقق الفعل اللفظي، وعندما تتجاوز التفكير إلى التعبير فإنك حينها تقوم بالفعل[1]. لكن هذا الفعل اللفظي ليس بالبساطة التي قد تُفهم من الكلام السابق، لأنه فعل معقد، مُركب – فيما يرى أوستن – من ثلاثة عناصر تركيبية يمثل تنفيذ كل عنصر منها فعلاً بذاته، هذه العناصر هي:

أ- الفعل التصويتي، ويتمثل في إصدار الأصوات المعينة من مخارج صوتية معينة.

ب- الفعل التأليفي، ويتمثل في إصدار متواليات الأصوات طبقاً لنظام تأليف هذه الأصوات.

ج- الفعل الإحالي، ويتمثل في مراعاة ارتباط الوحدات التأليفية بالمراجع الخارجية للدلالة على معانٍ مخصوصة[2].

إذن يتألف الفعل اللفظي من نطق أصوات معينة تؤلف ألفاظاً أو كلمات معينة، وتتركب هذه الألفاظ في جمل نحوية محدَّدة، وتستعمل هذه التراكيب النحوية بمعنى مُحدَّدٍ تقريباً، وبإشارة محددة تقريباً؛ أي: بمعنى معين[3].

ويدلُّ ما سبق على أن الفعل اللفظي يتألف من فعل صوتي وفعل تركيبي نحوي وفعل دلالي.

٢ـ الفعل الإنجازي:

وهو الفعل الأساس الذي يتأتى من خلاله معنى الإنجاز، وهو المقصود من النظرية برمتها، ويُقصد به أن المتكلم حين ينطق بقولٍ ما، فهو ينجز معنىً قصدياً، وهو ما أسماه أوستن بقوة الفعل[4]، وقد اشترط أوستن لتحقيق هذا المعنى الإنجازي ضرورة توفر السياق العرفي المؤسساتي لغة ومحيطاً وأشخاصاً[5]، فعبارة مثل: سأحضر لرؤيتك غداً، يعتمد معناها الإنجازي– الوعد هنا على مدى تحقق شروطها – من حيث يكون على المتكلم الإيفاء بوعده، وأن ينوي فعل ذلك، وأن يكون واثقاً من أن المتلقي يرغب في رؤيته؛ وذلك لأن انتفاء رغبة المتلقي في رؤية المتكلم قد يحيل المعنى هنا من وعد إلى وعيد[6].

((إن تحقيق الفعل اللفظي، بوجه عام هو في ذات الوقت إنجاز لفعل ما، إنجاز تؤديه الصيغة اللفظية الناتجة عن تحقيق الفعل اللفظي؛ أي: الناتجة عن قول شيء

(١) ينظر: في البراجماتية: ٤١.

(٢) ينظر: نظرية أفعال الكلام العامة: ١٢٥.

(٣) ينظر: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد: ١٨٤.

(٤) ينظر: نظرية أفعال الكلام العامة: ١٢٣.

(٥) ينظر: م . ن: ٢٠.

(٦) ينظر: في البراجماتية: ٤٢.

ما، ويتعلق الأمر هنا بالوظائف التي تؤديها الألفاظ اللغوية في سياقات استعمالها كأن تكون الاستفهام، أو الإخبار، أو الوعد، أو غيرها))[1].

إن الفعل الذي يحققه مستعمل اللغة بهذا المعنى هو ما يسميه أوستن الفعل الإنجازي؛ لأننا بقولنا لشيء ما نكون - في الوقت نفسه- منجزين لهذا الشيء؛ أي:إننا كلما حققنا فعلاً لفظياً في سياق استعمالي معين نكون منجزين للفعل، كأن نخبر، أو نعد، أو نتساءل [2].

وتتضح العلاقة بين الفعل اللفظي والفعل الإنجازي في أن الأول يتحقق في ألفاظ أو تعبيرات لغوية ذات دلالات مرجعية إحالية. أما الثاني – الفعل الإنجازي- فيتمثل في تحقيق ألفاظ أو تعابير لغوية تنطوي – زيادة على ما يخوله مستوى الفعل اللفظي من دلالة – على قوى إنجازية قد يمثلها الإخبار، أو الاستفهام، أو غير ذلك هذه القوى الإنجازية هي التي تمثل القصد التداولي من تحقيق الفعل اللغوي، وبهذا يكون الفعل الإنجازي هو الفعل الذي تبرز من خلاله معالم الاستعمال[3].

ولكي يؤدي المتكلم الفعل الإنجازي عليه أن ينفذ بعض الشروط لهذا الفعل، وهي:

أ- أن يؤدي الفعل اللفظي؛ أي: ينطق (أو يستعمل) الجمل المحتوية على الفعل، ((إن ماهية الفعل الكلامي هي: الإنجاز الذي يتحقق من طريق الملفوظ، لذا أسمى أوستن كتابه (كيف ننجز الأشياء بالكلام؟)، فهو مرتبط بالكلام والنطق. أما الأفعال التي تتحقق من طريق الإشارة فهي غير داخلة في حقل الأفعال الكلامية، وإنما تدخل في مجال السيمياء))[4].

ب- أن يقصد بهذا الفعل اللفظي (الجملة المنطوقة) امتلاك القوة الإنجازية المعينة (الغرض البلاغي للتعبير المستعمل).

ج- أن يتأكد من الفهم؛ أي: يتأكد من أن المتلقي قد فهم غرضه من المنطوق.

د- أن يستوفي أعرافاً معينة تُحدد ممارسة الفعل في بعض الحالات[5].

٣- الفعل التأثيري:

((ويقصد به الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في المتلقي))[6]، ويعني ذلك أن

---

(١) في البرغماتية: ٤٢.

(٢) ينظر: أفعال الكلام العامة: ١٨.

(٣) ينظر: في البراجماتية: ٤٢، والتداولية عند العلماء العرب: ٤٢.

(٤) الخطاب القرآني – دراسة في البعد التداولي: ٣٤.

(٥) ينظر: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد: ١٩٥-٢٠١، وفي البراجماتية: ٤٣.

(٦) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٤٦، ٦٨.

الكلمات التي ينتجها المتكلم في بنية نحوية منتظمة مُحمَّلة بمقاصد معينة في سياق مُحدَّد تعمل على تبليغ رسالة، وإحداث تأثيرات معينة على مشاعر وأفكار وسلوك المستمع كنتيجة لما يقول [١].

إذن يتعلق الأمر ها هنا بالفعل الذي نحقق بوساطة قولنا شيئاً ما، وتحقيقنا للفعل الإنجازي، والشاهد على تحقيقنا لهذا الفعل يظهر في وقع القول، أو الآثار التي يحدثها القول في المتلقي كأن نقول شيئاً ما يترتب عليه عادة إحداث بعض الآثار في الآخرين بتعديل أنظمتهم المعرفية، وعاداتهم السلوكية [٢].

يمكن أن نميز بين الفعل الإنجازي والفعل التأثيري من خلال متابعة الفرق بين الصياغتين الآتيتين:

- في حال قولي كذا، فقد حققتُ إخباراً، أو وعداً أو تحذيراً...
- بوساطة قولي كذا، فقد أزعجتُ مخاطبي، أو أفرحته، أو أقنعته.

إذ تنسحب الصياغة الأولى على الأفعال الإنجازية، وتنسحب الثانية على الأفعال التأثيرية [٣].

❖ جهود سيرل وإسهاماته في نظرية الأفعال الكلامية

يشغلُ الفيلسوف الأمريكي (جون سيرل) موقع الصدارة بين أتباع أوستن ومريديه، فلقد أعاد تناول نظرية أوستن، وطوَّرها[٤] ولا سيما ما يخصُّ الأفعال الإنجازية– أصل نظرية أفعال الكلام- ((حيث انطلق جون سيرل في تحديده للأفعال الإنجازية بتصنيف جديد هو الفعل الإنجازي المباشر والفعل الإنجازي غير المباشر))[٥].

١- الفعل الإنجازي المباشر

يمثل الفعل المباشر عند سيرل الفعل الذي يطابق قوّته الإنجازية مُراد المتكلم، أي أن يكون القول مطابقاً للقصد بصورة حرفية تامة، ويتمثل في معاني الكلمات التي تتكون منها الجملة، وقواعد التأليف التي تنتظم بها الكلمات في الجملة، ويستطيع المتلقي أن يصل إلى مراد المتكلم بإدراكه لهذين العنصرين معاً [٦].

ويفترض في الفعل الإنجازي المباشر أن لا تكون به حاجة إلى بيان أي معنى إضافي

---

(١) ينظر: نظرية أفعال الكلام العامة- ١٣١، والتحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد: ٢٠٣.
(٢) الفلسفة واللغة، نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة، د. الزواوي بغورة: ١٠٨.
(٣) ينظر: نظرية أفعال الكلام العامة: ١٥٥.
(٤) ينظر: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، آن روبول وجاك موشلار: ٣٣.
(٥) في البراجماتية: ٩٨.
(٦) ينظر: العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي، جون سيرل: ٢٢٠.

فهو يقدم منطوقاً محدوداً واضحاً لا يحتمل التأويل ولا يقصده، وهذه الخصيصة تنبع من المباشرة التي بها سُمّي الفعل بالإنجازي المباشر[١].

وعرّف سيرل الفعل المباشر بأنه ((الذي يتلفظ به المرسل في خطابه، وهو يعني حرفيّاً ما يقول، وفي هذه الحالة فإن المرسل يقصد أن ينتج أثراً إنجازياً على المرسل إليه ويقصد أن ينتج هذا الأثر من خلال جعله المرسل إليه يدرك قصده في الإنجاز))[٢].

٢- الفعل الإنجازي غير المباشر:

يرى سيرل أننا في حالة التعبير البسيط ننطق بجملة واحدة ونقصد ما نقول تماماً، ولكن المشكلة تكمن في أن الأمور لا تسير دوماً بهذه البساطة، ففي كثير من الأحيان يختلف المعنى المقصود عن التعبير الحرفي الدلالي للمنطوق، كما يحدث في الاستعارة والتشبيه والكناية، كما لو قلت (زيد أسد) فأنا أريد بذلك القول مدحه ووصفه بالشجاعة[٣].

وتعرّض مجموعة من العلماء والباحثين لتعريف الفعل الإنجازي غير المباشر وفقاً لرؤية سيرل المطوّرة عن فكرة أوستن: ومن هذه التعريفات:

((إذا ما تمّ القيام بفعل ما داخل في القول بواسطة فعل آخر داخل في القول، فالفعل الأول يُسمى فعلاً كلامياً غير مباشر))[٤].

وقيل أنها الأفعال ذات المعاني الضمنية التي لا تدلُّ عليها صيغة الجملة بالضرورة، ولكن للسياق دخلاً في تحديدها والتوجيه إليها، وهي تشتمل على معانٍ عُرفية وحوارية[٥]. وقيل بأنها: ((إستراتيجية لغوية تلميحية يُعبِّر بها المتكلم عن القصد بما يُغاير معنى الخطاب الحرفي، لينجز بها أكثر مما يقوله، إذ يتجاوز قصده مُجرّد المعنى الحرفي لخطاب فيعبّر عنه بغير ما يقف عنده اللفظ مستثمراً في ذلك عناصر السياق))[٦].

إن المشكلة الأساسية التي تطرحها الأفعال الإنجازية غير المباشرة هي معرفة كيف يمكن للمتكلم أن يقول شيئاً ما ويعني ذلك، وهو في الوقت نفسه يريدُ أن يقول شيئاً آخر، ومن ثمَّ معرفة كيف يمكن للمتلقي أن يفهم الفعل الكلامي غير المباشر، مع أن

---

(١) ينظر: في البراجماتية: ٩٨

(٢) إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبدالهادي بن ظافر الشهري: ١٣٥، ومصادرها .

(٣) ينظر: العقل واللغة والمجتمع: ٢٢١.

(٤) المعجم الفلسفي، عادل فاخوري: ١٣٤١.

(٥) التداولية عند العلماء العرب: ٣٥

(٦)إستراتيجيات الخطاب: ٢٧٠.

ما يسمعه يدلُّ على شيء آخر[١].

وحلاً لهذا الإشكال، يأخذ سيرل بالفرضية الآتية: في الأفعال الإنجازية غير المباشرة يستطيع المتكلم أن يبلغ للمتلقي أكثر مما يقوله بالفعل، بإسناده إلى معلومات خلفية لغوية أم غير لغوية، مشتركة بينهما، وبإسناده إلى مقدرات المتلقي العقلانية والاستدلالية، وبوجه أدق، فالأنموذج التفسيري لما هو غير مباشر من الأفعال الكلامية يتضمن نظرية الأفعال الكلامية وعدداً من المبادئ العامة للمشاركة في الحديث وخلفية من المعلومات الواقعية الأساسية المشتركة بين المتكلم والمتلقي، كما أنه يفترض مقدرة من المتلقي على إقامة الاستدلالات[٢].

إن سيرل يميز بين معنيين للفعل الإنجازي:

أولهما: المعنى الحرفي، والآخر: الفعل – أو الغرض – غير المباشر، هذا التمييز الذي يعيِّن على التوالي المعنى التداولي للعبارات اللغوية؛ أي: قيمتها في مقام مشخَّص والمعنى الدلالي أو المعنى المعتاد للكلمات والجمل مجردة عن الاستعمال[٣].

❖ أفعال الكلام بين المباشرة وغير مباشرة

ذكر ستانلي فش في كتابه: ((هل يوجد نص في هذا الكتاب)) أن هناك أفعال كلام مباشرة وأخرى غير مباشرة، ويتأسس هذان النوعان على بنية الجملة، حيث تكون العلاقة بين التركيب والوظائف التوصيلية، ففي حالة فعل الكلام المباشر تقول مثلاً: أنت ترتدي حزام الأمان، هل ترتدي حزام الأمان؟ ارتدِ حزام الأمان، نجد توافقاً بين التركيب والوظيفة التوصيلية في كل جملة (خبر، استفهام، أمر). أما عندما تكون العلاقة بين التركيب والوظيفة التوصيلية بعيدة عن المباشرة نقول: إن فعل الكلام غير مباشر؛ أي: عندما تكون الجملة خبرية يستعملها صاحبها في الوقت نفسه لتوصيل طلب نصبح أمام فعل كلام غير مباشر، فعندما نقول مثلاً: الجو بارد في الخارج ونقصد به الإخبار عن حالة الجو فإننا نؤدي فعلاً كلامياً مباشراً، وعندما نقصد إلى أن تدفع السامع إلى أن يغلق الباب فإننا بذلك ننجز أمراً أو طلباً ويكون فعلاً كلامياً غير مباشر[٤].

❖ أهمية الأفعال الكلامية في الأدب

قبل نقاد الأدب فكرة الإنجازية بوصفها إحدى الأشياء التي تساعد على تمييز

(١) ينظر: في البراجماتية: ١٢٥

(٢) ينظر: المعجم الفلسفي: ١٣٤٠.

(٣) ينظر: في البراجماتية: ١٢٥.

(٤) ينظر: هل يوجد نص في هذا الفصل؟ سلطة الجماعات المفسرة: ٢٨٨.

خصائص الخطاب الأدبي، وأكدَّ المنظِّرون طويلاً على أننا يجب أن نُعنى بما تفعله اللغة مثلما نُعنى بما تقول، والمفهوم الفعل الإنجازي يقدم تبريراً لغوياً وفلسفياً لهذه الفكرة؛ أي: أن هناك صنفاً من المنطوقات تفعل شيئاً ما في الغالب، إن المنطوق الأدبي مثل الإنجازي، لا يُشير إلى الحالة التي كانت عليها الأمور سلفاً فحسب، ذلك أنه يخلق الحالة لأموره، أو شؤونه التي يسير إليها في العديد من الوجوه ونختار منها وجهين وهما:

أ- يُحدِث، أو يوجد الشخصيات أو أفعالها.

ب- يُحدِثُ، أو يُوجِدُ الأفكار والمفاهيم التي ينشرها[1].

إن الإنجازية- باختصار – تُركز الانتباه على استعمال اللغة بوصفها نشاطاً وصناعة للعالم تشبه اللغة الأدبية، التي كان يُنظرُ إليها سلفاً على أنها شيء هامشي، وتساعدنا على أن نفكر في الأدب بوصفه فعلاً، أو حدثاً [2].

((إن العلاقة بين أفعال الكلام والأدب قد لا تتوقف عند اعتبار ما قدمته التداولية في مجال التفكير حول اللغة، وبالفعل فهي تدفع إلى تمييز خصوصية الملفوظات الأدبية باعتبارها أفعال كلام[...] إن الأدب مكون من أعمال وليس ملفوظات معزولة، ليس بإمكاننا حصر الخيال الأدبي في موقف المتكلم بالنسبة للتلفظه الخاص بما أنه من بين خصوصيات الخطاب الأدبي جعل مفهوم المتلفظ نفسه مسألة إشكالية وتمييز الشخص الذي يكتب عن صور الكاتب التي يمكن أن تحددها المؤسسة الأدبية))[3].

إن تصور الأدب بوصفه منطوقاً إنجازياً يؤدي إلى دفاع عن الأدب من حيث إنه ليس مقولات زائفة وتافهة، ولكن يأخذ موقعه بين أفعال اللغة التي تحول العالم خالقة للأشياء التي تسميها[4].

((إن وظيفة الأعمال الخيالية تكمن في أنها تنقل رسالة أو رسائل عبر الخطاب السردي دون أن تكون محصورة المعنى في ذلك الخطاب))[5].

إن بنية العمل الخيالي – ومنه الشعر- لا بُدَّ أن نجد فيها ملفوظات تحيل على شخصيات ومواقع وأحداث، وجدت وتحققت من خلال فعل السرد يمكن للمتكلم أن

(١) ينظر: مدخل إلى النظرية الأدبية، جوناثان كولر: ١٣٥.

(٢) ينظر: م . ن: ١٣٥.

(٣) تداولية الخطاب الأدبي، دومينيك مانغينو: ٨٢.

(٤) ينظر: مدخل إلى النظرية الأدبية: ١٣٥.

(٥) بنية الخطاب السردي مقاربة تداولية، بن فندوز هواري: ١٠١.

ينجز من خلالها أفعالاً تعبيرية أخرى [١].

❖ إنجازية الشعر

إن التمثيل الشعري لأي خطاب – ومنه الخطاب المدحي الموجه للخليفة- يمتلك فعالية بالغة؛ لاتكائه على تاريخ من الخبرة الجمالية، وتفعيله لأقصى مستويات اللغة في التأثير [٢]، وللشعر خاصية الموسيقا التي تنفعل لها النفوس وتتأثر بها القلوب، والتي تُعدُّ جوهر الشعر وأقوى عناصر الإيحاء فيه [٣]، وذلك من خلال امتلاكه الوزن والإيقاع الذي يُولِّد ذلك التناغم اللذيذ فتطرب له النفوس وتتفاعل معه، فالوزن هو ((الوسيلة التي تمكن الكلمات من أن يُؤثر بعضها في البعض الآخر على أكبر نطاق ممكن))[٤].

هذا فضلاً عن أن العرب كانوا يعتقدون بوجود علاقة بين الجن والسحر والشعر، وكانوا ينسبون الموهبة الشعرية لشيطان يوحيها، والإخبار عن هذا الاعتقاد تنتشر في كتب الأدب والتاريخ العربية [٥]. ((ولعلّ حيرة العرب أمام شدّة تأثير هذه الكلمات المنمقة الحكيمة، وعدم مقدرتهم على فهم مصدرها وتعليل تأثيرها، هي التي ردّت الأسباب إلى قوى خارجية جعلا للشاعر مركزاً مرموقاً))[٦]. وليس أدلّ على هذا من الخبر الآتي: ((كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك، وصنعت الأطعمة، واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعون في الأعراس، وتباشر الرجال والولدان، لأنه حماية لأعراضهم، وذبٌّ عن أحسابهم وتخليدٌ لمآثرهم، وإشادة بذكرهم، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد، أو فرس تنتج، أو شاعر ينبغ فيهم))[٧].

ويضيف بروكلمان في هذا أن الشعراء لم يكونوا في العهد الوثني مفخرة قبائلهم فحسب، بل كانوا يلعبون أدواراً سياسية أيضاً[٨]، وقد قيل في الشعر: إنه يرفع من قدر الوضيع الجاهل، مثلما يضع من قدر الشريف الكامل [٩].

---

(١) ينظر: م . ن: ١٠١.
(٢) ينظر: نبرات الخطاب الشعري، د. صلاح فضل: ١٦.
(٣) ينظر: النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال: ٤٦١.
(٤) مبادئ النقد الأدبي، ريتشاردز: ١٩٤.
(٥) ينظر: خطاب الطبع والصنعة "رؤية نقدية في المنهج والأصول"، د.مصطفىدرواش: ١١٠.
(٦) الشعر الأموي بين الفن والسلطان، د.عبد المجيد حسين زراقط: ٢٥.
(٧) العمدة في محاسن الشعر وأدابه، ابن رشيق القيرواني: ٧٠/٦.
(٨) تاريخ الأدب العربي: ٥٧/١.
(٩) ينظر: العمدة: ٤٦/١.

إن قدرة الشاعر هذه على الفعل في المتلقي، قد حملت المجتمع العربي القديم على الإقرار بسلطة الخطاب والاحتفاء بها وبأصحابها شعراء كانوا أو خطباء، وما الاستعاذة من فتنة القول إلا إقرارٌ صريح بسلطة النص وقدرة صاحبه التأثيرية حتى ليصور الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق.

ومن الأمثلة على قُوّة أثر الشعر ودوره في الحياة السياسية أشعار الكميت بن زيد التي أثارت حروباً بين القبائل وأسهمت في تدعيم الفتنة التي عجَّلت بأفول الحكم الأموي وقيام الدولة العباسية على أنقاضه، فإذا بالشاعر قدرة سياسية عظيمة، وإذا بالشعر مُحرِّك تاريخي يصنع الأحداث أو يغير مجرى الأحداث، ويوجهها نحو الغاية التي يُريد[1].

إن الوعي الكامل لحقيقة دور الشعر بوصفه سلاحاً فتاكاً في وجه الخصوم، وناشراً للمآثر يُؤثر في الرأي العام، وسجلاً خالداً لا يبلى... جعل أغلب الدارسين لا يَعدُّ الشعر فناً إبداعياً فحسب، بل هو فكرٌ وتصورات ومفاهيم لها أثرها اللغوي الفاعل في نفوس المتلقين وتوجهاتهم. فالشعر ((ليس كلمات مصفوفة على ورقة أو في كتاب ولكنه بناء ينهض داخل نفسية المتلقي))[2].

ولعلّ من الضروري أن نضيف ملحوظة مهمة في هذا الإطار تتصل بقيمة البيئة الثقافية في تحديد وظيفة الشاعر الفعلية (التأثيرية)، فالشعر لا يُؤثر في الآخرين ويغيِّرُ من سلوكهم ومواقفهم، ويبدل من واقعهم إلا إذا كان منخرطاً في نظرية بلاغية تُسلِّمُ للشعر بهذه القدرة العجيبة وتعترف بسلطانه على النفوس والعقول من جهة، ومُخاطباً من جهة أخرى متلقين يعترفون للشاعر بمنزلة الريادة ويُعدّونه بمثابة الرائد القادر على الفعل والتأثير[3].

---

(١) ينظر: الحجاج في الشعر العربي القديم، د. سامية الدريدي: ٧٤، وقد ذكر ابن رشيق أمثلة كثيرة على أثر الشعر في نفوس متلقيه، ومن هذه الأمثلة:

١- أن عرابة الأوسي ما كان ليرتفع ويشهر لولا شعر الشمّاخ بن ضرار فيه:

رأيتُ عرابةَ الأوسيّ يسمو	إلى الخيرات مُنقطعَ القرينِ
إذا ما رايةٌ رُفِعت لمجدٍ	تلقاها عرابةُ باليمينِ

فصارت هذه الأبيات مثلاً سائراً، وأثراً باقياً.

٢- وبنو أنف الناقة الذين كانوا يأنفون من نسبتهم إلى هذا الاسم، صاروا بعد قول الحطيئة فيهم:

قومٌ همُ الأنفُ والأذنابُ غيرهم	ومن يُسوّي بأنف الناقة الذَّنَبا

يتظاهرون بهذا الاسم، ويتطاولون بهذا النسب، ويَمدّون به أصواتهم في مهارة، ينظر: العمدة: ١/٤٧، ٥٥.

(٢) الخطاب في الشعر، د. محمد منال عبد اللطيف: ١٦٩.

(٣) ينظر: الحجاج في الشعر العربي القديم: ٧٤.

ولا يخفى أن الشعر في الحقب الماضية كان له حضور كبير ومؤثر في نفسية المتلقي، هذه الخصائص التي ميّزت الشعر عن سواه من فنون الأدب الأخرى هي التي جعلته أقدر على حمل مضامين الخطابات المختلفة التي تدعو إلى إنجاز أعمال أو أفعال في أثناء النطق بها، وخير شاهد على هذا الكلام شعر المديح الذي كان يخاطب به الخلفاء والأمراء.

ويمكن أن تقسم الأفعال الإنجازية في شعر مديح الخلفاء إلى ما يأتي:

١. القتل

للشعر دور كبير في التحريض وتحريك الأحقاد والضغائن، وهذا ما فعله سديف بن ميمون، عندما علم بسقوط دولة بني أمية وقيام دولة بني العباس، حيث استوى على راحلته، وعدَّ المسير إلى أبي العباس السفاح (عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب، ت١٣٦هـ) وهناك في مجلسه وجد بعض بقايا بني أمية وعلى رأسهم سليمان بن هشام بن عبد الملك – وكان صديقاً للسفاح – فتثور في رأس سديف كُل أسباب الكراهية لبني أمية، وينشد مادحاً موليا[١]، يقول[٢]:

١- أصبـحَ الملـكُ ثابـتَ الأسَـاسِ ... بالبهاليـلِ مـن بنـي العبّـاسِ

٢- بالصُّـدُورِ المقـدَّمين قـديماً ... والـرُّؤوسِ القمـاقمِ الـرُّوَّاسِ

٣- يـا أميـرَ المُطَهَّـرينَ مـن الـذَّمِّ ... ويـا رأسَ مُنْتَهـى كُـلِّ راسِ

٤- أنـتَ مهـديُّ هاشـمٍ وهـداها ... كـمْ أنـاسٍ رجـوكَ بعـدَ إيـاسِ

٥- لا تقيـلنَّ عبـدَ شـمسٍ عثـاراً ... واقطعـنْ كُـلَّ رقلـةٍ وغِـراسِ

٦- أنزلوهـا بحيـثُ أنزلَهـا الـلـهُ ... بـدارِ الهـوانِ والاتعـاسِ

---

(١) ينظر: رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية، د. مصطفى الشكعة: ٢-٤.

(٢) شعر سُديف بن ميمون: ٢٢-٢٤، والبهاليل: جمع بُهلول: وهو الضحاك، والحيّ الكريم، العزيز الجامع لكل خير، (لسان العرب: ٧٣/١١)، والقماقم: السيد الكثير الخير الواسع الفضل(لسان العرب:٤٩٤/١٢)، الرؤاس: المتقدم من السحاب(لسان العرب:١٠٣/٦)، والرقلة: النخلة الطويلة (لسان العرب:٢٩٣/١١).

والحسين: يعني به الحسين بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنهما) قتيل كربلاء ٦١هـ

وزيد: يعني به زيد بن علي بن الحسين، كان قد خرج على هشام بن عبد الملك، وقتله يوسف بن عمر الثقفي في ١٢١هـ

وقتيلاً بجانب المهراس: هو حمزة بن عبد المطلب عمّ الرسول (ﷺ) استشهد في معركة أحد ٣هـ

والمهراس: ماءٌ بأحد، وإنما نسب سُديف قتل حمزة إلى بني أمية لأن أبا سفيان بن حرب كان قائد الناس يوم أحد.

والقتيل بحران: هو إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس سُمّيَ بالإمام، قتله مروان بن محمد سنة ١٣٢هـ، ينظر: شعر سديف بن ميمون الهامش: ٢٣.

٧- خـــوفهم أظهـــرَ التـــوددَ مـــنهم ... وبهـــم مـــنكم كحـــزِّ المواســـي

٨- أقصـــهم أيُّهـــا الخليفـــةُ واحســـم ... عنـــك بالســـيف شـــأفةَ الأرجـــاسِ

٩- واذكـــرنْ مصـــرعَ الحســـين وزيـــدٍ ... وقتيـــلاً بجانـــب المهـــراسِ

١٠- والإمـــامُ الـــذي بحـــرَّان أمســـى ... رهـــنَ قبـــرٍ فـــي غربـــةٍ وتناســـي

١١- فقـــد ســـاءني وســـاء ســـوائي ... قـــربهم مـــن نمـــارقٍ وكراســـي

فتغيَّر لونُ أبي العباس وأخذته رعدةٌ بعد سماع هذه القصيدة، فأمر بقتل من كان عنده من بني أمية، ثم كتب إلى عماله في النواحي بقتل بني أمية [1].

قد لا تتضح أبعاد الرؤية السياسية عند الشاعر في هذه الأبيات [2]، ولكنها تفصح عن جانب عظيم من الكره والحقد على السلطة السابقة، فقد استطاع أن يحيي ثارات بني هاشم من خصومهم، وأن يوغر صدر الخليفة، فيبدأ عهده بسفك دماء بقايا الأمويين، وقد كان له ما أراد، فقُتِل منهم كُلُّ من كان في ذلك المجلس، ولم يسلم سوى عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز إكراماً لوالده [3].

إن المتأمل في لغة هذه القصيدة يجدها سهلة مباشرة لا يُشكِّل المجاز – بمعناه المألوف- عصبها الأساس، وقد وصف الدكتور الشكعة هذه الأبيات بأن ليس لها من الشعر إلا نظمه [4]، ومع ذلك فإن لهذه القصيدة قدرتها الهائلة على التأثير، أعني على تجسيد موضوعها، أو الإفصاح عن رؤياها الخاصة بطريقة استثنائية إلى حدٍ كبير.

إن هذه القصيدة التي خاطب بها سُديف الخليفة قد أنجزت فعلاً كلامياً مباشراً، فقد حرَّكت في نفس السفاح روح القتل ونية الانتقام من أعيان بني أمية الذين كانوا يحضرون مجلسه، لقد دعت هذه القصيدة صراحة إلى قتل من بقيَ من بني أمية الذين كانوا يرغبون في عفو الخليفة العباسي عنهم.

ونجد هذه الملفوظات [5] التي تلفظ بها الشاعر أمام الخليفة قد انقسمت على

---

(١) ينظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني: ٤/٣٤٠.

(٢) كان الشاعر سديف علويَّ الهوى، وما كان اتفاقه مع السفاح إلا من جهة اتفاقهما في العدوِّ المشترك، وهو الأمويون، أمَّا ما بعد ذلك من الوفاء وإدامة العهد فهذا ما تنكر له سُديف مع أول ظهور لثورة علوية في عهد العباسيين، ينظر: الإبداع والسلطة في شعر العصر العباسي الأول، د. عيسى المصري: ١١٣.

(٣) ينظر: الأغاني: ٤/٣٤٠.

(٤) ينظر: رحلة الشعر: ٤٠٣.

(٥) يطلق الملفوظ للدلالة على نتاج فعل التلفظ، وهذا المصطلح متعدد المعاني ولا يكتسي دلالة بعينها إلا في صلب تقابلات شتى وهي:

قسمين:

القسم الأول: تمثّل في الملفوظات الأربعة الأولى التي عبّر الشاعر فيها عن رؤيته المؤيدة للعباسيين في ظل أول خلفائهم، من خلال التأكيد على الأسس السليمة التي قامت عليها الدولة الجديدة، ولعلّ الموقف الذي عبّر فيه عن رؤيته لم يسعفه في توضيح هذه الأسس، لأن الغاية الأهم ـ في نظره ـ هي القضاء على بقايا السلطة القديمة، كي لا تقوم لها قائمة بعد الآن، ومع ذلك فهو يشير إلى بني العباس (المطهرين من الذم) أصحاب هذه الأسس القوية، التي أقاموا عليها دولتهم، وقائدهم مهديُّ بن هاشم، وهو أبو العباس حيث تشير بعض المصادر أن السفاح كان يسمى بالمهدي الذي هو رجاء الناس وأملهم ومخلصهم بعدما أصابهم اليأس[1]، ويُعرّض ببني أمية ويأس الناس منهم نتيجة ظلمهم لهم، هذه الأسس التي أقام عليها الشاعر القسم الأول من قصيدته هيأت سمع الخليفة لاستقبال فكرة الانتقام والقتل التي بنيت عليها هذه القصيدة.

القسم الآخر: ويبدأ من الملفوظ الخامس حتى الملفوظ الأخير من القصيدة، ولعلّ من الممكن أن نصنف هذا القسم ضمن مجال التوجيهيّات *Directives* ، من أفعال الكلام الإنجازية[2] التي يتحدد غرضها الإنجازي في محاولة المتكلم توجيه المتلقي نحو فعل.

- من الوجهة التركيبية، كثيراً ما يوضع تقابل ما بين الملفوظ والجملة بوصف الجملة نوعاً من الملفوظ. فيحدد الملفوظ هاهنا بوصفه وحدة اتصالية تبليغية أولية ومتوالية لغوية ذات معنى وتامة من حيث التركيب.
- أما التداوليون ممن تبنوا المنظور التلفظي والذي نذهب برأيهم في تحليلاتنا للنصوص الشعرية، فهم ينظرون إلى الجملة كبنية خارجة عن الاستعمال وتطابق عدداً لا متناهياً من الملفوظات وفق التنوع غير المتناهي للسياقات الخاصة.
- على صعيد أعلى، يعدُّ الملفوظ وحدة مساوية للنص، أي متوالية لغوية منوطة بمقاصد نفس المتلفظ والتي تشكل كياناً لـ نوع خطابي معين. ينظر: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو٥١.

(١) ينظر: العباسيون في سنوات التأسيس تفسير جديد للثورة والشرعية ونظام الحكم، د. عصام سخنيني:١٨٤.

(٢) قسم سيرل أفعال الكلام الإنجازية إلى مجالات خمسة هي:

١. الإخباريات *Assertives*

٢. التوجيهات *Directives*

٣. الالتزامات *Commissives*

٤. التعبيريات (أو البوحيات) *Expressives*

٥.الإعلانيات *Declarations* . ينظر: العقل واللغة والمجتمع: ٢١٧.

شيء ما، أو التأثير فيه ليفعل شيئاً معيناً [١]، إن التوجيهيات هي ((محاولة توجيه المخاطب إلى فعل سلوك ما في المستقبل، وشرطها الإرادة والرغبة... وتمثلها صيغ الاستفهام والأمر والنهي والرجاء والنصح والتشجيع والدعوة والأذن))[٢].

والباث – في التوجيهات- يحاولُ ((دفع السامع إلى فعل شيء، وتحاول التوجيهات – كذلك – أن تجعل العالم يطابق الكلمات: حيث يقوم السامع بعمل ذي نتيجة إيجابية أو سلبية للمتكلم فتأتي النصيحة بعمل لصالح السامع[...] وهذه المجموعة تحوي أفعالاً صريحة مثل: يأمر، يطلب))[٣].

وتتلخص الأفعال الإنجازية (التوجيهية) التي حرض الشاعر من خلالها الخليفة على القتل فيما يأتي:

١. النهي عن الصفح وترك عقوبة من بقي من بني أمية، وذلك في قوله:

لا تقيلنَّ عبدَ شمسٍ عثاراً وعبد شمس هو جدُّ بني أمية

ويقال: أقالَ اللهُ فلاناً عثرتَه، إذا صفح عنه وترك عقوبته [٤].

٢. الأمر: وقد تمثل في أفعال إنجازية دعا الشاعر من خلالها إلى قتل من بقي من بني أمية صراحة، وأفعال الأمر التي جاء بها الشاعر هي:

أ- فعل (القطع) إذ يقول: واقطعنْ كُلَّ رقلة وغِراس

دعوة إلى قتل الكبير والصغير من بني أمية، وقد شبه الشاعر – في هذا الملفوظ – رجال بني أمية بأشجار النخيل على سبيل الاستعارة، وأن موت هذه الأشجار يكون من خلال عملية القطع، وفي هذا الخطاب دعوة صريحة إلى قطع أصول بني أمية من خلال قتل من بقي منهم، ولا يخفى ما لنون التوكيد – الملحقة بفعل الأمر- من دلالة تأكيد هذا الأمر وعدم التهاون فيه.

ب. فعل (الإنزال)

وذلك في قوله:

٦- أنزلوها بحيثُ أنزلَها الـ ـلهُ بدارِ الهوانِ والاتعاسِ

ولا يكون النزول إلا من ارتفاع إلى هبوط، وإنما قالوا: نزلت في موضع كذا وكذا لأنه ينزل عن دابته أو يتجاوز منزلة إلى منزلة [٥] وفي هذا الملفوظ دلالة واضحة على أن بني

---

(١) ينظر في البراجماتية: ٦٢.

(٢) مدخل إلى التحليل اللساني للخطاب الشعري، د. نعمان بوقرة: ١٠٢.

(٣) الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي: ٣٧.

(٤) ينظر: تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري: ٣٠٧/٩.

(٥) ينظر: جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري المعروف بابن دريد: ١٨/٣.

أمية قد خرجوا على الدين وارتدّوا عنه وبذلك حلّ عليهم غضب الله، ومن غضب الله عليه فلا بُدّ للخليفة أن يغضب عليه كذلك، بصفته ظِلُّ الله في الأرض والقائم بأموره. لذا كان العقاب المناسب لبني أمية _في نظر الشاعر_ هو إنزال الموت والقتل فيهم.

ج. فعل (الحز)

كما في قوله: (وبهم منكم كحزِ المواسي) والحزُّ من حزُّ الشيء يحزُّه حزّاً، إذا أثر فيه بسكين وغير ذلك[1].

ففي هذا الملفوظ يدعو الشاعر إلى قطع الرؤوس وتصفية من بقي من بني أمية.

د. فعل (الإقصاء)

وذلك في قوله: (أقصهم أيُّها الخليفةُ) والإقصاء في اللغة: الإبعاد، يقال: أقصيتُ الرجل إقصاءً إذا أبعدتُهُ[2]، ففي هذا الملفوظ يدعو الشاعر الخليفة إلى إبعاد هؤلاء الذين استحقوا القتل من مجلسه بما يعنيه من مأكل ومشرب ونعيم تمهيداً لتصفيتهم والقضاء عليهم.

هـ. فعل (الحسم)

وهو قوله: (واحسم عنك بالسيف شأفة الأرجاس)

والحسم: من حسم، وهو قطع الشيء عن آخره، والحسم: القطع وسُمِّيَ السيف حُساماً، ويقال حسامُهُ حدُّهُ؛ أيْ: ذلك كان فهو من القطع، والحسم أن تقطع عِرقاً وتكويه بالنار كي لا يسيل دمُهُ، ولذلك يقال: احسِم عنك هذا الأمر؛ أي: اقطعه وأكفِهِ نفسك[3].

فهذا الملفوظ يدعو صراحة إلى حسم آخر دولة بني أمية وذلك من خلال القضاء على من بقي من أهلها.

وتنفيذاً للأمر الوارد في هذه الملفوظات، وخضوعاً لسلطة اللغة ومنطقها، كان لسديف ما أراد من فعل القتل من بني أمية، ((فسلطان الكلام ليس فوقه سلطان[...] وسلطة الشعر من سلطة الخطاب))[4]

إن سديفاً من خلال هذه الأفعال التوجيهية (الطلبية) يتحدث عما يختلج في طيات نفوس بني العباس، وما يعتمل في ثنيات دواخلهم، والذي أراده من هذه الأفعال إنما

(١) ينظر: م . ن: ٥٩/٦.

(٢) ينظر: م . ن: ٨٦/٣.

(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: ٥٧/٢.

(٤)سلطة الكلام وقوة الكلمات، د. أبو بكر العزاوي: ١٤٣.

هو الحزُّ من المفصل، وإتيان الأمر من مأتاه، وفاء وترجمة لتلك الانفعالات التي تراودهم، فهو بهذا الخطاب الشعري يضرب على أوتار نغم العباسيين الذين أدركوا ثأرهم من الأمويين؛ لذا فهم جراصٌ كُلَّ الحرص على سماع هذه الأنغام التي تشفي العليل، ولا سيما إذا كان ترداده أمام الأمويين.

وفي نهاية قصيدته هذه يُذكِّر الشاعر الخليفة بما جنته أيدي الأمويين من قتل:

- الحسين بن علي (ﷺ)
- وزيد بن علي بن الحسين (ﷺ)
- وقتيل بجانب المهراس وهو حمزة بن عبد المطلب (ﷺ)
- وقتيل بحرّان (الإمام) وهو إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس (ﷺ)

ولعلَّ من الممكن أن يصنف التذكير بهذه الأمور ضمن مجال ((الإخباريات)) بحسب رؤية سيرل لمجالات الأفعال الإنجازية[1]، إذ يكون الغرض منها هو نقل المتكلم لواقعة ما (بدرجات متفاوتة) من خلال قضية محددة يُعبِّر بها عن هذه الواقعة؛ أي: تعهد المتكلم – بدرجات متنوعة – من خلال منطوقه بكون شيء ما حقيقة واقعة، فضلاً عن تعهده بصدق القضية المعبر عنها[2]. فالغرض الإنجازي العام هنا هو التقرير، واتجاه المطابقة في أفعال هذا الصنف من الكلمات (القول) إلى العالم، وشرط الإخلاص فيها يتمثل في النقل الأمين للواقعة والتعبير الصادق عنها [3].

لقد كان هذا المجال من أهم الإضافات التي قدمها سيرل في المفهوم الإنجازي، لقد استبعد اوستن من قبله كثيراً من صور الإخباريات بوصفها مجرَّد إخبار أو تقرير أو صف، ولكن سيرل أشار إلى أن إنجازيتها تتمُ من خلال خطوتين:

الأولى: تتمثل في أن الإنجاز يتحقق من خلال (نطق الكلام وأدائه).

أما الأخرى: فمن خلال (الإخبار أوالوصف) على أساس أن الإخبار أو الوصف غرضان إنجازيان شأنهما شأن أي غرض آخر كالرفض والقبول [4]. وقد أكدَّ العلماء هذا الرأي من خلال قولهم بأن الجمل كلها إنجازية، ولكن هذا الإنجاز قد يظهر في البنية السطحية من خلال استعمال ألفاظ إنجازية بعينها مثل، أقسم أو أعد، أو من خلال كونها متضمِّنة في البنية العميقة للمنطوق لتدل بمعناها العام على إنجاز الإخبار

(١) ينظر: في البراجماتية: ٦١.
(٢) ينظر: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد: ٢٣٢.
(٣) ينظر: في البراجماتية: ٦١.
(٤) ينظر: م. ن: ٦١.

أو الوصف [١].

إن استظهار الماضي الأليم الذي حلّ بآل هاشم من قبل الأمويين يجسد معاني الصراع السياسي، ويثير الأحقاد والضغائن الكامنة في صدور العباسيين، أو على حد وصف الدكتور مصطفى الشكعة ((إيقاظ للفتنة وتذكير بالثأر، وإثارة لنخوة جاهلية)) [٢].

ومع اجتماع التوجيه نحو القتل والانتقام باستظهار الماضي الأليم من خلال الإخبار بعمليات القتل التي قام بها بنو أمية وإيراد كل ذلك في قوالب شعرية قائمة على الوزن والقافية مُترادفاً هذا النص الشعري مع الأحداث التي صاحبت الثورة العباسية والنفوس المشحونة بالقضاء على بني أمية أحيى الضغائن في نفس أبي العباس واستفزّهُ وأخرجه من وقاره حتى أمر بضرب أعناقهم انتقاماً لقتلى الهاشميين من العلويين والعباسيين الذين صرعهم بنو أمية، وما قام به أبو العباس هو الفعل الناتج لتلك الأفعال التي أوردها الشاعر في هذه القصيدة (الأثر).

وقد عدّ بعض الباحثين هذه القصيدة ((أخطر وصية سياسية في الحياة العربية لأنها أجرت دماءً كثيرة)) [٣].

٢- ترك المشورة

إن الملفوظات التي شكلت نسيج الخطاب السديفي أمام أبي العباس السفاح، والتي امتازت بالتحريض والدعوى إلى القتل والانتقام، هي أنفسها التي كونت خطاب إبراهيم بن هرمة وهو يخاطب أبا جعفر المنصور ويحثه على ترك مشورة حاشيته والذين من حوله.

فقد روى المسعودي في مروج الذهب عن عيسى بن علي أن أبا جعفر المنصور كان يشاورهم في جميع أمره حتى امتدحه إبراهيم بن هرمة في قصيدة وصفه فيها بأنه [٤]:

إذا ما أرادَ الأمرَ ناجى ضميرَهُ فناجى ضميراً غيرَ مختلفِ العقلِ
ولم يُشرِك الأدنينَ في سِرِّ أمرِهِ إذا انتقضت بالأضعفين قوى الحبلِ

وقد علّق الغذامي على البيتين قائلاً: ((تغيُّر المنصور من رجل يستشير في كل أمره إلى رجل مستبد ومطلق، غيَّره بيت من الشعر، وهو ليس بيتاً مفرداً ومعزولاً، إنه بيت نسقي يحمي دلالة نسقية تتمثل فيها وظيفة الشعر ببعده السلبي من حيث صناعة

---

(١) ينظر: التداولية اليوم، و التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد: ٢١٢.
(٢) رحلة الشعر: ٤٠٣.
(٣) الوصايا في الشعر العربي القديم، د. سهام الفرع: ٣٦.
(٤) ديوان إبراهيم بن هرمة: ٨٩.

الفحل المنفرد ذي الصفات الاصطناعية النسقية))[١]. ويؤكد الدكتور عيسى المصري – كذلك- نسقية بيتي بن هرمة، على أساس أن الأنساق– بشكل عام- فاعلة ومؤثرة[٢]، ولكنه يرى أن هذه الفاعلية والتأثيرية – النسقية – هي إيجابية وليست سلبية، إذ يقول: ((أمّا أبيات الشّعر، فهي تحمل دلالة نسقية [الفاعلية والتأثيرية] تتمثل فيها وظيفة الشّعر ببعده الإيجابي لا السلبي كما ظنّ عبد الله الغذامي، فقد رسم الشاعر صورة لخليفة الأديب الفطن الذي يرجع إلى ضميره في الحكم على الأمور، لمكان الضمير من الصفاء، والنقاء، والبعد عن الهوى، فهو يطلب منه أن يوظِّف ضميره في كل أحكامه متوخياً في ذلك العدل، وهذا ما لا تحققه مشورة الحاشية دائماً والتي تتصارع بينها المصالح والآراء، فيصفّي بعضها بعضاً))[٣]. والباحثان وإن اختلفا في تفسير فعل الأثر الناجم من هذين الملفوظين من حيث السلب والإيجاب إلا أنهما اتفقا على إنجازيتهما في نفس الخليفة، حتى تحول المنصور – كما تذكر الرواية – من رجل يستشير في كل أمره إلى رجل ينفرد باتخاذ القرارات والأوامر. فالنظرة التداولية ((ترى بأن اللغة [ومنها اللغة الشعرية] فعلٌ مزوَّدٌ بقوَّة إنجازية وتأثيرية موجهة نحو المخاطَب، فهي من جهة أولى قوة تتميز بالمقصدية اللغوية للذات المتكلمة، ومن جهة ثانية، إلزام المخاطَب بإتباع سلوك لغوي مناسب لمميزات هذه القوة، وفي هذه الحالة تكون هي ذاتها فعلاً، فهي تفعل أو تؤدي إلى الفعل الذي نعبر عنه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة))[٤].

إنّ القوة الإنجازية التي اكتسبها هذان الملفوظان جاءت من خلال حسن توظيف الشاعر للأفعال الإنجازية فيهما، فقد ((يلجأ المتكلم في بعض المواقف إلى استعمال الفعل الإنجازي مرتين، أو أكثر من منطوق واحد متصل في أثناء موقف تداولي معين))[٥]، ففي الملفوظ الأول حقق الفعل الكلامي إنجازيته من خلال وصف الضمير - الذي يرجع إليه الخليفة- بالحكمة والرجاحة والدراية، وخليفة يتملك مثل هذا

---

(١) النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبد الله الغذامي: ١٥٦. والنسق: يتحدد عبر وظيفته، وليس عبر وجوده المجرد، والوظيفة النسقية لا تحدث إلا في وضع مُحدَّد ومقيد، وهذا يكون حينما يتعارض نسقان أو نظامان من أنظمة الخطاب أحدهما ظاهر والآخر مضمر، ويكون المضمر ناقضاً وناسخاً للظاهر، ويكون ذلك في نص واحد، ويشترط في النص أن يكون جمالياً جماهيرياً. ومروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي: ١/٣٠٢، والنقد الثقافي: ٧٧.

(٢) ينظر: النقد الثقافي: ٧٩.

(٣) الإبداع والسلطة في شعر العصر العباسي الأول: ٢٥.

(٤) إستراتيجية الخطاب الشعري عند أبي الطيب المتنبي، مقاربة تداولية، خليفة بولفعة: ١٢٧.

(٥) في البراجماتية: ١١٦.

الضمير حري به أن يعود إليه بدلاً من أن يعود إلى الآخرين الذين تتجاذبهم الأهواء والأطماع – وربما الخوف – في أن يكونوا صادقين في أقوالهم ومشورتهم.

أما الملفوظ الثاني فقد أتى به ليؤكد فكرة الرجوع إلى الضمير في اتخاذ المواقف والقرارات في الملفوظ الأول وذلك من خلال ((النفي)) الذي غالباً ما يعتمد في تأكيد موضوع ما، إن الملفوظ المنفي في أصله قضية موجبة، وظهوره بهذا الشكل هو إشارة إلى كونه قد انتقل من مرحلة السلب إلى مرحلة الإيجاب، وبذلك فهو إثبات من الدرجة الثانية ينمُّ إدراكه ضمنياً، فعندما يقول شخص ما: ((السماء لم تمطر)) فهذا اعتراف منه بأن هناك شخصاً آخر أثبت أن السماء تمطر، إذن فالملفوظ المنفي كما قال شارل بالي يمثل رفضاً لإثبات [1]، فالشاعر عندما نفى أن يشرك ممدوحه المقربين منه في أسراره وما يعزم أن يقوم به من أمور البلاد، فهذا اعتراف من الشاعر بأن هناك شخصاً – صديقاً أو عدوّاً- قد أثبت أن الخليفة يكشف أسرار البلاد لحاشيته، فالنفي إذن هو إنكار للإثبات [2]، وقد علّل الشاعر نفي الإشراك بضعف المقرَّبين من الخليفة، والضعيف لا يصنع قراراً ولا يرهب عدوّاً، بل ينتقض به – على حد قول الشاعر – قوي الحبل، فالقوة تأتي مع الحزم والشجاعة وهذا ما كان عليه المنصور في أيام خلافته وقبلها، فقد ذكر المؤرخون أن أبا جعفر المنصور كان داهية، أريباً، مصيباً في رأيه سديداً، وكان مُحنك السن حازم الرأي، قد عركته الدُّهور، وحلَّت الأيام سطوته، وروى العلم وعرف الحلال والحرام، وكان يسوس سياسة الملوك، ويثبُ وثوب الأسد العاري، لا يُبالي أن يحرس مُلكه بهلاك غير [3]، إن شخصية المنصور هذه بما امتازت به من العصامية، والقوة، ورجاحة العقل، وما تبوأته من مناصب في الدولة، إذ كان مشاور أبي العباس، وساعده الأمين، وفضلاً عن أنه ولي أرمينيا وأذربيجان والجزيرة، واشتغل بالإدارة والسياسة قبل مجيئه إلى الحكم، ما أسهم في تقوية الخلافة العباسية، وتشييد الدولة وعمرانها بعد تولية الحكم [4]، دعت الشعراء وعلى رأسهم ابن هرمة إلى أن يدعو الخليفة إلى الاعتماد على تلك التجارب التي خاضها هو في حياته والتي تكللت بالنجاح والتوفيق بدلاً من المقرَّبين الذين لا يمتلكون من الخبرة والتجربة ما يمتلكه المنصور نفسه، فالمناسبة موجودة بين كلمات الشاعر وحال الخليفة، والمقام يدعو – على رأي الشاعر – إلى أن ينفرد الخليفة في صنع

(١)إستراتيجية الخطاب الشعري عند أبي الطيب المتنبي: ١٩٩.

(٢) ينظر: في البراجماتية: ١١١.

(٣) ينظر: البيان والتبيين، الجاحظ: ٥٥٤/٣.

(٤) ينظر: العصر العباسي الأول، عبد العزيز الدوري: ٥٥.

القرار بنفسه، فلا غرو من بعد أن نجد أن هذه الكلمات قد وقعت أيّما وقع في نفس الخليفة وغيّرته من حال إلى حال.

٢- (الطرب) والنزوع السلوكي:

إنّ الطرب مستورد من مصطلحات تقع في دائرة فن الموسيقى أكثر من غيره من الفنون وهو الشعور بالمتعة الفائقة عند السماع، أو ما أصله السّماع، الموسيقى والغناء والشعر وما أشبه، مع التعبير الانفعالي العفوي عن ذلك بالهتاف أو الحركة أو التأوه أو الترنّح أو

ما قاربه[١]. وتُسمى هذه الحالة عند النقاد العرب (هِزّة الطرب)، وابن طباطبا يُشبِّه الشعر الحمي في لذّته ودُخوله على المتلقي بالإيقاع المُطرب المُختلف التأليف[٢]. ويجعل ورود هذا الشعر على ما يُواف النفس سبباً في أن تهتزّ له، وتكون قد حدثت لها أريحيةٌ وطرب[٣]. ويلحق الوصول إلى الأريحيّة والاهتزاز والطرب بالوزن والفهم، وهذان مظهران قويّان من مظاهر الحياة البشرية، يقول ابن طباطبا: ((ومثال ذلك الغناء المطرب الذي يتضاعف له طرب مستمعه، المتفهم لمعناه ولفظه مع طيب ألحانه، فأما المقتصر على طيب اللحن منه دون ما سواه فناقص الطرب، وهذه حال الفهم فيما يردُ عليه الشعر الموزون مفهوماً أو مجهولاً))[٤]. إن التقارب الذي يجريه (ابن طباطبا) بين الطرب للنص الشعري والطرب للغناء لافت للمتأمل، إذ يُبْرِزُ بما للفهم من معنى إيجابي في اكتمال هذه الحالة التي يدخل فيها المتلقي وفي الوقت نفسه، يفارق حديثاً سلف عن حتمية العقلنة والفهم الثاقب للوصول إلى لذّة النص، أو الالتذاذ بما فيه، واللّذة سابقة على الطرب، فهو مجموعة من اللذائذ التي تملّكت المتلقي فأخرجته إلى هذه الحالة، ومعنى ذلك:إن ما يقع على المتلقي من إثارة تُفضي في أول الأمر إلى انفعال جمالي ثُمّ مشاركة بالرغبة في خلق النص ثم الالتذاذ به، فوقوع تحت سحره، وسكرٌ بما فيه، ثم تحقيق الطرب الذي يكون بصورة الأريحيّة والاهتزاز، وهو ما قد يدفع بالمتلقي إلى القيام بفعل طائش يرفضه العقل الذي يشترطه (ابن طباطبا) في اتصال المتلقي بالنص[٥]. وهذا ما يبدو أنه قد تحقق في خطاب الشاعر أشجع السلمي ولا سيما ذاك الذي أمكنه من الخليفة هارون الرشيد وجعله يكسب رهان مودته،

(١) نظريات الشعر عند العرب، الجاهلية والعصور الإسلامية، مصطفى الجوزو: ٢٢٨/٢.

(٢) ينظر: عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي: ٥٣.

(٣) ينظر: م . ن: ٥٣.

(٤) عيار الشعر: ٥٣.

(٥) ينظر: مكونات الإبداع في الشعر العربي القديم، رانية العرضاوي: ٣٩١.

والحصول منه على ما كان قد أمّل وهو ينوجّه إليه بذلك الخطاب المدحي، فقد روى ابن المعتز أن أشجع السلمي كان رديء المنظر وقبيح الوجه، وكان على قلب الرشيد ثقيلاً من بين جميع الشعراء، فدخل عليه يوماً، فقال: يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تأذن لي في إنشادك، فإن أنا لم أظفر منك ببغيتي في هذا اليوم فلن أظفر بها أبداً، قال: وكيف؟ قال: لأني مدحتك بشعر لا أطمع من نفسي ولا من غيري في أجود منه، فإن أنا لم أهززك في هذا اليوم فقد حرمتُ منك ذلك إلى آخر الدهر. فقال الرشيد: هات إذن نسمع، فأنشد قصيدته الميمية التي يقول فيها [1]:

وعلى عـدُوّكَ يـا بْـنَ عَـمِّ مُحَمَّـدٍ		رَصَـدَانِ: ضَـوْءُ الصُّـبْحِ والإظْـلامِ

فـإذا تَنَبَّـه رُعْتَـهُ وإذا غَفَـا		سَـلَّتْ عليـه سُـيوفُ الأحْـلامِ

فلّما بلغ هذين البيتين اهتزَّ الرشيد وارتاح، وقال: هذا واللهِ المدح الجيّدُ، والمعنى الصحيح، لا ما عُلِّلَت به مسامعي هذا اليوم، وكان قد أنشدهُ في ذلك اليوم جماعة من الشعراء، ثمَّ أنشده قصيدته التي على الجيم وفيها يقول [2]:

ملـك أبـوه وأمـه مـن نبعـه		منهـا سـراج الأمـة الوهّـاج

شـربا بمكّـة فـي رُبـى بطحائهـا		مـاءَ النبـوة لـيس فيـه مِـزاجُ

فلّما سمع الرشيد هذين البيتين كاد يطير (فرحاً) وارتياحاً، ثم قال: يا أشجع لقد دخلت إليّ وأنت أثقلُ الناس على قلبي، وإنك لتخرج من عندي وأنت أحبُّ الناس على قلبي، فقال له الشاعر: فما الذي أكسبني هذه المنزلة ؟ قال له: الغنى، فاسأل ما بدا لك، قال: ألف ألف درهم، قال: ادفعوا له [3].

إن الأفعال الكلامية في هذه الأبيات قد حرّكها فعل تأثيري (سلبي) سابق، وقد تمثل الفعل التأثيري السلبي لدى الخليفة في:

- المظهر الخارجي للشاعر
- قصائد تقليدية لا تتوافق ورغبة الرشيد وسماسته.

ومن ثمّةَ فقد ركّز الشاعر على تغيير الفعل التأثيري من الكره إلى الرضا، يتضح هذا من خلال قول الشاعر للخليفة وهو يخاطبه: ((فإن أنا لم أهززك في هذا اليوم

---

(١) أشجع السلمي حياته وشعره، د. خليل بنيان الحسون: ٢٥٣.

(٢)م . ن: ١٩٦.

(٣) ينظر: طبقات الشعراء، ابن المعتز: ٥٠.

فقد حرمت منك ذلك إلى آخر الدهر...)). وظفر الشاعر بما كان يؤمّل من الوصول إلى قلب الرشيد ومخاطبته بما يحب وذلك عن طريق تغيير ملفوظاته الشعرية من أبيات تقليدية إلى أبيات تتوافق مع رغبات الرشيد الذي كان يُحبُّ – حاله حال أي خليفة عباسي – أن يمدح بشرف النسب والشجاعة، وبما يبين عن أحقيته بالملك والخلافة دون غيره؛ لذا تجده يهتزُّ طرباً عندما ناداه الشاعر بابن عم محمد (ﷺ) وفي القصيدة الثانية يبالغ في مديحه فيجعل الرسول (ﷺ) قد انحدر من نسل هذا الملك (هارون) إشارة من طرف خفي من قبل الشاعر إلى أحقية العباسيين بالملك فهم أعمام النبي (ﷺ) والعمُّ صِنو الأب كما ورد في الأثر [(١)]، وهذا المعنى كان مهماً عند الخلفاء العباسيين وكانوا أكثر ما يُطربون له ويجيزون عليه والسبب يكمن ((في أن العلويين في الدولة العباسية كانوا لا يزالون يُشكِّلون قوة تُهدد الدولة وكيانها، لذا كانت السلطة [العباسية] بحاجة إلى إقناع الناس بعدالة حكمهم وصحة خلافتهم، فاستعانوا لذلك بالشعر))(٢).

وفي سياق وصف الرشيد بالقوة والشجاعة نجد أن الشاعر يُصوِّر مدى امتلاء قلب عدوه بالخوف والذعر منه: لأنه – أي: الخليفة – قد ترصد له في كل الأوقات، بل إن سيوف الخليفة تلاحقه حتى في المنام، في إشارة من الشاعر إلى استعداد الخليفة وجاهزيته لمواجهة خصومه في أي زمان ومكان.

وقد قصد الشاعر إلى توظيف الاستعارة في قوله:

سلَّت عليه سيوف الأحلام

بما يحمله الفعل (سلَّت) من معنى القوة والدموية ليحدث من خلاله رعدة انفعالية لدى المتلقي (الخليفة)، فالاستعارة الجمالية أو الشعرية تعطي انطباعاً جديداً في مناخ جديد، ومعيارها هو تعمد الشاعر إثارة هزَّة انفعالية [(٣)].

وهذا المعنى الأخير كانت الإشارة إليه مهمة جداً في أيام الرشيد التي تعرَّضت فيها البلاد الإسلامية إلى هجمات واعتداءات من قبل الروم فضلاً عن حركات التمرُّد التي كانت تحدث في الداخل[(٤)].

ولعل من الممكن أن ندرج الملفوظات الشعرية الأربعة التي كان لها وقع جميل في

---

(١) قال رسول الله (ﷺ) للعباس رضي الله عنه: ((إن عمَّ الرجل صنو أبيه)). صحيح مسلم، الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج: ٦٧٧/٢

(٢) الإبداع والسلطة في شعر العصر العباسي الأول: ١٥٢.

(٣) ينظر: مقدمة لدراسة التطور الدلالي في العربية الفصحى في العصر الحديث، أحمد محمد قدور: ٩٠٦.

(٤) ينظر: العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف: ٣٧.

نفس الخليفة ضمن مجال الإعلانيات التي يكون غرضها الإنجازي إحداث تغيير في العالم؛ أي: أن العالم يطابق القضية المُعبَّر عنها بالفعل الإنجازي، بمجرَّد الأداء الناجح للفعل، ويتمُّ ذلك بالاستناد إلى مؤسسة غير لغوية (بلاطية، اجتماعية، خارجية، شعرية..). تسوِّغ الفعل الإنجازي عند أدائه بصورة ناجحة إحداثاً للتغيير المطلوب، ولا تحتاج الأفعال هنا من شرط الإخلاص سوى الاعتقاد بأن الفعل وقع ناجحاً، والرغبة في وقوعه ناجحاً [1].

إن الخصيصة المُحدِّدة لهذه الفئة (من الأفعال الإنجازية) هي أن الأداء الناجح لأي عضو من أعضائها يُحدث تناظراً بين المحتوى القضوي والوجود الخارجي، ويضمن الأداء الناجح للفعل أن يناظر المحتوى القضوي العالم؛ أي: أن أداءها الناجح يتمثل في مطابقة محتواها القضوي للعالم الخارجي، فإذا أدِّيت فعل إعلان الحرب أداءً ناجحاً فالحرب معلنة[2]، ويُشير بعضُ الدارسين في مجال الإعلانيات إلى أن ((المتكلم يمكن أن يصوغ خطابه في أكثر من قالب لغوي؛ إذ لا يوجد قالب واحد أساس تقوم عليها كل التعبيرات ذوات المعنى، بل يوجد تنوع ضخم للجانب الشكلي؛ حيث يستخدم المتكلم الاسم أو جملة اسمية للتعبير عن الإنجاز تارة ويستخدم الجملة الفعلية أو الفعل للتعبير عن الإنجاز تارة أخرى))[3]، وأما من حيث القضايا والمعاني فلها تنوع لا نهائي، إذ يمكن للمتكلم باستمرار أن ينتج ما يناسب احتياجاته، وبصورة عامة يُحدِّد المتكلم بنية الحدث الإنجازي وفقاً للمعرفة الإدراكية والإنجازية الملائمة للسياق الذي ينجز خلاله فعله الكلامي [4].

ولو عدنا إلى الملفوظات الأربعة التي اهتزَّ لها الرشيد وطرب لوجدنا أنها تعلن عن أمرين مهمين، هما:

١- ربط الخليفة بالرسول (ﷺ) عن طريق التأكيد على النسب، وهذا الربط مهم فيما يخصّ صراع العباسيين مع العلويين أبناء عمومتهم الذين كانوا يتكئون على النسب في أحقيتهم بالخلافة.

٢- إثبات أن الخليفة يقظٌ ومنتبهٌ، وهو خطاب موجه لأعداء الداخل والخارج، أن كونوا على حذر من الخليفة الذي يتربص بكم في كل وقت وحين.

(١) ينظر: في البراجماتية: ٦٣.

(٢) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: ٥٠، والتحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد: ٢٣٥-٢٣٦.

(٣) في البراجماتية: ٦٣.

(٤) م. ن: ٦٤.

٤- العطاء:

لا مشاحة من عدّ الطرب والنزوع السلوكي عند المُتلقي صورة من صور النص المرجعي أو رجع الصدى الذي يكمل العملية الإبداعية بعودته من جديد إلى المبدع ليستفزّ نصّاً آخر فيه، وغياب هذا النص عن ساحة المتلقي غير ممكن، فحتى صمته هو صورة من صور النص المرجعي الذي يبثّهُ إلى المبدع، وما يرسله الممدوح من عطايا للمُبدع هو صورة كذلك من صور النص المرجعي الذي يتحوّل إلى باعث يحكم على الإبداع بالتواصلية اللانهائية.

يروي ابن المعتز في طبقاته أن منصور النمري مدح الرشيد يوماً بقصيدة رائية حتى إذا بلغ قوله [١]:

وإنّك حين تبلغهم أذاة - وإنْ ظلموا - لمتحرق الضّمير

قال الرشيد: ويحك ما هذا؟ شيء كان في نفسي منذ عشرين سنة فأردتُ إظهاره فأظهرته بهذا البيت، ثم قال للفضل بن الربيع خذه إلى بيت المال ودعه يأخذ ما شاء[٢].

إن فوز الشاعر بجائزة الخليفة، دليل واضح على إنجازية ملفوظه الشعري، ولا سيما في هذا البيت الذي تعجب منه الخليفة، لأن هذا المعنى مما كان يبحث عنه الرشيد منذ مدة ليست بقليلة – عشرين سنة – ويحب أن يمدح به وأن ينشر بين الناس، فجاء الشاعر منصور النمري في هذا البيت وأظهر هذا المعنى الذي وافق هوى الرشيد، وهذا دليل واضح على كفاءة الشاعر الاتصالية ومقدرته على أفعال الكلام التي أكسبته ودّ الخليفة وجائزته.

ولو عدنا إلى الملفوظ (البيت الشعري) الذي أثر في الخليفة وجعله يأمر حاجبه بإدخال الشاعر إلى بيت المال وأخذه منه ما شاء لوجدنا أن هذا الملفوظ (البيت الشعري) يُشير إلى أمرين مُهمّين جداً وهما:

أولاً: مواجهة الظلمة (الخارجين على الحاكم) وإنزال الأذى بهم، وفي هذا دلالة واضحة على تماسك السلطة وقوتها.

ثانياً: تصوير الجانب العاطفي الرحيم والمشفق لنفس الخليفة، وهو يوقع الأذى بهؤلاء الذين وصفهم الشاعر بالظلمة، في إشارة إلى أن هؤلاء الظلمة كانوا – غالباً – من العلويين الذين رفضوا الخلافة العباسية وناصبوا خلفاءها العداء؛ لأنهم كانوا

---

(١) شعر منصور النمري: ٨٨.

(٢) ينظر: طبقات الشعراء: ٢٤٥.

يرون أن العباسيين مغتصبون للخلافة والحكم، وأنهم أولى بالخلافة منه، ومن ثم فإن إلحاق الأذى ((بقوم أبوهم أبي ونسبهم نسبي، وأصلهم وفرعهم أصلي وفرعي))[1]، كما وصفهم الرشيد مما يحزن القلب ويدعو إلى تأنيب النفس وتقريعها، وهذه الصورة مما كان يحرص الرشيد على أن يظهرها أمام الناس، فجاء الشاعر وعبر عنها بأسلوب شعري مميز ضمن لها الانتشار والخلود والتأثير كذلك.

يقول أشجع السلمي يمدح الرشيد بالنصر العظيم على الروم وفتح هرقلة [2]:

لا زلـتَ تنشـرُ أعيـاداً وتطويهـا ... تمضـي بهـا لـك أيـامٌ وتُثنيهـا
مُسـتقبلاً بهجـةَ الـدُّنيا ولـذَّتها ... أيامهـا لـك نظـمٌ فـي لياليهـا
العيـدُ والعيـدُ والأيـامُ بينهمـا ... موصـولةٌ بـك لا تفنـى وتُفنيهـا
ولا تقضَّـت بـك الـدُّنيا ولا برحـت ... يطـوي لـك الـدَّهرُ أيامـاً وتطويهـا
وليهنِـك الفـتحُ والأيـامُ مُقبِلـةٌ ... إليـك والنصـرُ معقـودٌ نواصـيها
أمسـت هرقلـةُ مكلومـاً جوانبهـا ... وناصـرُ الـدين بالتـدبير يرميهـا
ملكتهـا وقتلـت النـاكثين بهـا ... بنصـر مـن يملـك الـدنيا ومـا فيها
مـا رُوعي الـدينُ والـدُّنيا على قـدمٍ ... بمثـل هـارون راعيـه وراعيهـا

يذكر صاحبُ الأغاني أن الخليفة أمر لأشجع بألف دينار، وقال: لا ينشدني أحدٌ بعده، فقال أشجع: واللهِ لأمره بألا ينشد أحدٌ غيري أحبُّ إليَّ من صلته [3].

إن هذه الملفوظات التي قالها الشاعر أمام الخليفة والتي عملت في الرشيد فعل التأثير، حتى دعت الخليفة إلى إكرام الشاعر وقوله في حقه بأن لا ينشد في ذلك اليوم أحدٌ بعده، قد امتلكت الكفاءة التداولية فضلاً عن الكفاءة اللغوية؛ إذ أن قصة فتح هارون الرشيد لهرقلة تُعدُّ مفخرة من مفاخر المسلمين على مرّ العصور، ذكرتها جُلّ مصادر التاريخ والأدب[4]، وهي فُرصة ثمينة لشاعر السلطة كي يتغنّى بها، ويُخلدها بشعره كي تبقى ماثلة في صفحات التاريخ المشرق، فقد كان عيدُ المسلمين عيدين: عيد الفطر وعيد النصر بالفتح الكبير الذي زاد من هيبة الدولة وجعلها مهيبة في عيون أعدائها.

وقول الشاعر في الخليفة بأنه (ناصر الله والإسلام) فيه إشارة إلى أن النصر الذي تحقق على يد الخليفة يمثل نصراً وعزة لدين الله، فالخليفة لم يخذل دين الله ولم

---

(١) الأغاني: ١٤٤/١٣.

(٢) أشجع السلمي حياته وشعره: ٢٦٨-٢٦٩.

(٣) ينظر: الأغاني: ٢٥٤/١٨-٢٥٥.

(٤) ينظر: م . ن: ٢٤٧/١٨-٢٥٥.

يترك الأمر للتفاوض أو لم يبطئ في الرد على من نكث بالعهد. فكان جوابه أسرع مما يتصوره نقفور ملك الروم ((والجواب ما تراه لا ما تسمعه))[1]، وكانت النتيجة (ملكتها وقتلت الناكثين بها)، وكان ذلك بتأييد من الله (ﷻ)، ثم يُقرر الشاعر حقيقة أفرحت الخليفة كثيراً؛ لأنها تدور حول المعاني التي كان يُحبُّ أن يمتدح بها (ما روعي الدين والدنيا على قدم... بمثل هارون راعيه وراعيها)، مما دفع الخليفة أن لا يسمح لأحدٍ بعده أن ينشده، فقد اكتفى بما قاله؛ لأنه لا يرى بعد هذا المدح من مدح فتلك أعظمُ صفة كان يحبذها هارون، الجمع بين الدين والدنيا، فالخليفة الصالح هو البصير بأمور دينه المطبق لحدوده، المدافع عنه، وهو القائم على أمور الرعية بما ينعكس على حياتها معاشها، وبهذا يجمع الدين والدنيا معاً.

إنَّ المخاطِب (الشاعر) ((إذا تمكّن من مخاطبة ذوي الأقدار بما يريدون، وبالطريقة التي يريدون، وفي الوقت الذي يريدون، فقد أمكن هذا المخاطب لخطابه منهم، أعني فقد جعل لخطابه الناتج في هذا السياق – والمحقق إرادتهم في المعنى والصورة والزمان – سلطة بالغة عليهم))[2]. أو قل: إنه قد جعل خطاباً ملازماً لهم، بالغ التأثير فيهم، فاعلاً فيهم فعلاً من شأنه أنه ((أنفذ من نفذ السحر، وأخفى دبيباً من الرقى، وأشدُّ إطراباً من الغناء، فسلّ السخائم، وحلّ العقد، وسخّى الشحيح، وشجّع الجبان، وكان كالخمر في لطفِ دبيبه وإلهائه، وهزه، وإثارته))[3].

وهذا ما وعاه شعراء البلاط وطبقوه في أفعال القول الشعري لديهم، فكانت لتلك الأفعال القولية إنجازات قد تحققت في أرض الواقع تأثراً وتأثيراً . من هنا يتبين لنا أن مفهوم الفعل الكلامي نواةٌ مركزية في كثير من الأعمال التداولية، وهو كُلُّ ملفوظٍ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري، وعلاوةً على ذلك فإنه يُعدُّ نشاطاً مادياً نحوياً يتوسّلُ بأفعال قولية إلى تحقيق أغراض إنجازية وغايات تأثيرية تخصُّ ردود فعل المتلقي (كالرفض والقبول)، ومن ثمّ فهو فعل يطمح إلى أن يكون ذا تأثير في المخاطب، اجتماعياً أو مؤسساتياً لإنجاز شيء ما. وهو المقصود من نظرية أفعال الكلام برمتها . ونقصد به أن المتكلم حين ينطق بقولٍ ما، فهو ينجز معنىً قصدياً، وهو ما أسماه أوستن بقوة الفعل، وقد بيّنت هذه الدراسة دور المقام في صنع الخطاب وتشكيله لغوياً، فضلاً عن اختيار الكلمات والتراكيب المناسبة بما يُؤهله لأداء المعنى، وقد كان أغلب الشعراء العباسيين على دراية بأهمية المقام وهم يخاطبون الخلفاء.كما

(١) تاريخ الخلفاء، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: ٢٢٩.

(٢)ما الخطاب وكيف نحلله؟ ، د. عبد الواسع الحميري: ٢٥٧.

(٣) عيار الشعر: ٢٢.

أسهمت الدراسة في إثبات إنجازية الخطابات الشعرية التي كانت تقال بين يدي الخلفاء، وهي لا تفسر كيفية بنائها ونموها الموضوعاتي وأداوات اتساقها فحسب، بل تفسر نوعية العلاقة التواصلية القائمة بين المتكلم (المبدع) والمتلقي عبر النص الإبداعي المنتج، كما نبهت المحاور إلى أن الشعر لا يُعدُّ فناً إبداعياً فحسب، بل هو فكرٌ وتصورات ومفاهيم لها أثرها اللغوي الفاعل في نفوس المتلقين وتوجهاتهم. مبينة ضرورة مقاربة الشعر مقاربة تبتعد عما اعتادت عليه معظم الدراسات الأدبية التي تناولت هذا الشعر من الوجهة الفنية أو الشكلية فحسب، أما كيف أُنجز هذا العمل، ومن أنجزه، ولماذا أُنجز؟ وما دلالته بالنسبة لمن أنجزه ولمن تلقاه؟ وما هي المضامين والرؤى التي تحملها؟ فأسئلة كثيرا ما نفتقد لها جواباً في النقد الاعتيادي، فالشعر عامة والشعر الذي كان يقال بين يدي الخلفاء والأمراء خاصة لا يخضع للشروط الجمالية وحدها، وإنما تُراعى فيه الشروط التداولية والاجتماعية التي تقتضي صوراً من السلوك القولي بحسب المقامات،فهو يقتضي منا ضروباً خاصة من الاشتغال النقدي، فكانت التداولية برأينا المنهج الأنسب لمقاربة هذا النوع من الشعر.

❖ المصادر والمراجع

- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د. محمود أحمد نحلة، ط١، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية –مصر، ٢٠٠٦م.
- الإبداع والسلطة في شعر العصر العباسي الأول، الشاعر والخليفة، د. عيسى المصري.
- إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت – لبنان، ٢٠٠٤م.
- أشجع السلمي حياته وشعره، د. خليل بنيان الحسون،ط١، دار المسيرة، بيروت – لبنان، ١٩٨١م.
- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (ت٣٥٦هـ)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٩٨٦م.
- البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق فوزي عطوي،د.ط، دار صعب، بيروت – لبنان، د.ت.
- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة د.عبد الحليم النجار،د.ط، دار المعارف، القاهرة- مصر،١٩٥٩م.
- تاريخ الخلفاء، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت٩١١هـ)، ط١، دار ابن حزم، بيروت – لبنان، ٢٠٠٣م.
- التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، صلاح إسماعيل عبد الحق،ط١، دار التنوير، بيروت – لبنان، ١٩٩٣م.
- التداوليات علم استعمال اللغة، (مجموعة باحثين) إعداد وتقديم د. حافظ إسماعيلي علوي،ط١، عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن، ٢٠١١م.
- التداولية عند العلماء العرب (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية) في التراث اللساني العربي، د. مسعود صحراوي،ط١، دار الطليعة، بيروت – لبنان١، ٢٠٠٥م.
- التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، آن روبول وجاك موشلار، ترجمة د. سيف الدين دغفوس ود. محمد الشيباني،ط١، المنظمة العربية للترجمة، بيروت – لبنان، ٢٠٠٣م.
- تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت٣٧٠هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، د.ط، المؤسسة المصرية العامة، ١٩٦٤م.
- جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري المعروف بابن دريد (ت٣٢١هـ)،ط١، دار صادر، بيروت- لبنان، ١٣٤٤هـ

- الحجاج في الشعر العربي القديم، من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنيته وأساليبه، د. سامية الدريدي، ط١، عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن، ٢٠٠٨م.
- خطاب الطبع والصنعة (رؤية نقدية في المنهج والأصول)، د. مصطفى درواش، د.ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق-سوريا، ٢٠٠٥م.
- الخطاب في الشعر، د. محمد منال عبد اللطيف، ط١، دار البركة، عمان-الأردن، ٢٠٠٣م.
- الخطاب القرآني – دراسة في البعد التداولي، د. مؤيد آل صوينت، ط١، مكتبة الحضارات، بيروت – لبنان، ٢٠١٠م.
- ديوان إبراهيم بن هرمة، تحقيق محمد جبار المعيبد، د. ط، مطبعة الآداب، نجف – العراق، ١٩٦٩م.
- رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية، د. مصطفى الشكعة، ط٣، عالم الكتب، بيروت – لبنان، ١٩٧٩م.
- الشعر الأموي بين الفن والسلطان، عبد المجيد حسين زراقط، ط١، دار الباحث، بيروت – لبنان، ١٩٨٣م.
- شعر شديف بن ميمون، جمع وتحقيق: رضوان مهدي العبود، ط١، مطبعة العربي الحديثة، نجف- العراق، ١٩٧٤م.
- شعر منصور النمري، تحقيق الطيب العشاش، د.ط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، اتحاد طباعة دار المعارف، القاهرة – مصر، ١٩٨١م.
- شعرية التفاوت، مدخل لقراءة الشعر العباسي، د. محمد مصطفى أبو شوارب، د.ط، دار الوفاء، الإسكندرية – مصر، ٢٠٠١م.
- صحيح مسلم، الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ت٢٦١هـ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، د.ط، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة مصر، د.ت.
- طبقات الشعراء، عبدالله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون(ت٢٩٦هـ) تحقيق عبدالستار أحمد فراج، ط٤، دار المعارف، القاهرة-مصر، ١٩٨١م.
- العباسيون في سنوات التأسيس، د. عصام سخنيني، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان، ١٩٩٨م.
- العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف، ط١٤، دار المعارف، القاهرة-مصر، ١٩٦٦م
- العصر العباسي الأول – دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي -، عبد العزيز الدوري، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان، ٢٠٠٦م.
- العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي، جون سيرل، ترجمة: سعيد الغانمي، ط١، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة-الجزائر، ٢٠٠٦م.

- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا،ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ٢٠٠١م.
- عيار الشعر، محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (ت٣٢٢هـ)، تحقيق: عباس عبد السّاتر،ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ٢٠٠٥م.
- الفلسفة واللغة، نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة، د. الزواوي بغورة،ط١، دار الطليعة، بيروت – لبنان، ٢٠٠٥م.
- في البراجماتية: الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة دراسة دلالية ومعجم سياقي، د. علي محمود حجي الصراف، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة – مصر، ٢٠١٠م.
- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم بن منظور،د.ط، دار صادر، بيروت – لبنان، ١٩٥٥م.
- ما الخطاب وكيف نحلله؟، د. عبد الواسع الحميري،ط١، مجد المؤسسة الجامعية، بيروت – لبنان، ٢٠٠٩م.
- مبادئ النقد الأدبي، إ.أ. ريتشاردز، ترجمة: د. مصطفى بدوي،د. ط، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة – مصر، ١٩٦١م.
- مدخل إلى التحليل اللساني للخطاب الشعري، د. نعمان بوقرة،ط٢، عالم الكتب الحديث، إربد – الأردن، ٢٠٠٨م.
- مدخل إلى النظرية الأدبية، جوناثان كولر، ترجمة: مصطفى بيومي عبد السلام، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة – مصر، ٢٠٠٣م.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، (ت٣٤٦هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط٢، ١٩٤٨م.
- المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، ترجمة محمد يحياتن،ط١، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة-الجزائر،٢٠٠٨م
- المعجم الفلسفي، عادل فاخوري، معهد الإنماء العربي، ط١، ١٩٨٨م.
- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون،د.ط، دار الفكر، بيروت– لبنان، ١٩٧٩م.
- مكونات الإبداع في الشعر العربي القديم ابن طباطبا نموذجاً، رانية محمد شريف صالح العرضاوي،ط١، عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن، ٢٠١١م.
- نبرات الخطاب الشعري، د. صلاح فضل، دار قباء، القاهرة-مصر، ١٩٩٨م.
- نظرية أفعال الكلام العامة (كيف ننجز الأشياء بالكلام)، جون لانكشوأوستين، ترجمة عبد القادر قينيني،ط٢، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء- المغرب، ٢٠٠٨م.
- نظرية المصطلح النقدي، عزت محمد جاد، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب،

القاهرة – مصر، ٢٠٠٢م.

- نظريات الشعر عند العرب، الجاهلية والعصور الإسلامية، مصطفى الجوزو،ط٢، دار الطليعة، بيروت – لبنان، ١٩٨٨م.
- النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبد الله الغذامي،ط٦، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المملكة المغربية، ٢٠٠٥م.
- النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال،د.ط، دار العودة، بيروت– لبنان، ١٩٧٣م.
- هل يوجد نص في هذا الفصل؟ سلطة الجماعات المفسرة، ستانلي فش، ترجمة وتقديم: أحمد الشيحي، ط١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ٢٠٠٤م.
- الرسائل والأطاريح الجامعية
- إستراتيجية الخطاب الشعري عند أبي الطيب المتنبي مقاربة تداولية، خليفة بولفعة، إشراف د. محمد قريبيز، كلية الحقوق والعلوم الاجتماعية/ قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة عمار ثليجي، الأغواط، الجزائر، ٢٠٠٨م.
- تداولية الخطاب الأدبي لـ دومينيك مانقينو– دراسة وترجمة -، مني بدري، إشراف د. عبد القادر بوزيدة، (رسالة ماجستير)،كلية الآداب، جامعة الجزائر،الجزائر، ٢٠٠٨م.

❖ الدوريات

- بنية الخطاب السردي، مقاربة تداولية، بن قندوز هواري، مجلة اللغة والأدب، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، ع١٧، ٢٠٠٦م.
- سلطة الكلام وقوة الكلمات، د.أبو بكر العزاوي، مجلة المناهل، تصدرها وزارة الثقافة والاتصال المغربية، ع٦٢-٦٣، ٢٠٠١م.
- كيف ننجز الأشياء بالكلمات؟ د. محمد حسن عبد العزيز، مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ع١٨، ١٩٩٥م.
- مقدمة لدراسة التطور الدلالي في العربية الفصحى في العصر الحديث، أحمد محمد قدور، مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام في الكويت، مج١٦، ع٤، ١٩٨٦م.
- الوصايا في الشعر العربي القديم، د. سهام الفرع، مجلة البيان، الكويت، ع٢٥٧، ١٩٨٧م.

الاقتضاء التّخاطبي

دراسة تداوليّة في آيات من سورة الأنعام

م. م. نور وليد*

❖ مدخل

عُنيت هذه الدّراسة بموضوع التّداوليّة التي تُعد منهجاً جديداً أخرج اللسانيات مما كانت عليه بعزلها للغة عمّا يُحيط بها من ظروف المُتكلم والمُتلقي وأثر تلك الظّروف على الحدث الكلامي، أي باعتنائها باللغة دون الكلام وبالكفاءة دون الأداء، فجردت النُّصوص واختزلتها ولم تصل إلى مرادها، فجاءت التّداوليّة بوصفها جزءا لا يتجزأ من اللسانيات فأكملتها من خلال تركيزها على المتكلم وعلاقته بالمتلقي وكيفية فهم الأخير لما يُريده المتكلم بالضبط لا ما تعنيه العبارة، فعدت الأفعال إنجازاً لعمل ما أثناء قولها، لا قولها وتأثير ذلك في المُتلقي، وهي بذلك سلطت الضّوء على التّواصل بين مُستعملي اللغة فعالجت النُّصوص في بؤرة التّواصل اللغوي، فضلاً عن أنها درست السّياق بكل أشكاله بوصفه أهم أجزائها ودعامة من دعائم التّواصل، ولم تعن بالسّياق وعلاقات الألفاظ فيما بينها بل خصت ما يُراد من الألفاظ غير المنطوقة والتي يتوصل إليها المتلقي بالاستنتاج والاستدلال جزءاً كبيراً من عنايتها.

إنّ الدراسات الغربية الحديثة ربما تأثرت بالتراث العربي فعملت على فتح أوراقه بشكل جديد وأبانت عن كثير مما كان مُختبئا في جوانبه، وطورت أموراً، وكشفت أخرى، وقد يعود سبب ذلك إلى أنّ الغربيين درسوا ودرّسوا التُّراث العربي كثيراً في جامعاتهم واستوعبوه وأخرجوه بحلته هذه.

التّداوليّة: قاعدة اللسانيات، وهي درس جديد وغزير[1]، وهي في أبسط تعاريفها: العلاقات التي تُشير إليها التّراكيب اللغوية، والعلاقات القائمة بين اللغة والسّياقات التي تُستعمل فيها، والذين يصنعون هذه السياقات هم الناطقون باللغة[2].

وقد عُرفت بأنها دراسة العوامل التي تحكم اختيارنا للغة في التفاعل الاجتماعي، وتأثيرات هذا الاختيار في الآخرين، وكيف يتوصل هؤلاء إلى الأسس العامة التي يعتمد

---

* كلية التربية - جامعة الموصل

(1) المقاربة التداولية: فرانسواز أرمينكو، ترجمة: د. سعيد علوش، ٧.

(2) منازل الرؤية_ منهج تكاملي في قراءة النص: د.سمير شريف أستيتية، ١١٥، ١١٣.

عليها النَّاس في تفاهمهم[١]، فهي تُعالج (كيف تتفاعل الخصائص اللغوية والعوامل النصية في تأويل الملفوظات لتمكن السامعين من جسر الفجوة بين معنى العبارة ومعنى المتحدث)[٢].

وتُعنى التَّداوليَّة بالعلاقات بين الخطابات ومنشئها وبين العلامات ومستعملها، وأبرز مقولاتها الانجاز، والسِّياق، والفعل بنوع خاص، وذلك حيث الكلام يُعامل بوصفه فعلاً يُنجز في سياقه، سواء من جانب المُتكلم أم من جانب المُتلقي[٣]. وتُعنى أيضاً باستعمال اللغة، وتدرسها بوصفها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية في الوقت نفسه، وتدرس التلاؤم بين التَّعابير الرَّمزية والسِّياقات المرجعية والمقامية والحدثية واللسانية، وتصف معنى الملفوظات في سياقها، وتنصب أكثر عنايتها على دراسة اندماج مشاريع معرفية مُتعددة في ظاهرة التَّواصل اللغوي وتفسيره؛ لأن كل شيء عند الإنسان هو تواصل، فالإنسان نفسه - وهو يباشر أداوره الاجتماعية – هو موضوع التَّداوليَّة[٤]، وبهذا فهي تُعد مجالاً جديداً في حقل الدراسات الإنسانية وليس في مجال اللسانيات حسب[٥].

وتدرس التَّداوليَّة كيفيَّة استعمال المتكلمين للغة بطرائق لا يُمكن التَّنبؤ بها من خلال المعرفة اللغوية فقط.. فهي ليست عِلماً لُغوياً مَحضاً بالمعنى التَّقليدي، علماً يكتفي بوصف البُنى اللغوية وتفسيرها ويتوقف عند حدودها وأشكالها الظَّاهرة، ولكنها علمٌ جديدٌ يدرس الظَّواهر اللغوية في مجال الاستعمال والتَّواصل فتصبح التَّداوليَّة بذلك جديرة بأن تُسمى (علم الاستعمال اللغوي)[٦]. فهي تجعل النَّص في خضم دورة التَّواصل[٧]، وتصف وظائف الأقوال اللغوية وخصائصها خلال إجراءات التَّواصل.

---

(١) شظايا لسانية: أ. د. مجيد الماشطة، ٨٧-٨٨.

(٢) التَّداوليَّة محاولة لضبط الدرس اللساني تجريبياً: فالح حسن، مجلة الأقلام، عدد خاص عن التَّداوليَّة، أيلول/تشرين الأول، ٥/٨٠٠٢م، ٢٦.

(٣) العالم ومأزقه، ١٥٣. وسيرل هو الذي أشار إلى دراسة العلامة من خلال قوله بأن لباس الشرطة والتختم بخاتم الزواج كلها أفعال كلامية وإن لم تستخدم الكلمات يقول الشخص من خلالها أنا شرطي وأنا متزوج: العقل واللغة والمجتمع،٢٢٨.

(٤) التَّداوليَّة من أوستن إلى غوفمان، ١٨-١٩، ١٨٥، والمصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ١٠٦، والتَّداوليَّة عند العلماء العرب – دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، ٢٦.

(٥)لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة_فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة_د.عبد الفتاح أحمد يوسف، ٣٥.

(٦) شظايا لسانية، ٨٨، والتداولية عند العلماء العرب _دراسة تداولية لظاهرة (الأفعال الكلامية) في التراث اللساني العربي_د. مسعود صحراوي، ١٦-١٧.

(٧)المقاييس الأسلوبية في الدراسات القرآنية: د. جمال حضري، ٢١٠.

بشكلٍ عام مما يجعلها ذات صيغة تنفيذية عملية[١]، فضلاً عن أنها تكرس أهمية الكون الذي تنشئه اللغة وتعكس خطورة القوة الإنشائية لها بوصفها – أي اللغة – قانوناً صارماً يشرع لا للتفكير والتَّواصل فحسب بل وللسلوك كذلك[٢].

ويعمل التَّواصل على توطيد العلاقة بين اللسانيات والثَّقافة لما يمتاز به من ثراء معجمي وثقافي[٣]، فالتَّداوليَّة تعد مرحلة مهمة للإنسان في التَّعرف على الأشياء، وفهم أسرار الكون، وهي مرحلة مهمة تلي مرحلة التَّواصل للإنسان، فتداول فكرة ما أو عبارة ما في أي مُجتمع لا تتم إلا بعد وجود تواصل بين أفراد هذا المجتمع[٤].

يبدو مما سبق وجود علاقة وطيدة بين التَّواصل والتَّداوليَّة فيما أنها تلته فبالتأكيد سترتكز عليه وستكون هي بناءه المتين الذي يجب أن يؤسس بدعائم مهمة وهذا ما فعلته التَّداوليَّة من خلال دراستها لعملية التَّأثير في المتلقي، وإن كان هذا المفهوم غير لغوي، إلا أنَّه ذو تأثير في الجوانب اللغوية، فكلما كانت أكثر متانةً وقوة وتماسكاً جعلت المُتلقي يقوم بعمل ما أو يبتعد عنه أو يرفض أو يحب أو يكره أو يتمنى إلى غير ذلك، هذا من جهة المتلقي، أما المتكلم فتمنحه معرفة أكبر بطرائق التأثير مما يؤدي به إلى التعديل في سلوكه أو تغييره وتطويره ليصبح ذا أثر جلي في المتلقي، ويجب أن يكون لدى كُلٍ من المتكلم والمتلقي قدرات كالتمكن من اللغة والصرف والنحو والمعجم وغير ذلك.

ولم يستعمل أكثر المهتمين بالتَّداوليَّة تعريب المصطلح (براجماتية) بل عمدوا إلى استعمال ترجمته؛ وذلك لاحتراز خلط هذا (المصطلح الوليد باستخدام الدَّال نفسه لمُصطلح آخر يختلفُ معه في الوجود وفي المفهوم)[٥].

وحسب مفهوم التَّداوليَّة (تنتقل الحقيقة من طابعها الدلالي المتعلق بقيمتي الصدق والكذب إلى طابعها التداولي المتعلق بقيم الاستعمال والفعالية والتأثير)[٦] وكانت أول ترجمة لمصطلح *Pragmatics* (التَّداوليَّة) على يدي الفيلسوف المغربي (د. طه عبد الرحمن) سنة ١٩٧٠م إذ يرى أن لفظة التداول تفيد في العلم الحديث

---

(١) بلاغة الخطاب وعلم النص: د. صلاح فضل، ١٠.

(٢) من قضايا الفكر اللساني ـ في النحو والدلالة واللسانية ـ: صابر الحباشة، ١٨.

(٣) لسانيات الخطاب، ٤٧.

(٤) م.ن، ٤٨.

(٥) في التَّداوليَّة.. إشكالية المصطلح بين المفهوم والتَّرجمة والتعريب: د. عيد بلبع، مجلة الأقلام، عدد خاص عن التَّداوليَّة، أيلول / تشرين الأول، ٥/٢٠٠٨م، ٣٠.

(٦) الفلسفة والبلاغة – مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي: د. عمارة ناصر، ٦٨.

الممارسة وتفيد أيضاً التفاعل في التخاطب[1].

وترجم (د. محمد محمد يونس علي) المصطلح إلى (التخاطبية)[2] إذ يقول: (وإذا نظرنا في تراثنا البلاغي، والأصولي فسنلحظ أن الاستعمال – الذي يقابل الوضع عادة – يطلق على النشاط الذي يقوم به المتكلم في عملية التخاطب، ولذا فإن ترجمة *Pragmatics* بعلم التخاطب أنسب)[3]. ولكن سيتبادر إلى الأذهان عند ترجمة المصطلح إلى (التّخاطبية) بأنّه (نظرية لتحليل الخطاب، وإن اللسانيات نظرية للجملة، فتقابلها أو تكملها ذلك ان لسانيات الخطاب تقتضي بُنية خطابية وقواعد خطابية)[4].

ويرى (سعد مصلوح) استعمال (المقاميات)، ففضلاً عن وصف المباني والمعاني الوظيفية للغة يُعنى الباحث بتشخيص المقام وربطه بالاستعمال اللغوي[5]. إلا أن هذا المصطلح لا يُغطي المصطلح الاجنبي فال *Pragmatics* لا تُعنى فقط بالمقام وربطه بالاستعمال فهي تدرس أيضاً أفعال الكلام والنظرية الحوارية والتلويح وغير ذلك.

وأمّا (هشام إبراهيم عبد الله الخليفة) فيفضل استعمال مصطلح (الفعليات) بدلاً من غيره[6]؛ بسبب كونه يشمل ما نعنيه حين نتكلم على المعنى أو المغزى (الفعلي) للكلام تمييزاً عن المعنى اللغوي الوضعي الذي هو موضوع علم الدلالة. ويشير إلى كون اللغة نوعاً من الفعل وهذا واضح في نظرية أفعال الكلام التي تشكل الجزء الأهم في الفعاليات[7]. ولكن هذا المُصطلح لا يستوعب كل مفاهيم المصطلح الأجنبي لأن النّاظر فيه سيفهم أنّه منهج خاص بالأفعال وهذا غير صحيح لأن التّداوليّة تضم مفاهيم ونظريات عديدة حتى وإن كانت أفعال الكلام أكبر جزء منها.

وهناك من ترجمها بـ(القصدية)[8]. وقد اختار البحث مصطلح (التّداوليّة) دون

(١)استراتيجيات الخطاب_مقاربة لغوية تداولية_:عبد الهادي بن ظافر الشهري، ٥٧٤. والأسس الإبستمولوجية والتّداوليّة للنظر النحوي عند سيبويه، د. ادريس مقبول، ٢٦٢.

(٢)وصف اللغة العربية دلاليا في ضوء مفهوم الدلالة المركزية_دراسة حول المعنى وظلال المعنى_: محمد محمد يونس علي، ١٦.

(٣) مدخل إلى اللسانيات، محمد محمد يونس علي، ١٠٢.

(٤) التّداوليّة عند العلماء العرب، ٢٨.

(٥)علم لغة النص - المفاهيم والتجاهات –: أ.د. سعيد حسن بحيري، هامش ٢٦٣.

(٦)نظرية الفعل الكلامي-بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي والإسلامي: هشام إ. عبد الله الخليفة، ١٦.

(٧) م.ن، ٢٦.

(٨)علاقات الحضور والغياب في شعرية النص الأدبي: د. سمير الخليل، ٢٣.

المصطلحات الأخرى لأنه الأكثر انتشاراً وقبولاً[١]، والأكثر استيعاباً وتغطية للمصطلح الأجنبي. فلم نجد المصطلحات الأخرى إلا عند مقترحيها وكتابها.

❖ **تطبيق المنهج التداولي في القرآن الكريم**

عدت التّداوليّة آلية في البحث اللغوي[٢]، وحُددت على أنها اتجاه في الدراسات اللسانية[٣]، إلا أن عدّها آلية أو اتجاها يقلل من شأنها فمفاهيمها المتشعبة، ونظرياتها العديدة، أعدتها لتكون منهجا في الدراسات اللسانية.

والتّداوليّة لا تكون مذهباً فالمذهب له بطانة ايديولوجية يصعب تحريكها[٤]، وهو يدلّ على الفلسفة التي تطرح جانباً النّظر الماوراني وتقصر همّها على دراسة المعاني لتبني خصائصها وقوانينها ويدل على التفكير الخيالي[٥]، وهذا لا ينطبق على التّداوليّة التي ترتكز على العلم والوقائع ففكرة المنهج تتطابق مع التّداوليّة[٦] فهو (يتكئ في الدّرجة الأولى على مفاهيم عقلية أو منطقية أو علمية يمكن حراكها وتغييرها...[ ] ان الطّابع المرن للمنهج يرتبط بصفة أساسية وهي اقتران المنهج بالعلم)[٧].

ولعل سائلا يسأل: إذا كان (لا ثبات في الأفكار والقيم والهويات من منظور تداولي؛ لأن كل ما يخضع للتّداول بين النّاس، يجري تحويله على نحو ما، إيجاباً أو سلباً، توسيعاً وتطويراً أو تراجعاً وانهياراً، ابتكاراً وثراءً أو مسخاً وافتقاراً. وهكذا فما دُمنا نتواصل ونتباحث أو نتبادل ونتفاعل، ثمّة إمكانٌ لأن نُغيِّر ونَتَغيَّر. تلك لُغة التّداول وذلك منطق التّحول)[٨] فكيف نطبق مثل هذا المنهج على دراسة سورة من سور

---

(١) على سبيل المثال، الوظائف التّداوليّة في اللغة العربية، د. أحمد المتوكل، صدر في ١٩٨٥م، والمقاربة التّداوليّة، ١٩٨٦م. و النص والسياق ـ استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي: فان دايك : ترجمة : عبد القادر قنيني ، ٢٠٠٠م، و التداولية اليوم ـ علم جديد في التواصل: آن روبول، وجاك موشلار، ترجمة: د.سيف الدين دغفوس، ود.محمد الشيباني، مراجعة: د.لطيف زيتوني، ٢٠٠٣م، وإستراتيجيات الخطاب – مقاربة لغوية تداولية – ٢٠٠٤م، والأسس الابستمولوجية والتّداوليّة للنظر النحوي عند سيبويه، ٢٠٠٦م، و عندما نتواصل نغير ـ مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج: د. عبد السلام عشير، ٢٠٠٦م، والتّداوليّة من أوستن إلى غوفمان، ٢٠٠٧م، ومجلة الأقلام، عدد خاص عن التّداوليّة، وظف الباحثون مصطلح التّداوليّة في عناوين دراساتهم، ٢٠٠٨/٥م.

(٢) في التّداوليّة (بحث سابق)، ٢٠٠٨/٥م، ٢٦.

(٣) التّداوليّة.. النشأة والمفهوم: مؤيد عبيد، مجلة الأقلام عدد خاص عن التّداوليّة، أيلول/تشرين الأول، ٢٠٠٨/٥م، ٣٦، ومن قضايا الفكر اللساني في النحو الدلالة واللسانية، ١٨.

(٤) في النقد الأدبي: د. صلاح فضل ١١.

(٥) المنهل: سهيل ادريس، ود. جبور النّور، ٥٣٣.

(٦) ممن عدّ التّداوليّة منهجا-على سبيل المثال: استراتيجيات الخطاب، ٢١، وعندما نتواصل نغير، ١٥.

(٧) في النقد الأدبي، ١١، ١٢.

(٨) العالم ومأزقه ـ منطق الصدام ولغة التداول: علي حرب، ١٦.

القرآن الكريم؟

نقول: لا علاقة لنا بالنصوص فهي ثابتة ولا تتغير ولكن الذي يتغير طرائق التفكير والتحليل والأدوات المستعملة لذلك، فالتّداوليّة (تأخذ في حسابها العناصر السياقية المختلفة المرتبطة بعمليتي الإنتاج والتّلقي مهما تفاوتت مُلابسات التّلقي عبر الزّمن فارتبط التّلقي بعناصر سياقية تداوليّة جديدة، فإذا اتسمت عملية الإنتاج بالثّبات تاريخياً فإنّ عملية التّلقي تتسم -بلا شك- بالتّغير الدّائم، فكل عملية تَلَقٍ جديدة تعني ارتباط التّأويل بملابساتٍ سياقيّة جديدة،... ومن هنا يُمكننا القول بأنّ دراسة اللغة حال استعمالها لا يعني بحال من الأحوال قصر الاستعمال على الموقف الخطابي الأول المُرتبط ارتباطا مباشرا بالمتلقي الأول، بل إنّ الاستعمال يعني أيضا مراحل استعمالية متعددة عبر الزمن، فكل قراءة في مرحلة زمنية معينة هي بشكل ما مرحلة استعمالية جديدة)[١]، وهذا ما يتعلق بالضبط في عملية تفسير وتحليل وتأويل القرآن الكريم، مع الحفاظ على مرتكزاته العقائدية في آياته المحكمات فمن أوائل من فسره (ابن عباس، مجاهد بن جبر، الطبري، والقرطبي) -على سبيل المثال- ومن جاء بعدهم كل واحدٍ منهم نظر إلى الخطاب القرآني بطريقة مختلفة عن الآخر بحيث يتأثر بمن قبله ويؤثر فيمن بعده ومن هنا نجد معجزة القرآن العظيم باستيعابه للقراءاتِ المتعددة والتأويلات المختلفة التي تضفي عليه مزيداً من العظمة المختلطة بالمشكل قال الإمام علي رضي الله عنه في وصيةٍ له لعبد الله بن العباس رضي الله عنهما لمّا بعثه للاحتجاج على الخوارج: (لا تُخاصِمهُم بالقرآن فإن القرآن حمّالٌ ذو وجوهٍ تقول ويقولون ولكن حاججهم بالسّنة فإنهم لن يجدوا عنها محيصا)[٢] وبذلك فالقرآن العظيم قابل لتحليلات جديدة عبر الأزمنة كلها إلى قيام الساعة وهذا ما جعل أحد مزاياه القدرة على التأثير في الآخرين - وهذه غاية التّداوليّة- بكافة الوسائل الممكنة إن لم يكن بهذا الأسلوب وبهذه الطريقة فبأسلوب آخر وطريقة أخرى، فضلا عن أن القرآن الكريم يكلم الناس على قدر عقولهم ويحاور تارة بأوضح عبارة، ويلوح بألطف اشارة تارة أخرى، كل ذلك دليل على تداولية الخطاب القرآني.

كثيرا ما اعتمد التّواصل بين البشر وبشكل كبير على اللغة، وعلى الكم الهائل من المعلومات، والألفاظ التي تستوعبها، ولولا قدرتها الهائلة على الإيحاء والإيجاز، لما أمكن قول عبارات مكثفة بألفاظ يسيرة، وهذا تحديداً ما يُسمى (بالاقتضاء

(١) في التّداوليّة (بحث سابق)، ٢٦_٢٧.

(٢) شرح نهج البلاغة الجامع لخطب ورسائل وحكم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: ابن أبي الحديد، ٢٣٦/٤.

التخطابي) (*Conversational Implicature*)، وواضع هذا المفهوم هو (غرايس).

اختار البحث ترجمة *Implicature* الى الاقتضاء بدلاً من الاستلزام[١]، أو التّضمين[٢]، إذ تستعمل في التراث العربي نفس لفظتي الاستلزام أو اللزوم للدلالة بنوع عام على أي واحدة من عمليتي الاستدلال، أي الاستلزام المنطقي *Logical Implication* الذي هو محور علم المعاني و *Implicature* وهو من أهم المفاهيم التّداوليّة دون تفريق بينهما. إلا أن ثمة فوارق حاسمة دعت "غرايس" إلى اشتقاق مصطلح جديد من المصدر *Implicate* وتخصيص عملية الاستدلال التي تجري في التداول اللفظي باسم *Implicature* وعليه أُخذ مصطلح الاقتضاء المستعمل في أصول الفقه بمعنى شبيه بمفهوم (غرايس)[٣].

فالقول الذي لا يتجاوز ظاهر لفظه، ولا يثير أسئلة، لا يقيم علاقة حجاجية بين المتخاطبين، سواء أكان المعنى الذي يحمله خفياً أم صريحاً[٤]. فمثلاً قول الأم لابنها: الفطور جاهز.

فيجيب الابن: الدوام اليوم مبكراً على غير العادة.

فقد اعتمدت إجابة (الابن) رفض تناول الفطور بسبب تقدم موعد الدوام الذي لم يُقدَّم سابقاً.

عدُّ (غرايس) الاقتضاء التخاطبي السابق وأمثاله ضمن تصنيف عام لبعض المعاني التي يمكن أن تستدل عليها العبارات اللغوية، فهناك معان صريحة وأخرى ضمنية. وتشمل المعاني الصريحة ما يأتي:

أ.المحتوى القضوي: المتمثل في معاني مفردات الجملة.	ب. القوة الانجازية الحرفية.

أما المعاني الضمنية فتشمل:

أ. المعاني العرفية المرتبطة بجملها ارتباطا يجعلها لا تتغير بتغير السياقات، وتنشطر إلى: الافتراض المسبق والاستلزام المنطقي.

ب. المعاني السياقية التّخاطبية تولد حسب السياقات التي تنجز فيها الجملة وهي بذلك معانٍ اقتضائية تخاطبية[٥]. وقد افترض (غرايس) مبدأ تعاونيا لرصد هذه

---

(١) الاستلزام التخاطبي بين البلاغة العربية والتداوليات الحديثة: أحمد المتوكل (بحث ضمن كتاب) التداوليات - علم استعمال اللغة، ٢٩٥.

(٢) عندما نتواصل نغير، ٤٦، والتّداوليّة، ٦٥.

(٣) الاقتضاء في التداول اللساني: عادل فاخوري، مجلة عالم الفكر، الكويت، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر،مج٢٠، ١٩٨٩/٣م، ١٤١.

(٤) عندما نتواصل نغير، ٢٠٧.

(٥) بين تداوليات سورل وتفكيكية دريدا: عبد الله بريمي، (بحث ضمن كتاب) التداوليات، ٢٦٦.

الاقتضاءات التخاطبية التي يعدها خرقاً لمبدأ أو أكثر من المبادئ، وسابقاً كان يتوقف تأويل الملفوظات على عاملين اثنين هما، معنى الملفوظ، والسياق المقامي لإنتاجه. وأضافت النظرية هذه عاملاً ثالثاً تمثل في مبدأ التعاون[1].

يعد الاقتضاء عند كثير من اللغويين واحداً من المفاهيم الأساسية في التّداوليّة، فالاقتضاء مثال حي ونابض للأكثر الذي يتم إيصاله دون قول[2]، والذي يمكن استدلاله بقرائن الأحوال والعلاقة بين القول والسياق[3].

وأنواع الاقتضاء التّخاطبي هي:

١- الاقتضاء العام *Generalized Implicature*

٢- الاقتضاء الخاص *Special Implicature*.

وسيدرسان بالتفصيل، وهناك اقتضاء آخر هو الاقتضاء العرفي *Conventional Implicature* الذي لا ينجم عن مبادئ تداولية عليا كحكم وقواعد التخاطب، بل إنه يعود إلى المفردات المعجمية بالعرف أو بالاتفاق[4].

وعُدت الأفعال الكلامية غير المباشرة اقتضاءات تخاطبيّة[5]، ويبدو أن هذا الرأي غير دقيق فقد يكون هناك تقارب بينهما ولكن بشكل بسيط، وهو أن معنى الجملة المراد غير ظاهر بل يُعرف من قرائن الأحوال والسياق، فمثلاً قول أب لولده:- أعتقد أن الأذان قد حان، هل تذهب معي إلى المسجد؟ هي جملة ظاهرها استفهام، إلا أن الاستفهام ليس فعلاً كلامياً مباشراً بل غير مباشر، وهو أمر بالذهاب، أي: اذهب معي إلى المسجد.

ومعنى الجملة الاقتضائي غير ذلك، فهي تقتضي أنّ:

وقت الأذان قد حان فعلاً وليس اعتقاداً. /أو أنّ الأب في مرحلة تعليم ولده الصلاة./ أو الأب متدين والابن على عكسه.

فالاقتضاء إخفاء المعنى، إلا أن الفعل الكلامي غير المباشر لفظه موجود، ولكننا نأخذ المعنى غير المباشر له.

---

(١) ما التداوليات: عبد السلام إسماعيلي علوي، (بحث ضمن كتاب) التداوليات، ٢١.

(٢) التداولية، جورج يول، ترجمة: د. قصي العتابي ٧٩.

(٣) عندما نتواصل نغير، ٤٧.

(٤) الاقتضاء في التداول اللساني (بحث سابق)، ١٦٤.

(٥) الفعل اللغوي بين الفلسفة والبلاغة، عرض وتأصيل لمفهوم الفعل اللغوي لدى فلاسفة اللغة ونظرية النحو الوظيفي: يحيى بعيطيش (بحث ضمن كتاب) التداوليات، ٢٠٧.

❖ الاقتضاء التخاطبي عند العلماء العرب

اللغة كلها اقتضاء على وفق قول عبد القاهر الجرجاني: (وأما (نظم الكلم) [فإنك] تقتفي في نظمها آثار المعاني، وتُرتبها على حسب ترتب المعاني في النفس. فهو إذن نظم يُعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو (النظم) الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء [فـ] ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها، على الوجه الذي اقتضاه العقل)[١].

والاقتضاء في اللغة من قضى(فإنَّ كل ما أُحكِمَ عمله أو أُتِمَّ أو خُتِمَ أو أُدِّيَ أداءً أو أُوجِبَ أو أُعلِمَ أو أُنفِذَ أو أُمضِيَ فقد قُضِي)[٢]، والمقتضي نحو أخ وشريك وابن، كلّ واحد منها إذا ذكر اقتضى غيرهُ لأن الشريك مقتضٍ شريكاً والأخ مقتضٍ آخر[٣]، أي: مطالبة المعنى لغيره كأنه ناطق بأنه لابُدّ منه[٤].

وورد الاقتضاء عند النحويين نحو قولهم: (لا يكون الاسم مجروراً إلا بالإضافة وهي المقتضية للجر، كما أن الفاعلية والمفعولية هما المقتضيان للرفع والنصب)[٥]، وقد ربطوا الاقتضاء بنظرية العامل[٦]. وأما عند البلاغيين فقد ورد الاقتضاء، بمعنى قريب قريب من المعنى الحديث وذلك ما يعرف بـ(المعنى الضمني، أو المعنى غير الحرفي، أو معنى المعنى)[٧]، وهي نظرية (النظم) لعبد القاهر الجرجاني.

وقد أدرك علماء الأصول هذه الظاهرة، حين جعلوا (الفهم) صفة السامع والإفهام صفة المتكلم، وقسموا الدلالة على قسمين: لفظية وغير لفظية والثانية قد تكون وضعية أو عقلية[٨].

وقسموا الأحكام الثابتة بظاهر النص على أربعة أقسام: الثابت بعبارة النص،

---

(١)دلائل الإعجاز في علم المعاني: عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، ٤٢، وللاستزادة عن موضوع الاقتضاء بشكل مفصل: الاقتضاء: دلالاته وتطبيقاته في أسلوب القرآن الكريم: د. أشواق محمد إسماعيل النجار.

(٢)لسان العرب: جمال الدين محمد بن منظور(ت٧١١هـ)،١٥/١٨٦.

(٣)الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها: أبو الحسين أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ)، ٥١.

(٤)الفروق في اللغة: أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت٣٩٥هـ، ٢٨٥.

(٥)المفصل في علم العربية: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، وبذيله كتاب المفصل في شرح أبيات المفصل: السيد النعساني، ٧٦.

(٦) وللاستزادة كتاب مشكلة العامل النحوي ونظرية الاقتضاء: د. فخر الدين قباوة.

(٧) الألفاظ الكلامية والاستلزام الحواري بين القدماء والمحدثين: د. نادية رمضان النجار (بحث منشور على الانترنت). www.dr.nasiaramadan.9f.com

(٨) البحر المحيط: الزركشي، ١/٢/٢٦٨، ٢٦٩.

والثابت بإشارته، والثابت بدلالته، والثابت بمقتضاه، وهذا الأخير عبارة عن زيادة على المنصوص يشترط تقديمه ليصير المنظوم مفيداً أو موجباً للحكم وبدونه لا يمكن إعمال المنظوم فكان المقتضى مع الحكم مضافين إلى النص ثابتين[1]. فالاقتضاء يحتاج إلى تأمل ونظر فهو إسقاط شيء من الكلام، ولا يتم الكلام إلا به نظراً إلى العقل أو الشرع أو إليهما لا إلى اللفظ[2].

وبهذا نجد أن الاقتضاء موزع بين علوم العربية لا يوجد علم إلا ونراه فيه، وهذا دليل واضح على أهميته وأن اللغة والتواصل لا يمكن أن يتما إلا بوجوده.

❖ المبحث الأول: الاقتضاء الخاص

يُعتمد على السياق في فهم النصوص وإدراك مكنوناتها بوعي؛ وذلك لأهميته من جهة ولأن المتكلم لا يمكنه قول كل شيء من جهة أخرى، فيذهب متعمداً إلى التكثيف والإيجاز وقول عبارات قليلة بمعانٍ كثيرة؛ لتشويق المتلقي وترغيبه أو إسكاته وإفحامه وزلزلة معتقداته أو إقناعه وغير ذلك، فالمخفي دائماً يحمل إيحاءات تؤثر أكثر مما يؤثر القول الصريح، وإن هذا المخفي والموحي قام "غرايس" بتسميته الاقتضاء الخاص.

يُعرّف الاقتضاء الخاص بكونه يتطلب وجود سياق حالي معين، وهو أكثر أنواع الاقتضاء التخاطبي شيوعاً. فاقتضاؤنا ل سمير هو السارق من الخبر أن:- سمير اشترى شقة.

لا يصح إلا استناداً إلى معرفتنا بظروف وأحوال مخصوصة، كحصول سرقة بنك وعدم وجود سمير في هذه المدة، وكون سمير معدوم الحال... الخ[3]. فكلما حصل المتلقي على معلومات عن السياق تكونت أمامه خطوط قوية لفهم الخطاب وتأويله[4].

أراد الله سبحانه من الإنسان المسلم وغير المسلم أن يُفكر بطريقة عقلية ولا يأخذ الأمور بشكل تقليدي، ولذلك نجد القرآن الكريم لم يقل: أنا أحسن الكتب أو أنا أفضل الكتب، إلا بدليل عقلي، فأول تحدٍ كان في قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ

---

(١) أصول السرخسي: أبو بكر محمد بن أبي سهل السرخسي (ت ٤٩٠هـ)، حقق أصوله: أبو الوفاء الأفغاني، منشورات محمد علي بيضون، ١/٢٣٨-٢٥٥، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول: محمد بن علي بن محمد (ت١٢٥٥هـ)، تحقيق وتعليق: د. شعبان محمد إسماعيل، ٢/١، ٥٠، ٦٧٧-٦٧٩.

(٢) البحر المحيط، الزركشي، ٢/٤/٢١٩، ٢٢٠، وقد درس كتاب علم التخاطب الاسلامي: د. محمد محمد يونس علي، واتبع في دراسته المنهج التداولي الذي يُعنى بمسائل اللغة والتخاطب.

(٣) الاقتضاء في التداول اللساني، (بحث سابق)، ١٦٢، ١٦٣، والتداولية، ٧٤، ٧٥.

(٤) لسانيات النص – مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي، ٢٩٧.

ظَهِيرًا)) [الإسراء:٨٨] فقد فرض الخطاب القرآني فرضيات تقتضي القول بأن الكفار سيحاجون بقولهم: ما الذي يجمعُ الأنس والجن؟ هذا محال. فبدأ بالتسهيل عليهم، قال تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [هود/١٣] وإتيانهم بعشر سور مثل سورة البقرة أيضاً صعب، فنزل بهم في التحدي في قوله: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [البقرة/٢٣] وعندما لم يستطيعوا تحقيق أي شيء، انتصر القرآن الكريم،وهذا كان أول تحدٍ.

ومما سبق اقتضت سورة الأنعام (إبطال جميع أنواع الشرك)[1]؛ بدعوتها إلى مخاطبة أصحاب العقول من خلال التفكير والتأمل في الخلق والكون لتحقيق الغرض الرئيس في السورة (التوحيد)* قال تعالى: ((وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين)) [الأنعام/٥٩] فالضمير [هو] يعود عليه سبحانه، والمشركون لبلادة عقولهم اختاروا الكفر. فالكفار وإن اتبعوا ملة آبائهم إلا أنهم كانوا يفكرون أيضاً بدليل قوله تعالى عن الوليد بن المغيرة وهو أحد الكفار والمشركين: ((إنه فكر وقدر ۝ فقتل كيف قدر ۝ ثم قتل كيف قدر ۝ ثم نظر ۝ ثم عبس وبسر)) [المدثر/١٨-٢٢]

ومن هنا جاءت سورة الأنعام تركز على البعد العقائدي، فالعقيدة حتى تكون سليمة يجب أن تصل إليها عقلاً لا بالتلقي قال تعالى:(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)[محمد/١٩] (علم ولا تقلد ولا تردد من دون تفكير أو وعي بمعطيات العلم، وعلى الإنسان أن يجعل نور القرآن نوراً لعقله، والمسلمون الأوائل نشروا بهذه الطريقة الإسلام. وما قصة سيدنا إبراهيم (ﷺ) في السورة إلا اقتضاء لذلك.

قال تعالى: ((وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنّي أراك وقومك في ضلال مبين ۝ وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين ۝ فلما جنَّ عليه الّليلُ رأى كوكبا قال هذا ربيّ فلما أفل قال لا أحبُّ الآفلين ۝ فلما

---

[1] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت٨٨٥هـ)، ٦/٧، وأنواع الشرك هي عند اليهود والنصارى والثنوية والصابئون وأصحاب الروحانيات،: م.ن، ٦/٧.

* تزلت سورة الأنعام كلها جملة واحدة ونزل معها سبعون ألفاً من الملائكة لأنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:، ١٨٢/٢ ، والتفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: فخرالدين محمد بن عمر الرازي(ت٦٠٦هـ)، قدّم له: هاني الحاج، حققه وعلق عليه: عماد زكي البارودي، ١٢٢/١٢/٦.

رأى القمر بازغاً قال هذا ربيّ فلمّا أفل قال لئن لم يهدني ربيّ لأكوننّ من القوم الضالين۝ فلما رأى الشمس بازغةً قال هذا ربيّ هذا أكبر فلمّا أفلت قال يا قومي إني بريءٌ مما تشركون ۝ إنّي وجّهت وجهيَ لِلّذي فطر السماواتِ والأرضَ حنيفا وما أنا من المشركين)) [الأنعام/٧٤_٧٩].

كان قوم إبراهيم (عليه السلام) من الصابئة، وهؤلاء على فريقين: أصحاب الروحانيات، وهم عبدة الكواكب، وأصحاب الأشخاص، وهم عبدة الأصنام. وقد ناظر الخليل (عليه السلام) هذين الفريقين[١]، فالحجة تداولياً تقتضي الاستقامة في النظر والمضي فيه على طريق مستقيم من رد الفرع إلى الاصل[٢]، وذلك يقتضي رد الأصنام والكواكب(الفرع) إلى خالقها الله تعالى (الأصل).

كان إبراهيم (عليه السلام) أكثر جدلا وحججاً مع أبيه فقد كان أبوه اعلم القوم بعمل الأصنام، وكان القوم يشترون منه ومن غيره،[٣]. وعلى هذا جاء قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) [الأنعام/٧٤]. تقتضي (إذْ) الذكرى والموعظة والإنذار، فهي غالباً ما تُذكر في أوائل قصص التنزيل مفعولاً به لفعل محذوف تقديره (أذكر)، أو ظرفاً لمضاف إلى مفعول محذوف، أي: واذكر يا محمد قصة إبراهيم[٤].

إن قصة إبراهيم (عليه السلام) في هذه الآية وما يليها من آيات تقتضي حجاج مشركي العرب ومجادلتهم ممن يدعون أنهم على ملته[٥]، وذلك ب(تفنيد الحجة بالحجة لإثبات القضية نفسها وحدانية الله عز وجل)[٦]، فهذه الآيات (تجمع الموضوع الأساسي في السورة وهو بناء العقيدة على قاعدة من التعريف الشامل بحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، وما بينهما من ارتباطات، ولكنه يعالجه في أسلوب آخر غير ما جرى به السياق، أسلوب القصص والتعقيب عليه مع استصحاب المؤثرات الموحية)[٧].

---

(١)الملل والنحل: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت٥٤٨هـ)، صححه وعلق عليه: أحمد فهمي محمد، ٣٤٨/٢-٣٥٤.

(٢) الفروق في اللغة، ٦١.

(٣) الملل والنحل، ٣٥٤/٢.

(٤)مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: جمال الدين عبد الله بن يوسف بن أحمد بن هشام الأنصاري (ت٧٦١هـ)، قدّم له ووضع حواشيه وفهارسه: حسن حمد، أشرف عليه وراجعه: د. إميل بديع يعقوب، ١٦٦/١، ١٦٧.

(٥)روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي (ت١٢٧٠هـ)، تحقيق وتخريج: د. السيد محمد السيد، وسيد إبراهيم عمران، ٤/٧/٢٥٠.

(٦)الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب: خليل بن ياسر البطاشي، ١٣٠.

(٧)في ظلال القرآن: سيد قطب، ٣/٧/٢٨٧.

ونجد في قوله تعالى: (أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)استفهاماً توبيخياً انكارياً اقتضاه السياق يظهر تخوف إبراهيم (عليه السلام) على أبيه وقومه من الهلاك، وجاءت (تَتَّخِذُ) و (أَرَاكَ) بصيغة المضارع فكأنما هناك مُتلقٍ تتمثل أمامه بشاعة موقف عبادة الأصنام واتخاذها آلهة، فضلاً عن أن الدلالة الإيحائية لصيغة الجمع في (أَصْنَامًا آلِهَةً) تقتضي وجود اله واحد وليس آلهة متعددة، فعبادة الآلهة المتعددة عمل (باطل بالدليل العقلي الذي فهم من قوله تعالى: ((لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)) [الأنبياء/٢٢])[١]، وكذلك تعدد الأصنام باطل إذ (إن هذه الأصنام لو حصلت لها القدرة على الخير والشر لكان الصنم الواحد كافياً، فلما لم يكن الواحد كافياً دل ذلك على انها وإن كثرت فلا تنفع فيها البتة)[٢].

فضلاً عن أن عود الضمير في (قَوْمَكَ) على (آزر) يقتضي براءة إبراهيم (عليه السلام) من أبيه وقومه، ويقتضي وصف الضلال بالإبانة في قوله: (فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) توكيداً وتخصيصاً لضلالهم وكون هذا الضلال لاشك فيه.

تأتي كاف (كذلك) في لغة التنزيل بمعانٍ متنوعة فهي للتشبيه، وذلك عندما يراد عقد الصلة بين أمرين، ولمح ما بينهما من ارتباط، وتأتي بمعنى مثل، ولتحقيق المعنى وتثبيته[٣]. نحو ما جاء في قوله تعالى: ((وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ))، وقد اختلف في تقرير الآية وإيضاح المراد، فإذا دلت (على تشبيه شيء بشيء والمشبه به ظاهر مشار إليه أو كالظاهر... فقد يكون المشبه به المشار إليه مذكوراً)[٤]. أي: وكما أريناه قبح الشرك نري بصيرته بدائع خلق السماوات والأرض[٥].

وهي بمعنى (مثل) عند الرازي (ومثل ما أريناه من قبح عبادة الأصنام نريه ملكوت السماوات والأرض)[٦]. إلا أن لفظة مثل هنا أفادت التشبيه ولم تفد معنى المثلية

---

(١) التفسير الكبير، ٣٥/١٣/٧.

(٢)م. ن، ٣٥/١٢/٧.

(٣)من بلاغة القرآن: أحمد أحمد بدوي، ٢١٢-٢١٥، وأسماء الإشارة في القرآن الكريم: عمر محمد عولي، أطروحة دكتوراه، بإشراف: أ.د. عبد الوهاب العدواني، كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠٢م، ١٦٨.

(٤)التحرير والتنوير: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد: محمد الطاهر ابن عاشور، ١٦/٢/١.

(٥)تفسير القرآن الجليل ـ المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل ـ: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (ت ٧١٠هـ)، ٤٨٦/٧/١.

(٦) التفسير الكبير، ٣٥/١٣/٧.

[المطابقة التامة]. وبهذا فإن رؤية الملكوت تقتضي رفض عبادة الأصنام واتخاذها آلهة.

ولكل ما سبق فإن سياق الآية يقضي هداية إبراهيم (ﷺ)،فكما هديناه إلى الدعاء إلى الله وإنكار الكفر، أريناه ملكوت السماوات والأرض[١].

أو أن يكون التشبيه على تقدير: وكما أريناك يا محمد ما في السماوات والأرض من الآيات والحجج والبراهين الدالة على وحدانية الله عزّ وجل وعظمته، كذلك كنا أرينا إبراهيم من قبل[٢]، وهذا يقتضي كونك من الموقنين كما كان إبراهيم (ﷺ) من الموقنين أيضاً، ويقتضي إيقان المتلقي بهذه الوحدانية كون الآيات ليست خطاباً للنبي (ﷺ) وحده، وليست للموعظة والتسلية فحسب، بل للاقتداء، فمن مميزات الاقتضاء التداولي، (أنه استناداً إلى عدد قليل من المبادئ قادر على تفسير كثير من الأمور التي تبدو في غاية التفاوت والتباعد)[٣].

(وقد يكون المشبه به المشار إليه مفهوماً من السياق)[٤]، ولهذا وجهان، الأول:

اعتبار التشبيه: وتكون الكاف بمعنى مثل أي: ومثل ذلك التعريف والتبصير والإراءة العجيبة نري إبراهيم ونعرفه ونبصره ملكوت السماوات والأرض[٥]. والتشبيه على هذا الوجه مقصودٌ منه المبالغة، فلو أراد المشبه أن يشبه هذا في غرابته لما وجد له إلا أن يشبهه بنفسه، وفي هذا قطع للنظر عن التشبيه في الواقع[٦].

واسم الإشارة في مثل هذا الاستعمال يقتضي ملازمته الإفراد والتذكير لأنه جرى مجرى المثل[٧].

أما الوجه الثاني فباعتبار المفعولية المطلقة، على أن تكون الكاف زائدة، لا تدل على تمثيل ولا تشبيه، ويصير اسم الإشارة على هذا نائباً مناب مفعول مطلق على تقدير: تلك الإراءة نري إبراهيم، فعدل عن المصدر إلى اسم إشارته النائب عنه،

(١)المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت٥٤٦هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ٥/٢٥٤.

(٢)تأويلات أهل السنة _تفسير الماتريدي_:أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي (ت٣٣٣هـ)، تحقيق: د. مجدي باسلوم، ٤/١٣٠.

(٣) الاقتضاء في التداول اللساني، (بحث سابق)، ١٤٣.

(٤) التحرير والتنوير، ٣/٧/٣١٥.

(٥)الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل-أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٢٨هـ)، ضبط وتوثيق: أبو عبد الله الداني بن منير آل زهوي، ٢/٣١، والتحرير والتنوير، ٣/٧/٣١٥.

(٦) التحرير والتنوير، ٦/٢/١٥، ١٦.

(٧) م.ن، ٣/٧/٣١٥.

لاقتضاء عجابة تلك الرؤية. ومثله قول الشاعر[١]:

كـذاك أدبـت حتى صـار مـن خلقـي   أنـي رأيـت مـلاك الشـيمة الأدبـا

أي أدبت هذا الأدب الكامل العجيب[٢].

ويبـدو أن القـول بزيادة (الكاف) لا يحقـق المعنى المـراد منها، إذ إنهـا جـاءت لمعنى مقصـود وتثبيتـه. فلـو تتبعنـا سـياق الآيـة لوجـدنا التأكيـد على رؤيتـه عليـه السـلام للملكوت مما اقتضى كونه من الموقنين، (ولعل السـر في المجيء بكاف التشبيه هنا، هو بيان تمام المطابقة بين الحقيقة الخارجية والحقيقة الكلامية. أي ما يكون في الواقع يطابق ما دلّ عليه الكلام)[٣].

وقـد أسـند الفعـل (نـري) لفاعـل مضـمر، إذ تقتضـي عظمتـه إضـماره، وفي ذلـك (إشارة إلى حجة مستنبطة من دلالة أحوال الموجودات على وجود صانعها)[٤]. ومن ثم يقتضي وجود اله واحد أزلي عظيم خالق للملكوت.

وقد اختلف المفسرون في تقدير زمن الفعل (نري) على وجود فقيل:

أ- حكاية حال ماضية: وبذلك يكون من مقتضيات السياق، أن تكون الآية على تقدير وكذلك كنا نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض فكأنما هناك سائل يسأل: وكيف بلغ إبراهيم (عليه السلام) هذا المبلغ العظيم من قوة الدين لدرجة مشافهة أبيه بكلام خشن تعصباً لذلك الدين...؟ فأجيب بأنا كنا نريه ملكوت السموات والأرض وقت طفولته لأجل أن يصير من الموقنين زمن بلوغه[٥].

ب- جاء بصيغة المضارع لاستحضار الإراءة العجيبة[٦] وكأنها ماثلة أمام عين المتلقي ليكون لها وقع أكبر في داخله.

ت- إن زمن الفعل هو المستقبل، إذ إن دلالة ملك الله تعالى، وملكوته على نعوت جلاله وسمات عظمته وعزته غير متناهية، وحصول المعلومات التي لا نهاية لها دفعة واحدة في عقول الخلق محال، فلا طريق إلى تحصيل تلك المعارف إلا بأن يحصل بعضها عقيب الآخر لا إلى نهاية، وهذا هو المراد من قول المحققين السفر

---

(١) ديوان الحماسة: أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (ت٢٣١هـ)، رواية: أبو منصور الجواليقي (ت٥٤٠هـ)، شرحه وعلق عليه: محمد حسين بسج، ٢١٠.

(٢) التحرير والتنوير، ١/٢/١٧.

(٣) من بلاغة القرآن، ٢١٦.

(٤) التحرير والتنوير، ٣/٧/٣١٥.

(٥) التفسير الكبير، ٧/١٣/٣٦.

(٦) التحرير والتنوير، ٣/٧/٣١٥.

إلى الله له نهاية، وأما السفر في الله فإنه لا نهاية له [1].

وبذلك فإن متعلق الإراءة لا يتناهى وجه دلالته فلا يمكن الوقوف على ذلك إلا بالتدريج [2].

ويمكن القول باقتضاء السياق القرآني للأقوال السابقة كافة. فالمتلقي حينما يقف أمام الخطاب باحثاً عن معانيه ودلالاته من خلال إيحاءاته المسكوت عنها فهو بهذا يحاكي الفعل بزمنه الماضي حين محاورة إبراهيم (ﷺ) لأبيه، وبزمن المضارعة حينما يستدعيه ذلك الزمن لاستحضار تلك الرؤية العجيبة وإمعان النظر في الآيات، وبزمن المستقبل كذلك إذ إن رؤية الملكوت لا يتناهى وجه دلالته لا عند إبراهيم (ﷺ)، ولا عند متلقي الخطاب القرآني الذي يكتشف بدائع خلق الله تعالى ليس في كتابه العزيز فحسب بل في الوجود كله. فالمتلقي فاعل يتعدى فعل القراءة (عبر جسد النص الذي تشيده الألفاظ، ويخترق سطحها بحثاً عن أعماقها، إن في النص نداء... [ولاسيما في النص القرآني] والقراءة تلبية لهذا النداء) [3].

وكما اختلف المفسرون في زمن الفعل اختلفوا في كيفية الرؤية أكانت بصرية [4]، أم قلبية، وقد فُندت الرؤية البصرية بحجج قاطعة فَرُدّ على من قال أنه (ﷺ) رأى السماوات السبع والأرضين السبع وغير ذلك [5]، وبذلك رجحت الرؤية القلبية. فيرى الرازي أن الإراءة كانت بعين البصيرة والعقل، لا بالبصر الظاهر، وإن ملكوت السماوات عبارة عن ملك السماء، والملك عبارة عن القدرة، وقدرة الله لا ترى [6]، ويقول ابن عاشور: (والرؤية هنا مستعملة للانكشاف والمعرفة، فالإراءة بمعنى الكشف والتعريف، فتشمل المبصرات والمعقولات المستدل بجميعها على الحق وهي اراءة الهام وتوفيق) [7].

ويرى الآلوسي، أن رؤية إبراهيم (ﷺ) للسماوات السبع والأرضين وغير ذلك لا تقضي كون الإراءة بصرية، إذ ليس المراد برؤيتها مجرد تمكينه من إبصارها

---

(١) التفسير الكبير، ٧/١٣/٣٦.

(٢) روح المعاني، ٤/٧/٢٥٤.

(٣) ما لا تؤديه الصفة_ المقتربات اللسانية والأسلوبية والشعرية_ حاتم الصكر، ١٣٤.

(٤) على سبيل المثال: تأويلات أهل السنة، ٧/١٣٠-١٣٣، والجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي):أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ)، تقديم: هاني الحاج، حققه وخرج أحاديثه: عماد زكي البارودي، وخيري سعيد: ٧/٢١.

(٥) على سبيل المثال: التفسير الكبير، ٧/١٣/٣٦.

(٦) التفسير الكبير، ٧/١٣/٣٧.

(٧) التحرير والتنوير، ٣/٧/٣١٥.

ومشاهدتها في أنفسها، بل اطلاعه على حقائقها وتعريفها من حيث دلالتها على شؤونه عز وجل ولا ريب في أن ذلك ليس مما يُدرك حساً[1].

يتضح مما سبق أن الإنسان لا يمكن أن يؤمن قلبه من دون أن يرى أدلة ويعاينها، وهذا ما عهدناه لدى الأنبياء منذ أول الخليقة، فهم يدعون الناس إلى التوحيد ويأتونهم بالمعجزات والبراهين القاطعة ليرققوا قلوبهم حيناً وليرهبوهم ويخوفوهم أحياناً أخرى،(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) [فصلت/٥٣] أي: يروا الآيات ويدركوها ثم يتفكروا فيها ليتبين لهم أنه الحق، وكقوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ) [العنكبوت/١٩-٢٠]، وهذا ما فعله الله تعالى مع إبراهيم (عليه السلام) إذ أراه من الآيات والمعجزات الحسية، ومنها قوله تعالى: (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ) [الأنبياء/٦٩]، وقوله: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) [البقرة/٢٦٠] ما أشبع بها إحساسه لإدراك وحدانيته تعالى وجلاله وعظمته حتى أصبح (عليه السلام) ينظر إلى الملكوت بعين يقينه وقلبه، فيذهب بفكره أبعد مما تراه عيناه في إدراك حقائق الوجود وقدسية الإله الحق.

وأما الملكوت فهو مجاز في هذه الآية، إذ يقتضي فيها إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول وهو المملوك، كإطلاق الخلق على المخلوق[2]، وهذا هو المراد من لفظ الملكوت أي ما هو مملوك تحت سيطرة الله تعالى وقهره، وأي شيء في الكون غير داخل في إرادته...!

وقد اقتضى سياق العطف، عطف قوله تعالى: (وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) على قوله)وَكَذَلِكَ نُرِي إبراهيم مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) لأن (وَكَذَلِكَ) أفاد كون المشبه به تعليماً فائقاً، فالتقدير: وَكَذَلِكَ نُرِي إبراهيم مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إراء تبصير وفهم ليعلم علماً وفقاً لذلك التفهيم وهو العلم الكامل(وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)[3].

و (كلما كان استعمال (كذلك) نفعل بعد ذكر أفعال عظيمة صلح الفعل المذكور بعد الإشارة لأن يكون علة لأمر من شأنه أن يعلل بمثله صح أن تعطف عليه علة أخرى كما هنا... بخلاف ما لا يصلح ولذلك فإنه إذا أُريد ذكر علة بعده ذُكرت بدون عطف، نحو قوله:(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)

---

(١) روح المعاني، ٢٥٥/٧/٤.

(٢) التحرير والتنوير، ٣١٦/٧/٣.

(٣) المصدر نفسه، ٣١٦/٧/٣.

[البقرة/١٤٣]}[1].

ومنهم من قال: إن رؤية الكوكب والقمر والشمس هي الإراءة التي استدل بها إبراهيم (ﷺ)على وجود الإله الحق ووصل إلى رتبة الإيقان، فيصير تقدير الآية: نُرِي إبراهيم مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لأجل أن يصير مِنَ الْمُوقِنِينَ، واليقين عبارة عن علم يحصل بعد زوال الشبهة بسبب التأمل إذا كان مسبوقاً بالشك ؛ ولهذا لا يوصف علمُ الله بكونه يقيناً ؛ لأن علمه غير مسبوق بالشك وغير مستفاد من العلم والتأمل. ولما كان اليقين هو العلم المستفاد من الدليل اقتضى أن تكون تلك الإراءة عبارة عن الاستدلال[2].

إلا أن يقينه (ﷺ) غير مسبوق بالشك، فهو من الراسخين في الإيقان البالغين درجة عين اليقين من معرفة الله تعالى، وهو لا يقتضي سبق الشك كما لا يخفى[3]، فضلاً عن أن الموقن هو العالم علماً لا يقبل الشك[4]، وكونه من الراسخين في المعرفة الواصلين إلى ذروة عين اليقين مما يقتضي بأن يحكم باستحالة ألوهية ما سواه سبحانه من الأصنام والكواكب التي كان يعبدها قومه[5].

وقوله (وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) أبلغ من قوله موقناً، إذ يشهد له بكونه معدوداً في زمرتهم، ويجوز أن يريد من الكاملين في الإيقان[6]، كما يفيد السياق القرآني تعريف الجنس (الْمُوقِنِينَ) اقتضاء عده واحداً من الفئة التي تعرف عن الناس بفئة الموقنين[7].

يمارس إبراهيم (ﷺ) فعلاً حجاجياً على قومه في الآيات: (٧٦-٧٩) والحجاج فعالية تداولية جدلية تقوم عناصره على معطيات عملية تواصلية في صلب اللغة أو الخطاب[8]، ويعتمد على الحجة والاستدلال الذي هو: طلب الشيء من جهة غيره[9]، فهو(ﷺ) حاول الوصول إليه تعالى عن طريق مخلوقاته، وعليه يُعرَّف الحجاج بأنه:

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٦٠/٧/٣.

(٢) التفسير الكبير، ٣٨-٣٧/١٣/٧.

(٣) روح المعاني، ٢٥٥/٧/٤.

(٤) التحرير والتنوير، ٣١٦/٧/٣.

(٥) روح المعاني، ٢٥٥/٧/٤.

(٦) الكشاف، ٢٥٠/٣.

(٧) التحرير والتنوير، ٢٦٣/٧/٣.

(٨) البعد التداولي في الحجاج النساني – استثمار التّداوليّة المدمجة / مناظرة متى بن يونس وأبي سعيد السيرافي نموذجاً، د. بن عيسى أزاييط. (بحث ضمن كتاب)، الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، ٢٩٧/٤.

(٩) الفروق في اللغة،٦١.

تلك الخطوات التي يحاول بها الفرد أو الجماعة قيادة المتلقي إلى تبني موقف معين، وذلك بالاعتماد على تمثيلات ذهنية مجردة أو حسية ملموسة تهدف إلى البرهنة على صلاحية رأي أو مشروعيته[(١)].

أقام (ﷺ) حجاجه على المحاورة التي تقتضي إبراز المنطق العقلي والحجة، ولا تعتمد المحاورة على المعاني المجردة لضعف تأثيرها في المتلقي، وإنما تعتمد على تجسيد المعاني في قوالب وصور محسوسة؛ لإثارة عناية المتلقي بصورة أشد، وترسيخ المعنى في النفوس[(٢)].

وإن هذه الآيات تدل على أنّ الدين يجب أن يكون مبنياً على الدليل لا على التقليد[(٣)].

وفي قوله تعالى: (فَلَمَّا جَنَّ) نجد أن الفاء تقتضي الترتيب[(٤)] فثبت أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن صار إبراهيم (ﷺ) من الموقنين العارفين بربه[(٥)]. وقد ارتكزت الآيات على أسلوب الشرط بالأداة (لمّا) التي وردت ست مرات، وبالأداة (إن) التي وردت مرة واحدة، وتختص (لما) (بالماضي فتقتضي جملتين وجدت ثانيتهما عند وجود أولاهما، نحو: (لمّا جاءني أكرمته). ويقال فيها: حرف وجود لوجود. وبعضهم يقول حرف وجوب لوجوب)[(٦)].

وقد يعود سبب اختيار إبراهيم (ﷺ) لليل هو أن الكوكب والقمر يظهران ليلاً، إلا أن هذا الاختيار (وقت الليل) وما يحمله معنى جَنَّ من (الاستتار والخفاء)[(٧)]. يقتضي أن القضية التي يريد إثباتها هي قضية واضحة، ولا يستطيع الليل إخفاءها وسترها، ولا يوجد عاقل واعٍ إلا ويؤمن بها.

بدأ (ﷺ) بمناظرة قومه برؤيته للكوكب. ولكننا لم نسمع في الحوار إلا صوته ولم نجد لقومه صدى، ويقتضي ذلك السكون أمران: إما أنهم أقروا بما قاله، أو أنهم لم يقتنعوا ولكن قلة حيلتهم ونفاذ أجوبتهم وعدم القدرة على المحاججة والرد ألجأهم إلى السكوت، وإن بدأه بالأصغر (الكوكب) فالأكبر فالأكبر يقتضي (أن نسلسل السبب وراء

---

(١) البعد التداولي في الحجاج اللساني، ٢٩٩/٤.
(٢) أسلوب المحاورة في القرآن الكريم: عبد العليم حفني، ٣٠، ٤٤.
(٣) التفسير الكبير، ٤٧/١٣/٧.
(٤) مغني اللبيب، ٣٢٤/١.
(٥) التفسير الكبير، ٤١/١٣/٧.
(٦) مغني اللبيب، ٥٣٧/١
(٧) الكليات _معجم في المصطلحات والفروق اللغوية _: أبو البقاء أيوب الكفوي (ت١٠٩٤هـ)، تحقيق: د. عدنان درويش، محمد المصري، ٢٩٣.

السبب وراء السبب.. إلى مالك الملك جلت قدرته)[١]، أي: الذي تنقطع الحاجات بسبب وجوده. قال تعالى: (وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى)[النجم/٤٢][٢].

وقوله: (هذا ربيّ) قيل انه مقول على سبيل الاستهزاء كما يقال لذليل ساد قوماً: هذا سيدكم[٣]، ولا يمكن لنبي أن يستهزئ لأن الموقف في إثبات وحدانية الله عزّ شأنه وبطلان ما يعبدون. وقيل: (هو على معنى الاستفهام والتوبيخ منكراً لفعلهم والمعنى أهذا ربي؟، أو مثل هذا يكون رباً؟ فحذف الهمزة)[٤]. وقيل: هو على إضمار القول كأنه قال: تقولون: هذا ربي أي: أنتم تقولون هذا ربي[٥].

وإن في تكرار قوله: (هذا ربيّ) وعدم قوله مثلا هذه ألهتي يقتضي وجود إله واحد يعبده وليس آلهة متعددة كما كان يفعل قومه. فضلاً عن أنه استعمل في مناظرته (ما يسمى في الجدل ب(مجاراة الخصم) ليستميل آذانهم ويأخذ قلوبهم معه)[٦].

قيل الأفول: الاحتجاب[٧]، وأنه (ﷺ) يكرر الأفول مع كل كوكب لما في الأفول من معنى الانهزام[٨]، أي: أن هذه الأجرام منهزمة أمام خالقها ومنشئها وأنها لاحول لها ولا قوة بوجوده. وقال (ﷺ) مع الكوكب: ((قال لا أحب الآفلين)). ومع القمر((قال لئن لم يهدني ربي لأكوننّ من القوم الضالين)). ومع الشمس ((قال يا قوم إني بريء مما تشركون)). وهذا يقتضي أنه تبرأ منهم ثلاث مرات على عدد الأجرام وما قسمه في الآية الثانية إلا توكيد لهدايته وتوكيد لضلالهم فقوله بمثابة التعريض بهم.والضال: هو الكافر الغائب عن الحجة،فهم في غيبوبة عن محاججته وهدايته بكفرهم وضلالهم[٩].

ونجد حرف النون في فواصل الآيات؛ لما يختص به هذا الحرف من الجهر، وهو أشد الأصوات قاطبة للتعبير عن المشاعر، ويقتضي لفظه بشيء من الشدة والتوتر النفوذ القسري لموجاته والدخول في الأشياء[١٠].

وجاء توكيده الرابع في قوله: ((إني وجّهت وجهيَ لِلّذي فطر السماواتِ والأرضَ

---

(١)تفسير الشعراوي: محمد متولي الشعراوي، ٣٧٤٢/٦.

(٢) التفسير الكبير، ٤٤/١٣/٧.

(٣) روح المعاني، ٢٥٦/٧/٤.

(٤) الجامع لأحكام القران، ٢٣/٧.

(٥) معاني القران وإعرابه، ٢١٥/٢.

(٦) تفسير الشعراوي، ٣٧٤٥/٦.

(٧) روح المعاني، ٢٥٧/٧/٤.

(٨)القاموس المحيط:مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت٨١٧هـ)، ٣٢/٢.

(٩)/ تهذيب اللغة: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت-٣٧٠هـ)،٤٦٥/١١.

(١٠)خصائص الحروف العربية ومعانيها _دراسة_:حسن عباس، ١٦١،١٦٠.

حنيفا وما أنا من المشركين))[٧٩] فتوجه (ﷺ) بوجهه إليه ويقتضي ذلك كون توجه القلب كناية عن الطاعة[١]، مما اقتضى قوله وعدم قوله:((لِلَّذي)) وعدم قوله إلى الذي؛ فـ(توجيه وجه القلب ليس إليه،لأنه متعال عن الحيز والجهة،بل توجيه وجه القلب إلى خدمته وطاعته لأجل عبوديته)[٢].

وقد ختم الدليل بما افتتحت به السورة وذلك في قوله[٣]((لِلَّذي فطر السماوات والأرض)) فقال:(فطر) ولم يقل: (خلق) وذلك لما اقتضاه معنى الفطر من الشق. فبما أنه واجههم بما عاينوه (الكوكب، القمر، الشمس) كان لا بد وأن يذكر فطر هنا لأنهم يشاهدون فتق السماء عن الأرض ولكنهم لم يعاينوا كيف خلقتا.

والحنيف هو العادل عن كل معبود دون الله تعالى[٤].وقوله: ((وما أنا من المشركين)) [أي منكم، وأظهر الوصف المقتضي للبراءة والتعميم،أي لا أعد في عدادكم شيئا أقاربكم به[٥].

ومما سبق رأينا كيف عمل الاقتضاء الخاص على التغلغل في الخطاب، وكشف بعضا من خباياه التي لا يكتمل بدونها، وكيف شكلت اللغة مجالا واسعا لهذا الاقتضاء بما تحمله من إمكانيات لغوية وغيرلغوية، مما أوصلنا إلى الاقتضاء التخاطبي التداولي الذي بيّن ما تحمله السورة من أركان التوحيد القائمة على (لا اله إلا الله) المُبينة لجمال عظمته وروعة خلقه وصدق رسله ؛وذلك من خلال ترابط الآيات وألفاظها بعضها ببعض بمضمون السورة ارتباطا اقتضائيا خاصا كشفه السياق، وذلك كلّه يجعل المتلقي أكثر حرصا في قراءته وتفكيره وتحليله للخطاب القرآني العظيم.

❖ المبحث الثاني: الاقتضاء العام

يمكن تعريف الاقتضاء العام بأنه: (الذي يحصل من دون أن يوجد بالضرورة سياق حالي معين)[٦]، ففيه (يتم إيصال بعض المعلومات عن طريق اختيار كلمة تعبر عن قيمة واحدة من بين تدرج للقيم، يتضح هذا الأمر جلياً في مصطلحات تستعمل

---

(١) روح المعاني، ٣٦١/٧/٤.

(٢) التفسير الكبير، ٤٩/١٣/٧.

(٣) نظم الدرر، ٧٩/٧.

(٤) التفسير الكبير، ٤٩/١٣/٧.

(٥) نظم الدرر،٧٩/٧.

(٦) الاقتضاء في التداول اللساني،(بحث سابق) ١٦٢، والاقتضاء: دلالاته وتطبيقاته، ٣٤٤.

للتعبير عن الكم: كل، معظم، كثير، بعض، قليل، دائماً، غالباً، أحيانا)[١].

وأساس هذا الاقتضاء أنه عند ثبوت أية صيغة في التدرج فإنه يتم نفي كل الصيغ الأعلى في التدرج، أي يقتضي الأقل سلب الأكثر، فمثلاً في (كل، بعض) يقتضي إثبات ال بعض سلب الكل[٢]، فضلاً عن أن إثبات كل يقتضي الوثوق والتأكد من صحة العبارة التي ترد فيها، فهي تحتاج إلى الاطلاع والإحاطة والشمول بالشيء، ولهذا الاقتضاء أهمية ولا سيما بالنسبة للنظرية اللسانية، فمن الطبيعي تمييز هذه الاقتضاءات عن المحتوى الدلالي للألفاظ، فاقترانها بالألفاظ الملائمة هو أمر مألوف في كل السياقات[٣].

لنأخذ مثلاً لفظة [كُلُّ] فهي اسم موضوع للإحاطة والشمول ولاستغراق أفراد المنكر، نحو: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) [الأنبياء/٣٥]، ومعنى (كُلُّ) يتضح بما تضاف إليه[٤]، وهي لغير اثنين إن تجزأ بنفسه، أو بعامله[٥] أي: للعموم والجميع، يقول سيبويه:(كل عَمٌّ وبعض اختصاص)[٦]. إذ تقترن بشحنة الإيجاب مفيدة للوجود تقابل لا النافية للجنس سلباً ولذلك تشبهها في اقتضاء النكرة بعدها[٧].

وكثيرا ما وردت (كلّ) في سورة الأنعام وقد يرجع سبب ذلك إلى أن قسماً منها كان لإيضاح عظمة الله ولبيان صفات جلاله وذلك في قوله تعالى:((فهو على كل شيء قدير))١٧. ((وسع ربي كل شيء علما))٨٠. ((وخلق كل شيء)) ١٠١. ((وهو بكل شيء عليم)) ١٠١. ((خالق كل شيء)) ١٠٢. ((وهو على كل شيء وكيل))١٠٢.

لقد اقتضت (كلّ) في هذه الآيات الإحاطة ونفي الـ(بعض)، فكل هذه الصفات هي ولا سيما به تعالى دالة على وحدانيته ونفي عبادة غيره ؛لأنه الذي يفتقر إلى تلك الصفات.وبذلك اقتضت الآيات قوله في نهاية السورة: (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)١٦٤.

---

(١) التداولية، ٧٣.

(٢) م. ن، ٧٣، والاقتضاء في التداول اللساني (بحث سابق)، ١٦٤.

(٣) الاقتضاء في التداول اللساني(بحث سابق)، ١٦٤.

(٤) بدائع الفوائد: أبو عبد الله المشهر بابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، ٢١٢/١، ومغني اللبيب، ٢٨٣/١، ٣٨٨.

(٥) الجامع الصغير في النحو: جمال الدين بن عبد الله بن هشام الأنصاري المصري(ت٧٦١هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمود الهرميل، ١٩٠.

(٦)الكتاب: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر المعروف بسيبويه(ت١٨٠هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ٢٣١/٤.

(٧)فصول في الدلالة_ما بين المعجم والنحو_:د. الأزهر الزناد، ٧١.

ونجد في الآية ١٠١ قوله سبحانه: ((وخلق كل شيء))،وفي ١٠٢ قوله: ((خالق كل شيء)) فكانت الأولى دالة على الماضي، والثانية دالة على الحال والاستقبال فاقتضى ذلك تمام الخلق في الأوقات كلها. ولما كانت الآية ١٠١ في بيان عظمة إبداع السماوات والأرض وما فيهما اقتضى قوله: ((وخلق كل شيء))،بجملة فعلية اقتضت التجدد: فخلقُ الكائنات والأشياء مستمر. وجاءت الجملة اسمية في ((خالق كل شيء)) لأنها في سياق الحديث عن الربوبية وهي دائمة وثابتة: فـ(المقام للتوحيد اللائق للإحاطة بأوصاف الكمال التي هي معنى الحمد المفتتح بها السورة)[١].

وختمت الآية (١٠١) بقوله: ((وهو بكل شيء عليم)) للدلالة على الإحاطة والشمول مرتين، واحدة بـ(كل)، والأخرى، بقوله عليم (أي: على كل شيء قدير ؛لأن شمول العلم يلزمه تمام القدرة)[٢]. فهو سبحانه عارف عالم بما كان وما يكون قبل كونه وبما يكون ولما يكن بعد وقبل أن يكون،لا تخفى عليه خافية في السماء والأرض أحاط علمه بجميع الأشياء باطنها وظاهرها[٣].

وختمت الآية ١٠٢ (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) لأنه تعالى المستحق للوحدانية وتقتضي صفة الوكيل لله تعالى (الذي توكل بالقيام بجميع ما خلق)[٤]،وهو المقيم الكفيل بأرزاق العباد، وهو الحافظ الذي يوكل الناس إليه أمرهم ويسلمون شأنهم بيديه[٥].

وجاءت لفظتا ((عليم)) و((وكيل)) على صيغة المبالغة فهي تعمل على توكيد المعنى وتقويته والمبالغة فيه[٦]، (وقد أدى ذلك إلى مؤاخاة بين المباني والمعاني على هذا النحو من التناسق الفني البديع)[٧].

وفي قوله تعالى: ((هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا قل انتظروا إنا منتظرون)) [١٥٨] يقتضي (بعض) نفي الكل، وهذا يقتضي عدم مجيء آيات الله كلها يوم القيامة؛ لأن من آياته ما تحقق في الدنيا على يد

---

(١) نظم الدرر، ٢١٨/٧.
(٢) م.ن، ٢١٨/٧.
(٣) لسان العرب،٤١٦/١٢.
(٤) تهذيب اللغة، ٣٧١/١٠.
(٥) لسان العرب، ٧٣٤/١١.
(٦)التطبيق الصرفي: د. عبده الراجحي،٧٧.
(٧)الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم _دراسة نظرية تطبيقية، التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة_: د عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي، ٢٣٠.

الأنبياء والرسل وإظهار المعجزات والكتب السماوية.

و(إنَّ بناء الخطاب في النَّظم القرآني على المغايرة الأسلوبية لعناصر الإحالة بين الإضمار والإظهار يمثل جانبا كبيرا في ترابط النص)[1]. ومنه قوله تعالى: ((وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يُفرطون))[٦١] فقد أقام الظاهر بدل المضمر فقال: ((جاء أحدكم الموت)) ولم يقل: جاءكم الموت. وإن احد تقتضي نفي الجميع؛ ويقتضي ذلك تخويف المتلقي من خلال بيان كيف أن الموت لا يأتي جماعياً بل فرديا فالإنسان عندما يواجه الأمور بمفرده ولأول مرة يكون في رهبة وخوف وتوجس فعليه أن يعدَّ العدة لذلك.وما استعارة المجيء للموت وعود الضمير في ((رسلنا)) إلا تأييد لذلك واقتضاء لقوة هذا الإله وعظمته واستحقاقه الألوهية والربوبية.

وقال عز وجل((وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)) الآية [٣٧]. وقال في الآية [١١١] ((وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ)) فيقتضي الأكثر سلب الأقل إلا أنه قال في الأول: (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) وفي الثانية: ((وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ)). ويقتضي ذلك علمهم ببعض الأشياء إلا أنهم يجهلون تماما الملائكة ولا يعلمون كيفية إحياء الموتى وتكليمهم وغير ذلك وأنى لهم هذا وهم في الأساس لا يؤمنون بالله؟.

وفي قوله تعالى: ((قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين)) [١٤٩] تأتي ((أجمعين)) بمعنى كل فتقتضي الإحاطة والشمول فتقتضي كونها وصفا للتوكيد[2].

ولا يقتضي سلب الأقل الأكثر ولا الأقل في قوله تعالى: ((ثمانية أزواجٍ من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل ءآلذكرين حرم أم الأنثيين أمَّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبئوني بعلمٍ إن كنتم صادقين۝ ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل ءآلذكرين حرم أم الأنثيين أمَّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن اظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم إنَّ الله لا يهدي القوم الظالمين)) [١٤٣_١٤٤] فالعدد ثمانية ثابت لايتغير فلا ينقص ولا يزيد بدليل قوله: ((من الضأن اثنين))/((ومن المعز اثنين))/ ((ومن الإبل اثنين)) /((ومن البقر اثنين)) وكذلك قوله: ((قل ءآلذكرين حرم أم الأنثيين))/ ((قل ءآلذكرين حرم أم الأنثيين)).

---

(١)دراسات في اللسانيات العربية المعاصرة: د. عمرو خاطر عبد الغني وهدان، ١٥٥.

(٢)معاني النحو: د. فاضل صالح السامرائي، ١٢٥/٤.

ويوجد نوع آخر من الاقتضاء العام يتعلق بالتنوين[١]: الذي هو نون ساكنة تتبع حركة الآخر[٢] وسنقف عند نوعين من أنواع التنوين في السورة وكما يأتي: أولاً ـ تنوين التمكين: وهو تنوين الأسماء المعربة الذي يجري معها رفعاً ونصباً وجراً وما شاكل ذلك[٣].

إن التنوين يشكل عنصراً صوتيا و ثراء لغوياً؛ إذ يُحدث رنة تؤدي قوة إسماع، حاملة تردداً زمنيا طويلاً[٤]، فيستشف المتلقي بعض المعاني من جراء ما يصاحب الصوت من إيماءات، توحي بمعانٍ زائدة على المعنى الأصلي[٥]، فتقويه وتؤكده، و قد يكشف الصوت أحيانا عن المعنى المراد. مما يقتضي وجود (علاقة واضحة بين الجانب الصوتي الذي يقوم به التنوين في نهاية الاسم)[٦]، والجانب التداولي الذي يفهمه المتلقي، فهو(التنوين) ذو صلة بالمقاطع الصوتية[٧]، وبالنبر والتنغيم، فالنبر: ليس إلا شدة في الصوت أو ارتفاعا فيه، ويؤدي إلى وضوح فيه[٨]، وأما التنغيم: فهو(رفع الصوت وخفضه في أثناء الكلام؛ للدلالة على المعاني المختلفة للجملة الواحدة)[٩]. وعليه فإنَّ النبر والتنغيم السياق كليهما يعدان من القرائن اللفظية أو المقالية، وهما من السياق اللغوي الذي يعين على تحديد دلالة الجملة[١٠].

نزل القرآن الكريم على رسول الله (ﷺ) ومنه إلى قومه ثمَّ إلى الناس كافة، وكان في أول نزوله يتناقله القوم شفاهيا؛ لأن الصوت يكون ذا وقع نفسي يؤدي دوراً تداولياً في التأثير في المتلقي أكثر مما تحمله الكتابة، ولأن التنوين له ما ذُكر من الصفات الصوتية فقد ورد كثيرا في سورة الأنعام فأدى دورا بارزا في إثبات وحدانية الله تعالى

(١) التَّداوليَّة، ٧٢.

(٢)شرح الكافية: محمد بن إبراهيم بن جماعة (ت٧٣٣هـ)، حققه وقدم له وعلق على مسائله وشواهده: محمد عبد النبي عبد المجيد، ٥١٠.

(٣)المهذب الوسيط في النحو: سابق الدين محمد بن علي بن أحمد بن يعيش الصنعاني (ت٦٨٠هـ)، تحقيق: د. فخر صالح سليمان قداره، ٤٠٩.

(٤)من وظائف الصوت اللغوي _محاولة لفهم صرفي ونحوي ودلالي:د. أحمد كشك، ١٧.

(٥)الفنولوجيا وعلاقتها بالنظم في القرآن الكريم: د. محمد رزق شعير، تقديم: د. تمام حسّان، ٧٧.

(٦)التنوين والدلالة_دراسة في ضوء اللسانيات العربية المعاصرة: د. خالد إسماعيل حسان، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، مجلس النشر العلمي، الرسالة ٢٦٥_ح ٢٨ ،سبتمبر، ٢٠٠٧م،، ٣٠.

(٧)من أسرار اللغة: د. إبراهيم أنيس، ٢١٨_٢٢٠.

(٨)الأصوات اللغوية: د. إبراهيم أنيس، ١٥٩، ١٦٢.

(٩)الفُنولوجيا وعلاقتها بالنَّظم في القران الكريم، ٩٣_٩٤.

(١٠)النحو والدلالة _مدخل لدراسة المعنى النحوي –الدلالي-:د. محمد حماسة عبد اللطيف-، ١٥٨، و اللغة العربية معناها ومبناها: أ. د. تمام حسّان، ٢٢٦.

وتبكيت المشركين وغيرهم ممن جاءت السورة لإبطال عقائدهم.

ومن الأمور التي يؤديها التنوين صوتياً، توكيد الحدث الذي جاءت به الآية، فنجد مثلا توكيداً لدلائل عظمة الله تعالى وبيانها، فتؤدي هذه إلى أحقية الملكية له جلّ شأنه والوحدانية لجلاله مبتدئا بالآية (١٧) ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: بما هو أكثر التصاقاً بالإنسان، الضر والخير، فاقتضى تنوينهما شمول قدرة الله تعالى على الإنسان، وقال ((يَمْسَسْكَ)) بدلاً من ((أصابك)) لأن الإصابة تأتي بمعنى القصد والإرادة[1]، فضلا عن أنها كثيراً ما تأتي في القرآن الكريم مع الشدائد والعذاب*، ولأن مَسَكَ: هو ما يشبه السّوار في معصم المرأة[2]، فهو يقتضي إحاطة الله تعالى بكافة جوانب الإنسان وما يتعلق به وهو الأقرب للآية ولاسيما وهي في سياق سورة تتحدث عن عِظَم خلق الله تعالى وكيفية سيطرته على الكون، وقال: ((بضر))ولم يقل: ((بشر)) للإشارة إلى أنّ المراد من الضّر ما هو أعم فكأنه قيل: إن يمسسك بضر وشر وإن يمسسك بنفع وخير فالخير يشمل النفع[3]، فضلا عن أنّ الشّر كثيراً ما استعمل في القرآن مع الكفار*. وقدم الضر على الخير؛ لأنّ الإنسان يدعو الله سبحانه عند الشدائد أكثر من دعوته إياه عند الخير ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس/١٢]* .

ثمّ بدأ بالتدرج بالكليات في توضيح عظمته في قوله: ((وقالوا لولا نُزِّل عليه آية من ربه قل إنّ الله قادرٌ على أن يُنزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون))[٣٧] فاقتضى تنوين ((قادرٌ)) توكيد عموم مقدرته وعدم اقتصارها على تنزيل آيةٍ ولهذا عقبّها بقوله:((وما من دابةٍ في الأرض ولا طائرٍ يطير بجناحيه إلا أممٌ أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثمّ إلى ربهم يُحشرون)) [٣٨] إذ أنكر المشركون البعث والحساب، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية/٢٤] فيقتضي تنوين ((دابةٍ)) و ((طائرٍ)) توكيد شمول الحشر لكل

---

(١) تهذيب اللغة، ١٢/٢٥٣.

* على سبيل المثال الآيات: البقرة/٢٦٤/٢٦٦، آل عمران/١١٧/١٦٥، النساء/٦٢، المائدة/٤٩/١٠٦، التوبة/٥٢/٩٠، هود/٨٩، الرعد/١٣، الزمر/٥١

(٢) تهذيب اللغة، ١٠/٨٦.

(٣) التحرير والتنوير، مج٣/٧/١٦٣.

* على سبيل المثال الآيات: المائدة/٦٠، الأنفال/٢٢/٥٥، مريم/٧٥، الفرقان/٣٤، البينة/٦

* تنظر الآيات: الروم/٣٣، الزمر/٨/٤٩

المخلوقات. وما قوله: ((في الأرض)) إلال (زيادة التعميم والإحاطة، كأنه قيل: وما من دابة قط في جميع الأرضين السبع، وما من طائر قط في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم محفوظة أحوالها.. [للدلالة] على عظم قدرته، ولطف علمه، وسعة سلطانه وتدبيره...)[1].

ثم بدأ جلّ شأنه بتفصيل بعضٍ من عظمته في البرّ والبحر وذلك من خلال التوكيد الذي يقتضيه تنوين: ((ورقةٍ)) /((حبةٍ))/ ((رطبٍ))/ ((يابسٍ)) وذلك في قوله: ((وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقطُ من ورقةٍ إلا يعلمها ولا حبةٍ في ظلماتِ الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلا في كتابٍ مبين)) [٥٩] ونجد تفصيلا أدق في قوله:((وهو الذي أنزل من السماءِ ماءً فأخرجنا به نبات كل شيءٍ فأخرجنا منه خضِراً نخرجُ منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوانٌ دانيةٌ وجناتٍ من أعنابٍ والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابهٍ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إنّ في ذلكم لآياتٍ لقومٍ يؤمنون))[٩٩]. فقوله: ((ومن النخل من طلعها قنوانٌ)) فالقنوان: عرجون التمر وهو للتمر بمنزلة العنقود للعنب[2]، ويقتضي تنوينه الشمول لأنواع التمر المعروفة وأشكالها. وتفصيلا أدق في الطلع فهو: (وعاء عرجون التمر الذي يبدو في أول خروجه يكون كشكل الأترجة العظيمة مغلقا على العرجون، ثمّ ينفتح... فيخرج منه العنقود مجتمعا، ويسمى حينئذٍ الإغريض، ثمّ يصير قنوا)[3]. وتدرجاً أكبر في العظمة الإلهية في قوله: ((حباً متراكب)) أي: ركب بعضه على بعض كالسنبلة[4]. ولا يعني تنوين ((ماءً)) العموم له بل يقتضي تنوينه توكيدا لما ينتج عنه من أنواع النبات المختلفة، حسبما يفصح عنه قوله سبحانه: (وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) [الرعد/٤].

وفي سورة الأنعام أغراض أخرى للتنوين وردت في آيات كثيرة منها ما جاء في قوله تعالى:

في الآية (١٠) ((وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ))

والآية (٣٤) ((وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى

---

(١) الكشاف، ١٨/٢.

(٢): روح المعاني، ٣٠٧/٧/٤. والتحرير والتنوير، ٤٠٠/٧/٣.

(٣) التحرير والتنوير، ٤٠٠/٧/٣.

(٤): الجامع لأحكام القرآن، ٤٠/٧.

أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ))

إذ اقتضى تنوين ((رسل)) في الآيتين التخفيف عنه (ﷺ) وليس مجرد الشمول: لأن الرسل معروفون، فالرسول: (من يأتي بشرع على الابتداء أو بنسخ بعض أحكام شريعة قبله)(١).

ـ في الآيات ((قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتةً قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون)) [٣١] و((فلما نسوا ما ذُكِروا به فتحنا عليهم أبواب كلّ شيء حتّى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مبلسون)) [٤٤] و((قل أرءيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتةً أو جهرةً هل يُهلكُ إلا القوم الظالمون)) [٤٧] اقتضى تنوين ((بغتةً)) توكيد الملكية لله سبحانه فالتعميم فيها حصل في ثلاثة أمور: في الآية (٣١) مجيء الساعة بغتة والآية (٤٤) الموت، والآية (٤٧) العذاب، فمن بيده كل هذه الأمور المستقبلية المجهولة كان لابدّ مستحقاً للتوحيد.

وإن تنوين ((يومٍ عظيمٍ)) اقتضى التخويف والتهويل في قوله: ((قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم)) [١٥].

واقتضى تنوين ((عذابا)) في قوله: ((قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويُذيق بعضكم بأس بعضٍ أنظر كيف نُصرفُ الآيات لعلهم يفقهون)) [٦٥] تذكير القدرة على الانتقام تخويفا للمشركين وتأكيدا لقوله: ((قل من يُنجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكوننَّ من الشاكرين))(٢).

واقتضى تنوين ((ميتاً)) و((نوراً)) و((بخارجٍ)) في الآية(١٢٢) ((أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مَثلُه في الظلمات ليس بخارجٍ منها كذلك زُيّن للكافرين ما كانوا يعملون)) للتنبيه على سوء حال الكفار ولا سيما عندما قرنهم بالموت وقابل الموت بالنور: ذلك لأن الإنسان يمشي في النور، ولا يتوه في الظلمة فقط بل يتوقف ويسكن، وهكذا حال الكافر يبقى قابعا في موته وظلمته.

ويقوم التنوين مقام التعريف إذ (من الممكن في العربية الفصحى أن نعامل الاسم المعرف بأل على أنه نكرة، والعكس في المنون وذلك من خلال العنصر الدلالي

(١)أصول الدين: أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي (ت ٤٢٩هـ)، حققه وعلق عليه: أحمد شمس الدين، ١٧٣.

(٢) التحرير والتنوير،٢٨٣/٧/٣.

والسياق)[١]. فقد يكون في بعض الأسماء علامة التعريف ووسيلته، ولكنه مع ذلك يحكم عليه بأنه نكرة من حيث دلالته، ويعامل معاملة النكرة في الجملة، وهنا يتحكم العنصر الدلالي في العنصر الصوتي المنطوق ويفرض نفسه عليه[٢]. أما في حالة التنوين فيبدو أن التعريف فيه يتضح من خلال السياق، فهناك متكلم ومتلق وعالم خارجي محيط بهما، ولا يجد السامع تعميما في التنوين، فالأداة هنا متضمنة في معنى الكلام، فهي غير ظاهرة لفظيا، فالقصد والخطاب في الكلام مثلا من علامات التعريف في اللغة بغض النظر عن الأداة التي حددها النحاة[٣]. فلو عرف إنسان بأنه مثلك فقيل فيه: قد جاء مثلك، لكان معرفة إذا أردت المعروف بشبهك، والمعرفة والنكرة بمعانيهما، فكل شيء خلص لك بعينه من سائر أمته فهو معرفة[٤]. إذن فالحكم النحوي على الأدوات يتبع من دلالتها لا من صيغتها، وإلا فإن صيغة بعضها واحدة ومعناها يتعدد[٥]. ومن الآيات التي جاء التنوين فيها دالا على التعريف:

- قوله تعالى في الآية (١٩) ((قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ)) يقتضي تنوين (شَهَادَةً) التعريف، فالشهادة حددها السياق بأنها شهادة الله سبحانه، وجاء التنوين لعظم هذه الشهادة.
- كما اقتضى التنوين في (إِلَهٌ) التعظيم في قوله: ((قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ))(٤٦)، أي ليس له غير الله تعالى يأتي بذلك فدل أيضا على (الوحدانية)[٦].
- وقوله في الآية (٥٤) ((وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)) فيقتضي تنوين(سَلَامٌ) الدعاء لأن السلام يوجب القصد فهو قصد فئة معينة بالسلام.

---

(١) التنوين والدلالة،(بحث سابق) ٥٥.

(٢) النحو والدلالة _مدخل لدراسة المعنى النحوي -الدلالي-، ١٩٠، ١٩١.

(٣) التنوين والدلالة،(بحث سابق) ٣٩، ٤٠.

(٤) الحجة في علل القراءات السبع:أبو علي الحسن بن عبد الغفار الفارسي النحوي (ت٣٧٧هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، شارك في تحقيقه: د.أحمد عيسى المصراوي، ٢١٤/١.

(٥) النحو والدلالة، ١٩٠.

(٦) التحرير والتنوير، ٢٣٤/٧/٣.

- ولعجب هذا الخالق وقدرته اقتضى التنوين التعريف في ((نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)) في الآية (٩٨) ((وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ)) لأن النفس التي خلقت منها البشرية كلها واحدة.
- واقتضى تنوين (أَنْعَامٌ) ثلاث مرات بيان فداحة مرتكب الكفار في الآية (١٣٨) ((وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)) لأن الأنعام حددها السياق ((لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا)) وهي التي كان الجاهليون يطلقون عليها أسماء معينة قال تعالى: ((مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)) [المائدة/١٠٣]. وقد كان التنوين للتعميم في (حَمُولَةً وَفَرْشًا) في الآية (١٤٢) ((وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)) لتحليل جميع أنواع الأنعام فكأنما كانت ردا على زعمهم.

ومن وظائف التنوين أيضا الفصل أي: فصل ما قبله عما بعده[(١)]، وذلك نحو قوله: ((هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ)) الآية(٢) : لاختلاف الأجلين: أحدهما الموت، والآخر يوم القيامة وكل منهما له زمانه المحدد.

هناك معان أخرى اقتضاها التنوين في السورة منها عدم تنكير الشمس والقمر وعدم تنوينهما في ((فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربيّ فلما أفل قال لئن لم يهدني ربيّ لأكوننّ من القوم الضالين۝ فلما رأى الشمس بازغةً قال هذا ربيّ هذا أكبر فلما أفلت قال يا قومي إني بريءٌ مما تشركون)) [٧٧_٧٨] لعدم وجود غيرهما. ونون الكوكب في)(فلما جنَّ عليه الّليلُ رأى كوكبا قال هذا ربيّ فلما أفل قال لا أحبُّ الأفلين)([٧٦] لوجود العديد من الكواكب؛ ولأنه تعالى وصف الشمس والقمر بصفتي ((بازغاً)) و ((بازغةً)) وهذا يدل على التدرج العقلي؛ فالكوكب غير منير كإنارتهما فلم يصفه بما وصفهما، والقمر ليس منيرا كالشمس فقال عنها: ((هذا أكبر)) ولم يقل في القمر.

(١) المقتضب: أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، ٢/١٦٥.

ثانيا ـ تنوين العوض[1]: ويكون عوضا عن جملة ولم يرد إلا مرة واحدة في قوله: ((من يصرف عنه يومئذٍ فقد رحمه وذلك الفوز المبين)) [١٦] وعوضا عن مفرد نحو(بعض) في قوله: ((وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ))[١١٢]. وكان الأصل أن يذكر الضميران أي: بعض شياطين الإنس إلى بعض شياطين الجن، ثمّ حذف المفرد؛ وقد يعود سبب ذلك لتساوي الإنس والجن في العداوة، وعوض بالضمير أي: بعضهم إلى بعضهم، وحذف احد الضميرين (تخفيفا)[2].

نأخذ مثلاً الآيات: ((ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داوُد وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين۝ وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كلٌ من الصالحين۝ وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين)) [٨٤-٨٦]

فنجد ورود (كلّ)* في كل آية وعلى النحو الآتي:

وبما أن (كلّ) تقتضي نفي القلة أو ال(بعض)، فإذن كل الأنبياء أو الرسل الذين ذكرتهم الآيات هداهم الله تعالى وليس إسحاق ويعقوب ونوح (عليهم السلام)، فضلا عن داود وسليمان وأيوب ويوسف ويونس وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس ولوط (عليهم السلام) جميعا والأنبياء والرسل الذين لم تذكرهم الآيات، فمن خصائص (كلّ) أيضاً (أنها لا تسمي مدلولها تسمية مباشرة وإنما هي بمثابة الإشارة إليه)[3].

و((كلٌ من الصالحين)) أيضاً تقتضي (كلّ) الأنبياء الذين ذكروا أي السبعة عشر وليس الذين ذكرتهم الآية (٨٥) فحسب.

وبما أنهم هداهم الله تعالى كلّهم، وكلّهم صالحون أيضاً اقتضى ذلك أن يفضلهم جميعاً على العالمين.

ومما يؤكد أن (كلّ) تضم كلّ الأنبياء المذكورين وليس الذين ذكروا في الآية، أنها جاءت منونة في المواضع الثلاثة، والتنوين فيها(عوض عن المضاف إليه)[4] المحذوف،

---

(١)ظاهرة التعويض في العربية وما حُمِل عليها من المسائل:د. عبد الفتاح أحمد الحموز، فقد شرح هذا التنوين بشكل مفصل،٦١_٧٥.

(٢) بدائع الفوائد، ١/١٢٧.

* تناول كتاب أسئلة بيانية في القرآن الكريم: د. فاضل صالح السامرائي هذه الآيات بشكل آخر، ٦٠_٦٦

(٣) فصول في الدلالة، ٦٨.

(٤)المفصّل في صنعة الإعراب:أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٢٨هـ)، حققه وعلق عليه: د.محمد محمد عبد المقصود، د.حسن محمد عبد المقصودن تقديم: أ.د.محمود فهمي حجازي، ٤٦٩.

أي كلّ أولئك المذكورين من إسحاق إلى الأنبياء الذين أتوا بعده، ومفردة (كلّ) تقتضي استغراق ما أُضيفت إليه و((كلٌّ من الصالحين)) أي كلّ هؤلاء المعدودين وهو يشمل جميع المذكورين إسحاق ومن بعده[١].

ولم يقل كلاً هديناه لأن الضمير (الهاء) في هذه الحالة سيعود على ما قبلها، وبذلك ستدل كل على الذين قبلها فقط، وينفي اقتضاؤها للأنبياء جميعهم. وإن تقديم ((كُلاًّ هَدَيْنَا)) أحسن من تأخيرها.لأن التقدير كلّهم، فلو أخرت لباشرت العامل مع أنها مُنزلة مَنزِلة ما لا يُباشره، فلما قُدمت أشبهت المرتفعة بالابتداء في أن كل الأنبياء لم يسبقهم عامل في اللفظ[٢].

وبهذا أدى التنوين معاني وأغراضا في السورة تؤثر في المتلقي سواء بإقناعه أم بتخويفه وغير ذلك والله تعالى أعلم.

إنّ القرآن الجليل يستحوذ على القلوب، فهو ملاذٌ آمن ودفء وشفاءٌ لا ينضب، ومحاولة كشف مراميه جاريةٌ مذ أُنزل وإلى قيام الساعة، والغوص في أغواره لذة، ومحاولة جني قطوفه نوع من السحر، ليس له نهاية، فيه كرّم الله تعالى الإنسان فقال جلّ شأنه: ((فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)) [الحجر/٢٩]، كيف لا وهو كلام الله سبحانه الذي له الجبروت، وهو مالك الملك، وخالق الوجود وإليه تنتهي الأسباب، ولأجل ذلك اشتغل فيه البشر قديما وحديثا بكل جهودهم فهو الأول بين النصوص قراءة وتأويلا وحفظا وتدبرا. وعليه فإنّ عملية التُّواصل-أي تواصل الإنسان معه – ستبقى قائمة لفهم مكنوناته والوصول إلى الخالق المستحق للعبادة والطاعة؛ لذلك كله اخترنا سورة الأنعام وهي واحدة من أطول سوره وأكثرها تركيزا على موضوع العقيدة والألوهية والإيمان ومعرفة الله تعالى من خلال مخلوقاته ودلائل عظمته.

وفي الختام تجدر الإشارة إلى أن الآيات الكريمة التي تناولها التحليل التداولي تؤكد

- الوصول إلى الإله الواحد عن طريق مخلوقاته وذلك بالتفكر والتدبر وليس باتباع ما كان يعبد الآباء وهذا ما فعله إبراهيم عليه السلام مع قومه .
- عودتنا إلى السياق في بعض من تحليلنا في الاقتضاء العام سببه أنّ فلاسفة اللغة جعلوا اللغة العادية بين الناس هي مضمار دراساتهم ، ثمّ سحبت هذه الدراسات فيما بعد إلى تحليل النصوص، ومن ثمّ فالتعامل مع النص يختلف عن التعامل مع الخطابات العادية . فالنصوص ولا

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٤١/٧/٣، ٣٤٣.

(٢) مغني اللبيب، ٣٨٦/١.

سيما الأدبية كثيراً ما تكون غير مباشرة مليئة بالمجاز توحي أكثر مما تقول. قال ابن جني: ((اللغة كلّها مجاز)) ومن هنا جاءت دراستنا للاقتضاء، فالألفاظ تحمل معاني أكثر مما يؤديه اللفظ المكتوب، وغالبا ما تكون هذه المعاني مهمة تسهم في تحديد معنى النص، فضلا عن أنّ الفعل يقتضي فاعلاً والفتحة تقتضي ناصبا وحرف الجر يقتضي مجرورا وغير ذلك وهذا ينطبق أيضا على الصوت والصرف والبلاغة ومواد اللغة الأخرى وعلى ذلك فاللغة كلها اقتضاء.

- وجود الاقتضاء في علوم اللغة العربية بكثرة لثراء هذه اللغة وقدرتها الايحائية العالية.
- يعطي التنوين بعداً صوتياً يضفي على الكلمة اقتضاءات تجعل المتلقي يفكر فيما وراء هذه الكلمة المنونة .

المصادر والمراجع

١. الكتب

- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول: محمد علي بن محمد (ت١٢٥٥هـ)، تحقيق وتعليق: د. شعبان محمد إسماعيل، دار السلام، القاهرة، ط١٩٩٨/١م.
- أسئلة بيانية في القرآن الكريم: د. فاضل صالح السامرائي، مكتبة الصحابة، الإمارات، مكتبة التابعين، القاهرة، ط٢٠٠٨/١م.
- استراتيجيات الخطاب -مقاربة لغوية تداولية- :عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت_لبنان، ط٢٠٠٤/١م.
- الأسس الابستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه: د. ادريس مقبول، جدارة للكتاب العالمي، عمان _ الأردن، عالم الكتب الحديث، إربد_ الأردن، ط٢٠٠٦/١م.
- أسلوب المحاورة في القرآن الكريم: عبد الحليم حفني، الهيئة المصرية العامة، ط١٩٩٥/٣م.
- الأصوات اللغوية: د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢٠٠٧/٤م.
- أصول الدين: أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي (ت ٤٢٩هـ)، حققه وعلق عليه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت_لبنان، ط٢٠٠٢/١م.
- أصول السرخسي: أبو بكر محمد بن أبي سهل السرخسي (ت٤٩٠هـ)، حقق أصوله: أبو الوفاء الأفغاني، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت_لبنان، ط٢٠٠٥/٢.
- الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم_دراسة نظرية تطبيقية، التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة_: د. عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا_بيروت، ط٢٠٠١/١م.
- الاقتضاء: دلالاته وتطبيقاته في أسلوب القرآن الكريم:د.أشواق محمد إسماعيل النجار، دار دجلة،عمان_الأردن، (د.ط)/٢٠٠٧م.
- البحر المحيط: بدر الدين محمد بن بهادر الشافعي الزركشي (ت٧٩٤هـ)، حققه وخرج أحاديثه لجنة من علماء الأزهر، دار الكتب،القاهرة، ط٢٠٠٥/٣م.
- بدائع الفوائد:أبو عبد الله المشتهر بابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، عُني بتصحيحه والتعليق عليه: إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتاب العربي، بيروت_لبنان، (د.ط)/(د.ت).
- بلاغة الخطاب وعلم النص: د. صلاح فضل، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، القاهرة، ط٢٠٠٤/١.
- تأويلات أهل السنة -تفسير الماتريدي: أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي (ت٣٣٣هـ)، تحقيق: د.مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت_لبنان، ط٢٠٠٥/١م.

- التحرير والتنوير: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد:محمد الطاهر ابن عاشور،دار مصر للطباعة، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، (د.ط)/١٩٩٧م.
- التداوليات _علم استعمال اللغة_(مجموعة بحوث): إعداد وتقديم: د. حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد الأردن، ط١/٢٠١١م.:
  - الاستلزام التخاطبي بين البلاغة العربية والتداوليات الحديثة: أحمد المتوكل،٢٩٣_٣٠٥. -بين تداوليات سورل وتفكيكية دريدا: عبد الله بريمي، ٢٦٠_٢٨٩.
  - الفعل اللغوي بين الفلسفة والبلاغة، عرض وتأصيل لمفهوم الفعل اللغوي لدى فلاسفة اللغة ونظرية النحو الوظيفي: يحيى بعيطيش، ٨٩_١٢٣.
  - ما التداوليات: عبد السلام إسماعيلي علوي، ١٧_ ٢٤.
- التّداوليّة: جورج يول، ترجمة: د. قصي العتابي، الدار العربية للعلوم، بيروت_ لبنان، ط١/٢٠١٠م.
- التّداوليّة اليوم_علم جديد في التّواصل_:آن روبول، وجاك موشلار، ترجمة: د.سيف الدين دغفوس، ود.محمد الشيباني، مراجعة: د.لطيف زيتوني، دار الطليعة، بيروت، ط١/٢٠٠٣م.
- التّداوليّة عند العلماء العرب_دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي_:د. مسعود صحراوي، دار الطليعة، بيروت،ط١/٢٠٠٥م.
- التّداوليّة_ من أوستن إلى غوفمان_: فيليب بلانشيه، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار، سورية_ اللاذقية، ط١/٢٠٠٧م.
- الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب:خليل بن ياسر البطاشي، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، ط١/٢٠٠٩م.
- التطبيق الصرفي:د. عبده الراجحي، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ط)/١٩٧٩م.
- تفسير الشعراوي: محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثّقافة، (د.ط)/(د.ت).
- تفسير القرآن الجليل_المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل_:أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (ت٧٠١هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت_لبنان، (د.ط) /(د.ت).
- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: فخرالدين محمد بن عمر الرازي(ت٧٦١هـ)، قدّم له: هاني الحاج، حققه وعلق عليه: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة - مصر، (د.ط)/(د.ت).
- تهذيب اللغة: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت٣٧٠هـ)، مصر(د.ط):
  - الجزء العاشر: تحقيق: علي حسن هلالي، مراجعة: محمد علي النجار،(د.ت).
  - الجزء الحادي عشر: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مراجعة:علي محمد

البجاوي،(د.ت).
- الجزء الثاني عشر: تحقيق:أحمد عبد العليم البراوي، مراجعة علي محمد البجاوي،(د.ت).

- التهذيب الوسيط في النحو: سابق الدين محمد بن علي بن أحمد بن يعيش الصنعاني (ت ٦٨٠هـ)، تحقيق: د.فخر صالح سليمان قداره، دار الجيل، بيروت، ط١/١٩٩١م.
- الجامع الصغير في النحو: جمال الدين بن عبد الله بن هشام الأنصاري المصري(ت٧٦١هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمود الهرميل، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د.ط)/١٩٨٠م.
- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ)، تقديم: هاني الحاج، حققه وخرج أحاديثه: عماد زكي البارودي، وخيري سعيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة_مصر، (د.ط)/(د.ت).
- الحجاج مفهومه ومجالاته_ دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة_ الجزء الرابع: إعداد وتقديم: د. إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط١/٢٠١٠.
- الحجة في علل القراءات السبع: أبو علي الحسن بن عبد الغفار الفارسي النحوي (ت٣٧٧هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، شارك في تحقيقه: د.أحمد عيسى المصراوي، دار الكتب العلمية، بيروت_لبنان، ط١/٢٠٠٧م.
- خصائص الحروف العربية ومعانيها_دراسة_:حسن عباس، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د.ط)/١٩٩٨م.
- دراسات في اللسانيات العربية المعاصرة:د.عمرو خاطر عبد الغني وهدان، مؤسسة حورس الدولية للنشر، الإسكندرية، ط١/٢٠١٠م.
- دلائل الإعجاز في علم المعاني:عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت٤٧٠هـ)، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت_لبنان، ط١/٢٠٠١م.
- ديوان الحماسة: أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (ت٢٣١هـ)، رواية: أبو منصور الجواليقي (ت٥٤٠هـ)، شرحه وعلق عليه: محمد حسين بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٩٩٨م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي (ت١٢٧٠هـ)، تحقيق وتخريج: د. السيد محمد السيد، وسيد إبراهيم عمران، دار الحديث، القاهرة، (د.ط)/٢٠٠٥م.
- شرح الكافية: محمد بن إبراهيم بن جماعة (ت٧٣٣هـ)، حققه وقدم له وعلق على مسائله وشواهده: محمد عبد النبي عبد المجيد، مطبعة دار البيان، مصر، ط١/١٩٨٧م.
- شرح نهج البلاغة الجامع لخطب ورسائل وحكم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب:ابن

أبي الحديد، دار الرشاد الحديثة، (د.م)، (د.ط)/(د.ت).

- شظايا لسانية: أ.د.مجيد الماشطة، دار السياب، لندن، ط١/٢٠٠٨م.
- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها: أبو الحسين أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ)، علق عليه ووضع حواشيه، دار الكتب العمية، بيروت_لبنان، ط٢/ ٢٠٠٧م.
- ظاهرة التعويض في العربية وما حُمِل عليها من المسائل:د. عبد الفتاح أحمد الحموز، دار عمار للنشر، عمّان_الأردن، ط١/١٩٨٧م.
- العالم ومأزقه_منطق الصدام ولغة التداول:علي حرب، المركز الثقافي العربي للنشر، المغرب، بيروت_لبنان، ط١/٢٠٠٢م.
- العقل واللغة والمجتمع_الفلسفة في العالم الواقعي_:جون سيرل، ترجمة: سعيد الغانمي، منشورات الاختلاف، الجزائر، المركز الثقافي العربي، المغرب، الدار العربية للعلوم، بيروت_لبنان، ط١/٢٠٠٦م.
- علاقات الحضور والغياب في شعرية النص الأدبي _ مقاربات نقدية_: د. سمير الخليل، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد _ العراق، ط١/٢٠٠٨م.
- عندما نتواصل نغير_مقاربة تداولية معرفية لآليات التّواصل والحجاج_:د.عبد السلام عشير، أفريقيا الشرق، المغرب، (د.ط)/٢٠٠٦م.
- علم التخاطب الاسلامي _دراسة لمناهج علماء الأصول في فهم النص_: د. محمد محمد يونس علي، دار المدار الاسلامي ن بيروت_لبنان ط١/٢٠٠٦م
- علم لغة النص _ المفاهيم والاتجاهات _: أ.د. سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، مطبعة مؤسسة المختار الأولى، القاهرة، (د.ط)، ٢٠٠٤م.
- الفروق في اللغة: أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت٣٩٥هـ)، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٣/١٩٧٩م.
- فصول في الدلالة_ما بين المعجم والنحو_:د. الأزهر الزناد، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت_لبنان، دار محمد علي للنشر، تونس، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١/٢٠١٠م.
- الفلسفة والبلاغة _ مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي_: د. عمارة ناصر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت _ لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر،ط١/ ٢٠٠٩م.
- الفنولوجيا وعلاقتها بالنظم في القرآن الكريم: د. محمد رزق شعير، تقديم: د. تمام حسّان، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١/٢٠٠٨م.
- في ظلال القرآن: سيد قطب، دار إحياء التراث العربي، بيروت_لبنان، ط٧/١٩٧١م.
- في النّقد الأدبي: د. صلاح فضل، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د.ط)/٢٠٠٧م.
- القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت٨١٧هـ)،دار العلم للجميع،بيروت، (د.ط)، (د.ت).

- الكتاب: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر المعروف بسيبويه(ت١٨٠هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، عالم الكتب، بيروت، (د.ط)/(د.ت).
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل:أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٢٨هـ)، ضبط وتوثيق: أبو عبد الله الداني بن منير آل زهوي، دار الكتاب العربي، بيروت_لبنان، ط١/٢٠٠٦م.
- الكليات _معجم في المصطلحات والفروق اللغوية_:أبو البقاء أيوب الكفوي (ت١٠٩٤هـ)، تحقيق: د.عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، دمشق_ سورية، ط٢/٢٠١١م.
- لسان العرب: جمال الدين محمد بن منظور(ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط٣/١٩٩٤/.
- لسانيات الخطاب وأنساق الثّقافة_فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثّقافة:د.عبد الفتاح أحمد يوسف، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت_لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١/٢٠١٠م.
- لسانيات النص _مدخل إلى انسجام الخطاب_:محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط٢/٢٠٠٦م.
- اللغة العربية معناها ومبناها:أ.د. تمام حسّان، عالم الكتب، القاهرة، ط٥/٢٠٠٦م.
- ما لا تؤديه الصفة_ المقتربات اللسانية والأسلوبية والشعرية_:حاتم الصكر، دار كتابات، بيروت_لبنان، ط١/١٩٩٣م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز:أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت٥٤٦هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢/٢٠٠٧م.
- مدخل إلى اللسانيات: د. محمد محمد يونس علي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت_ لبنان، ط١/٢٠٠٤م.
- مشكلة العامل النحوي ونظرية الاقتضاء: د. فخر الدين قباوة، سلسلة بحوث ودراسات في علوم اللغة والأدب(٥)، المطبعة العلمية، دار الفكر، دمشق، ط١/٢٠٠٣م.
- المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب: دومينيك مانغونو، ترجمة: محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، الجزائر، مطابع الدار العربية للعلوم بيروت ط١/٢٠٠٨م.
- معاني القرآن وإعرابه: أبو إسحاق الزجاج (ت٣١١هـ)، شرح وتحقيق: د. عبد الجليل عبده شلبي، خرج أحاديثه: علي جمال الدين محمد، دار الحديث، القاهرة، (د.ط)، ٢٠٠٤م.
- معاني النحو: د. فاضل صالح السامرائي، شركة العاتك، القاهرة، ط٢/٢٠٠٣م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: جمال الدين عبد الله بن يوسف بن أحمد بن هشام الأنصاري (ت٧٦١هـ)، قدّم له ووضع حواشيه وفهارسه: حسن حمد، أشرف

عليه وراجعه: د.إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت_لبنان، ط١/١٩٩٨م.

- المفصّل في صنعة الإعراب: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٢٨هـ)، حققه وعلق عليه: د.محمد محمد عبد المقصود، د.حسن محمد عبد المقصودن تقديم: أ.د.محمود فهمي حجازي، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١/٢٠٠١م.
- المفصل في علم العربية: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٢٨هـ)، وبذيله كتاب المفصل في شرح أبيات المفصل: السيد النعساني، المكتبة العصرية، صيدا_بيروت، ط١/٢٠٠٦م.
- المقاربة التّداوليّة: فرانسواز أرمينكو، ترجمة: د. سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، (د.م)، (د.ط)/(د.ت).
- المقاييس الأسلوبية في الدراسات القرآنية:د.جمال حضري، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت_لبنان، ط١/٢٠١٠م.
- المقتَضَب:أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، وزارة الأوقاف، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مطابع الأهرام، القاهرة_مصر، (د.ط)/٢٠١٠م.
- الملل والنحل: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت٥٤٨هـ)، صححه وعلق عليه: أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت_لبنان، ط٨/٢٠٠٩م.
- من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم _الفاء وثم_:د.محمد الأمين الخضري، مكتبة وهبة، القاهرة ط٢/٢٠٠٧م.
- من أسرار اللغة: د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصريةن القاهرة، ط٨/٢٠٠٣م.
- منازل الرؤية_ منهج تكاملي في قراءة النص_: د.سمير شريف أستيتية، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان_الأردن، ط١/٢٠٠٣م.
- من بلاغة القرآن: أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر، الفجالة - القاهرة، (د.ط)/١٩٥٠م.
- من قضايا الفكر اللساني_ في النحو والدلالة واللسانية_:صابر الحباشة، دارصفحات للدراسات والنشر، سورية_دمشق، الإصدار الأول/٢٠٠٩م.
- المنهل: سهيل ادريس، ود. جبور النّور، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤/١٩٧٧م.
- من وظائف الصوت اللغوي_محاولة لفهم صرفي ونحوي ودلالي_:د. أحمد كشك، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ط١/٢٠٠٧م.
- النحو والدلالة_مدخل لدراسة المعنى النحوي -الدلالي-_:د. محمد حماسة عبد اللطيف، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ط)/٢٠٠٦م.
- النص والسياق _استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي_: فان دايك: ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، بيروت لبنان، (د.ط)/٢٠٠٠م.

- نظرية الفعل الكلامي-بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي والإسلامي: هشام إ. عبد الله الخليفة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت لبنان، ط١/٢٠٠٧م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت٨٨٥هـ)، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١/١٩٧٣م.
- وصف اللغة العربية دلاليا في ضوء مفهوم الدلالة المركزية -دراسة حول المعنى وظلال المعنى-: محمد محمد يونس علي، منشورات جامعة الفاتح،ليبيا، (د.ط)/(د.ت).
- الوظائف التداولية في اللغة العربية: د. أحمد المتوكل، دار الثقافة للنشر والتوزيع، المغرب، ط١/١٩٨٥م.

٢. **الرسائل والأطاريح:**

- أسماء الإشارة في القرآن الكريم: عمر محمد عوني، أطروحة دكتوراه، بإشراف: أ.د. عبد الوهاب العدواني، كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠٣م.

٣. **البحوث المنشورة في الدوريات:**

- الاقتضاء في التداول اللساني: عادل فاخوري، مجلة عالم الفكر، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر، مج٢٠، ٣/١٩٨٩م.
- التّداوليّة محاولة لضبط الدرس اللساني تجريبياً: فالح حسن، مجلة الأقلام، عدد خاص عن التّداوليّة، أيلول/تشرين الأول، ٢٠٠٨/٥م.
- التّداوليّة... النشأة والمفهوم: مؤيد عبيد، مجلة الأقلام عدد خاص عن التّداوليّة، أيلول/تشرين الأول، ٢٠٠٨/٥م.
- التنوين والدلالة_دراسة في ضوء اللسانيات العربية المعاصرة: د. خالد إسماعيل حسان، حوليات الآداب والعلوم الإجتماعية، جامعة الكويت، مجلس النشر العلمي، الرسالة ٢٦٥_الحولية ٢٨،سبتمبر، ٢٠٠٧م.
- في التّداوليّة. إشكالية المصطلح بين المفهوم والترجمة والتعريب: د. عيد بليع، مجلة الأقلام، عدد خاص عن التّداوليّة، أيلول / تشرين الأول، ٢٠٠٨/٥م.

٤. **البحوث المنشورة على شبكة الانترنيت:**

- الألفاظ الكلامية والاستلزام الحواري بين القدماء والمحدثين: د. نادية رمضان النجار *www.dr.nasioramadon.9f.com*

سلسلة دراسات محكمة في اللغة والأدب والنقد
تصدر عن مؤسسة السياب للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة - لندن

التداولية

في البحث اللغوي والنقدي

كانت اللغة وما تزال موضع اهتمام الباحثين منذ وعى الإنسان أهميتها في تشكيل مفردات حياته الخاصة والعامة. كونها الطريقة المثلى والأكثر إفصاحا والأرقى درجة في سلم العمليات الذهنية وفي تشكيل أي حدث تخاطبي قادر على انجاز فعل يتسم بكفاءة التواصل المطلوب. فقد شغلت اللغة الإنسان في أصلها وطبيعتها أهي نظام ترميزي يشتغل على بنية صورية حسب أم هي بنية ذات طبيعة وظيفية لها علاقات وثيقة بجوانب الحياة المعرفية كافة. ذلك أن طبيعة اشتغال اللغة يعد أمرا معقدا. كونه يعمل على تحويل المجرد من الفكر والمشاعر الى مادي محسوس عبر الجمل والأصوات التي تحتوي ذلك الفكر وتلك المشاعر ملفوظة أو منطوقة. مما يجعلها غير قابلة للاختزال في منظومة إشارية. ويجعل من التواصل بها ومعها بحاجة لمؤثرات غير اللغوي مما يتسع في حقل العمليات الاستدلالية التي يحتاجها الفهم. فالبحث عن المعنى لا يقتصر على الانتاج والتأويل في البنية اللغوية المجردة كما فعلت البنيوية وما حولها من لسانيات حسب. لأن ذلك لن يتيح لعملية الفهم أن تستكمل مداها إلا من خلال سياق تتضافر فيه عوامل غير لسانية وتلعب فيه استراتيجية المؤول ومن يخاطبهم دورا في تحقيق هدف الحدث اللغوي الكامل. معتمدا في ذلك على تفاعل حيوي للمعارف المشتركة والظروف التي تكتنف المرسل والمخاطبين معا من خلال دراسة مجمل الأحوال التي تتعلق بعملية الانجاز اللغوية، السياقية والمقامية بكل ما تتضمنه مفردتا السياق والمقام من إشتباكات زمانية ومكانية ونفسية وايديولوجية ومن ظروف خاصة وعامة يمكن لها أن تحيط بعملية التواصل

ISBN: 978-1-